منتدى مكتبة الاسكندرية

الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة

١ الحرب الخاطفة

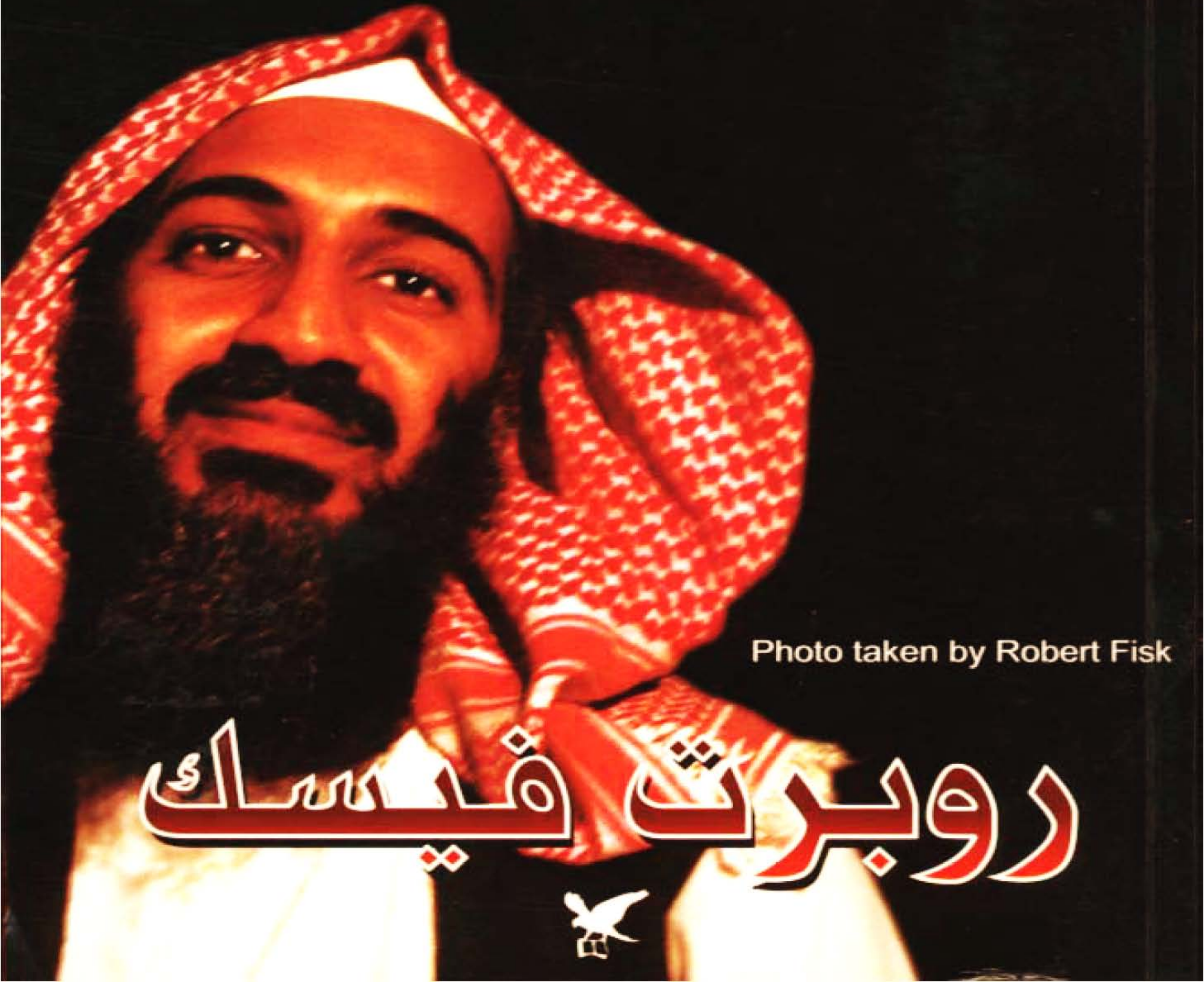

Photo taken by Robert Fisk

روبرت فيسك

الحرب الكبرى

تحت ذريعة الحضارة

(الحرب الخاطفة)

روبرت فيسك

الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة

الحرب الخاطفة

المجلّد الأول

ترجمة: عاطف المولى وآخرون

تدقيق لغوي: صالح الأشمر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

حقوق الطبع محفوظة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ١ ٩٦١ +
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١ +
e-mail: tradebooks@all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

تصميم الغلاف: فؤاد رسامني

الإخـراج الفنـي: بسمة التقي

إهـــداء

إلى بيل وپيغي

اللذين علّماني أن أحب الكتب والتاريخ

المحتويات

كلمة شكر ٩

فهرس الخرائط ١٥

مقدّمة ١٩

الفصل الأول: «راود أحد إخواننا حلم. . .» ٣١

الفصل الثاني: «إنهم يطلقون النار على الروس» ٨١

الفصل الثالث: جوقات قندهار ١٣٩

الفصل الرابع: حائكو السجّاد ١٧٣

الفصل الخامس: الطريق إلى الحرب ٢٤٧

الفصل السادس: الحرب الخاطفة ٣٠٩

الفصل السابع: «الحرب ضدّ الحرب»، والقطار السريع إلى الجنَّة ٣٧١

الفصل الثامن: تجرُّع كأس السمّ ٤٣٩

كلمة شكر

في كتاب بهذا الحجم ـ يغطّي سنوات عديدة من العمل الصحفي ـ يُعتبر القرار حول مَن يجب شكرهم صعب التقدير. مع ذلك، قرّرت أنه يجب الإعراب عن الشكر للذين ساعدوني بشكل مباشر في ما ورد في هذا الكتاب خلال السنوات الخمس عشرة الماضية ـ وهذه هي غالبية الأسماء المدوّنة هنا بمن في ذلك، على سبيل المثال، ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، والسيد حسن نصرالله، زعيم حزب الله اللبناني، وميخائيل كلاشينكوف، مخترع أشهر سلاح أوتوماتيكي عالمي ـ وأقلّية ساهمت مساعدتها في التقارير الأخيرة لهذا الكتاب قبل اتّخاذ القرار النهائي بتأليفه. وجوبهت أيضاً بواقع أن أسماء الذين ساعدوني مباشرة في كتاب «الحرب الكبرى من أجل الحضارة» تضمّنت الجيّد والسيّئ والقبيح. فهل بمقدوري مثلاً وضع والد انتحاري بمصفّ ناشط إنساني غربي، أو بطل عراقي خضع للتعذيب نتيجة مقاومته لطموحات صدّام حسين النووية في المنزلة نفسها مع رجل أعطى صديقته الحامل البريئة قنبلة لنقلها إلى طائرة مدنية؟ وهل يجب وضع الراحلة مارغريت حسن التي اغتيلت بشكل بشع في العراق في الصفحة نفسها مع وزير داخلية جزائري مُبيد للبشر؟

ويُعتبر أُسامة بن لادن المثل الأكثر تطرّفاً لهذه المشكلة. فخلال المقابلتين الأخيرتين معه علم أنني كنت أكتب هذا الكتاب وتحدّث بوضوح وفق تلك المعرفة. فهل يجدر تكريم رجل اعتُبر مسؤولاً عن أكبر جريمة دولية ضدّ الإنسانية في الغرب بمقدّمة؟ الواقع أن تعليقاته وأفكاره كانت مهمّة بالنسبة إلى أجزاء من الكتاب، لذا رأيت أن أسجّل له ذلك؛ إلّا أنّ اسمه لا يظهر في لائحة الأسماء اللاحقة.

بالتالي، أورد في ما يلي بالتسلسل الأبجدي أسماء الذين يجب شكرهم لدعمهم وحماستهم وصراحتهم خلال الخمس عشرة سنة الماضية وقبلها. ولإرشاد القارئ، أوردت أسماء بعضهم مع ذكر ألقابهم أو موقعهم المميّز في المساعدة. وسوف يدرك آخرون أنني أوجّه إليهم الشكر بصفة شخصيّة:

جون أبلت، من المجلس التمثيلي الأرمني في أميركا. ريم أبو العبّاس. أستريد أغاجانيان، ناجية من المجزرة الأرمنية عام ١٩١٥. شوجا أحمد أفند، جندي إيراني عام ١٩٨٤. روبرت. أ. ألغاروتي، مدير اتصالات في وحدة الأنظمة الصاروخية في شركة «بوينغ أُتونَتِكس» Boeing Autonetics. الدكتور جواد العلي، طبيب أطفال في البصرة. دوروثي أندرسون، للدلالة على ملاحظات اللورد روبرت عام ١٩٠٥ حول أفغانستان. نمر عون، جريح ناجٍ من احتلال فلسطين عام ١٩٤٨. الراحل ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية. حنان عشراوي، من السلطة الفلسطينية. تيم أوستن، النائب السابق لرئيس تحرير الشؤون الدولية في التايمز. الراحل شهبور بختيار، آخر رئيس وزراء للشاه. بيتر بلاكيان، من جامعة «كولغَيت» Colgate. صديق برماكد، مخرج سينمائي أفغاني. الدكتور أنطوني بارتر، بالنسبة إلى رسائل والده حول العراق والأرمن في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. زاووي بنامادي من «ألجيري أكتواليتي» Algérie Actualité. زكا بربريان، ناجٍ من مجزرة الأرمن. شاميم باتيا. محمد بويعلي، شقيق قائد الثوار مصطفى بويعلي. الأخضر الإبراهيمي. روس كامبل، بالنسبة إلى المخطوطات حول تقارير «سكوتسمان» Scotsman في نهاية الانتداب البريطاني لفلسطين. بيار كاكيت. الملازم ساندي كافيناغ من الفرقة الثالثة، وحدة المظليين عام ١٩٥٦. مصطفى سيريك، إمام من البوسنة. هيلين سركسيان بالنسبة إلى مذكّرات والدها الأرمني. كونور أوكليري، من صحيفة الأيريش تايمز. طوني كلينتون، من النيوزويك. باتريك كوكبرن، من الإندبندنت. الجندي الاحتياطي تيم كوروين، قائد طائرة شينوك في كردستان عام ١٩٩١. الراحل فُريد كوني، موظف إغاثة أميركي. جيانيك دامي، من الصليب الأحمر الدولي في الكويت عام ١٩٩١. نورمان ديفيس، بالنسبة إلى تحليله لمراجع هتلر حول المحرقة (الهولوكست) الأرمنيّة. الدكتور جون دي كورسي إيرلند، بالنسبة إلى مذكّراته حول الأيتام الأرمن. الدكتور نديم دمشقيه، دبلوماسي لبناني سابق. ليونارد دويل، رئيس تحرير سابق للإندبندنت. إيمون دانفي، من الإذاعة الإيرلندية. إيان. ر. إدغار، من جامعة درهام. القاضي دايفيد أ. و. إدوارد، بشأن نسخته المتعلّقة بمحاضرة جايمس برايس عام ١٩٢٢، حول الحرب الكبرى وأرمينيا. إيزابيل

إلسين. صائب عريقات، من السلطة الفلسطينية. جوان فرشخ. بيل وبيغي فيسك، والداي الراحلان. اللواء الأميركي جاي غارنر، قائد القوّات الأميركية في كردستان عام ١٩٩١. سمير غطّاس، مدير مكتب الأسوشيتدبرس في بيروت حالياً. بسّام وسنيّة غُصين، اللذان قُتلت ابنتهما في القصف على ليبيا. الدكتور ستيفن غولدلي، من مكتب الشؤون الخارجية الخاصّ بعقوبات الأمم المتحدة. تيري غوردي، من مجموعة «بوينغ» Boeing للدفاع وشؤون الفضاء (وحدة الأنظمة الصاروخية والفضائية). بن غرينبرغ، مستوطن يهودي في الضفّة الغربية. الدكتورة سلمى حدّاد، طبيبة أطفال في بغداد. دنيس هاليداي، رئيس برنامج الأمم المتحدة للنفط مقابل الغذاء، ١٩٩٧. مولانا سامي الحقّ، من مدرسة الحقّ الدينية في باكستان. أميرة هاس، من هآرتس. الراحلة مارغريت حسن، من منظمة «كَير» Care في العراق. الدكتور ميرسي هيتلي. فيليب هيفينيك، من اليونيسيف، بغداد، ١٩٧٧. محمّد حسنين هيكل، صحفي ومؤلّف مصري. غافين هويت من البي بي سي BBC. سو هيكاي، من تلفزيون السي بي سي CBC الكندي سابقاً، لندن. نزار هنداوي، بالنسبة إلى محاولته غير المقنعة لتفسير سبب إعطائه صديقته الحامل قنبلة لنقلها على متن طائرة العال. مارجوري هوسيبيان. شفيق الحوت وزوجته بيان. جوستين هاغلير، من الإندبندنت. جون هيرست، نائب رئيس لوكهيد مارتن. العاهل الأردني الراحل الملك حسين. عليا الحُسيني، حفيدة الحاجّ أمين الحُسيني مفتي القدس الأسبق. نادين العيسى، بالنسبة إلى نسختها حول Paice & Martin Palestine Police Report (وشكر أيضاً لبيتر ميتكالف). عبّاس جحا، الذي فقد العديد من أفراد عائلته بهجوم المروحية الإسرائيلية في لبنان عام ١٩٩٦. ميخائيل كلاشينكوف، مخترع بندقية AK-47 السوفياتية. ميريني كالوستيان، ناجية من مجازر الأرمن عام ١٩١٥. الراحل واصف كمال، المساعد السابق للحاجّ أمين الحُسيني إبّان ألمانيا النازية. آل كمحي، مدير لوكهيد للاتصالات عام ١٩٩٧. مروان كنفاني، من السلطة الفلسطينية. كيفورك كارابويادجيان، مدير بيت المسنّين الأرمن في بيروت. فيكتوريا كاراكاشيان، ناجية من الفارّين الأرمن في

الإسكندرونة. جمال خاشقجي، مساعد السفير السعودي في لندن. هاروتيان كبدجيان، ناجٍ من المجزرة الأرمنية. أندرو كيفوركيان، من أجل مساعدته القيّمة في الحصول على معلومات المجزرة الأرمنية، وشقيقه الراحل آرام بالنسبة إلى المذكّرات حول زيارته لمنزل أجداده في تركيا. زينب كاظم، بالنسبة إلى رسالتها حول التشيّع. الشيخ جواد مهدي الخالصي، لمساعدته التاريخية حول الحكم البريطاني للعراق. هيلين كينسلّا، مديرة الشؤون الدولية في الإندبندنت بالنسبة إلى بحثها الدؤوب. زينة كرم، من الأسوشيتدبرس. جوزف ليبوويتز. جورج لوينسكي، من السي بي سي سابقاً، لندن. ميخائيل ليندفال، ضابط اليونيفيل في جنوب لبنان. الدكتور ديفيد لوينشتين، من جامعة مديسون، وسكنسون. السيدة هيلدا مادوك، بالنسبة إلى المعلومات حول والدها المجنّد تشارلز ديكنز عام ١٩١٧. الدكتورة غريس ماغنير، من قسم الدراسات الإسبانية، كلّية ترينتي Trinity College، دبلن، بالنسبة إلى بحثها حول الأندلس. الراحل علي محمود، مدير مكتب الأسوشيتدبرس في البحرين. الجنرال منصور، قائد جهاز المخابرات العسكري السوري في القامشلي. لارا مالرو، من صحيفة الأيريش تايمز. نبيلة مغالي، من الأسوشيتدبرس سابقاً في البحرين. آلف مانديز. جيرهارد ميرتنز، تاجر سلاح ألماني. بيتر ميتكالف. عبد الرحمن المزيني شريف، وزير الداخلية الجزائري الأسبق. توفيق وفيليبا ميشلاوي من مراسل الشرق الأوسط Middle East Reporter في بيروت. الجنرال السابق (المتقاعد) محمّد عبد المنعم، من صحيفة الأهرام. جودي مورغان، من منظمة «كَير» Care في العراق. هارفي موريس، من رويترز، والإندبندنت وحالياً من الفايننشال تايمز. فتحي داود موفاك، مصوّر عسكري عراقي في الحرب العراقية ـ الإيرانية. الرائد مصطفى مراد، من الجيش المصري عام ١٩٥٦. أنيس نقّاش، بالنسبة إلى مذكّراته حول الثورة الإيرانية، وزوجته بتول في ما يتعلّق بالترجمات المرتبطة بشعر الحرب الإيرانية. الحاجّ محمد نصر، والد الانتحاري الفلسطيني من جنين. السيّد حسن نصرالله، زعيم حزب الله اللبناني. سهيل ناطور، من الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين. غيوم نيكولز، بالنسبة إلى لفت انتباهي إلى خطبة جورج لويد عام

١٩٣٦ حول فلسطين. نوّاف عبيد، الذي كانت أطروحته في هارفرد حول أهداف الوهّابيين السعوديين قيّمة جدّاً. محمّد مهران عثمان، مقاتل مصري أعمى، عام ١٩٥٦. الراحل سربوهي بابازيان، ناجٍ من المجزرة الأرمنية. المخرج السينمائي نلومز بازيرا. الراحل عبد العزيزِ الرنتيسي، من حماس. زميلي فيل ريفيس، من الإندبندنت والعامل حالياً في الإذاعة الوطنية العامّة. الحاخام والتر روتشيلد، بالنسبة إلى معلوماته حول السكك الحديدية اللبنانية. مارتن روبنشتاين، الذي لفت انتباهي إلى مرجع حول المجزرة الأرمنية «الطريق إلى أندرو». مُجتبى صفوي، أسير حرب إيراني سابق. حيدر الصافي، من بغداد. المفكّر الفلسطيني المشهور الراحل إدوار سعيد وشقيقته الكاتبة جين مقدسي لمساعدتهما واقتراحاتهما طيلة سنوات عديدة. محمّد سلام، مدير الأسوشيتدبرس السابق في بغداد. الدكتور كمال الصليبي، المدير السابق لمركز دراسات «إنترفَيث» Interfaith في عمّان. محمّد سلمان، وزير إعلام سوري أسبق. فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري. عبد الهادي صيّاح، صديق مصطفى بويعلي. مارتن سكانال، بالنسبة إلى سماحه بالاستشهاد بكتاب كينيث وايتهيد «العراق الذي لا شفاء له» Iraq the Irremediable. كليف سيمبل. الدكتور حسين الشهرستاني، كبير مستشاري صدّام حسين في الشؤون النوويّة. دون شيريدان. المجنّد أندرو شوميكر، من وحدة المشاة المدرّعة الأميركية الرابعة والعشرين في حرب الخليج عام ١٩٩١. المؤرّخ الإسرائيلي آفي شليم. أميرة الصلح. هانز فون سبونيك، الذي خلف هاليدي في مكتب الأمم المتحدة للخدمات الإنسانية في بغداد عام ١٩٩٩. إيفا شتيرن، من نيويورك من أجل بحثها الدؤوب عن الحقيقة حول مجزرة صبرا وشاتيلا. فرجين سفازليان، من أجل نسختها حول أغاني الناجين من المجزرة الأرمنية. المحامي محمّد الطاهري، محامٍ جزائري في حقوق الإنسان. المونسنيور هنري تيسيه، أسقف الجزائر. ألكس تومسون، من الـ «آي تي في» ITV. الدكتور حسن الترابي، من الخرطوم. ديريك تورنبول، من «ڤيكَس» Vickess. كارستين تفيت، من الإذاعة النرويجية. كريستوفر ج. والكر، لمعلوماته حول كل الأمور الأرمنية. جهاد الوزير. غاري وليمسون، من مجموعة بوينغ Boeing للدفاع والفضاء. الراحل

كريستوفر مونتي وودهاوس، عميل سابق في منظمة Special Operations Executive في اليونان وعميل بريطاني في إيران. ديدي زوكر، عضو في الكنيست الإسرائيلي. ويجب عليّ أيضاً تقديم الشكر إلى سيمون كلنر، رئيس تحرير الإندبندنت الذي شجّعني على كتابة هذا الكتاب في الفترة ما بين وجودي في العراق ولبنان ولتغاضيه عن غيابي الطويل عن الصحيفة ولسماحه لي بالاقتباس من مقالاتي في الصحيفة طيلة ستة عشر عاماً. كما أشكر صحيفة التايمز اللندنية التي عملت لديها مراسلاً في الشرق الأوسط بين ١٩٧٦ و١٩٨٨، وصحيفة الأيريش تايمز ومركز London Review of Books وصحيفة «النايشِن» The Nation في نيويورك لسماحهما لي باقتباس مقالات لي ظهرت في صحفهم، وتلفزيون السي بي سي CBC الكندي في تورنتو فيما يتعلّق بتسجيلاتي منذ الاحتلال السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٨٠ والحرب العراقية الإيرانية. والشكر أيضاً لمراقب المكتبة الملكية المكلّف بالأرشيف الوطني لمستندات الحكومة البريطانية (Kew). وشكر خاصّ إلى لويز هاينز، رئيس التحرير في «فْراوث إستَيت» Frowth Estate لاهتمامها الأكاديمي الواسع في إثراء هذا الكتاب طيلة ستة عشر عاماً، وإلى ستيف كوكس، رئيس التحرير الأكثر مثابرة في العالم. وأخيراً، أقدّم تقديري للدكتورة فيكتوريا فونتين التي دوّنت التواريخ والمراجع وقامت بتنظيم أرشيف لمستنداتي وملاحظاتي وتقاريري بصبر. وحتماً، هناك العديد من الذين أدين لهم بالشكر ولكن لا يمكن ذكرهم حفاظاً على سلامتهم المعرّضة للخطر من أعدائهم أو من حكوماتهم. ومن هؤلاء أشخاص عاملون ومتقاعدون في القوّات المسلّحة المصرية، والفرنسية، والإيرانية، والعراقية (بمن فيهم نائب رئيس أركان القوّات الجوّية واثنان من طيّاريه)، والأردنية والإسرائيلية، واللبنانية، والفلسطينية، والسورية، والتركية، والبريطانية، والأميركية. وبالطبع أضيف التحذير المعتاد للكاتب: لا أحد ممّن وردت أسماؤهم أعلاه مسؤول عن أي أخطاء أو وجهات نظر معبّر عنها في «الحرب الكبرى من أجل الحضارة».

فهرس الخرائط

- خريطة الشرق الأوسط .... ١٦ ـ ١٧
- أفغانستان ٨٢
- إيران ١٧٤
- العراق ٢٤٨
- اتفاقية سايكس ـ بيكو ٢٥٢
- الحرب الإيرانية ـ العراقية ٣١٠

تركمنستان
ش
مشهد
طهران
أفغانستان
كابول
لندي كوتال
بشاور
ممر خيبر
اسلام اباد
إيران
قندهار
كرمان
شيراز
لاهور
باكستان
دلهي
السند (هندوس)
مضيق هرمز
الشارقة
دبي
خليج عُمان
كاراتشي
الهند
الإمارات العربية المتحدة
عُمان
المحيط الهندي
١٠٠٠ كم

تركيـــــا
كريت
قبرص
سوريـــا
لبنان
بيروت
البحر المتوسط
العـراق
إسرائيل
القدس
الإسكندرية
غزة
الأردن
النجف
الناصرية
الضفة الغربية
المحتلة
القاهرة
النيل
مصـــــر
المدينة
المنورة
البحر الأحمر
جدة
مكة
المكرمة
السعودية
بورسودان
الخرطوم
اريتريا
السـودان

مقدّمة

عندما كنتُ صبيّاً صغيراً، كان أبي يأخذني معه كل سنة لزيارة ميادين المعارك التي شهدَت الحرب العالمية الأولى، ذلك النزاع الذي سمّاه «هـ.ج. ويلز» (H.G.Wells) «الحرب التي ستُنهي كل الحروب». كنا ننطلق كل صيف في سيّارتنا «الأوستن» الإنكليزية، ونجوب الطرق في ميادين تلك المعارك بحفرها وعفرِها: من معركة «صوم، Somme»، ومعركة «إيپر، Ypres»، إلى معركة «ڤردان، Verdun». وعندما ناهزتُ الرابعة عشرة من العمر، أصبح بوسعي أن أسرد أسماء مواقع الهجوم كافّة: من «باپوم، Bapaume»، وتلّة ٦٠، والغاب العالي، إلى «پاسشاندال، Passchendaele»... لقد رأيتُ جميع المقابر، وتجوّلت عبر جميع الخنادق التي كساها العشب، ولمستُ الخُوَذَ الصَّدِئة التي خلّفها الجنود البريطانيون، ومدافع الهاون الألمانية المتآكلة في المتاحف البالية. كان والدي جندياً في تلك «الحرب الكبرى»، مقاتلاً في خنادق فرنسا، بسبب رصاصة أُطلقت في مدينة لم يسمع بها أبداً تُسمّى «سراييفو». وعندما مات منذ ثلاث عشرة سنة عن عمر الثالثة والتسعين، ورثت منه الأوسمة والمداليات التي نالها في خدمته العسكرية. وتصوِّر إحداها نسراً مجنَّحاً، وعلى وجهها حُفرت الكلمات التالية: «الحرب الكبرى من أجل الحضارة»، (The Great War for Civilization).

لقد أمضيتُ قسماً كبيراً من حياتي في الحروب، نظراً إلى الانشغال العميق الذي أبداه والدي بهذا الأمر، وصبر والدتي عليه. والمفروض أن تكون كل الحروب قد خيضت «من أجل الحضارة». ففي أفغانستان، لاحظتُ أن الروس كانوا يحاربون من أجل «واجبهم الدولي» في نزاع ضدّ «الإرهاب الدولي»، بينما كان خصومهم الأفغان يحاربون طبعاً ضدّ «الاعتداء الشيوعي» ولوجه الله.

لقد كتبتُ تقاريري من الصفوف الأولى في جبهة الحرب، عندما كان الإيرانيون يواجهون ما سمَّوه «الحرب المفروضة عليهم» من صدَّام حسين ـ الذي أطلق على غزوه إيران عام ١٩٨٠، لقب «الحرب الخاطفة»، ((Whirluind War)). وقد رأيتُ الإسرائيليين يغزون لبنان مرّتين، ثم يعاودون غزو الضفّة الغربية الفلسطينية، في سبيل ما زعموا أنه «تطهير الأرض من الإرهاب». وقد شهدتُ أيضاً حرب العسكريين الجزائريين ضدّ الإسلاميين للسبب الظاهريّ ذاته؛ وهم يعذِّبون أسراهم ويعدمونهم، على غرار ما يفعل أعداؤهم. وفي عام ١٩٩٠، غزا صدّام الكويت، وأرسل الأميركيون جيوشهم إلى الخليج من أجل تحرير تلك الإمارة، وفرض «النظام العالمي الجديد».

وبعد حروب عام ١٩٩١، دوّنت مراراً في دفتر ملاحظاتي تلك الكلمات: «النظام العالمي الجديد» تتبعها علامة استفهام. وفي البوسنة، وجدتُ الصرب يحاربون من أجل ما سمَّوه «الحضارة الصربية»، بينما حارب أعداؤهم المسلمون وماتوا من أجل حلم راودهم بشأن إمكان التعايش في الإطار المتعدّد الثقافات، وفي سبيل إنقاذ أرواحهم.

وعلى رأس جبل في أفغانستان، جلستُ قبالة أُسامة بن لادن في خيمته، عندما تلفّظ بأول تهديد مباشر ضدّ الولايات المتحدة الأميركية، بينما كنت «أخربش» كلماته في دفتر ملاحظاتي على ضوء قنديل الكاز. لقد تكلّم معي بن لادن عن «الله» و«الشرّ». وكنت مسافراً بالطائرة عبر المحيط الأطلسي بتاريخ ١١ أيلول/سبتمبر، عام ٢٠٠١، عندما دارت طائرتي لتعود إلى «إيرلندا»، بسبب الهجوم الذي تعرَّضت له الولايات المتحدة الأميركية. وهكذا صرت في أفغانستان في غضون أقلّ من ثلاثة أشهر، هارباً مع فلول طالبان على الطريق العامّ غربيّ قندهار، بينما كان الأميركيون يقصفون بالقنابل بلداً سبق أن دمَّرته الحرب. وبعد سنة من الهجوم على أميركا، وجدتني في الجمعية العامّة للأمم المتحدة، عندما تكلّم جورج بوش عن أسلحة الدمار الشامل الوهميّة لدى صدَّام، بينما كان يُعدّ العدّة لغزو العراق. وقد مرَّت الصواريخ الأولى من ذلك الغزو فوق رأسي في بغداد.

إنّ النتائج المادّية المباشرة لكلّ تلك النزاعات ستبقى، بل يجب أن تبقى، في ذاكرتي حتى دنوّ أجَلي. ولستُ بحاجة إلى أن أطالع في جبال من تقارير المراسلين، لأتذكّر الجنود الإيرانيين وهم في قطارهم شمال طهران. كما أني لا أحتاج إلى أيّ من قُصاصات الجرائد لديّ لأستعيد ذكرى ذلك الأب الذي كان يحمل بين ذراعيه ما يشبه رغيفاً ممسوحاً من الخبز، والذي تبيّن أنه نصف طفل مسحوق، بفعل وابل القنابل الأميركية التي أُلقيت على العراق في هجوم عام ٢٠٠٣. ناهيك بالمقبرة الجماعية خارج «الناصرية»، حيث صادفتُ بقايا ساق بشرية في داخلها قضيب من الفولاذ، مع وجود قرص بلاستيكي طبّي لا يزال مربوطاً بأرومة العظم، مما يدلّ على أن القتلة في نظام صدّام انتزعوا ضحيتهم من قلب المستشفى حيث كانت ترقد لاستكمال تبديل وركها، وجرُّوها إلى مكان إعدامها في الصحراء.

لا تنتابني كوابيس بخصوص هذه الأمور؛ لكنّني أتذكّر، وأتذكّر. وتعاودني صورة ذلك الرأس المقطوع من جسد لاجىء ألباني في «كوسوفو»، إثر غارة جوّية أميركية حدثت قبل أربع سنوات. كان رأساً ملتحياً واقفاً وسط حقل أخضر، تحت نور الشمس الساطع؛ وكأنه قُطع على يد سيَّاف من القرون الوسطى. وكذلك جثّة ذلك الفلّاح «الكوسوفي» المقتول على يد الصرب، والذي فُتح قبره بواسطة الأمم المتحدة، فبرز أمامنا من الظلمات منتفخاً، وحزامه مشدود بقوّة حول معدته، وحجمه يناهز ضعف حجم الشخص العادي. وذلك الجندي العراقي في منطقة «الفاو» خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، الملتفّ المتغضّن كطفل قابعٍ في حُفرة مدفعه بجانبي، وقد فحَّمه الموت، بينما يلمع على إصبعه الثالث من يده اليسرى خاتم زواج ذهبيّ يتيم، يتوهّج بالنور والحبّ لامرأة لا تعرف أنها أمست أرملة. هناك جنود ومدنيُّون بعشرات الآلاف ماتوا، لأن الموت خُطّط ولفِّق لهم، بينما نُبذت الأخلاقيات على الرفّ لتسمح لنا بالكلام عن «البيئات الغنية بالأهداف»، وعن «الأضرار الفرعية» ـ تلك المحاولة الأكثر طفولية للتنصُّل من جريمة القتل ـ وتقديم التقارير عن مهرجانات الانتصار، وهدم التماثيل، وأهمّية السلام.

إنّ الحكومات تحبّ أن يكون الأمر كذلك. وإنّ المسؤولين يريدون لمواطنيهم أن يروا الحرب وكأنهم ينظرون إلى مسرحية تحصل بين الأضداد، بين الخير والشر، «بينهم» و«بيننا»، بين النصر والهزيمة. ولكن الحرب ليست فعلاً بين النصر والهزيمة، ولكن بين الموت وفرض الموت على الآخرين؛ إنها تمثل الإخفاق الكامل للروح الإنسانية. وإني أعرف رئيس تحرير ملَّ وضجر من كثرة ترديدي لذلك، ولكن كم من رؤساء التحرير لديهم خبرة مباشرة في الحرب؟

ومن باب السخرية، كان فيلم «المراسل الأجنبي» (Foreign Correspondent) لألفرد هيتشكوك، الذي شاهدته عن عمر الثانية عشرة، حافزي لامتهان الصحافة. وهو فيلم قديم، غير ملوَّن، من إنتاج ١٩٤٠، فيه صرير الوطنية والفكاهة السوداء؛ مثَّل فيه «جويل ماك كْرِيا» دور مراسل أميركي يسمّى «جان جونز» ـ الذي أُعيدت تسميته «هنتلي هافرستوك» بواسطة رئيس التحرير في نيويورك ـ ذلك الشخص الذي أُرسل عام ١٩٣٩ من أجل تغطية الحرب التي أوشكت أن تقع في أوروبا. فكان شاهداً على عملية قتل، وطارد الجواسيس الألمان في هولّندا، وكشف الغطاء عن عميل ألمانيا في لندن، وأُسقطت طائرته بواسطة سفينة حربية ألمانية؛ ولكنه عاش ليتقصّى أخبار العالم. كما أنه فاز بأجمل امرأة في الفيلم المذكور، كإكرامية إضافية له لاضطلاعه بمثل هذه المهنة المثيرة. وينتهي هذا الفيلم بالهجوم الخاطف على لندن، وصوت المذيع بالراديو يقدِّم «هافرستوك» على الهواء صارخاً وسط عويل صفّارات الإنذار المنبئة بحصول غارة جوّية: «لدينا الليلة ضيف من جنود الصحافة... إنه جندي من الجيش الصغير المؤلّف من مؤرّخين يكتبون التاريخ عند فوّهة المدفع».

لم أنظر إلى الوراء أبداً في حياتي. كنتُ أقرأ جريدة «الدايلي تلغراف» الخاصّة بوالدي من أوّلها إلى آخرها، ولاسيّما التقارير الأجنبية، وأنا مضطجع على أرض الغرفة قرب النار، بينما كانت والدتي ترجوني أن أشرب «الكاكاو» وأخلد إلى النوم. وفي المدرسة، كنت أدرس «التايمز» كل يوم بعد الظهر. كنت أنقِّب في كامل خطاب «خروتشيف» الذي يشجب الحكم الإرهابي لستالين. فزت بجائزة المدرسة عن «القضايا الراهنة»، ولم يستطع أحد أن يؤثر

عليّ لتغيير قراري بأن أكون مراسلاً أجنبياً (Foreign Correspondent). وعندما كان يقترح والدي عليّ دراسة المحاماة أو الطبّ، كنت أخرج من الغرفة. وقد استشار والدي أحد أصدقائه بخصوص ماذا يجب أفعل، فبادرني ذلك الصديق بقوله: تخيّل أنك في قاعة المحكمة، هل تحبّ إذ ذاك أن تكون المحامي أو المراسل الجالس على مقعد الصحافة؟». قلت إني أريد أن أكون المراسل، وقد نقل الصديق ذلك إلى والدي قائلاً: «يريد روبرت أن يكون صحافياً». لقد أردت فعلاً أن أكون «جندياً من جنود الصحافة».

التحقت ببعض الجرائد مثل «نيوكاستل إيفنغ كرونيكل»، (New Castle Evening Chronicle، و«الصنداي أكسبرس»، (Sunday Express)، حيث طاردت بعض القساوسة الذين كانوا يهربون مع ممثّلات ناشئات، ونُجيمات. وبعد ثلاث سنوات، رجوت جريدة التايمز أن تعيّنني لديها، ففعلت.. وأرسلتني إلى إيرلندا الشمالية لتغطية النزاع الصغير الشديد الذي نشب في أعقاب الحكم الاستعماري البريطاني. وبعد خمس سنوات، أصبحت أحد «جنود» الصحافة، ومراسلاً أجنبياً. وفي شهر نيسان/أبريل من عام ١٩٧٦، كنت على شاطىء «بورتو كونو» في البرتغال، أقضي إجازة بعيداً عن العاصمة لشبونة، حيث كنت أغطّي تبعات الثورة البرتغالية ـ فنادتني مديرة مكتب البريد معلنة أن هناك رسالة يجدر أن أتسلّمها. كانت رسالة من رئيس تحرير القسم الأجنبي في جريدة التايمز، «لويس هيرين»؛ يقول فيها: «لديّ أنباء جيّدة لك. لقد طلب مراسلنا «پول مارتن» نقله من الشرق الأوسط، نزولاً عند رغبة زوجته؛ وأنا لا ألومها. فعرضت عليه الوظيفة الصحافية الثانية في باريس، وأنا أعرض عليك وظيفة الشرق الأوسط، أَعلِمْني إذا كنتَ تريدها... فقد تكون فرصة رائعة لك، حافلة بالقصص الجيّدة، وكثير من السفر ونور الشمس...». وفي فيلم «هيتشكوك» المذكور، طلب رئيس التحرير من «هافرستوك» الحضور إلى مكتبه، قبل إرساله إلى «الحرب الأوروبية»، قائلاً: هل تحبّ أن تغطّي أكبر قصّة في العالم اليوم؟». لكنّ رسالة «هيرين» لم تكن بمثل تلك الإثارة، إنما عنت الشيء ذاته.

كان عمري ٢٩ سنة عندما عُرضت عليّ الوظيفة الصحافية للتايمز في الشرق

الأوسط ـ وإني أتمنّى لو أعرف كيف شعر الملك فيصل الأول عندما عُرض عليه حكم العراق، وكيف كان ردّ فعل أخيه عبد الله عندما عرض عليه «ونستون تشرشل» حكم شرقيّ الأردنّ. لقد كان «لويس هيرين» ذاته ذا أسلوب «تشرشلي»، عنيداً، فصيحاً، ومحبًّا للنبيذ الممتاز؛ فضلاً عن كونه سابقاً مراسلاً في الشرق الأوسط. ولكن، لو كانت القصص جيّدة صحافياً، فلا بدّ أن تكون أيضاً رهيبة، ولا بدّ أن يكون السفر مشوّشاً، ونور الشمس كحدّ السيف القاطع. فنحن معشر الصحافيين، ليس لنا حماية الملوك، أو ادّعاؤهم الكمال. ولكنني أستطيع الآن أن أكون أحد الجنود في جيش المؤرّخين الذين يكتبون التاريخ بجانب فوّهة المدفع. كم كنتُ بريئاً، وكم كنت ساذجاً. لكنّ البراءة إذا دامت، تحمي استقامة الصحافي وأمانته. وعليك أن تجاهد في سبيل الإيمان بذلك.

لم أكن مقاتلاً مثل والدي، بل ذهبت إلى الحرب شاهداً ومتفرّجاً عليها، وشديد الاغتياظ، ولكنني لم أكن أبداً من الرجال، الغاضبين، أو المتحمّسين لها، أو المخبولين بالذين أشعلوها. إني أبجّل المراسلين القُدامى الذين غطّوا الحرب العالمية الثانية وتبعاتها: مثل «هوارد ك. سميث» الذي هرب من ألمانيا النازية على آخر قطار غادر برلين قبل أن يعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٤١؛ و«جايمس كاميرون» صاحب التقرير الأيقوني الصادر عام ١٩٤٦ حول التجارب الذرّية البيكينية (Bikini) الذي ربّما كان أفضل مقال أدبي فلسفي نُشر في جريدة.

إن مهنة المراسل في الشرق الأوسط هي مهنة مُذلّة نوعاً ما في ظلّ ظروف مماثلة. فلو قرّر الجنود الذين كنت ألاحظهم إخلاءَ ساحة القتال، لأُطلقت النار على كثير منهم بتهمة الفرار، أو أُحيلوا إلى المجلس العسكري للمحاكمة على الأقلّ. أمّا المدنيُّون الذين كنتُ أعيش بينهم وأعمل، فقد أُلزموا البقاء في أماكنهم تحت القصف، ونتيجة لذلك هلك القسم الأعظم منهم بفعل القنابل والغارات الجوّية. كما أنهم لا يُمنحون تأشيرات سَفر بصفتهم مواطنين في بلدان منبوذة. ولكن إذا أردتُ أنا أن أترك عملي، وإذا أرهقتني رؤية الفظائع

التي شاهدتها، أستطيع أن أحزم حقيبتي وأذهب بالطائرة إلى بلادي، بدرجة سياحية، وبيدي كأس من الشمبانيا، على افتراض دائم بأني لم أمت، خلافاً لحالة الكثيرين من زملائي. ولهذا السبب أنقبض عندما ينبري أحدهم للثرثرة النفسيّة عن الخبرات الشديدة لدى مَن يغطّون أخبار الحروب، وعن ضرورة بذل الإرشاد النفسيّ لنا، نحن الكتبة الصحافيين المحظوظين براوتبنا، كي نتصالح مع ما رأينا وسمعنا. ولكن، ليس هناك من إرشاد ورعاية للفقراء والجموع الحاشدة الذين تُركوا لمصيرهم كي يعانوا من غاز العراق، وصواريخ إيران، وقسوة الميليشيات الصربيّة، والغزو الإسرائيلي الوحشي للبنان عام ١٩٨٢، والموت المبرمج على الحاسوب للعراقيين أثناء غزو الأميركيين لبلادهم عام ٢٠٠٣.

أنا لا أحبّ وصف المراسل بأنه «مراسل حرب». إن التاريخ لا الصحافة، هو الذي حكم بالحرب على الشرق الأوسط. فوصف المراسل بمراسل حرب وصفٌ تفوح منه رائحة رومانسية خاطئة، وفيه نفحات غزيرة من سِمات المراسلين الفيكتوريين الذي يراقبون المعارك من رؤوس التلال بصحبة سيّدات محصَّنات ضدّ المعاناة، حيث لا يُنظر إلّا لِماماً إلى قصف المدافع عن بعد.

لكنّ الحرب خبرة فذَّة قويّة بالنسبة إلى الصحافي؛ تشمل كثيراً من التناقضات، وتُعتبر فرصة له كي يختبر الإثارة الوحيدة التي لا تزال مجّانية. وإذا كنتَ قد شهدت ذلك في الأفلام السينمائية، فلماذا لا تختبره في الواقع؟ أخشى أن بعض زملائي ماتوا بهذا الأسلوب، فقد توجّهوا إلى الحرب على افتراض أنها أمر هوليودي، وأن البطل لا يموت، وأنك لن تموت كالآخرين، وأنهم كلّهم سيكونون مثل «هنتلي هافرستوكس» سبّاقين إلى اقتناص الأخبار والفوز بأجمل فتاة. ولكن يمكن أيضاً أن تموت. ففي عام واحد خلال حرب البوسنة، مات ثلاثون من زملائي. وهناك معركة مثل معركة «صوم» تنتظر جميع الصحافيين الأبرياء.

عندما انطلقت لتدوين هذا الكتاب، أردته أن يكون عرضاً للأحداث بحسب تسلسلها الزمني في الشرق الأوسط على مدى ثلاثة عقود. فهكذا كتبت كتابي

السابق «ويلات وطن»(*). وهو تقرير بصيغة المتكلّم حول الحرب الأهليّة اللبنانية والغزوتين الإسرائيليتين للبنان. ولكنني نقَّبتُ خلال الأوراق المتكدّسة في مكتبتي التي تشمل أكثر من ٣٥٠٠٠٠ وثيقة وملفّ ودفتر ملاحظات، كتبتُ بعضها بقلمي تحت وطأة القصف وأَثبت بعضها الآخر موظفو الاتصالات العرب التعبون على أوراق التلغرافات، ومنها ما ضُرب أيضاً على آلات الفاكس التي كنا نستخدمها قبل اختراع «الإنترنت». وبعد هذا الطواف بين تلك الأوراق الوثائقية، أدركت أن هذا الكتاب لن يكون مجرّد تقارير شاهد عيان مرتّبة بحسب تسلسلها الزمني.

لقد قرأ والدي، الجندي الهرم من أيام الحرب العالمية الأولى، تقريري عن لبنان. ولم يعش ليقرأ هذا الكتاب. لكنه كان دائماً ينظر إلى الماضي ليفهم الحاضر. ليت العالم لم يذهب إلى الحرب عام ١٩١٤؛ وليتنا لم نكن بالغي الأنانية في عقد السلام. لقد وعدنا، نحن المنتصرين، العرب بالاستقلال، وساندنا اليهود ليحظوا بوطن لهم في فلسطين. ولا بدّ من الوفاء بالوعود. ولكن، لم يتمّ الوفاء ببعض تلك الوعود ـ فظنّ اليهود طبعاً أن وطنهم سيشمل كلّ فلسطين ـ وحُكم على ملايين العرب واليهود في الشرق الأوسط أن يتعايشوا اليوم مع عواقب تلك الوعود.

يشعر المرء أحياناً في الشرق الأوسط أنه ليس هناك أمر في التاريخ بدون نهاية محدّدة، أو مفترق، بحيث نقف لحظة ونقول: «كفى، كفى ـ لنتوقفْ،

(*) Pity the Nation: Lebanon at war (Oxford University Press, 2001); US new edition entitled Pity the Nation: The Abduction of Lebanon (New York, Nation Books, 2002).
وبوسع القرّاء الكرام المهتمّين بشأن الحرب الأهلية اللبنانية، والغزو الإسرائيلي للبنان عامي ١٩٧٨ و١٩٨٢، ومذبحة قانا، وغير ذلك من المآسي التي حصلت في لبنان، أن يعودوا لمراجعة هذا الكتاب. فأنا لم أحاول معاودة كتابة قصّة لبنان هنا. وعنوان الكتاب المترجم إلى العربية هو: «ويلات وطن» (الطبعة السابعة عشرة منه، طبعة جديدة ومزيدة بفصلين صدرت عام ٢٠٠٥ عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر).

ولنتحرَّرْ». أعتقد أني أفهم اليوم ذلك الاعوجاج الزمني. لقد وِلد أبي في القرن الذي سبق القرن الماضي؛ بينما ولدت أنا في النصف الأول من القرن الماضي. وها أنذا في عام ١٩٨٠، أشهد الجيش السوفياتي يغزو أفغانستان، وأربض عام ١٩٨٢ في الخطوط الإيرانية الأمامية مقابل جيوش صدّام، وأراقب في عام ٢٠٠٣ طلائع الجنود الأميركيين من فصيلة المشاة الثالثة تقطع الجسر الكبير فوق نهر دجلة. ولكنّ معركة «صوم، Somme» جرت قبل ولادتي بثلاثين سنة. نزل «بيل فيسك» إلى خنادق فرنسا بعد ثلاث سنوات من الإبادة الجماعيّة للأرمن، قبل ٢٨ سنة من ولادتي. لقد وِلدتُ بعد ستّ سنوات من «معركة بريطانيا»، وبعد انتحار هتلر بأكثر من سنة. وشاهدت الطائرات تعود إلى بريطانيا من كوريا، وأتذكّر ملاحظة والدتي عام ١٩٥٦ بأني محظوظ، لأني لو كنت أكبر سنّاً لكنت في عداد المجنّدين الإلزاميين الذين غزوا قناة السويس.

أشعر بكلّ ذلك شخصيّاً، لأنّي شهدت أحداثاً عبر الزمن لا يمكن أن نعرِّفها إلّا بأنها عجرفة السلطة (Arrogance of Power). كان الإيرانيون يلقّبون الولايات المتحدة الأميركية بأنها «مركز الاستكبار العالمي»، وكنتُ أضحك من ذلك، لكني بدأت أفهم ماذا يعني هذا القول. فبعد النصر الذي أحرزه الحلفاء عام ١٩١٨، وعند انتهاء حرب والدي، قسّم المنتصرون البلاد التي كانت تحت حكم أعدائهم السابقين. وخلال ١٧ شهراً فحسب، أوجدوا حدود «إيرلندا الشمالية»، ويوغوسلافيا، ومعظم الشرق الأوسط. وقد صرفتُ كامل أيامي المهنية ـ في بلفاست، وسراييفو، وبيروت، وبغداد ـ أشاهد الناس يحترقون، ضمن تلك الحدود. لقد غزت أميركا العراق، لا من أجل أسلحة الدمار الشامل عند صدّام حسين، تلك التي دُمّرت منذ زمن طويل، بل من أجل تغيير خريطة الشرق الأوسط، على غرار ما فعل الجيل الذي كان أبي في عداده، منذ أكثر من ثمانين سنة. فقد أسهمت الحرب، التي كان أحد جنودها، في إحداث أول إبادة جماعية في ذلك القرن، ذهب ضحيّتها مليون ونصف مليون نسمة من الأرمن، ممهِّدة بذلك للإبادة الجماعية التالية لليهود في أوروبا.

إن هذا الكتاب يتمحور حول التعذيب والإعدامات. وربّما فتح عملنا في

الصحافة باب الزنزانة عَرَضاً واتفاقاً. وربّما استطعنا أحياناً أن نُنقذ روحاً من حبل المشنقة. إنما تجمّع لدينا عبر السنين سيل من الرسائل المتزايدة، الموجّهة إليّ وإلى رئيس تحرير جريدة الإندبندنت، يعرض فيها القرّاء أفكارهم ويأسهم، ويتساءلون كيف يمكنهم أن يُسمِعوا صوتهم، عندما لا تعود الحكومات الديمقراطية تمثل المواطنين الذين انتخبوها. فهؤلاء القرَّاء يسألون كيف يقون أولادهم من السمّ الذي يقطر من قسوة هذا العصر؟ وكيف أستطيع أن أساعدهم؟ فقد كتبت إليَّ امرأة بريطانية تعيش في ألمانيا، بعدما نشرت جريدة الإندبندنت مقالاً طويلاً لي حول اغتصاب نساء مسلمات في غاكو بالبوسنة، أنّ تلك النساء لم يحصلن على عناية طبّية دولية، أو مساعدة نفسيّة، أو لفتة لطف وإحسان بعد سنتين من الاعتداء عليهنّ.

وبناءً على ذلك، أفترض أننا كصحافيين نحاول ـ أو يجب أن نحاول ـ في آخر المطاف، أن نكون أول شهود غير متحيِّزين على التاريخ. وإذا كان هناك من سبب لوجودنا، فيجب على الأقلّ أن نكون قادرين على أن نقدّم تقارير عن التاريخ كما يحدث فعلاً، بحيث لا يستطيع أحد أن يقول: «لم نعرف ـ لم يخبرنا أحد بذلك». وقد ناقشت الصحافية الإسرائيلية اللامعة «أميرة هاس» هذا الأمر معي منذ أكثر من سنتين في صحيفة «هآرتس»؛ تلك الصحافية التي بزَّت بتقاريرها أيّة كتابات أخرى لمراسلين غير إسرائيليين. لقد أصررتُ في مناقشتي معها على أن رسالتنا كصحافيين تُهيب بنا أن نكتب الصفحات الأولى من التاريخ، لكنها قاطعتني بقولها: «لا يا روبرت، أنت مخطىء، إن عملنا هو أن نراقب مراكز النفوذ والقوّة». وأعتقد في نهاية هذا الأمر، أن هذا هو أفضل تعريف للصحافة سمعته في حياتي. علينا أن نتحدَّى السلطة ـ كل سلطة وكل نفوذ ـ وبخاصّة عندما تجرّنا الحكومات وأهل السياسة إلى الحرب، عندما يقرّر هؤلاء القتل، ويفرضونه على الآخرين.

ولكن هل نستطيع كصحافيين أن نؤدّي هذا المهمّة؟ ـ إن هذا الكتاب لن يعطينا جواباً عن هذا السؤال. لقد كانت حياتي كصحافي مغامرة كبرى؛ ولا تزال. ولكن عندما نظرت إلى هذه الصفحات بعد شهور من كتابتها، وجدت

فيها أوصافاً للألم، والظلم، والرعب؛ إنها خطايا الآباء التي يصاب بها الأبناء. كما أنها تدور حول الإبادات الجماعيّة. لقد كنت أدعو يائساً إلى ضرورة أن يحمل كل مراسل كتاب تاريخ في جيبه الخلفي. وفي عام ١٩٩٢ كنت في سراييفو، فمرَّت قذيفة صربيّة من فوق رأسي في لحظة خاطفة؛ لقد كنت واقفاً في المكان الذي وقف فيه «غافريلو پرينسيپ» (Gavrilo Princip) وأطلق النار، فأشعل شرارة الحرب العالميّة الأولى، التي جرَّت والدي إلى خنادق الحرب. وبالطبع، كانت الطلقات تترى في سراييفو عام ١٩٩٢. وكان التاريخ عبارة عن قاعة كبرى يتردّد فيها الصدى. وكان ذلك العام هو التاريخ الذي مات فيه والدي. وها أنذا أضع بين يَدي القارىء قصّة جيله وجيلي.

بيروت، حزيران/يونيو، ٢٠٠٥

الفصل الأول

«راود أحد إخواننا حلم...»

جمعوا بين حبّ مسعور للوطن ولامبالاة حمقاء بالحياة،حياتهم وحياة الآخرين. إنهم ماكرون، مجرَّدون من الضمير الأخلاقي، مُلهمون.

«ستيفان فيشَر» في فيلم ألفرد هيتشكوك،

«المراسل الأجنبي» (Foreign Correspondent) (١٩٤٠)

عرفتُ أن الأمر سيكون كذلك. كنتُ بتاريخ ١٩ آذار/مارس ١٩٩٧ خارج فندق «سبينجهار» في جلال آباد؛ ذلك الفندق المتميِّز بمرجاته المشذَّبة ووروده الزهرية، عندما تقدم مني رجل أفغاني يحمل رشاشاً من نوع «كلاشينكوف»، ودعاني للسفر معه في سيارته خارج المدينة. لم تعد الطريق إلى «كابول» ذلك المساء طريقاً بمعنى الكلمة، بل صارت ركاماً من الحجارة ومجموعة من الحُفَر فوق مياه هادرة لنهرٍ عظيم. كما كانت سلسلة كبرى من الجبال تشمخ فوقنا. وكان الأفغاني يبتسم لي من وقت إلى آخر، ولكنه لم يتكلم. وكنتُ أعلم ما تعنيه ابتسامته: ثِقْ بي. ولكني لم أثق به؛ بل بادلته فتح الفم للتبسُّم الاصطناعي الذي ينمّ عن صداقة زائفة. فإذا لم أرَ شخصاً ـ عربياً لا أفغانياً ـ أعرفه، أبقى حذراً، وأراقب الطريق خوفاً من وجود أفخاخ، أو مراكز تفتيش ومراقبة، أو وجود مسلّحين لا مبرّر ظاهراً لوجودهم، وحتى من داخل السيارة، كنتُ أسمع صوت تدفّق مياه النهر عبر الأخاديد والصخور السمراء حيث الماء ضحل، ومن فوق الأجراف الصخرية الشاهقة. وكان السائق الذي طلب أن أثق به ماهراً في قيادة السيارة حول جلاميد الصخور. وقد أُعجبت بخفة رجله

العارية على مغيِّر السرعة، وهو يعليها ويخفضها، وكأنه يحفِّز حصاناً بلطف ليتسلق ويقفز من فوق صخرة.

غطَّى الغبار الأبيض الغزير زجاج السيارة؛ وعندما قشعته المسَّاحات، تبدَّى أمامنا القفر القاتم القاسي الرتيب. فقلتُ لنفسي، لا بد أن وضع الدرب كان هكذا، عندما قاد اللواء «وليم ألفينستون» جيشه البريطاني إلى الكارثة منذ حوالى ١٥٠ سنة. لقد أباد الأفغان أحد كبار الجيوش في الإمبراطورية البريطانية على هذا الجزء من الطريق بالذات؛ وفي القرى الواقعة فوقي، هناك أناس مسنُّون لا يزالون يتذكرون قصص آباء أجدادهم عما رأوه من موت آلاف الإنكليز. ومما يزعمونه أن صخور «غرانداماك» اسودَّت بفعل دماء الموتى من الإنكليز. لقد كان العام ١٨٤٢ معْلماً للهزائم الكبرى في الجيش البريطاني. ولا عجب في مثل هذه الحال، أننا نفضل أن ننسى «الحرب الأفغانية الأولى»؛ لكن الأفغان لا ينسون. فمن سائق السيارة جاءت صيحة «فارانجيانو»، وهو يكشِّر ويشير إلى الممرّ الضيّق في الطريق، «أجانب». «أنجريزي»، أي إنكليز. «تجانغ»، أي حرب. نعم لقد فهمت المقصود بتلك الإشارة. فقلت له باللغة العربية: «إيرلندا، أنا من إيرلندا». وكانت كذبة حتى لو فهمها. لقد درست في إيرلندا لكنني أحمل في جيبي جوازاً صغيراً أسود بريطانياً، يطلب فيه وزير الدولة الأول للشؤون الخارجية والكومنولث لدى صاحبة الجلالة ممن يعنيهم الأمر باسم صاحبة الجلالة، أن يسمحوا لي بالمرور بحرية ودون عائق في هذه الرحلة الخطرة. وقد سبق أن نظر إلى جوازي هذا في مطار جلال آباد منذ يومين جندي مراهق «طالباني» لا يعدو الرابعة عشرة من عمره، وهو يحمله مقلوباً، فطقطق بلسانه، وهز رأسه رافضاً.

حلّ ظلام الغَسَق ونحن نتسلّق الجبال، ونتجاوز بسيارتنا الشاحنات، وأرتال الجمال، ونرى الضواري تحملق في أضواء سيارتنا في إطار الظلام الدامس. سرنا بسرعة قرب تلك الضواري؛ وكنت أرى تكاثف لهاثها يتطاير طائفاً فوق الطريق. كانت قوائمها الضخمة تتفادى الحجارة والصخور بعناية فائقة، وكانت عيونها عندما تجابه الضوء تبدو كعيون لُعَب الأطفال. وبعد ساعتين وقفنا إلى

جانب تلّة صخرية، ولم تمرّ دقائق قليلة حتى بدت لنا شاحنة صغيرة قادمة نحونا من علٍ، وهي تتواثب على طريق الجبل الوعرة.

تقدّم من سيارتنا شخص عربي بلباس أفغاني؛ فعرفته فوراً، لأني رأيته سابقاً في آخر اجتماع لنا في قرية متهدِّمة. وقال: «آسف يا سيد روبرت؛ ولكن عليّ أن أزعجك بأول تفتيش»، بينما كانت يداه تنقّبان في جراب آلة التصوير والجرائد. وهكذا انطلقنا معه صعوداً في الطريق التي بناها أسامة بن لادن خلال أيام جهاده ضد الجيش الروسي في أوائل الثمانينيّات. استغرقت الرحلة ساعتين، وكانت طويلة على طريق زلقة مرعبة عبر الوهاد الشديدة الانحدار تحت المطر والبَرَد، وتغشية زجاج السيارة بينما كنَّا نصعد هذا الجبل البارد. ولكنّ صاحبي هوَّن الأمر عليّ بقوله: «عندما تؤمن بالجهاد، كل شيء يصبح سهلاً»؛ بينما كان يغالب مقود السيارة، وكانت الحجارة تفرّ من بين العجلات، وتنزل عبر الضباب إلى الهاوية تحتنا. ومن وقت إلى آخر، كنا نرى أضواء تغمزنا من بعيد في الظلام: «إنهم إخواننا الذين يبلغوننا أنهم يروننا»، كما قال صاحبي.

وبعد ساعة، صاحوا بنا: «قفوا، قفوا»، فجمدت مكابح السيارة، وكدت أصطدم بزجاجها. وطالعنا رجلان مسلَّحان، يغطي أحدهما وجهه بوشاح كوفيَّة، وينظر إلينا من خلال نظَّارة، وهو يمسك بقاذف صواريخ محمول فوق الكتف. بادرنا صاحب النظَّارة بالاعتذار: «عفواً، عفواً»، وألقى بقاذف صاروخه جانباً؛ وسحب من جيب سترته الحربية مكشافاً معدنياً مرَّ به متقطع الومض على جسمي، بغية القيام بتفتيش ثانٍ. وتابعنا طريقنا بعدما ساءت أحوالها، وصارت سيارة «الجيب» تنزلق بنا خلفياً وتضعنا على شفير الجرف والهاوية، بينما تتأرجح الأضواء الأمامية للسيارة على الجانبين. وعلّق سائقي على هذا الوضع بقوله: «سيارة تويوتا جيدة من أجل الجهاد»؛ فلم أجد بدّاً من الموافقة على ذلك، مع الانتباه إلى أن ذلك قد يصلح كشعار دعاية لو وافقت شركة «تويوتا» عليه.

ولمَّا طلع علينا ضوء القمر أبصرت غماماً تحتنا على المنحدرات الشديدة

الانحدار، وغماماً فوقنا يتحلّق حول رؤوس الجبال، بينما كانت الأنوار الأمامية لسيارتنا تلمع على الشلالات المتجمّدة، وعلى سطوح البرك المكسوَّة بالجليد. لقد عرف بن لادن كيف يبني طرقه أيام الحرب؛ فقد غاص كثير من شاحنات الذخيرة والدبابات أثناء صعودها من هنا، خلال النضال الجبَّار ضد الجيش الروسي. واليوم، جاء الرجل الذي قاد حرب العصابات تلك ـ ذاك الذي كان المقاتل العربي الأول ضد موسكو ـ عائداً إلى هذه الجبال التي عهدها. وقد صادفنا المزيد من مراكز التدقيق والمراقبة، وتلقّي الأوامر الصارخة بالتوقف. وقد فحصني رجل طويل جداً، بلباس المعركة وبكل دقّة، فجسّ كتفي وجسمي، وساقيّ، ونظر في وجهي. فقلت له: «السلام عليكم» بالعربية، فلم يرد، خلافاً لكل عربي صادفته، بل بقي على برودته. لقد دعاني أسامة بن لادن إلى زيارته في أفغانستان، لكنّ هذا الرجل محارب ليس لديه ذرّة من اللياقة. إنه آلة تدقق في شأن آلة أخرى.

ولكن لم تكن الحال هكذا دائماً بشأن زيارة بن لادن. ففي الواقع، قابلت بن لادن لأول مرة بمنتهى اليُسر. ففي شهر كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٩٣ كنتُ أغطّي أعمال قمة إسلامية في الخرطوم عاصمة السودان، عندما تقدم مني صحافي سعودي صديق هو جمال خاشقجي في بهو فندقي. كان خاشقجي طويل القامة، يرتدي دشداشة بيضاء سابغة. جاءني ومشى بي إلى خارج الفندق؛ وقال لي: «هناك شخص أعتقد أنّ عليك أن تقابله». كان خاشقجي مؤمناً صادقاً في إيمانه ـ والويل لمن يعتبر نظّارته المدوَّرة وحسّ الفكاهة عنده دليلاً على تراخيه الروحي ـ وقد أدركت فوراً مَن يعني. ومن المعلوم أنه زار بن لادن في أفغانستان خلال حربه مع الجيش الروسي. بادرني خاشقجي بقوله: «لم يقابل صاحبنا حتى اليوم أيّ مراسل أجنبي؛ ستكون المقابلة مثيرة للاهتمام». وكان خاشقجي يمارس بذلك قليلاً من علم النفس التطبيقي. لقد أراد أن يعرف كيف يستجيب بن لادن لشخصٍ من غير المؤمنين؛ ووددتُ أنا أيضاً أن أعرف ذلك.

كانت قصة بن لادن تعليمية كما كانت ملحمية. فعندما غزا الجيش الروسي

أفغانستان عام ١٩٧٩، شجَّعت أميركا العائلة المالكة السعودية على دعم الأفغان بفرقة عسكرية عربية، على أن يكون من المفضَّل أن يقودها أحد الأمراء السعوديين، بصيغة حرب عصابات ضد الروس. ومن شأن هذا التدبير أن يعيد ترسيخ التقليد المشرِّف للمحارب الخليجي العربي، الذي يضحِّي بحياته من أجلِ الدفاع عن «الأمّة» الإسلامية. ولكنّ الأمراء السعوديين رفضوا ذلك؛ فحلّ محلَّهم بن لادن وقد تملَّكه الغضب من إذلال الأفغان المسلمين على يد السوفيات؛ فاستعمل المال والمعدَّات من شركة البناء التي يملكها، وانطلق في مضمار جهاده الشخصي.

وعلى مدى السنين التي تلت ذلك، انتزع بن لادن السعودي، صاحب المليارات، وذو الأصل اليمني المتواضع إعجاب الكثيرين من السعوديين ومن العرب الآخرين من الخليج إلى البحر الأبيض المتوسط، الذين نسجوا له أسطورة الصبيّ العربي ابن المدرسة. ومنذ أن مجَّد البريطانيون «لورنس العرب»، لم يُصَوَّر أيّ مغامر آخر بهذه البطولة وبهذا النفوذ. فقد اتجه مصريون، وسعوديون، ويمنيون، وكويتيون، وجزائريون، وسوريون، وفلسطينيون إلى مدينة بشاور الباكستانية الحدودية، ليقاتلوا إلى جانب بن لادن. ولكن بعدما طرد المجاهدون الأفغان وفرقة بن لادن العسكرية السوفيات من أفغانستان انقلب الأفغانيون بعضهم على بعض كالذئاب يغذّيهم السمّ العشائري. فعاد بن لادن إلى العربية السعودية، مشمئزاً من إفساد الإسلام، وتفسيخ «الأمّة» إلى سُنّة وشيعة.

وبعد هجر بن لادن العربية السعودية إلى جمهورية إسلامية أخرى، هي السودان، شاهدنا في رحلتنا شمالي الخرطوم منظر صحراء بيضاء وأهراماً فرعونية جاثمة، قديمة مستكشفة، إنما أصغر من أهرام «خوفو»، و«خفرع»، و«منقرع» في الجيزة بمصر. وبالرغم من أننا كنا في شهر كانون الأول/ديسمبر، كان هناك نسيم بالغ الحر يجول في الصحراء. وعندما تعب الخاشقجي من هواء المكيِّف في السيارة وفتح نافذتها، نزع الهواء غطاء رأسه ورماه. وعلَّق الخاشقجي على الوضع بقوله: «بن لادن محبوب هنا»، وكأنه يطري مضيفه على

طعام. ثم قال: «إنه رجل أعمال اقتصادية هنا وصاحب شركة بناء، والحكومة تحبّه كذلك. إنه يساعد الفقراء». وفي الواقع، إني أفهم ذلك تماماً. فقد كان النبيّ محمّد يتيماً في أول عمره، وكان الفقراء هاجسه في القرن السادس، وكان الكرم تجاه الفقراء من المميِّزات الجذّابة في الإسلام، كما كان الكرم من مميّزات الحياة العربية بعامة. إن انتقال بن لادن من كونه محارباً جهادياً إلى فاعل خير كريم للناس بعامّة، يؤشّر على أنه يتبع خطى الرسول. فقد أكمل الآن بناء طريق من الخرطوم وبورسودان إلى البلدة الصحراوية الصغيرة المسماة المطيق في شمال السودان، مستخدماً الجرّارات الجرّافة ذاتها التي استعملها لشق طرق المجاهدين في أفغانستان؛ مع العلم أن كثيراً منهم ما زالوا عمّالاً عنده. لكن دوائر الحكومة الأميركية لم تكن راضية عن كرم بن لادن وأعمال الخير التي يقوم بها. فقد اتهمت السودان «برعاية الإرهاب الدولي»، كما اتهمت بن لادن نفسه بإقامة «معسكرات تدريب للإرهابيين» في صحراء السودان.

وعندما وصلت مع الخاشقجي إلى قرية المطيق كان بن لادن هناك بكل بهائه، بثوبه المذهَّبةُ أطرافه، جالساً في ظلّ خيمة أمام حشد من القرويين المعجبين به، وبحراسة المجاهدين العرب الذين حاربوا معه في أفغانستان. أولئك الملتحون الصامتون، غير المسلّحين، الموجودون على مقربة من الرجل الذي اختارهم، ودرَّبهم، ثم أرسلهم لمناهضة الجيش السوفياتي، كانوا يراقبون بوقار القرويين السودانيين المصطفّين لشكر رجل الأعمال السعودي الذي يكاد يكمل الطريق التي تصل منازلهم المتواضعة بالخرطوم، لأول مرة في التاريخ.

كان انطباعي الأول أنه رجل خجول. فقد كان يتفادى النظر إلى زعماء القرية، عندما يخاطبونه؛ وهو بثوبه الأسمر الطويل، وعينيه الضيِّقتين، وعظام خدّيه البارزة. كان يبدو منزعجاً من تلقّي عرفان الجميل، ولا يبتسم ابتسامة عريضة عندما يرقص الأولاد «بالجلباب» القصير أمامه، وعندما ينبري الخطباء للثناء على حكمته. وقد خاطبه أحد الشيوخ الملتحين بقوله: «انتظرنا دون جدوى إقامة هذه الطريق من قبل الثورات المتعاقبة في السودان، حتى تملّكنا

اليأس من الجميع؛ ثم جاء أسامة بن لادن». ولاحظت كيف طأطأ بن لادن رأسه، ونظر إلى الرجل الملتحي محترماً العمر الذي بلغه؛ لكنه كان غير سعيد بأن يجلس مرتاحاً أمام شيخ أكبر سناً منه. كما كان أيضاً غير سعيد لرؤية شخص من بلاد الغرب، واقفاً على مقربة منه. ولذلك كان ينظر إليّ من وقت إلى آخر، بانقباض وبحذر شديد.

طوَّقه الخاشقجي بذراعيه؛ فقبّله بن لادن على الخدّين، قبلة مسلم لمسلم، اعترافاً بالخطر المشترك الذي قاسياه معاً في أفغانستان. وكان بن لادن يفكّر في السبب الذي دعا الخاشقجي إلى اصطحاب هذا الأجنبي. وكان يلتفت إليَّ من فوق كتفه بينما الخاشقجي يتكلم، ويؤمىء برأسه من وقت إلى آخر. قال الخاشقجي: «يا روبرت، أودّ أن أقدّمك للشيخ أسامة»، رافعاً صوته عبر أغاني الأطفال. كان بن لادن رجلاً طويلاً، ولا بد أن يكون قد شعر بتلك الأفضلية، وهو يصافح المراسل الأجنبي. السلام عليكم. كانت يداه ثابتتين، غير قويتين، أجل، لكنه بدا كرجل جَبَليّ. عيناه تفحصان وجهك. كان نحيفاً، وذا أصابع طويلة. وكانت لديه ابتسامة غير لطيفة لكنها ليست شرّيرة. وبناء على دعوته، انتقلنا إلى آخر الخيمة لنتكلم، متفادين صراخ الأطفال.

وبلفتةٍ نحو الماضي، وعلى أساس ما نعلم اليوم من ارتسام صورة بهيمية رهيبة لهذا الرجل في الذاكرة الجماعية للعالم، كنتُ أفتش عن مفتاح، أو عن بيِّنة مهما كانت صغيرة، توحي بأنه يمكن أن يقوم بعمل يغيِّر وجه العالم إلى الأبد ـ أو تسمح بخاصة لرئيس أميركي بأن يقنع شعبه بأن العالم تغيّر إلى الأبد. ولا شك في أن نفيه الرسمي «للإرهاب» لا يدلّ على شيء من ذلك. لكنّ الصحافة المصرية كانت تدَّعي أن بن لادن جلب معه مئات من المقاتلين العرب إلى السودان، بينما كانت السفارات الغربية في الخرطوم تروِّج أن بعض العرب «الأفغان» الذين أرسلهم هذا المقاول السعودي إلى السودان، مشغولون الآن بالتدرُّب، استعداداً للانخراط في حروب جهاد، في الجزائر، وتونس، ومصر، وكان بن لادن واعياً لهذا الأمر، إذ وصف ذلك «بالهراء الذي تتناقله

السفارات ووسائل الإعلام»، وأردف: «أنا مهندس بناء، وخبير زراعي. ولو كان لديّ مخيَّمات تدريب هنا في السودان، لما تمكنت من القيام بعملي هذا».

ولا شك في أن «عمله» كان بمنتهى الطموح: ليس في ما يتعلق بهذه القرية فحسب، بل بطريق عامة واسعة جديدة تمتد من الخرطوم إلى بور سودان؛ وتمتدّ على مسافة ١٢٠٠ كيلومتر فوق الطريق القديمة، بعد اختصارها بأسلوب بن لادن إلى ٨٠٠ كيلومتر، أي سفر يوم واحد فقط. لقد حوّل بن لادن معدّات الحرب إلى معدَّات بناء في دولة منبوذة من قِبل العربية السعودية، لأنها دعمت صدّام حسين بعد غزوه للكويت عام ١٩٩٠، فضلاً عن نبذها من قِبل الولايات المتحدة الأميركية. وكنتُ أتساءل لماذا لم يفعل الشيء نفسه في قفار أفغانستان؛ لكنه رفض بادىء ذي بدء أن يتكلم عن حربه في أفغانستان، وبقي جالساً في أقصى الخيمة يفرك أسنانه بمسواك. ومن ثمَّ عاد إلى الكلام عن تلك الحرب التي ساعد في سوقها إلى النصر لصالح الأفغان المدعومين ضد الروس من قبل الأميركيين والسعوديين والباكستانيين. لقد أراد أن يتكلم. وكان يعتقد أنه سيُستجوب بشأن «الإرهاب»، لكنه أدرك أنه يُسأل عن أفغانستان، وبالرغم من كل الحذر والشك اللذين أبداهما بشأن هذا المراسل الغريب، رغب بن لادن في أن يشرح كيف أن خبرته هناك غيَّرت حياته.

قال: «إن ما عشتُه هناك خلال سنتين يعادل عيش مئة سنة في مكان آخر. وعندما بدأ غزو أفغانستان استشطتُ غضباً، وهُرعت إلى هناك فوراً فوصلت خلال أيام قبل نهاية عام ١٩٧٩؛ وثابرت على العودة إلى هناك مدة تسع سنوات. لقد شعرتُ بالإهانة بسبب الجور الذي لحق بشعب أفغانستان. وأدركتُ أن الناس الذين يكتسبون نفوذاً في العالم يستعملون نفوذهم وقوتهم تحت أسماء مختلفة، ليفسدوا الآخرين ويفرضوا آراءهم عليهم. نعم لقد قاتلت هناك، لكنّ إخواني المسلمين بذلوا جهداً أكبر في القتال. لقد مات كثير منهم، وبقيتُ أنا حياً». ويؤرّخون للغزو الروسي بكانون الثاني/يناير ١٩٨٠، لكن القوات السوفياتية الخاصة دخلت كابول قبل عيد الميلاد الغربي عام ١٩٧٩، عندما قامت ـ أو قام أتباعها الأفغان ـ بقتل حافظ الله أمين، الذي احتلّ

منصب رئيس الجمهورية، وتنصيب بابراك كارمال دُميتهم في كابول مكانه. لقد تحرك أسامة بن لادن بسرعة.

وقد استعان بن لادن بمهندسه العراقي محمد سعد الذي كان يبني الطريق السريع إلى بور سودان، لتفجير أنفاق كبرى في جبال «زازاي» بمقاطعة «بختيا» من أجل إقامة مستشفيات لحرب العصابات ومستودعات للأسلحة؛ ثم أنشأ طريقاً ترابية للمجاهدين عبر أفغانستان، لا تبعد عن كابول سوى ٢٥ كيلومتراً، وهذا عمل فذّ من أعمال الهندسة، لا يستطيع الروس أبداً أن يهدموه. ولكن ما هي الدروس التي استخلصها بن لادن من حربه ضد الروس؟ لقد جُرح خمس مرّات، واستُشهد خمسمئة من مقاتليه في معارك مع السوفيات ـ وقبورهم شاهدة على ذلك داخل الحدود الأفغانية عند «تورخام» ـ ولكن، حتى بن لادن نفسه ليس خالداً، أليس كذلك؟

قال بن لادن: «لم أخفْ أبداً من الموت، لأننا كمسلمين نعتقد أننا ندخل الجنة عندما نموت». وهنا توقف عن فرك أسنانه بالمسواك، وانحنى إلى الأمام، وهو يتكلم ببطء واستمرار، ومرفقاه على ركبتيه: «إن الله تعالى يُنزل علينا «السكينة» قبل المعركة. فقد حدث مرة أن كنت لا أبعد عن الروس أكثر من ثلاثين متراً، بينما كانوا يحاولون القبض عليّ. لقد كنتُ آنذاك تحت القصف، ولكني كنتُ هادئاً في قلبي إلى درجة أني استغرقت في النوم. وهذه «السكينة» منصوص عليها في كتبنا الأولى. لقد رأيت قذيفة مدفع هاون من عيار ١٢٠ ملِّيمتراً تسقط أمامي دون أن تنفجر، كما أسقط الروس أربع قنابل أخرى من طائرة لهم على مركز قيادتنا، لكنها لم تنفجر. لقد تغلّبنا على الاتحاد السوفياتي. وهرب الروس... وقد كان الزمن الذي أمضيته في أفغانستان أهمّ خبرة مرَّت في حياتي».

ولكن ماذا عن العرب المجاهدين الذين استقدمهم إلى أفغانستان ـ أعضاء حرب العصابات الذين شجَّعتهم وسلَّحتهم أيضاً الولايات المتحدة الأميركية ليقاتلوا الروس، والذين تجاهلهم أسيادهم حالما وضعت الحرب أوزارها؟ كان بن لادن مستعداً للإجابة عن هذا السؤال، فقال: «لم أرَ شخصياً، ولم يرَ

إخواني أية بيِّنة على عونٍ أميركي. وعندما انتصر مجاهدونا وطردوا الروس من أفغانستان، دبّ الخلاف، فعدت إلى بناء الطرق في «الطائف» و«أبها». جلبت معي المعدَّات التي استخدمتها لبناء الأنفاق والطرق للمجاهدين في أفغانستان. أجل، ساعدت بعض رفقائي للقدوم إلى هنا بعد الحرب». سألت عن عددهم، فهز بن لادن رأسه وامتنع عن الإجابة. «لكنهم يعملون معي هنا الآن، ويبنون هذه الطريق إلى بور سودان».

وقبل شهر، كنتُ مكلّفاً تغطية حرب البوسنة، فأخبرته أن المقاتلين البوسنيين المسلمين في بلدة «ترافنيك» ذكروا اسم بن لادن لي. فأثار ذلك اهتمامه. وكلما رأيت بن لادن، كان يبدو شغِفاً بأن يسمع ما يقوله عنه العلماء والمحاربون المسلمون، لا معتقدات أعدائه. قال: «لديّ الشعور ذاته بخصوص البوسنة، لكن الوضع في البوسنة مختلف عنه في أفغانستان. فقد ذهب عدد من المجاهدين ليقاتلوا في البوسنة والهرسك، لكنّ الكرواتيين لم يسمحوا لهم بالمرور عبر كرواتيا كما فعل الباكستانيون مع أفغانستان». ولكن أليس انحطاطاً أن ننتقل من الجهاد في سبيل الإسلام ولوجه الله في أفغانستان إلى بناء الطرق في السودان؟! وهكذا صار بن لادن أكثر تمحيصاً في استعمال كلماته. واستأنف حديثه قائلاً: «إنهم يحبون عملي هنا، وأنا أحبه أيضاً. إنه مشروع جليل ننجزه للناس هنا، إذ إنه يساعد المسلمين ويحسِّن نوعية حياتهم».

في تلك الآونة، لاحظت أن رجالاً آخرين من السودانيين، لا من رفاق بن لادن السابقين، قد تحلَّقوا حولنا ليستمعوا إلى محادثتنا. وبالطبع أدرك بن لادن وجودهم قبلي. فسألته: ما رأيك في الحرب الجارية في الجزائر؟ فانبرى رجل يلبس بدلة خضراء، يسمّي نفسه محمد موسى ـ ويدّعى أنه نيجيري، مع أنه رجل أمن تابع للحكومة السودانية ـ وربَّت على ذراعي قائلاً: «لقد سألت بما فيه أكثر من الكفاية. فهل لنا بصورة»؟ تردد بن لادن ـ لأنه قلّما يفعل ذلك ـ وأحسست أنه متردّد بين الحذر وحبّ الظهور. وفي النهاية، وقف على الطريق الجديدة بثوبه المذهبة أطرافه، وابتسم ابتسامة باهتة إزاء آلة التصوير التي

تخصّني، لأخذ صورتين؛ ثم رفع يده اليسرى مثل رئيس جمهورية يقول للصحافة أن وقتها انتهى؛ وانصرف بن لادن ليتفقّد شؤون الطريق التي يبنيها.

ولكن ما كانت طبيعة «الجمهورية الإسلامية» الأخيرة التي تستحوذ على مخيّلة بن لادن؟ كان له بيت في الخرطوم ـ وشقّة صغيرة في جدَّة حتى جرَّده السعوديون من مواطنيته السعودية ـ وكان يعيش في السودان مع زوجاته الأربع، وإحداهنّ في سنّ المراهقة. وكانت شركته ـ وهي غير شركة أبناء عمّه الكبرى ـ تتلقى نظير عملها بالعملة السودانية، التي كانت تُستخدم لشراء السمسم، والذرة، وبزور دوّار الشمس للتصدير. لم يكن الربح هاجس بن لادن وأول أولوياته. فهل كان كذلك بالنسبة إلى السودان؟

بالتأكيد، كان السودان يعتز أيضاً بقوة إسلامية كبرى مهدِّدة للغرب، تتمثَّل بحسن عبد الله الترابي، العدو «لظلم» الغرب، و«أحد الشياطين» بحسب وصف الجرائد المصرية. لقد كان بمثابة «آية الله» الخاص بالخرطوم، والعالم المجتهد القائد للجبهة الإسلامية القومية التي دعمت حكومة اللواء عمر البشير. وفي الواقع، يفتخر قصر «البشير» بالدرج ذاته الذي شهد مصرع اللواء شارلز غوردون عام ١٨٨٥ على يد أتباع المهدي محمد أحمد بن عبد الله الذي كان يطالب على غرار بن لادن بالعودة إلى «النقاء» الإسلامي. ولكن عندما ذهبتُ للتحادث مع الترابي في مكتبه الإنكليزي القديم، ربض كطائر على كرسي، جاثماً جزئياً على رجله اليسرى القابعة تحته، وثوبه الأبيض مزيَّن بوشاح صغير مخطَّط، ويحرّك إحدى يديه أمام لحية سوداء تخالطها خطوط من الشيب. إنه الرجل الذي نظَّم «المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي» الذي جئتُ مبدئياً لتغطية أعماله؛ وفي مركز المؤتمرات الواسع في الخرطوم، وجدتُ تجمّعاً لكل نوع من المتعادين، من الإسلاميين، والمسيحيين، والوطنيين والأصوليين؛ وقد ارتبطوا كلهم بدعوة الترابي إلى الاعتدال. وفيهم: الشيعة، والسنَّة، والعرب، وغير العرب، وحركة فتح التي يتزعمها ياسر عرفات، وكل خصومه العرب: حماس، وحزب الله، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وجبهة الإنقاذ الإسلامية

الجزائرية ـ بكاملها؛ فضلاً عن: ممثلين لحزب الشعب الباكستاني، وحزب النهضة في تونس، والأفغان من جميع الاتجاهات، وموفد من قبل محمد عيديد من الصومال الذي لم يستطع أن يحضر بسبب ملاحقته من قبل الجيش الأميركي في مقاديشو.

إنهم يمثلون كل تناقض موجود في العالم العربي ويجتمعون في مدينة تتميز بهندسة معمارية استعمارية بريطانية ـ بدور من طبقتين منخفضة السقوف، يُعرِّش عليها نبات «بوغينفيلية»، ومكاتب حكومية حارَّة، ومكاتب مزرية للشرطة ـ بجانب الشعارات الثورية التي عفّى عليها الدهر. هنا تلتقي مياه النيل الأزرق والنيل الأبيض، وهنا همزة الوصل الدائمة بين العالم العربي وإفريقيا الاستوائية. وهنا شهد السودان ١٣ سنة من الحكم الوطني ـ المهدية ـ و٦٠ سنة من الحكم الذي سيطر عليه البريطانيون من القاهرة، و٤٠ سنة من الاستقلال المشاكس. كل ذلك أعطى هذا البلد هويّة واهنة، مرهقة، وغير مبتوتة. فهل هذا بلد إسلامي؟ إذ حكمه بعد الاستقلال حزب «الأمّة» بزعامة ابن المهدي وأحفاده، أم أنه سيبقى بلداً اشتراكياً إلى الأبد، إذ استولت على حكمه أنظمة عسكرية منذ عام ١٩٦٩؟

كان الترابي يحاول أن يكون وسيطاً بين عرفات الذي وقّع اتفاق «أوسلو» مع إسرائيل ومناهضيه في العالم العربي ـ أي الجميع تقريباً ـ وبالتالي أن يحمل واشنطن بأسلوب غير رهيف، على شطب السودان من قائمة «الدول الإرهابية»، عن طريق إقناع حماس والجهاد الإسلامي بدعم عرفات. قال الترابي بإصرار: «أنا شخصياً أعرف عرفات معرفة جيدة؛ إنه صديق حميم لي. كان إسلامياً كما هو معلوم، ثم انتقل تدريجاً إلى «النادي» العربي... لقد كلّمني قبل توقيع «الاتفاق مع إسرائيل». وجاء إلى هنا، إلى السودان. وها أنا الآن أعرض قضيته على الآخرين ـ لا كمسألة صحيحة، بل كأمر ضروري ملحّ. ماذا يستطيع أن يفعل؟ لقد نفد المال لديه؛ وانحلّ جيشه؛ وهناك اللاجئون، وعشرة آلاف سجين في زنزانات إسرائيل. فلو حصل على بلديّة لكانت أفضل من لا شيء».

ولكن، إذا تحوّلت فلسطين إلى بلديّة، فأين العرب الآخرون من هذا؟! لا شك في أن هناك حاجة إلى قائد لا يتكلم بلغة الاستسلام، إلى قائد محارب، أثبت أنه يستطيع أن يهزم قوة عظمى. ألم يعتقد المهدي أنه كذلك؟ ألم يحثّ المهدي مقاتليه ليلة الهجوم على الخرطوم، أن يتقدموا ويقارعوا اللواء «غوردون» حتى لو فني ثلثاهم؟ ـ ولكن السودان، ككل بلد عربي آخر تقريباً، أعاد تنظيم نفسه لمصلحة قادته، وصار عاصمة الفضائل، كما تقول اللافتات في الشوارع، في ذلك الشهر، شهر كانون الأول/ ديسمبر. واستبدل بالقِيَم أحياناً تعبير الفضائل، مما لا يعني الشيء ذاته.

ولكن لم يكن السودان كما يبدو، فالحركة في محطات القطارات تحت الشمس اللاهبة، لا توحي بالتحضير لـ «جمهورية إسلامية». ولا توحي بذلك أيضاً زمر الجنود الناعسين الجالسين بلباسهم الأخضر في ظل محطة مهشَّمة، بينما تنتظر قطعتان من المدفعية الثقيلة الشحن إلى موقع الحرب الأهلية في الجنوب على قطار يكاد يبلى. لقد ناصرت بريطانيا طويلاً انفصال الجنوب المسيحي من السودان، حيث لا تشيع اللغة العربية والدين الإسلامي، حتى الاستقلال، عندما قررت لندن فجأة أن سلامة السودان بكامل أراضيه أهم من انفصال الجنوب عنه. لكن الأقلية الجنوبية في السودان تمرَّدت، وصار تمرّدها مدار الحياة السودانية الحالية.

وعلى المسؤولين في الخرطوم أن يفسِّروا يوماً ما شأن قائمة طويلة من فظائع الحرب الأهلية التي نُمِيَتْ إلى الأمم المتحدة عام ١٩٩٣، وصدر عنها تقرير في العام التالي. وتكلم فيها شهود عيان عن حوادث اغتصاب، ونهب، وقتل، في منطقة بحر الغزال الجنوبية، فضلاً عن استمرار خطف الآلاف من الأولاد الجنوبيين في شوارع العاصمة. وبحسب الوثائق الميسورة، ارتكبت أكثر الفظائع الحديثة في شهر تموز/يوليو السابق عندما قام الجيش السوداني بسوق قطار يحمل رجالاً من الميليشيات المستأجرة محلياً، إلى أرض واقعة تحت سيطرة جيش التحرير الشعبي السوداني. وكان ذلك بإمرة ضابط دعته الصحف باسم النقيب «جينات»، قائد المخيّم التابع لقوة الدفاع الشعبية في بلدة

«موجلاد» في جنوبي «قردفان»، وعضو المجلس الحكومي السوداني في مدينة «وو» (Wo) الجنوبية. وهناك ترك الحبل على غاربه لهذه الميليشيات لتفتك بقرى قبائل «الدنكا» على طول خط القطار، وتهدم كل قرية على مدى عشرة أميال على جانبي الخط. فقتلوا الرجال، واغتصبوا النساء، وسرقوا آلاف رؤوس الماشية. وشملت البيِّنات المجموعة من رجال القبائل الذين هربوا دون عائلاتهم تفاصيل عن مجزرة حفلة زواج مسيحي، ذهب ضحيتها ٣٠٠ شخص قرب نهر «لول». كما ادّعت الوثائق التي حصلت عليها الأمم المتحدة أن جنود الحكومة، مع الميليشيات القبَلية الموالية لها، قتلوا أعداداً كبيرة من أفراد قبائل «الدنكا» في المخيم الذي لجأوا إليه في «ميران» خلال شهر شباط/فبراير الماضي.

فإذن لم يكن هذا بلداً معروفاً بعدالته، أو بحقوق الإنسان، أو بالحرية. وفي الواقع، تمّ تشجيع الموفدين إلى القمة الإسلامية بأن يعبّروا بحرية عما يجول بخاطرهم. وكان مصطفى سيريك، إمام البوسنة، فصيحاً صريحاً في تِبيان إبادة شعبه على يد جيرانه الصرب، وفي إدانته لقوى حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في بلده. لقد التقيته في سراييفو منذ سنة، عندما اتَّهم الغرب بفرض حظر تسلّح على القوى البوسنية، لسبب أوحد هو كونهم مسلمين؛ وبقي تهكّمه في أحسن حالاته في الخرطوم أيضاً. قال لي: «لقد أرسلتم جنوداً إنكليزاً، ونحن نشكركم على ذلك؛ ولكنكم لن تعطونا أسلحة كي ندافع عن أنفسنا ضد «الشتنيك» أي الصرب، لأنكم تعتبرون أن ذلك يوسّع نطاق الحرب، ويعرِّض للخطر الجنود الإنكليز الذين أرسلتموهم إلينا». كان سيريك من أولئك الرجال الذين يُشعرون الآخرين بحاجتهم إلى التواضع.

وهكذا حتى مؤتمر القمة في السودان جاء رمزاً لإذلال المسلمين، والعرب، ولجميع الإسلاميين والقوميين الثوريين وغيرهم ممَّن هيمنوا على الشرق الأوسط «الحديث». وقد انفرد بي مندوبو حزب الله جانباً، وأسرُّوا إليّ بهشاشة الحكم القائم. وقال لي أحدهم: «لقد دُعينا إلى عشاء على مركب مع الترابي. وطاف بنا المركب على النيل صعوداً ونزولاً لفترة، وكنا نلاحظ وجود حرّاس حكوميين

يراقبوننا على الضفّتين كلتيهما. وفجأة، انطلقت عيارات نارية من أحد الأعراس؛ وكنا نستطيع سماع موسيقى العرس. لكنّ الترابي كان خائفاً جداً إلى درجة أنه هرول من مقعده، وانطرح أرضاً لعدة دقائق. إننا في مكان غير مستقر». وكذلك الأمر بالنسبة إلى مظهر حرية التعبير، فلم تكن هذه الحرية لترفع ستار العزلة الذي أقامته الولايات المتحدة وحلفاؤها للسودان، أو لتحمي الضيوف المرموقين.

وبعد شهرين من مقابلتي بن لادن اقتحم مسلّحون بيته في الخرطوم، وحاولوا اغتياله. واشتبهت الحكومة السودانية بأن محاولي القتل كانوا مأجورين لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وبات من الواضح أن هذا المكان لم يعد صالحاً لمهديّ آخر زمان. وقد جرّدته السعودية من مواطنيّته في آخر العام. وطلب السعوديون والأميركيون تسليم الفارّ بن لادن. ولكنّ السودان فضّلت الخضوع عن طريق تسليم فارٍّ آخر إلى فرنسا؛ ألا وهو «إيليك راميريز سانشيز» المعروف باسم «ابن آوى: كارلوس»، الذي احتجز أحد عشر وزيراً في مؤتمر «أوبيك» في فيينا عام ١٩٧٥، ونظم هجوماً على السفارة الفرنسية في لاهاي. لكن كارلوس كان ثوريّاً شائخاً، بديناً مدمناً على الشراب، متعفناً بحيث تمكن «خيانته»، بينما كان بن لادن من طينة أخرى. وقد ألقي باللوم على أتباعه واتهموا بأنهم فجّروا قنابل في الرياض في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٩٥، ثم في الثكنات الأميركية في الخُبَر خلال السنة التالية، مما أدّى إلى مقتل ٢٤ أميركياً وهنديين. وفي عام ١٩٩٦، سُمح له بأن يغادر إلى البلد الذي يختاره ـ وكان ذلك الملجأ الذي اكتشف فيه الكثير عن دينه وإيمانه.

وهكذا كان أن رنَّ التلفون في مكتبي ببيروت أثناء أمسية حارَّة في أواخر حزيران/يونيو من عام ١٩٩٦، وقال المتحدث بلغة إنكليزية ذات نبرة عربية: «يا سيد روبرت، إن الصديق الذي قابلته في السودان يريد أن يراك». ظننتُ أولاً أنه الخاشقجي، مع أني تعرفت عليه عام ١٩٩٠، قبل أن أذهب إلى الخرطوم بوقت طويل. فأردف: «لا. لا. يا روبرت، أقصد الرجل الذي عقدتَ مقابلة معه. هل تفهم؟ ـ نعم، فهمت. ولكن أين سأقابله؟ ـ حيث هو الآن. وكنت

أعلم أن بن لادن عاد إلى أفغانستان، بحسب الشائعات، ولكني لم أتأكد من ذلك. إذن كيف سأصل إليه؟ كان الجواب: «إذهب إلى جلال أباد سيتصلون بك». وأخذت رقم المتكلم، فإذا به من لندن.

كانت السفارة الأفغانية الوحيدة التي تعطيني سِمة سفر. ولم أكن على عجلة من أمري. وقلت في نفسي: لو أراد كل «بن لادنات» العالم إجراء مقابلات معهم، لما امتثلت جريدة «الإندبندنت» لإرادتهم. لكنها مغامرة صحافية. هناك ألف مراسل يريدون أن يجروا مقابلة مع أسامة بن لادن. ولكني فكرت في أن من الأفضل أن لا أسارع إلى تلبية الطلب خلال ساعات، حفاظاً على احترام الذات. وكان لديّ أيضاً شاغل أكثر إلحاحاً. فمع أن الأجهزة السرّية للشرق الأوسط ولباكستان خدمت وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) في مساعدة المجاهدين ضد الروس، فكثير منها اليوم صار في حرب مع منظمة بن لادن، الذي يحمِّلونه مسؤولية عصيان بعض الفئات الإسلامية في بلادهم. فمصر، والجزائر، وتونس، والعربية السعودية، كلها اشتبهت بأن يكون بن لادن له يد في أعمال التمرّد التي حصلت فيها على التوالي. وماذا لو كانت الدعوة حيلة مدبَّرة بحيث تقود الشرطة المصرية أو أجهزة المخابرات الباكستانية الموجودة في كل مكان والمسمّاة منظمة الخدمات المشتركة (ISI)، على غير علم مني، إلى ملجأ بن لادن؟ أو لو كانت ستغري هذا المراسل وتقوده إلى حتفه، ثم تتهم الإسلاميين بمقتله؟ وكم من المراسلين سيتجرأون بعد ذلك على مقابلة بن لادن؟ خابرت الوسيط في لندن، وسألته: «هل يمكن أن يقابلني في فندقي؟».

خابرني موظف الاستقبال في فندق «شيراتون بلغرافيا» قائلاً: «هناك شخص في بهو الفندق يريد مقابلتك». و«البلغرافيا» هو أصغر فندق «شيراتون» في العالم. ولو لم تتوافق أسعاره مع لقبه، فقد كان البهو فيه ذلك المساء كعادته رخامي البلاط، وخشبي التزيين، وحكراً على شاربات الشاي من السيدات المتقدّمات في السن، ورجال الأعمال بالمعاطف القصيرة وشعورهم البيضاء تلامس حافّة الياقة، والنساء الأنيقات بالجوارب السود. وعندما وصلت إلى البهو لاحظت رجلاً واقفاً عند الباب، ضخم اللحية، مرتدياً ثوباً أبيض وخُفّاً

من البلاستيك، على قدمين حافيتين؛ يحاول أن لا يلفت إليه النظر. فهل هذا هو رسول بن لادن؟

نعم إنه هو. كان الرجل مشرفاً على جماعة لندن من «لجنة النصح والإصلاح». وهي جماعة سعودية مستوحاة من بن لادن، تصدر بانتظام بيانات طويلة متعبة ضد العائلة المالكة السعودية. جلس الرجل في بهو الفندق يشرح الطبيعة الخيّرة الشريفة لأسامة بن لادن. ولم يكن هناك ما يدل على أن لهذا الرجل شخصية عنيفة. وفي الواقع، عبّر لي بعد سنتين عن ضيقه وقطيعته مع بن لادن، عندما أعلن هذا الحرب على الأميركيين، و«الصليبيين»، واليهود. ولكن في عام ١٩٩٦، لم يكن البطل السعودي للحرب الأفغانية ليقوم بأي مبادرة خاطئة. قال الرجل: «إنه رجل مخلص، يا سيد روبرت؛ وهو يريد أن يتحدث إليك. فلا تخف من أي شيء». وهذا هو ما كنتُ أودّ سماعه، ولو كنت أعتقد بأمر آخر. فقلت له: «سأنزل في فندق «سبينجهار» في جلال أباد».

كان خط الطيران الملائم إلى شرق أفغانستان يبدأ من الهند، لكن رحلة الخطوط الجوية الأفغانية «أريانا» الرقم (FG315) القادمة من نيودلهي لم تكن تحمل مجلّات للقراءة أثناء الطيران. وكانت النسوة من ركاب الطائرة محجّبات بالكامل بالبرقع، وكان طاقم الطائرة مؤلفاً في معظمه من الملتحين، وكانت علبة الثمر الصيني المسمّى «ليتشي» المعدَّة للعصير ملطخة بالطين. مشى رئيس المضيفين إلى مقعدي، وجثم في الممر إلى جانبي، وهمس في أذني: «سنطير على ارتفاع ٣١٠٠٠ قدم»؛ وكأنه يُفضي إليّ بسرّ حربي. وعندما اقتربنا من مهبط الطائرات في جلال أباد، دار القبطان بالطائرة ١٨٠ درجة، ممّا رفع ضغط دمنا، ثم نزل بطائرته على أول إنش من المهبط الضيّق المعبَّد بمادة «التارماك» التي تشبه الإسفلت ـ ليعطي نفسه مجالاً كافياً لإيقاف الطائرة النفاثة قبل قدم واحدة من نهاية المدرج. وإذ أخذتُ بنظر الاعتبار الرادار السوفياتي الصدىء، وإمكان خراب طائرة «أنطوفوف»، أدركتُ حينئذٍ قلّة توافر وسائل الأمان والراحة لدى هبوط الطائرات في جلال أباد، بحيث لا تشبه مثيلاتها في مطار «هيثرو» ومطار «كنيدي».

وعندما مشيت بجهدٍ حاملاً حقائبي، لاحظت أن مبنى المهبط خالٍ، وأن آثار طلقات الرصاص لا تزال ماثلة عليه. لم يكن هناك موظفو هجرة أو جمارك، أو أي شخص بيده ختم، سوى ستة شبّان من الأفغان، يحمل أربعة منهم رشّاشات. نظروا إليَّ بمزيج من الإعياء والاشتباه. ولم تنفعني كثرة التفوّه «بالسلام عليكم» في استخلاص أي فرح وابتهاج منهم جميعاً، سوى دمدمة بلغة «البوشتو»، ولسان حالهم يقول: ماذا يفعل هذا الغريب الذي لا يعتمر شيئاً على رأسه هنا في أفغانستان، وبيده آلة تصوير جديدة في كيسها، وجرابه الذي يحوي قمصاناً وقصاصات جرائد؟ قلت: «تاكسي». فأشاحوا بوجوههم عني، ناظرين إلى الطائرة الملوّنة بالأزرق والأبيض التي حطّت تحت الخطر في البلد، وكأنها تحمل السر الذي أحضرني إلى هنا.

أتيحت لي فرصة مرافقة أحد عمال الإغاثة الفرنسيين؛ وكأنهم في كل مكان. وكانت جلال أباد مدينة سمراء غبراء، بيوتها من الطين والخشب، وشوارعها ترابية غير مرصوفة بالبلاط أو بغيره، وجدرانها بلون المُغْرة تفوح منها رائحة الفحم وروث الخيل. كان فيها الحمير والأحصنة الفحول، وعربات الدولابين على النمط الهندي، والدرّاجات الفيكتورية، وواجهات المحلّات المكسوّة بألواح الخشب؛ إنها «مدينة دودج» (Dodge City) التي انتقلت إلى شبه القارة. لم يكن للخرطوم شيء من هذا. ويُروى أن اثنين من رجال حرب العصابات التابعين للمهندس حكمتيار، دخلا صالون حلاقة في الوقت ذاته خلال الشهر الماضي، وقبل أن يقرّرا مَن منهما هو الأول في الصف للفوز بقصة شعره العادية قتلا المزيِّن وشخصين آخرين بإطلاق النار. مع العلم أن ثلث جميع الأطفال الموجودين في مستشفيات جلال أباد كانوا ضحايا إطلاق رصاص ابتهاج في الأعراس. إنها مدينة حان وقت تطبيق الانضباط الإسلامي عليها.

ومن الوكالات والهيئات التي كانت هناك: وكالة سايف (SAVE)، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وأطبّاء بلا حدود، و«ماديرا»، واللجنة الدولية للصليب الأحمر، ووحدة الطوارىء الميدانية، و«ساندي جول للأيتام»، واللجنة السويدية للأفغان، والمفوضية العليا لشؤون اللاجئين، ووكالة ألمانية زراعية. وكانت

تلك بعض المكاتب المشار إليها باللافتات بعيداً عن الطريق العامة الواسعة المؤدية إلى كابول. وبعد سبع سنوات على مغادرة آخر الجنود السوفيات أفغانستان، وأربع سنوات على إطاحة حكومة الرئيس محمد نجيب الله الشيوعية، انقضّ المجاهدون الأفغان المنتصرون في الحرب بعضهم على بعض يتقاتلون في كابول. ما هي القضية إذن؟ ـ أكان إرسال هذه الوكالات إلى كابول لتلطيف شعورنا بالذنب جرّاء إهمالنا الشعب الأفغاني، حالما استنفد أغراضه بإخراج الروس من بلاده؟ ـ لم يكن للأمم المتحدة من قوة عسكرية سوى جنديين يراقبان الفوضى الحاصلة في أفغانستان: أحدهما سويدي والآخر إيرلندي؛ وكلاهما مقيمان في فندق سبينجهار.

وفندق سبينجهار هذا من بقايا الطراز الأفغاني الهيپي (Hippy trail)، ذو سقف عالٍ، ويعود إلى الخمسينيّات من القرن العشرين، وتحيط به حدائق الورود وأشجار النخيل الباسقة، وينعم حتى في فصل الشتاء بدفء الرياح التي تأتي من وادي الهندوس. ولكن، في عذاب حرّ الصيف عام ١٩٩٦ ـ واليوم في منتصف شهر تموز/يوليو ـ يهدر مكيّف الهواء ويلعب معي لعبة (Catch 22): أفتحه لكي أبرِّد غرفتي المزدوجة في أعلى الدرج، فيقلق راحتي ضجيج محرّكه الذي يشبه زئير النمر، ويجعل نومي مستحيلاً. ولذلك أغلقه. وحالما أدير رأسي ناحية الكتاب الوحيد الموجود قرب سريري: «قصص صريحة من الراج» (Raj)، يسيل العرق على ذراعي، ويلصق أصابعي على صفحات الكتاب.

ثم أسمع خشخشة أو صوتاً خشناً يأتيني من مكيّف الهواء الساكت. فأنهض وأرى على بُعد خمس أقدام من وجهي عظاءة برأس تنّين، تنظر إليّ من خلال ألواح المكيّف الباردة. وعندما أرفع يدي، يختفي الرأس لحظة، ثم يعود بشكل وجه مسلَّح مصغّر لديناصور من نوع «برونتوصوروس» الكبير، متبوع بجذع مطاطي، بادياً بلون أخضر أغبر في أشعّة بعد الظهر الخافتة، مع قدمين ماصَّتين تقبضان على المخارج البلاستيكية لمكيّف الهواء. وهو يتحرّك نخعاً، كما هي الحال في الأفلام الصامتة. أرى وجهه لحظة، ثم يستدير بسرعة فائقة ويرخي

نصف جسمه المطاطي الذي يعلو ويهبط بالتنفس خارج الآلة. وبعد هنيهة أخرى يبدو نصف قدمه الكبيرة معلقاً بالستارة فوق سريري، فيتأرجح ويعود فينظر إليّ من فوق كتفه التي تبدو كقلعة حربية. فأتساءل ماذا يفعل هذا المخلوق هنا؟ ثم يعود ويختفي وراء الأغطية.

وبالطبع، أفتح مكيّف الهواء، وأغرق الغرفة بالهواء المثلج؛ وأتراجع إلى آخر السرير، وأراقب حركاته عند أعلى قضيب الستارة. إني خائف من هذا الحيوان، وهو خائف مني. ثم أدرك بعد نصف ساعة أن البرغيين اللامعين على قضيب الستارة هما عيناه اللتان تبدوان كخرزتين. وهكذا يستغرق كل منا في مراقبة الآخر ـ فهل هناك من يراقبني؟ ـ واستيقظ في الصباح التالي، منهوكاً، منقوعاً بالعرق. وأسأل موظف الاستقبال، الصبي الذي يرتدي قميصاً طويلاً و«باكولاً» (Pakul) تقليدياً، فيجيب بأنه لم يتصل بي أحد. إن بن لادن له أصدقاء في جلال أباد، وقادة قبليّون يعرفونه، ويحمونه، حتى إن الرجل الذي قابلته في لندن قال: «إن عليّ إعلام المهندس محمود أني وصلت إلى أفغانستان لرؤية الشيخ أسامة».

وتبيّن أن المهندس محمود يعمل مع «وحدة مكافحة المخدّرات» في شارع خلفي من جلال أباد. وليس من المستغرب أن يسعى بن لادن إلى استئصال استعمال المخدّرات. ففي عام ١٩٩٦، كانت أفغانستان أكبر مصدِّر للأفيون غير المشروع، بإنتاج يبلغ ٢٢٠٠ طنّ متري (= ١٠٠٠ كيلوغرام) من الأفيون ـ حوالى ٨٠٪ من الهيرويين المتداول في أوروبا الغربية. والأفغانيون أيضاً غير معصومين عن المخدرات. فبوسعك أن تراهم في سوق جلال أباد، شباباً بأذرع سوداء ذاوية، وعيون غائرة، ومدمنين عادوا من مخيمات اللاجئين في باكستان، كشهود على الفساد الذي زرعه الهيروويين. ويرى أحد موظفي المعونة من الغربيين أنه ربما يتّعظ الأفغان عندما يشاهدون آثار الخشخاش الذي يزرعونه. فإذا كانوا مسلمين حقاً، عليهم أن يتوقفوا عن زرعه. فهل يفعلون؟ أردف بابتسامة متجهِّمة.

ربما لن يفعلوا. فإقليم «نانجرهار» الشرقي ينتج ٨٠٪ من زراعة الخشخاش

في البلاد ـ ليصدِّر ٦٤٪ من هيروويين أوروبا الغربية ـ وقد نُقلت مختبراته من باكستان إلى قطاع حدودي داخل أفغانستان، لإنتاج مئات الكيلوغرامات من الهيروويين يومياً. مع العلم أن هذه المنشآت مجهزة بمدافع مضادة للطائرات، وبعربات مدرَّعة لمجابهة أيّ هجوم يقع عليها. ويدّعي موظفو الحكومة المحلية في جلال أباد أنهم أتلفوا ٣٠ ٠٠٠ هكتار من حقول الأفيون والحشيش خلال السنتين الماضيتين. ولكن جهودهم مهما كانت شجاعة إزاء النفوذ العسكري لمنتجي المخدرات، فهي مساعٍ ميئوس منها، على غرار محاولات العالم لإيجاد حل لسوء استعمال المخدرات.

وفي مكتب المهندس محمود، تبدو المشكلة سهلة. فهناك خريطة على الجدار تبيِّن في إقليم «نانجرهار» إشارات ترمز إلى موقع عند الحدود الشرقية، حيث حقول الأفيون ومختبراته التي يكافحها محمود برجال «كومندوس» مسلّحين أيضاً. وهو يقول: «نحن نتلف حقول الحشيش، ونلزم المزارعين بحراثة الأرض؛ كما نأخذ جرّاراتنا لفلاحة حقول الخشخاش. نصطحب أسلحتنا وصواريخنا، ولا يستطيع المزارعون أن يفعلوا شيئاً لوقف ذلك. والآن دعا مجلس الشورى عندنا العلماء أي الشيوخ لتوعية الناس بمضارّ إنتاج المخدرات، مستشهدين بآيات من القرآن الكريم لدعم كلامهم. ولأول مرة، استطعنا إتلاف حقول الحشيش، دون استعمال القوة». وقد تشجع محمود ورجاله العشرة واشتد عزمهم لمساعدة الأمم المتحدة ودعمها لمشروعهم. وفي السوق المفتوحة في جلال أباد، كان المزارعون يتلقّون ١٤٠ دولاراً أميركياً لقاء ٧ كلغ من الحشيش، و٢٥٠ دولاراً أميركيا لقاء ٧ كلغ من الأفيون ـ أي ما يناهز السعر ذاته الذي قد يتلقونه إذا زرعوا حبوباً. ولذلك أمدَّت الأمم المتحدة ببزور القمح أولئك المزارعين الذين تحوَّلوا عن إنتاج المخدرات، على أساس أنهم سيحققون الربح ذاته في أسواق جلال أباد.

وقبل عدة شهور، زار المهندس محمود واشنطن. وهنا تتبدّى الجغرافيا الغريبة التي تمسّ اتصالات بن لادن. قال محمود: «أخذتني السلطات الأميركية للوقاية من المخدرات إلى مركز قيادتها. وقد لا تتصوّر ضخامتها، إنها تعادل

نصف مدينة جلال أباد. وعندما دخلتها وجدتها فخمة، وفيها وفرة من الحواسيب. لديهم كل المال هنا ـ ولكن ليس لديهم أيّ منّا، نحن الذين نكافح إنتاج المخدرات». كان رجال المهندس محمود المتقدمون في وظيفتهم، يتلقون شهرياً أقل من خمسين دولاراً. وقد قال مساعده الأول شمس الحق أن وحدة مكافحة المخدرات اشترت ٤٠٠٠ كلغ من بذار الذرة ووزعته على المزارعين، في الشهر الماضي. ولكن المنظمات غير الحكومية الغربية الموجودة في جلال أباد، ليس لديها وقت لتهتم بكل هذه الأمور. وقد ذهب الحاج قادر حاكم جلال أباد إلى المسؤولين عن مكافحة المخدّرات في إسلام أباد وقال لهم: «لقد أتلفت ٠٠٠ ٢٠ هكتار من حقول الأفيون، وعليكم أن تساعدوني، فالناس تنتظر مساعدتكم». ولكن القضية كانت أكثر تعقيداً من ذلك، فالمزارعون الذين لم يسبق لهم أن زرعوا الخشخاش أقبلوا على زراعته، كي يحصلوا على بذار الذرة المجّاني، تعويضاً لهم عن إتلاف ما زرعوه. وقد ساور الشك موظفي المعونة، إذ شعروا بأن المزارعين يداورون منتوجاتهم الزراعية بين القمح والمخدرات في كل موسم، فيبيعون الأفيون للحصول على مزيد من المال، ومن أجل الأسلحة التي نُقلت مؤخراً في صناديق عبر محطة القطارات الباكستانية المسماة «لاندي كوتال»، على متن قطار البخار في بشاور إلى الحدود الأفغانية.

لقد أصبحت زراعة الخشخاش عملاً تجارياً؛ واستقدم زبائن «بارونات» المخدرات مستشارين فنيين، يزورون «نانجرهار»، ليقدموا نصائحهم بخصوص المحصول والمنتوج؛ وصاروا يدفعون مقدّماً؛ ويهتمون بصحّة عمالهم، فيعطونهم أقنعة ليلبسوها في مصانع الأفيون. ويُروى أنهم قدّموا لهم أيضاً تأمينات صحية. إنها الرأسمالية على مستوى غير قانوني، لا يرحم. وعندما سألت موظفاً أوروبياً من موظفي الأمم المتحدة: «كيف يستطيع العالم أن ينافس بهذا الشأن»؛ أخذ نفساً عميقاً وصاح «اجعلوا المخدرات قانونية؛ إن ذلك يؤذن بنهاية «بارونات» المخدرات؛ إنهم سيفلسون ويقتل بعضهم بعضاً. ولكن العالم لن يقبل بهذا الحل. ولذلك سنستمر نجاهد في حربنا الخاسرة».

وقد هزّ المهندس محمود كتفيه استهجاناً عندما أبلغته ذلك. ماذا يستطيع أن يفعل؟ وأثرت معه موضوع «الشيخ أسامة» للمرة الثالثة. وكررت أن الشيخ يريد أن يراني، ولم أكن ساعياً إليه. وقد جئت إلى جلال أباد بناء على طلبه. إنه يفتش عني. فقال المهندس محمود بمنطق تخريبي: «ولماذا تطلب مني أن أجده لك؟». ولم تكن المشكلة مشكلة لغة بيني وبينه، لأنه يتكلم الإنكليزية بشكل ممتاز. لقد كان ذلك مزيجاً من الفهم والاشتباه. فقلت إن شخصاً لا أريد أن أسمّيه ـ ذلك الشخص في لندن ـ اقترح عليّ أن أتصل بمحمود، لعلّه يخبر الشيخ أنني موجود في فندق «سبينجهار». فنظر إليّ محمود مشفقاً، وقال: «ماذا أستطيع أن أفعل؟».

أرسلت رسالة عن طريق جندي الأمم المتحدة السويدي، وهو الشخص الوحيد الذي يتخاطب بالراديو إلى الشخص الوحيد الذي أثق به في العالم، قائلاً: «لم يحصل أيّ اتصال حتى الآن. أرجوك أن تتصل بوسيط بن لادن في لندن». وفي اليوم التالي وردتني رسالة بالراديو بما معناه: «بلِّغ روبرت أن يوضح أنه ليس هنا برغبته؛ بل يستجيب لدعوة صديقنا. وعليه أن يشرح للمهندس أنه قبل الدعوة ليس إلّا... وليوضحْ تماماً أنه مدعوّ، ولم يأتِ من تلقاء ذاته. هذا هو أسرع تدبير. وإلّا عليه أن ينتظر». فعدتُ إلى المهندس محمود؛ وكان في أحسن حال. وفي الواقع، وجد المسألة هزلية، ومثيرة للدعابة إلى حدٍّ كبير، فأنا أنتظر الشيخ. وكان الأمر بنظره وهمياً، مضحكاً، وغريباً. شربنا الكثير من فناجين الشاي. وكلما وصل زائر ما ـ مثل موظف في دائرة مكافحة المخدّرات، أو في الحكومة المحلّية، أو حتى درويش يلتمس مساعدة ابنه المسجون بتهمة تعاطي مخدرات ـ يُسلُّونه بقصة الإنكليزي الكاشف الرأس، الذي يعتقد أنه دُعي إلى جلال أباد، وهو ما زال منتظراً ومنتظراً في فندق «سبينْجهار».

عدتُ إلى «سبينجهار» في قيظ الظهيرة، وجلستُ قرب المرجة أمام ذلك المبنى. وتذكرت أني اختبأت في الفندق ذاته منذ ١٦ سنة، عندما أرسل ليونيد بريجنيف الجيش السوفياتي إلى أفغانستان، إذ سافرت حينئذٍ خلسة إلى جلال

أباد، وراقبت صفوف المدرَّعات الروسية تمرّ بصريرها أمام البوابات. وسمعت رعد طائراتهم الطوَّافة فوق المبنى، وشعرتُ باهتزاز النوافذ لدى إطلاقها الصواريخ على سلسلة جبال «تورا بورا» إلى الشمال، لكني الآن أرى الفراشات تحوم وتلهو حول مجموعات الورود الزهرية، والبستانيين يلقون أدوات البستنة، ويمدّون على العشب سجّادات الصلاة. إنه منظر أشبه بالجنة. شربت الشاي على مرجة العشب، وتمتعتُ بالنظر إلى غروب الشمس ـ الذي تمَّ بسرعة، وأنا أنظر إليه بالعين المجرَّدة، وراء سُعف النخيل فوقي. وكان ذلك في الخامس من شهر تموز/يوليو، أحد أكثر الأيام حرّاً في السنة. ثم ذهبتُ إلى غرفتي ونمتُ.

«طق، طق، طق»؛ كأنَّ أحدهم يهوي على رأسي بمعول الثلج. منذ طفولتي كرهت هذه اللحظات: سحب الشراشف، والطرق الملحاح على باب غرفة النوم، وصراخ الموقظ يدعوني إلى النهوض. ولكنّ هذا مختلف. «طق، طق، طق، طق، طق، طق». جلست، فسمعت طقطقة مفاتيح سيارة على شباك غرفتي، وصوتاً يهمس بإلحاح: «مستر روبرت، مستر روبرت»؛ ـ نعم، نعم، أنا هنا ـ «أرجوك أن تنزل، هناك شخص يريد أن يراك». لا شك أنه تسلّق سلَّم الحريق العتيق ليصل إلى شبّاك غرفتي. لبست ثيابي، وأخذت معطفي ـ وكان لدي شعور بأننا سنسافر في الليل ـ وكدتُ أنسى آلة التصوير «نيكون» القديمة. مشيتُ بمنتهى الهدوء أمام مكتب الاستقبال، وخرجت إلى الحرّ عند أوائل بعد الظهر.

كان الرجل مرتدياً ثوباً أفغانياً قذراً أغبر، وطاقية صغيرة مدوَّرة من القطن، لكنه كان عربياً. ألقى عليّ السلام رسمياً، وهو يمسك يديّ بيديه الاثنتين، وابتسم. قال إن اسمه محمد، وكان دليلي. فسألته: «كي نرى الشيخ؟»، فابتسم ولم ينبس ببنت شفة. وكنت لا أزال قلقاً من إمكان نصب فخٍّ لي. لكن اسم الدليل محمّد، أليس كذلك. وأمامنا مشوار مسائي. وكنت أستطيع أن أسمع ما سيقوله الشهود العيان: نعم سيدي، رأينا الصحافي الإنكليزي، يقابل شخصاً خارج الفندق. لم يحصل أي نزاع. لقد غادر حرّاً بإرادته؛ وخرج من باب الفندق.

تبعتُ محمّداً على الفور عبر غبار الشارع الرئيسي في جلال أباد، حتى صرنا على مقربة من مجموعة مسلحين في شاحنة صغيرة واقفة في خرائب قاعدة قديمة للجيش السوفياتي؛ فيها عربات مدرّعة معطوبة، وعلى إحدى بواباتها المتهدمة نجمة حمراء صدئة. كان على ظهر الشاحنة ثلاثة رجال بطاقيّات أفغانية. أحدهم يحمل رشّاش «كلاشينكوف»، وآخر يتشبّث بقاذف قنابل يدوية مع ستة صواريخ مربوطة بشريط لاصق. أما الثالث، فكان يحتضن مدفعاً رشاشاً كاملاً، مع مِنصب وذخيرة. قال السائق بهدوء: «يا سيد روبرت هؤلاء هم حرّاسنا». كما لو كان من الطبيعي في الدنيا أن تسافر في مجاهل منطقة «نانجرهار» في أفغانستان في حرٍّ قائظ بعد الظهر، مع ثلاثة ملتحين من أفراد حرب العصابات. وكان هناك جهاز إرسال مزدوج بالراديو يهسهس ويطقطق على كتف رفيق السائق، بينما كانت شاحنة أخرى تسير وراءنا.

وقبل انطلاقنا، قفز محمد من الشاحنة مع السائق، وانتحيا ناحية ظليلة ليصلّيا. وبقيا حوالى خمس دقائق راكعين، باتجاه ممرّ كابول، وبعيداً من ورائه نحو الكعبة في مكة. انطلقت سيّارتنا على طريق محفَّرة، ثم انعطفنا إلى طريق ترابية قرب قناة ريّ. وكانت الأسلحة على طرف الشاحنة الخلفي تتقافز على الأرض، وعيون الحرس ترمقنا من خلال كوفيّاتهم الملوّنة. سافرنا ساعات على هذا النحو، ومررنا بقرى بدت بيوتها الطينية شبه مدمَّرة، وبوديان وبصخور سوداء شامخة؛ إنها رحلة على سطح القمر.

وعبر هذا الحرّ الأغبر، بدت لنا أشباح حرب مخيفة. حرب اللهاث الأمبريالي الأخير للحكم الشيوعي، بسواتره وحواجزه ومراكز إطلاق النار، ومواقع المدفعية، وسائر الأسلحة، وبقايا الدبابات المحروقة التي يكسوها العشب والغبار. ومن لهيب بعد الظهر برزت لنا بلدة كاملة، مبنية على شكل قلاع من الطين، وقد اخترق جدرانها رصاص المدافع والقنابل. وكان هناك أولاد عراة يلعبون بين الخرائب. وعندما وصلنا إلى الجهة الثانية من بلدة الأشباح خرج بنا السائق عن الطريق؛ واتجه بالسيارة عبر الطين الصَّفحي والصخور الصلبة، بحيث صارت الحجارة تفرقع تحت عجلات سيارتنا، بينما

كنا نطوف كيلومترات من الحقول المغطاة بالغبار الأصفر. قال محمد: «هذه هدية من الروس. لقد زرعوا هذه الناحية بآلاف الألغام؛ ولذلك لا يعمل أحد هنا؛ ولذلك مررنا من هنا».

وقد توقفنا مرة، وكانت الشمس تميل إلى الغروب، لكي يأتي المسلحون ببعض ثمار البطّيخ من أحد الحقول ويعودوا مسرعين إلى الشاحنتين حيث كسروا البطيخ، وسال عصيره بين أصابعهم. وعند الغسق، وصلنا إلى سلسلة من القرى الضيِّقة، حيث رأينا رجالاً مسنّين يوقدون الحطب قرب الطريق، بينما تلفّ النساء رؤوسهن بالبراقع الأفغانية، ويقفن في الأزقة. وكان هناك عدد أكبر من رجال العصابات، الملتحين، يلقون نظرات عريضة على محمد وعلى السائق. وحلَّ الليل قبل أن نصل إلى بستان، وجدنا فيه أسرَّة مغطّاة بحرامات الجيش، مراكمة مع أربطتها وقطع النسيج المتين الذي يوضع تحتها. كما طالعنا فيه من الظلمة رجال مسلّحون، كلّهم باللباس الأفغاني، والطاقيَّات الصوفية المسطّحة الناعمة، ويحمل بعضهم رشَّاشات، وبعضهم الآخر مدافع. إنهم المجاهدون العرب، العرب «الأفغان» المشجوبون من قِبل الرؤساء والملوك في نصف العالم العربي، ومن قِبل الولايات المتحدة أيضاً. وسيعرفهم العالم عمَّا قريب، باسم «القاعدة».

لقد قدموا من مصر، والجزائر، والعربية السعودية، والأردن، وسوريا، والكويت. كان اثنان منهم يضعان نظارات؛ قال أحدهما إنه طبيب. صافحني قليل منهم مصافحة رزينة وسلَّموا عليّ باللغة العربية. علمتُ أن هؤلاء يفدون بن لادن بحياتهم؛ ويعتقدون أنهم أنقياء في عالم فاسد، وأنهم متأثرون بأحلام اقتنعوا بأنها من السماء. وأومأ محمد إليّ بأن أتبعه، فسرنا بمحاذاة نهر واجتزنا مجرى مائيّاً حتى خرقنا الظلام الحافل بالحشرات، وبلغنا قنديل كاز يطشّ طشيشاً، يجلس قربه رجل طويل ملتحٍ بأثواب سعودية. وقف بن لادن وبجانبه إبناه المراهقان عمر وسعد، وقال: «أهلاً بك في أفغانستان».

كان عمره آنذاك أربعين سنة، لكنه بدا أكبر سناً مما قدّرته عندما رأيته في الصحراء السودانية في أواخر عام ١٩٩٣. مشى نحوي كالطود بين أصحابه،

طويلاً، نحيفاً، مع بعض التجاعيد المستجدّة حول عينيه الضيّقتين. كان أكثر نحولاً، وطالت لحيته، لكنها أصبحت موشّحة بالشيب. وكان يلبس صدرية سوداء فوق ثوبه الأبيض، وكوفيّة مخطّطة بالأحمر على رأسه، وقد بدا مرهقاً. سأل عن صحتي فأخبرته أني جئت من مكان بعيد، فغمغم: «وأنا كذلك». لاحظت عليه شيئاً من الانعزال أو التباعد لم أعهده فيه من قبل؛ كما لو كان يفحص غضبه وطبيعة استيائه. وعندما ابتسم، اتجه بنظره نحو ابنه عمر، البالغ من العمر ١٦ سنة ـ بعينين مستديرتين، وحاجبين أسودين مع كوفيّته ـ ومن ثم حدّق إلى الخارج حيث الظلام الدامس الحار، وحيث كان رجاله المسلحون يخِفرون الحقول. وقد تجمّع آخرون ليستمعوا إلى محادثتنا. فجلسنا على حصير من قش، وجيء بكأس من الشاي فوضِع بجانبي.

منذ عشرة أيام تماماً، هدمت قنبلة وضعت في شاحنة جزءاً من المجمّع السكني لقوة الطيران الأميركي في الخُبَر بالظهران. وكنا نتكلم في ظل موت ١٩ جندياً أميركياً، قُتلوا هناك. وقد زار وزير الخارجية الأميركي «وارن كريستوفر» ذلك الخراب، ووعد متنبّئاً بأن أميركا «لن يهزَّها العنف»، وأن الجُناة ستتمّ ملاحقتهم. وقد تنبّأ الملك فهد، ملك العربية السعودية، بإمكان حدوث عنف عندما وصلت القوات الأميركية «لتدافع» عن مملكته عام ١٩٩٠. ولهذا السبب استحصل من الرئيس جورج بوش بتاريخ ٦ آب/أغسطس على وعد بأن تغادر جميع الفرق العسكرية الأميركية المملكة، عندما يزول التهديد العراقي. ولكن وجود الأميركيين استمرّ، مدّعين أن بقاء نظام صدّام ـ الذي اختار بوش أن لا يدمّره ـ يمثل خطراً على الخليج.

عرف بن لادن ماذا يريد أن يقول: «منذ فترة ليست ببعيدة نصحتُ الأميركيين بأن يسحبوا قوّاتهم من السعودية. والآن ننصح حكومتي بريطانيا وفرنسا بأن تُخرجا قوّاتهما. لأن ما حصل في الرياض والخُبَر يدلّ على أن من قاموا بذلك يفهمون فهماً عميقاً كيف يختارون أهدافهم. إنهم يضربون عدوّهم الرئيسي، أي الأميركيين. لم يقتلوا أيّ أعداء ثانويين، ولا إخوانهم في الجيش، أو رجال الشرطة في العربية السعودية... إني أقدّم هذا النصح إلى حكومة بريطانيا. يجب

أن يغادر الأميركيون العربية السعودية والخليج. إن الشرور التي تحيق بالشرق الأوسط نشأت من محاولة أميركا الاستيلاء على المنطقة، ومن دعمها إسرائيل.

كان بن لادن يتكلم ببطء وبدقّة، بينما كان رجل مصري يدوّن الملاحظات في دفتر كبير بجانب ضوء القنديل، كما لو أنه كاتب من القرون الوسطى. وأردف بن لادن قائلاً: «وهذا لا يعني أننا أعلنّا الحرب على الغرب وشعبه. ولكن ضد النظام الأميركي الراهن، الذي هو ضد كل أميركي». فقاطعته بقولي: «لقد انتخب الأميركيون حكومتهم، خلافاً لأنظمة الحكم العربية؛ ويقولون إن حكومتهم تمثلهم». فأهمل الشيخ تعليقي؛ وحسناً فعل. ففي السنوات القادمة، ستجلب حربه الموت لآلاف من المدنيين الأميركيين. قال: «إن انفجار الخُبَر لم يأتِ كردّ فعل مباشر على الاحتلال الأميركي ولكن كعاقبة للسلوك الأميركي إزاء المسلمين، ودعمه لليهود في إسرائيل، والمجازر التي ارتكبت في فلسطين ولبنان ـ في صبرا وشاتيلا وقانا ـ ومؤتمر شرم الشيخ».

لقد فكر بن لادن في هذا الأمر مليّاً. إن القتل الوحشي لعدد يناهز ١٧٠٠ شخص فلسطيني بواسطة ميليشيات «الكتائب اللبنانية» المتحالفة مع إسرائيل عام ١٩٨٢، وإقدام إسرائيل على قتل ١٠٦ مدنيين لبنانيين في مخيم للأمم المتحدة في قانا جنوب لبنان، قبل أقل من ثلاثة أشهر من هذا الاجتماع مع بن لادن، هي بيّنات ثبوتية على وحشية إسرائيل في نظر ملايين الغربيين، ناهيك بالعرب. لقد اعتبر العرب مؤتمر شرم الشيخ المعقود «ضد الإرهاب» على الساحل المصري برعاية الرئيس كلينتون، إذلالاً لهم. لقد أدان فيه كلينتون إرهاب «حماس» و«حزب الله» اللبناني، دون إدانة العنف الإسرائيلي. ولذلك ضُربت القنابل في الخُبَر، من أجل فلسطينييّ صبرا وشاتيلا، ومن أجل قانا ومن أجل النفاق الذي أبداه كلينتون. كانت هذه رسالة بن لادن. فلا يكفي إخراج الأميركيين من الخليج، ولا بد أن يُثأر للأخطاء التاريخية التي تُرتكب بحق العرب والمسلمين. لقد كان نصحه للأميركيين تهديداً مخيفاً رهيباً، سيتحقق في الأعوام القادمة.

ولكنّ ما أراد بن لادن أن يتكلم عنه كان بخصوص العربية السعودية. فمنذ آخر اجتماع لنا في السودان، قال إن الوضع في المملكة يتدهور. فالعلماء والقادة الدينيُّون أعلنوا في المساجد أن وجود الجيش الأميركي في البلاد ليس أمراً مقبولاً؛ وقد اتخذت الحكومة تدابير زجرية بحق هؤلاء العلماء، «بناء على نصيحة الأميركيين». بدأ النظام السعودي تطبيق الشريعة الإسلامية. وتحت هذه الراية طفق كل الناس في العربية السعودية يساعدون العائلة السعودية على توطيد نفوذها. ثم بعد اكتشاف النفط، حظي النظام السعودي بدعم آخر، هو المال لجعل الناس أغنياء، وتقديم الخدمات إليهم والحياة التي أرادوها والتي تجعلهم راضين».

كان بن لادن يفرك أسنانه بالمسواك الخشبي المعروف، ولكن التاريخ الذي يسرده شكَّل أساساً لكل ملاحظاته. وعدت العائلة المالكة السعودية بالشريعة الإسلامية، بينما سمحت في الوقت ذاته للولايات المتحدة «بتحديث العربية السعودية، وباستنزاف الاقتصاد». لقد لام النظام السعودي لصرفه ٢٥ ملياراً لدعم صدّام حسين في حرب إيران والعراق، ثم ٦٠ ملياراً لدعم الجيوش الغربية عام ١٩٩١ ضد العراق، و«شراء المعدَّات والتجهيزات الحربية التي لا تلزم ولا تفيد البلد، وشراء الطائرات بالدين»، فضلاً عن إحداث البطالة والضرائب العالية، وإفلاس الاقتصاد في الوقت ذاته. ولكن عام ١٩٩٠ كان التاريخ المحوري، عندما غزا صدام حسين الكويت، و«دخلت القوات الأميركية العربية السعودية بلاد الحرمين الشريفين، فاحتجّ العلماء وطلاب الشريعة ضد تدخّل القوات الأميركية. لقد كانوا يساندون الأمم التي كانت تحارب المسلمين؛ وساعدوا اليمنيين الجنوبيين الشيوعيين ضد اليمنيين المسلمين؛ وهم يساعدون نظام عرفات في محاربته لحماس».

وكان نسيم الليل إذ ذاك يهبُّ عبر الأشجار السود، ويحرِّك أثواب المقاتلين العرب الملتفّين حولنا. بسط بن لادن يده اليمنى واستعمل أصابعه ليورد أخطاء المملكة. وقال: «في الوقت ذاته، نشبت الأزمة المالية، وعلى كل الناس الآن

أن يعانوا منها. فقد وجد التجار أن اتفاقياتهم أُلغيت؛ والحكومة مدينة لهم بمبلغ ٣٤٠ مليار ريال سعودي، وهو مقدار هائل يساوي ٣٠٪ من الدخل القومي داخل المملكة. وارتفعت الأسعار، وأُلزم الناس بأن يدفعوا أكثر فأكثر للكهرباء، والماء، والوقود. أما المزارعون السعوديون فلم يتلقوا أية دفعة مالية منذ عام ١٩٩٢ ـ ومَنْ حصل منهم على منحة، فقد نالها من المصارف كقرض من الحكومة. والتعليم العام يتدهور، بحيث يرسل الناس أولادهم إلى المدارس الخاصة الباهظة التكاليف».

وتوقف بن لادن لحظة ليرى هل أصغيت إلى الدرس الذي ألقاه في التاريخ. وهو درس نبيه ومخيف بشكل غير اعتيادي. واستأنف قائلاً: «يتذكر الناس اليوم ما قاله العلماء، ويدركون أن أميركا هي السبب الجوهري لنشوء مشاكلهم... والشخص العادي يعرف أن بلده هو أكبر منتج للنفط في العالم كله، لكنه في الوقت نفسه بلد يعاني من الضرائب وسوء الخدمات. إن الناس يفهمون آلاف خُطب العلماء في المساجد، مدركين أن بلدنا أصبح مستعمرة أميركية. وهم يعملون بتصميم وفي كل عمل من أعمالهم لإخراج الأميركيين من العربية السعودية. إن ما حدث في الرياض والخُبَر هو برهان واضح على الغضب العظيم الذي يكنّه الشعب السعودي لأميركا. إن السعوديين اليوم يعرفون تماماً أن عدوهم الحقيقي هو أميركا». إن بن لادن يجتهد ليوحي بأن حجته دامغة. فقلب نظام الحكم في السعودية، وطرد القوات الأميركية من المملكة يمثلان الهدف ذاته، في نظره. إنه يدّعي أن القيادة الدينية الحقيقية للسعودية ـ بمن فيها هو نفسه ـ هي القوة الموحية للسعوديين؛ وأن السعوديين أنفسهم سيخرجون الأميركيين من ديارهم، وأن السعوديين ـ الذين ما زالوا حتى اليوم شعباً غنياً راضياً مرضياً ـ قد يجابهون الولايات المتحدة الأميركية ـ فهل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟

كان الهواء حافلاً بالحشرات. وكنتُ أكتب في دفتري بيدي اليمنى، وأدفعها عن وجهي وثيابي بيدي اليسرى. لقد كانت حشرات كبيرة لها أجنحة واسعة، تصفع قميصي وصفحات دفتري. ولاحظت أنها كانت تصدم ثوب بن لادن

وحتى وجهه، كما لو كانت مستثارة بالغضب المنبعث من هذا الرجل. كان يتوقف أحياناً عن الكلام لفترة تدوم حتى ستين ثانية ـ وكان الرجل العربي الوحيد الذي رأيته يفعل ذلك ـ حتى يفكر في ما سيقول. فمعظم العرب يتفوهون بأول ما يخطر على بالهم، عندما يطرح عليهم المراسلون السؤال، لئلا يُظنّ أنهم جاهلون إن لم يفعلوا ذلك. كان بن لادن مختلفاً. كان يدقّ ناقوس الخطر، ولديه قناعة ذاتية تامة بما يقول ويفعل. وهي صفة خَطِرة تقود الرجال إلى الحرب. وقد لمستها في السنوات التالية لدى الرئيس جورج بوش وطوني بلير ـ ولكن لم أشعر بخطرها أبداً لدى أسامة بن لادن المصمِّم وصادق العزيمة.

كان لحسابات بن لادن ناحية قاتمة. «فإذا انفجر كيلو واحد من متفجرات (TNT) في بلد لم يسمع فيه أحد بتفجير خلال مئة سنة، فهذه بيّنة واضحة على مدى غضب الناس ضد الأميركيين، وعلى قدرتهم على الاستمرار في المقاومة ضد الاحتلال الأميركي». هل صحَّت نبوءتي، وهل فكَّرت ملياً في التشبيه الاستعاري المخيف الذي استعمله بن لادن بخصوص متفجرات (TNT)؟ وهل هناك بلد لم يعرف الحرب داخل حدوده لأكثر من مئة سنة، يمكن أن يضرب «ببيِّنات» عن غضب الناس ٢٥٠٠ مرَّة، أكثر مما يمكن أن يتصور؟ ـ لكنني كنت أحسب معادلات مُمِلَّة.

سألني بن لادن سؤالاً ـ يعتبر عادياً لدى كل فلسطيني يعيش تحت الاحتلال: ألم يقاوم الأوروبيون الاحتلال، خلال الحرب العالمية الثانية؟ فقلت له: «لا يقبل أي أوروبي هذه الحجة بشأن العربية السعودية ـ لأن النازيين قتلوا ملايين الأوروبيين، بينما لم يقتل الأميركيون سعودياً واحداً. فهذه المقارنة مجحفة وخاطئة». فلم يوافق بن لادن، وقال: «نحن المسلمين لدينا شعور قوي يربطنا بعضنا البعض، ويجعلنا كالبنيان المرصوص... نحن نشعر مع إخواننا في فلسطين وفي لبنان... وعندما يقتل ٦٠ يهودياً داخل فلسطين ـ وكان يتحدث عن القنابل البشرية الفلسطينية التي تفجرت في الشهر الماضي ـ يلتئم شمل كل العالم خلال أسبوع لإدانة هذا العمل، بينما لم يثر موت ٦٠٠,٠٠٠

طفل عراقي رد الفعل ذاته». وكانت تلك أول إشارة من بن لادن إلى العراق وإلى عقوبات الأمم المتحدة التي ستفضي إلى موت أكثر من نصف مليون طفل، بحسب تقدير موظفي الأمم المتحدة ذاتها. وأردف بن لادن قائلاً: «إن قتل أولئك الأطفال العراقيين هو «حرب صليبية» ضد المسلمين. ونحن كمسلمين لا نحب النظام العراقي، ولكننا نعتقد أن الشعب العراقي وأطفاله هم إخوتنا، ونحن نهتم بمستقبلهم». وكانت تلك أول مرة أسمع فيها من بن لادن عبارة «الحرب الصليبية».

ولم تكن تلك أول ولا آخر مرة ينأى بن لادن فيها عن دكتاتورية صدّام حسين. وحسناً فعل. فقد غزت الولايات المتحدة الأميركية العراق، بعد خمس سنوات من هذا التاريخ، غزواً يبرِّره جزئياً دعم ذلك النظام من قبل شخص يمقت ذلك النظام. ولكن لم تكن تلك الكلمات الوحيدة التي أطلقها بن لادن تلك الليلة، والتي تستحق مزيداً من اهتمامي. ومن محطّاتها أنه وضع يده على صدره وقال: «أعتقد أن الأميركيين سيغادرون العربية السعودية عاجلاً أم آجلاً، وأن الحرب التي أعلنتها أميركا على الشعب السعودي تعني أنها حرب ضد كل المسلمين في كل مكان. وستستمر المقاومة ضد أميركا، وتنتشر في أماكن عديدة في البلدان الإسلامية. إن قادتنا الذين نثق بهم، أي علماءنا، قد أفتونا أن علينا إخراج الأميركيين من بلادنا».

إلى الشرق من مخيّم بن لادن، هبّت عاصفة رعدية لبعض الوقت، وكنا نستطيع أن نرى البرق البرتقالي الساطع فوق الجبال عند حدود باكستان. ولكن بن لادن ظنّ أنها نيران مدافع، استمراراً للمعارك التي دارت بين مجموعات المجاهدين، تلك المعارك التي آذت روحيته، بعد انتهاء الحرب ضد السوفيات. بدأ يشعر بالضيق. فقطع حديثه ليصلّي. ثم قدّم بعض الرجال المسلّحين طعام العشاء على حصير من القش؛ وشمل أطباقاً من لبن الزبادي والجبن وخبز «نان» الأفغاني، ووفرة من الشاي. جلس بن لادن بين ابنيه صامتاً، وعيناه على طعامه. وكان يطرح عليّ أسئلة من وقت إلى آخر. ماذا قد يكون رد فعل حكومة العمال البريطانية على طلبه سحب القوات البريطانية من العربية

السعودية؟ وهل كان قائد حزب العمال، طوني بلير، مهماً؟ ـ لا أستطيع، بكل أسف، أن أتذكر جوابي. وأنبأنا بن لادن أن زوجاته الثلاث سيلتحقن به قريباً في أفغانستان، وبإمكاني أن أرى الخِيَم التي سيُقمن فيها، إذا شئتُ، خارج جلال أباد؛ إنها لا تعدو كونها خيماً متواضعة للعائلة. وقد طلب من أحد المصريين وكان يحمل رشَّاشاً أن يريني مكان التخييم في اليوم التالي.

ثم أشار إليّ وقال فجأة: «إني مندهش من تصرّف الحكومة البريطانية. لقد أرسلوا إليّ رسالة عبر سفارتهم في الخرطوم، يقولون فيها إنهم لن يستقبلوني في المملكة المتحدة. ولكني لم أطلب المجيء إلى بريطانيا. فلماذا أرسلوا تلك الرسالة التي تقول: «إذا جئتَ إلى بريطانيا، فلن يُقبل دخولك إليها»؟ فقد أعطت الرسالة فرصة لصحافة العربية السعودية كي تدّعي أنني طلبت اللجوء السياسي إلى بريطانيا ـ مع أن ذلك غير صحيح. لقد صدَّقت بن لادن، كانت أفغانستان البلد الوحيد الباقي له، بعد إقامة خمس سنوات ونصف السنة في السودان. فوافقني على ذلك قائلاً: «آمن بلد لي هو أفغانستان». وكررت أنا: إنها المكان الأوحد الذي يستطيع فيه أن يدير حملة ضد الحكومة السعودية. فضحك بن لادن وبعض مقاتليه العرب، وقال: «هناك أمكنة أخرى». فسألت: هل قصدت طاجكستان؟ أو «أوزباكستان؟ أو كازاخستان؟ قال: «هناك عدة أمكنة، لنا فيها أصدقاء وإخوان حميمون، نجد فيها ملاذاً وأماناً».

أخبرت بن لادن بأنه صار ملاحقاً مطارداً. فقال: «إن الخطر جزء لا يتجزأ من حياتي». ثم عاود الرجوع إلى الوراء تاريخياً بقوله: «هل تعلم أننا صرفنا عشر سنوات ونحن نحارب الروس وجهاز مخابراتهم (KGB)..... وعندما كنا نقوم بذلك في أفغانستان، جاءنا ١٠ ٠٠٠ سعودي ليقاتلوا على مدى عشر سنوات. وكانت هناك ثلاث رحلات أسبوعية بالطائرة من جدَّة إلى إسلام أباد، وعلى كل رحلة سعوديون قادمون للمشاركة في القتال...». ولكني بادرته دون رأفة: «ألم يدعم الأميركيون المجاهدين ضد السوفيات؟ فأجاب بن لادن فوراً: «لم نكن أبداً على علاقة صداقة مع الأميركيين، لعلمنا أنهم يناصرون اليهود في فلسطين، وأنهم أعداؤنا. لقد دفع السعوديون ثمن معظم الأسلحة المستقدمة إلى

أفغانستان، بطلب من الأميركيين، لأن تركي الفيصل [رئيس الاستخبارات الخارجية السعودية] كان هو ووكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) يعملان معاً.

أصبح بن لادن الآن يقظاً، قلقاً؛ وكأن لديه شيئاً يبغي أن يقوله: «دعني أقل لك هذا. استقبلت في الأسبوع الماضي مبعوثاً من السفارة السعودية في إسلام أباد. نعم، لقد جاء إلى هنا ليراني. إن حكومة العربية السعودية تريد طبعاً أن تعطي الناس هنا انطباعاً بأنه يجب تسليمي لها. ولكن الحقيقة هي أنهم يريدون أن يفاوضوني، ويطلبوا مني العودة إلى العربية السعودية. فأجبتهم أنني مستعد للتكلم معهم تحت شرط واحد، هو أن يكون الشيخ سليمان العودة حاضراً. لقد سجنوه لأنه تكلم ضد النظام. وليست هناك إمكانية للتفاوض دون إطلاق سراحه، ولم أسمع منهم جواباً حتى الآن».

هل كان هذا البوح سبباً في توتّر أعصاب بن لادن؟ ـ لقد بدأ يتكلم مع رجاله حول الأمن والحالة «الأمنية»، وينظر تكراراً إلى لمع البرق في السماء، وقد أصبح صوت الرعد كصوت إطلاق النار من المدافع. حاولت أن أطرح سؤالاً آخر: «ما نوع الدولة الإسلامية التي يريد بن لادن أن يراها؟ هل تقطع فيها أيدي ورؤوس السارقين والمجرمين بحسب شريعة الدولة، كما يحصل اليوم في العربية السعودية؟ فجاءني جوابٌ غير مرضٍ: «إن الإسلام دين كامل لكل تفصيل في الحياة. إذا كان الشخص مسلماً حقيقياً وارتكب جريمة، فإنه يسعد بعقابه العادل. هذه ليست قسوة. إن مصدرها الله تعالى عبر نبيِّه محمّد، صلّى الله عليه وسلّم».

لقد كان أسامة بن لادن منشقّاً، ولم يكن معتدلاً أبداً. استأذنته في أخذ صورة فوتوغرافية له؛ وبينما كان يناقش ذلك مع رفاقه، كتبتُ في دفتري «خربشة» الكلمات التي سأستخدمها في الفقرة الأخيرة من تقريري حول هذا الاجتماع. يعتقد أسامة بن لادن أنه يمثل أعظم الأعداء هولاً للنظام السعودي وللوجود الأميركي في الخليج. وربما كان كلاهما مُحقّاً في اعتباره كذلك». وبهذا كنت أقلِّل من تقديره، فالرجل أكبر من ذلك.

ردّ بالإيجاب بشأن أخذ صورة له. فتحت آلة التصوير وسمحت لحرّاسه المسلحين بأن يراقبوني وأنا أضع الشريط الجديد في ملف الكاميرا. وطلبت منهم إحضار قنديل الكاز لأستعمله بدلاً من وميض الكاميرا للمحافظة على شكل الوجه. وساعدتُ الكاتب المصري كي يدني الضوء لمسافة ٣ إنشات فقط من الوجه حتى يسطع الضوء على وجهه تماماً ويظلل تقاسيمه. ثم، دون إنذار، رفع بن لادن رأسه ولاحت على وجهه ابتسامة باهتة، مع الاقتناع الذاتي، وشبح الخُيَلاء الذي يقلقني. نادى ابنيه عمر وسعد فجلسا إلى جانبه، وأخذت مزيداً من الصور؛ وتحوّل بن لادن إلى الأب المعتزّ، ربّ العائلة، العربي في بيته.

ثم عاوده قلقه. وصار الرعد متواصلاً الآن، ممزوجاً بدمدمة رشاشات. فقال بن لادن مستحثاً: «يجب عليَّ أن أذهب»؛ فلا بد له من أن يعود إلى صمود أفغانستان. وعندما صافح مودِّعاً، كان ينظر إلى حرّاسه بغية الانطلاق. وانبرى سائقي ومحمد، والرجلان المسلحان اللذان رافقاني إلى هذا المخيم الرطب المليء بالحشرات، ليعيدوني إلى فندق «سبينجهار» في رحلة ستكون حافلة بالتهديدات والمخاطر. مررنا بسيارتنا على الجسور فوق الأنهار وتقاطعات الطرق، وتعرضنا لحواجز تفتيش نصبتها الزمر الأفغانية التي كانت تتقاتل للسيطرة على كابول. ومِنْ هؤلاء مَنْ انتصب على الطريق أمام سيارتنا، صارخاً فينا ومصوّباً رشاشه إلى زجاج السيارة، بينما رفيقه ينسلّ من الظلام للتدقيق في هويّة سائقنا، والسماح لنا بمتابعة سيرنا. وقد علّق محمد على ذلك بقوله: «إن أفغانستان مكان صعب».

وسيكون الأمر عسيراً على عائلة بن لادن أيضاً. وفي الصباح التالي، جاء المصري إلى فندق «سبينجهار»، وأخذني إلى موقع التخييم لعائلات العرب «الأفغان». وكان فعلاً غير حصين، تحيط به بعض أسلاك من الشريط الشائك ويمتد أمامه الريف. أما خِيَم عائلة بن لادن فقد نُصبت متقاربة، وكان الحر فيها لا يحتمل، وحُفرت خلفها ثلاثة مراحيض. قال المصري: «سيعيشون هنا معنا؛ مع العلم أنهنّ سيدات تعودنَ على العيشة المريحة». لكنّ مخاوفه تركزت

على ثلاثة رجال أمن مصريين مسلَّحين، كانوا يمرون بسيارتهم قرب المخيم بشاحنة صغيرة خضراء. قال: نحن نعلم من هم ولدينا رقم سيارتهم لقد توقفوا منذ أيام عند ابني وسألوه: «أين بن لادن»؟ نحن نعلم أن اسمك عبد الله. وماذا جاء أبوك يفعل في أفغانستان؟».

وقد حاول شخص آخر من رجال العرب التشكيك في ما أكده بن لادن من أن هناك عدة بلدان إسلامية أخرى يجد فيها بن لادن ملاذاً له؛ فقال بكل أدب: «ليس له من بلد آخر. وعندما كان في السودان، أراد السعوديون أن يقبضوا عليه بمساعدة يمنيين. ونحن نعلم أن الحكومة الفرنسية حاولت إقناع السودانيين بتسليمه، كما سلّموهم رجل أميركا الجنوبية (كارلوس المذكور آنفاً). وكان الأميركيون يضغطون على الفرنسيين ليتسلموا بن لادن في السودان. كما أن هناك جماعة من العرب تلقوا مالاً من السعوديين، فأطلقوا النار على بن لادن، لكن حراسه ردوا بالمثل وجرحوا اثنين من المعتدين. وهم الناس أنفسهم الذين حاولوا اغتيال الترابي». سمع المصري هذا الكلام، وقال: «نعم، إن هذا البلد خَطِر جداً. والأميركيون يحاولون أن يقطعوا الطريق على مجيء العرب إلى أفغانستان. إني أفضّل الجبال، لأنها آمن. إن هذا المكان يشبه بيروت».

لم أغبْ عن أفغانستان المسكينة سوى تسعة أشهر؛ حتى عدت لأجدها متغيرة وأكثر تعاسة، تحكمها ثُلّة ورعة قاسية لا يُعقل تصورها، حتى من قبل بن لادن. جاءني اتصال هاتفي مرة ثانية إلى بيروت، ودعوة للقاء «صديقنا» عن طريق جلال أباد. وكانت الرحلة هذه المرة خليطاً من الهزل ومن غير المعقولية. لم تعد هناك رحلات من دلهي؛ لذلك سافرت أولاً إلى إمارة دبيّ. وهناك دلّني موظف السفر الهندي على مكتب «سفريّات البساط السحري»(*)، الذي يديره شخص لبناني، طلب مني الحضور عند الساعة الثامنة والنصف من

(*) كلما كانت الرحلة خطرة، جاء اسم الخطوط الجوية المسافرة إلى هناك خيالياً؛ فالرحلة المباشرة الوحيدة من بيروت إلى مِرجَل العراق، تؤمنها شركة أخرى أسمها، كما قد تتصور، «الخطوط الجوية لبساط الريح».

صباح اليوم التالي إلى المطار القديم الذي يكتنفه الحر في إمارة الشارقة، إلى حيث أبعدت الخطوط الجوية الأفغانية «أريانا». والشارقة تستضيف مجموعة من الخطوط الجوية المنبوذة التي تطير من الخليج إلى كازاخستان، وأوكرانيا، وطاجكستان، وبعض المدن الإيرانية غير المعروفة. وكانت طائرتي إلى جلال أباد «البوينغ ٧٢٧» القديمة ذاتها التي كسروا رتبتها إلى طائرة شحن.

كان طاقم الطائرة كله من الأفغان الكثيفي اللحى ـ إذ إن «طالبان» استولت على أفغانستان وأمرت الرجال بعدم حلاقة ذقونهم ـ أولئك الذين بذلوا أقصى جهدهم لتأمين راحتي في مقعد وحيد وضيع في مقدمة الطائرة، دون سترة نجاة، مع مرحاض يعجّ بالبراز، ومن ورائي تنبعث رائحة نتنة من بضائع محامل الكريات المعدنية والأنسجة. وعند الانطلاق، تدفق من المرحاض مدّ من سائل ذي رائحة كريهة على مدى ممر الطائرة حتى وسطها. وبعد هذا الانطلاق المضطرب، أكد لي أحد أفراد الطاقم حُسْن الوضع بقوله: «لا تهتم، إنك في أيدٍ أمينة، ثم قدّمني إلى رجل عملاق له لحية يخالطها الشيب، يصرّ على أسنانه، ويلوي يديه على خرقة رطبة، قائلاً: «هذا هو باشمهندس الصيانة في هذه الرحلة. وبعدما صرنا في طيراننا فوق جبال «سبينجهار» شمّ المهندس رائحة المرحاض، فدخل إليه وأصلح شأنه. وحالما وصلنا إلى مهبط الطائرات القديم في جلال أباد، بدأت أتطلع إلى متابعة رحلتي براً إلى البيت.

كان موظف الهجرة اليافع، الذي يحمل سلاح «الكلاشينكوف» أميّاً إلى درجة أنه لم يستطع كتابة اسمه إلّا برسم مربع ودائرة في جوازي الذي حمله مقلوباً. وقد أخذني رجال طاقم الطائرة معهم إلى جلال أباد، التي ما زالت مدينة الغبار الحدودية التي أعهدها منذ مجيئي السابق إليها في تموز/يوليو الماضي؛ لكنها اليوم فقدت نصف سكانها وأصبحت دون نساء تقريباً، لكني كنت ألمحهنّ أحياناً مكفَّنات بحجابهنّ، وهنّ يقدنَ الأطفال الصغار. أما «جامعة نانْجَرْهار»، فقد أغلقت أبوابها، وكسا الحشيش طرقاتها، ونقط الماء تتساقط من أبنية المنامة فيها. وقد أخبرني موظف البريد «أن حزب طالبان

صرَّح بأنه سيفتح الجامعة هذا الأسبوع. ولكن ما الفائدة؟ لقد هجرها معظم المعلمين. أما النساء فلا تعليم لهنّ. ها قد عدنا إلى عام الصفر».

ليس الأمر سيئاً إلى هذا الحد طبعاً. فقد انقطع إطلاق النار في جلال أباد. وجمع حزب طالبان الأسلحة ـ إلّا قبل أيام عندما حصل انفجار ماحق كدت أذهب ضحيته ـ هناك الآن نوع من القانون الذي فُرض على هذا المجتمع القبلي الغاضب. وقد سُمح للعاملين في المجال الإنساني أن يتجولوا في المدينة ليلاً ـ مما حدا بعضهم على القول إنهم يستطيعون أن يتعاطوا مع طالبان، وأن لا حق لهم يسمح بتدخّلهم في «الثقافة المحلية التقليدية». كما زال النهب والسلب. ومهما ارتفعت الأسعار، فعلى الأقل هناك خُضَر ولحم في السوق.

وقد قهر حزب طالبان أخيراً ١٢ من ١٥ من ميليشيات المجاهدين الأفغان القابلة للرشوة، ما عدا في الزاوية الشمالية ـ الشرقية من البلاد، وفرضوا شرعيتهم المتصلّبة على الناس. كان الطالبانيون فرقة سنيّة وهّابية طُهريّة، جاء تأويلهم للشريعة الإسلامية شديد القسوة، على غرار تأويل الأساقفة المسيحيين الأوائل. وارتبط بسلوكهم قطع الرؤوس والأيدي وكره النساء، ومعاداة كل أنواع التمتع بالحياة. وتُروى نادرة عن تخبئة جهاز تلفزيون في حديقة فندق «سبينجهار» خوفاً عليه من التدمير. لأن أجهزة التلفزيون صارت مثل أشرطة الفيديو والسارقين معلقة على الأشجار. وقد قال لي البستاني: «ماذا تتوقع؟ جاء الطالبانيون من مخيمات لاجئين. وهم يمنحوننا ما لديهم، لا غير». وأدركت آنذاك أن القوانين الجديدة لأفغانستان، الوحشية والغريبة عن عاداتنا وعادات المثقفين الأفغان، لم تكن يقظة دينية بقدر ما كانت استمراراً لحياة عاشوها في المخيمات الكبيرة القذرة، التي جُمع فيها عدة ملايين من الأفغان على حدود بلادهم، عندما غزاها السوفيات منذ ١٦ سنة.

إن مسلحي طالبان نشأوا كلاجئين في مخيمات موبوءة في باكستان؛ قضوا من بدء حياتهم ١٦ سنة في فقر مدقع، محرومين تماماً من التعليم والترويح عن النفس؛ ففرضوا على الناس قصاصاً مهلكاً، وأخضعوا أمهاتهم وأخواتهم، بينما

كان الرجال يناهضون المعتدين الأجانب على الجانب الآخر من الحدود. ولم يكن لديهم من انفراج سوى هاجس القراءة في القرآن الكريم ـ الدال على النهج القويم الوحيد في الحياة، دون غيره. ولم يأتِ الطالبان لإعادة بناء بلدهم، بل لمعاودة نسج حياة المخيمات التي عاشوها على نطاق أوسع.

ولذلك لم يأبهوا في حكمهم للتعليم، أو للتلفزيون. وأجبروا النساء على التزام بيوتهنّ في خيمهنّ بمنطقة بشاور. وعندما غادرت أخيراً من المطار كان هناك موظف هجرة، ربما لا يزيد عمره على ١٥ سنة، يضع كحلاً حول عينيه، على شاكلة المحاربين الجزائريين في أفغانستان الذين كانوا يقتدون بالنبي (ص) الذين عاشوا في القرنين السادس والسابع الميلاديين. توقف الموظف وامتنع عن ختم جوازي، لأني لا أحمل سِمة خروج؛ مع العلم أنه لم يكن في جلال أباد آنذاك تدابير من هذا النوع؛ فضلاً عن أني ارتكبت مخالفة أخطر لأني كنت حليق الذقن. أشار الولد إلى ذقني، وهزَّ رأسه لائماً، ثم وجّهني باحتقار نحو الطائرة القديمة الجاثمة على مدرج المطار.

وعلى المرجة أمام فندق «سپينجهار» اقترب مني ولدان، أحدهما يبلغ الرابعة عشرة من عمره، ومعه كدسة من دفاتر التمارين. وفي أحد تلك الدفاتر، اختبار في قواعد اللغة الإنكليزية مكتوب باليد، يطلب من التلميذ أن يملأ الفراغ بالكلمة المناسبة. فكتبت بلطف الكلمة الناقصة، وصحَّحت تهجئة إحدى الكلمات، وتساءلت: هل هذا هو التعليم الجديد للأفغان الفقراء؟ ولكن على الأقل، يتعلم الصبيان لغة أجنبية في مدرستهم التي يُرثى لها. أما الولد الآخر فكان لديه كتاب في قواعد اللغة الفارسية؛ ولا بد أنه يروي حياة النبي محمد (ص). ولكن لم يكن هناك تلميذات. وبعد ظهر أحد أيام ذلك الانتظار الموحشة، كنتُ جالساً في مدخل الفندق أشرب الشاي، إذ تقدمت امرأة تلبس حجاباً أزرق باهتاً من نوع «البرقع»، من المدخل وهي تدمدم وانعطفت لتدخل الحديقة، ثم استدارت نحوي. كانت تنتحب بنشيج يعلو وينخفض مثل طير النورس، مع بكاء وعويل. ويبدو أنها أرادت أن يسمع الأجنبي احتجاجها الكئيب.

فهل اهتممنا بهذا الأمر وأوليناه رعايتنا؟ في الوقت ذاته كان موظفون من مشروع خط النفط الآسيوي في كاليفورنيا (UNOCAL) يتفاوضون مع طالبان لأخذ حقوق هذا الخط لنقل الغاز من تركمنستان إلى باكستان عبر أفغانستان، في أيلول/سبتمبر ١٩٩٦؛ كما أعلنت وزارة الدولة الأميركية أنها قد تقيم علاقات دبلوماسية مع طالبان، ثم سحبت تصريحها فيما بعد. وكان من أولئك المفاوضين «زلماي خليل زاد» الذي عُيّن بعد خمس سنوات من قِبل الرئيس جورج و. بوش مبعوثاً خاصاً إلى أفغانستان المحرَّرة؛ وكان منهم أيضاً الزعيم البشتوني حميد قرضاي. ولا عجب إذن أن يقف الأفغان موقفاً متشككاً من الولايات المتحدة الأميركية. وكان حلفاء أميركا يدعمون أصلاً بن لادن ضد الروس. ثم جعل الأميركيون بن لادن عدوهم الأول على رؤوس الأشهاد ـ وقد يتعذر على دولاب الحظ في البنتاغون أن يبقيه في تلك الرتبة؛ نظراً لاكتشاف أمثاله باستمرار. والآن يجري التودد لطالبان. ولكن حتى متى؟ وهل يعقل أن شخصية عربية مثل بن لادن الذي لديه طموح أبعد من طالبان يمكن أن يحافظ على نزاهة نفيه في أفغانستان إلى جانب رجال يقمعون شعبهم؟ وهل يحمي طالبان بن لادن أكثر مما حمته جمهورية السودان الإسلامية التي أخفقت في ذلك؟

وعلى سفح الجبل استمرت الآلة تفتش الآلة. وفي ضوء القمر البارد الذي يلفّه الضباب، كنتُ أستطيع أن أرى شفتيّ الرجل الطويل المشدودتين وخدّيه الغائرين. وعلى سفح هذا الجبل المتجمد، فتح الحقيبة المدرسية التي أحملها دائماً في البلدان الصعبة، ومرّر أصابعه على جوازي، وبطاقاتي الصحافية، ودفاتري، وكومة الجرائد اللبنانية والخليجية التي أصطحبها. كما سحب آلة التصوير «نيكون» من كيسها؛ ففتحها، ودقَّق في آليّتها، ومحتواها وفي كل علبة كرتون حاوية لأفلام التصوير. ثم أعاد كل هذه الأشياء إلى الكيس، مع الكاميرا المغلقة. قلت: «شكراً»، لكنه لم يردّ؛ بل نظر إلى السائق، وأومأ إليه برأسه كي يسير؛ فسرنا على طريق الجليد. صرنا الآن على علوّ ٥٠٠٠ قدم. وما زالت الأضواء تُسلَّط علينا حتى وصلنا إلى منعطف وراء صخرة مدوَّرة

كبرى، ومن هناك رأينا في ضوء القمر وادياً صغيراً. وكان هناك عشب وأشجار وساقية من الماء غير المتجمد، تتلوّى في ذلك الوادي، ومجموعة من الخيم تحت شفير عالٍ. واقترب منا شخصان وتبادلنا السلام الرسمي بالأيدي الذي يفصح دائماً عن طلب الثقة. ودعاني أحد الجزائريين الذي يتكلم الفرنسية بطلاقة وأحد المصريين إلى الطواف في الوادي الصغير.

غسلنا أيدينا في مسيل الماء، وسرنا على الحشيش نحو فجوة سوداء في الجرف الصخري فوقنا. ولمَّا كانت عيناي قد تعوّدتا على الضوء، كنتُ أستطيع أن أبصر شكلاً مستطيلاً في سفح الجبل، ملجأً صخرياً من الغارات الجوية حفره رجال بن لادن. في قلب الجبل على ارتفاع ستة أمتار، خلال الحرب الروسية. وقال لي الرجل المصري: «لقد كان هذا الملجأ مستشفى ننقل إليه الجرحى من المجاهدين، بحيث يبقون بمنجى من الغارات الجوية». سرت في هذا الكهف المصنوع بيد الإنسان، بينما الرجل الجزائري يحمل مشعلاً، حتى صرت أسمع الجلبة الصادرة عن وقع أقدامي من أعماق النفق. وعندما خرجنا منه، كان نور القمر باهراً، يغرق الوادي بتألّقه، في فردوس صغير آخر، حافل بالأشجار والمياه، وقمم الجبال.

أُخِذْتُ إلى خيمة حربية مصنوعة من قماش مشمّع بلون «الكاكي»، ومربوطة إلى أوتاد حديدية؛ ندخل إليها من شُقّة قماش مقلوبة؛ وهي مفروشة بأفرشة مبقَّعة. وكان فيها إبريق شاي كبير؛ فجلست فيها مع المصري والجزائري، وثلاثة رجال آخرين دخلوا الخيمة حاملين رشاشات «كلاشينكوف». انتظرنا حوالى نصف ساعة، أقرّ الجزائري خلالها بعد استجوابي له أنه كان عضواً في «المقاومة الإسلامية للنظام الجزائري العسكري». تكلمتُ معه عن زياراتي إلى الجزائر، وعن قدرة الإسلاميين على الاستمرار في القتال ضمن منطقة الجبال والريف، ومجابهة عسكر الحكومة، مثلما كانت جبهة التحرير الوطني الجزائرية (FLN) تناهض الجيش الفرنسي في أعوام ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ من أجل الاستقلال. فسُرَّ الجزائري من هذه المقارنة التي كانت مقصودة من قبلي ـ ولكني لم أذكر شكي في أنه قد يكون منتمياً إلى الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) التي

اعتبرتها الحكومة مسؤولة عن مذابح قطع الأعناق وتقطيع الأوصال التي لطَّخت الأعوام الأربعة الأخيرة من تاريخ الجزائر.

سمعت فجأة أصواتاً خارج الخيمة، مثل صوت تسجيل قديم لشريط سينمائي. ثم انخطف باب الخيمة ودخل بن لادن لابساً عمامة وأثواباً خضراء، وقفتُ مع نصف انحناءة تحت سطح الخيمة المنخفض، وتصافحنا، خافضين رأسينا للسلام المتبادل، كما كان يفعل الباشاوات (أيام الأتراك العثمانيين) ولنتبادل النظر وجهاً لوجه. بدا متعباً كالعادة، ولاحظت أنه عرج قليلاً عندما دخل الخيمة. وظهرت لحيته أكثر شيباً، ووجهه أكثر نحولاً مما كان عليه، كما أتذكر. لكنه جاء متهللاً مبتسماً، حتى كأنَّه مرح جَذِل؛ فوضع رشّاشه إلى يساره على الفراش، وطلب لي مزيداً من الشاي بإصرار. مال قليلاً إلى الأرض؛ ثم التفت إليّ مع ابتسامة أرحب، وأرحم، فظننتها إذ ذاك أكثر إقلاقاً.

بدأ كلامه بمناداتي والتطلّع حوله إلى الرجال الآخرين المرتدين ثياب الميدان مع طاقيّات سمراء ليّنة، ممَّن ازدحموا في الخيمة، قائلاً: «يا سيد روبرت، حلم أحدنا أنك جئت إلينا يوماً على صهوة جواد، ملتحياً، مع كونك شخصاً لا يؤمن بالروحانيات، ومرتدياً ثوباً مثلنا؛ مما يعني أنك مسلم».

كان ذلك رهيباً مروِّعاً؛ لا بل كانت تلك اللحظة الأكثر إخافة في حياتي. أدركت بلمحة المعنى الذي قصده بن لادن بكل كلمة من كلامه: الحلم، الحصان، اللحية، الروحانيات، الثوب، المسلم. كان الرجال الآخرون حولنا يومئون كلهم برؤوسهم، وينظرون إليّ، بعضهم يبتسمون، بينما الآخرون يحدِّقون بوجوم في هذا الإنكليزي الذي ظهر في حلم «أحد الإخوان». لقد ارتعبت فعلاً. فتلك مصيدة ودعوة في الوقت ذاته، ولحظة خطرة وسط أكثر الناس خطراً في العالم. لم يكن باستطاعتي رفض «الحلم» لئلا أوحي بأن بن لادن يكذب؛ ولم يكن بإمكاني أن أقبل معناه دون أن أدفع نفسي إلى الكذب، ودون أن أوحي بما يقصد مني ـ أن أقبل هذا الحلم كنبوءة، وكتعليمات إلهية ـ وأن أسعى إلى تحقيقه. فكون هذا الرجل ـ وهؤلاء الرجال ـ يثقون بي كأجنبي، آتي إليهم دون تحيُّز، وأن يعتبروني شريفاً، فهذا أمر. ولكن التصوّر

القاضي بأن أنضم إليهم في جهادهم، وأن أصبح واحداً منهم، كان أمراً آخر تجاوز كل احتمال. وكانت العصبة كلها بانتظار الرد.

هل أتخيل ذلك؟ هل هذا مجرد أسلوب بلاغي مسهب للتعبير عن احترام تقليدي لزائر؟ ألا يكون هذا مجرّد محاولة ـ مألوفة في الشرق الأوسط ـ لكسب مهتدٍ جديد إلى الإيمان؟ وبصراحة: هل كان يحاول أن يجنّدني معه؟ خشيت ذلك فعلاً. وفهمت فوراً ما قد يعني.

فلا شك في أن أسلمة شخص غربي أبيض من إنكلترا، وصحافي في جريدة معتبرة ـ وليست أسلمة إنكليزي من أصل عربي أو آسيوي ـ تُعتبر صيداً ثميناً. وقد لا يكون موضع شُبهة، فيصبح موظفاً في الحكومة، أو يلتحق بالجيش، أو يتعلم قيادة الطائرات ـ بعد عدة سنوات. كان علي أن أخرج من هذا المأزق بسرعة؛ وكنتُ أفكر في مخرج فكري لائق، وأعمل بجهد وذهني يتوقّد.

بدأت بقولي: «يا شيخ أسامة»، حتى قبل أن أقرر كلماتي التالية، «أنا لست مسلماً». فحصل صمت في الخيمة. «أنا صحافي»، ولا أحد يفنِّد ذلك. «وشغل الصحافي هو أن يقول الحقيقة»، ولا أحد يريد أن يجادل في ذلك، «وهذا ما أنوي أن أفعله في حياتي ـ أن أقول الحقيقة». كان بن لادن يراقبني كالصقر. فهم أني أتجنّب العرض. وصار دوره الآن أمام رجاله أن ينسحب، ويغطي انسحابه بلباقة ورشاقة. قال: «إذا كنتَ تقول الحقيقة فأنت مسلم؛ وهذا يعني أنك مسلم فاضل». فوافق الرجال الملتحون والمرتدون ثياب الميدان على هذه الحصافة. وابتسم بن لادن. وأُنقذت، فتنفست الصعداء: لا اتفاق.

وربما أراد بن لادن أن يقلّل من شأن هذا الأمر، ليستر الإحراج الذي سبّبته هذه الخيبة البسيطة، فانبرى يلاحظ محفظتي المدرسية قرب الكاميرا، والجرائد اللبنانية التي تكاد تظهر فيها. فأمسك بالجرائد وقرر قراءتها فوراً. وأمامنا جميعاً، مشى متثاقلاً عبر الخيمة، والجرائد في يده، إلى حيث كان قنديل الكاز يهسّ في الزاوية. وجلس هناك حوالى نصف ساعة يقرأ بنفسه في

تلك الجرائد العربية، مهملاً إيَّانا جميعاً، وطالباً أحياناً من المصري أن يقرأ مقالاً، أو كاشفاً أحياناً لأحد المسلحين عن شيء في جريدة. فتساءلت: هل هذا هو الرجل الذي يمثل مركز «الإرهاب العالمي»؟ إن الاستماع إلى الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية، وقراءة الافتتاحيات في «النيويورك تايمز» و«الواشنطن بوست»، ليجعلا المرء يعتقد أن بن لادن يدير «شبكة الإرهاب» من غرفة محصَّنة تحت الأرض تعجّ بالحواسيب والخطط الحربية الرقمية، بنقرة على زر ليأمر أتباعه بأن يهاجموا هدفاً غربياً آخر. ولكن هذا الرجل يبدو منقطعاً عن العالم الخارجي. أليس لديه راديو أو تلفزيون؟ لماذا لم يعلم ـ كما أخبرني بعدما قرأ الجرائد ـ أن وزير خارجية إيران، علي أكبر ولايتي، زار العربية السعودية، بلده هو، لأول مرة منذ أكثر من ثلاث سنوات.

وعندما عاد إلى مقعده في زاوية الخيمة، تصرف كرجل أعمال. فحذَّر الأميركيين من هجوم ضارٍ جديد على قواتها في السعودية، قائلاً: «نحن لا نزال في بداية العمل الحربي ضدهم؛ ولكننا أزلنا الحاجز النفسي المانع من محاربة الأميركيين... هذه هي المرة الأولى منذ ١٤ قرناً التي تحتل فيها الحرمين الشريفين قوات غير مسلمة...». وهكذا، أصرّ على أن الأميركيين جاءوا إلى الخليج من أجل النفط، ولذلك ركبوا متن التاريخ الحديث في المنطقة.

«لقد أراد بريجنيف أن يصل إلى مضيق هرمز عبر أفغانستان لهذا السبب، ولكن بكرم الله تعالى والجهاد لم يهزم في أفغانستان فحسب، بل انتهى هنا. لقد حملنا أسلحتنا على أكتافنا في هذه الأصقاع لعشر سنوات، ونحن مستعدون مع أبناء العالم الإسلامي لحمل الأسلحة طوال ما بقي من عمرنا. ولكن بالرغم من ذلك، فالنفط ليس القوة الدافعة المباشرة التي تهيب بالأميركيين إلى احتلال المنطقة ـ فقد حصلوا على النفط بأسعار متهاودة قبل غزوهم. بل هناك أسباب أخرى؛ أولها الحلف الأميركي ـ الصهيوني، الحافل بالجزع من قوة الإسلام ونفوذه وسلطته، ومن الأراضي المقدسة في مكة والمدينة. إنهم يخافون من

يقظة إسلامية أو بعث إسلامي يغرق إسرائيل. إننا مؤمنون بأننا سنقضي على اليهود في فلسطين. ونحن مقتنعون بأننا سننتصر بعون الله على القوات الأميركية. إنها مسألة عدد ووقت لا غير. أما ادِّعاؤهم بأنهم يحمون الجزيرة العربية من العراق، فهو غير صحيح ـ إن قضية صدّام كلّها حيلة».

لقد طرأ هنا شيء جديد مطلق العنان. إن إدانة إسرائيل أمر مألوف لدى أيّ قومي عربي. ناهيك برجل يعتقد أنه يقوم بجهاد إسلامي. ولكن بن لادن الآن يجمع بين أميركا وإسرائيل، كما لو كانتا بلداً واحداً، حسبما قال: «بالنسبة إلينا، لا فرق بين الحكومة الأميركية والحكومة الإسرائيلية، أو بين الجندي الأميركي والجندي الإسرائيلي». ـ كما أنه كان يتكلم عن اليهود بالأفضلية على الجنود الإسرائيليين، كأهدافٍ له. فكم سيمضي من الوقت قبل أن يضيف إلى قائمته «الأمم الصليبية»؟ لم ينسب إلى نفسه تفجير القنابل في الرياض والخُبَر، لكنه مدح الرجال الأربعة المتهمين بتدبير الأمر، وأقرّ بأنه قابل اثنين منهم وقال: «إني أبدي احترامي الكبير لأولئك الذين قاموا بتلك التفجيرات؛ واعتبر أنه عمل عظيم وشرف كبير لم تتسنَّ لي المشاركة فيه». لكن بن لادن كان أيضاً متلهّفاً ليرينا الدعم الذي تتلقاه قضيته المتنامية، ولا سيما في باكستان. وقد أظهر لنا قُصاصات جرائد تسجّل خطب الشيوخ الذين أدانوا وجود أميركا في العربية السعودية، ثم دفع بصورتين فوتوغرافيتين ملونتين كبيرتين إلى يدي تمثلان كتابات مرشوشة على جدران كراتشي.

تقول إحداها بالطلاء الأحمر: «أيتها القوات الأميركية، اخرجي من الخليج ـ العلماء المحاربون المتحدون». وتورد أخرى بالطلاء البنّي: «أميركا هي أكبر عدو للعالم الإسلامي». كما ناولني بن لادن لافتة كبيرة، كأنها كتبت باليد ذاتها المشبعة عداء لأميركا، أطلقها «المولويُّون» أي العلماء الدينيون في مدينة لاهور. أما بالنسبة إلى طالبان، ونظامهم الجديد الساحق، فلم يكن لدى بن لادن من خيار إزاءه سوى أن يتخذ اتجاهاً عملياً بقوله: «كل البلاد الإسلامية هي بلادي؛ نحن نعتقد أن طالبان مخلصون في فرض قانون الشريعة الإسلامية. لقد رأينا الوضع قبل مجيئهم وبعده، ولاحظنا فرقاً كبيراً وتحسناً ملحوظاً».

ولكن عندما عاد إلى نضاله الأكثر أهمية ـ ضد الولايات المتحدة الأميركية ـ بدا بن لادن رابط الجأش. وعندما تكلم عن هذا تريّث أتباعه الموجودون في الخيمة على كل كلمة من كلماته، كما لو كان المسيح. أنبأنا بأنه أرسل رسائل بالفاكس إلى الملك فهد وجميع الوزارات الحكومية في العربية السعودية، يبلغهم فيها عقد نيَّته على الاستمرار في النضال المقدس ضد الولايات المتحدة الأميركية؛ حتى إنه ادّعى أن بعض أعضاء العائلة المالكة السعودية ساندوه، مع ضباط في قوى الأمن. ولكن إعلان الحرب بالفاكس تجديد وغرابة في أطوار نظرة بن لادن إلى السياسة الأميركية. وعند نقطة معينة، كان جدِّياً في التعليق على زيادة الضرائب في أميركا بأنها قد تدفع بعض الولايات إلى الانفصال عن الاتحاد. وهي فكرة قد تجذب انتباه بعض حكام الولايات، ولو لم تكن واقعية.

ولكنّ هذا لم يكن سوى التهاء عن تهديد أخطر، إذ قال: «نعتقد أن نضالنا ضد أميركا سيكون أبسط من كفاحنا ضد الاتحاد السوفياتي. وسأقول لك شيئاً للمرة الأولى: إن بعض مجاهدينا الذين حاربوا في أفغانستان اشتركوا في عمليات ضد الأميركيين في الصومال، وفوجئوا بانهيار المعنويات القتالية الأميركية. نحن نعتبر أميركا نمراً من ورق». وكان ذلك خطأً استراتيجياً له بعض الشأن. إن تراجع أميركا عن مهمة بناء الدولة في الصومال في عهد الرئيس كلينتون لن يتكرر إذا وصل إلى الحكم رئيس جمهوري، ولا سيّما إذا هوجمت الولايات المتحدة. وإذا كان صحيحاً أن فقدان الإرادة ذاته قد يعود إلى ثنايا السياسة الحربية الأميركية ـ كما قد يحصل في العراق ـ فإن واشنطن، مهما ظنّ بن لادن، ستكون خصماً أخطر من موسكو. لكنه أصرّ على ذلك. وسأذكر دائماً كلمات بن لادن الأخيرة التي تلفّظ بها أمامي تلك الليلة على الجبل الأجرد: «يا سيد روبرت، من هذا الجبل الذي تجلس عليه، غلبنا الجيش الروسي، ودمَّرنا الاتحاد السوفياتي. وإني أدعو الله كي يسمح لنا بأن نحوّل الولايات المتحدة إلى ظلّ لذاتها».

جلست صامتاً أفكّر في هذه الكلمات، بينما كان بن لادن يبحث مسألة عودتي إلى جلال أباد مع الحرّاس. وكان مهتماً بإمكان أن تعترض حواجز طالبان على إرساله لأجنبي ليلاً، بالرغم من إخلاصهم. لذلك اقترحوا عليّ أن أمضي الليلة معهم في مخيّم بن لادن. وسمح لي بأن آخذ ثلاث صور له في ضوء مصابيح سيارة تويوتا. جلس أمامي دون حراك، كجلمود صخر. وفي الصور التي ظهّرتها في بيروت بعد ثلاثة أيام بدا كشبح بالأرجواني والأصفر. ودَّعني مصافحاً مع إيماءة، بكل بساطة، واختفى من الخيمة؛ وبقيتُ مضطجعاً على الفراش ملتحفاً بسترتي لأدفأ. كما وضع بعض الرجال أسلحتهم جانباً وناموا أيضاً معي، بينما بقي آخرون مدججين بالرشاشات وقاذفات الصواريخ، يقومون بدوريات حراسة على التلال المنخفضة حول المخيم.

وفي السنوات القادمة، سأتساءل: مَن كان أولئك الرجال؟ هل كان محمد عطا منهم في الخيمة؟ أو عبد العزيز العمري؟ أو أي شخص آخر من التسعة عشر رجلاً الذين سنعرف أسماءهم بعد أربع سنوات؟ لا أستطيع أن أتذكر وجوههم الآن، إذ كانوا متلفّعين بكوفيّاتهم.

بقيتُ صاحياً بسبب الإنهاك والبرد. «ظل لنفسه». تلك كانت العبارة التي تتردد في ذهني. ماذا كان بن لادن وهؤلاء الرجال القساة الذين كرّسوا أنفسهم للجهاد يخبّئون لنا؟ أتذكّر الساعات القليلة التالية مثل مقطع فيلم توقفه لتتأمّل فيه. أفقت على البرد مع وجود جليد في شعري؛ ونزلنا من أعلى الجبل بسيارة «التويوتا»، مع أحد المسلحين الجزائريين في الخلف، وهو ينبئني أنه لو كنّا في الجزائر لقطع رقبتي، لكن أوامر بن لادن تلزمه بأن يحميني؛ ولذلك يمكن أن يدفع حياته ثمناً للحفاظ على حياتي. ثم أوقف الرجال الثلاثة الجالسون في الخلف مع السائق سيارة الجيب ليؤدوا صلاة الفجر، عند المصب العريض لنهر كابول، حيث مدّوا الحصير وسجدوا، بينما كادت الشمس تبزغ وتشرق على الجبال. وكنتُ أرى من الجهة الشرقية الشمالية البعيدة مرتفعات «هندوكوش» تلمع بلون أبيض باهت تحت السماء الباهتة الزرقة، وتكاد تلامس حدود الصين

التي تمرّغ أنفها في حطام من الأرض سيشهد مزيداً من الآلام في السنوات القادمة. هكذا كان العالم قبل مجيء الإنسان: تلال، وصخور، وماء، وأشجار معمِّرة، وجبال عتيقة.

وأتذكر أننا عندما كنا عائدين مع رجال بن لادن، مررنا بثكنات عسكرية خزن فيها طالبان الأسلحة التي غنموها. وبعد عدة دقائق فقط سمعنا انفجاراً هائلاً للقنابل، والصواريخ المضادة للدبابات، وصواريخ «ستينجر»، والألغام وسائر المتفجرات. لقد كان بمثابة هزة أرضية ارتجَّ بسببها صف الأشجار خارج فندق «سبينجهار»، حيث نثر علينا الانفجار قطعاً صغيرة من المعدن، وصفحات ممزقة من أدلّة أميركية تعطي تعليمات من أجل توجيه الصواريخ إلى الطائرات. قُتل في هذا الحادث العَرَضي تسعون شخصاً قُطِّعوا إرَباً ـ فهل رمى أحد الطالبان عقب سيجارة، وهي من المتع الفريدة النادرة لهم، على الذخيرة؟ وما عتَّم الجزائري أن جاءني والدموع في عينيه ليقول إن أفضل صديق له قد قضى في الانفجار. وهكذا رأينا أن رجال بن لادن يبكون أيضاً.

ولكنني أذكر أكثر من أي شيء آخر الدقائق الأولى التي أعقبت مغادرتنا لمخيم بن لادن. كان الظلام لا يزال مرخياً سدوله، لكني رأيت ضوءاً كبيراً على الجبال لجهة الشمال. ظننت أولاً أنه صادر عن المصابيح الأمامية لسيارة أخرى، كإشارة أمنية من حراس المخيم إلى سيارتنا المغادرة. لكن الضوء بقي هناك لدقائق كثيرة، فاعتقدت أن هناك شيئاً يحترق فوق الجبال ويترك جمراً قليل الإضاءة. وكان الرجال في سيارتنا يراقبونه أيضاً. فصاح أحدهم: «إنه المذنَّب «هالي»». لكنه كان مخطئاً، إذ إنه مذنب مكتشف حديثاً يسمّى «هايل ـ باپ» (Hale-Bopp). أصبح يحلِّق فوقنا الآن مندفعاً، وتاركاً وراءه ذيلاً ذهبياً؛ إنه قوة عظمى تنطلق بسرعة ٧٠ ٠٠٠ كيلومتر في الساعة عبر السماوات.

وهكذا أوقفنا سيارتنا، وخرجنا لمراقبة تلك الكرة الملتهبة، وهي تتأجج عبر الظلام فوقنا، وسط رهبتنا جميعاً، رجال القاعدة وأنا، إزاء هذا الظهور الرائع

المذهل للطاقة الكونية، التي لم تُرَ منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة. كان الجزائري واقفاً بجانبي، ونحن نمدُّ أعناقنا إلى السماء، فقال: «هل تعلم يا سيد روبرت ماذا يقولون عندما يظهر مذنّب من هذا النوع؟ إنه يعني أن حرباً كبيرة ستنشب». وهكذا راقبنا أجيج النار في موكب النجوم عبر القبة السماوية فوقنا.

الفصل الثاني

«إنهم يطلقون النار على الروس»

عندما تُجرح وتُلقى على سهول أفغانستان، وتأتي القسوة لتقطع ما تبقّى
منك، ازحف نحو رشّاشك، وفجّر دماغك، واذهب إلى ربّك كجندي
«روديارد كيبلنغ» من مؤلَّفه: «الجندي البريطاني الشاب»

أعطت جدّتي «مارغريت فيسك» والدي «ويليام» كتاباً، قبل أقل من ستة أشهر من نشوب الحرب العالمية الأولى. كان الكتاب عبارة عن مغامرة إمبريالية مؤلفة من ٣٦٠ صفحة، تحت عنوان: «قصة الحرب الأفغانية: توم غراهام (V.C.)». وعلى قفا الغلاف الأمامي كان الإهداء: «إلى ويلي من والدته» مكتوباً بقلم رصاص غليظ، ومؤرخاً في ٢٤ كانون الثاني/يناير، ١٩١٤، من أجل آخر». وكان «ويلي» آنذاك بعمر ١٥ سنة. ولم أرث هذا الكتاب، إلّا بعد أن توفّي والدي عام ١٩٩٢؛ ذلك الكتاب بغلافه المتين الذي حُفر عليه «صليب فكتوريا البريطاني» مع شهادة: «من أجل البسالة» على الوسام ـ بينما حُفرت على صلبه صورة جندي يلبس سترة حمراء وقبعة استوائية بيضاء مستدقَّة الرأس، ويحمل بيديه رشّاشاً. لم أعثر أبداً على المعنى المُلْغِز لعبارة: «من أجل آخر»؛ لكنني قرأت الكتاب بعد سنوات، فوجدته مغامرة «لويليام جونستون» نشرته عام ١٩٠٠ دار «توماس نلسون وأولاده». وهو يروي قصة ابن صاحب منجم نشأ في المرفأ الإنكليزي الشمالي «سيتون»، واضطر إلى ترك المدرسة ليصبح كاتباً متدرّباً، بسبب افتقارٍ مفاجىء لوالده، وليلتحق بالجيش البريطاني قبل عمر التجنيد. فألحق بوحدة بريطانية في «باتيفانت» بمقاطعة «كورك» في جنوبي ـ غربي إيرلندا

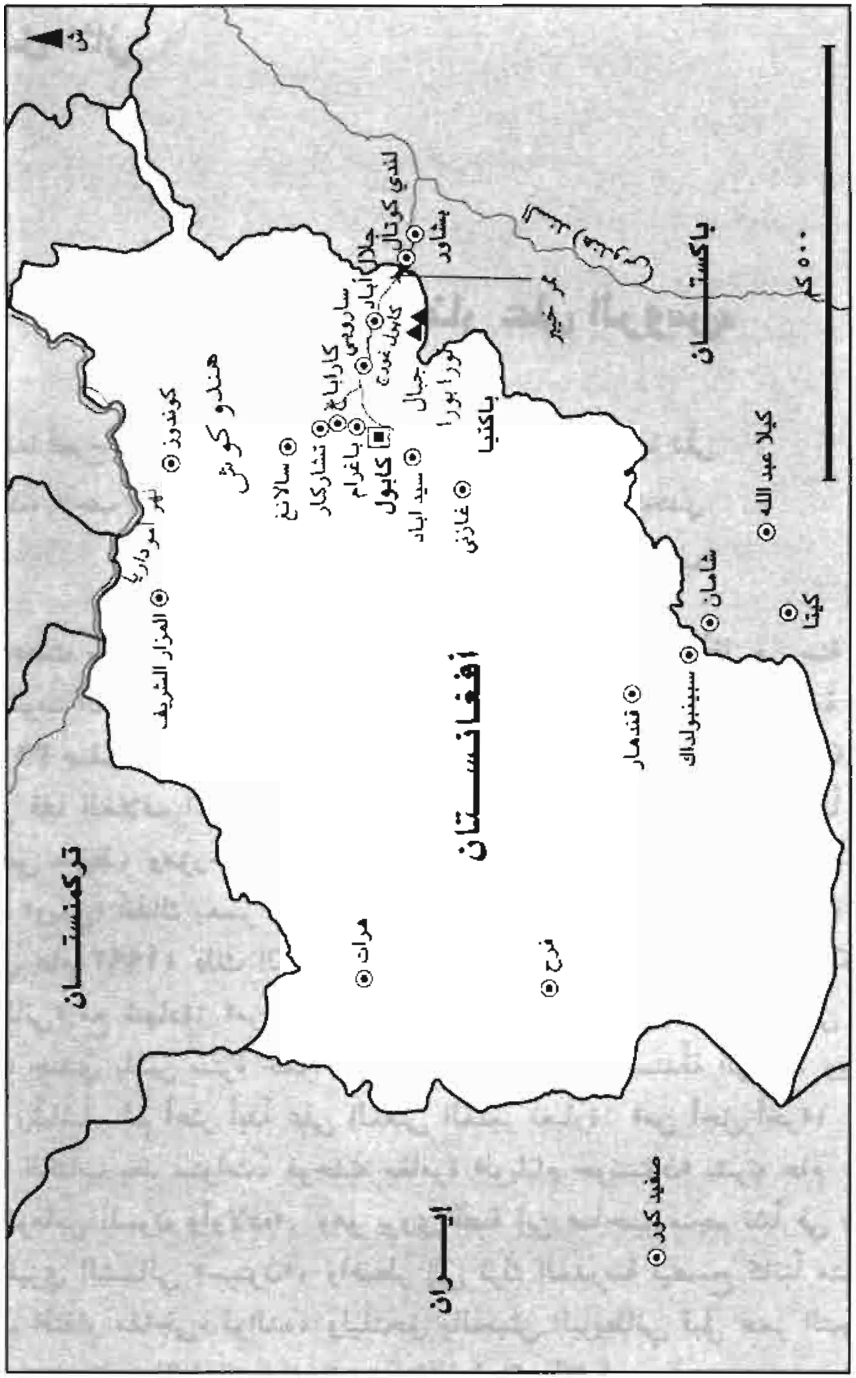
ش
تركمنستان
أفغانستان
إيران
باكستان
هندو كوش
كوندوز
نهر أمرداريا
المزار الشريف
سالانج
تشاريكار
باغرام
كابول
سيد اباد
غازني
كاراباغ
ساروبي
جلال اباد
لندي كوتال
بشاور
جبال تورا بورا
باكتيا
ممر خيبر
كيلا عبد الله
شامان
كيتا
سبينبولداك
قندهار
هرات
فرح
٥٠٠ كم

ـ وها هو يقبِّل «حجر بلارني» ليعطيه القوة والفصاحة اللتين يحتويهما ذلك الحجر ـ ثم يسافر إلى الهند، وإلى الحرب الأفغانية الثانية، حيث يعيِّن ملازماً ثانياً في فوج المرتفعات. وها هو أيضاً واقف أمام قبر والده في المقبرة المحلية قبل مغادرته للالتحاق بالجيش، يعاهد نفسه على «أن يعيش حياة نقية، ونظيفة، ومستقيمة».

إن هذه القصة نموذجية بالنسبة إلى جيل والدي؛ فهي قصة عنصرية عنيفة هادرة، عن البطولة الإنكليزية والموقف السلبي تجاه بعض القضايا الإسلامية. قرأتها، فلحظت فيها توازيات لافتة للنظر، مثلما حصل لوالدي. فوالدي «ويلي» بالذات، كما جاء في الإهداء منذ قرن تقريباً، ترك المدرسة اضطرارياً، في مرفأ إنكليزي شمالي، لأن والده «إدوارد» لم يعد قادراً على أن يعيله. فصار أيضاً كاتباً متدرّباً، في «بيركنهيد». وفي الملاحظات القليلة التي كتبها قبل موته، يستعيد بعض ذكرياته، فيذكر أنه التحق بالجيش البريطاني قبل سن التجنيد، وسافر إلى ثكنات «فولوود» في «برستون» للالتحاق بمدفعية الميدان الملكية بتاريخ ١٥ آب/أغسطس عام ١٩١٤، بعد أحد عشر يوماً من بدء الحرب العالمية الأولى، وبعد ستة أشهر تماماً من إهداء والدته ذلك الكتاب إليه: «توم غراهام». وبعد تطوعه في الجيش بعامين، أُرسل «بيل فيسك» كذلك إلى كتيبة من فوج «شيشاير» في «كورك» بإيرلندا، قبل تمرُّد الفصح عام ١٩١٦؛ حتى أنني وجدت في محفوظاتي صورة باهتة لوالدي، وهو يقبِّل «حجر بلارني» المذكور. وبعد سنتين، عُيِّن والدي ملازماً ثانياً في فوج الملك في «ليفربول». فهل كان يتعقب واعياً خطوات الحياة الخيالية التي اتبعها «توم غراهام»؟

أمّا ما تبقَّى من الرواية فكان قصة مثيرة للانزعاج بخصوص التحيّز ضد لون البشرة، ورُهاب الأجانب خوفاً وكرهاً، والضغينة ضد المسلمين في الحرب الأفغانية الثانية. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، تركزت الخصومة بين الإنكليز والروس طبعاً على أفغانستان، التي كانت حدودها غير المرسَّمة عبارة عن الخطوط الأمامية بين روسيا الإمبريالية والحكم الهندي ـ البريطاني. وكان الأفغان الضحايا الأساسيين في هذه «اللعبة الكبرى»، بحسب

ما سمَّى الدبلوماسيون البريطانيون بغير حق النزاعات المتتالية التي حصلت في أفغانستان، والخصائص الطفولية للحسد المتبادل بين روسيا وبريطانيا. فالبلاد الأفغانية كانت عبارة عن صندوق من الصحارى المحصورة، والجبال الشامخة، والوديان المخضوضرة الداكنة، التي كانت نقطة التقاء على مدى قرون بين الشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، والشرق الأقصى ـ كما كانت ميداناً للمعارك(*). ويعتبر قرار الملك الأفغاني «شير علي خان»، الولد الثالث لملك أفغانستان الأول «دوست محمد»، القاضي باستقبال البعثة الروسية في كابول، بعد معاودة اعتلائه العرش عام ١٨٦٨، الباعث المباشر للحرب الأفغانية الثانية، كما يسمّيها البريطانيون.

أما الحرب الأفغانية الأولى فقد أدَّت إلى إبادة الجيش البريطاني في ممر كابول عام ١٨٤٢، في الصدع الأرضي ذاته الذي سرنا فيه بسيارتنا ليلاً، خلال زيارتي لأسامة بن لادن عام ١٩٩٧. وبموجب معاهدة «غاندماك Gandmak»، عام ١٨٧٩، وافق شير علي بن يعقوب خان على إقامة سفارة بريطانية دائمة في كابول؛ لكن المبعوث البريطاني ورجاله اغتيلوا في مجمعهم الدبلوماسي، فأُرسل الجيش البريطاني من جديد إلى أفغانستان.

وفي الرواية المذكورة، يذهب توم غراهام مع الجيش البريطاني. وفي بازار

(*) حطّم الإسكندر الكبير القبائل الأفغانية في طريقه إلى الهند. ثم توالى على حكم تلك الأراضي «الكوشان»، والساسانيّون الفرس، و«الهيفتاليّون» (Hephtalites)، والجيوش الإسلامية التي قاومتها في البداية بشراسة القبائل الهندية. وفي عام ١٢١٩، جاء غزو «جنكيز خان» الذي استشاط غضباً لموت حفيده خارج مدينة «باميان» المحاصرة ـ حيث تمكن مشاهدة نصبين عملاقين لبوذا يناهز عمرهما ٦٠٠ سنة، محفورين في الجرف الصخري ـ فأمر جيشه المغولي بإعدام كل رجل، وامرأة، وولد. كما أن إمبراطوريات أخرى وسّعت نطاق أراضيها إلى ما نسمّيه اليوم أفغانستان. وعند نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، احتلّها تيمورلنك (تيمور تعني الأحنف أي المشوّه القدم)، وتلا التيموريين في الحكم مغول الهند، والصفويون الفرس. وكان هناك عصيان دوري من قبل القبائل الأفغانية؛ لكن مجمل البلاد التي يمكن تحديدها بأفغانستان، برز كيانها عام ١٧٤٧، عندما قام «أحمد شاه دوراني» زعيم قبيلة بشتونية صغيرة، فشكّل كونفيدرالية غزت بعدها شمالي الهند. ولكن أفغانستان لم تظهر كأمة واحدة في كيان سياسي إلّا تحت حكم «دوست محمد» بين الأعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩.

بشاور ـ في باكستان اليوم، ثم في الهند ـ يصادف غراهام رجالاً من قبائل باثان (Pathan)، «وهي مجموعة رديئة. . . تضمّ معظم المتعصّبين الذين يلبسون قلنسوة مشدودة على الجمجمة، تعطي لابسها مظهراً شيطانياً». وخلال أيام بدأ غراهام يحارب رجال القبائل ذاتهم في «بيوار كوتال»، غارزاً حربته في صدر أفغاني «عملاق داكن اللون، تسطع عيناه بالبغضاء». وفي وادي «قُرُم»، كان غراهام ورفاقه المألوفون يحاربون رجال القبائل «المغتاظين، المغرمين بحب السلب والنهب». وعندما وافق اللواء السير «فردريك روبرتس» ـ الذي أصبح فيما بعد لورد قندهار ـ على مقابلة زعيم قبيلة محلية، وصل ذلك الرجل مع «زمرة من الأوغاد، مثلما يمكن أن يتصور المرء». ويدوِّن المؤلف أنه كلما وقع الجنود البريطانيون في قبضة الأفغان «كانوا يمثِّلون بأجسامهم بشكل مروِّع، ويُخزونهم، على أيدي عفاريت بمظهر بشري». وعندما سيق زعيم الأفغان المسؤول عن اغتيال المبعوث البريطاني إلى الإعدام، سرت «رعشة من الرضا» في صفوف رفاق غراهام، بينما كان المحكوم عليه يواجه المشنقة.

وهكذا وُصف الأفغان في تلك الرواية بأنهم «مجموعة رديئة»، «متعصبون» «أوغاد»، «عفاريت بمظهر بشري»، ولحوم للحراب البريطانية ـ أو Toasting) (Forks، كما سمّاهم نص الرواية ببهجة وانشراح. وقد يسوء الأمر، ويأمر ضابط المدفعية البريطاني رجاله بإطلاق النار على رجال القبائل المتراصِّين بتعابير «تفرّق الذباب». وهكذا يصبح نص الرواية ليس عنصرياً فحسب، بل مضاداً للمسلمين أيضاً؛ إذ يتكلم المؤلف بلهجة الأساقفة قائلاً: «قد لا يعرف القرَّاء من الأولاد أن الهدف الوحيد لكل أفغاني منخرط في الحرب بين عامي ١٨٧٨ و١٨٨٠، كان تقطيع كل هرطوقي يصادفه. وكلما زاد في تقطيع الجندي الإنكليزي، ارتفعت مكانته في الجنة». وبعدما جُرح توم غراهام في كابول، وصف طبيب الجيش المولود في إيرلندا الأفغان بأنهم «القتلة الأوغاد، والعبيد السود».

وعندما هُزم البريطانيون في معركة «مايواند»، في صحراء قاحلة غربي قندهار، أمر ضابط رجاله «بإعداد حرابهم وانتظار العبيد». ولم يذكر الكتاب أنه

كانت هناك أيضاً امرأة أفغانية شابة تدعى «ملالي» ـ رأت بدء تراجع الأفغان ـ فمزقت حجابها ونزعته عن رأسها، وقادت هجوماً ضد أعدائها، فصرعها رصاص البريطانيين. وذلك طبعاً، جزء من التاريخ الأفغاني، لا التاريخ البريطاني. وعندما ادّعى البريطانيون أخيراً في قندهار أنهم انتصروا، فاز غراهام بصليب فكتوريا.

من تعابير «الأنذال أو الأوغاد»، إلى «الذباب» إلى «العبيد»، الواقعة في مئة صفحة، يسهل على القارىء أن يرى كيف أن البريطونيين (Britons) «الأنقياء، النظيفي اليد، المستقيمين» الذين شكّلوا العالم الذي عاش فيه أبي، نظروا إلى أعدائهم كبهائم. ومع أنه ورد ذكر «جرأة» رجال القبائل عدة مرات ـ و«شجاعتهم» مرة واحدة ـ فلم تكن هناك محاولة لتفسير وتعليل أفعالهم. فقد وصفوا بأنهم أشرار، حافلون بالبغضاء، ومتلهفون لإثبات إسلامهم بتقطيع أعدائهم البريطانيين. لكن فكرة أن الأفغان لا يريدون الغزاة الأجانب الذين يحتلون بلادهم، غير واردة في الرواية.

وحتى لو لم تكن الأوصاف البريطانية بهذا التحيّز ضد أفغانستان، فإنها بسّطت النظرة إلى الأفغان إلى حدٍّ بالغ، فاستعملها «جونستون» لهذا الغرض في روايته. لكنّ هناك تقريراً عن الحياة في كابول بين عامي ١٨٣٦ و١٨٣٨، كتبه المقدَّم السير «ألكسندر بورنز» من شركة الهند الشرقية ـ ونشره قبل مجزرة الجيش البريطاني عام ١٨٤٨ بسنة واحدة. وهو يعطي صورة حسَّاسة لكرم زعماء القبائل، ويبرهن على الاهتمام الحقيقي في عادات الأفغان وحياتهم الاجتماعية. ولكن عند نهاية القرن، اختارت «جريدة الهند الإمبريالية» أن تصف حيوانات أفغانستان قبل وصفها للناس الأفغانيين بأنهم «جميلون ورياضيون... متعودون على سفك الدماء منذ نعومة أظفارهم... غادرون ومندفعون للأخذ بالثأر... جاهلون لكل شيء يتعلق بديانتهم، ويتجاوز أكثر العقائد بساطة...».

بين البريطانيين الشباب الذين رافقوا الجيش البريطاني إلى كابول عام ١٨٧٩، كان هناك بريطوني حقيقي هذه المرة، يبلغ التاسعة والعشرين من

عمره؛ وهو موظف في القطاع العام يسمّى «هنري مورتيمور دوراند»، الذي عُيِّن أمين سر سياسياً للِّواء «روبرتس». وقد هاله بيان اللواء إلى شعب كابول الذي يصرِّح فيه بأن قتل دبلوماسيي البعثة البريطانية «جريمة غادرة وجبانة، جلبت عاراً لا يمحى على شعب أفغانستان». ويزيد على ذلك قوله: «إن اتباع يعقوب خان لن يفلتوا من عقابهم الذي سيبقى ماثلاً في الأذهان... وإن جميع الأشخاص الذين تثبت علاقتهم بالاغتيال سينالون ما يستحقون». وكانت تلك صيغة ڤكتورية قديمة من التحذير الذي سيوجهه رئيس جمهورية أميركي إلى الأفغان بعد ١٢٢ سنة.

كان «دوراند» إنسانياً ونبيهاً، فواجه «روبرتس» بشأن بيانه مفكراً: «يبدو لي أن البيان مخطىء في اللهجة والمحتوى، بحيث صمَّمت أن أبذل جهدي لأخلعه... تلك اللغة المتكلفة الطنَّانة، وذلك التصنُّع في الوعظ الأخلاقي التاريخي للأفغان، الذين بدأت مشاكلنا معهم بظلمنا المقيت لهم؛ كل ذلك جعل الورقة بنظري خطرة على سمعة اللواء». وعلى الأثر، حسَّن «روبرتس» النص، ولكن ليس إلى الدرجة التي ترضي «دوراند»؛ بل قلَّل الاعتراض عليه.

ولكن «دوراند» أرسل رسالة إلى أخته «إيلا سايكس» كاتبة سيرة حياته، يذكر فيها قسوة الأفغان، حسبما جاء في رواية «توم غراهام»، قال: «خلال العمليات التي دارت في وادي شاردة» بتاريخ ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧٩، أُمِرَت سَرِيّتا خيّالة من فرقة الرَّماحين التاسعة بأن تهاجم قوة كبرى من الأفغان بهدف إنقاذ أسلحتنا. ولكن الهجوم خاب، ووجد بعض قتلانا فيما بعد، وقد مثّل بهم بسكاكين الأفغان... لقد رأيت كل ذلك...». وقد كتب «دوراند» ذلك بعد ١٦ سنة من حصول ذلك الحادث. ولكنه كان واعياً أن الأفغان ليسوا «عفاريت بمظهر بشري»، كما يصورهم الخيال الشعبي. وفي عام ١٨٩٣، يصور «دوراند» قائد الجيش الأفغاني «غلام حيدر» بأنه محب للبحث والتحقيق وكريم:

> «تكلمنا اليوم عن حجم لندن، وكيفية إمدادها بالطعام... وعن التحيُّز الديني، والبغض بين السنة والشيعة، وعصر الإصلاح والتحقيق، وروايات المسلمين والمسيحيين حول حياة المسيح

ووفاته، والأرمادا الأسبانية، ونابوليون وحروبه، مما يعرف عنه غلام حيدر الكثير فضلاً عن عادات الصوماليين، وصيد النمر...».

وقد أُرسل «دوراند» ليتفاوض مع ملك الأفغان عبد الرحمن ـ ابن عم «شير علي» ـ حول حدود بلاده الجنوبية، وترسيم حدٍ متفق عليه بين الهند البريطانية وأفغانستان. وكان «إدوارد» أخو «دوراند» قد سبق له أن ساعد في تحديد حدّ البلاد الشمالي مع الروس ـ مع العلم أن الروس أثناء ذلك أرسلوا قوة من «القوزاق» لمهاجمة الجنود الأفغان على نهر «كوشك» ـ فوجد «دوراند» الملك غير ودود إلى حدٍّ كبير مع جيرانه الشماليين. وبحسب مذكرات «دوراند»، أعلن عبد الرحمن ما يلي:

«إذا لم تجرّني إلى العداوة، فأنا صديقك طول حياتي. ولماذا؟ لأن الروس يريدون أن يهاجموا الهند. وأنتم لا تريدون أن تهاجموا تركمنستان الروسية. ولذلك يريد الروس أن يعبروا بلادي، وأنتم لا تريدون ذلك. يقول الناس إني سأنضم إليهم وأهاجمكم، فإذا فعلت ذلك وانتصروا، هل يغادرون بلادي؟ ـ أبداً عليّ أن أكون عبدهم، وأنا أكرههم».

وبعد ٨٦ سنة من الحكم، عرف الروس معنى ذلك.

لقد رأيت أولئك الروس، واقفين بجانب دباباتهم (T-72). قرب مدارج مطار كابول، لابسين سترات مبطّنة بالصوف تحت وجوه بيض متوردة، مع قبعات من الفرو الأغبر، عليها النجمة الحمراء والمطرقة والمنجل، شعار الاتحاد السوفياتي. وكان لهاثهم المتكاثف يملأ الهواء أمام أفواههم. وعلى الشاحنات المتوقفة إلى جانب الطريق المؤدية إلى المدينة، كانوا يلبسون خوذ الفولاذ المألوفة في وثائق الحرب العالمية الثانية، البادية كبراميل مع متدلّيات على الأذنين، ويحملون رشاشات بأيدٍ محميّة بالقفّازات، ويفتشون الأفغان دائبين بعيون متضيّقة. وكانوا يدخنون بشراهة وسرعة، بحيث تتكون فوقهم سحب من دخان وضباب عند كل نقطة مراقبة. هؤلاء هم أحفاد رجال

«ستالينغراد» و«كورسك»، وأبطال «روستوف» و«لينينغراد» و«برلين». وكانت على أسفلت المطار سبعون دبابة على الأقل من تلك الدبابات القديمة، يكسوها الثلج بكثافة، كالسكّر المتجمد على كعكٍ من المعدن، كافية بحيث تستطيع أن تلجم أي «إرهابي» أفغاني.

غزا السوفيات أفغانستان ليلة عيد الميلاد عام ١٩٧٩. وعندما وصلتُ بعد أسبوعين كانت مدرّعاتهم متمترسة نزولاً من نهر «أمو داريا» الذي صار حداً لهذه الأرض المغمورة بالصقيع، ذلك النهر الذي اتفق «إدوارد» أخو «دوراند» مع الروس على جعله الحد الفاصل بين البلدين. وباستثناء بعض المدن المعزولة، سحق الجيش السوفياتي كل مقاومة. وتمّ التخييم العسكري الروسي على طول الطرق الواقعة جنوبي وشرقي كابول، بحماية عشرات الدبابات والمدفعية الثقيلة، وبذلك سيطروا على الشرايين الموصلة بين المقاطعات المتمردة في جنوبي شرقي أفغانستان. وقد سمَّى بريجنيف ذلك الغزو «تدخلاً» ومساعدة سلمية للحكومة الاشتراكية الشعبية التي ألَّفها الرئيس الأفغاني بابراك كارمال الذي تسلّم السلطة حديثاً.

وعندما التقيت موظف الاتصالات بالراديو السويدي القديم من معارف القاهرة، «هانز غونر إيرلاندسن» الذي كان عبارة عن حزمة من الشعر الأشقر فوق عينين زرقاوين نافذتين، ونظارة كبيرة، قال: لم أرَ في كل حياتي هذا العدد الغفير من الدبابات؛ ولا أريد أبداً أن يحصل ذلك أيضاً على مدى حياتي؛ إنه أمر يتجاوز الخيال».

لقد قدم آنذاك إلى أفغانستان خمس فرق عسكرية: الفرقة ١٠٥ المنقولة جواً والمتمركزة في كابول؛ والفرقة ٦٦ ذات الرشاشات الآلية في «هرات»؛ والفرقة ٣٥٧ ذات الرشاشات الآلية في «قندهار»؛ والفرقة ذات الرشاشات الآلية في المناطق الشمالية الثلاث «بادكشان»، و«تاخار»، و«سامنغان»؛ والفرقة ٣٠٦ الآلية في كابول، مع جنود المظلات السوڤيات. وبلغ عدد الجنود السوفيات إذ ذاك ٠٠٠ ٦٠ جندي وأكثرهم يشقّون خنادق على جانب الطرق الرئيسية. وكان ذلك غزواً على نطاق واسع، يبرهن على الإرادة العسكرية لقوة عظمى، إرادة

بريجنيف المتصلِّب ـ الذي كان «القومسيير» أي المفوَّض السياسي في الجبهة الأوكرانية، والذي توفي بعد ثلاث سنوات ـ والذي يشدّ الآن عزمه القديم القاصر لآخر مرة.

كان لمغامرة روسيا الإمبريالية الأخيرة هذه كل العتوّ المهول الذي اتصفت به حروب بريطانيا في أفغانستان. ففي الأسبوع الفائت وحده، قامت طائرات الشحن السوفياتية من طراز «أنطونوف ـ ٢٢»، بحوالى ٤٠٠٠ رحلة مستقلة إلى العاصمة. وكانت أسراب طائرات «ميغ ـ ٢٥» تتسابق على مدارج مطار كابول لتصعِّد في نور الشمس الأبيض باتجاه الجبال الشرقية؛ ويتبع ذلك انفجارات كبرى عن بعد في هذا المشهد، وكأنها طرقات أبواب الزنازين، تحت أقدمنا. وتمركز الجنود السوفيات في أعالي ممرّ كابول. وكنت آنذاك مراسلاً لجريدة «التايمز» اللندنية، التي عمل فيها في القرن التاسع عشر «وليام هوارد رسل»، مراسلاً حربياً في الحرب الإنكليزية ـ الروسية في القرم؛ والتي نال فيها شرفاً. لقد صرنا كلنا مثل «توم غراهام»، الآن.

أعتقد أن هذا الإحساس ألَمَّ بمعظمنا خلال ذلك الشتاء الجليدي اللامع. وكنت إذ ذاك منهكاً. عشت في بيروت، حيث امتصت الحرب الأهلية أول جيش إسرائيلي وثاني جيش. وقبل ذلك بثلاثة أسابيع، كنتُ قد غادرت إيران ما بعد الثورة، حيث خسرت أميركا «شرطيَّها الخاص في الخليج»، الشاه محمد بهلوي، لصالح أقوى القادة الإسلاميين، آية الله روح الله الخميني. وبعد تسعة أشهر، سأكون هارباً لإنقاذ حياتي تحت القصف مع جيش صدّام حسين العراقي الذي غزا الجمهورية الإسلامية. وكانت أميركا قد خسرت إيران، وعلى شفا خسارة أفغانستان ـ أو على الأقل تشهد المطالبة المحزنة لتلك البلاد باستقلالها الوطني تذوب في أحضان الكرملين. أو هكذا رأينا الوضع في ذلك الزمان. لقد أراد الروس بلوغ مرفأ مياه دافئة، كما خشي من ذلك اللواء «روبرتس» عام ١٨٧٨. فلو استطاع الروس بلوغ شاطىء الخليج ـ مع العلم أن قندهار تبعد عن عُمان ٦٥٠ كيلومتراً ـ واجتياح بلوشستان الإيرانية أو الباكستانية، لأصبحت القوات السوفياتية لا تبعد سوى ٣٠٠ كيلومتر عن شبه الجزيرة العربية. كانت

تلك على الأقل الكلمة المتعارف عليها، ومنبعاً لألف افتتاحية في الصحف: الروس قادمون. ولم يكن ظاهراً آنذاك أن الاتحاد السوفياتي كان في طور النزاع، وأن الحكومة السوفياتية أخذت على عاتقها هذه الحملة غير الاعتيادية، لخوفها من أن ينهار حليف شيوعي في أفغانستان، وأن يمتد ذلك الانهيار متسلسلاً إلى الجمهوريات الإسلامية السوفياتية. ولكني سأرى خلال أيام صدق ظن الكرملين.

وفي الواقع، قدم معظم الجنود السوفيات إلى أفغانستان من تلك الجمهوريات الإسلامية ذاتها في أواسط آسيا السوفياتية، التي اهتم بريجنيف بولائها. وفي كابول، كان الجنود السوفيات القادمون من تركمنستان يتحدثون بسهولة مع القواد الأفغان. أما صفات علوّ عظم الخد لدى بعض الجنود، فتدلّ على أنهم مستقدمون من منطقة منغوليا. وفي كابول والقرى المحيطة بها مباشرة، لم تظهر عداوة نحو الغزاة السوفيات في وضح النهار؛ ولذلك نُقلت وحدات روسية عديدة إلى الريف المكسوّ بالثلج، وسُحب جنود أفغان لحماية العاصمة. ولكن في الليل، أُرجع السوفيات إلى كابول، وتحدثت تقارير غير مثبتة عن سقوط عشرة قتلى في صفوف الروس، منهم اثنان ضربا حتى الموت بالهراوات. وفي جلال أباد، الواقعة على بعد ٦٥ كيلومتراً من حدود باكستان، كانت هناك انفجارات ليلية مدوِّية، تدل على استمرار المجابهة بين رجال القبائل الأفغان والجنود الروس.

وعلى مدى الشهرين التاليين كنّا، نحن الصحافيين القلائل الذين بقوا في أفغانستان، شهوداً على بداية مأساة مخيفة، ستدوم أكثر من ربع قرن؛ وتزهق أرواح مليون ونصف مليون نسمة على الأقل. إنها الحرب التي ستتوسع وتضرب في نهاية الشوط أميركا، وليس روسيا. كيف كان لنا أن نعرف ذلك؟ كيف كان لنا أن نخمّن أنه بينما كانت تتطور ثورة إسلامية في إيران، كانت هناك أيضاً قوة روحية كبرى تتنامى هنا في أحضان الثلج أوائل كانون الثاني/ يناير ١٩٨٠؟ وكذلك، كانت البيِّنات الثبوتية هناك، لِمَنْ اختار أن يسعى في أثرها، ومَنْ أدرك أن رواية التاريخ التي خلعها علينا أسيادنا ـ سواء أكانوا من

موسكو أو من واشنطن ـ جاءت أساساً قصيرة المدى، خاطئة، وفي آخر الأمر مخيِّبة للذات. ربما كنّا سُذَّجاً، قليلي الاستعداد لمجابهة مثل تلك الأحداث على مثل ذلك النطاق الواسع. مَنْ كان باستطاعته أن يعي في مثل ذلك الوقت القصير مغازي هذه القصة الإمبريالية في جوهرها، هذه المغامرة الأخيرة في «اللعبة الكبرى» (Great Game)؟ كنا شباباً بمعظمنا، نتدافع في أفغانستان خلال ذلك الشهر، كانون الثاني/يناير. كنتُ إذ ذاك في الخامسة والثلاثين من عمري، وكان أكثر زملائي أكثر حداثة مني، والصحافة ليست علماً غير محدَّد فحسب، بل هي مهمة مرهقة، تنطوي على المقدار ذاته من البيروقراطية ومن جمع الوقائع. أمضيتُ عيد الميلاد في إيرلندا، وعدتُ إلى حرب بيروت في الثالث من كانون الثاني/يناير، كي أستعدّ لمتابعة العمل الذي أنيط بي في تغطية تطورات الثورة المستمرة في إيران. ولكن الغزو السوفياتي لأفغانستان لا يقارن بأيّ حَدَث آخر.

وبالنسبة إلى الصحافي، لا شيء يغلب تلك اللحظة التي تغريه فيها قصة كبرى، إذ يكون التاريخ قيد الصنع، ويدعوه رئيس التحرير إلى أن ينتهز تلك الفرصة. أتذكّر يوماً قائظاً في بيروت، عندما خطف مسلحون طائرة ركّاب نفّاثة، تابعة لشركة «لوفتهانزا» إلى دُبَي. أخبرتُ مرجعي في لندن، أني أستطيع أن أنتقل إلى هناك خلال أربع ساعات؛ وتسلّمت الرد: إذهب حالاً. لكن ذلك كان مسرحية على نطاق أكبر بكثير، بل ملحمة لو كنّا هناك لنرويها. كان الجيش الروسي آنذاك ينهال على أفغانستان؛ وكان زملائي من بيوتهم ومكاتبهم في لندن، ونيويورك، ودلهي، وموسكو، يحاولون أن يجدوا سبيلاً يوصلهم إلى هناك. وكانت بيروت قريبة نسبياً، لكنها لا تزال تبعد ٣٠٠٠ كيلومتر غربي كابول. وكانت خبرة سوريالية أن تنتقل بالسيارة في بيروت الغربية تحت القصف، ذاهباً إلى مكتب طيران الشرق الأوسط، للحصول على تذكرة سفر على طائرة من طائراتها التي لا يتجاوز عددها ١٢ طائرة بوينغ ٧٠٧، وثلاث طائرات جمبو. وبحسب قواعد السفر القديمة، كانت أفغانستان تعطي سِمات سفر للرعايا البريطانيين عند الوصول. ولكن، علينا الآن أن نأخذ باعتبارنا أنها

أصبحت تدور في فلك الاتحاد السوفياتي، وربما طرأ تغيير على تلك الأنظمة ـ الباقية من أيام كانت فيها كابول ترعى طريق الحشيش السياحية إلى الهند.

كان «ريتشارد ويغ»، مراسلنا في الهند، موجوداً في العاصمة الباكستانية إسلام أباد، كما كان «مايكل بنيون» في موسكو. أما أنا فقد دبَّرت لي الخطوط الجوية اللبنانية خطة توصلني إلى أفغانستان. وكانت خطة بارعة أبلغتُها لندن بواسطة آلات التلكس القديمة في مكتب الصحافة المتحدة في بيروت، التي أخطأت في التهجئة بانتظام، بقولي: «اقترح عليّ أصدقاء في طيران الشرق الأوسط أن أجرِّب ما يلي: أن أشتري تذكرة وحيدة إلى كابول، وأسافر على متن الخطوط الجوية الأفغانية، أريانا، برحلة تنتهي في كابول. وهذا يعني أنه إذا رُفضتُ، يُحتمل أن أحظى بحوالى ١٢ ساعة في المدينة... لأن رحلتي تنتهي في أفغانستان، ولا يستطيعون إرجاعي إلى طائرتي... وفي أسوأ الحالات، أُرفض، وأشتري تذكرة سفر إلى باكستان ثم أتوجه إلى بشاور... راجياً الإجابة بأسرع ما يمكن، ليستطيع موظفو طيران الشرق الأوسط تدبير التذكرة صباح الجمعة، غداً». فأجابت لندن خلال ساعة: «انطلق بخطة تذكرة وحيدة إلى كابول». وكنتُ في مكتب طيران الشرق الأوسط عندما أرسلت جريدة «التايمز» تنبئني نقلاً عن زميلي «بنيون»: «أن سفارات أفغانستان حول العالم، تلقت تعليمات لإصدار سِمات سفر: مما يسهّل الأمر».

لقد كان ذلك مدهشاً. إن الروس يريدوننا هناك. فدعمهم الأخوي لحكومة كارمال الجديدة تلزمه دعاية ـ إزراءً بالنظام السابق الذي يفترض أنه كان شنيعاً ـ فقد جاء الروس لتحرير أفغانستان. كانت تلك القصة التي دبَّرها الكرملين، كما ظهر ذلك بجلاء. وبالإضافة إلى عملي في جريدة «التايمز»، بقيتُ لعدة سنوات أعدّ تقارير لهيئة الإذاعة الكندية (CBC). أحببتُ الراديو، وأكبرت في تلك الهيئة الحرية التي منحتها للصحافيين، والسماح لي بالذهاب إلى ساحة المعركة والمسجّل في يدي «لأنقل الواقع كما هو»، ولأصف سفك الدماء، ونتانة الحروب، واشمئزازي منها ومن الصراع البشري. خابرتني «سو هيكي» بالتلكس من الإذاعة الكندية بقولها: «حظاً سعيداً؛ افتحْ عينيك أيضاً بقفا

رأسك». وكنتُ قد وعدتها بوشاح حريري أفغاني ـ فالرشوة قائمة على قدم وساق في الصحافة الإذاعية ـ سألتها: «كيف نقول بالروسية: ساعدوني لأستسلم للسفارة البريطانية». فأجابت: «بروموغ» بالروسية تعني المساعدة؛ ولكن، يجب أن لا تكون هناك مشكلات بالنسبة إليك، وداعاً».

كان لشركة «أريانا» رحلة من فرانكفورت إلى كابول صباح الأحد باكراً؛ ثم ألغيت؛ ثم أعيدت برمجتها؛ ثم ألغيت أيضاً. فقد تطير من روما، أو من جنيف، لا بل من استانبول. وعندما وصلت إلى تركيا على طيران الشرق الأوسط، كان الثلج متراكماً حول المطار، وقد سجلوا كلمة «متأخرة» أمام رحلة كابول. لم تكن هناك محروقات برسم التدفئة في استانبول؛ ولذلك ربضت في سترتي على مقعد بلاستيكي مكسور، مع كل الكتب والقصاصات التي انتزعتها من ملفاتي في بيروت. وكانت أسناني تصطك، وكنتُ أضع قفّازي بعدما أقلب الصفحات. إننا، معشر الصحافيين، نقوم عادة بحشو رؤوسنا بالتاريخ قبل إقلاع الطائرة التالية، بما فيه من مواقيت ورؤساء جمهوريات؛ فعين تهتم بالحرب الأفغانية الثالثة، والأخرى ترتب حركة تسجيل الركاب للسفر. أخرجت خريطة أفغانستان التي بدت زرقاء وصفراء إلى جهة الغرب حيث الصحارى تسجن قندهار، وبنّية في الوسط حيث الجبال تتدافع نحو كابول، مع خدش كبير أرجواني وأبيض للجهة الشمالية الشرقية، حيث تفصل هندوكوش بين باكستان، والهند، والصين، والاتحاد السوفياتي.

وأخيراً تمّ ترسيم الحدود بين الهند البريطانية وأفغانستان عبر المناطق القبلية عام ١٨٩٣، من ممرّ خيبر إلى الجنوب الغربي من بلدة «شامان» الصحراوية (الآن في باكستان)، وهي نقطة كثيرة الجفاف والغبار تقع عند قاعدة صحراء كبرى من الرمال والجبال الغبراء، على بعد مئة كيلومتر من قندهار. رسمت تلك «الخطوط عبر الرمال» بواسطة «السير موتيمور دوراند»، واعترفت بها القوى الدولية الكبرى. ولكن ذلك الترسيم لم يعنِ شيئاً بالنسبة إلى الناس الساكنين على ضفتي تلك الحدود، الذين لم يؤخذ رأيهم في الأمر. أما «الباثانيون» القاطنون في الجنوب الغربي من أفغانستان فقد وجدوا أن الحدود

تمر عبر أراضيهم وتقطعها، لتحمي بريطانيا من روسيا، وروسيا من بريطانيا؛ لا لتيسّر معيشة القبائل الأفغانية وتحافظ على هوّيتها. فهؤلاء لا يعتبرون أنفسهم لا أفغاناً ولا هنوداً ـ ولا باكستانيين فيما بعد ـ إنما «بشتونيين» يتكلمون الباثانية، ويعيشون فيما يسمونه «بشتونستان»، التي تقع على جانبي الخط الذي عرف فيما بعد بخط «دوراند».

خلَّفت نهاية الحرب العالمية الأولى، التي بقيت فيها أفغانستان محايدة، حكماً بريطانياً متداعياً إلى الجنوب، وأمة سوفياتية قوية وطموحة إلى الشمال. وقد قام الملك «أمان الله» بتمرد صغير ضد البريطانيين عام ١٩١٩ عرف منذ ذلك الوقت باسم «الحرب الأفغانية الثالثة» ـ تلك الحرب التي انتصر فيها البريطانيون عسكرياً، بينما فاز فيها الأفغان سياسياً؛ فأصبحوا يسيطرون على شؤونهم الخارجية، ويتمتعون باستقلال حقيقي عن بريطانيا. ولكن ذلك لم يضمن لهم الاستقرار(*).

أما تاريخ أفغانستان التالي، فقد اصطبغ بالإصلاح والتقهقر. وفي مجموعة قصاصات الجرائد التي بحوزتي، تقرير من «الغارديان» حول صرف السوفيات لمبلغ ٣٥٠ مليون جنيه استرليني من أجل بناء نفق طريق «سالانغ» عبر الجبال

(*) تأثر الملك «أمان الله» بالثورات العلمانية التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، وشاه رضا في بلاد الفرس؛ فأسس سلسلة من الإصلاحات القيّمة ـ جمعية وطنية منتخبة، وحكم ملكي دستوري، وتعليم علماني ـ مما سرّ «الغرب» الحديث، وأخاف السلطات الإسلامية التي رأت في ذلك زوال نهاية نفوذها الإقطاعي، لا بل نفوذها الدائم منذ القرون الوسطى. فحصل تمرد «أمان الله»؛ ثم نفي إلى إيطاليا. ولكن قريبه «محمد نذير خان» لم يرتكب الأخطاء ذاتها، بل تماثل مع الإسلاميين التقليديين، وأنشأ جيشاً قوياً جديداً ـ وهي سابقة خطرة في بلاد غير متحدة ـ فاغتيل عام ١٩٣٣، وخلفه ابنه ظاهر. وتلت ذلك فترة «ديمقراطية» ـ جرت فيها انتخابات حرّة، وتمتعت فيها الصحافة بحرية نسبية ـ ولكن حصل انقلاب عام ١٩٧٣ جلب «محمد داوود» إلى الحكم. وتوجه «داوود» إلى الاتحاد السوفياتي طالباً المساعدة الاقتصادية، وأصدر عدة قوانين ليبرالية، مما حبَّذه الغرب ـ منها ما شجع على رفع الحجاب للمرأة اختيارياً ـ ولكن هذا الرفض الفعلي لخط «دوراند»، حمل دولة باكستان الجديدة على إغلاق حدودها مع أفغانستان، مع العلم أنها الدولة التي ورثت الحكم البريطاني الحدودي. وهكذا، صارت أفغانستان الآن أكثر تبعية للاتحاد السوفياتي.

شمالي كابول. فقد استغرق بناؤه عشر سنوات، وكلّف ٢٠٠ مليون جنيه استرليني لكل ميل. ويسأل الكاتب: «لماذا يصرفون ٣٥٠ مليون جنيه استرليني على طريق قليلة الاستخدام في جبال هندوكوش؟ ـ من المؤكد أنهم لم يبنوها من أجل الشاحنات المحمَّلة بالزبيب التي تعبرها بمشقة كل يوم. لقد بنيت طريق «سالانغ». . . لتمكّن القوافل الروسية القادمة من المدن وقواعد الجيش في أوزباكستان. . . من أن تعبر إلى ممرّ خيبر وإلى باكستان. . .»

إنها أمّة من الفلاحين المعتمدين على تقاليدهم القبلية والدينية؛ بينما يؤمّن لها المبادرة السياسية الماركسيون. إن الانقلاب العنيف الذي أطاح بمحمد داوود عام ١٩٧٨، أدّى إلى سلسلة من الأنظمة الماركسية الأكثر قسوة التي قادها نور محمد طرقي، وحافظ الله أمين، ومناوئهما حزب «بارشام»، وحزب «خلق» أي الشعب الذين أعدموا خصومهم. وحدث العصيان في مناطق من الريف وفي الجيش الذي زاد تمرّده، وبدأ يتفسخ. فمات طرقي بمرض «غير معلن» ـ ولا شك في أنه قتل على يد رجال أمين ـ ثم أطلقت النار في كانون الأول/ديسمبر على أمين ذاته، فمات. وسلَّمت وحدة من الجيش الأفغاني أسلحتها إلى المتمردين في «ورداك»؛ وبدا أن أمين نفسه هو الذي طلب التدخل العسكري السوفياتي لينقذ حكومته. وبدأت القوى السوفياتية الخاصة تصل إلى القواعد الجوية الأفغانية بتاريخ ١٧ كانون الأول/ديسمبر، بعد خمسة أيام من اتخاذ بريجنيف القرار بالغزو؛ وربما قُتل أمين خطأ، عندما رأى حرّاسه الجنود السوفيات حول قصره.

وبعد ربع قرن، قابلتُ في موسكو ضابطاً من رجال المخابرات السوفياتية سابقاً، ممَّن وصلوا إلى كابول مع القوات السوفياتية قبل الغزو الروسي، . قال: «حاول أطباؤنا الضباط إنقاذ أمين بعدما أصيب؛ ولن أقول لك أكثر من هذا». ومن المؤكد أن الضابط السوفياتي الذي قام بالانقلاب، اللواء «فكتور پاپوتين»، انتحر على الأثر. إنما أعلن في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر أن أمين أُعدم لزيادة القمع الذي قام به. وأُجلس مكانه بابراك كارمال المحامي الاشتراكي من حزب «بارشام»، الذي كان لاجئاً في موسكو. مع العلم أنه كان نائباً لرئيس مجلس

الوزراء ـ مع أمين ـ في حكومة طرقي، واليوم هو «حصان طروادة»، الذي يتسلح الروس به لإعلان التحرّر من طغيان أمين.

كانت الحرارة تحت الصفر في مطار «أتاتورك» في استانبول، وبدا الجليد على سطح النوافذ الداخلية. هرعتُ إلى مكتب استقبال المسافرين، فوجدته خالياً. إنما كان هناك منشور من منظمة السياحة الأفغانية يقول على القفا: «قل أفغانستان»، وفكر في البلد الودود بصداقته. قل «أريانا» فإذا بك تفكر في الطريقة الأكثر وداً التي توصلك إلى هناك». ولكن يبدو أن تلك المنظمة السياحية لم تسلم من عمليات التطهير. فقد شطب بالقلم العريض على الصفحة الأولى اسم رئيس الجمهورية محمد داوود. وأضيفت كلمة «ديمقراطية» ـ وهي كلمة لا بد من ذكرها لدى كل نظام غير ديمقراطي ـ إلى اسم البلد؛ وطمست كل إشارة إلى العائلة المالكة السابقة. وقد اختفى موظفو السياحة المحليون الذي خدموا أيام داوود وآل مصيرهم إلى مثل مصير الورقة ذاتها.

ولكن طائرة أريانا الجديدة (DC-10) وصلت إلى مطار استانبول قبل الفجر، وعليها الطاقم الأفغاني الذي درّبته شركة «ماكدونيل ـ دوغلاس الأميركية» على قيادة الطائرة. وكانت الرحلة إلى طهران باردة متقلقلة. في آخر توقف لنا قبل الوصول إلى كابول، تناول الطاقم فطور الصباح على مقاعد الدرجة الأولى قبل خدمة المسافرين، باعتبارها الطريقة الأكثر وداً في بلوغ أفغانستان. وفي مطار «مهراباد» في طهران، دخل الطائرة ثلاثة من حرّاس الثورة الإيرانية، واقتادوا شخصين في منتصف العمر خارج الطائرة، مطأطئي الرأس، خوفاً. ولم يشأ طاقم الطائرة الافصاح عن هويّتهما. وعند الفجر قامت بنا الطائرة إلى كابول.

لبست أفغانستان حلّة ثلجية، وبدت وهادها متكتّلة بالأبيض والأسود. ومن علو ١٠ ٠٠٠ قدم في طائرتي، كنتُ أستطيع أن أرى المروحيّات السوفياتية تدور في زوايا الممرات الجبلية جنوبي كابول، كحباحب تجرّ وراءها أثراً ضارباً إلى السمرة. لقد أصبح المطار قاعدة حربية، وصارت شوارع العاصمة موقفاً للمدرعات السوفياتية؛ ولم يكن أولئك مجرد جنود إلزاميين. فمركبات المشاة المقاتلة (ASU 85)، تختص بالفرق العسكرية العليا للاتحاد السوفياتي. وكان

معظم الجنود يحملون الطراز الجديد من رشاش كلاشينكوف (AKS 74). شمالي المدينة؛ وكانت الفرقة ١٠٥ المحمولة جواً قد حفرت فعلاً خنادق ـ طولها أميال ـ عبر النجد أي السهل الواسع المرتفع الواقع عند سفح الجبال. وعن بعد، كان أولئك الجنود يبدون وكأنهم واقفون على طول الخطوط الأمامية في الجبهة الغربية في الصور البنّية الداكنة القديمة التي التقطها والدي منذ ٦٢ سنة. وكأن قوادهم كانوا يأملون أن يكون ذلك وجه التشابه الوحيد بين الحملتين العسكريتين.

وعندما أوقف الروس سيارة الأجرة التي كنتُ فيها، حدَّقوا في جوازي، وقطَّبوا ما بين حواجبهم، ولسان حالهم يقول: «ماذا يفعل هذا الرجل الإنكليزي في كابول»؟ ولم تكن هناك حيرة مماثلة في فندق «أنتركونتيننتال» على التلّة فوق المدينة؛ بل كان موظفو الاستقبال الأفغان في أحسن حال، تعلو وجوههم البسمات، وينقلون أبصارهم خفية نحو رجال الشرطة الأفغان، المرتدين ثياباً عادية، والمستلقين على أرائك المدفأة، لإعلام الضيوف متى يجدر أن يخفضوا أصواتهم. وكان رجال «خدمات إعلام الدولة» يراقبوننا بشدة، ويعجزون لحسن الحظ عن التكلم بالإنكليزية. كما كان هناك أيضاً مشرب أنيق دافىء مملوء بزجاجات الفودكا البولونية والجعة التشيكية بجانب نافذة تسلّق إليها الثلج المتراكم. لكن غرف المنامة كانت دافئة، وشرفاتها بهجة للجاسوس. ومن غرفتي ذات الرقم ١٢٧، كنتُ أستطيع أن أمدّ نظري على كابول كلها، إلى قلعة «بالا حصار» ـ حيث دارت آخر معركة في رواية «توم غراهام الخيالية ـ وإلى المطار. وكان بإمكاني أن أحصي عدد الطائرات السوفياتية النفاثة التي تقلع تحت شمس بعد الظهر، والانفجارات التي تتردد أصداؤها نازلة إلينا من جبال هندوكوش، وعدد الطائرات العائدة لتنزلق على مدارج المطار.

لا أسافر أثناء الحروب إلّا مع مَنْ أثق به. والمراسلون الذين يجزعون تفوتهم الفرصة الثانية. وقد قام «كونور أوكليري» مراسل «التايمز الإيرلندية» بتدبير شأنه ليمرّ من ممرّ خيبر عبر جلال آباد. وكان في مكتب الاتصالات عن

بعد في المدينة، يراقب بعين نافذة، عندما لَحَم مشغِّل آلة التلكس الحرف (W) على جذعها المعدني داخل الآلة.

وقد وصل «غافين هيويت»، مراسل هيئة الإذاعة البريطانية، والبالغ من العمر ٢٩ سنة، يرافقه «ستيف موريس» و«مايك ڤايني»؛ وهم يشكلون أذكى طاقم اشتغلتُ معه، مع آلة تصوير معطوبة ـ كانت تلك أيام الأفلام الحقيقية بألوانها الزاهية، التي طغت عليها الآن تكنولوجية التسجيل بالفيديو ـ بالإضافة إلى «جيوف هايل». وكانت أيضاً أيام المجموعات المهنية الحقيقية عندما يرافق المراسلَ إلى الميدان مسؤول عن الصوت «موريس» في هذه الحال ـ ومحرر للفيلم، «هايل». وقد وجد «هيويت» بدهائه سيارة أخرى قديمة منهوكة صفراء من نوع «بيجو»، مموَّهة بالأزهار والزينات الاصطناعية على زجاجها الأمامي والخلفي، ظناً منا أنه من الأفضل لنا أن نتوارى خلفها عند مرور سيارتنا على حواجز التفتيش العسكري السوفياتي والأفغاني. ولكن سائقها، السيد صمد علي، كان مستعداً لمخالفة كل القوانين وإخراجنا من كابول لقاء مئة دولار أميركي.

وهكذا خرجنا بسيارتنا «البيجو» العجوز لمراقبة غزو أفغانستان صباح ٩ كانون الثاني/يناير عام ١٩٨٠، ذلك الصباح الأبيض المشرق. توجهنا شرقاً نحو ممرّ كابول، في عمق ذلك الصدع عند أقدام جبال «سبينجهار». كان الجيش السوفياتي يتقدم نزولاً نحو جلال أباد، وقد شققنا طريقنا عبر دباباته ومدرعاته، التي كانت تنفخ حرَّها، وتترك وراءها دخاناً أسود من عادماتها على الثلج. وعلى جانب الطريق، كان الرجال الأفغانيون مشدودي الوجوه بسبب البرد، يراقبون كل جزء من أجزاء المركبات التي تمر أمامهم. كانوا ينظرون دون انفعال، بينما كانت الريح تلاعب أوشحتهم وأثوابهم البرتقالية والخضراء؛ وكان الثلج يتناثر على الطريق وينساق نحو أقدامهم. كما كانت الحرارة ٢ تحت الصفر؛ ولكنهم آثروا مع ذلك أن يخرجوا ليروا قوافل الجيش السوفياتي تهمهم على الطريق الكبرى شرقي ممرّ خيبر.

وكان أفراد الطواقم الروسية يرتدون قبعات الفرو المتدلية على جبهاتهم، وينظرون من علٍ إلى الأفغان ويبتسمون من وقت إلى آخر، بينما كانت ناقلاتهم تخوض وترشّ ركام الثلج والوحل الذي يكسو الطريق. وبعد أن سرنا حوالى كيلومتر، بدا لنا عناصر الشرطة العسكرية السوفياتية راكبين في سيارات جيب مكسوّة بقماش الأشرعة، يلوّحون بأيديهم في قوافل تعجّ بالمزيد من الدبابات والدروع المحمولة على شاحنات، وتتسابق على طريق جلال أباد. لقد كانوا في عجلة من أمرهم. فقادة الجيش في كابول كانوا يريدون أن تتمركز هذه المساعدة العسكرية على حدود باكستان ـ على طول خط دوراند ـ بالسرعة الممكنة، لحفظ أمن البلاد، وإعلام موسكو بأن الجيش الروسي يسيطر الآن على الوضع. سرنا بسيارتنا حوالى ١٦ كيلومتراً، ونحن في ضيق من أمرنا بين تلك الدبابات والشاحنات وسيارات الجيب؛ والجنود الروس يراقبوننا من تحت الفراء والخوذ التي يرتدونها؛ بينما الهواء يذرو الثلج علينا. وعند كل كيلومتر من الطريق الواسعة المزدوجة الاتجاه، كان الجيش الأفغاني يقف متأهباً على جانب الطريق؛ وعلى بعد ٨ كيلومترات من كابول، مرَّت القوافل بنقطة تفتيش روسية، حيث كان جنديان سوفياتيان يقفان على كل جانب من الطريق، وهما يرتديان سترات منبسطة خضراء داكنة.

وكنا كلما تقدمنا نشعر بأننا في وضع أكثر أمناً؛ كما كنا ندرك أننا نتوجه نحو الخطر، إذ علمنا أن الروس تعرضوا لهجوم حول جلال أباد. ولكن حالما قطعنا حاجز الشرطة المشتبه بنا في ضواحي كابول ـ صرنا بحسب تصور صاحبنا «هيويت» الطفولي، نتجوّل سياحياً في المدينة ـ فقد حيَّانا مركز الشرطة التالي بلامبالاة عبر تلك القوافل الضخمة. وما دمنا قد حصلنا على إذن بمغادرة كابول، فقد حصلنا كذلك على إذن بأن نسير على هذه الطريق. وهكذا ظن الجنود السوفيات والأفغان الواقفون على جانبيّ الطريق، طبعاً. فمن كان سيبطل ذلك الإذن؟ ـ شكرنا الله تعالى؛ وكان همّنا الأكبر السرعة التي اضطررنا لأن نسير بها. كان الروس يتحركون بسرعة، حتى أن شاحناتهم التي كانت تحمل الدبابات، كانت تسير بسرعة ٨٠ كيلومتراً في الساعة عبر طقس

يشبه عاصفة ثلجية؛ بحيث ألزموا السيارات المدنية بالسير على خط واحد، وعند نقطة من تلك النقاط قاربوا أن يسحقوا سيارتنا الصغيرة بين شاحنة ودبابة.

وسرت طوال الصباح شائعات عن معركة جديدة في جلال أباد بين الروس ورجال القبائل الأفغان. وكانت قواتهم المدرعة تتجه نحو مدينة «هرات»، قرب الحدود الإيرانية، ثم رجوعاً نحو «سالانغ»، حيث جرى اشتباك مع إحدى القوافل. هذا التحرك السوفياتي وما يمثله ضد «العناصر المناوئة للثورة» في أفغانستان بدأ يستغرق إتمامه وقتاً أطول، مما كان يعتقد. ويبدو صحيحاً الاعتراض الأميركي بأن ٨٥٠٠٠ سوفياتي دخلوا حتى الآن من طشقند وموسكو، وقد يصل عددهم إلى مئة ألف جندي.

كنَّا نسجل التاريخ، ونحن قابعون في سيارة السيد صمد علي. كان «ستيف» و«جيوف» جالسين على المقعد الخلفي، و«مايك» «محشوراً» بينهما، بينما كان «غافين» يحضن الكاميرا بين ركبتيه، وكنتُ أراقب الجنود الروس على شاحناتهم. وحين نلاحظ أنهم لا ينظرون إلينا، كنتُ أصرخ بهم «هيَّا، عليكم بالصور»؛ فينبري معي «غافين» ـ وهو في النهاية رئيس هذه العملية ـ لنتطاول، ونزيح الأزهار والخضار البلاستيكية المموَّهة، بينما يدفع «مايك» الكاميرا من الخلف بين أعناقنا، ويبدأ بأخذ الصور عبر زجاج السيارة. كل صورة لها قيمتها. لقد كانت تلك أكبر عملية حربية سوفياتية منذ الحرب العالمية الثانية، ولن يُعرض فيلم «مايك» عبر العالم فحسب، بل سيبقى مخزوناً في المحفوظات إلى الأبد. هناك الثلج الأغبر، والدروع السوفياتية الخضراء، والصور الظلِّية السوداء للأفغان حول الطريق. تلك كانت الألوان والصور التي ترسم بداية هذا الغزو. وعندما تحين نظرة عجلى من جندي روسي، أو تحديق من شرطي عسكري، كنتُ مع «غافين» نصيح: «إلى تحت»، فيخفض «مايك» آلة التصوير إلى ما بين ساقيه، ونعيد ساتر التمويه الاصطناعي على زجاج السيارة. وكان «غافين» يذكّرنا دائماً بأن لا نكون جشعين في أخذ الصور. ووافقنا كلنا على

ذلك. فكلما حافظنا على رباطة جأشنا، ولم نبالغ في الوثوق بوضعنا، حتى لو خسرنا صورة جميلة لنصوِّر فيما بعد أخرى، فزنا بالقصة.

أوقفنا سيارتنا فوق قرية «ساروبي». إن مناظر أفغانستان تأخذ بمجامع القلوب حقاً. هنا، أذابت الشمس الثلج عن العشب الجبلي الأخضر اللطيف، وكان ممكناً أن يمتدّ نظرنا إلى مسافة تزيد على ٥٠ كيلومتراً شرقي ممرّ خيبر، إلى ضواحي جلال أباد السابحة في الضباب. أما النزول إلى «وادي الهندوس» فكان أشبه بالخروج من عاصفة ثلجية والدخول في حمّام الصونا. مُدَّ يدك من نافذة السيارة، فتشعر فعلاً بالهواء الذي تزداد حرارته. كان «غافين»، يثب على أصابع قدميه، وهو واقف إلى جانب الطريق، ينظر إلى روعة المشهد عبر قمم الجبال وسلاسلها، حتى إننا كنَّا نستطيع أن نرى الثلوج البيضاء ـ الأرجوانية على قمة جبال «البامير». لقد كنَّا قريبين جداً من الصين؛ وقد شعرنا بأننا كشباب، نقف على قمة العالم.

ولم تكن مأساة هذه الملحمة قد استحوذت علينا بعد. فكيف كان لي أن أتصور أنني سأقف من جديد على هذه البقعة ذاتها من الطريق حيث صلّى رجال بن لادن المسلحون تحت مسيرة المذنّب الناري. وكيف كان لي أن أعرف، وأنا أقف مع «كافين» على جانب تلك التلة، أن بن لادن نفسه، البالغ من العمر ٢٢ سنة، لم يكن يبعد عنَّا في تلك اللحظة سوى أميال قليلة، في سلسلة الجبال ذاتها، وهو يحثّ مقاتليه العرب الشباب، للانضمام إلى إخوانهم المسلمين في حربهم ضد الروس؟

كنَّا في منتصف الطريق الضيقة الشديدة الانحدار عبر ممر كابول، عندما تصدَّت لنا سيارة سلّطت علينا أضواءها الأمامية وانزلقت لتقف، ويخبرنا سائقها بعمامته وذقنه غير المحلوقة، أن هناك «مشكلة» تحت في الممر، رافعاً يديه ليدلّ على أنه لا يعرف، وأنه يخاف. ثم انطلق خلفنا بسرعة. ومن المعروف في جبال أفغانستان، أن مثل هذا الإنذار يؤخذ على محمل الجدّ. وكلنا عرفنا ما حدث لجيش اللواء «ألفينستون» في هذا الممر عام ١٨٤٢. ولذلك كنَّا ننظر إلى الصخور فوقنا حيث ينتهي خط الثلج ويبدأ الجُرْف الشديد الانحدار الذي

يمكن أن يحمي الكمين، ونحن نازلون بسيارتنا نسير بحذر شديد. سرنا هكذا مسافة ١٥ كيلومتراً دون أن نلتقي سيارة أخرى حتى وصلنا إلى قرية «ساروبي»، حيث وجدنا مجموعة من الحافلات (الباصات) القديمة البالية وسيارة أجرة في موقف قرب حانوت حلاقة. كما كان هناك أيضاً جندي أفغاني واقفاً في عرض الطريق ليحذرنا بتعابير غير واضحة كذلك من كمين أمامنا؛ فالطريق مقطوعة، كما قال. ولذلك ظللنا على جانب الطريق وفوقنا تسمو الجبال، وتحتنا في منحدر الوادي نهر كابول يحمل الثلج الذائب والسيل الجارف، ونحن نشرب الشاي الساخن الحلو حتى لاحت لنا عند المنعطف دبابتان روسيتان متبوعتان بشاحنتين محمَّلتين بالجنود الأفغان.

انسلّت الدبابتان جنوباً، تاركتين آثار جنازيرهما على إسفلت الطريق؛ بينما يتطلع موظفو الإشارات اللاسلكية إلى الأمام. أما الجنود، فكان كل منهم يحمل رشاش كلاشينكوف، ويلقي هتافين دون أن يتلقى استجابة، خلال عبور «ساروبي». تبعناهم نزولاً في الممر، وخرجنا من حدّ الثلج حيث تتدنى الحرارة تحت الصفر ويسود الجليد إلى السهول الحارة حيث الغبار وبساتين البرتقال على جانبي الطريق. وفجأة، اندفعت عرض الطريق شاحنة محملة بالجنود، وسمعنا طلقات نارية من أعالي الجرف الجبلي. ورأينا الجنود يتسلّقون الصخور ويختفون وراءها، ويذكّروننا بصور من أيام الحروب الإمبريالية التي جرت في ممر خيبر. لكننا تابعنا سيرنا وراء الدبابات الروسية، ووصلنا إلى نقطة تفتيش عند المنعطف، ورأينا موقع الكمين.

قُطعت الأشجار على جانبي الطريق لمسافة ٤٠ كيلومتراً. وكان هناك جنود الآن. وقد جاءت من جلال آباد ناقلتان مدرعتان روسيتان للجنود الذين نظفوا الطريق. وعلمنا أن رجال القبائل أطلقوا النار من الأشجار، عندما توقفت أولى السيارات المدنية عند الحاجز الذي كان يسدّ الطريق قبل الفجر؛ وقتلوا شخصين وجرحوا تسعة آخرين، أحدهما أصيب في ظهره وصدره. وكان ركام الزجاج لا يزال منثوراً على الطريق؛ ولكن لا يعلم أحد هل كان أولئك الرجال من قطّاع الطرق أم أنهم ظنوا أنها سيارات عسكرية روسية في الظلام. ولكن

كان هناك رجل عجوز إلى جانب الطريق يعتقد أن ناصبي الكمين كانوا من «المجاهدين». فنظر «غافين» إليّ نظرة تساؤل؛ فقد كانت تلك المرة الأولى التي سمعنا فيها ذلك التعبير.

وكان ذلك تذكيراً بأن السلطات الأفغانية المدعومة سوفياتياً لم تستطع حتى أن تؤمّن الطريق الرئيسية إلى باكستان، مع أنه كان لا يزال مسموحاً للجيش الأفغاني بأن يمثل دوراً هاماً في العمليات؛ كما لاحظنا. وقد كان جميع الجنود الذين دققوا في أوراقنا عبر الممر، والمتحصنين في القلعة بجوار الممر، من الأفغان. كما أن بعض الدبابات المتمركزة في الجبال خارج جلال أباد كانت أيضاً أفغانية؛ وكان الجيش الأفغاني وحده هو الذي يقوم بالدوريات في المدينة نهاراً. ولم يكن يُرى أيّ جندي روسي على طول الطريق المحفوفة بالأشجار، والأسواق الظليلة في هذه البلدة الجميلة، حيث كانت عربات النقل التي تجرها الأحصنة تقعقع على الطرقات الترابية، وتذكرنا بأيام الاستعمار؛ وحيث كان أولاد الفلاحين حُفاة، يحثّون الحمير المحمّلة بالحبوب والمتوجهة نحو السوق. ولكن المشهد كان خادعاً، وكانت جلال أباد مؤشراً هاماً على ما كان يحدث في البلدات الأخرى النائية في أفغانستان.

فبالرغم من الهدوء السارّ الذي يخيّم على المكان، كان رجال قبيلة «باثان» بالآلاف، يطلقون النار ليلاً على الجنود الأفغان في الريف خارج جلال أباد. وفي الأيام الستة الماضية، كانت الانفجارات تدوّي في المدينة ليلاً، وقد فجّرت قنبلتان كبيرتان مرتين الشبكة الكهربائية والمحوّلات التي تنقل الكهرباء إلى جلال أباد، بحيث بقي سكانها دون كهرباء لمدة خمسة أيام. وزيد وقت منع التجول من الساعة الثامنة مساء إلى الرابعة صباحاً، عندما كان الجيش السوفياتي يجول ليلاً بمدرعاته الثقيلة في المدينة. وصار الآن هناك ١٤٠٠ جندي روسي مع دبابات (T-54) ومركبات جرّارة متمركزة في ثكنات الجيش الأفغاني القديمة على بعد خمسة كيلومترات شرقي جلال أباد على طريق باكستان. فإذا لم يكن باستطاعة الأفغاني أن يحفظ السلام، فالروس مستعدون للقيام بذلك في الأرياف.

عدنا بسيارتنا إلى كابول قبل حلول الظلام؛ وحاولنا زيارة المستشفى العسكري الذي بناه الروس. وكنَّا نستطيع أن نرى من خلال السياج الحديدي جنوداً يحملون أذرعهم بعصابات معلقة برقابهم، وآخرون يمشون مستعينين بعكّازات. ورأينا أعظم من ذلك في زاوية من مطار كابول، حيث جثمت طائرة «إيروفلوت»، وبجانبها سيارة إسعاف روسية، وهي تتهيأ للشحن. وقد أطلق الروس على الطائرة التي تنقل موتاهم من أفغانستان لقب «الخُزامى السوداء». وتكبّد الروس خلال ثماني سنوات ١٤ ٢٦٣ قتيلاً ومفقوداً من المقاتلين، و٤٩ ٩٨٥ جريحاً نقلوهم إلى وطنهم.

وفي الأعوام التي تلت، كنتُ أتذكر مع «غافين» الرحلات التي قمنا بها إلى خارج كابول عام ١٩٨٠، كمغامرات كبرى. كنَّا أشبه بفرقة من الصيادين، نخرج وراء التقاط الصور في أيام مثيرة. وقد اتخذنا هُري الحبوب الكبير الذي بناه الروس خارج كابول كرمز لهدايا الاتحاد السوفياتي إلى العالم. فقد كان يمثل بنظرنا جزءاً من مليون من الهدايا التي قدمها الاتحاد السوفياتي إلى العالم. وبحسب قول «غافين» بعد عشرين سنة: «إن الهري صورة نموذجية: وكلما كان متقوِّضاً كانت صورنا أصدق فنياً. لقد كانت هناك براءة في ذلك العالم».

وأثناء سفري مع جماعة التصوير، كنتُ أشعر بملكيتي للفيلم الذي يصورونه كتقرير عما يحدث؛ وكنتُ متلهفاً مثل «غافين» لأن يحظوا يومياً بنبأ مثير أو سبق صحفي لهيئة الإذاعة البريطانية. كما أن «غافين» كان من جهته حريصاً على أن تخرج تقاريري إلى جريدة «التايمز» بسلام يومياً من كابول. وكان حماسنا لأن يساعد أحدنا الآخر يمثل أكثر من رفقة صحفية. فقد كان «غافين» المراسل التلفزيوني الوحيد الذي وصل إلى أفغانستان، وكان ما يرسله من أفلام مثيرة يشكل إدراك العالم للغزو السوفياتي. وكان «وليام ريس موغ» ـ رئيس تحرير «التايمز»، و«إيفان بارنز» محرر الشؤون الخارجية يشاهدان كل تقارير «غافين»، مع العلم أنها كانت تستغرق ٤٨ ساعة لتظهر على الشاشة. لم يكن في كابول جهاز تلقيم للأقمار الصناعية؛ ولم يكن يسمح لنا باستقدام صحون

لها. ولذلك كان «جيوف هايل» يحمل بيديه علب الفيلم من لندن، مسافراً من كابول وعائداً إليها كل يومين مما يجعل سفره بطول ١٣ ٥٠٠ كيلومتر ثلاث مرات أسبوعياً على الأقل. وكان «غافين» يشعر بأن محرري «التايمز» يقرأون تقاريري يومياً، وينتظرون أن يحصلوا منه على الصور المرافقة لها، لأنهم يعرفون أننا نسافر معاً. لقد كنَّا طفيليين يتوكأ بعضنا على بعض.

كانت نسخة التقرير الذي أكتبه بانتظام لجريدة «التايمز» أقل كلفة، لكنها متساوية مع غيرها من حيث بذل الجهد المضني. فقد كان موظفو فندق أنتركونتيننتال قد أبلغوا بواسطة شرطة أمن الدولة الأفغانية بأن لا يسمحوا للصحافيين بإرسال تقاريرهم من جهاز التلكس الموجود في الفندق. وهكذا اضطررت إلى أن أبعث برسائل إلى «إيفان بارنز» محرر الشؤون الخارجية التي أنتمي إليها، وإلى «لويس هيرين»، موضحاً كيف سأرسل تقاريري الصحفية إلى لندن. وكانت مكاتبنا في نيويورك وواشنطن تحاول الاتصال بي بالتلفون؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى زميلي «بنيون» الموجود في موسكو. ولكني لم أتلقَّ خلال جميع الأسابيع التي قضيتها في كابول أية مخابرة هاتفية، من أيٍّ كان. وكنتُ أعوِّض عن ذلك بأن أستفيق عند الساعة الرابعة صباحاً كل يوم، وأضرب على الآلة الطابعة خمس نسخ من قصتي اليومية التي كنت أكتبها لجريدة «التايمز»؛ أرسل منها نسخة لوكالة «رويتر» للأنباء التي كانت ترسل أحد مراسليها الهنود إلى نيودلهي كل يوم تقريباً، وأخرى إلى مراسل «رويتر» الباكستاني الذي كان يطير بانتظام إلى «بشاور» و«إسلام أباد». ومن هناك، كانوا يرسلونها إلى لندن، لأن جريدتنا مشتركة بخدمات الوكالة. أما النسخة الثالثة فكانت تعطى لأي شخص يسافر إلى «الاتحاد السوفياتي»، أملاً في أن يتصل «ببنيون» في موسكو. لكن النسخة الرابعة كانت تذهب إلى «جيوف» الذي كان يسافر إلى لندن بانتظام. كما ذكرنا أعلاه.

إنما كانت النسخة الخامسة تقتضي عملية ملتوية ـ تعجبت ولا أزال اليوم أتعجب كيف نجحت ـ إذ كنتُ أرسلها بواسطة سائق باكستاني يتخبَّط يومياً بسيارة باص خشبي من كابول إلى جلال أباد، إلى «بشاور» في باكستان، حيث

كان موظفو الفندق مستعدين لإرسال التقرير إلى لندن بالتلكس. وقد قمت بهذا الترتيب بعد وصولي إلى كابول بثلاثة أيام. فقد لاحظت مرور باص «بشاور» على طريق جنوبي العاصمة، وعلمت أنه يغادر كابول كل صباح عند الساعة السادسة والنصف. لقد أعجبت بعليٍّ السائق المرح المنتمي إلى قبيلة «الباثان»، بوشاحه الأخضر، وطاقيته المدورة، وابتسامته التي تفترُّ عن أسنان بيضاء، ولغته الإنكليزية التي كانت كافية «ليفهم دعابتي وتهكمي. فقد كان مستعداً ليحمل تقريري إلى باب فندق «أنتركونتيننتال» في «بشاور»، ما دام فيه نقد للروس، على أن أدفع النفقات له وللموظفين، وعلى أن أسدِّد رسوم التلكس فيما بعد. وكان يقول: «ثقْ بي».

وأثناء كل حياتي التي قضيتها في الشرق الأوسط، كنتُ أثق بالناس، كلما طلبوا مني ذلك. وكان علي يقبض خمسين دولاراً أميركياً يومياً، ليوصل رسالتي المطبوعة على الآلة إلى «بشاور»؛ وكان موظفو الإرسال يتقاضون أربعين دولاراً لإيصال التقرير بالتلكس إلى لندن. وكان هذا الخط مؤمناً باستمرار حتى في أيام التراكمات الثلجية بواسطة الباص القديم الذي كان يسوقه علي، ويجتاز به نقط التفتيش الروسية. وكنتُ أنا أيضاً أركب معه حتى جلال أباد. وقد تلقى الجيش الأفغاني تعليمات تقضي بإيقاف الصحافيين الذين يتجولون بالسيارات؛ ولكن لم يخطر على بالهم أن يدققوا بشأن سيارة الباص. وهكذا كنتُ أجلس على الدرج وأتسكع مع علي، ونحن نهتزّ نازلين ممر كابول، وشاعرين بدفء الريف، ونحن نهبط إلى وادي «الإندوس». وكنتُ أقيم عادة في فندق «سبينجهار» في جلال أباد، وأقضي الصباح أتجول في القرى الريفية وأنا أسوق دراجة نارية مغطَّاة بالقماش، لأتنسّم أخبار قتال البارحة بين الروس والمجاهدين، ثم أركب في باص علي الراجع إلى كابول، بعد الظهر. لم يفقد علي أيّ تقرير من تلك التقارير؛ وقد وصلتني من «التايمز» برقية تثبت ذلك. وكان الصحافيون الذين يهرّبون تقاريرهم يسمّون ناقلها بالحمامة. وكان علي أحسن حمامة صادفتها جريدة «التايمز»، وكان «باصه» أحسن وسيلة نقل وانتقال. وكنتُ مرة جالساً إلى مشرب فندق الكونتيننتال في كابول، فأخبرني

مراسل جريدة «الدايلي مايل» بأنه تلقى برقية من رؤساء تحرير جريدته في لندن تقول له بغضب ما معناه: «وكيف يدبِّر» فيسك إرسال تقاريره؟». وعلى الأثر، أعطيت علي مئة دولار أميركي عند موعد الدفع التالي.

وبالتدرّج البطيء، وسَّعتُ مع «غافين» دائرة عملياتنا. فهناك على بعد مئتي كيلومتر من غربي كابول موقع هام لمدينة «غازني» التي عمَّرت أكثر من مئة سنة، والمتحلقة حول قلعة تركية ذات شرفات لإطلاق النار، تلك التي دمَّرها البريطانيون في الحرب الأفغانية الأولى، مع المستوطنة الواقعة على طريق قندهار التي دمَّرها الغزاة العرب عام ٨٦٩، ثم جنكيز خان عام ١٢٢١. وقد علمنا أن الجيش السوفياتي لم يصل بعد إلى غَزَنة. ولذلك سرنا على الطريق الجنوبية وراء الطوق المسلّح الذي كان يلفّ كابول، وحيَّانا وجه أوروبي تحت قبعة قوزاقية دون أن يبتسم، عندما قطعنا آخر نقطة تفتيش روسية. وكنتُ مع «غافين» نستخدم التمويه بالأزهار المذكور آنفاً، ونزيحه إذا عبرت أمامنا دبابة سوفياتية، ليستطيع «مايك» أن يصوِّر عدة أقدام من الفيلم. وعند قرية «سيد أباد» الصغيرة، الواقعة على بعد ٧٠ كيلومتراً نزولاً، كانت هناك مكامن لمزيد من الدبابات قد حُفرت على جانب الطريق، ومدافعها موجهة نحو الغرب، فوق أكواخ السكان المتواضعة المصنوعة من القصب والطين. وكان هناك أيضاً جسر يحرسه أربعة جنود شاكُو الحراب، يلي ذلك طريق فارغة غير محميَّة من الجليد والثلج المتناثر تمتد نحو مقاطعات پاكتيا وغازني.

وعندما وصلنا أنا وجماعة «غافين» إلى تلك المدينة القديمة، بسيارة السيد صمد علي البيجو، بدت لنا كمشهد من القرون الوسطى، بأسوارها ومتاريسها العالية منتصبة إزاء قمم جبال «صفيد كور» المكسوة بالثلوج الكثيفة، وتحت السماء الزرقاء الشاحبة التي غيَّرت كل المعالم المنظورة. وفي الواقع، لم يكن من روس هناك بل سلسلة من شاحنات الجيش الأفغاني التي تنزل كل نصف ساعة تقريباً من الشمال إلى ثكنات غازني، وقد رفعت الشعارات الحمراء الأفغانية دفعاً لهجوم رجال القبائل المتمردين عليها. وكان سائقوها يرتدون ثياباً خَلِقة، وينظرون مليّاً من سياراتهم. والجيش موالٍ مبدئياً لرئيس البلاد وحلفائه

السوفيات، ومسيطر نظرياً على الأرياف. وقد شعرنا منذ دخولنا غازني أن هناك وقفاً لإطلاق النار غير رسمي قائم بين الجنود المحليين ورجال قبائل «الباثان». أما الجنود الأفغان فكانوا يلبسون معاطف وسترات من جلد الغنم ـ وغازني مشهورة بصنع سترات «البوستن» (Pustin) المطرزة ـ وكانوا يتجولون في الشوارع الضيِّقة الموحلة، مفتشين عن مؤن يعودون بها إلى ثكناتهم المتداعية ذات الأبراج.

ومنذ ألف سنة، كان محمود الغزنوي يبسط حكمه على معظم أفغانستان، وشمالي غربي الهند المنكوب، حيث أسس إمبراطورية إسلامية ثبّتت النفوذ الإسلامي السنِّي عبر آلاف الأميال المربعة. وصارت غازني إحدى كبريات المدن الفارسية ونبغ فيها أربعمئة شاعر مقيم، بمن فيهم الفردوسي. ولكن المدينة اليوم تبدو متباينة مع ماضيها المجيد. فقد تهاوت بعض شرفات قلاعها الحصينة، وشق الجليد جدرانها العالية بفعل تدني الحرارة تحت الصفر. ولما كانت منعزلة عن العالم الخارجي، فقد كان سكانها مرتابين بالأجانب. وما يفسِّرُ هذا الهاجس الخطير، الذي بلغ الذروة، ورود الأخبار عن وصول الغزو الروسي إلى مدينتهم.

ولم نكد نوقف سيارتنا، حتى تقدم منّا رجل طويل بشاربين أغبرين، قائلاً: «هل أنتم روس؟» وتجمع حول سيارتنا جماعة من «الباثان» بعمامات زرق وبيض. فأخبرناهم أننا إنكليز، فافترَّت ثغور بعضهم عن ابتسامات ودودة على الأثر. وكنتُ مع «غافين» قد طورنا ابتسامات خاصة لمثل هذه المناسبات، ابتسامات عريضة دافئة من الفرح، ونحن نخفي شاغلنا الأسود الحقيقي؛ نرحب بهم ونبدي إعجابنا ببلادهم ورؤيتهم، وكرههم للروس. ولكننا كنّا نعلم كلنا أن الوضع هشّ، وقد ينقلب وبالاً علينا. ولم تكد تمضي عدة شهور على مصرع مجموعة من عمال البناء المدنيين الروس وزوجاتهم بالسكاكين، أولئك الذين جاءوا ليزوروا مسجد بلدة هرات الملون سطحه بالأزرق. وهو معبد قديم من أيام زردشت. وقد سُلخ جلد بعض الروس وهم أحياء. وكانت جريدة «التايمز» قد نشرت البارحة، دون أن أعلم بذلك، صورة لرجلين معصوبي الأعين واقعين

في أيدي المتمردين الأفغان، وكانا معلّمين يدرّسان في مدرسة ثانوية موقوفين في مدينة «فرح» على بعد ٣٠٠ كيلومتر غربي قندهار، وكان الرجل الواقف إلى اليمين قد أعدم بحجة أنه شيوعي.

احتاج سائقنا إلى زيت لسيارته البيجو، فخرج إليه رجل مسنّ من دكان تعمّه الفوضى والقذارة وفرشت أرضه بالإسمنت، حاملاً علبة من زيت المحرِّكات. وكانت العربات والأحصنة والحمير تنزلق قربنا مترنِّحة تحت أكياس الحبوب التي تحملها وهمهم أحدهم: «خار» أي «حمار»، فتلاشت الابتسامات من الوجوه. وتبيّن أنه تعبير يدلّ على الاشمئزاز والحقد عندما يقال للأجانب. فأخبرنا السيد صمد علي يائساً: «إنهم يقولون عنكم أنكم حمير. وهم لا يستطيعون أن يتبيّنوا الإنكليز من الروس وهم لا يريدون الأجانب هنا. فعليكم أن تذهبوا». وفي هذه الأثناء تجمّع حولنا عدد أكبر من «الباثان»، واصطفوا على مرتفع من الأرض بجانب الشارع. لم يكن في أيديهم سلاح، ماخلا سكينين طويلين معلَّقين بالحزام. وتقدم منَّا رجل متوسط العمر وقال بإلحاح: «غادروا حالاً؛ ولا تتوقفوا أبداً ولو اضطررتم إلى دهسهم. أنتم أجانب، وسيعتقدون أنكم روس، ويقتلونكم؛ ثم يكتشفون فيما بعد من أنتم». غادرنا غازني بسرعة. فهل كنا فعلاً في خطر؟ وبعد مضي ٢١ عاماً، سأواجه مجموعة من الأفغان الغاضبين مثلهم، وسأكتشف معنى إثارة حنقهم وضراوتهم، تقريباً على حساب حياتي.

إن تخويف الغرباء أمر، ومحاربة جيش مجهَّز أمر آخر. وقد لاحظنا فوق الطريق في أعالي التلال وفي ثنايا الثلج سلسلة من المتاريس المعدنية مع رؤوس مواسير المدافع بارزة منها. لقد سيطر الروس فعلاً على الطريق، ولو لم يكونوا إلى جانبها. وقد أُنزلت الدبابات السوفياتية بالمظلات في الجبال شمالي كابول؛ وكذلك القول عن المدفعية خارج غازني، فقد أُلقيت من الهواء. أزحنا زهور التمويه ونظفنا زجاج السيارة من أجل زميلنا «مايك» كي يستطيع أخذ الصور الواضحة بكاميرته. لقد صرنا خبراء في هذا الشأن. ورأى «غافين» أنه لا بد للروس من أن يكتشفوا هذه الحيلة، ويفترضوا أن جميع الأفلام الحديثة تُنتج بهذه الصورة، وأن جيلاً جديداً من الأفلام السوفياتية ستعتمد هذه الطريقة.

لقد كان هناك المزيد من تصوير الأفلام في أفغانستان. وحتى قبل قدومنا، حاولت حكومة «كارمال» أن تستعيد بعض الدعم الشعبي بإفراجها عن المسجونين السياسيين المنتمين إلى «أمين». ولكن عندما فُتح سجن كابول جاء الآلاف من الرجال والنساء لاستقبال أحبائهم، وشرعوا يرمون الجنود الروس بالحجارة حول الأسوار. ولا شك في أن النظام السابق كان مكروهاً من الجمهور، وقد أبلغنا موظفو «كابول» ذلك دون إبطاء. وهذا هو سبب منحنا تأشيرات السفر للقدوم إلى أفغانستان. وفي «بشاور»، زعم المتمردون أن الجيش الأفغاني سيحارب الروس الغزاة، لكن الفرقتين الأفغانيتين السابعة والثامنة المجهزتين بالدبابات السوفياتية، لم تطلقا النار أبداً على المدرعات الروسية. وقد دبَّر ذلك مستشاروهم الروس.

ولكن لم تمضِ أربعة أيام، حتى أخفقت دعاية الحكومة. فقد تجمع آلاف الأفغان ـ من أقارب المسجونين، وكثير منهم بالعباءات والعمامات ـ أمام سجن «بوليشاركي»، وهو قلعة سامقة، محفوفة بالشريط الشائك، مقسمة إلى كتل، وفيها زنزانات تعذيب، ليحضروا إطلاق سراح ١١٨ سجيناً سياسياً. ولكن ثار غضبهم للإفراج عن هذا العدد الضئيل، وخرقوا خط دفاع للجيش الأفغاني، وكسروا البوابة الحديدية وفتحوها، ركضنا معهم إلى داخل السجن، بعدما طرحوا قربي جندياً روسياً، وهو يحدِّق مشلولاً بمشهد الرجال والنساء المرتديات البرقع الكامل، يصيحون: «الله أكبر» في الساحة الخارجية، ويتسلقون بوابات الحديد للقسم الرئيسي من السجن. تعجبت و«غافين» من هذا الوضع. فقد كان ذلك احتجاجاً دينياً مثلما كان اعتراضاً سياسياً. وعلى ظهر الثكنات، كان ضابط روسي يحمل كلاشينكوفاً، ويصوبه إلى الجمهور، ويصيح أنه لم يبق في السجن سوى ثمانية أشخاص. وكان معنا «كونور أوكليري» من جريدة «التايمز» الإيرلندية بمعطفه الروسي الكبير. وهو مقيم في موسكو ويتكلم الروسية. فقال، وهو يتصنّع الابتسام كالعادة، : «سنرى إن كان كلامه صحيحاً».

توقف الجمهور عندما حوَّل الضابط ماسورة رشاشه إليهم؛ ثم لم يلتفتوا

إليه، واندفعوا عبر البوابة الحديدية الثانية التي كسروها أيضاً. ولكثرة عددهم، خفض الجندي سلاحه. وطفق مئات من أقارب السجناء يحطّمون نوافذ قسم الزنازين بالصخور، وأبواب البناية الأولى بأنابيب الفولاذ. وفجأة، جاؤوا بثلاثة من السجناء المحرَّرين إلى شمس الشتاء؛ وهم رجال متوسطو العمر يرتدون أسمالاً بالية، نحفاء منبهرون وسريعو العطب يرفُّون برموشهم أمام الثلج والجدران المكسوة بالجليد. وجاءني شاب في السجن، بينما كان الجمهور يثقب سطح الإسمنت لزنزانة ثانية، قائلاً بالإنكليزية «نريد أن يذهب الروس؛ وأن نجد أفغانستان محرَّرة، وأن يُطلق سراح أقاربنا، إن أخي وأبي موجودان هنا في مكان ما». أقحمت نفسي مع سواد الناس في قسم الزنازين؛ وكان هناك فعلاً أكثر من ثمانية سجناء. وقد افترشوا الحرامات على الأرض الحجرية، كوقاء وحيد لهم ضد البرد. وكانت رائحة الزنازين عفنة آسنة لعدم تهويتها. وكان هناك سجناء آخرون يلوِّحون بأيديهم عبر قضبان النوافذ، صارخين مستنجدين بالجمهور للإفراج عنهم. وقد وفِّق أحدهم ممن يلبسون سروالاً فضفاضاً، إلى فتح ثغرة في السطح المعدني لقسم الزنزانات، وانزلق منها إلى الداخل، داعياً رفاقه إلى أن يقتدوا به. أما أنا فتسلقت إلى نافذة عند آخر ذلك القسم، وواجهت عشرين رجلاً على الأقل، جالسين على الأرض بين السلاسل والقش، وعيونهم ذاهلة من الرعب، ومن الارتياح. أشار إليّ أحدهم؛ وكان نحيلاً جداً إلى درجة أحسست معها بعظامه. وكان خداه غائرين ومزرقّين، وأسنانه مفقودة، والندوب ظاهرة على صدره المكشوف. كل هذا حدث، بينما الجنود الروس والحراس الأفغان واقفون يراقبون، وهم عاجزون أن يسيطروا على هذه الآلاف من الرجال والنساء، ومدركون أن أيّ إهراق للدم سيضر بنظام «كارمال» ضرراً فادحاً لا يعوَّض. وقد أساء بعض أفراد الجمهور معاملة الجنود الروس وصاح فيّ أحدهم الذي قال إنه من «باكيتا»: «إن الروس يفجّرون القنابل ويقتلون الناس في جنوبي أفغانستان».

ولكن الظاهرة الجديرة بالملاحظة حول هذا الاقتحام للسجن كانت الأناشيد الإسلامية التي تغنَّى بها الحشد. وصاح بعضهم مطالبين بثورة إسلامية، الأمر

الذي كان الروس يخشونه في أفغانستان وفي جمهورياتهم الإسلامية. وكان كثير من الشباب الذين كانوا يفتشون عن أقربائهم، قد جاؤوا من المناطق الريفية الواقعة جنوبي كابول، حيث كان التمرد القبلي يزداد منذ ١٤ شهراً، على الأقل. وبالإجمال، أطلقت الحكومة أكثر من ألفي سجين سياسي خلال الأسابيع الثلاثة السابقة ـ وكان ذلك أول عمل قام به بابراك كارمال كرئيس للبلاد ـ ولكن ذلك القرار كان له أثر غير مقصود، بتذكير الناس بآلاف السجناء السياسيين الآخرين الذين لم يطلق سراحهم، وغيرهم من النزلاء الذين أعدموا في أيام حكم أمين.

ولم يتمكن الجنود السوفيات من تشكيل خط دفاع، وهم يخفضون أسلحتهم الرشاشة، داخل بوابة «البوليشاركي» إلّا بعد الظهر، في محاولة منهم لمنع الحشد من المغادرة. عندئذٍ، لفّ «كونور» معطفه حوله، ووضع يديه في جيبيه، كنموذج لتصرف لواء في (KGB)، ومشى مباشرة إلى أقرب ضابط في صف الجنود قائلاً بالروسية: «دوس فيدانيا». فانتبه لذلك الضابط وأحد الجنود وتركونا نخرج من السجن(*).

وفي ذلك اليوم عقد بابراك كارمال أول مؤتمر صحفي كئيب له، كرئيس جديد للبلاد. وهو ابن ضابط بشتوني عالي الرتبة، قوي البنية الجسدية، له أنف بارز، وعظام خدين نافرة، وشعر أغبر، وتصرفات تشبه تصرفات «القبضاي» الذي يخرج الأفراد غير المرغوب فيهم من نادٍ ليلي. فشجب حكم سلفه الاشتراكي، واتهمه بالإجرام وأكّد أن بلاده ليست من زبائن الاتحاد السوفياتي. وكان ذلك طبعاً، صعب التصديق، نظراً لأن الباب الرئيسي لقصر «شلستون» ـ حيث جرى ذلك الأداء ـ كان بحراسة جندي سوفياتي يحمل النجمة الحمراء على قبّعته، ولوجود مدرَّعة سوفياتية في فناء القصر، وطاقم جنود سوفيات

(*) ولما كان كل سجن في الواقع لا يفقد غايته الأساسية، شهد سجن «بوليشاركي» أول إعدام قانوني بعد حكم طالبان في أفغانستان في شهر نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٤. وقد وقّع على حكم الإعدام على «قاطع الطريق» هذا رئيس البلاد «البشتوني» المناصر للأميركيين «حميد قرضاي».

يديرون مدفعاً مضاداً للطائرات في أحضان الثلج على بعد حوالى مئة متر من المبنى. فقول كارمال: «إن الشيء الوحيد الساطع أكثر من نور الشمس هو الصداقة الشريفة مع الاتحاد السوفياتي»، بدا تصريحاً متفائلاً جداً، بل نظرة أولمبية إلى العالم، قد يدركها الدكتور «فاوست».

ولا بد أن يكون الموظفون الأفغان الذين تحلَّقوا حول كارمال متمنين لو كان هناك أحد الشياطين، مثل «مفيستو فيليس» ليلطف لهجة المؤتمر الصحافي للرئيس، ولا سيما عندما تدهور نحو الغضب والصراخ. وكانت أسئلة الصحافيين الأجانب المطروحة على كارمال أكثر إثارة للاهتمام من أجوبته؛ ولكن نقط التركيز في تصريحات رجل موسكو الجديد شملت ما معناه: «لم يُقتل أو يُجرح أيّ جندي روسي منذ بداية التدخل السوفياتي العسكري؛ وإن الفرقة المحدودة التي أرسلت إلى أفغانستان، قد ضخَّمتها الصحافة الغربية الإمبريالية، وادَّعت أن الاتحاد السوفياتي يدعم النظام الوحشي الذي مثله حافظ الله أمين؛ مع أن الاتحاد السوفياتي لا يتدخل في الشؤون الداخلية لأي بلد. وأخيراً إن الجنود السوفيات سيغادرون أفغانستان حالما تزال السياسة العدوانية التي تتبعها الولايات المتحدة الأميركية، وتسايرها في ذلك قيادة بكين، وبعض الدول العربية والإسلامية.

وقد لا تبدو النكهة الكاملة للمؤتمر الصحفي إلّا ببعض الاستشهادات. فقد أراد مراسل (ITN) «مارتن لويس» أن يستعلم عن انتخاب كارمال للرئاسة بعد حصول الانقلاب على سلفه.

لويس: هل لكم أن تخبرونا عن ظروف انتخابكم للرئاسة؛ وهل كان الانتخاب ديمقراطياً؛ ولماذا ساعدك الجنود الروس للوصول إلى الحكم؟

كارمال: أيها الممثل للإمبريالية البريطانية؛ لقد غزت الإمبريالية أفغانستان بوقاحة، ثلاث مرّات. وبوسعك أن تحصل على جواب صحيح تستحقّه من شعب أفغانستان.

وقد تلت ذلك الجواب فورة تصفيق من قِبل الموظفين الأفغان والمراسلين

السوفيات. ولكن كارمال عاد فيما بعد وأخبر لويس أنه انتخب رئيساً من قبل الحزب الديمقراطي الشعبي في أفغانستان خلال حكم أمين(*). وبالطبع، لم نتوقع أقلّ من ذلك من قبل كارمال وتأكيده ـ المتهوّر كما يقول البعض ـ أن «عدم الانحياز الحقيقي لأفغانستان يمكن أن يتحقق بمساعدة الاتحاد السوفياتي المادية والمعنوية»؛ مما يعكس وجهة نظر موسكو.

هذا الرجل الجديد، كان مناهضاً شرساً ضمن هيئة الحزب الديمقراطي الشعبي (PDP) لنور محمد تراقي، الرئيس الذي اغتيل، وألصق كارمال اغتياله بوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وقد خبر هيويت غافين مباشرة تلقي غضب الدكتاتور الجديد. فقد علّق غافين باعتدال قائلاً: «لا يبدو أن هناك الكثير من الدعم لك وللروس في أفغانستان». وعندئذٍ، أخذ كارمال نفساً وجأر بأول رد هادر خطر بباله: «أيها المراسل لهيئة الإذاعة البريطانية ـ تلك الدعاية الأكثر كذباً في العالم». وكان ذلك كل شيء. فكادت القاعة تنهار من التصفيق الشديد من قبل الموظفين الكبار المتحلّقين حول كارمال، والضحك المستمر من قبل الصحافيين. فقلت لغافين: ليس بابراك بذلك الشخص السيِّىء. . .»؛ فأجابني مع تكشيرة جانبية: «انتظر يا فيسك». وكان على حق. فجواب كارمال غير المعقول جال حول العالم خلال ساعات، مثبتاً أن الرجل الجديد لموسكو كان مستخدماً آخر ذا رسالة وحيدة.

وكان ذلك مؤشراً واضحاً على أن بقاءنا في أفغانستان لن يدوم. وتأكدت من ذلك بعد ثلاثة أيام، عندما جاء ثلاثة عناصر من الشرطة السرية «خاد» إلى مكتب الاستقبال في فندق «أنتركونتيننتال» لمقابلتي. كانوا كلهم يلبسون سترات جلد ـ كما هو مطلوب في البلدان التابعة للاتحاد السوفياتي ـ دون ابتسام. وانبرى منهم رجل صغير الحجم، له شارب رفيع وصوت خشن، يحمل قصاصة ورق، قائلاً: «جئنا إليك من أجل هذه». أخذت الورقة منه، فإذا بها عبارة عن برقية عليها ختم

(*) عاد لويس فيما بعد إلى إذاعة الأخبار المسائية لهيئة (ITN) في لندن؛ كما أنه تورط أيضاً في سلسلة من الكتب حول الكلاب والقطط، لقتل الوقت، مفضلاً ذلك على نقل المؤتمرات الصحفية لكارمال.

مكتب البريد والبرق. وبدأت أقرأ، وأنا أبلع ريقي، كالمجرم الذي يواجهونه بالإثباتات: «مستعجل، بوب فيسك، نزيل فندق أنتركونتيننتال، كابول، إمكان الحصول على دقيقتين عن آخر الأخبار عن استفحال التحرك العسكري السوفياتي في أفغانستان لنهار الأحد صباحاً، هذا الأسبوع، مع محبتي: «سوهيكي». أخذت نفساً وصرخت: «يا يسوع المسيح». كيف يمكن أن ترسل «سو» إلي من مكتب (CBC) في لندن مثل هذه البرقية؟ لقد مضت أيام وأنا أرسل أشرطة إلى هيئة الإذاعة الكندية، أصف فيها جو الخوف والخطر في أفغانستان، وها هي «سو» ترسل إليّ برقية مفتوحة تطلب فيها تفصيلات عن الانتشار العسكري السوفياتي في بلد يشرف عليه الشيوعيون المناصرون لموسكو. إن ذلك جزء من المشكلة القديمة ذاتها. فهناك جدار من عدم التصديق بين المراسلين ومكاتبهم البعيدة في لندن أو نيويورك؛ إنه الافتتان بالبرقية السريعة الخاصة الآتية من منطقة الحرب. فهناك اعتقاد لاشعوري بأن الشريط أو الفيلم هو جزء من إنتاج هوليودي، وأن الجيش الروسي يقدم لنا أداء، وأن «الخاد» الموصوف في تقارير الأخبار بأنه شرطة سرية رهيبة، ليس مفزعاً إلى تلك الدرجة، وأنه يقدم لنا مزيداً من الاستثارة لقصصنا عن الحرب.

كان الرجل الصغير الحجم من شرطة «الخاد» ينظر إليّ وعلى وجهه ملامح الاستثارة. وهو من القلائل الذين يستطيعون تكلم الإنكليزية بشكل مقبول. ها هو يقبض على جاسوس غربي بإثبات غير قابل للجدل، طلب معلومات عن الجيش السوفياتي. وسألني: «ماذا يعني ذلك؟»، فقلت لنفسي: «أجل ماذا عنى ذلك». لقد كنت بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير. فانفجرت ضاحكاً بشكل عاصف في ردهة الفندق، ما أثار انتباه موظفي الاستقبال الذين أرادوا معرفة الطرفة القابعة وراء هذا الانفجار. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أحد رجال الشرطة. هدَّأت ضحكي تدريجاً، وهززت رأسي بسأم قائلاً: «تريد هذه السيدة أن تستعلم للإذاعة الكندية في برنامج صباح الإثنين، عن التوسع العسكري السوفياتي: وقد علمنا من الرئيس كارمال أنه ليس هناك سوى فرقة سوفياتية محدودة جاءت إلى أفغانستان. وهذه السيدة تجهل ذلك. وعليّ أن أوضح هذه

القضية وأقول الحقيقة. وآسف لأنكم انزعجتم من تلك البرقية السخيفة، وأنا أفهم لماذا انزعجتم منها». وضحكت من جديد، حتى أن الشرطي الصغير ضحك أيضاً بارتباك. أرجعت إليه البرقية المُدنية إليّ، فطلب مني الاحتفاظ بها؛ وهزّ إصبعه في وجهي قائلاً: «نحن نعلم أنك تعلم». فأبديت أسفي، وتساءلت ماذا كان يعلم؟ ولكن شباب «الخاد» كانوا قد أداروا ظهورهم وابتعدوا. شكراً لك يا «سو». وبعد أسابيع تناولت طعام العشاء معها، ودفعت هي الحساب.

لقد كان من الممكن قلب الاحتلال السوفياتي إلى مسرحية ذات بعد واحد فيها غزاة روس متوحشون، ورجال عصابات أفغان جريئون، عكس ما جاء في رواية «توم غراهام» عن الحرب الأفغانية الثانية. أضف إلى ذلك: سلسلة من حكام دكتاتوريين مناصرين للسوفيات، سادوا في أفغانستان بقسوة، وبرياء اشتراكي وخطط اقتصادية مخادعة، وكذلك بالتحالفات القبلية. «فالباثان» و«الهزارة» ـ الذين كانوا من الشيعة ـ و«الطاجيك» و«الجيلزاي» (Ghilzais) و«الدورانيون»، و«الأوزبيك»، كلهم كان يمكن التلاعب بهم من قبل الحكومة في كابول. فهي التي تعطي نفوذاً لزعيم مستعدٍ لضبط بلدته بالنيابة عن السلطات الشيوعية، كما تستطيع أن تحجب المال والدعم عن غيره. ولم تُؤَمّن المطاوعة السياسية بالسجن والتعذيب والإعدام؛ بل كانت الحكومات الشيوعية ذاتها، تراعي القبائل في أعماق الصحاري والوديان، وتداهن المجتمعات الريفية ثم تفرض عليها نظاماً تعليمياً حديثاً، يتعلم فيه الصبيان والبنات جنباً إلى جنب، وليس على النساء لبس الحجاب، بل تُعلّم فيه العلوم والآداب بجانب التعاليم الإسلامية. وبعد ٢١ سنة، يأتي رئيس أميركي فيتفاخر بأن هذه التدابير مشمولة بأهدافه من أجل أفغانستان.

ولا أزال أتذكر رحلة قمت بها خارج جلال أباد في تلك الأيام الأولى من الغزو السوفياتي. كنتُ قد سمعت عن مدرسة أُحرقت في قرية على بعد ٢٥ كيلومتراً من المدينة. فانطلقت بسيارة أجرة ذات عادم ينفث الدخان، مصنوعة في روسيا. فوجدت أن الحادثة وقعت، ولكن على أسوأ مما كنتُ أتصور،

فبجانب المدرسة المتلفة، كانت قطعة لحم سوداء تتدلى من شجرة، وتتأرجح في الهواء. سألت عنها، فأخبرنا رجل من تلك القرية، بعدما ألحّ على سائقي أن يخرجني من القرية، أنها كل ما تبقى من مدير المدرسة؛ كما أنهم شنقوا وأحرقوا زوجته المعلمة في المدرسة؛ وكانت خطيئتهما أنهما نفّذا تعليمات الحكومة بتعليم الصبيان والبنات في الصف نفسه. وماذا عن أولئك الباكستانيين، والمصريين، والسعوديين، الذين كانوا يدعمون «الإرهابيين»، بحسب قول كارمال؛ حتى أنني سمعت في جلال أباد أنهم شاهدوا عرباً في الريف خارج المدينة؛ مع أننا كنا لا نصدق تلك الأقاويل في ذلك الوقت، نظراً لسذاجتنا. فكيف يكون المصريون والسعوديون قد جاؤوا إلى هنا؟ ولماذا السعوديون؟ وعندما سمعت من زملائي ـ ولا سيما الصحافيين الأميركيين ـ أنهم يلقبونهم «بالمقاتلين من أجل الحرية»، شعرت بأن هناك شيئاً من الضلال في هذا الأمر. إنهم رجال عصابات، نعم، وحتى مقاتلون. أما أنهم محاربون من أجل الحرية؟ فأيّة حرية كانوا عازمين على أن يخلعوها على أفغانستان؟

ولا شك في شجاعتهم. وخلال ثلاثة أسابيع من الغزو السوفياتي، اتضحت علامات تدل على معارضة سياسية إسلامية موحَّدة، ضد حكومة كارمال ومسانديه الروس. وكان الدبلوماسيون القلائل الذين لبثوا في كابول، يسمّون ذلك: «الرسائل الليلية». وكانت تلك التصريحات والبيانات مطبوعة على ورق رخيص، وملقاة في باحة السفارات، وعلى سياجات القنصليات، خلال ساعات منع التجول. وكانت متوَّجة عادة بآيات من القرآن الكريم. وأحدثها الآن ـ في منتصف كانون الثاني/يناير ١٩٨٠ ـ ادَّعت أنها صادرة عن «المحاربين المسلمين المتحدين في أفغانستان»، وعليها شعار «الجبهة الإسلامية الأفغانية»؛ وهي واحدة من أربع جماعات، كانت تقاتل في جنوب البلاد.

ومن صفحات القرآن الكريم المفتوحة، ظهرت ثلاثة شؤون: فقد شجبت الرسالة النظام القائم لارتكابه «جرائم غير إنسانية»، وأدانت الجنود السوفيات في البلاد «لمعاملتهم الأفغانيين كأرقّاء». «فالمسلمون» بحسب قولها، «لن يتوقفوا عن القتال أو حرب العصابات حتى الرمق الأخير... إن الجنود الروس

المغرورين والعدوانيين ليست لديهم أية فكرة عن حقوق شعب أفغانستان، وكرامته الإنسانية». وقد تنبأت الرسالة بموت كارمال وثلاثة من وزرائه؛ وأشارت إلى كارمال باسم «كارغال» التي تعني بالفارسية «لص الشغل». وأول رجل أدين كان عبد الله صواري، عضو اللجنة التنفيذية الدائمة، الذي كان في أيام طرقي رئيس الشرطة السرية؛ والذي يعتبر إلى حدٍ كبير مسؤولاً عن الأمر بتعذيب آلاف من معارضي طرقي. كما شملت لائحة الموت «شاه جان موز دوريار»، وزير الداخلية الأسبق، الذي هو اليوم وزير النقل.

وقد تضمّنت الرسالة أيضاً مزاعم محدَّدة بأن الجيش السوفياتي «كان يرتكب أعمالاً لا يتحملها شعبنا، بالإضافة إلى أنه خطف نساء وفتيات يعملن في فرن بمنطقة «درلمان» من ضواحي كابول، وأعادهن في الصباح التالي. وحدث أمر مشابه لذلك في ضاحية «خير خانه»؛ وهو عدوان ضد الكرامة الإسلامية». وعندما استقصيت هذه الادّعاءات، قال لي عمال فرن «درلمان» إن النساء العاملات عادة في ذلك الفرن رفضن العمل من أجل الجنود السوفيات، وبالتالي أخذهنّ الروس ليخبزن في فرن آخر، وليس لديهم فكرة عن كيفية معاملتهنّ هناك. ولم يبوحوا بأكثر من ذلك خوفاً. وأضاف كاتبو الرسالة قولهم إن المسلمين سيطيحون بكارمال في آخر الأمر، ولن يعترفوا بالاتفاقات الأجنبية التي عقدتها حكومة كارمال(*). ثم طلبوا يائسين، وربما بشكل محزن، أن تذاع تصريحاتهم من هيئة الإذاعة البريطانية عند الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة «دون رقابة».

ومع ذلك، فقد جازفنا بالخروج جميعاً «أنا وغافين، وستيف، وجيوف، ومايك» مع السيد صمد علي المخلص. وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق

(*) أعاد الروس كارمال بالطائرة إلى موسكو عام ١٩٨٦، ونصّبوا محله محمد نجيب الله، رئيس «الخاد» أي الشرطة السرية. ثم أطاح به المجاهدون، فالتجأ إلى مكاتب الأمم المتحدة في كابول عام ١٩٩٢، بعد ثلاث سنوات من الانسحاب السوفياتي. وفي عام ١٩٩٦، سحبه رجال طالبان، فخصوه وشنقوه مع أخيه على شجرة، بعدما وضعوا في فمه وجيوبه عملة أفغانية. وكان هذا هو المصير الذي كان ينتظر كارمال الذي مات بالسرطان بعد سنوات في موسكو.

صاعدين إلى «ممرّ سالانغ»، على بعد ١٣٠ كيلومتراً شمالي كابول، بتاريخ ١٢ كانون الثاني/يناير، رأينا سيارة تنزلق على الجليد، وأحد رجال المظلات من الفرقة ١٠٥ المنقولة جواً يركض نزولاً على الطريق ملوّحاً برشّاشه الآلي إلينا وصارخاً بالروسية. لقد أصيب بجرح في يده اليمنى، وكان الدم ينزّ من ثقب الرصاصة عبر الرباط المؤقت ويلطّخ كُمّ بذلة الميدان التي كان يلبسها. لقد كان في سن المراهقة، بشعر أشقر وعينين زرقاوين، ووجه ينمّ عن الخوف. ومن الواضح أنه لم يتعرّض سابقاً لإطلاق النار. وكانت بجانبنا شاحنة نقل للجيش السوفياتي، وقد تمزّقت مؤخّرتها إلى أشلاء، بفعل لغم؛ وهي منغرزة في الخندق. وفي أعلى الطريق شاحنتان من حاملات الدروع، وضابط من ضباط المظلات يركض نحونا لإسعاف رفيقه.

سألني بالإنكليزية: «من أنتم؟». وكان ذا شعر أسود معصوب، ومرتدياً سترة متغضّنة، مع زرَدة عليها المطرقة والمنجل فوق حزامه. أخبرناه أننا مراسلون؛ لكنه كان مشغولاً بألم جرحه. ضغط على زرّ التأمين في رشاشه، ورفع يده بصعوبة ليفحصنا، ثم أشار إلى رأس جبل مغطى بالثلج فوقنا، حيث كانت تحوم مروحية عسكرية روسية، وقال: «إنهم يطلقون النار على الروس». لقد كانت له شكوكه. فلا أحد يعلم كم روسياً أصاب رجال العصابات؛ مع أن قروياً رأيناه على بعد ميل جنوباً أكد زعمه بأن مواطنيه قتلوا المئات.

لكن الكمين كان دقيق التخطيط. فقد انفجر اللغم في الوقت ذاته الذي انفجرت فيه عبوّة أخرى تحت جسر على الطريق الرئيسية. وهكذا، فإن نصف القافلة الروسية الذاهبة إلى كابول من الحدود انعزل في الثلج على علو ٧٠٠٠ قدم، لمدة ٢٤ ساعة. وقد أجرى المهندسون الروس إصلاحات مؤقتة. وكنا نراقب الشاحنات الروسية نازلة من الجبال منزلقة على الثلج الذائب والوحل بعدد يساوي: ١٥٦ مركبة مدرَّعة، وناقلات جنود بثمانية دواليب، و٣٠٠ شاحنة محملة بالنفط، والذخيرة، والطعام، والخيم. وكان السائقون يبدون متعبين. ومن سخرية القدر، أن الروس أنفسهم كانوا قد بنوا هذه الطريق وعبّدوها عبر ممر يعلو ٩٠٠ ١١ قدم، كرمز للتعاون المشترك بين الاتحاد السوفياتي

وأفغانستان ـ وللقوافل السوفياتية العسكرية التي تتوافد الآن جنوباً تحت طائلة الهجمات اليومية. وفي تلك الليلة، أعلنت وزارة الخارجية الأميركية في مبالغتها مقتل ١٢٠٠ جندي روسي؛ بينما كان تقدير القروي المتعطش إلى الدماء البالغ مئات القتلى، أقرب إلى الحقيقة. إنها «فرقة عسكرية محدودة» حقاً.

أعلنت حكومة كارمال حداد يوم من أجل الذين قتلهم «السفَّاح أمين»؛ حتى أن السفارة البريطانية خفضت العلم إلى منتصف السارية. ولكن لم يحضر للصلاة على أرواح الشهداء في مسجد «پوليكيشتي» الأصفر سوى مئات قليلة من الناس، أكثرهم من الموظفين. وقد قام جندي يحمل بندقية في رأسها حربة، بلفت نظر أربعة من الشباب الذين وصلوا إلى المسجد في شمالي كابول بضرورة التوقيع على الدفتر، لأن ذلك من واجبات الحزب. أما باقي كابول فقد حافظت على النمط المرتبك لحياتها الجديدة. وقد فتحت الأسواق كالعادة، وتابع البائعون في الشوارع اتجارهم بالحلوى والزيوت بجانب نهر كابول المغطى بالجليد. وفي المدينة القديمة، رجم الحشد طاقم تلفزيون غربي بالحجارة، ظناً منه بأنهم روس.

وكنتُ مع «غافين» قد طلبت من السيد صمد علي أن يأخذنا يوماً إلى حديقة الحيوانات. وحالما اجتزنا بوابتها قرأنا عنواناً صدئاً «النسور»، فإذا بها أسوأ طيور على الأرض، ذات هياكل عظمية بارزة، ولكنها ليست عجفاء. وبعد فجوة الخنازير، انتقلنا إلى أقفاص الدببة القطبية، ولكنها كانت خالية وأبوابها مفتوحة، ومما أزعجنا جماعة صامتة من الرجال المتعمِّمين الذين تبعونا إلى حديقة حمار الوحش المخطط، ظانّين كما يبدو أننا روس. وربما كانت حديقة الحيوان تلك الوحيدة في العالم حيث يشكل الناس خطراً أكثر من الحيوانات. وقد استأنفنا المشاهدة، حتى أننا فتّشنا عن قاطرة أفغانستان البخارية الكبرى الوحيدة الباقية من أوائل القرن العشرين، تلك التي اشتراها الملك «أمان الله» من صانعها في ألمانيا. فوجدناها صدئة ومهجورة قرب قصر متهدم، ومكابسها كلها متجمدة، يحرسها رجال شرطة حاولوا انتزاع كاميراتنا عندما أردنا أن نأخذ

صورة لتلك القاطرة. وهو تصرف غير معقول، نظراً لعدم وجود أية خطوط للسكة الحديدية في أفغانستان.

وربما كان على سبيل التعويض أن يعمد سائقو الشاحنات في أفغانستان إلى جعل سياراتهم الشاحنة روائع من الفن الشعبي. فكل إنش مربع من جسم السيارة مكسوّ بالصور الزيتية والتصاميم الملونة. ولهذا الفن الأفغاني القائم على تصاوير الشاحنات تاريخ خاص بدأ عام ١٩٤٥، عندما أضيفت الألواح المعدنية إلى الهياكل الخشبية للشاحنات التي تسير مسافات طويلة. فانقلبت تلك الألواح إلى لوحات تصوير على يد الفنانين في كابول ثم في قندهار. وكان أصحاب الشاحنات يدفعون مبالغ طائلة لهؤلاء الرسّامين ـ فكلما كان التصوير دقيقاً، زاد في شرف صاحب السيارة. وكانت الصور الفنية تنقل عن بطاقات الأعياد، والروزنامات، والهزليات، والمساجد. وكان بالإمكان رؤية صورة طرزان بجانب حصان الإمام علي، مع صور ببغاوات، وجبال، ومروحيات، وزهور. ومنها الرسوم البادية على ألواح ثلاثية على شاحنات ماركة «بيدفورد». وقد سأل أحد الكتاب الفرنسيين صاحب شاحنة عن سبب هذا التصوير والرسم. فكان الجواب: «إنه بمثابة حديقة، والطريق التي نقطعها طويلة».

ولم يجد كارمال بدأ من تهدئة المجاهدين، ساعياً وراء وقف لإطلاق النار في المناطق الريفية، عن طريق سلسلة من اجتماعات سرية عقدت بين وسطاء الحكومة وزعماء القبائل في مدينة «بشاور» الواقعة على الحدود الباكستانية. وقد صدر تصريح عن هيئة الحزب الديمقراطي الشعبي (PDP) يعلن أنها ستبدأ بمفاوضات حبِّية مع «. . . التقدميين الديمقراطيين الوطنيين والأوساط الإسلامية والمنظمات». ورافقت هذا الأسلوب الجديد، الكائد والمحكوم عليه بالفشل، جهود يائسة من قبل الحكومة لإقناع نفسها بأنها تكتسب شرعية دوليّة. فقد نقلت جرائد كابول أخباراً غير مفاجئة عن ردود فعل مؤيدة للنظام الجديد من قبل سوريا، وكمبوديا، والهند، فضلاً عن الاتحاد السوفياتي، وحلفائه من دول أوروبا الشرقية. وفي رسالة طويلة موجهة إلى آية الله الخميني، الذي أثارت ثورته الإسلامية في إيران مخاوف الاتحاد السوفياتي في العام الفائت، انتقد

كارمال رد الفعل الإيراني المناوىء لانقلابه ـ إذ إنه أدين من قبل الرؤساء الروحيين الإيرانيين ـ وحاول أن يؤكد للخميني أن قتل رجال القبائل المسلمين في أفغانستان قد انتهى بقلب حكم أمين. وقال في رسالته: «إن حكومتي لن تسمح لأي كان باستعمال أرضنا ضد الثورة الإسلامية في إيران، وضد مصلحة الشعب الإيراني الشقيق. ونحن نتوقع من إخواننا الإيرانيين أن يحذوا حذونا باتخاذ موقف مماثل».

وغنيّ عن البيان أن إيران لم تكن آنذاك مستعدة للموافقة. فقد أعلن وزير الخارجية في طهران، بعد أيام من الغزو السوفياتي: «إن أفغانستان بلد مسلم... وإن التدخل العسكري لحكومة الاتحاد السوفياتي في بلد إخواننا في الدين وجيراننا يعتبر عملاً عدائياً... ضد كل المسلمين في العالم». وخلال شهور كانت إيران تخطط لإقامة برنامج للمساعدة العسكرية إلى المتمردين ـ مع علمها أن الولايات المتحدة الأميركية كانت ترسل مساعدة إلى رجال حرب العصابات ـ وفي تموز/يوليو، أخبرني صادق قطب زاده، وزير خارجية إيران، أنه يأمل أن تعمد بلاده إلى تقديم أسلحة إلى المتمردين؛ إذا لم يسحب الاتحاد السوفياتي جيشه. «وفي الواقع، قُدّم اقتراح بهذا الشأن إلى المجلس الثوري»، بحسب قول الوزير، «... وبالضبط، كما كنا ضد التدخل العسكري في فيتنام، فإن لدينا التفكير نفسه إزاء التدخل السوفياتي في أفغانستان. ويدّعي الاتحاد السوفياتي أنه جاء إلى أفغانستان بطلب من حكومة تلك البلاد؛ كما جاء الأميركيون إلى فيتنام بطلب من حكومتها أيضاً». ولكن في تلك المرحلة، كان لدى كارمال مشاكل أكثر إلحاحاً من إيران.

وكاد كارمال يفقد الأمل في تأمين ولاء الجيش له. وقد سمعنا أن ٦٠٪ فقط من الجيش يأتمرون بأمره. ولذا عمد إلى استثارة حسهم الوطني؛ ووعدهم بالاهتمام «بحاجاتهم المادية»، قائلاً: «هؤلاء الضباط الأبطال، وطلاب المدرسة الحربية الوطنيون، والجنود، مدعوون اليوم، إلى الدفاع عن الحرية والشرف وأمن المواطنين... فليعقدوا الآمال حول المستقبل الزاهر». وقد عنى «بالحاجات المادية» الدفع المتأخر. ويدل هذا النداء بحد ذاته على ضعف

الحالة المعنوية للجيش. وحالما حاول كارمال تهدئة الجنود، انصرف إلى الاهتمام بالإسلاميين الذين طالما عارضوا الأنظمة الشيوعية؛ فأعلن أنه سيغير العلم الأفغاني ويعيد إدخال اللون الأخضر، اللون الإسلامي، عليه الذي أزيل بتهوّر من العلم الوطني أيام «طرقي»، وأثار حفيظة رجال الدين. وفي الوقت ذاته، كان لدى كارمال قدرة فريدة على مناهضة كل مبادرة سياسية جديدة، بتدبير مضاد غير مقبول شعبياً. فقد حذّر من أن حكومته ستعامل «الإرهابيين، ورجال العصابات، والمجرمين، وقطاع الطرق. . . بالصرامة الثورية».

وبدلاً من «إرهابيين» إقرأ «رجال حرب العصابات» ـ أو كما وصفهم الرئيس رونالد ريغان: «المحاربين من أجل الحرية». «الإرهابيون، الإرهابيون، الإرهابيون». صارت هذه الكلمة بلاء في الشرق الأوسط، والعالم الإسلامي بكامله، ونقطة توقف، بل حائط لإنهاء أية مباحثة أو مناقشة حول الظلم، نصبه الروس والأميركيون، والإسرائيليون، والسعوديون، والأتراك من أجل أن يكمّوا أفواهنا. فمَنْ يتجرَّأ على أن ينبس ببنت شفة تأييداً للإرهابيين؟ وما هي القضية التي تستوجب الإرهاب؟. وبناء على ذلك، يكون أعداؤنا دائماً «إرهابيين». وتجدر الإشارة إلى أن الحكومات في القرن السابع عشر كانت تستخدم تعابير «هراطقة»، بالأسلوب ذاته لإنهاء كل حوار، وفرض الطاعة. وكانت سياسة كارمال بسيطة: كل من ليس معنا فهو ضدّنا. لقد استمعت إلى هذه المعادلة الخطرة لعقود زمنية، يطلقها الرأسماليون والشيوعيون، ورؤساء الدول ورؤساء الوزراء، والضباط الكبار وضباط المخابرات والاستخبارات، وبالطبع رؤساء تحرير الصحف.

وفي أفغانستان، لم تكن هناك مثل تلك التراجعات الشكلية. كنتُ في غرفتي الدافئة المريحة بفندق «أنتركونتيننتال»، أبسطُ خريطة أفغانستان، وأتساءل، ما هي الرحلة التي يجدر أن أقوم بها عبر هذا النجد الجليدي قبل أن يطردنا الروس من هنا؟ تصوّرت أنه يمكن تقدير مدى الغزو الروسي عند الحدود السوفياتية. فاذا بلغتُ نهر «آموداريا»، أُصبح قريباً من الحدود مع الاتحاد السوفياتي، وأتمكن إذ ذاك من أن أراقب القوافل الكبرى وهي تدخل

هذا البلد. لففت طاقية أفغانية ليّنة، ووشاحاً أسمر أخضر الأطراف، اشتريتهما من السوق، وأخذت معي ما يكفي من الدولارات لدفع أجرة إقامتي في فندق «مزار» لعدة ليالٍ، وانطلقت قُبيل الفجر إلى محطة الباصات في مركز مدينة كابول، حيث البرد والحشد.

كان الأفغان الذين ينتظرون باص «مزار» ودودين معي. فعندما قلت إنني إنكليزي ابتسموا، وصافحني بعضهم. ورمقني بعضهم الآخر بنظرة ارتياب، مثل رجال الشرطة السرية الذين قابلوني في فندق «أنتركونتيننتال». كانت هناك نساء يلبسن حجاب البرقع، ويجلسن صامتات في مؤخرة الباص الخشبي. خفضت طاقيتي على جبيني، ورميت وشاحي على كتفي؛ وأخذت مقعداً لجهة اليمين وأنا أغصّ بدخان السجاير، لأن تفتيش الجنود يحصل عادة لجهة اليسار، ونجحتُ. وهدر الباص صامداً نحو «سالانغ»، عند بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس على سهول الثلج المكشوفة. وكنتُ قد سلكت هذه الطريق مع «غافين» مرات عديدة. ولذلك بدت أليفة صديقة، بالرغم من مخاطرها. فمن جهة اليمين، كانت هناك القاعدة الكبرى السوفياتية شمالي مطار كابول، ونقطة التفتيش والتدقيق الأفغانية خارج «تشاركار»، حيث أرانا الجندي الروسي الجرح في يده. ولكن الجنود الأفغان كانوا يشعرون بالبرد؛ ولذلك تقاعسوا عن الصعود إلى الباص وملاحظة المسافرين. وعندما قام الجنود السوفيات بتفتيش متعجِّل، تجمّعت في مقعدي، وتدثّرت بوشاحي حول وجهي. وبعد ثلاث ساعات، توقف الباص إلى جانب الطريق، على مقربة من نفق «سالانغ». وكانت هناك مركبات روسية مدرَّعة على بعد أمتار منّا، مع مجموعة من الجنود بعيونهم الزرق، وشعورهم البنّية يحدِّقون حولهم من تحت قبّعات الفرو التي يلبسونها. وهنا ساءت الأحوال.

فقد اقترب ضابط سوفياتي من الجهة اليمنى من الباص، والتقت عيناه بعينيّ. ثم أشار إليّ أيضاً رجل أفغاني دقيق الشاربين من داخل الباص. وتقدم إلى قرب مقعدي، ورفع إصبعه مشيراً إلى وجهي بشكل مباشر. لقد خُدِعتُ. هذه هي الكلمة التي جالت بخاطري. وقد رأيت هذا المشهد في عدة أفلام.

فلا شك في أنه المُخْبِر؛ ولا بد أنه كان يعمل مع الشرطة السرية الأفغانية، ورآني أستقلّ الباص، فانتظر حتى وصلنا إلى نقطة التفتيش هذه المحروسة تماماً، ليفشي أمري. وكذلك انبرى شاب آخر، فنزل من الباص، ومشى بمحاذاة الجهة اليمنى من الباص، ثم أشار إليّ أيضاً من خلال النافذة. لقد خُدعتُ أيضاً. وكنا على بعد مئة ميل من كابول. فلو اجتزتُ هذا الحاجز الأخير، لكنتُ قد مررت بالنفق، وبلغت بلدة «مزار».

أومأ إليّ الضابط الروسي بأن أغادر الباص. ولاحظتُ على طيَّة صدر سترته شارة «لينين»؛ ويبدو فيها لينين وهو يحدِّق بنظرات ثابتة في حلم «بولشفيكي» بعيد، لا سبيل لي إليه. طلب مني جوازي دون اكتراث؛ فانتابني الشعور ذاته الذي ألَمَّ بي عندما تلقيت برقية «سو هيكي» الفاضحة والمثبتة لدوري الغادر في أفغانستان. وكانت أغلفة الجوازات البريطانية في أعوام الثمانينيات سوداء، يعلوها شعار النبل المذهَّب للمملكة المتحدة. وهو يومض تحت أنظار هذا الضابط الذي درسه عن كثب. وتوقعت منه أن يسألني عن معنى «الله وحقي» أو غير ذلك من الشعارات؛ لكنه نفضه مفتوحاً، وتفقَّد وجه هذا الرجل الإنكليزي الأشعث الذي يلبس نظّارة على الصفحة الثالثة، ثم انتقل إلى النظر في طبيعة «مهنته» فوجد كلمة «ممثِّل» (Representative) بدلاً من كلمة «صحافي» لأن «صحافي» لا تساعد ضمن الشرق الأوسط في الحصول على تأشيرات للسفر؛ فوضع إصبعه عليها، وهو الذي لا يفقه من الكتابة اللاتينية أكثر مما أفقه من الأبجدية السيريلية السلافية، وسأل بإنكليزيته المتعبة: «ماذا تمثل؟». فأجبت معترفاً: «جريدة». «آه أنت مراسل جريدة». وابتسم لي ابتسامة عريضة عارفة. وقادوني باتجاه كوخ صغير للتواصل عبر الثلج، برز منه قائد مظلِّي نصف عارٍ يلبس ما يستره؛ إنه النقيب «فيكتور» من «طشقند». لم يبدِ هذا الضابط أيّ عداء لي عندما علم أني صحافي، وتحلّق حولي رجاله، متشوقين ليتحدثوا بإنكليزيتهم المتعثرة، وإنما السليمة. وسمعت نخراً من محرِّك سيارة الباص التي جئت بها، ورأيتها تغادر دوني باتجاه النفق، بينما ترقبني عين المُخْبِر الذي غدر بي متشفيةً من زجاج تلك السيارة الخلفي.

كان هناك جندي من مدينة «طالين» في «أستونيا». وإذا كان قد نجا من أخطار أفغانستان، فإني أعتقد أنه صار اليوم معتزاً بمواطنيته في الاتحاد الأوروبي، يزهو بجوازه لدى دوائر الهجرة البريطانية، وقد وصف تكراراً الأخطار التي تحدق بالجبال، بعدما صار المتمردون يطلقون النار يومياً على الجنود السوفيات. كما أراد النقيب «فيكتور» أن يعرف لماذا اخترت أن أكون صحافياً. ولكن الظاهرة البارزة لدى هؤلاء الجنود كانت انبهارهم بموسيقى «البوب» الشعبية. وقد تدخل الملازم «نيقولاي» من «طشقند» ليسأل: «هل صحيح أن «بول ماك كارتني» قد قبض عليه في طوكيو؟ ولماذا؟» فسألته: «أين سمعت موسيقى فرقة «البيتلز؟»»؛ فجاءني الجواب من جوقة رجلين آخرين: «من إذاعة صوت أميركا».

لقد بدأتُ الآن بالابتسام؛ لا للودّ الذي أبداه لي الروس ـ إذ إن كلاً منهم درس جوازي، وصاروا ينادونني «روبرت»؛ كما لو كنتُ رفيق سلاح لهم، بدلاً من اعتباري مواطناً في دولة عدوة قوية ـ بل لأن هؤلاء الجنود السوفيات الذين يبدون اهتمامهم بالموسيقى الغربية، لا يمثلون الشجعان الذين حاربوا في ستالينغراد. لقد ظهروا كأي جنود غربيين: سُذَّجاً، ومنشرحين أمام الأجانب، ومبدين للثقة بي، ولا سيما في هذه الأصقاع الأفغانية، لأنني زميل أوروبي. وبدوا معتذرين بصدق عن عدم قدرتهم على السماح لي بمواصلة رحلتي؛ لكنهم أوقفوا باصاً عائداً إلى كابول من أجل اصطحابي. ولكني رفضت اقتراح النقيب «فيكتور»، لأن الركاب رأوني أتحدث مع الروس؛ وقد يظنون أنني روسي. وقد لا أصل حياً إلى كابول؛ مهما أكَّدت لهم أنني بريطاني.

ولذلك، أوقف الملازم «نيقولاي» شاحنة روسية مارَّة في آخر القافلة، ووضعني على متنها. وقال لي: «دوس فيدانيا، بمعنى «وداعاً، بالروسية، وسلِّمْ لي بمحبة على ليندا ماك كارتني». وهكذا وجدتني مسافراً عبر جبال «الهندوكوش»، مع قافلة سوفياتية عسكرية ذات الرقم ٥٨، من طشقند إلى كابول. إن هذا أمر لا يصدَّق. فلم يستطع أيّ صحافي غربي أن يتكلم مع الجنود السوفيات الذين يغزون أفغانستان، ناهيك بالركوب معهم في قافلة

عسكرية. وها أنا الآن جالس بقرب جندي روسي مدجَّج بالسلاح، بينما يسوق هو شاحنته المحمَّلة بالطعام والذخيرة إلى كابول؛ مما يسمح لي بمراقبة هذا الانتشار العسكري من مكاني على مركبة عسكرية سوفياتية. وكان ذلك أفضل من ذهابي إلى بلدة «مزار».

وبينما كنا ننزل من النفق المذكور، أخرج السائق الروسي من جرابه الموضوع خلف مقعده، تفاحة وقدَّمها إليّ. وقال: «من فضلك، أنظر إلى أعالي التلال... بحثاً عن المسلحين». فأدركت حينئذٍ بين مصدِّق ومكذِّب، أنه يطلب مني المساعدة في ذلك؛ بينما يجاهد هو بمقود سيارته التي تنزلق على الجليد. وكانت التفاحة مكافأة لي على ذلك. وبدأنا نتأخر عن القافلة تدريجاً؛ بينما جذب رشاشه من الوراء، ووضعه بيني وبينه على المقعد. وأضاف: «أخبرني إذا رأيت أحداً». ففعلت بحسب طلبه، من أجل سلامته وسلامتي. وكانت كلمة «كاما» محفورة على اللوحة الواقعة تحت الزجاج أمامه؛ فعرفت أن هذه الشاحنة صنعت بمعونة أميركية عند نهر كاما في الاتحاد السوفياتي، وتأملت في ما يجول بخاطر الرئيس «كارتر»، إذا علم كيف تستعمل مثل تلك التكنولوجيا. وكان السائق قد ألصق بطاقات عيد الميلاد على سيارته.

وعندما وصلنا إلى أسفل الممر، التقينا من جديد قافلتنا. وتقدّم من جهتي ضابط طويل، بعينين ذكيتين زرقاوين مائلتين إلى الشحوب بشكل غير اعتيادي، وبسروال «كاكي»، وحذاء عسكري غليظ، وقال لي: «أنت إنكليزي»، وشفعها بابتسامة متابعاً: «أنا الرائد يوري. تعال معي إلى الأمام». فشققنا طريقنا ببطء وصعوبة عبر الثلج والوحل إلى مقدمة القافلة حيث كانت دبابة تناور في الاتجاه المعاكس من الممر. قال: «إنها دبابة (T-62)»، مشيراً إلى ما تحت ماسورتها؛ ورأيت من المناسب أن لا أخبره أنني أفقه هذا التصنيف.

وعليّ أن أقرّ واعترف بأن الرائد «يوري» كان جندياً محترفاً، يعجب به رجاله ـ وقد طلب منهم جميعاً أن يصافحوني ـ وفي الأزمة التي سنمرّ بها قريباً، تصرّف برباطة جأش وبفعالية. وقد كان دائماً لائقاً مع الجنود الأفغان الشكسين الذين كان شخصياً لا يثق بهم. وعندما جاء خمسة منهم إلى جانب

القافلة يشتكون من أن الجنود الروس يلوِّحون لهم برشاشاتهم، تكلّم معهم الرائد «يوري» كندٍّ لهم، دون قفّاز، مصافحاً كلّاً منهم باليد حتى تألّقوا أنساً ومتعة. ولكنه كان أيضاً محازباً مخلصاً.

سألني عن رأيي في السيدة تاتشر. فأجبته بأن الناس في بريطانيا لهم نظرات مختلفة إلى رئيسة الوزراء ـ وامتنعت عن إبداء رأيي الخاص ـ وأنه يُسمح لهم بأن يتمسّكوا بآرائهم بحرّية. وقلت إن الرئيس كارتر ليس سيئاً كما تصفه صحافة موسكو؛ فأصغى إليّ بصمت. ولكنني تساءلت متعجباً عن رأيه بالرئيس بريجنيف. وكنت أعلم ماذا سيقول؛ كما كان هو يعلم، إذ هزّ رأسه مبتسماً وقال ببطء: «إن الرفيق بريجنيف رجل طيّب جدّاً». وكان الرائد «يوري» حسن الاطّلاع، على كتابات تولستوي، ومقدِّراً للموسيقي «شوستاكوفيتش» ولاسيما سيمفونيته عن «ستالينغراد». ولكن عندما سألته عن «ألكسندر سولجينيستين»، هزّ رأسه، وربَّت على قِراب مسدّسه، قائلاً: «هذا لسولجينيستين».

حشرت نفسي في شاحنة الرائد «يوري»، وهو جالس بيني وبين السائق؛ وانطلقنا إلى كابول. تساءل عن إنكلترا كبلد أفضل من أفغانستان، فقد كان لا يريد أن يكون هنا، كما اعترف، بل في بيته بكازاخستان مع زوجته وابنته البالغة من العمر تسعة أعوام؛ وسيعود مع القافلة العائدة خلال ثلاثة أيام. وقد قضى في الجيش ١٣ سنة من أصل ٣٠ سنة، ولم يستطع أن يوفّر ما يكفي لابتياع سيارة، والسفر إلى الخارج، لأنه كان ضابطاً. كانت هذه طريقته في إبلاغي أن الحياة في الاتحاد السوفياتي كانت شاقّة، وأن حياته لم تكن ميسَّرة، وقد لا يكون الرفيق بريجنيف ذلك الرجل الطيّب. ألم يكن هو الذي أرسله إلى هنا، أولاً؟ وعندما كنت أطرح عليه أسئلة لا يقدر أن يجيبني عنها، كان يبتسم بموافقة صامتة على ما كان يريد أن يكون قادراً على البوح به.

في غمار هذا الجيش الكبير، يشعر المرء بإحساس كاذب بالراحة والدَّعة؛ حتى أن عيني الرائد «يوري» الشاحبتين كانتا تتفحَّصان حقول الثلج حولنا، وتنمّان عن ثقة خطرة بالنفس. لقد كان الأفغان يطلقون النار على الروس.

ولكن، مَن كان يستطيع أن يوقف هذا الجيش المدرَّع الجرَّار الذي يزحف عبر الثلج والجبال في أفغانستان؟ وعندما توقفنا عند نقطة تفتيش أفغانية، لا يتكلم مَنْ فيها الروسية، استدعى الرائد «يوري» أحد ضباطه الطاجيك، وطلب منه أن يترجم، ففعل وأشار الرائد إليه قائلاً: «إنه مسلم». نعم فهمت. لقد كان هناك مسلمون في الاتحاد السوفياتي، بل كثير منهم، وكان ذلك يمثل جزئياً بالتأكيد كنه هذا الغزو كله.

كان الثلج يُغشّي زجاج شاحنتنا الأمامي، ويطغى على قدرة المسَّاحات على إزالته؛ لكننا كنا نرى من خلال النوافذ الجانبية حقول الثلج المترامية الأطراف أميالاً وأميالاً. وكان الوقت إذ ذاك عند منتصف بعد الظهر، وكنا نكدح بسرعة لا تتجاوز ٢٥ ميلاً في الساعة، سرعة أبطأ الشاحنات؛ نتلوَّى على الطريق حاملين المؤن، والأغطية، والذخيرة الثقيلة، مع الدبابات والناقلات، مما يصل مجموعه إلى ١٤٧ شاحنة؛ محبوسين على الطريق العام المعبَّدة، المكسوّة بطبقة من الجليد، مما يجعل كل جندي سوفياتي هدفاً «للإرهابيين» في أفغانستان. أو هكذا بدا الأمر لرجال هذه القافلة ولي.

ومع ذلك فقد فاجأنا صوت بعض الطلقات حولنا. وكنا إذ ذاك شمالي «تشاركار». وقد مرَّت هذه الطلقات بين شاحنتنا والشاحنة التي تتقدم القافلة، محدثة انفجارات صغيرة تئز في البساتين المتجلدة الواقعة على يسارنا. فصرخ الرائد «يوري»: «إلى الخارج»، آمراً جنوده بالدفاع عن أنفسهم على الثلج، لا في محبس السيارات. أما أنا فارتميت في الأوحال والقذارات إلى جانب الطريق. وكان الجنود الروس يقفزون من شاحناتهم. وحصل مزيد من إطلاق النار. وكان هناك صراخ إلى الأمام على بعد منَّا في الضباب وبَرد الثلج. كما تصاعد عن يميننا عمود من الدخان الأزرق. واستمرّ الرصاص يمرّ فوق رؤوسنا، واخترقت إحدى الرصاصات مقدمة الشاحنة أمام السائق. وكان الجنود السوفيات منبطحين حولي على ركام الثلج الذي تذروه الرياح. وأفضى الرائد «يوري» بشيء إلى مَنْ قربه من الرجال، فانطلقت سلسلة من ردَّات الفعل

بواسطة رشاشات الكلاشينكوف. فهل كان الجنود يستطيعون رؤية مَن كانوا يطلقون النار عليه؟

خيَّم الصمت على هذا المنظر. وتحرّكت أشكال بشرية عن بعد على يسارنا، قرب شجرة يابسة. وكان «يوري» ينظر إلى البستان قائلاً بالإنكليزية: «إنهم يطلقون النار من هناك». ورمقني بنظرة فاحصة. لم يعد هناك متسع للحديث البسيط. أصغيت إلى طقطقة الراديوات، وصراخ الضباط يقاطع بعضهم بعضاً، ورأيت تلفّتات الجنود في الثلج. وكان الرائد «يوري» قد خلع قبعة الفرو وبدا شعره البنّي متراجعاً، وسحنته تدل على أنه يظهر بعمر يفوق الثلاثين سنة. قال لي: «راقب هذا يا روبرت»، وسحب من سترة الميدان التي يرتديها أنبوباً طويلاً يحوي نور إشارة، بينما وقفنا كلنا في أوحال الثلج التي تغمر رُكبنا، وشدّ «يوري» بحبل في أسفل الأنبوب؛ فحدث انفجار خفيف، وفاحت رائحة المتفجرات، وصعد حبل دخان إلى أعلى السماء. وشاهد ذلك الجنود العشرة الأقرب إلينا، وعرفوا أن حياتنا قد تتوقف على ذلك الصاروخ.

ولمَّا ارتفع حبل الدخان المرافق للصاروخ حوالى ألف قدم، تناثر منه سيل من النجوم. ولم تمرّ على ذلك خمسون ثانية حتى اندفعت من فوقنا طائرة «ميغ» سوفياتية نفاثة على علو متدنٍ خافضة جناحيها. وبعد دقيقة، دلفت إلينا ناقلة جنود رقمها ٣٦٨ تسحق الثلج تحت عجلاتها، وتوقفت أمام شاحنة الرائد «يوري»، وبرز منها رجلان. وطقطق الراديو، فأصغى إليه الرائد بصمت لحظات، ثم أشار إليّ بأربعة من أصابعه قائلاً: «لقد قتلوا أربعة من الروس في القافلة الأولى أمامنا».

بقينا على الطريق وراء القافلة الأولى. وصدر الأمر لصف من الجنود بالتقدم في الحقول إلى مسافة مئتي متر. وسمح الرائد «يوري» لرجاله بأن يتناولوا حصصهم من الطعام. وقد قدّم لي الضابط الطاجيكي المترجم الطعام؛ ولحقتُ به إلى شاحنته. جلستُ في الشاحنة مع جنديين آخرين؛ وأكلنا «بسكوتاً» جافاً وقطعاً ضخمة من اللحم النيء، نرفع قبعة الفرو عن وجهنا، وننهش الدهن المملح بالأسنان. وقد أُعطي كل جندي ثلاث برتقالات وعلبة

سردين تحوي ١٠٪ من السردين و٩٠٪ من الزيت. وكان الرائد «يوري» يقطع الطريق ذهاباً وإياباً، ويتحدث تلفونياً بالراديو، وعندما سرنا مع الدروع المرافقة لنا والموزعة على القافلة لم يكن الرائد واثقاً من موقعنا على الطريق. فاستعار مني خريطتي. وتبيّن لي فجأة أن هذه القافلة الطويلة لا تملك خريطة واحدة لأفغانستان.

لم تكن هناك من دلائل على الكمين الذي نُصب للقافلة الأولى، سوى قدمي رجل ميت وضعتا في سيارة جيب سوفياتية قرب «تشاركار»، وكتلة من الثلج الذائب بلون قرمزي وأرجواني على بعد عدة ياردات جنب الطريق. وزادت طبقة الجليد على الطريق بعد غياب الشمس؛ ولكننا كنّا نغذّ السير أكثر. وما أن جُنَّ الليل حتى سطعت أنوار الشاحنات الأمامية البالغ عددها ١٤٧ مثل اللآلىء على الثلج وراءنا. وقد قدموا لي بلطف رشاش كلاشينكوف مع أمشاط ذخيرته الكاملة؛ بينما انبرى أحد الجنود إلى فتح كبسة الأمان، وطلب مني أن أراقب من النافذة. لم تكن لي رغبة في حيازة هذا السلاح، أو في إطلاق النار على رجال حرب العصابات الأفغان. ولكن إذا هاجمونا من جديد، ووصلوا إلى شاحنتنا ـ كما كانوا يفعلون مع هذه القوافل ـ فلا بد أن يفترضوا أني روسي؛ ولن يسألوا اتحاد الصحفيين القومي عن هويتي قبل إطلاق النار على الجنود.

لم أمسك منذ ذلك الوقت بأي سلاح في زمن الحرب؛ وآمل أن لا أفعل ذلك أبداً. وطالما ألقيت اللوم على الصحافيين الذين يلبسون ثياباً عسكرية وخوذاً، ويمثلون دور الجنود ويتمنطقون بسلاح على أوراكهم، متجاهلين الحد الفاصل بين المراسل والمحارب، ويعرِّضون حياتنا للخطر، إذ تنظر إلينا الجيوش والميليشيات كامتداد لأعدائهم وكمحاربين محتملين، وكهدف عسكري. ولكني لم أتطوع للسفر مع الجيش الروسي. لم أكن أنا جُزءاً منهم، بل كنت سجينهم مثلما كنت ضيفاً عليهم. وكلّما مرَّت الأسابيع، تعلّم الأفغان تسلّق الشاحنات السوفياتية بعد حلول الظلام، ومهاجمة مَنْ فيها بالسكاكين. ومع أني لم أستعمل ذلك الرشاش، كنت أعلم أن إمساكي به سوف يحدث رد فعل من

قِبل كل ما هو عظيم وجيِّد في الصحافة. ورأيت من الأفضل الاعتراف بهذه الحقيقة لا حذفها من الرواية(*). فإذا كنت قد استحوذت على بندقية رشاشة للجيش السوفياتي، فتلك كانت الحقيقة.

مررنا ثلاث مرات عبر بلدات تجمهر فيها القرويون والفلاحون على جانبي الطريق ليراقبونا ونحن نمرّ. وكانت من الغرابة بمكان بالنسبة إليّ تلك الخبرة غير المسبوقة المتمثلة في جلوسي حاملاً بندقية رشاشة ضمن قافلة عسكرية سوفياتية مع جنود روس مدجّجين بالسلاح وغير مطّلعين، وأن أراقب أولئك الأفغان ـ وأكثرهم معتمرون عماماتهم، ومرتدون أوشحتهم الطويلة، وأحذيتهم المطاطية ـ ينظرون إلينا نظرة احتقار واشمئزاز. وكان هناك رجل يلبس سترة زرقاء واقفاً على مؤخرة شاحنة أفغانية، يرمقني بنظرات حادة. وكان ذلك أقرب ما رأيت من الحقد والمقت. صاح، ولكن صيحته ضاعت في زمجرة القافلة.

لم يكن الرائد «يوري» مشوَّشاً. وعندما قطعنا بلدة «كاراباخ»، أخبرته بأن الأفغانيين لا يبدون محبين للروس. وكان الثلج قد بدأ من جديد يتساقط بغزارة. فلم يرفع الرائد نظره عن الطريق، لكنه علّق على ذلك بقوله دون خبث: «إن الأفغان أناس بارعون»، وبقي صامتاً. وكنا لا نزال ننزل باتجاه كابول، عندما التفتُّ إليه من جديد متسائلاً عن سبب وجود الجيش الروسي في

(*) بعث «جيرالد لونغ» مدير «رويتر» من مكتبه في شارع «فليت» في لندن، برسالة إلى جريدة «التايمز»، يدينني فيها لحملي «كلاشينكوف»، قائلاً: «مهما كان كل شخص يدرك الغريزة الطبيعية للحفاظ على الذات، فقد كان عليه (أي على فيسك) أن يرفض حمل البندقية. وإذا كان علينا أن نحمي الصحافيين الذين يراسلون بشأن نزاع ما، فعليهم بدورهم أن يرفضوا حمل السلاح في جميع الظروف. وعلى المسؤولين عن سلامة الصحافيين أن يعطوهم تعليمات لتجنب ما يمكن تجنبه من مخاطر. فالخطر الذي يهدد جميع الصحافيين والناشىء عن حمل أحدهم سلاحاً، هو بنظري أكبر من الحماية المشكوك في أمرها التي قد يوفرها له حمل تلك البندقية». وبالرغم من غرابة التركيب النحوي لهذه الرسالة، فإني جدّ موافق على مضمونها. ولكن، كيف يُفترض بنا، نحن معشر الصحافيين، أن «نتجنب ما يمكن تجنبه من مخاطر» في أفغانستان؟ لقد كنت أحاول أن أذهب إلى «مزار» في سيارة باص، وليس إلى كابول في شاحنة ضمن قافلة سوفياتية.

أفغانستان. فكر الرائد في الإجابة دقيقة ثم ابتسم قائلاً: «لو كنت تقرأ جريدة «البرافدا»، لوجدت أن الرفيق بريجنيف قد أجاب عن هذا السؤال. لقد كان الرائد «يوري» محازباً حتى النهاية(*).

بدأت الأبواب تقفل في كابول؛ فقد طُرد جميع الصحافيين الأميركيين من البلاد. كما أصدر المكتب السياسي الأفغاني بياناً شجب فيه عمل المراسلين البريطانيين وسائر المراسلين الأوروبيين، ووصفه بأنه نوع من الطعن السياسي. وقد زارت الشرطة السرية السيد صمد علي. وكان «غافين» ينتظرني، متجهم الوجه، في ردهة الفندق. فلما رآني قال: «لقد هدَّدوا السائق بمصادرة أولاده منه، إذا سار بنا إلى خارج كابول». ووجدنا السيد صمد علي في اليوم التالي متمركزاً في صف سيارات الأجرة أمام الفندق، يبتسم معتذراً ويكاد يبكي. وكانت سِمة السفر في جوازي قد شارفت على الانتهاء؛ ولكن كان عندي خطة. فإذا سافرت بباص عليّ إلى «بشاور» في باكستان، قد أستطيع أن أدور وأجتاز الحدود الأفغانية عند ممر خيبر قبل أن توقف حكومة كابول إصدار السمات للصحافيين البريطانيين. وهناك أمل في أن يدعني موظفو الحدود أدخل إلى أفغانستان أكثر من رجال الشرطة المرابطين في مطار كابول.

وعلى ذلك، استقلّني الباص عبر ممرّ كابول، وبقيت فيه عندما قطعنا جلال أباد، وقد شعرت بالغرابة عندما اجتزت خط «دوراند» ووجدت نفسي في

(*) خلت رسائلي إلى جريدة «التايمز» من صورة لكن الرائد «يوري» التقط لي صوراً ليودعها في ملفه الخاص ـ أو لدى المخابرات الروسية (KGB) ـ ولم يكن لديّ صورة له. ولكن عندما عدنا إلى كابول، وسرت مجهداً عبر أكوام الثلج إلى بوابة القاعدة السوفياتية، لمحت قبعة روسية كاملة، مع شعار المطرقة والمنجل وغطاء الأذنين وحزامه، ملقاة على مقعد أحد السائقين، فخطفتها من الشاحنة وخبأتها تحت وشاحي الأفغاني. وبقيت لسنوات أريها باعتزاز في بيروت خلال سهراتي، كتذكار للقوة العسكرية السوفياتية. ولكن لم تمضِ عشر سنوات حتى انهار الاتحاد السوفياتي، وصار السائحون، بكل أسف، يتمكنون من شراء آلاف القبعات العسكرية المماثلة ـ مع قبعات أخرى للضباط السوفيات الرفيعي الرتب، مع مجموعات مداليات أيضاً غنمت في أفغانستان، من شارع «أربات» في موسكو بعدة «روبلات» فقط.

باكستان، التي كانت تبدو حرَّة، وتقريباً ديمقراطية، بعدما عانيت من توتر وأخطار في أفغانستان. وأعجبت بالريش الذي يعلو قبعات الجنود من فرقة رشاشات خيبر على الضفة الباكستانية من الحدود، ذلك الريش الذي كان أول رمز للحكم البريطاني. وقد شُكّلت تلك الفرقة منذ أكثر من مئة سنة، وهي مستترة في قلعة «شاغاي» مزيّنة بالفضة الإنكليزية القديمة، مع دفتر للتشريفات بتصرّف الزائرين، ممّا يعيد إلى الذهن أيام نواب ملك بريطانيا.

ولكن ذلك لم يكن سوى أوهام. فالرئيس اللواء ضياء الحق أنشأ حكماً دكتاتورياً إسلامياً، يوقع القصاص في الناس رسمياً بالبتر والجلد. لقد حكم حكماً عرفياً، وشنق غريمه الرئيس السابق «ذو الفقار علي بوتو» قبل سنة تقريباً في نيسان/أبريل ١٩٧٩. وبالطبع، رد على الغزو السوفياتي لأفغانستان بالتعبير عن مخاوفه من خطة الجيش الروسي بالتقدم نحو باكستان. وقد عمدت الولايات المتحدة الأميركية فوراً إلى إرسال أسلحة بملايين الدولارات إلى الدكتاتور الباكستاني، الذي أصبح «حرزاً ثميناً» في الحرب ضد الشيوعية.

ولكني كنت أشعر بنوع من الحرية في الباص الخشبي للسائق علي. وبينما كنا ننزل عبر ممر خيبر الرائع، رأيت حولي تذكارات من الفرق البريطانية القديمة التي حاربت على هذه الأرض لقرن ونصف، في الغالب ضد مقاتلي «باثان غازي» برشاشاتهم البدائية المسماة «جيزيل» (Jezail). وقد وصف هذا المكان أحد الكتاب البريطانيين عام ١٨٩٧ بأنه: «غريب، خارق للطبيعة... إنه وادٍ مميت». وهناك على الصخور الكبرى خلف الباص، كانت لوحات تذكارية تحمل أسماء الفرق العسكرية البريطانية مع شعاراتها ومدة خدمتها: فرقة المشاة ٤٠ مع ريشة خوذتها، وفرق «ليسستر شاير»، و«الدورستشاير»، و«التشيشاير»: فرقة «بيل فيسك» قبل إرساله إلى فرنسا عام ١٩١٨، وفرقة السيخ ٥٤ الحدودية. وكان الطلاء متقشراً عند الريشة التزيينية للكتيبة الثانية، ومنعدماً عند أسماء الفرق التالية: البلوش، واللانك الجنوبي، ومتطوعي أمير وايلز. وكان رجال قبائل الباثان المسلمون قد سحقوا شارات الفرقة الهندية التي تشمل ريشتها طاووساً متغطرساً. وكانت «الخربشات» قد غطَّت لوحة فرقة «ليسسترشاير

١٧» لعام ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩. أما النصب التذكاري النظيف من «الخربشات» والوحيد المصقول مجدداً، فكان لفرقة المرشدين الخاصة للملكة فكتوريا، المؤلفة أساساً من «الباثان»، التي أمر قائدها بإلباسها «الكاكي» بدلاً من القرمزي، والتي أوحى أعضاؤها الهنود إلى الكاتب «روديارد كبلنغ» بمؤلفه «كونغا دين».

كانت «بشاور» مدينة كبيرة جيَّاشة بالضباب والدخان ، بما فيه دخان عادمات السيارات، وأشجار «الجاكاراندا» الاستوائية المتوهجة، والمرجات الواسعة، والثكنات. وفي فندق «الأنتركونتيننتال» القذر هناك، وجدت مجموعة من موظفي التلكس، الذين اعتبرتهم كأنهم جريدة «التايمز» لإرسالهم تقاريري إلى لندن. ولم يكن ذلك مجرد كرم مني، فلو استطعت أن أعود وأدخل أفغانستان، فسيكونون في المستقبل شريان الحياة للجريدة. وكذلك السائق علي. جلسنا على مرجة الفندق، نحتسي شاي «الراج»، بإبريق صيني وصحن من الكعك المسطح المستدير، تشاركنا فيه طيور ضخمة تهبط من الأشجار لتخطف ما تيسر لها من هذا الكعك. وقد أكَّد علي لي «أن الروس لن يرحلوا يا سيد روبرت. ولذلك لدينا عرب هنا». وها أنا أسمع ثانية عن العرب هنا. ولكن علي لا يعرف أين هم في «بشاور»، إنما هناك مكتب لهم في المدينة. وقد أمر اللواء ضياء الحق جميع السفارات الباكستانية عبر العالم الإسلامي بإعطاء سمات سفر لأي شخص يريد أن يحارب الجيش السوفياتي في أفغانستان.

وعندما وصلت إلى مكتب الاستقبال في الفندق، كانت هناك بانتظاري مجموعة من رسائل التلكس، فقد تسلَّمت جريدة «التايمز» كل فقرة كتبتها. وقد اشتريت الجرائد اللندنية، وشربت ما فيها حتى الثمالة، مثلما أشرب بنهم مشروب «الجن والتونيك». وكان البوَّاب يلبس كمراً أي وشاحاً للخصر قرمزياً ملكياً عريضاً؛ وعلى جدار غرفة التلكس مقطع من قصيدة «لكبلنغ» في رثاء أبناء وطنه القتلى: «حساب على الحدود»، كتبها الشاعر للمدارس العامة، وأطَّر المقطع مدير الفندق الباكستاني؛ وجاء فيه:

مناوشة صغيرة في محطة حدودية،
متشرّد يهبط إلى ممرّ ضيّق مظلم،
ألفا «باوند» من التعليم،
تتضاءل إلى بندقية رشَّاشة تساوي عشرة روبلات.

جوقات قندهار

لم يتكلّم أحد عن بُغْض الروس، لأن الشعور الذي خالج الصغار والكبار كان أقوى من البغض. لم يكن كُرْهاً، لأنهم لم يعتبروا الكلاب مخلوقات بشرية؛ لكنه كان نفوراً واشمئزازاً وارتباكاً إزاء القسوة العديمة الشعور لدى هذه المخلوقات...

ليو تولستوي، في «حاجي مراد»

لا تزال تنتاب «بشاور» أشباح الحكم البريطاني. ففي المكتبات، وجدتُ مئة نسخة من المعاجم الجغرافية، والمذكَّرات الإنكليزية. وكان مؤلَّف «السير روبرت وربورتون» المسمّى «١٨ سنة في خيبر» موضوعاً إلى جانب حكايات «ووسمان ميلز» المعنونة: «السلوك النبيل للسباهيين (أي الهنود المجنّدين في الجيش البريطاني)، و«التضحية بواحد وعشرين سيخيّاً»، و«كيف يموت الضبّاط البريطانيون». بينما تتحدّث مؤلّفات أخرى عن أمجاد «السير بندن بلود» الذي تعرّض أحد مرؤوسيه من الضبّاط «ونستون تشرشل» لكمين نصبه له الباثانيون في تلال «ملقند» إلى الشمال من «بشاور»(*).

ولم تكن في «بشاور» أشباح فحسب؛ بل كان هناك أيضاً أموات البريطانيين

(*) وكالعادة، احتفظ تشرشل بأفكاره الخاصة لجملته الأخيرة: «أصيب رجل في صدره، وكان الدم يتدفق منه، واستلقى آخر على ظهره يرفس ويتلوَّى؛ وكان يدور خلفي ضابط بريطاني، ووجهه ملطخ بالدماء، وعينه اليمنى مقلوعة. نعم لقد كانت تلك مغامرة».

الذين لم يتيسّر نقلهم إلى بلادهم، خلافاً لوضع المحتلين الروس لأفغانستان اليوم. وعلى طرف من أطراف «بشاور»، كانت ترقد مقبرة بريطانية تروي النقوش على شواهد قبورها المزخرفة قصة الإمبراطورية.

لنأخذْ مثلاً الرائد «روبرت روي آدامز»، نائب التويسيير في مقاطعة البنجاب. كان راقداً بجانب طريق خيبر، الوادي الذي تسير فيه الحمير المحتجَّة، التي ترن أجراسها على جدران المقبرة. وبحسب النقش المحفور على القبر، استُدعي الرائد «آدمز» إلى بشاور، «كضابط نادر الكفاءة للعمل على الحدود. إنه حكيم وعادل وشجاع، ومخلص في كل الأمور؛ جاء ليموت في مركز عمله بيد قاتله». لقد قُتل بتاريخ ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٦٥؛ وليس من دلائل على سبب مقتله؛ كما أنه ليس هناك من تفسيرات على القبور الأخرى. وفي عام ١٨٩٧ مثلاً، لقي «السير سبيرينغ روس» المصير ذاته، «قتل بيد متعصب في مدينة «بشاور» في «يوم الغفران». وعلى بعد أقدام قليلة من قبر «روس»، يرقد «باندزمان تشارلز لايتون» من الكتيبة الأولى وفرقة هامشاير «اغتيل بيد شخص «غازٍ» في هذه المحطة يوم الجمعة العظيمة». ربما كانت السياسة تُترك جانباً عند الموت، مع أنه يستحيل تجاهل الشبه بين هذه الشواهد الحانقة واللغة التي تستعملها الحكومة السوفياتية. إن رجال القبائل الأفغان الذين قتلوا البريطانيين، لهم أحفاد كبار اليوم يدينهم «الكرملين» لأنهم «متعصبون» ـ ويسميهم راديو موسكو «إرهابيين». ويبدو أن كل إمبراطورية تتكلم تماماً مثل الأخرى.

وفي سبيل الإنصاف، وضع البريطانيون موتاهم في سياق تاريخي. فتحت خميلة من أشجار الورد، وزقزقة الطيور الاستوائية يرقد الجنود: «هايز»، و«مال لويد»، و«ساندج»، و«دوويز» الذين قضوا في «بشاور» خلال اضطرابات الحدود ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨. وليس بعيداً عنهم، يرقد الملازم «بيشوب» الذي «قتل في الميدان في «شوبكودر» في اشتباك مع قبائل التلال ١٨٦٣». وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة. ولقي المصير نفسه في «كاشا غارهي» عام ١٩١٩ الملازم «جان لندلي غادلي» من الفرقة ٢٤ الرشاشة، والملحق مؤقتاً بالفرقة ٢٦٦ للمدافع الرشاشة.

وكانت هناك طبعاً قبور أخرى، أكوام بريئة مع شواهد صغيرة تضم الضحايا التي لا يمكن تفاديها لكل تدجين تقوم به الإمبراطورية. ومن تلك الضحايا: «بياتريس آن»، وعمرها سنة و١١ شهراً، الإبنة الوحيدة لقائد الفرقة الموسيقية والسيدة «پيلكينغتون»، التي ترقد في مقبرة الأطفال مع «باربارا البالغة من العمر سنتين، إبنة العريف والسيدة پ. ووكر»، ماتت قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام عام ١٩٢٨. وقد مات بعض الأطفال وهم أصغر من أن يعطوا أسماء. وكان هناك أيضاً شباب ماتوا بسبب الحر والمرض. فالجندي «تايدي» من «ساسكس» الأولى قضى بضربة حر؛ والجندي «وليامس» بحمّى في الأمعاء. و«صامويلز» من الخدمة المدنية البنغالية قضى نحبه بسبب حمّى التقطها في أفغانستان. وماتت أثناء الخدمة الفعلية، الرئيسة «ماري هول» من خدمات التمريض العسكرية للملك ألكسندر ـ التي عملت في سالونيكا وبلاد ما بين النهرين، بما في ذلك ربما حملة «غاليبولي» في تركيا، فضلاً عن الغزو البريطاني للعراق خلال عام ١٩١٧.

وكانت هناك أيضاً أضرحة غير منتظَرة. فقد كان هناك مرقد للمحترم «كورتني پيفرلي» المدير الرسولي «لكشيير وكافيرستان»، الذي عمل بجهد، نظراً لأنه كانت هناك كذلك بالإضافة إلى شواهد قبور البريطانيين، أمكنة جديدة لدفن آخرين من الجالية المسيحية التي لا تزال في «بشاور»، ترفرف عليها أعلام حمراء وصلبان من ورق مزينة بحسب الطراز القبائلي، قرب القبور المحفورة حديثاً. وكان كثير من تلك القبور العائدة لأبناء الامبراطورية يعبّر عن إيمان يفهمه أي مسلم، إذ إنه المفضل من كتاب الوحي: «فليبارك الله الموتى الذين يقضون نحبهم في سبيل الله». وكان هناك صليب غاليّ فوق رفات الملازم «وولتر أيرفاين» من شرطة الحدود الشمالية الغربية «الذي فقد حياته في نهر «ناغومان» ، عندما كان يقود فرقة بشاور للمطاردة. ولن يحظى أي جندي روسي بمثل هذا النصب الرومانسي. فعلى قبور الجنود السوفيات الذين يموتون الآن ويدفنون شمالي هذه المقبرة، يكتب بأنهم قضوا أثناء قيامهم «بواجبهم الدولي».

ولكن عميل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) المحلّي، كان يعي معنى ذلك. كان رجلاً نحيلاً مهذاراً يحتلّ مركزاً إسمياً في القنصلية الأميركية الواقعة

في المنحدر بعد فندق أنتركونتيننتال في «بشاور»، وكان من عادته أن يقيم حفلات مضجرة في دارته، ويُري ضيوفه شريطاً هزلياً حول حرب فيتنام. وفي تلك الأيام، كنت لا أزال أخاطب الأشباح، فزرته في إحدى الأمسيات، عندما كان يستقبل مجموعة من الصحافيين، ويُري كل واحد منهم بطاقة هوية سوفياتية، قائلاً عن صاحبها الملذوع الوجه والظاهر في صورته غير الملوَّنة: «إنه وسيم الطلعة؛ إنه طيَّار أسقط طائرته المجاهدون وصادروا أوراقه. ومن المؤسف أن يقضي شاب كهذا نحبه على هذه الصورة المأساوية». لم أهتم بدموع التماسيح التي ذرفها عميل المخابرات هذا، لكنني توقفت عند عبارة إسقاط الطائرة، وبماذا أسقطت. فهل لدى رجال حرب العصابات صواريخ أرض ـ جو؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن يزوّدهم بها: الأميركيون، أم السعوديون، أم الباكستانيون، أو أولئك العرب المكتنفون بالأسرار؟ لقد رأيت آلافاً من الروس، ويبقى عليّ أن أرى رجلاً من رجال حرب العصابات عن كثب في أفغانستان. ولكني لن أنتظر طويلاً حتى أراه.

عاد باص علي إلى الحدود بعد ظهر يوم دافىء، واجتزتُ خط «دوراند» إلى كشك قذر على الحدود. نظر حارس الحدود إلى جوازي وقلبه بإبهامه. ثم توقف ليدقق في إحدى الصفحات المستخدمة من هذه الوثيقة. وكالعادة. كنت قد سجلت كلمة «ممثِّل» لمؤسسة على بطاقة الهجرة. ولكن ذلك الرجل النحيل طقّ بلسانه قائلاً: «صحافي، إرجع إلى باكستان». كيف عرف أني صحافي؟ كانت هناك تأشيرات سفر إلى البلدان العربية في الجواز الذي عرّف عليّ بأني صحافي؛ لكن الموظف الأفغاني لا يعرف العربية ولا يدرك معنى صحافة وصحافي. وعلى الأثر، دفعتني جماعة من الرجال، فرجعت خائباً إلى عليّ. والظاهر أن إحدى التأشيرات التي حصلت عليها للسفر إلى أفغانستان كانت ممهورة بكلمة «خبناغر» التي تعني باللغة الفارسية أو الداريَّة «صحافي»، والداريّة إحدى اللغات الأفغانية، لسوء حظي.

رجعت بسيارة أجرة إلى «بشاور»، وأرسلت خبراً إلى جريدة «التايمز» مفاده أني في مأزق. ولكن عاد عليّ إلى فندقي في اليوم التالي قائلاً: دعنا نجرب

مرة ثانية، يا سيد روبرت... ثق بي». لملمت حوائجي، وركبت سيارته الصدوقة، وتوجهنا من جديد نحو الحدود. وكان ذلك يبدو كأنه صورة عملية عن مؤلِّف «استمرّ في ممرّ خيبر»؛ لكنّ عليّ كان واثقاً من نجاحنا بشكل مستغرب. تراخيت على مقعدي تحت شمس بعد الظهر، بينما كان الباص يئنّ صاعداً المنعطفات الحادة للطريق. هناك شيء غريب مثير للأعصاب عند محاولة تجاوز الحدود دون موافقة السلطات. وقد اختبرت هذا الأمر، كما اختبره «غافين»، عند كل نقطة تفتيش وتدقيق في أفغانستان. هل سيدعوننا ندخل، أم سيرجعوننا، أم سيلقون القبض علينا؟ ألم تكن هذه حال أبطال المقاومة في أوروبا التي احتلها الألمان مع الحراس الألمان؟ ومع أننا لم نكن أبطالاً ولم يكن الحراس الأفغان كالألمان، فقد كان من اليسير أن نشعر بالإثارة والخوف، عندما وصلنا للمرة الثانية إلى ذلك الكشك الكهفي على الجهة الأفغانية من الحدود.

ولم أكد أقف حتى جاء علي إلى مقعدي وطلب مني جوازي مع خمسين دولاراً أميركياً. ثم اختفى. وما غاب سوى عشر دقائق حتى عاد متهللاً يبشرني باستمرار رحلتي إلى جلال أباد، وهو يعيد إلي جوازي الممهور. ثم طلب خمسين دولاراً أخرى لأنه تصدق بالأولى على رجل فقير. أجل، لقد غزا الروس تلك البلاد، لكنهم لن يتغلبوا على المؤسسة الأكثر فعالية وفساداً من جميع المؤسسات بين البحر الأبيض المتوسط وخليج البنغال، ألا وهي: الرشوة. فرحت أيّما فرح، وضحكت من كل قلبي، وصرت أغنّي لنفسي على طول طريق جلال أباد؛ فضلاً عن أني رتَّبت مع علي أن يأتي كل صباح إلى فندق «سبينجهار» ليحمل تقاريري وينقلها إلى «بشاور» ـ ثم يعود إليّ بعد الظهر بما ترسله إليَّ «التايمز» من رسائل عبر باكستان؛ بينما أنا أختبىء في الفندق بعيداً عن أعين السلطات.

ولم يكن عليّ أن أقلق؛ فكل ليلة يقترب المتمردون من جلال أباد. فمنذ أربعة أيام نسفوا جسراً خارج البلد، وفي أول ليلة بالذات فتحوا النار طول الليل على دورية أفغانية من البساتين الواقعة خلف الفندق. وقد استلقيت في

فراشي ساعة بعد ساعة، وأنا أسمع طلقات المدافع الرشاشة تتجاوب في بساتين البرتقال، وتنفِّر الطيور الإستوائية الصارخة في الليل البهيم. ولكن ما إن يطل الصباح، حتى تبدو كل تلك المعارك حلماً من الأحلام، إذ تستعيد جلال أباد دورها كمدينة حدودية يغشاها الغبار، وتفتح أسواقها لتروِّج للقماش الباكستاني البسيط النوعية، والخُضَر، بينما يحرس السوق جنود أفغان بشكل بارز، وهم يتكئون على رشاشاتهم البريطانية القديمة من نوع «لي إنفيلد». وكنت أستأجر عربة بدولابين لأتجول خارج المدينة، وأرى بعض آثار الحوادث، مثل دبابة معطَّلة، أو مكتب حكومي محروق، ثم أطبع تقريري عن القتال الجاري، ليأتي علي في منتصف الصباح ويأخذه، على باصه الذي ينزل سبعمئة قدم ليصل من كابول إلى «بشاور».

وكانت مقاهي الشاي «الشاي خانة» القائمة في أكشاك على طول الشارع الرئيسي تعجّ بسائقي الشاحنات، وكثير منهم من قندهار؛ وكلهم يتحدثون عن ازدياد المقاومة عبر البلاد. وفي جنوبي قندهار، أخبرني رجل أن القرويين أوقفوا بعض مهندسي البناء الروس وقتلوهم طعناً بالسكاكين، ممَّا يمكن أن أصدقه. فمهما قيل عن شجاعة المجاهدين ـ وشجاعتهم لا يرقى إليها الشك ـ فقد كانوا أيضاً متوحشين. ولم أكن بحاجة إلى رواية «توم غراهام» الخيالية عن مصير رمَّاحي الفرقة السابعة لأدرك ذلك. كما قال لي شاب على فنجان شاي ذات صباح: «إننا سنحتلّ جلال أباد؛ لقد انتهى أمر الروس هنا». كما قال طالب يافع آخر: «سيحتل المجاهدون جلال أباد الليلة أو غداً. وكان يحمل على زنده الصقر الطائر المفترس الذي يصطاد أبوه بواسطته. أعجبت بتفاؤله، وليس بتحليله العسكري.

وكانت مثل هذه الآراء شائعة أيضاً في صفوف الجيش الأفغاني، فبينما كنت في مطعم قذر قرب مركز البريد، صادفت جندياً خارج الخدمة يجلس إلى طاولة قريبة مني، كان يأكل دجاجاً سيىء الطهو، بسكين وشوكة غير عاديتين: قال: «لا نريد أن نحارب المجاهدين ـ ولماذا نقاتلهم؟ كان للجيش مجندون محليون من هنا؛ ولكنهم انضموا إلى المجاهدين. ولذلك جاءت الحكومة بنا

من هرات ومن أماكن أخرى في شمالي أفغانستان. لكننا لا نريد أن نحارب هؤلاء الناس. إن المجاهدين مسلمون، ونحن لا نطلق النار عليهم». وكان الشاب يتشكّى بمرارة من أن رئيسه الضابط رفض أن يسمح له بزيارة عائلته في هرات الواقعة على بعد ٧٥٠ كيلومتراً من الحدود الإيرانية. وفي سورة غضبه رمى السكين والشوكة على الطاولة، ونهش الدجاج بيديه، بينما كان الدهن يسيل على أصابعه، وقال أخيراً: «لقد انتهى أمر جلال أباد».

وممّا لا يصدق أيضاً، أنه في ذلك الصباح بالذات، حاول الطيران الأفغاني إخافة السكان بإرسال أربع طائرات «ميغ ١٧» لتطير على علو منخفض فوق المدينة. فرعدت فوق الجادّة الرئيسية، وهزت أوراق النخيل بصوت محركاتها النفاثة. وخلّفت وراءها صمتاً، لا يقطعه سوى شتائم الرجال الذين يحاولون تهدئة أحصنتهم المرعوبة. وكانت طائرات «ميغ ٢٥» الضخمة تنطلق من مطار جلال أباد الصغير كل صباح، وتتسابق فوق البلد، لتطلق مدافعها الرشاشة على القرى في جبال «تورا بورا». وبينما كنت أتسوق رأيت تلك الطائرات تطير على بُعد بضع أقدام فوق السطوح؛ وكنت إذا رفعت رأسي أرى أيضاً ربّان الطائرة، والمدفعي، والصواريخ المعلّقة عند حُجيرة الوقود تحت الطائرة؛ فضلاً عن نجمة كبيرة حمراء ساطعة ظاهرة على جسم الطائرة، ومذهَّبة الأطراف. إن مثل هذا العرض للقوة لم يكن منتجاً. ولكن خطر ببالي أن المقصود من هذه الوسائل حرمان رجال حرب العصابات من الوقت الكافي لاستعمال صواريخ الأرض ـ جو التي بحوزتهم. وكان على ربابنة الطائرات الأميركيين بعد ٢٣ سنة أن يستعملوا الوسائل ذاتها لتفادي الصواريخ في العراق.

وحتى لو كان هناك تفاهم عسكري بين الجيش الأفغاني والمجاهدين، فقد عرف المتمردون كيف ينالون من الحكومة. فقد أحرقوا حتى الآن معظم المدارس في القرى المجاورة، على أساس أنها مراكز للإلحاد والشيوعية. وقد اغتالوا معلمي المدارس، فضلاً عن قتلهم التلاميذ خطأ بالرصاصات ذاتها التي أصابت المعلمين. وهكذا، لم يكن المجاهدون محبوبين بشكل عام كامل. وإن نصبهم الكمائن للسيارات المدنية على الطريق الغربية ـ بعد أسبوعين من قتلهم

سائق شاحنة ألمانياً ـ لم يزد في أمجادهم. مع العلم أن المجاهدين كانوا يسكنون في القرى ـ حيث كان يهاجمهم الروس. وبتاريخ ٢ شباط/فبراير، شهدتُ انطلاق أربع مروحيات حربية في الغسق لمهاجمة قرية «كاما»؛ ورأيت بعد ثوانٍ أعمدة من النار تتصاعد في الظلام.

كنت أذهب كل صباح عند الساعة الثامنة إلى مقاهي الشاي، حيث يخبر أصحابها هذا الإنكليزي الغريب الأطوار، عمّا حصل من دمار خلال معارك الليل. فأنطلق إذ ذاك في عربة بدولابين إلى مكان الحوادث. وقد وصلت ذات صباح باكراً إلى موقع جسر نسفوه ليلاً، وكان على طريق كابول؛ وقد أوقفت الحفرة الكبيرة التي أصابت الجسر تقدم الجنود الروس وتحركهم بين جلال أباد والعاصمة؛ بينما بدت الإثارة على الحشد الذي جاء ليعاين الأضرار.

وتقدم مني أحدهم قائلاً: «شوروي» أي روسي؛ فارتعبت. فلو ظن أني روسي لأنهى حياتي. فجأرت: «إنكلستان، إنكلستان»، وأنا أبتسم ابتسامة عريضة. فأومأ برأسه إيجاباً وعاد إلى الحشد يبلغهم الخبر. وبعد دقيقة، جاءني رجل آخر يتكلم بعض الإنكليزية: «من أين أنت، من لندن؟». فأجبت بالإيجاب، وأنا أشك في أن يكون لدى أهل قندهار معرفة تذكر عن «شرق فارلاي» على ضفاف نهر «مدواي» في «كنت». فعاد الرجل إلى الحشد بتلك الأنباء. ثم عاد بعد لحظات قائلاً: «يقولون إن لندن محتلة من قبل الروس». فلم أحبّ ذلك، إذ لو كانت لندن محتلة من قبل الجيش الروسي، لكنت أنا هنا مأذوناً من الروس ـ أي متعاوناً معهم. صرخت: «كلا، كلا. إن إنكلستان حرة، حرة، حرة. وسنقاتل الروس إذا جاؤوا إلينا». وكنت آمل أن تكون ترجمة الرجل إلى لغة «البوشتو» أدق من معرفة الحشد بالجغرافيا السياسية. وبالفعل، علت الابتسامات الوجوه بعدئذ، وحيّوا بسالة بريطانيا المفترضة. وقال الرجل: «إنهم يشكرونك لأن بلادك تقاتل الروس».

ولم أفهم ما حدث، إلّا عندما كنت عائداً إلى جلال أباد بعربتي ذات الدولابين، التي تخبّ بي على الطريق. فبالنسبة إلى هؤلاء الفلاحين، تعتبر مدينة كابول مدينة بعيدة عنهم، وربما لم يزرها معظمهم أبداً؛ مع أنها لا تبعد

عنهم سوى مئة كيلومتر. وكذلك الأمر بالنسبة إلى لندن؛ ومن المعقول جداً في هذه الحال أن يفترضوا أن الروس يسيِّرون دورياتهم في ساحة «ترافلغار». عدت إلى جلال أباد منهوك القوى، وجلست على أريكة منتفخة في أحد مقاهي «الشاي خانة» الواقع على مقربة من فندق «سبينجهار». وكانت الوسائد مكوّمة تحت وشاح؛ ولما بدأت أحاول ترتيبها، جاءني صاحب المقهى، يلوّح برأسه ويشبك يديه قائلاً: «يا سيد... من فضلك». ونظر إلى الأريكة ثم إليّ قائلاً: «هناك عائلة جلبت جثة رجل مسنّ إلى المدينة من أجل دفنه، لكن عربتهم تعطلت وذهبوا ليصلحوها، وسيعودون ليأخذوا الرجل الميت». وقفت عندئذ معزياً. فوضع يده على ذراعي، كما لو كان هو المهتم بالميت، وقال: «آسف»؛ فأصررت بأني أنا الآسف. ولهذا السبب وضع كرسياً قرب الجثة المغطّاة، كما أظن، ثم قدَّم لي فنجان الشاي الصباحي المعتاد.

وفي الليل الآن، لاحظت مجيء الشرطيين المحليين وقادة الحزب إلى فندق «سبينجهار»ليناموا، قبل حلول موعد منع التجول في الساعة الثامنة مساء. كانوا قلقين، يرتدون ثياباً سمراء ونظارات داكنة، إذ يصعدون إلى ردهة الطابق الأول ليتناولوا الشاي قبل خلودهم إلى النوم. ويتبعهم شباب يحملون رشاشات آلية، ويصلصلون بها باستمرار على الدرابزين. وقد يدعونني أحياناً أعضاء الحزب إلى المشاركة في الطعام، ويسألونني بإنكليزية جيدة عمّا إذا كان الجيش الروسي سينصاع إلى طلب الرئيس كارتر بالانسحاب. كانوا مهووسين بالخصومات الحزبية الصغيرة اللدودة في كابول. وقد اعترف أحد الملازمين المسمّى محمد إقبال الذي أقرَّ بأنه شارك في مقتل الرئيس الشهيد نور محمد طرقي، إذ قال إنه مع عضوين آخرين من شرطة القصر الأفغان تلقوا أمراً بقتل طرقي أصدره «الجزار» أمين؛ فأمسكوا بالرجل المسكين، وأوثقوه، وطرحوه على فراش، ثم خنقوه بوسادة ضغطوها على وجهه، ثم حفروا له قبراً وغطّوه بصفائح معدنية من دكان أحد الخطّاطين.

كان أعضاء الحزب ودودين إلى درجة أنهم دعوني إلى مقابلة حاكم جلال أباد. وهو رجل في منتصف العمر، مستدير الوجه، أبيض الشعر قصيره، يلبس

نظارة تقليدية غليظة الإطار. إنه «محمد زياراد»، الذي كان سابقاً مدير تصوير في شركة أفغانية للصوف، والذي لا يكاد يجد وقتاً وجهداً لمقابلة زوار الصباح الذين يفدون على مكتبه. فقد كان هناك قائد الشرطة الذي يقدم تقريراً عن الأضرار التي نتجت عن قتال الليلة الفائتة؛ وآمر الجيش الأفغاني المحلي الذي يبرز كومة كبيرة من تقارير مخيفة عن الحوادث، وهو يرتدي سترة قصيرة أصغر من حجمه بكثير. كما أن حشداً صاخباً من المزارعين اقتحموا المكتب مطالبين بتعويضات. وكان الهاتف يرن كل دقيقة، لتقديم مزيد من التقارير عن تخريب في القرى؛ مع أنه كان عسيراً على السيد «زياراد» أن يسمع صوت المخابرين بالتلفون، نظراً لخفقان طائرة مروحية حربية كانت تحوِّم فوق الأشجار وراء نافذة الخليج. لقد كانت تلك ليلة ليلاء.

ولكن كل ذلك لم يفتّ في عضُد حاكم جلال أباد، ولم يطغَ عليه، إذ قال: «لا داعي للمبالغة في النظر إلى هذه الأحداث بشكل دراماتيكي». وكأن معارك إطلاق النار ليلاً جزء لا يتجزأ من حياة كل امرىء لسنوات. كان يرتشف الشاي وهو يوقع التقارير، ويمزح مع ملازم في الجيش، ويأمر بإخراج أحد الشحّاذين الذي اقتحم الغرفة طالباً بعض المال. ويستأنف حديثه قائلاً: «إن الثورات متشابهة؛ ونحن نساند الثورة، بالكلام وبالقتال، وبالتحدث سلبياً عن أعدائنا الذين يحاولون إثارة ثورة مضادَّة؛ فنحمي أنفسنا منهم. لكننا سنربح».

وإذا ظهر السيد «زياراد» متفلسفاً قليلاً على هواه في موقفه من الثورة الاشتراكية، فذلك لأنه ليس عضواً في الحزب. فقد تفادى عضوية «الپارشام» و«خلق» كليهما. وكان تنازله للثورة عبارة عن احتفاظه على طرف مكتبه بنموذج فضّي لطائرة ميغ مقاتلة. وقد اعترف بأن المتمردين يحدثون مشاكل بقوله: «لا نستطيع أن نمنعهم من أن يطلقوا النار، وأن ينسفوا الأسلاك الكهربائية وأنابيب الغاز، وأن يفجِّروا القنابل ليلاً. وإذا كانوا يحاولون الاستيلاء على جلال أباد، ويقتربون من المدينة، فإنهم لن ينجحوا».

وهنا، خطَّ السيد «زياراد» رسماً بيانياً على الورق فوق مكتبه؛ ظهرت فيه

دائرة تمثل جلال أباد، وسلسلة من الأسهم المتوجهة نحو الدائرة دلالة على هجوم المتمردين. ثم خطّ سلسلة أخرى من الأسهم صادرة عن دائرة جلال أباد، وقال باعتزاز: «هذا هو الهجوم المضاد الذي سنقوم به. وقد اختبرنا هذا الأمر سابقاً، وحصلنا على النتائج ذاتها. وعندما يصل العدو إلى مركز جلال أباد، فإن أفراده يتراصّون، بحيث تستطيع قواتنا أن تصيبهم بمزيد من السهولة، ثم نقوم بهجومنا المعاكس، ونطردهم». يا له من مستغرب عقار الأمل الخدَّاع هذا، لقد كنت أسمع هذا التفسير من عدد من الحكام والمجندين عبر الشرق الأوسط خلال ربع القرن القادم ـ من الغربيين والمسلمين على السواء ـ وكلهم يصرُّون على أنه كلما ساءت الحال، تحسّن الوضع في النهاية.

وادَّعى السيد «زياراد» أنه لم يُقتل خلال الأسبوع المنصرم سوى ثلاثة جنود أفغان في القتال الذي دار حول المدينة. وبالنظر للهدنة غير المعلنة بين الجيش والمجاهدين قد تكون إحصاءات الحاكم صحيحة. لكنه أنكر من جهة أخرى، أن يكون في جلال أباد جنود سوڤيات ـ ما عدا بعض المستشارين الزراعيين والمعلمين، متجاهلاً الألف من الجنود السوفيات القابعين في ثكناتهم خارج المدينة؛ ولم يكن مهتماً بالوجود الروسي في بلده، بل «إن جماعات قطاع الطرق والمالكين الإقطاعيين الذين انتزعت منهم أملاكهم بالقرار السادس، هم المشكلة؛ بالإضافة إلى مساعدة يتلقونها من تلاميذ الإمبريالية. إن هؤلاء يتدربون في مخيمات تقع في باكستان. وقد علَّمهم الإمبرياليون كيف يرمون القنابل اليدوية، ويطلقون الألغام»، بحسب قوله.

كان الحاكم يزور القرى المجاورة خلال النهار برفقة ثلاثة جنود، ليتفقد التقدم الحاصل في إصلاح الأرض، والنظام الجديد في جلال أباد المتعلق بالريّ. ولكنه يتفهم كيف أن الإصلاحات الجديدة أورثت العداء. قال: «لقد أكَّدنا أن جميع الرجال والنساء لهم حقوق متساوية، وأنهم يتلقون التعليم ذاته. ولكن تبيّن أن لدينا مجتمعيْن في بلادنا: مجتمع المدن ومجتمع القرى. فأهل المدن يقبلون التساوي بين الجنسين، لكن أهل القرى أشدّ محافظة. وربما سرنا

في إصلاحنا أحياناً أسرع من اللزوم. فلا بد من مرور الزمن كي تتحقق أهداف ثورتنا».

وقد ضاعت كلمات السيد «زياراد» الأخيرة، ونحن خارجون من مكتبه في صوت الرعد الصادر عن أربع مروحيات حربية تتسابق فوق السوق، وتثير غيوماً من الغبار قرب بيوت الطين ذات الطبقة الواحدة. سألني الحاكم عمّا إذا كنت أرغب في الرجوع إلى الفندق بسيارته، فنظرت في وجوه الناس الغاضبة وهم يحدقون في المروحيات، وفضلت أن أعتذر عن استعمال سيارة الحاكم. ولكن الشرطة في فندق «سبينجهار» صاروا أكثر فضولاً. فهم يريدون أن يعرفوا كم سأبقى في جلال أباد، ولماذا لم أذهب إلى كابول. لقد حان الوقت لكي نترك جلال أباد «تهدأ»؛ أو كما قال «غافين»: لا تكن جشعاً(*).

ولكن الروس هم الذين كانوا جشعين؛ إذ أرسلوا مئات من الجنود الإضافيين إلى كابول. على أسطول من طائرات «أنطونوف»، مع مركبات مدرَّعة برمائية جديدة. وفي بعض الثكنات العسكرية، تمّ ضمّ جنود روس وأفغان معاً في وحدات مشاة، لتقوية معنويات الجيش الأفغاني، بحسب ظنهم. أما الشاحنات الأفغانية الجديدة، فقد نقلت قوات أفغانية، لكن السائقين كانوا من الروس. وتوالت خطابات الرئيس كارمال التي هاجم في أحدثها من سمَّاهم: «القتلة، والإرهابيين، وقطاع الطرق، والعناصر المخرِّبة، والسارقين والخونة، والمأجورين». وما لبث بعد أكثر من شهر على الغزو السوفياتي، أن وجَّه «جماعات المقاومة المتطوعين» لحراسة الطرقات والجسور والقوافل ـ ضد المقاومة الصحيحة الأقوى طبعاً ـ مما يبرهن على خطورة مشكلة المتمردين الآن، واتساع المناطق التي باتوا يسيطرون عليها فعلاً.

(*) لمَّا كنت قلقاً على عليّ لئلا يلزموه بتسليم ملفي على طريق «بشاور»، أرسلت إلى «التايمز» رسالة منحرفة بشأن رجال الشرطة تقول إني أعاني من صداع، كإشارة إلى ما عاناه «جورج سيمينون» مفتش الشرطة الفرنسي المشهور. ولكن في زمن الحرب، يجدر بالصحافيين أن لا «يتشاطروا». وبالفعل أوصلت رسالتي إلى مكتب (CBC) في لندن؛ وجاءني منه الرد السريع بأنهم يتعاطفون مع الألم الذي ألمّ برأسي.

ولكن الروس لم يستطيعوا أن يحموا رجال العصابات، أو أن يعطوا الأمل للقرويين الأفغان بأن بقاء الروس سيحسِّن حياتهم. فقد انقطعت مناطق كبيرة من أفغانستان عن تلقي معونات الحكومة الغذائية؛ وكان الروس يرسلون بالطائرات شحنات من الحبوب ـ وحتى التراكتورات ـ إلى كابول، بينما ظهر أحد قادتهم الكبار في قاعدة «باغرام» الجوية، مدعياً أنه لم يبقَ من الإرهابيين إلَّا بقايا في الجبال. هذه البقايا المسماة «باكوياي» باللغة الداريَّة، صارت الكلمة الشائعة لوصف المتمردين على الراديو الأفغاني. ولكن «إصلاح» أفغانستان في هذه الظروف بات مستحيلاً. كانت الحكومة تخسر. ولم يكن الأمر سوى مسألة وقت. وصار كلام الحكومة عن النصر أقل مصداقية عند الناس باستمرار. وفي ردهة فندق «أنتركونتيننتال»، أخبرني دبلوماسي بولندي بأنه يعتقد أن الروس يحتاجون إلى مئتي ألف جندي ليربحوا حربهم(*).

وكان رجال كارمال قد أغلقوا مساجد العاصمة باعتبارها مراكز للمقاومة. وقد التقيت في مركز كابول إمام مسجد «پوليخيشتي». وهو رجل قصير القامة شاحب الوجه نحيله؛ تنمّ قسماته عن همٍّ وقلق. وقد رفض أن يعطي اسمه، ولم يُجب عن أبسط الأسئلة حول حياة الناس. وصل قبل صلاة الفجر بدقيقة واحدة، يمشي بسرعة عبر باحة المسجد المتجلدة، بعباءته الحريرية المحبوكة وعمامته الذهبية. وغادر فور انتهاء الصلاة. وعندما مشيت نحوه، التفت فوراً إلى اليمين. وعندما طرحت عليه قائمة الأسئلة بلغة «البوشتو»: ما هو دور الإسلام في أفغانستان بعد شهر كانون الأول/ ديسمبر؟ لوّح بورقة الأسئلة في صقيع الهواء بحركة يائسة.

وصاح بي: «أسئلتك كلها سياسية، وإحداها عن سعادة الناس في النظام

(*) في هذا الوقت، اعتقد كثير من الأفغان أن جنوداً من بولندا، وألمانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا وغيرها من البلدان التابعة للاتحاد السوفياتي، كانوا يفدون على بلادهم لدعم الجنود الروس. وربما انتشرت هذه الشائعات عندما بدأ الجنود الروس يتكلمون الألمانية في سوق كابول. لكن أولئك كانوا من الجنود السوفيات القادمين من منطقة «الفولغا» التي تتكلم اللغة الألمانية.

الجديد لبابراك كارمال». لن أجيب عن أي سؤال بشأنه. أنا لا أمثل الناس؛ بل سأجيب عن الأسئلة الدينية فحسب. وكان ذلك متوقعاً. وبصفته «كاتب» المسجد، فما عليه سوى أن يؤوِّل القرآن الكريم، لا أن يلقي عظات عن أخلاقيات الحكومة. ولمّا كان كل هؤلاء «الكتّاب» قد تعينوا عن طريق الحكومة الثورية منذ سنتين، فمن غير المحتمل أن يبوح بأية مشاعر عن الغزو السوفياتي لبلده. وبعد أيام من انقلاب «طرقي» عام ١٩٧٨ تضمنت خطب المساجد في كابول الدعوة إلى الجهاد. وقد قطعت الطريق على أي استقلال سياسي عن الشيوخ المسلمين السنَّة خلال أيام عندما دهمت الشرطة كل المؤسسات الدينية في المدينة، ونقلت الشيوخ المنشقين إلى سجن «پوليكارخي»، حيث بقوا فيه، ولم يخرجوا منه.

إن الكنيسة المقطوعة الرأس لا تستطيع أن تقدم التوجيه السياسي إلى رعيتها. إنما تاريخ الإسلام في أفغانستان يوحي بأنه ليس هناك من قائد ديني ينذر نفسه لتوجيه الناس إلى الحرب ضد الأعداء. أما المسلمون الشيعة، الذين لديهم تقليد بالتضحية بالذات، وتوكيد على الاستشهاد، والذين دمروا نظام الشاه في إيران، فقد كانوا أقلية في أفغانستان. وفي مدينة هرات الغربية، التي تبعد ١٠٠ كيلومتر عن الحدود الإيرانية، كانت ترفع لافتات للخميني ولآية الله شريعة مداري على الجدران؛ لكن السنَّة كانوا هم الأكثرية، وكان هناك ارتياب في ممارسة رجال الدين للسلطة في إيران. فالأفغان لا يقرُّون بسلطة دينية إلهية على مستوى البلاد. والإسلام دين رسمي، يشغل فيه أئمة المساجد وظيفة بيروقراطية، وليس لديهم رسالة سياسية. وكان نفوذ المعتقد الديني التقليدي قوياً في أفغانستان، ولكنه لم يكن متطرفاً؛ وإن عدم وجود تراتبية عند السنَّة منعت «الملالي» أي أئمة المساجد من استخدام مركزهم لإحداث وحدة سياسية في البلاد. وعلاوة على ذلك، كان المسلمون الأفغان مقسومين طبقياً في كابول. فمسجد «پوليخيشتي» يرتاده الفقراء، بينما يفضل العسكريون المسجد الأزرق، ويذهب باقي الشعب من الطبقة المتوسطة للعزاء في مسجد «دو شام شيرا» ذي الطبقتين.

وقدّمت الملكية في أيامها للناس في أفغانستان وحدة فسيفسائية جمعت شمل السكان إلى حدٍّ ما. وكان الناس في مقاهي «الشاي خانة» يتباهون بتحية آخر ملك للبلاد. ولكن بعد ظهور حكام جدد منذرين بالشر، تبيّن أن الحكام المبذرين الذين حكموا البلاد سابقاً لم يكونوا أبداً شعبيين. فعندما انقرضت الملكية، لم يبقَ ما يجمع الناس سوى الإسلام الذي اتَّحد مع الشعور القومي ـ إزاء الشيوعية ـ مما يفسِّر لماذا أعاد كارمال اللون الأخضر إلى العلم الوطني. وقد صارت الخطب الوزارية، حتى من قِبل أعضاء الحكومة الذين قضوا حياتهم «ماركسيين»، تبدأ باستشهادات متضرِّعة من القرآن الكريم، وقد زار نائب رئيس مجلس الوزراء مدينة مزار، وصلَّى في مقام للإمام علي ابن عم الرسول وصهره. ولكن كان الدين موضع احترام وتبجيل في القرى أكثر من المدن ـ كما هي الحال في معظم البلدان الريفية ـ ولاسيما القرى التي جاء منها المجاهدون. ومع أن ذلك يشكل قوة رجعية ـ تناهض تحرر المرأة ومساواتها بالرجل، والتعليم العلماني ـ فإنها ركَّزت اهتمام الفقراء على الواقع السياسي، بشكل غير مسبوق. ولم يحدث صدفة أن شاعت نكتة في كابول مفادها أن على كل مسلم أن يستمع إلى محطة الإذاعة البريطانية، بالإضافة إلى تأديته أركان الإسلام الخمسة. ولن تكون تلك دعابة طبعاً، إذا برزت قوة إسلامية جديدة من أوساط المقاومة، لا من مقام الشيوخ.

وهكذا، لم يبقَ في أفغانستان الآن سوى صحافيين قلائل، بحيث لم يعد أحد يهتم بمراسل «التايمز» الذي لا يحمل آلة تصوير، ولكن لا يزال لديه تأشيرة إقامة صالحة. وفي كابول تسوَّقت السجّاد في السوق مع الجنود السوفيات الذين ما زالوا يشعرون بالأمان في شارع «الدجاج». اشترى الروس تذكارات، وعقوداً، وأساور لزوجاتهم وصديقاتهم، بينما الجنود الطاجيك قصدوا المكتبات ليبتاعوا نسخاً من القرآن الكريم. وأخيراً اشتريتُ سجادة بقياس ٢×٣ أمتار قرمزية وذهبية مطروحة على الرصيف الرطب. ولكن السيد صمد علي الذي لا يزال يمكنه أن يتنقل بنا ضمن حدود مدينة كابول، نظر إلى سجادتي نظرة ناقدة، وأخبرني أني دفعت فيها سعراً باهظاً ـ فمن وظائف سائقي

سيارات الأجرة في جنوبي شرقي آسيا أن يبخسوا مشتريات الزبائن الأجانب ـ ولكنه أخذها وأوثقها على ظهر سيارته.

ومن كابول، ركبت مرة أخرى في باص عليّ نزولاً إلى جلال أباد، حيث نويت أن أقضي الليلة في فندق «سبينجهار» قبل عودتي إلى كابول. وفي سوق جلال أباد، فتشتُ عن كيس من «الساتان» لأحمل فيه سجادتي الكبيرة وأنقلها إلى الخارج. وكنت قد تعلمت معنى الكيس بلغة «البوشتو»: (أطلسي كاهزورا) ـ اشتريت كيساً كبيراً من الخيش ومجموعة من البطاقات البريدية من جلال أباد تحت الحكم الملكي، تلك المدينة اللطيفة الناعسة المتلألئة بالألوان المفقودة الآن إلى الأبد. وزرت القنصلية الباكستانية في المدينة، التي لا بد أن يكون بعض موظفيها متعاونين مع رجال العصابات. حدثوني عن خوف الروس من أن تقع جلال أباد جزئياً في أيدي المتمردين، وأن تقفل طريق كابول. ولم يكن الدبلوماسيون الباكستانيون منزعجين أبداً من هذا التوقع.

ولم تمضِ برهة على وصولي إلى فندق «سبينجهار» حتى هُرع إلي موظف الاستقبال يعلمني بانفعال أن الروس يستخدمون المروحيات للهجوم على قرية «صورغ رود»، على بعد ٢٠ كيلومتراً إلى الغرب. استأجرت عربة بدولابين، ووجدت نفسي خلال نصف ساعة في بلدة ذات شوارع ترابية وبيوت طينية. طلبت من السائق أن ينتظرني على الطريق الرئيسية ودلفت إلى البلدة. لم يكن هناك مخلوق بشري، بل الأصوات المكتومة للحوَّامات المروحية السوفياتية من طراز (Mi-25)، التي لمحتها تمر بسرعة عند أواخر الشوارع. نبح بعض الكلاب عند مجرور مفتوح؛ وكانت الشمس لا تزال في كبد السماء وغطاء الحر يلف نسيم الشوارع. فأين الهجوم الذي استثار موظف الاستقبال؟ حانت مني التفاتة فرأيت طائرة بشكل حشرة تطير على علو منخفض وتطلق النار. وتعالى الصوت كأن مئة كرة غولف قد ضربت بالهراوات في الوقت ذاته، بينما أخذ الرصاص يرشق جدران المنازل، فتتناثر قطع الطين في الهواء، كلما أصيبت المباني. واتجه خط من هذا الرشق الرصاصي عبر الشارع نحوي، فارتعت وركضت عبر باب مفتوح، وباحة ترابية، ودخلت أول بيت رأيته.

اندفعت بقوة عبر المدخل، ووقعت على جنبي فوق سجادة عتيقة. وتبيّنت أمام الحائط الداكن الذي أمامي رجلاً أفغانياً ذا لحية غبراء، جالساً مع مجموعة من الأولاد، فاغرين أفواههم من الخوف، ووراءهم امرأة تلف رأسها بوشاح أسود. حملقت فيهم وحاولت أن أبتسم؛ فبقوا هناك صامتين. وشعرت أن عليّ أن أطمئنهم بأني لست روسياً، بل من إنكلترا بلد السيدة تاتشر، وأني صحافي. ولكن هل تفهم هذه العائلة الإنكليزية؟ أو ما هو الصحافي؟ كنت منقطع النَّفَس، جزعاً، ومتسائلاً كيف وصلت إلى هذا المكان الخطر بسرعة وبدون تفكير في وقت قصير، بعد مغادرتي فندق «سبينجهار».

كان لا يزال لديّ بعض سلامة العقل، لأتذكر معنى كلمة صحافي بلغة «البوشتو» ولأطمئن هؤلاء المساكين عن هويتي. فقلت متبجحاً «زا دي إنكليزي أطلسي كاهزورا يام!». لكن تلك العائلة زادت حملقتها فيّ، وعظم انشغال بالها. قرّب الرجل الأولاد إليه، وهمهمت زوجته متذمرة؛ فابتسمت. ولكنهم لم يبتسموا. لقد جاش الخوف في صدور هذه العائلة. ولم أتبيَّن أني لم أقل لهم أني صحافي إلَّا فيما بعد تدريجاً، عندما راجعت ما قلته بلغة «البوشتو» فوجدت أن معناه هو «أني كيس ساتان إنكليزي!» هذا ما قاله المراسل الأشعث الذي خرق حرمة بيتهم.

فكررت كلامي بالانكليزية وبالبوشتو أني صحافي مراسل. ولكن ما وقع قد وقع. فلم يكن هذا الإنكليزي خطراً، وأجنبياً، بل كافراً تطفّل على حرمة بيت أفغاني؛ فضلاً عن كونه غير عاقل. لم يكن عندي شك في ذلك. وعندما نجد أنفسنا، نحن معشر الصحافيين، في خطر كبير، لا بد دائماً من التساؤل: لماذا رمينا أنفسنا في هذا المأزق، وعرَّضنا حياتنا للخطر؟ هل من أجل رئيس التحرير؟ أو حباً بالمغامرة؟ أو لأننا لم نفكر، ولم نحسب الأخطار، ولم نتبصر في أن حياتنا كلها، وتربيتنا، وعائلتنا، وحبنا وسعادتنا، صارت الآن رهن الحظ وبعض الفقرات. كانت قرية «صورغ رود» هي المحطة الحدودية التي استعطى فيها الجندي البريطاني في قصيدة كيبلنغ، وكان الشارع خارج هذا البيت هو الممر الضيق المظلم، وكانت الطائرة المروحية هي رشَّاش العدو.

هذا الرسم هو إطار ينبئنا بأن الحياة رخيصة؛ غير صادقة؛ وأن الموت رخيص. إنه يسير وفظيع، وغير عادل أبداً.

جلست على السجادة، ربما لمدة عشر دقائق، أبتسم ببلاهة للعائلة الباردة الوجوه الجالسة أمامي، حتى انبرت فتاة تلبس ثوباً قرنفلياً، وتقدمت نحوي وهي تتردد في مشيها، وابتسمت. فرددت الابتسامة بمثلها؛ وأشرت إلى نفسي وقلت: «روبرت»؛ فردَّدت اسمي. وأشرت إليها، فما هو اسمها؟ فلم تجب سمعت من الخارج صوت حمار يدبّ بعد البوابة وصياح رجل؛ بعدما غابت أصوات الطائرات المروحية وقفت ونظرت من الباب، فرأيت أناساً يمشون في الشارع. كان الأمر كما يحدث في جلال أباد عند الفجر، إذ يتحول ليل الموت سحرياً إلى يوم كدّ، وعمل، وغبار، وازدهار أشجار «الجاكاراندا». لقد مرَّت الحرب على قرية «صورغ رود»، وذهبت الآن إلى مكان آخر. التفتُّ إلى العائلة وشكرتها للحماية التي لم تقدَّم لي بقولي: «شكريَّة»، أي شكراً. فانحنى الرجل الملتحي ببطء ورفع يده اليمنى مودِّعاً.

كان صاحب العربة بدولابين لا يزال ينتظرني على الطريق الرئيسية، موجساً خيفة من أن أكون قد قضيت نحبي، وربما أكثر خوفاً من أن لا أبقى على قيد الحياة لأدفع له أجرته. عدنا إلى جلال أباد. وجاء تلك الليلة قادة الحزب إلى الفندق حاملين أنباء مزعجة لهم، كما يبدو. فقد أغار المجاهدون على مركز لإقامة الطالبات في جامعة جلال أباد، وساقوا عشرين فتاة من المبنى ونقلوهن إلى «تورا بورا»، حيث أعطين مالاً ـ مئة أفغانية تعادل ٢٢ دولاراً ـ وحجاباً أسود لكل منهن وتعليمات بإنهاء دراستهنّ. وفي اليوم نفسه، أُرسل مهندس روسي إلى ضواحي جلال أباد ليصلح خطأً كهربائياً جرى تخريبه تكراراً. وبينما كان على رأس العمود أطلق عليه شخص النار فأرداه قتيلاً، وبقي جسمه معلقاً بين الأسلاك على علو عشرة أمتار فوق الأرض لعدة ساعات؛ بينما كان الناس من رجال ونساء يفدون لينظروا إلى جثته.

غادرت في اليوم التالي إلى كابول على متن أول باص. وكان باصاً فخماً انطلق عند الفجر قبل وصول باص عليّ بوقت طويل. ولم تكن تأشيرتي صالحة

إلّا لثلاثة أيام قادمة. ولم يكن الركاب من القرويين، أو من رجال الأعمال الباكستانيين الذين يسافرون على باص عليّ السياحي، بل من طلاب الحكومة الأفغانية، وأعضاء من حزب «بارشام» عائدين إلى جامعة كابول بعد العطلة. وحتى قبل أن نقطع ضواحي المدينة، كانوا يأمرون كل واحد بإنزال الستائر حتى لا يرى أحد من الخارج شيئاً. وكانوا يطلعون أعناقهم عند كل منعطف ليختلسوا النظر من خلال شقوق الستائر، لئلا يكون هناك كمين أمامهم. ولم أفقه كيف ستساعدهم الستائر. فالباص المحاط بالأستار والأسرار أدعى إلى لفت نظر المجاهدين من المركبة التي تفتح نوافذها، ويبدو الركاب نائمين فيها.

وعندما توقفنا على بعد ٢٥ كيلومتراً إلى الشمال وجدنا جثة رجل مغطاة تنقل إلى شاحنة، فنظر إليها الطلاب صامتين برعب واشمئزاز. لقد كانت حسبما قيل لنا جثة سائق شاحنة لم يتوقف لإشارة المجاهدين. كان هناك خمس شاحنات مترافقة ومتوجهة كلها نحو كابول. وقفت كلها الآن عند مقهى «شاي خانة»، ليبحث سائقوها المشكلة، فهل يتفاهمون مع حاجز رجال العصابات في أعلى الطريق، أم ينكفئون راجعين إلى جلال أباد. مرت ساعتان، ولم يستطع السائقون أن يقرروا شيئاً؛ وزاد انفعال الشباب الأفغان وتوتّرهم؛ ولسبب وجيه؛ إذ إن المجاهدين عرضوا على أسراهم خيارين: إما الانضمام إلى المقاومة أو مواجهة الإعدام. وبدأ بعض الشباب الأفغان بنزع شارة الحزب. فشعرت إذ ذاك بالأسف. ربما انضموا إلى حزب «برشام» ليترقوا في الجامعة أو لأن أهلهم موظفون في الدولة. ومهما وصفنا وحشية الحكومة واتكالها على غزاة أجانب، فموظفوها كانوا يحاولون إرساء دعائم مجتمع علماني يقوم على المساواة في القرى المحيطة بجلال أباد. ولم تكن الحكومة هي التي تحرق المدارس وتقتل المعلمين.

مرت ساعة أخرى، وتصاعد الحر، وزاد اكتئاب الطلاب، والسائقون يتدفأون في الشمس. ففي أزمنة الحرب، ولدى مواجهة الأخطار الكبرى، يمسي التردد وعدم اتخاذ قرار بمثابة مخدِّر. ثم جاء باص عليّ الخشبي يجاهد صعوداً، وعلى جنبيه شعار محافظة الحدود الشمالية الغربية. وأراد عليّ أن

يعرف لماذا هجرته. وقال مشيراً إلى سيارته: أرجوك يا سيد روبرت أن تأتي معنا. وهكذا جلست على مقعدي إلى الجهة اليمنى من الباص، ومشت الباصات الأخرى وراءنا كالغنم. وعلّق عليّ على الوضع بقوله: «من الأفضل لك أن تكون معنا، لا معهم»، وما لبثت أن أدركت سبب ذلك.

وعند أحد المنعطفات بعدما سرنا حوالى خمسة كيلومترات في واد ضيق حافل بالصخور وشجر الصنوبر الصغير، طالعنا ستة رجال من المجاهدين لوَّحت وجوههم الشمس، يقفون منفرجي السيقان. وكان سابعهم مفترشاً صخرة، يلوّح بذراعه صعوداً ونزولاً كإشارة لنا كي نتوقف. قيل لنا إنهم غير مسلحين كما يجب، وأنهم لا يظهرون إلا بعد حلول الظلام، وأنهم يخافون انتقام الحكومة. ولكنهم كانوا هناك في وضح النهار تحت أشعة الشمس عند الظهر، بعباءاتهم وأوشحتهم الأفغانية، يحمل كل منهم بندقية رشاشة جديدة من طراز كلاشينكوف، ويسيطرون على المرور فوق أهم طرقات أفغانستان. كان ذلك عرضاً جريئاً للثقة بالذات ومنظراً مخيفاً للطلاب في الباص وراءنا. أما في باص عليّ، فلم يكن هناك أي قلق، حتى أن أحد المسافرين الباكستانيين ـ وهو تاجر قماش من «بشاور» ـ بلغ به الضجر مبلغه، فبدأ مناقشة طويلة ومتعبة بشأن سياسة باكستان الداخلية.

ومن نافذة الباص الخلفية، كنت أرى الطلاب ينزلون من الباص إلى الطريق. وقفوا هناك مطاطئي الرؤوس، كما لو كانوا مجرمين، يختبىء بعضهم خلف بعض. وكان عليّ يتحدث ويمزح مع أحد رجال العصابات. ووقف سائقو الشاحنات الآخرون قرب باصاتهم، وليس على وجوههم سيماء. وكان المسلحون يمرون على طول صف الشباب الأفغان؛ ويأمرون بعضهم بالرجوع إلى الباص؛ بينما أمروا آخرين شحب لون وجوههم من الخوف بأن يصطفوا على جانب الطريق. أوثقوا ثلاثة منهم وعصبوا عيونهم، وساقوهم متعثرين عبر شجيرات الصنوبر باتجاه النهر الذي يخرّ عن يميننا. راقبناهم حتى اختفوا مع حراسهم عن أنظارنا. فطقطق التاجر الباكستاني بلسانه وهزّ رأسه قائلاً: «شباب مساكين».

صعد عليّ إلى الباص، وأعلن أن المجاهدين لن يزعجونا، لأن هذا الباص باكستاني. وحالما تحركنا للسير، أشار إلينا أحد رجال العصابات الشباب يضع وردة على رشاشه، بإلحاح عبر النافذة أن نتوقف. وأخيراً رأيتهم. لقد كانوا هنا، أولئك المقاتلون المقدَّسون الذين تتبنَّاهم وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، وأولئك الإرهابيون، وقطاع الطرق، والعناصر المخرِّبة المناوئة للثورة، كما يسميهم كارمال، والبقايا، كما ينبذهم اللواء السوفياتي بلطافة، وطلاب الإمبريالية، كما يصفهم السيد «زياراد». ولكنهم لم يظهروا كبقايا في نظري؛ فرشاشاتهم جديدة من طراز (AKS 74s) الذي جلبه الروس مؤخراً إلى أفغانستان، وكانوا يرتدون أحزمة ذخيرة جديدة أيضاً.

صار فندق أنتركونتيننتال في كابول مهجوراً. فقد طرد معظم الصحافيين الغربيين أو رحلوا؛ ومنهم «غافين» وطاقمه. وعما قريب، ستنتهي مدة تأشيرتي، وليس هناك أمل في الحصول على أخرى. وفي مكتب مبيعات الفندق، رجتني إحدى السكرتيرات «جينا نوشين» أن أنقل بريدها الشخصي إلى خارج البلاد. وبعد تسعة أشهر في إيرلندا وردتني إشارة مُلْغِزة منها، تشكرني على إرسال بريدها. وأظهر الطابع البريدي على غلاف الرسالة صورة للعمّ الرئيس «طرقي» وهو يبتسم متصفحاً جرائد الصباح. ولكن هناك رسالة أهم منها هرِّبت إلى كابول من الاتحاد السوفياتي بواسطة كاتب شيعي، أوقف بعد قيام ثورة طرقي عام ١٩٧٨، واعتُقد أنه قُتل على أيدي الشرطة السرية الأفغانية. وفي تلك الرسالة التي بعث بها «الملّا» أي الشيخ أو الإمام «واعظ»، والذي استعان بعامل سوفياتي متعاطف، وطالب في جامعة موسكو لينقل رسالة باليد إلى كابول، أخبر الشيخ عائلته أنه مع مئات من الأفغان الآخرين سجناء في بلدة «تولا» السوفياتية، الواقعة على بعد ٢٠٠ كيلومتر جنوبي موسكو. وكان «واعظ» مكرَّماً بين السنَّة والشيعة، نظراً لمعارضته الحكم الشيوعي.

سرت شائعات لأكثر من سنة بأن آلافاً من الأفغان موقوفون في الاتحاد السوفياتي ـ خلافاً للقانون الدولي. فكثير من العائلات التي هاجمت سجن «بوليشارفي» خارج كابول في شهر كانون الثاني/ يناير كانوا يفتشون عن أقاربهم

الذين ربما كانوا في الاتحاد السوفياتي طول تلك المدة؛ كما يبدو الأمر الآن. ويتبيّن من رسالة «واعظ» أنه مع غيره من الأفغانيين المسجونين في «تولا»، يشار إليهم بأنهم سجناء الدولة، مع أنه قبض عليهم في أفغانستان. وفي عام ١٩٧٩، قُتل سفير الولايات المتحدة في كابول «أدولف دبز» بواسطة مسلحين طلبوا أولاً في تلك الملابسات إطلاق سراح «واعظ» للمحافظة على حياة السفير. فهل كان السوفيات غير راغبين في اطلاق سراح «واعظ» لئلا يكتشف عدد الأفغان المأسورين لديهم في «تولا».

عرفتُ أن الحكومة الأفغانية تضغط على مَنْ بقي منّا، نحن الصحافيين، للخروج من البلاد؛ ولكن ربما كان الباب لا يزال مفتوحاً جزئياً بحيث أنسلّ من شقه(*). قمت برحلة أخيرة إلى جلال أباد مع عليّ، حيث وجدت في فندقي ملتقى اجتماع سرّي بين ستة ضباط كبار سوفيات مع وزير الداخلية الأفغاني «سعد محمد غولابزوي» وموظفيه المحليين؛ وكلهم يتوقون إلى منع حصول حصار كامل على جلال أباد من قبل المتمردين. وكانت الطريق خطرة جداً إلى درجة استعان عندها الروس بالطائرات المروحية لنقل الروس من كابول. رأيتهم يدخلون فندق «سبينجهار» بحراسة رجال الشرطة الأمنية الذين يعتمرون خوذ الشغب، والذين نصبوا مدافع رشّاشة تتلقم من حزام الرصاص على طاولات الفندق وحول حدائقه. وكان عدد الجنود السوفيات إذ ذاك ثلاثة آلاف جندي.

وكان تدمير القرى حول جلال أباد جارياً على قدم وساق؛ ومنها قرى «أليسنغ» و«ألينغار» خارج «ميترلام» التي قصفها الروس بالقنابل. ولكن الرحلة إلى مقاطعة «لاجمان» على بعد ٤٠ كيلومتراً، أظهرت أن المتمردين أحرقوا كل مدرسة وكل مكتب حكومي. وقال بعض القرويين أن عدد قتلى الغارات السوفياتية في الأيام الثلاثة الماضية بلغ حوالى خمسين شخصاً بين أمرأة وولد.

(*) من المفيد أن نلاحظ أن الصحافيين السوفيات واجهوا صعوبة كبيرة في تصوير الواقع الحاصل في المرحلة الأولى من الحرب، إلى درجة اضطرت معها صحف موسكو إلى الاكتفاء بمنتخبات من البرقيات الغربية، بما فيها كتاباتي.

وقد ردَّد رجل مسنّ كلمة «نابالم»، وهو يشير بيديه نزولاً ليكبح غضبه. وفي إحدى القرى الصغيرة خارج «ميترلام» تجمهر أكثر من ٢٠٠ شخص حول سيارة الأجرة التي كنت فيها، عندما ظنوا أننا روس.

ولم يخلُ المجاهدون من دعابة. فقبل ليلتين وجد سائق شاحنة أفغاني على الطريق الرئيسية الغربية ورقة كتب عليها؛ «باسم الله، إن هذا اللغم للدبابات». فما كان منه إلّا أن فجَّره. فتصدى له أحد المتمردين المسلحين يطالبه بدفع ٣٥٠ دولاراً ثمن المتفجرات التي بذَّرها. كما جاء في تقرير مستقى من ثلاثة مصادر مستقلة في جلال أباد أنه جرى تدمير تمثال لبوذا يعود تاريخه إلى الألف الثاني قبل الميلاد، مع أثريات أخرى لا تقدر بثمن في متحف «حدَّة». فما كان معنى ذلك؟ وإذا كانت التقارير صحيحة، فأية ضمانة في العالم تقي تماثيل بوذا العملاقة القائمة في «باميان» والتي يبلغ عمرها ١٥٠٠ سنة من أن تُدَمَّر كذلك؟ وعند عودتي إلى كابول، كان رجال العصابات بالمرصاد على الطريق، وعددهم يبلغ العشرين هذه المرة، ولم تكن هناك ورود مشكوكة في رشَّاشاتهم.

عدت لفترة قصيرة إلى أفغانستان خلال صيف ١٩٨٠، ووصلت إلى كابول حاملاً مضرب تنس بصفتي أحد السائحين، فهل تصدق ذلك؟ ولكن منظمة «الخاد» ألزمتني بشُرطي رافقني إلى فندق «أنتركونتيننتال»، حيث دفعت له أجرة التاكسي حول العاصمة. كان الغبار يشكِّل طبقات من الحرّ فوق كابول، وكان الجنود الروس الآن متأهبين، يرافقون السيارات المدنية في قوافل طويلة مدرَّعة عبر طرقات أفغانستان؛ وكانت قاعدتهم الجوية في «باغرام» تدأب على قصف المجاهدين بالقنابل كلّ ثلاث دقائق. واحتل السوفيات الآن مراكز استشارية عليا في كل وزارات كابول؛ وكانت سياراتهم السوداء من نوع «ليموزين» تتجول في الشوارع الرطبة الحارة ضمن المدينة عند الظهر، وقد أنزلت الستائر على نوافذها الخلفية؛ ويطل من مقاعدها الأمامية رجال بثياب مدنية عادية. هؤلاء لم يكونوا مفوضي الشرطة الضخام المكتنزين كما يروى عنهم في الأسطورة، بل كان معظمهم رجالاً صغار القامة محترمين بثياب الشغل الغبراء اللامعة، وربطات العنق الرفيعة على خلاف «الموضة»، وشعورهم المزيّتة الكثيفة؛ إنهم

رجال مرتبطون بعائلاتهم، وقادمون من جمهورية مستقلة لديها خطط إنمائية خمسية.

كان الروس يلبسون في الصيف الخانق قبّعات عريضة الحوافّ. ويعرقلون السير بشاحناتهم في شوارع كابول. وقد ولَّد «تدخّلهم المحدود» هجوماً ربيعياً ـ تلك الوسيلة التي يحبها جميع الجنرالات الذين يواجهون عصياناً مسلحاً ـ تطوّر الآن إلى حملة عسكرية على نطاق كامل. وكانت المروحيات المسلحة تقف صفوفاً في مطار كابول. وكانت طائرات «الإيليويشن» ذات المحركات الأربعة المتوجهة إلى طشقند، تدور طول النهار فوق المدينة، وتجر وراءها خطاً دخانياً بينما تميل جانبياً ميلاً حاداً فوق المطار الدولي لتتفادى صواريخ الأرض ـ جو.

وفي المطار، تمكن رؤية وجهي الثورة الأفغانية اللذين يبعدان أحدهما عن الآخر ٨٠٠ متر. ففوق المبنى الرئيس للمطار، يرتفع الترحيب الظافر الذي نصب في كانون الثاني/يناير: «أهلاً بكم إلى نموذج الثورة الجديدة». بحروف طولها متر ونصف متر؛ وقد بهتت ألوانها وتساقطت حروفها. وعبر مهبط الطائرات وعند نهاية المدرج الرئيس للمطار، ينتصب الرمز الآخر لنزاع الثورة الأفغانية: صاروخ سوفياتي من طراز (SA-2)، مع رأس حربي يزن ١٣٠ كيلوغراماً، ومدى يصل إلى ٥٠ كيلومتراً، بارتفاع ٥٠ ٠٠٠ قدم. كان هذا السلاح هو نفسه الذي كان له تأثير مدمِّر على قاذفات القنابل الأميركية (B-52) فوق هانوي أثناء حرب فيتنام. وفيتنام كانت الكلمة التي تستخدمها أعداد أكبر فأكبر من الأفغان لوصف النزاع عندهم. وكان الرئيس كارتر والسيدة تاتشر يحثَّان العالم إذ ذاك على مقاطعة الألعاب الأولمبية في موسكو.

وكان تلاميذ المدارس في كابول يرفضون الذهاب إلى المدرسة ومتابعة دراستهم، لأن مئات منهم ألمَّ بهم المرض؛ فقد وضع المتمردون الكبريت في الماء الذي تتزود به المدارس، بحسب قول الحكومة. وقد نُقل ألف ولد إلى مستشفى «علي أباد» لهذا السبب في أسبوع واحد. وفي الليل، كانت المعارك تحتدم حول المدينة، عندما يهاجم المسلحون الدوريات الروسية، وإذ يهاجم

حزب «بارشام» وحزب «خلق» أحدهما الآخر. وقد أطلقت النار على طبيب عضو في حزب «بارشام» الذي يتزعمه الرئيس كارمال، بينما كان يعود مريضاً في «بند غازي» ـ ضمن حدود المدينة ـ ولم تستطع الشرطة اكتشاف من قتله: المجاهدون، أم وكلاء «خلق»؟ وكان أحد رجال الشرطة الذي عيِّن لمرافقتي من رجال «خلق». وقد صرّح في خلوة المصعد غاضباً: «إن الحالة سيئة هنا؛ وقد سئمت منها. نحن نريد المساعدة السوفياتية ـ إذ إننا نحتاج إليها. ولكن، إذا بقي عندنا أيّ كان أكثر مما نريد ـ بما في ذلك الاتحاد السوفياتي ـ فإننا سنطلق النار عليهم».

وبتاريخ ١٤ حزيران/يونيو أمر كارمال بإعدام ١٣ شخصاً من موظفي «خلق» السابقين بتهمة «تدبير مؤامرات ضد الدولة». وكان أكثرهم موظفين ثانويين ـ مثل: «صادق علم يار» وزير التخطيط السابق، و«صائب جان سهراي» المسؤول سابقاً عن شؤون الحدود ـ بينما لم يُمسّ نائب رئيس الوزراء «أسد الله سواري» الذي كان رئيس الجهاز السرِّي تحت حكم «طرقي». وقد ورد اسمه في رسالة الموت الليلية التي كانت تلقى ليلاً في المجمَّعات الدبلوماسية منذ أربعة أشهر. كنت محظوظاً لأني اختلست ٤٨ ساعة في كابول، مع أني كنت تحت مراقبة الشرطة السرية. وعندما أُرجعت إلى المطار لأسافر، كانت هناك طائرة «أيروفلوت» نفاثة واقفة في ساحة المطار، وجسمها يؤيد سخرية السيدة تاتشر من السوفيات».

كانت الطائرة تحمل بفخر على جانبيها شعار «أيروفلوت» باللغة الإنكليزية: «ناقلة رسمية للألعاب الأولمبية». ولكن لم يلبث أن خرج منها جنود سوفيات بلباس الميدان، كانوا شباباً ـ وبعضهم شُقْراً ـ يحملون رشاشاتهم تحت الشمس اللاهبة، وينزلون إلى أرض المطار المزفَّتة. كانوا منشرحين سعيدين ـ ورفع أحدهم ذراعيه نحو الشمس، وقال شيئاً أضحك رفاقه ـ لكن حظوظهم في العودة بالانشراح ذاته تضاءلت في الأسابيع الأخيرة.

لقد أُدخل إلى مستشفى كابول العسكري أكثر من ٦٠٠ من رجال الخدمة العسكرية السوفياتية أصيبوا بجراح بالغة، كما أدخل ٤٠٠ آخرون إلى العيادات

السوفياتية قرب محطة الباص في «خاي خانة»؛ ومات منهم ٢٠٠ شخص ـ مع العلم أن هذا العدد يقتصر على الذين ماتوا بسبب جروحهم، ولا يشمل أولئك الذين ماتوا في ميدان المعارك. وقد حُمِّل الأموات في توابيت خشب مربعة على متن طائرات «أنطونوف ـ ١٢»، دون أن يعلم أحد بما تحويه تلك الصناديق، حتى انبرى بعض الجنود لتحية أحدها؛ وحتى أن الشرطي السرِّي الموفد معي من «الخاد»، والذي لازمني طول إقامتي، أقرّ بأن الجيش السوفياتي كان يعاني من مشكلة كبرى.

وإذا عدت الآن بالقارىء إلى شهر شباط/فبراير البارد عام ١٩٨٠، فإنني أصف اليومين الأخيرين من إقامتي في أفغانستان قبل أن ينتهي أمد تأشيرة السفر بأنهما يومان ثمينان من الحرية المستوحدة. قررت إذ ذاك أن أكون جشعاً، وأجرّب من جديد ركب الباص لمسافة طويلة إلى مدينة قيل لي عن سكانها في كابول إنهم عاودوا اكتشاف إيمانهم كجماعة في مجابهة غزاة بلادهم: إنها مدينة «قندهار».

ركبت الباص قبل الفجر، من المحطة ذاتها التي انطلقت منها في المرة الفائتة في رحلتي العقيمة إلى «مزار»، لابساً الطاقية الأفغانية نفسها، ومحدودباً تحت الوشاح الأسمر ذاته. كان الركاب عائلات فيها رجال ونساء يجلسون معاً. وحالما أعلنت عن جنسيتي، انهالت عليّ الأطعمة من جبن، وتفاح، وبرتقال، وخبز «نان» الذي يستعمله الأفغان كحاوٍ للطعام. وعندما صرَّحت بلطف عن خوفي من أن يكون هناك أناس «غير طيبين» في الباص ـ أكَّدوا لي أني سأكون بأمان. وهكذا أعطاني هؤلاء الركاب، مع معرفتهم الضئيلة باللغة الإنكليزية، حمايتهم على طول الرحلة البالغ ١٤ ساعة عبر المناظر الطبيعية المتجمدة الخلابة، إلى قندهار.

لقد كانت ملحمة لبلاد تخوض الحرب. مرَّت حافلتنا بحطام ما لا يحصى من المركبات الملقاة على جانب الطريق. وعلى بعد ٦٥ كيلومتراً من «غازني»، البلدة التي هربت منها مع «غافين» وطاقمه الشهر الماضي ـ وكأنها كانت حياة أخرى ـ تعرّضت قافلة مدنية من الباصات والشاحنات لكمين، مباشرة قبل

وصولنا. وكانت تلك المركبات لا تزال تستعر فيها النار، وترسل في السماء أعمدة من الدخان الأسود، متسامقة فوق السهول المغطّاة بالثلج. وبقرب الحطام أكوام صغيرة متفحمة؛ وكان ذلك كل ما بقي من المسافرين. مرّت بنا قوافل سوفياتية في الاتجاه المعاكس، وفي مؤخرة كل مركبة منها، يقف جندي روسي شاهراً مسدّسه. لقد كان السوفيات إذ ذاك مهتمين بتأمين سلامتهم أكثر مما يقلقهم الحفاظ على سلامة المدنيين، الذين جاؤوا لإنقاذهم من قطّاع الطرق.

وفي إحدى القرى، صعد إلى باصنا ثلاثة جنود أفغان، بمن فيهم أحد الضباط، وحاولوا القبض على ساعي بريد هرب من الجيش. فجرت معركة وحشية بجمع الكف بين الجنود والمسافرين حتى انبرى مجندان إلزاميان كانا يدخنان الحشيشة في المقاعد الخلفية للسيارة ورفسا الضابط فعلاً خارج المركبة. يا لها من معنويات في جيش كارمال. وفي قرية أخرى استهجن المسافرون بالهسهسة لمرأى جنود طاجيك سوفيات كانوا يقفون قرب شريط شائك لمستودع عسكري. وربّت أحد المسافرين ورائي على كتفي بحدّة قائلاً: أنظر، أنظر! مشيراً إلى جبينه. لم أفهم أولاً، ثم وضع يده على رأسه، كما لو كان هناك قبعة. قبعة نعم، كان هناك شيء مفتقد من قبعات الفرو الغبراء التي يلبسها جنود الطاجيك السوفيات. لقد أزالوا النجمة الحمراء عن قبعاتهم. وقفوا ينظرون إلينا بوجوههم الأكثر سمرة من وجوه رفاقهم الروس، وهم مجرَّدون من شعار الأخوة الشيوعية الذي نشأوا في ظله.

كان واجباً عليّ أن أفهم فوراً. إذا كان الجنود السوفيات المسلمون في أفغانستان قد نزعوا عن قبعاتهم شعار بلادهم ذاته، ذلك الشعار الذي ارتداه آباؤهم بفخر في الحرب الوطنية الكبرى بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥، فذلك يعني أن أرواحهم قد تآكلت بفعل سرطان أفغانستان. لقد أُرسلوا ليحاربوا إخوانهم في الدين، فقرروا أن لا يحاربوهم. وكان ذلك في أفغانستان أفضل نذير بانهيار الإمبراطورية الوشيك. لكن رحلتي الشاقّة عبر بلاد الثلج كانت طويلة، والأخطار المحدقة بي كبيرة، وقد أخذ الإنهاك يسحقني، فكتبت في دفتري أن

الجنود نزعوا الشارات عن قبعاتهم لسبب من الأسباب. وبعد مسيرة عدة أميال، لمحنا جندياً أفغانياً في الصحراء يطلق النار في الغَسَق من رشيشه على عدو لا يقدر أن يراه. وعندما توقف باصنا عند مقهى «شاي خانة» في الغسق المتجمد، جاءنا رجل من القافلة المحروقة، وأخبرنا أنه من الثلاثمئة مسافر الذين كانوا في الباصات، قُبض على خمسين بواسطة مئة متمرّد مسلّح، وأُخبروا ـ علناً ـ بأنهم قد يُعدمون، لأنهم من رجال الحزب. وهكذا كان كل مشهد يتكلم عن نفسه، وفهم المسافرون المرعوبون بوضوح وجود العنف البارز الصارخ وضعف الحكومة.

وكان الوقت ليلاً عندما دخلنا قندهار، العاصمة القديمة لأفغانستان. وسار باصنا عبر المزار الذي يقال إن فيه عباءة النبي محمّد (ص)، ودار حول مدفع أثري من القرن التاسع عشر، كان لجيش اللواء «روبرت»، في الحرب الأفغانية الثانية. صرت قذراً وتعباً، فدخلت فندقاً رثّاً في المدينة القديمة، وهو مكان ينتشر فيه دخان السجائر، وينضح بالعَرَق، ويطهى فيه اللحم أكثر من اللزوم. كانت غرفة نومي صغيرة، وشراشفها ملطخة، وسجادتها مبرقعة بحروق من السجائر. ولكن كان فيها بابان تعلوهما قشرة من الصدأ يقودان إلى شرفة صغيرة، أستطيع أن أرى منها القمر والنجوم التي تتلألأ عبر السماء في الشتاء.

كنت مستلقياً على فراشي عندما سمعت الصوت: «الله أكبر». كان صوتاً رفيعاً مُدَوزناً شاكياً. «الله أكبر، الله أكبر». نظرت إلى ساعتي فكانت الساعة التاسعة؛ ليس هذا وقت الصلاة المعهود. لقد بدأ منع التجول. «الله أكبر». جاء النشيد الآن من السطح المجاور، على بعد أقل من ٢٠ متراً من غرفتي. وكان صوتاً متنقلاً من طبقة عادية إلى طبقة عليا، أكثر مما هو تضرُّع للعزة الإلهية. فتحت باب شرفتي. كانت الصرخة تنتقل وتتردد عبر الهواء؛ من عشر مرات «الله أكبر» إلى مئة مرة، غير منسّقة، ومتراكبة، قائمة على الكلمات ذاتها، بطبقة عالية وبطبقة الصادح، وبسوبرانو الأولاد؛ إنه جيش من الأصوات يصيح من على السطوح في قندهار. ثم تضخّم الصوت فحوى أكثر من ألف

صوت؛ إنها جوقة ملأت أجواء السماوات، وطفت تحت القمر والنجوم، إنها موسيقى النجوم والكواكب.

رأيت عائلة مؤلفة من الزوج والزوجة ومجموعة من الأولاد كلهم ينشدون؛ ولكن أصواتهم ضاعت في موجة الأصوات التي غمرت المدينة كلها. هذه الظاهرة غير العادية لم تكن مجرد احتجاج، بل تفجُّعاً على فقدان الحرية. عندما دخل النبي مكة سنة ٦٣٠ ميلادية، تقدم من الحجر الأسود في الكعبة ومسَّه بعصاه وصاح بصوت قوي ذلك الابتهال الإسلامي الأسمى: «الله أكبر». فردَّد بعده حوالى عشرة آلاف مؤمن الكلمات ذاتها، التي استقاها أعضاء قريش عشيرة النبي، الذين تجمعوا على السطوح والشرفات في مكة. والآن تُنشد تلك الكلمات المقدَّسة ذاتها بعشرة آلاف صوت آخر، من سطوح وشرفات قندهار، هذه المرة. وقد يؤوِّل شخص غربي ـ أو روسي ـ هذا الأمر بأنه شبه تظاهرة سياسية، أو كحَدَث رمزي. ولكن الحقيقة هي أن جوقات قندهار جاءت تأكيداً لا يقاوم للإيمان الديني، وتكراراً مباشراً ومقصوداً للحظات مقدَّسة في الإسلام. وفي آخر سنوات حياة الرسول، دخل الكعبة الجديدة المطهَّرة، وكبّر سبع مرات «الله أكبر». وفي قندهار كانت الأصوات يائسة، وإنما جدّ قوية فاتنة آسرة، لا تكاد تنتهي، تصمّ الآذان، لشعب صامت عاد فوجد وحدته في الله تعالى. إنها قوة لا يمكن إيقافها، وتأكيد للهوية الدينية لا يستطيع مرزبان أو كرملين أن يخمدها.

ولكن احتجاجات قندهار السياسية المتمكِّنة كان لها تأثير بسيط. فأصحاب الحوانيت أقفلوا متاجرهم لمدة أسبوعين؛ ولكن فرقة من الجنود الأفغان ضغطت بالقوة لإعادة فتحها، وهددت بسحق المتاجر التي لا تمتثل للأوامر. وكان الجنود الأفغان يدخنون في شاحناتهم قرب مسجد «كالكي شريف». لكن مجموعات المتمردين الخمس الناشطة جنوبي قندهار توحَّدت، وقال «الملالي» أي الشيوخ ـ الذين يكونون من نواحٍ أخرى مطيعين ـ لسكان قندهار المسلمين بأن ينتبهوا للإحداث في إشارة ضمنيةً غير مسبوقة إلى الغزو السوفياتي.

وخلال الأيام القليلة المنصرمة، ظهرت على جدران السوق التي أعيد

فتحها، لافتات بسيطة الخط، تحذر إحداها من أن «الناس نائمون»، وتقول أخرى: «لماذا لا تستيقظون؟»، وثالثة تتوجه إلى الجنود السوفيات: «يا أبناء لينين ـ ماذا تفعلون هنا؟». ولكن اللافتة الموجهة إلى الروس كانت مكتوبة بلغة «البوشتو» التي لا يعرفها الجنود الروس ـ وكان أهل قندهار قد شهدوا، قبل خمسة أيام، من تلك الشرفات والسطوح ذاتها قدوم قوافل الدبابات والمدرَّعات والشاحنات ومرورها عبر مدينتهم. ظهرت الدبابة الأولى حوالى الساعة التاسعة مساء، ولم يغادر ذيل هذه القافلة قندهار إلّا عند الرابعة صباحاً. وانتهى معظم هذه القافلة على طريق «سبنبولداك» عند الحدود الباكستانية.

وفي قندهار، تضاعفت أسعار الطعام، وفتك التضخم النقدي بالأجور. فأسعار اللحم والأرز زادت بنسبة ٨٠٪، والبيض بنسبة ١٠٠٪. وادَّعى أحد أصحاب الحوانيت الذي يلبس كنزة وسترة مع العمامة والسروال الأفغاني الفضفاض، بأن حكومة كارمال لن تصمد، إذا لم تلجم أسعار المأكولات، وقال: «تقول الحكومة كل يوم إن أسعار الأطعمة تنخفض، وإن الأمور تتحسن بسبب التعاون مع الاتحاد السوفياتي. ولكن ذلك ليس صحيحاً». وخلص الرجل إلى الشتائم: «هل تعلم أن الحكومة عاجزة عن السيطرة على الطرقات، وتتمسك بالمدن فحسب؟ اللعنة عليهم!».

هذا ما كنت أعرفه. وخلال رحلة عودتي إلى كابول، التي قطعت فيها ٤٥٠ كيلومتراً عبر برك الثلج والصحارى التي يغزوها المتمردون، تأمَّلت في المستقبل الرهيب الذي ستضطر أفغانستان إلى تحمّله. وقد رأيت من نوافذ الباص قرية تشتعل بكاملها ويتصاعد لهيب الحريق ذهبياً على ثلج الجبال، على بعد ثمانية كيلومترات؛ بينما كانت الطرقات أحياناً تحت قبضة مسلحين ـ بعضهم عرب يعتمرون الكوفيَّات ـ أو تتجول عليها شاحنات ملأى بالجنود الأفغان القابعين فيها بانكسار. وصار الجنود الروس الآن يتوزعون على الطرق الفرعية، وينشرون جيشهم عبر السهول، ويدخلون دخولاً استبدادياً إلى القرى الصغيرة.

وعند حوافّ مفارق الطرقات كانت ترابط دوريّات سوفياتية، يظهر جنودها من مركباتهم المدرَّعة، ويلاحظوننا دون اكتراث؛ إذ يعتبرون رسالتهم مسألة

طبيعية. لقد أصبحوا الآن في هذا الموقع الذي يشكل جزءاً من حياتهم، وكأن الأرض لهم على خطرها؛ لكنهم يقومون بواجبهم؛ مع أن الأمل مقطوع بنجاح مهمتهم الوهمية. لقد قال لي أحد رجال السوق الأفغان فيما بعد في كابول: «حتى لو قتلوا منّا مليوناً، فإن مليوناً آخر مستعد للموت. لن نسمح لأحد بأن يبقى في بلادنا». وكان ذلك صحيحاً.

ولم تمضِ أيام على مغادرتي كابول، حتى قمع الجنود الأفغان ورجال الأمن بوحشية تظاهرة شعبية جماهيرية قامت ضد الغزو السوفياتي، وأطلقوا النار على مئات من المحتجين، بمن فيهم نساء وأولاد، في شوارع العاصمة. وسيقتل أكثر من مليون أفغاني في الحرب الدائرة ضد الروس خلال الأعوام التسعة القادمة، وسيجرح أربعة ملايين وسيخرج من البلاد ستة ملايين نسمة كلاجئين ـ حتى قبل أن تدخل الحرب الأفغانية مأساتها الأخرى في النزاع المدني بين المجاهدين، وحكم طالبان والقصف الأميركي التالي بالقنابل. ولن نكتشف معنى تلك المعاناة إلّا فيما بعد. وكانت الأفعل في القتل والفتك المقادير الهائلة من الألغام التي زرعها السوفيات عبر الجبال والحقول. وستكلف الحرب الروس ما يقدر بخمسة وثلاثين مليار دولار أميركي ـ فقد حصلت خسارة مليونين ونصف مليون دولار من قيمة الطائرات، خلال عام واحد فقط ـ وادَّعى الأميركيون أنهم صرفوا عشرة مليارات دولار على هذا النزاع. وأقرَّت العربية السعودية عام ١٩٨٦ بأنها صرفت ٥٢٥ مليون دولار أميركي خلال عامين فقط على أحزاب المعارضة في أفغانستان وعلى الداعمين العرب. وقالت المصادر الباكستانية فيما بعد أنه كان هناك ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف من المقاتلين العرب الفاعلين في أفغانستان في أي وقت من الأوقات خلال الحرب، وأن ٢٥ ألفاً منهم خدموا في القتال. ولكن في النهاية، عندما أحرق الدب الروسي مخالبه، وصار الاتحاد السوفياتي على طريق الضياع، تراجع مقدِّمو العون الأميركيون ومن ساندهم من العرب والباكستانيين، وهجروا أفغانستان، وتركوها لمصيرها؛ كما تجاهلوا الآلاف من العرب الذين حاربوا هناك. لم يتجرَّأ أيّ زعيم عربي أن يحارب في سبيل إخوانه المسلمين هناك،

حتى أن ياسر عرفات الذي عرف معنى طرد الناس من بلادهم، لم ينتقد أبداً جيش الاحتلال الذي عاث خراباً في الأراضي المسلمة الواقعة بين «آمو داريا» وخط «دوراند». ولم يمثِّل العرب سوى بن لادن ورجاله فحسب.

غادرت كابول بطائرة باكستانية ذات مراوح، كادت تسقط في الجيوب الهوائية فوق جبال «هندوكوش» حتى حطَّت في مطار «بشاور» الحار كالفرن؛ ذلك المطار الذي انطلق منه «فرانسيس غاري باور» منذ عشرين سنة في طائرة التجسّس (U-2) الهالكة فوق الاتحاد السوفياتي. كنت أشعر بالخفَّة، ويغمرني الشعور بأني شهدت التاريخ، وبقيت حياً؛ وكأني تلميذ مدرسة قليل النضج. ولم يرد أيّ شيء من هذا القبيل في شريط «هيتشكوك» عن «المراسل الأجنبي»(*). وفي فندقي، تلقيت رسالة من رئيس تحرير الأخبار الأجنبية «إيفان بارنز» تنبئني بأني فزتُ بجائزة لتقاريري التي كتبتُها عن الثورة الإيرانية؛ ويقول فيها: «إشرب نخب ذلك على حسابي الليلة...». مثلما أعلن رئيس التحرير حصولي على علاوة إضافية مقدارها ألف دولار. كما وردتني رسالة من والدي الجندي المعمِّر يهنئني فيها ويقول إنه لم ينم عندما سمع الخبر.

وفي اليوم التالي، ركبت ببراءة الطفل القطار البخاري، عائداً إلى ممر خيبر لألقي آخر نظرة على أفغانستان قبل أن أعود إلى بيروت. كان سائق القطار «محمد سليم خان» رجلاً رشيقاً من «الباثان» ذا شاربين كبيرين، يضع طاقية على رأسه، وله من الخبرة ١٨ سنة على خطوط الدولة الباكستانية. قام محمد خان بمسح مدخل الموقد بخرقة مزيَّتة لمحركه البالغ من العمر ٦٠ سنة، واستعمل بخبرته المِشْحمة ـ «ويكفيلد ـ EC4» المصنوعة في لندن ـ وانسل

(*) ولكن «هنتلي هافرستوك» بطل رواية «هيتشكوك» يذهب ليشاهد الحرب بأمّ عينيه. وفيما بعد، عبّر لي «تشارلس دوغلاس ـ هوم» عن مخاوف رئيس التحرير بصدد القصة التي لا تروى، بقوله في رسالته: «ما دمنا الآن نفتقد أية تغطية منتظمة للحرب في أفغانستان، سأكون ممتناً لك، إذا استطعت بذل جهدك كي لا نخسر أية مناسبة، نستطيع فيها أن نقدم لقرائنا تقارير موثوقة عمّا يجري في تلك البلاد... يجب علينا أن لا ندع أحداث أفغانستان تندثر من جريدتنا، لأنه ليس لدينا مراسل هناك».

بقاطرته ذات الرقم ٢٥١١ من محطة «بشاور» الحارة الحافلة بالدخان. ولا شك في أن كل تلميذ مدرسة يكون مسروراً لركوبه في هذا القطار بقاطرته (SGS-Class No. 2511)، ولقد سررت بذلك فعلاً.

كان لهذه القاطرة دواليب ومدخنة مع غطاء لها مثل إبريق الشاي، ومرجل صدىء يبقى دائماً قيد التصليح، ومجموعة من الأربطة تنضح بالبخار، ولها «دوّاسة» ترشح بالزيت، ودخان برائحة الشاي المخمَّر. وكانت ضجتها تشبه الرعد، وقد جعلتني أتمسك بتجهيزات «الدوّاسة» التي يطأها السيد خان.

وقد دفعت وزارة الدفاع في إسلام أباد أكلاف صيانة هذا الخط البالغ طوله ٦٠ كيلومتراً ـ فقد يحتاجون إلى استعماله يوماً ما، لاستقدام جيشهم هم إلى «لاندي كوتال»، إذا تجاوزت القوافل الروسية الحدود ـ وسرنا ندبّ في صعودنا المنحدر الشديد الانحدار بنسبة واحد إلى ثلاثة، بل الأكثر انحداراً في العالم، يحاصرنا الدخان في أكثر من ثلاثين نفق تقع على طريقنا، مع صفَّارة حادّة تنفِّر الثيران، والمعز، والغنم، والأولاد، والرجال المسنِّين عن قضبان السكة الحديدية. وعندما وصلنا إلى علو ٣٠٠٠ قدم، اجتازت القاطرة منعطفاً حاداً عند سلسلة من الصخور العالية وفوق نهر هادر، فتقلقلنا إلى درجة جعلتني مع السيد خان، نتمسك بالأبواب الحديدية حتى لا نُقذف إلى الخارج. وهكذا وصلنا إلى «لاندي كوتال» من قلعة «جمرود»، وقاطرتنا تلفظ دخانها في النسيم الذي يلفّ هذه الأعالي.

وعندما قفزت من موطىء القدم في القطار، وشققت سبيلي عبر حجارة الطريق العام، ألفيت نفسي أمام جبال أفغانستان الشاحبة الزرقة، التي تومض إلى الشمال وإلى الغرب، الغارقة في أشعة الشمس، الباردة، الغاضبة، المألوفة، والخطرة. نظرت إليها الآن بمودة ومحبة؛ كما ينظر المرء إلى أرض خطرة، خرج منها حياً. هناك مع «غافين» ورجاله، كنا على قمّة العالم. ولم أكن أتصوَّر ماذا أنشأنا في أفغانستان، ولا ماذا يخبّىء القدر لهذه البلاد خلال السنوات العشرين القادمة، ولا الألم الذي ستسبِّبه لي.

حائكو السجّاد

... إنّ الرجال السائرين إلى مصيرهم اليائس، اقتلعوا الرحمة من جذورها، وكانوا سعداء بهذا العدوّ الجديد. وإنّ المستبدّين الذين كانوا أقوياء بحجج شيطانية، صاروا اليوم أقوى بعشر مرّات؛ وهكذا اكتنفها الخصوم من جميع الجهات، فصارت الأرض المطعونة مجنونة؛ وانتشرت جرائم البعض فأصبحت جنوناً للعديدين، وجاءت عضّات جهنّم، مطهَّرة كهواء الجنان؛

«وليم وودوورث»، المقدّمة، ١٨٠٥، الكتاب العاشر

كان «كريستوفر مونتايغ وودهاوس»، يتساءل إلى أيّ حدٍّ ساعد في إحداث الثورة الإسلامية في إيران. صار رجلاً متقدّماً في السنّ الآن؛ ولكنك تستطيع أن ترى الطاقة التي ما زالت تستحوذ عليه: رجل طويل جليل، شجاع وعديم الشفقة لا يرحم، وفي التاسعة والسبعين من العمر. كانت السماء تثلج ذلك الصباح في أكسفورد عام ١٩٩٧، لكنه جاء إلى بوابة البيت الذي تقاعد فيه ليستقبلني بمصافحة تعدّ رذيلة. جلس مستقيماً صارماً في مكتبته بتفكير شاب، يجيب عن أسئلتي بدقة العالِم الإغريقي، ناحتاً كل جملة بحذر. لقد كان العميل السرّي الأعلى مقاماً في «عملية الجزمة» (Boot) عام ١٩٥٣، للإطاحة برئيس وزراء إيران الديمقراطي الوحيد: محمد مصدّق. إنه «مونتي وودهاوس» الذي أعاد شاه إيران من المنفى مع زملائه في وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) ليحكموا إيران مدة ربع قرن، وليتوّج الشاه شاهنشاهاً أي ملك الملوك، و«نور الآريين»، ويستبدّ في الحكم نيابةً عنّا، بالقمع، والوحشية، والفساد. جاء

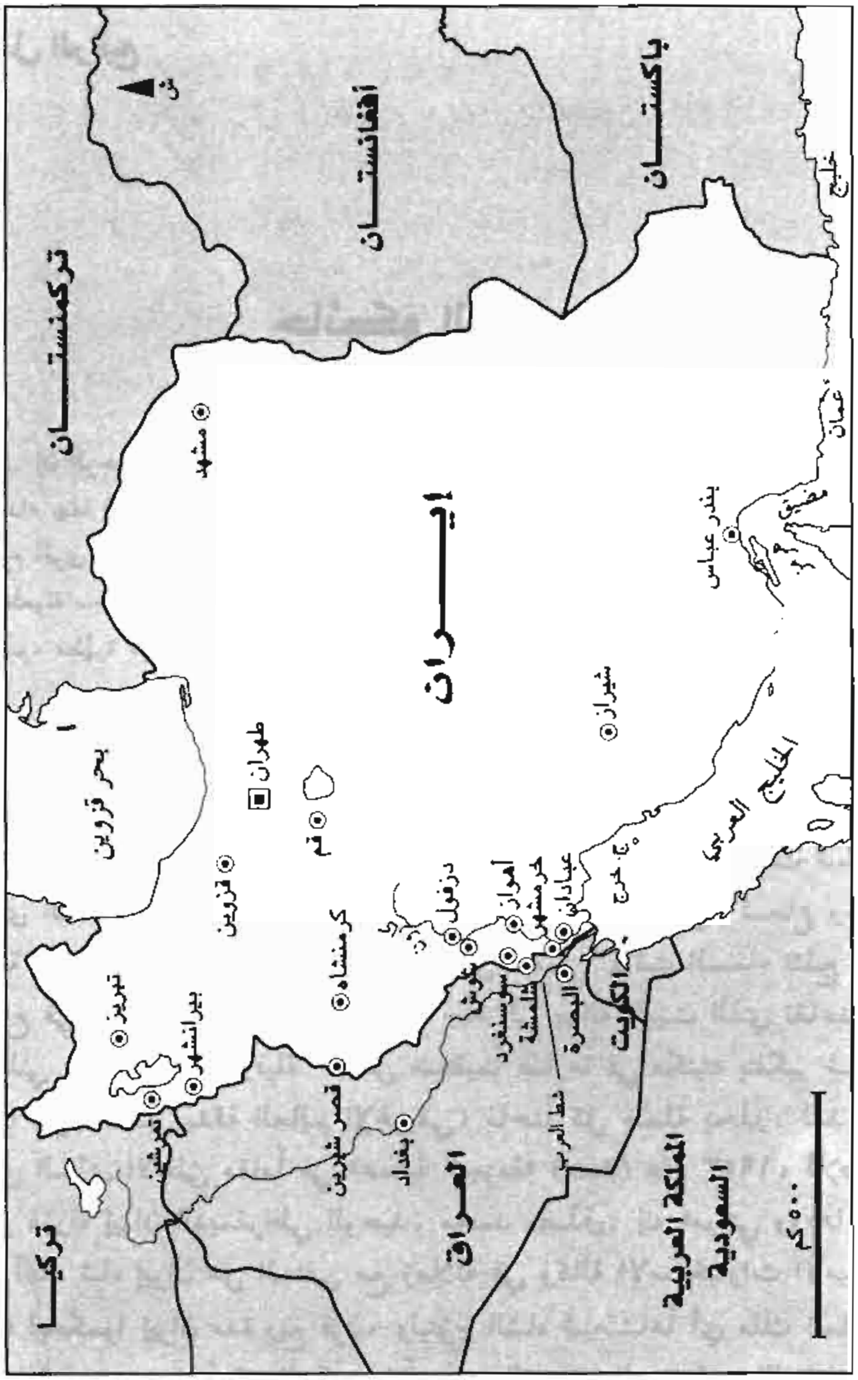
تركمنستان
أفغانستان
باكستان
ش
إيران
بحر قزوين
مشهد
طهران
قم
قزوين
كرمنشاه
تبريز
بيرانشهر
شيراز
بندر عباس
مضيق هرمز
خليج عمان
الخليج العربي
دزفول
أهواز
خرمشهر
عبادان
البصرة
شط العرب
الكويت
قصر شيرين
بغداد
العراق
تركيا
المملكة العربية السعودية
٥٠٠ كم

«وودهاوس» ليذكّرنا بأن المؤامرة الدولية (Plot) المسمّاة مؤامرة باللغة العربية، لم تكن دائماً من نسج الخيال في الشرق الأوسط. كان «وودهاوس» في الأعوام الأخيرة من حياته التي كان فيها مقاتلاً في حرب العصابات في اليونان، وعضواً محافظاً في البرلماني البريطاني، وأكاديمياً مكرَّماً في اللغة اليونانية. لقد مات حتى الآن كل من شارك في هدم الديمقراطية الإيرانية: «كيرمت روزفلت»، رجل وكالة الاستخبارات الأميركية الأعلى مقاماً في طهران، ورئيسه «ألن دالاس» و«روبن زاهنر» من مكتب الخارجية البريطانية، والأخوان «الرشيديان» الملغزان اللذان نظما الانقلاب، ومصدّق نفسه، وآخر شاه في إيران. ولم يبق منهم جميعاً على قيد الحياة سوى «مونتي».

لقد تعارفنا منذ تسع سنوات، أي منذ أن أرسلتني جريدة «التايمز» للتحقيق في التاريخ الحربي السرِّي لأمين عام الأمم المتحدة الأسبق «فرماخت أوبرلوتنانت كورت فالدهايم، في البوسنة(*). لقد لاحق «وود هاوس» مع العالِم البريطاني اللامع «جيرالد فلمنغ» ضابط المخابرات النمساوي السابق في الجيش الألماني باستمرار دون كلل أو ملل لأسباب شخصية وأخلاقية على السواء.

(*) أثناء ولايته كأمين عام للأمم المتحدة، أخفى «فالدهايم» بنجاح دوره في مجموعة (E) من «جيش الصاعقة النازي» في يوغوسلافيا، عندما اشترك الجنود الألمان وأعوانهم الكرواتيون في القتل الجماعي للصرب والمسلمين. ومع أنه ليس هناك إثبات على أنه شارك في هذه المجازر، فإن إنكاره معرفته بجرائم الحرب التي كانت تحصل في البوسنة عند اشتداد المعارك بين النازيين وأنصار «تيتو» عام ١٩٤٣، يتنافى مع استقصاءاتي التي قمت بها في المنطقة. وعندما زرت بلدة «بنجا لوكا» في البوسنة، اكتشفت أن أحد مكاتب المخابرات التي كانت تابعة لفالدهايم كانت واقعة بجوار أرض الإعدام أثناء الحرب، وعلى بعد لا يزيد على ٣٥ كيلومتراً عن مخيم الإبادة في «جازينوفاك» ـ الذي قال فالدهايم أنه لا يعرف شيئاً عنه. وقد حاضر الأمين العام الدائم المتحدة في الزعماء السياسيين في الشرق الأوسط بموضوع حرب العصابات، دون أن يبوح بأنه كان خبيراً فيه. وما زلت أتذكر بشأن مغادرتي البوسنة ذلك الصيف، أني خابرت «إيفان بارنز» في جريدة «التايمز» لأنبئه أني رأيت متشابهات في يوغوسلافيا الحديثة مع لبنان قبل بدء النزاع عام ١٩٧٥، وأني توقعت نشوب حرب أهلية في البوسنة في المستقبل القريب. فضحك «بارنز» من سذاجتي، وقال: «سنقدم تقريراً عنها عندما تحدث». وفي عام ١٩٩٢، كنت أراسل جريدة «الإندبندنت» بخصوص الحرب في البوسنة.

إن حرف (W) الذي يبدأ به اسم «والدهايم ـ فالدهايم» ظهر تحت خلاصة استجواب أحد ضباط «وودهاوس» التنفيذيين الذين كانوا أعضاء في العمليات الخاصة، ذلك الضابط الذي قُبض عليه في يوغوسلافيا وأُعدم فيما بعد بواسطة «الغستابو». كان «وودهاوس» رجلاً يعيش في الظل بادىء ذي بدء ـ أثناء حرب البلقان وفي طهران ـ ثم صار عضواً في البرلمان. وأردتُ أن أعرف منه، قبل أن يموت، لماذا قام الغرب بهذه الحرب ممثلاً ببريطانيا والولايات المتحدة الأميركية ـ لماذا اخترنا أن ندمِّر ديمقراطية إيران العلمانية الوحيدة.

نظر «وودهاوس» إليّ نظرات ثابتة خارقة. وقال: «قيل لي في بعض الأحيان أنني كنت مسؤولاً عن فتح الأبواب لآية الله الخميني والآخرين. ولكن من الجدير بالملاحظة أنه مرّ ربع قرن بين «عملية الجزمة» وسقوط الشاه. وفي النهاية برز الخميني فوق الجميع ـ ولكن بعد سنين. وأفترض أنه كان بالإمكان أن نحسن استثمار الوقت الذي مضى». دُهشت، فالانقلاب على مصدّق، وعودة الشاه، كان عملية وقف وتأخير للتاريخ. وكان هناك أيضاً مسألة بسيطة أخرى، الشركة الإنكليزية ـ الإيرانية للنفط، التي صارت فيما بعد شركة النفط البريطانية ـ التي أمَّمها مصدّق. وكان بإمكان المرء أن يستنتج من الطريقة التي تكلم بها «وودهاوس»، والإلحاح في حركات يديه، أن هذا الأمر كان من أكثر اللحظات إثارة في حياته. كانت عودة الشاب محمد رضا شاه بهلوي الهدف الأسمى. كلّفت مليونين من الإسترلينيات، وحمولة طائرة من الأسلحة، وربما حياة خمسة آلاف شخص. وبعد ٢٥ سنة تحوّل كل ذلك إلى غبار.

سمّى الأميركيون مؤامرتهم «عملية آجاكس»، التي لا بد أنها كانت جذابة لما هو أكاديمي في «وودهاوس»، حتى لو لم تكن أروقته الكلاسيكية مدعاة للنجاح، فآجاكس جاء بعد أخيل في الشجاعة؛ لكنه قتل نفسه في نوبة جنون، ذلك المصير الذي كان الأميركيون يريدونه لمصدّق. وعلى كل حال، كان ذلك بعيداً عما حدث فيما بعد من حملات تطمح إلى «تغيير النظام» في الشرق الأوسط، وما قام به بعض المحافظين الجدد في «البنتاغون» عام ٢٠٠٣ من

مراجعة محفوظات بدايات الخمسينيّات لقلب زعماء الشرق الأوسط قبل الانصراف إلى «عملية حرية العراق». ومن ثمَّ، فإنّ عملية «الجزمة ـ آجاكس» وإن كانت بلا شك متعلقة بالنفط ـ لم يكن المقصود منها تغيير خارطة الشرق الأوسط، ناهيك بإدخال «الديمقراطية» إلى إيران ـ فالديمقراطية بشكلها الشعبي وبصورة مصدّق الواهن إلى حدٍّ ما، باتت الأمر الوحيد الذي لم يكن ضمن اهتمام واشنطن ولندن.

لم يجتذب ذلك المشروع الرئيس «ترومان»؛ ولكن عندما جاء «أيزنهاور» إلى البيت الأبيض عام ١٩٥٣، خافت أميركا من أن يسلِّم مصدّق بلاده للسوفيات. وكانت مسؤولية وكالة الاستخبارات الأميركية في تلك العملية منوطة إذ ذاك بالسعيد الذكر «كيرمت روزفلت» حفيد الرئيس الأسبق المغاير «ثيودور»، وكان غريمه شخصاً معاكساً تماماً لصدّام حسين. قال مصدّق مرّة: «لن تتوصّل أُمّة إلى شيء يذكر تحت لواء الدكتاتورية». وهذه كلمات أخرى يقولها بعد نصف قرن أولئك الذين يكتبون الخطابات لجورج بوش الابن. ولكن مصدّق كان ضحية حملة طويلة افترائية على شخصه من قِبل خصومه الدوليين. لقد تكلموا عن وجهه «الشاحب»، وعن السيلان الدائم من أنفه. وقد وصفه الكاتب الفرنسي «جيرار دي ڤيليه» بأنه «مثير للشغب بحجم نصف لتر... وبرشاقة الماعز». وادَّعت جريدة «النيويورك تايمز» عند موته أنه «كان يعقد اجتماع مجلس الوزراء مسنوداً في الفراش بثلاث مخدَّات، ومتغذياً بما ينقل إليه من بلازما الدم الأميركية». أجل، لقد كان مصدّق أرستقراطياً ذا ثقافة أوروبية؛ وكان يلبس بيجامات وردية اللون، وينفجر باكياً في البرلمان؛ ولكن يبدو أنه كان ديمقراطياً حقاً ـ لقد كان مشهوراً كدبلوماسي وعضو في البرلمان ـ وكانت إدانته لاستبداد الشاه، ورفضه الموافقة على تنازلات أخرى لشركة النفط مواقف أعطت دعماً شعبياً للجبهة الوطنية الائتلافية التي يتزعمها. وعندما وصل «وودهاوس» إلى طهران ـ وكانت وظيفته الرسمية «ضابط الاستعلامات» في السفارة ـ كانت إيران على شفا الكارثة. فقد انقطعت المفاوضات مع شركة النفط (AIOC) التي كان موظفوها، حسبما أقرّ «وودهاوس»، مضجرين،

وعنيدين، ومتعبين». وكان السفير البريطاني عازباً، تسيطر عليه أخته المطلّقة. وكان إزاءه ملك من ملوك المال كوفىء لأنه تبرّع للحزب الديمقراطي(*).

قال «وودهاوس»: «كان أول عمل عليّ أن أقوم به استجلاب حمولة طائرة من الأسلحة إلى إيران». وقد سافر على متن تلك الطائرة من قاعدة الحبَّانية العراقية ـ التي أصبحت بعد عقود محطة قاذفات القنابل لدى صدّام حسين، ثم صارت فيما بعد كذلك ثكنات لجيش الاحتلال الأميركي ـ ثم اشترى ملايين من الريالات الإيرانية، وسلَّمها في مكان سرِّي إلى الأخوين الرشيديين، المولجين بتنظيم العصابات الغوغائية التي ستمهِّد للانقلاب. وستكون الأسلحة لهم أيضاً. إلّا إذا غزا الاتحاد السوفياتي إيران، فتستعمل تلك الأسلحة عندئذٍ لمحاربة الروس.

واستأنف «وودهاوس» قائلاً: «هبطت طائرتنا في طهران، بعد أن أضعنا طريقنا فوق جبال «زاغروس». وكان أكثر الشحنة رشَّاشات ومدافع «سْتَنْ». سرنا بها شمالاً في شاحنة، متجنبين نقط التفتيش بسلوك طرق جانبية. ولم نفكر في أن يوقفنا أحد. دفنَّا الأسلحة. وأعتقد أن مرؤوسيّ أعدّوا الحفر. وبحسب علمي، لا تزال تلك الأسلحة مخبّأة في مكان ما في شمالي إيران. وقد بنينا كل ذلك على افتراض أن الحرب ستنشب بدءاً من الاتحاد السوفياتي. وعندما أُرسلت إلى طهران لم يكن القصد من ذلك أن أتدخل سياسياً. وفي الواقع، كان التدخل السياسي في السفارة البريطانية في طهران بيد شخصية أخرى مختلفة. هي شخصية «روبن زاهنر»، الذي كان حسن المعشر وذكياً جداً، ولكنه غريب الأطوار. وكانت وظيفته أن يتخلص من مصدّق. لكنها أصبحت وظيفتي بعدما يئس «زاهنر» وغادر طهران».

(*) يجدر أن يلاحظ دارسو بهيمية صدّام حسين فيما بعد، أن خليفة السفير الأميركي «لوي هندرسن»، كتب إلى وزارة الخارجية: «نحن نواجه وضعاً يائساً وخطراً، ورجلاً مجنوناً قد يتحالف مع الروس». فإذا حذفت كلمة «الروس» ووضعت بدلاً منها «القاعدة» يمكن أن يكون التصريح للرئيس بوش، أو رئيس الوزراء بلير عام ٢٠٠٢.

وفي الواقع، صار «زاهنر» فيما بعد أستاذاً للديانات الشرقية في جامعة «أكسفورد»؛ واشترك في محاولة بريطانيا المشؤومة لإحداث ثورة في ألبانيا الشيوعية. وكانت قاعدته في مالطا؛ وقد اتهمه عملاء أميركيون بخيانة تلك العملية ـ ولم يصدِّق «وودهاوس» ذلك أبداً ـ وصار ضابط الارتباط الأول مع الشاه. لقد كان «زاهنر» هو الذي رعى الأخوين الرشيديين، اللذين عملا كلاهما ضد النفوذ الألماني في إيران، خلال الحرب العالمية الثانية. وكانت طهران على وشك طرد موظفي السفارة البريطانية خارج إيران. ولذلك، اتصل «وودهاوس» برئيس محطة الاستخبارات الأميركية (CIA) في المدينة «روجر غواران»، «الذي كان زميلاً يستحق الإعجاب... جاء من عائلة فرنسية، وكان ثنائي اللغة، بالغ الذكاء ومحبوباً، وله زوجة فاتنة... كان حليفاً لا يقدَّر بثمن، عندما كان مصدّق سيرمينا خارجاً». وحالما عاد «وودهاوس» إلى لندن، أخذ خططه إلى الأميركيين في واشنطن: بحيث يسيطر على طهران خليط من الأخوين الرشيديين، مع تنظيم لعدد من الضباط المتذمرين في الجيش والشرطة، ونواب في البرلمان، والشيوخ والأئمّة، ورؤساء تحرير جرائد، ورعاع من السوق، بعد إغرائهم كلهم بأموال «وود هاوس»؛ بينما يسيطر على المدن زعماء القبائل بالأسلحة التي طمرها «وود هاوس».

رفض مصدّق آخر مقترحات التسوية مع شركة النفط (AIOC)، وهدَّد الشاه ـ الذي كان قد غادر إيران ـ ومن تلك اللحظة كان مصيره قد أصبح واضحاً. سافر روزفلت سراً إلى طهران، بينما قابل «وودهاوس» أخت الشاه «أشرف» في سويسرا في محاولة لإقناع أخيها بأن يبقى على العرش. كما أرسل إلى الشاه نفسه رسولاً لهذا الغرض، هو اللواء «هـ. نورمان شوارزكوف» والد «نورمان شوارزكوف» الذي سيقود القوات الأميركية عام ١٩٩١ في حرب الخليج على العراق. وتجاوب الشاه مع رغبات حلفائه من الدول الكبرى؛ فأصدر فرماناً يعزل مصدّق كرئيس للوزراء. فرفض مصدّق وأوقف اللواء نعمة الله نصيري ـ الذي نقل أمر الشاه ـ وظهر إذ ذاك في شوارع طهران السوقة الذين أعدّهم «روزفلت»، و«وودهاوس» لهذه الغاية.

كان «وودهاوس» غير نادم على ما فعل. قال: «كان كل ذلك من خطأ مصدّق الذي أمره فرمان الشاه بالرحيل، فجمع سفّاحيه وسبّب حمّام الدم. لو لم نفعل شيئاً؟ ماذا يمكن أن تكون عليه العلاقات بين مصدّق والشيوخ الأئمة؟ لكانت الأمور ساءت. ولمّا كانت شركة النفط (AIOC) قد عادت إلى وضعها السابق. ولكان الشاه قد خُلع عن العرش فوراً، بدلاً من أن يحصل ذلك بعد ٢٥ سنة»(*).

وكان «وودهاوس» لا يزال في حداده على وفاة زوجته منذ سنتين؛ ويُعمل فكره في ترجمة تاريخ اليونان الحديثة إلى الانكليزية، ذلك التاريخ الذي كتبه صديقه وزميله العالِم «بنايوتيس كانيللوبولوس».(**) وكان يسيراً أن تراه مسنّاً لطيفاً، وقد صار البارون «ترينغتون» الخامس، كشخصية رومانسيّة من التاريخ. لقد كان رجلاً عرف «تشرشل»، و«إيدن»، وكبار موظفي وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) في واشنطن. لكن العملاء البريطانيين الذين يهندسون الانقلابات لا تعذبهم ضمائرهم. وفي مرحلة من مراحل محادثتنا، تكلم «وودهاوس» عن مشاعره، بقوله: «لا أريد أن أتبجّح، ولكني لم أكن خائفاً أبداً ـ لا في أثينا أثناء الاحتلال الألماني، ولا في طهران خلال هذه العملية ـ فضلاً عن أني لم أخف من القفز بالمظلات حتى في الموقع الخطأ، مثلما كان منتظراً مني. وعندما أستعيد هذه الذكريات أرتعد؛ لقد كنت دائماً مأخوذاً بالخطر، ومفتوناً بالاكتشافات التي تنجم عن كون المرء في خطر».

(*) ليس هناك ما يدعو إلى العجب في أن تعلن وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) عام ١٩٧٧، أن جميع الوثائق والمستندات المتعلقة بالانقلاب على مصدّق قد أتلفت في أوائل الستينات، ذلك الإتلاف الذي وُصف بأنه «نقض مخيف للعهد مع الشعب الأميركي»، من قبل مدير تلك الوكالة السابق «جايمس وولسي»، الذي صرّح علناً عام ١٩٩٣، بأن الوثائق الإيرانية ستعرض علناً على الشعب. وقد دوّن أحد المؤرخين المعنيين بهذه الوكالة بأنه كانت هناك «ثقافة إتلاف» في وكالة الاستخبارات الاميركية (CIA) في أوائل الستينات.

(**) عندما مات هذا العالم عام ٢٠٠١، لم تذكر سوى سيرة «وودهاوس» الحربية. وفي نعيه مع ترجمة لسيرته الصادرة في جريدة «الإندبندنت» (بتاريخ ٢٦ شباط/ فبراير ٢٠٠١)، لم يذكر الاحتيال الخادع الذي قام به في بلاد الفرس.

شعرت بأن هناك وجهاً مظلماً لهذا العزم والتصميم. ففي سيرة حياته، يصف «وودهاوس» شيئاً مما حدث له أثناء الحرب العالمية الثانية في اليونان. فقد قبض على غجري يحمل جواز سفر إيطالياً، ويعمل لدول المحور. وعلى الأثر، شكّل «وودهاوس» مع اثنين من قادة حرب العصابات هما: «نابوليون زرفاس» و«أريس فيلوكيوتس»، محكمة عرفية. وكما كتب: وكانت النتيجة حتمية، إذ لم يكن ممكناً إيكاله إلى حارس، أو تحمل مسؤولية هربه؛ ولذلك شُنق في ساحة القرية».

أمازال «وودهاوس» يفكر في ذلك الشاب؟ طرحت عليه هذا السؤال بلطف عند آخر محادثتنا، بينما كانت الدنيا ترشق نافذة مكتبته بالبَرد والثلج. صمت طويلاً، وهز رأسه ببطء وقال: «كان ذلك فظيعاً ـ لقد شعرت بفظاعته. أستعيد ذلك من وقت إلى آخر. كان شاباً فقيراً بائساً. لم يقل شيئاً ـ بل كان يرتجف، كما لو كان لديه شيء من البلاهة. وقد حضرت عملية الشنق. لقد شنقوه على شجرة بسحب كرسي من تحته. لم يدم نزاعه طويلاً، ولا أتذكر كم دام. كنا حوالي مئة شخص ـ وكان ذلك في أوائل الاحتلال. ولو تركناه لذهب وأخبر الإيطاليين. . . لقد كان يتبعنا من قرية إلى أخرى. وبعد ذلك طلبت من «زرفاس» أن لا يأخذ أسرى».

أعتقد أن «وودهاوس» نظر إلى الانقلاب الإيراني ببرودة القلب ذاتها. فلا شك في أنه لم يكن لديه وقت لآية الله أبي القاسم قاشاني مثلما كان لديه لمصدّق. كان قاشاني بشيراً بقدوم الخميني ـ وعالماً دينياً سماوياً ألطف منه ـ أكسبته معارضته للبريطانيين رصيداً وطنياً دون أن يصير حليفاً آلياً لمصدّق. لكنه لم يخلّف في نفس «وودهاوس» انطباعاً قوياً، إذ قال عنه: «لا يمكن المرء أن يأخذ قاشاني على محمل الجدّ ـ لقد أصبح عضواً في المجلس (البرلمان)، مما كان يتعارض مع مركزه كآية للّه. ولم تكن له قاعدة نفوذ. . . لقد كان وحيداً، وغير مرتبط بأية حركة جماهيرية. كما كان مزعجاً. مثيراً للمتاعب». ولكن آخرين قدّروا القاشاني بشكل مختلف: إنه يتكلم عن «الديمقراطية في الإسلام»؛ لقد كان غير هيّاب، لا يتحرّج في الإقدام حتى على الخطأ، ومتحرراً تماماً من

المنفعة الذاتية... وبهذه الصفات النبيلة يجمع بين التواضع والتهيؤ للعمل، واللطف والدعابة، وسعة الثقافة والفصاحة الشعبية(*). وفي تشرين الثاني/ نوفمبر، عام ١٩٥١، صرَّح القاشاني قائلاً: «لا نريد لأية حكومة خارجية أن تتدخل في شؤوننا الداخلية... وعلى الولايات المتحدة الأميركية أن تتوقف عن اتباع السياسة البريطانية، وإلّا فإنها لن تربح شيئاً سوى البغضاء وفقدان مكانتها المرموقة في العالم بعامة، وفي إيران بشكل خاص».

ومعظم هذا التحذير يمكن أن يعطى لبريطانيا في الشرق الأوسط بعد ٥٢ سنة، عندما اتبعت حكومة طوني بلير سياسة أميركا في العراق.

لقد كان «وودهاوس» مصيباً في أمر واحد: تواري آية الله القاشاني عن الساحة بعد خلع مصدّق ومحاكمته ـ مع العلم أنه حُكم على مصدّق بالسجن ثلاث سنوات، ومات محتجزاً في منزله بعد عشر سنوات. وقد دوّن «وودهاوس» كيف أن آية الله هذا أرسل برقية تهنئة للشاه بعد عودته إلى إيران. لكنّ حكم مصدّق والانقلاب الذي أنهى استقلال إيران عام ١٩٥٣ يعطي دروساً مريرة وقاسية للثوريين منذ عام ١٩٧٩. فإذا كان هناك احتمال في أن يخلع الشاه، لا يجوز العبث بالحقوق الدستورية، ولا اتخاذ أنصاف حلول أو تدابير، ولا السماح لثورة مضادة بأن تعيد النفوذ الغربي إلى إيران. فالثورة المستقبلية ستكلّف أكثر من خمسة آلاف قتيل. ويجب ان تكون نهائية، مطلقة ـ لا ترحم؛ إذ يجب أن يُصفَّى فوراً الجواسيس، والنظام البائد.

كما أن هناك دروساً أخرى للأميركيين وللبريطانيين، وللشاه، لو اختاروا أن يكونوا أكثر انتباهاً. فلا بد أن يُرى الشاه دائماً من الآن فصاعداً أداة للولايات

(*) لم يكن رجل المستقبل آية الله الخميني في تلك المرحلة معارضاً للشاه. وقد روى الأكاديمي الأميركي «جايمس آ. بيل» شائعات عن أن قائد المستقبل للثورة الإسلامية في إيران كان بين الذين حثُّوا رجل الدين الشيعي البارز في ذلك الوقت «آية الله سيد محمد حسين بوروجوردي»، على مساندة النظام السياسي للشاه. مع العلم أن سيرة حياة الخميني التي ظهرت في الجرائد عام ١٩٧٩، دبَّرت عدم الإشارة إلى أنشطته التي مرّ عليها أكثر من ربع قرن.

المتحدة ولبريطانيا. وكما كتب «جايمس أ. بيل»: «إن سقوط مصدّق فتح عهداً جديداً من التدخل وزيادة العداء لأميركا بين صفوف القوى الوطنية الإيرانية الواعية». وسيصيب «وودهاوس» الاكتئاب الشديد بثورة الخميني التالية. أو كما قال: «شعرت بأن العمل الذي فعلناه ذهب سُدى، وأن نوعاً من الرضا الذاتي أو الممالأة قد ساد بعد إعادة الشاه إلى عرشه. لقد سهّل تقبّل الأمور الراهنة». وبعد إخراج مصدِّق، مدح «آلن دالاس» «وودهاوس» لأنه زار واشنطن، وأقنع إدارة «أيزنهاور» بدعم الانقلاب، بقوله مخاطباً «وودهاوس»: «لقد وضعت بيضة بهيجة صغيرة عندما كنت هنا في المرة الأخيرة».

ولكنك لن تذهب بعد اليوم إلى وضع «بيض صغير»؛ لأن هناك اليوم مشاريع أيديولوجية طموحة، وجيوشاً كبيرة ـ و«أنوات» (جمع «أنا» بلغة فرويد Ego) أكبر ـ تتورط في «تغيير الأنظمة». وربما لهذا السبب يخيبون بسرعة ويسبّبون حمّامات الدم. إن الانقلاب ضد مصدّق كان أول عملية من تلك العمليات التي قام بها الأميركيون في الحرب الباردة ـ وآخر عملية قام بها البريطانيون. وعلى الأقل لم ندَّعِ أبداً أنه كان لدى مصدِّق أسلحة للدمار الشامل. ولكن الكلمة الأخيرة يجب أن تكون لرجل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، «كيرمت روزفلت»، إذ كتب وكأنه بصير بعلم الغيب: «إذا أردنا أن نصنع شيئاً من هذا القبيل في المستقبل، يجب علينا أن نتأكد تماماً من أن الناس والجيش يريدون ما نريد».

لقد قام الرضا الذاتي (أو الممالأة) الذي حدَّده «وودهاوس»، على عاتق أجهزة الأمن التي أنشأها الشاه بعد عودته: «السافاك»، أي «منظمة الاستعلام والأمن القومية» ـ التي صارت الأكثر شهرة، والأكثر إجراماً من غرف التعذيب بين مؤسسات الشرق الأوسط الأكثر فظاعة. وقد اتصلت بالمقر الرئيس للسافاك بعثة أميركية سرِّية دائمة. وشملت طرائق الاستجواب ـ علاوة على الأسلاك الكهربائية التقليدية المربوطة بأعضاء التناسل، والضرب على باطن القدمين، وسحب الأظافر ـ الاغتصاب، و«الطبخ»، آخر صرعة من أشكال التعذيب التي تفسِّر نفسها بنفسها، والتي تربط فيها الضحية إلى سرير من أسلاك يجري فيها

التيار الكهربائي، لتصبح فعلاً أداة للشيّ أو التحميص(*). وقد انبرى كبير الصحافيين المصريين، محمد حسنين هيكل، الذي كان سابقاً رئيس تحرير الأهرام وأمين أسرار جمال عبد الناصر، فوصف كيف صوّر «السافاك» تعذيب أمرأة إيرانية شابَّة، وكيف جرّدوها من ملابسها، وأطفأوا السجائر في حلمتي ثدييها. وبحسب رواية هيكل، وُزِّع الفيلم فيما بعد بوساطة وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) على وكالات الاستخبارات الأخرى العاملة في الأنظمة التي تدعمها أميركا حول العالم، بما فيها: تايوان، وأندونيسيا، والفيليبين. وقد سيطر الكولونيل «نعمة الله نصيري» على «السافاك» خلال الحقبة الأخيرة من حكم الشاه التي امتدت حوالى ١٥ سنة؛ واستخدم فيها ٠٠٠ ٦٠ عميل. وهو الذي أبلغ مصدِّق أمر الشاه بصرفه. وفي وقت من الأوقات، تم الاعتقاد بأن ثلث السكان الرجال في إيران كانوا متورطين بالعمل مع «السافاك» بشكل من الأشكال، إما مباشرة، أو كمخبرين مؤقتين أو مبتزّين. وشمل ذلك دبلوماسيين، وموظفين مدنيين في الدولة، وشيوخاً أئمة، وممثلين، وكتَّاباً، ومديرين في دوائر النفط، وعمَّالاً، وفلاحين، وفقراء من العاطلين عن العمل، والمجتمع بأكمله أُفسد بالنفوذ والخوف.

وهكذا صار الشاه شرطي الغرب، الحاكم المستبد المطلق الحكيم ـ دون أن يكون دكتاتوراً ـ وأصبح معقِلاً ضد التوسع السوفياتي في جنوبي غربي آسيا، وحارساً لإمدادات النفط، ومرشحاً ديمقراطياً ـ تيمّناً ـ ومصلحاً منصرفاً إلى قيادة شعبه إلى مستقبل اقتصادي مشرق. وخلال ربع القرن القادم، صدَّرت

(*) وكان أحد الضحايا «مسعود أحمد زاده»؛ وهو مهندس أعدمه النظام فيما بعد. ففي عام ١٩٧٢، حضر محاكمته محام فرنسي هو «نوري ألبالا»، الذي وصف كيف نزع «أحمد زاده» كنزته، وكشف عن آثار التعذيب، قائلاً: «كان كل وسط صدره ومعدته كتلة من الندوب الملتوية المشوَّهة كآثار للحروق العميقة جداً. لقد كانت مرعبة مروِّعة... وكان ظهره أسوأ من ذلك. كان هناك شكل مستطيل محفور فيه، مؤلف من خط مستمر من آثار الجروح. كما كان الجلد داخل المستطيل مغطى بندوب لامعة من أثر الحرق». وقد كتبت «أشرف دهقاني» التي هربت من السجن بعد التعذيب ـ وكانت مناضلة معارضة ـ عن كيفية اغتصابها من قبل معذّبيها من «السافاك»، ووضع حيّات على جسدها.

صناعة النفط الدولية ٢٤ مليار برميل من النفط من إيران. كما أمسى «شرطي الخليج» أكثر أهمية من أي وقت مضى، نظراً لانسحاب البريطانيين من «شرق قناة السويس». ولكن حكم الشاه لم يكن أبداً مستقراً كما يدَّعي مساندوه ويحاولون إقناع العالم بذلك. فقد كانت هناك أعمال شغب وانتفاضات ضد النظام طيلة الستينيّات، وحصل ٤٠٠ انفجار بين عام ١٩٧١ و١٩٧٥. وفي أوائل عام ١٩٦٣، كرر آية الله الخميني إدانته لحكم الشاه. وفي ٣ حزيران/يونيو، يوم عاشوراء في كربلاء، أي مقتل الإمام الحسين حفيد الرسول، شجب حكم الشاه واتهمه بالفساد، فأوقف فوراً وسيق إلى طهران. فحصل انفجار غضب شعبي كرَّس الخميني كزعيم للمعارضة. وبتاريخ ٤ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٤، ألقى خطاباً أدان فيه قانوناً جديداً أعطى القوات الأميركية حصانة تمنع ملاحقتهم للجرائم المرتكبة داخل إيران. ومنذ ذلك الحين، يستطيع الأميركي الذي يقتل إيرانياً أن يغادر البلاد، بينما الإيراني الذي يقتل إيرانياً آخر يمكن أن يشنق(*). وفي اليوم التالي، نُفي الخميني إلى تركيا.

وقد نجحت ثورة الشاه «البيضاء» في استلاب الطبقات الوسطى، عن طريق إصدار تشريعات متعلقة بإصلاح الأراضي، واغتراب رجال الدين بتغذية الطابع العلماني للنظام، ولا سيما بإعطاء المرأة حق الانتخاب. وفي عام ١٩٧٧، قبل أقل من سنتين من نشوب الثورة الإسلامية، كان الشاه يتنبأ أن بلاده ستتنامى كدولة غربية خلال عشر سنوات، وتصير بعد ذلك واحدة من أقوى دول العالم الخمس. وكانت إدارة الرئيس «جيمي كارتر» حاملة عبء الرغبة الليبرالية في نشر حقوق الإنسان عبر العالم. لكنها كانت كذلك متلهفة إلى إبقاء نفوذ الشاه. فاستمرت في السياسة الأميركية الداعمة للإصلاحات التي سببت كثيراً من القلاقل للإيرانيين. وقد قام الزعماء الإسرائيليون بزيارات متكررة لإيران ـ ومنهم: «دايفيد بن غوريون، وموشي دايان، وغولدا مائير، وأبا إيبان، واسحاق

(*) وقد أصدر «پول بريمر»، نائب القنصل الأميركي في بغداد، بعد غزو أميركا للعراق عام ٢٠٠٣، قانوناً مماثلاً لذلك تقريباً؛ مما أثار احتجاجات واسعة النطاق من قبل العراقيين، وأسهم في تعبئة الرأي العام الشعبي ضد الاحتلال الأميركي.

رابين، وإيغال آلون»، الذين زاروا كلهم طهران، بالسر غالباً. كما سافر ضباط عسكريون إيرانيون إلى تل أبيب لإجراء محادثات مع كبار ضباط الجيش الإسرائيلي. وكانت هناك رحلات منتظمة لشركة طيران «العال» الإسرائيلية بين تل أبيب وطهران.

وكان الشاه يحاول باستمرار أن يجدّد نفسه، ككل الملوك المطلقي الصلاحية. ففي عام ١٩٧١، دعا زعماء العالم للاحتفال بيوبيل مرور ٣٠ سنة على حكمه. وجرى الاحتفال الكبير كصفعة عنيفة في المدينة القديمة «برسيبوليس»، عاصمة إمبراطورية الفرس تحت حكم داريوس الأول. وكان هناك توجه لجعل تلك المدينة «قبلة العالم ومركز جاذبيته وثقله». وجرى استيراد كل امرىء وكل شيء من الخارج: من «أميلدا ماركوس» إلى نائب رئيس الولايات المتحدة: «سبيرو أغنيو»، ومن الملك حسين، ملك الأردن، إلى النبيذ الرائع والمفروشات الفاخرة في خيمة «الرؤساء الكبار» الواسعة الواقعة قرب أطلال المدينة. وكان القصد أن يُعبد الشاه كوارث روحيّ لإمبراطورية «كسرى (سايروس) الكبير»، الذي شمل حكمه مسافات شاسعة من الأراضي التي امتدت إلى البحر الأبيض المتوسط، وفيما بعد إلى مصر غرباً ونهر «الإندوس» شرقاً. وقد أخضع الإسكندر الكبير «برسيبوليس» عام ٣٣٠ قبل ميلاد المسيح؛ وتقول الأسطورة إنّه أمر بهدمها بناء على طلب إحدى محظيات البلاط. ومن أجل عيد ميلاد الشاه، أُلبس الجنود الإيرانيون ثياباً تاريخية تمثل الميديين والفرس والصفويين والقاجار والبارثيين.

وقد خلا كل ذلك من أيّة إشارة إلى النبي محمد (ص) والغزوات الإسلامية التي أدخلت الإسلام إلى بلاد فارس. ولكن هنا بيت القصيد. كان الشاه يعرض نفسه، لا كمسلم، بل كوارث ملكي لبلاد الفرس قبل الإسلام. وبالطبع أدان الخميني حفلة السمر والمرح الصاخبة، ووصفها بأنها فاحشة.

لم يكن لهذا التعظيم الذاتي شأن كبير عندما جاءت النهاية. وفي الواقع، نُقل نثار الوليمة بواسطة نظام آية الله إلى رمز للخواء. وعندما كان الشاه منفياً لوقت طويل، وتحت المعالجة الجراحية في نيويورك، سافرتُ إلى أطلال مدينة

«برسيبوليس» من طهران، ووجدتُ الخيمة الخاصة لا تزال قائمة قرب أطلال المدينة. كما أني انحنيت على حوض الاستحمام المصنوع من الذهب الخالص؛ وفتحت أيضاً الصنابير (الحنفيات) المصنوعة كذلك من الذهب الخالص؛ ولكن لم يكن بها ماء.

ولم يكن الشاه كذلك يحمل في عروقه دم كسرى (سايروس). فليس له تلك الرابطة السلالية ـ فسلالة بهلوي أُسّست عام ١٩٢٥ ـ مع أنه كانت هناك صلة ثابتة من الدم تربط مختلف الشاهات في تاريخ إيران. وقد روى الكاتب البولندي «ريزار كابوسنسكي» بوضوح وفصاحة الأهوال المرعبة التي ارتكبها في القرن ١٨ الملك «آغا محمد خان»، الذي أمر بقتل جميع سكان مدينة «كرمان» أو فقوء عيونهم، لأنهم آووا الشاه السابق، بقوله: «صفّوا السكان، اقطعوا رؤوس الراشدين، واقلعوا عيون الأولاد بالأصابع... وقد غادرت المدينة فيما بعد قافلة من الأولاد العميان...».

وقد أقنع الأميركيون الشاه أخيراً بالسماح للجنة الصليب الأحمر الدولي بالدخول إلى السجون الإيرانية عام ١٩٧٧، لرؤية ثلاثة آلاف مسجون أمني ـ أي سياسي ـ في ١٨ سجناً مختلفاً. فسجلت اللجنة كيفية ضرب السجناء وحرق أجسادهم بالسجائر والمواد الكيميائية، وتعذيبهم بالكهرباء، واغتصابهم عن طريق إدخال القناني في شروجهم، وصب البيض المغلي. وأدخل المستنطقون المستجوبون أسلاكاً كهربائية عنوة في أرحام السجينات. وقد دوّن تقرير الصليب الأحمر موت ١٢٤ سجيناً تحت التعذيب. أما الشاه فقد صرّح بعد سنة «للصنداي تايمز» حول حقوق الإنسان قائلاً: «لا نحتاج دروساً من أي كان».

وعندما غمرت الثورة الإسلامية إيران في آخر المطاف، كنّا نتساءل عن القدرة الإيرانية على القسوة والإحساس، وعلى الغضب والجهد الفكري الممتاز، الطويل، المنهك. وفي بلاد لها تاريخ عنيف، نجد ساحاتها العامة ملأى بتماثيل الشعراء: الفردوسي، حافظ، سعدي، بدلاً من الفاتحين، مع أن للشاه ولوالده طبعاً تماثيل عديدة. وقد قارن أحد السياسيين العرب مرة استمرار وجود المحن في إيران مع تمهُّن الإيرانيين في حرفة حياكة السجّاد، قائلاً:

«تصوّر أن نسج سجّادة واحدة، يشترك فيه عدد كبير من الناس، ويستغرق حوالى عشر سنوات. إن الناس الذين يصرفون سنوات في صنع سجادة مفردة، ينتظرون سنوات أكثر لينتصروا في الحرب. لا تستخفّ بصبر الإيرانيين ومثابرتهم...».

وهكذا كان. فقد نقل الخميني منفاه من تركيا إلى مدينة النجف الشيعية المقدسة في عراق صدّام حسين، حيث أعلن صراحةً دعمه للفلسطينيين؛ وسجّل خطبه على أشرطة وزِّعت عبر إيران. وكان صدّام حسين قد اتفق مع الشاه على ترسيم الحدود بين البلدين عند شط العرب على الخليج، وعلى إخماد عصيان الأكراد المسلح في شمالي العراق؛ وهي خيانة تواطأ فيها الوزير الأميركي هنري كيسنجر والشاه. ولمّا لم يستطع الشاه أن يوقف انتشار خُطب الخميني المسجلة على أشرطة، طُلب من صدّام ترحيل الخميني، الذي خرج واستقر في ضاحية «نوفل ـ لو ـ شاتو» قرب باريس، حيث حظي بإعجاب الصحافة الدولية المستمر، تلك المؤسسة التي عاد فيما بعد فأظهر احتقاره لها.

وعندما وقعت الهزة السياسية في إيران، كانت جريدة «التايمز» تعاني من إقفال صناعي طويل. إن قَدَر الصحافيين أن يكونوا في المكان المناسب في الوقت المناسب، وأكثر من ذلك في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. ولكن أن يكون الصحافي في المكان المناسب دون أن يحظى بجريدة يكتب لها، فذلك وضع جهنمي له. وعندما كان عليّ أن أروي استشهاد عشرات الألوف من الإيرانيين على يد حراس الشاه «الجافيدان» ـ الخالدين ـ كنت أستقيل من الاتحاد القومي للصحافيين الذين كانوا، بناء على كل أنواع الأسباب الاشتراكية الوجيهة، يعارضون صاحب الجريدة «اللورد تومسون» الإنساني الخيِّر، في خصومته مع الطابعين بشأن التكنولوجية الجديدة. وقد قام الاتحاد في آخر الأمر، بحزم «التايمز» وعرضها على «روپرت موردك» للبيع. ولكن هيئة الإذاعة الكندية أنقذتني بطلبها مني تغطية أحداث الثورة الإيرانية لنصف ساعة توثيقية على الراديو. فحزمت المسجّل الكبير الذي كانت تلك الهيئة تزوّد مراسليها به في تلك الأيام ـ قبل ورود الوسائل الرقمية الحديثة بكثير ـ واصطحبتُ كيساً للأشرطة ودفتراً، استعداداً لنشر تقاريري في جريدة ما، إذا تسنَّى لي ذلك.

كان سقوط الشاه ملحمة. لقد كان في ذلك السقوط شيء من تمثيل أخلاقيات القرون الوسطى، وربما المأساة العريقة في القِدم. وكان يمكن وصفها بأنها إغريقية لو كان الشاه رجلاً عظيماً حقاً وفقد حظوته بهفوة وحيدة. لكنه لم يكن رجلاً عظيماً، بل كانت خطيئاته عديدة. وربما كانت جريمته الكبرى هي الغطرسة الوقحة؛ مع أن الإيرانيين ربما أرادوا الأمر مختلفاً؛ لكنهم أحسُّوا بهذا العنصر الأسطوري قبل أن يقود ملك الملوك طائرته الخاصة من نوع «بوينغ» من مطار «مهراباد»، ويخرج من البلاد لآخر مرة يوم ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧٩.

ومن أكثر لافتات الثورة تأثيراً، واحدة صوَّرت الشاه بكل شعاراته ورموزه: والتاج منقلب عن رأسه الأصلع، وهو يندفع نحو مشعلة للنار تضرم في الهواء الطلق، بينما آية الله المنتقم يجوب فوقه بجناحين من ذهب. وحتى لو صُوِّر أحد حكام الشرق الأوسط تكراراً بشكل شيطان، فإنه لم يسبق في تاريخ الفن الإسلامي أن صُوِّر إنسان حي ـ كالخميني ـ بشكل يشبه الألوهية. وبينما كنت ذات يوم أتسكع في شوارع طهران التي تغطيها مستنقعات الثلج، استوقفني صبي من أولاد المدارس خارج بوابات جامعة طهران، وأراد أن يبيعني ببضعة ريالات نموذجاً من الفن التصويري لما بعد الثورة. وكان النموذج عبارة عن قناع يمثل وجه الشاه، مصنوعاً من «الكرتون»، ويبدو فيه الشاه رخو الفك مريضاً، وتاجه مثبت على رأسه بقرنين كبيرين جداً. ويمكنك إخراج العينين من محجريهما، ولبس القناع على وجهك، وإمعان النظر من خلال صورة الشيطان ذاتها في مَن يلبسنَ «الشادور»، وسائر الناس ذوي السحنة الجدِّية في مركز المدينة. وكلما اشترى أحدهم قناعاً ـ ووضعه على وجهه مثلي ـ يصرخ الناس بقوة: «الموت للشاه». كما لو كان هذا الشكل الكرتوني يحمل صاحبه في الواقع، وكأن الشيطان تجسّد فعلاً.

رجع الخميني من باريس، وقد سحرت ثورته الإسلامية بادىء ذي بدء الأكثر ليبرالية من إخواننا الصحافيين. فقد انبرى «إدوارد مورتيمر» ـ زميلي الحميم المنضوي تحت لواء «التايمز»، والكاتب القائد في الصحيفة، ورجل كل

المواسم ـ منبهراً بهذه الرومانسية الزائفة في شكلها الأكثر إحراجاً، وكتب مقالاً في جريدة «سباكتايتر»، قارن فيه الثورة الإيرانية لصالحها، مع سقوط الباستيل عام ١٧٨٩، وخلع القيصر عام ١٩١٧. وقد رأى أن وصف «شارل فوكس» للثورة الفرنسية القائل: «إنها أكبر حدث يحصل في العالم! وإنه الأفضل»، هو ترحيب في محلّه تماماً بالنسبة إلى أُسر طهران، حيث كان بين أعضائها من يستمع إلى الأغاني الثورية المذاعة من مركز البث الذي تمت السيطرة عليه قبل ذلك الوقت بقليل. كتب «مورتيمر» أن أحداث إيران تمثل «ثورة شعبية حقيقية. وربما كانت الحقيقية المثلى في العالم كله منذ عام ١٩١٧، بل ربما الأكثر شعبية أيضاً من الثورة البلشفية... ولن يقل مدى تأثيرها عن الثورة البلشفية لسائر الناس في العالم... فقد تحدَّى الخميني نفسه الاتجاه الديني المحافظ، وبالتالي لن يفرضه على باقي المواطنين في المجتمع».

والآن، هذا نوع من الشجاعة الصحافية الرهيبة، بل ربما الانتحارية. ومع أني أوافق «إدوارد» على المغازي البعيدة المدى للثورة الإيرانية، فإني أرى أن ثقته بالنوايا الليبرالية للخميني نشأت عن إيمان، لا عن خبرة. لقد برهن سقوط مصدّق على أن الثورة الناجحة التي تدوم، لا تقوم إلَّا على سفك دماء أعدائها ـ وشهدائها. لقد ألقى اللوم على «السافاك» بشأن حريق السينما في «عبدان» خلال شهر آب/ أغسطس عام ١٩٧٨ حيث احترق ٤١٩ إيرانياً وهم أحياء. وقال أعداء الشاه إنه أراد أن تُلقى تهمة المجزرة على الثوريين المسلمين. وقد تلت كل فترة من الحداد على الموتى تظاهرات احتجاجية أوسع، وضحايا أكثر. وكانت المسيرات في الشوارع تضم أكثر من مليون شخص. ولا تزال أدبيات الثورة تذكر أن جيش الشاه قتل ٤٠٠٠ متظاهر في ساحة «جالِه» بطهران يوم ٨ أيلول/سبتمبر. وعندما عاد الخميني إلى إيران من باريس ـ قام الفرنسيون الذين قدَّموا الخمر للشاه في «برسيبوليس»، بتقديم طائرة للخميني ليعود إلى وطنه ـ أُخذ مباشرة بطائرة مروحية إلى مقبرة «بهجة الزهراء». وبعد أربعة أيام أعلن تشكيل حكومة مؤقتة برئاسة مهدي بازركان. وهكذا، قد تصبح إيران بلداً ديمقراطياً؛ ولكنها بحكومة موتى، بالموتى، وللموتى.

وعلى الفور تمّ تكريم شهداء الثورة؛ وحان الوقت لرجال الشاه كي يدفعوا الثمن. كنتُ أستيقظ كل صباح لأقرأ في الصحف على الصفحة الأولى أسماء الرجال المدانين، وأرى المستنطقين «السافاك» يسقطون أمام فرق الإعدام، أو متدلِّين من المشانق. وحتى ٩ آذار/مارس صدرت أحكام بالموت على أربعين شخصاً من قِبل المحاكم الثورية. ولن يستطيع أيّ من عملائه البالغ عددهم ٦٠ ٠٠٠ أن ينقذوا نعمة الله نصيري رئيس «السافاك»؛ ذلك الرجل الأشيب، العاري الرأس، والقصير القامة، المسجَّى على حمَّالة في المشرحة، وقد فتحت ثغرة على يمين صدره. إنه «نَصِيري» ذاته الذي حمل فرمان الشاه إلى مصدّق طالباً استقالته عام ١٩٥٣، و«نَصِيري» ذاته الذي رتَّب زيارات «بن غوريون»، و«دايان»، و«رابين» إلى طهران. وقد أُعدم اللواء «جعفر خولي صدري» رئيس شرطة طهران ـ الذي كان سابقاً رئيس سجن «كوميته» ـ كما أعدم الكولونيل «ناصر غافامي»، رئيس مخفر الشرطة في سوق طهران، ورجل آخر متهم بأنه كان من أكثر المعذِّبين وحشية في سجن «القصر». النقيب «قاسم جاهنبانار». وقد حكم على ثلاثتهم بالموت مساء وأعدموا خلال ١٢ ساعة.

وكان أكثر الذين واجهوا فرق الإعدام، من الذين أدينوا بإطلاق النار على المتظاهرين خلال المسيرات الكبرى المضادَّة للشاه. وفي ١١ آذار/مارس أطلقت النار على الملازم «أحمد بهادوري»، لأنه قتل متظاهرين في «همدان». وفي «عبدان» أُعدم أربعة رجال آخرون كانوا من الشرطة، لأنهم قتلوا شاباً في التاسعة عشرة من عمره أثناء التظاهرات. وفي ١٣ آذار/مارس، أرسلت المحاكم الثورية ١١ رجلاً آخرين متهمين بأنهم عملاء من الشرطة السرِّية ومراقبين إلى فِرق الإعدام. وكان بينهم «محمود جعفريان» المتخرج من جامعة «السوربون» في باريس، ورئيس «وكالة الأنباء الوطنية الإيرانية»، و«برويز نيككه» مدير إدارة التلفزيون. وقد قال «جعفريان» البالغ من العمر ٥٦ سنة قبل موته: «آمل أن تعيش عائلتي وأبناء وطني بعد موتي بحرية». ويُعتقد أن «نيككه» كان الصحافي الذي كتب المقال الناري ضد الخميني، وأثار أعمال الشغب الدينية الدامية في مدينة «قم» المقدسة عام ١٩٧٨. وقد نشرت إحدى الصحف صور

الأحد عشر رجلاً هؤلاء، مع أسمائهم مكتوبة على قطع كرتون معلقة برقابهم. وكان جعفريان يتطلع إلى آلة التصوير دون أمل؛ بينما كان «نيككه» يبدو غاضباً إلى يمين الصورة، وكانت عينا أحد رجال الشرطة السرِّيين السابقين مُطرقتين نحو الأرض. ففي اعتقادهم أنهم رجال بحكم الموتى. ونشرت جريدة «كيهان» صورتين لرئيس شرطة «قم» السابق «آغا حسيني». وفي إحداهما، يبدو مربوطاً بسلَّم، وعيناه معصوبتان بقطعة قماش، فاغر الفم، مصطكّ الأسنان، وهو يستعد لتلقي الرصاصة الأولى. وفي الصورة الثانية، يظهر وقد التوَت ركبتاه، وارتخى على السلَّم.

ظهر مهدي بارزكان على التلفزيون مُديناً محاكمات «الكنغر»، إذ إنها عار على «ثورة رائعة حافلة بالقِيَم الدينية والإنسانية». وغضب بازركان في نيسان/ أبريل بشأن أمير عباس هويدا رئيس الوزراء السابق تحت حكم الشاه ـ الذي سجنه ليستجدي عطف الثورة قبل هربه من البلاد ـ عندما علم أنه أُخذ من سجنه واتُّهم «بالإفساد في الأرض»، و«بمحاربة الله تعالى». فأسرع إلى «قم» للتكلم مع الخميني، قبل أن يصل هويدا إلى فرق الإعدام. فشرَّع الخميني فوراً قواعد جديدة للمحاكم الثورية، دون جدوى.

كان هويدا رجل فكر، وابن مدينة، تشمل اهتماماته «باخ»، و«أوسكار وايلد» و«جايمس بوند»؛ وكان كارهاً للفساد الذي يحيط بالشاه، فكسب ثقة السياسيين والدبلوماسيين ـ ولكنه لم يكسب ثقة الناس العاديين ـ وعندما أُحضر إلى المحكمة الثورية من فراشه في سجن «القصر» مباشرة قبل منتصف الليل، بدا مرهقاً حتى الإجهاد؛ ودافع عن نفسه، بقوله: «لقد أعطاني طبيبي مسكِّناً، ولا أكاد أقدر على التكلم، ناهيك بالدفاع عن نفسي، كما ينبغي». ولكنه كان يعلم ما ينتظره، إذ قال: «إذا أردتم إدانتي، فليس لي ما أقوله. فحياة فرد لا تساوي شيئاً إزاء حياة الأمة بكاملها. ما معنى «المحاربة ضد الله تعالى». فإذا كان معناها أني في النظام المدني للشاه فقد كنت واحداً في ذلك النظام. سمّوه نظاماً يحارب ضد الله إذا شئتم؛ وكذلك كنتم أنتم وجميع الناس الآخرين». لقد طلب وقتاً لإعداد دفاعه عن نفسه. قال: «إن يديّ غير ملوّثتين بالدم أو

بالمال. . . جئتم بي إلى هنا كرئيس للوزراء، بينما غادر البلاد خمسة من رؤساء الوزراء. ألم يكن بإمكاني أيضاً أن أتنزه على «الشانزيليزيه» أو في شوارع نيويورك؟». ولم يكن له سلطة على «السافاك»، إذ قال: «إذا وجدتم في جميع أوراق «السافاك» وثيقة واحدة تظهر أن رئيس الوزراء له دور في تلك المؤسسة، فلن أقول إذ ذاك شيئاً للدفاع عن نفسي». ثم التفت إلى المراسلين الحاضرين بين أفراد الجمهور. «ما الأخبار؟؛ إني لم أقرأ أية جريدة أو أسمع الراديو لفترة».

حُكم على هويدا بالموت في آخر المطاف، لأنه كان «مُفسِداً في الأرض». وقام قاضي الإعدام في الثورة «صادق خلخالي» فوراً بعد صدور الحكم بقطع التلفونات عن السجن، وإغلاق الأبواب. وسيق هويدا إلى باحة السجن، ورُبط إلى وتد، وأطلقت النار عليه. قال الصحافي «شوكراص» في تقريره المسهب عن أيام الشاه الأخيرة: «لم يمت من الطلقة الأولى، لأنها أصابت رقبته، فأمره الجلاد الذي كان شيخاً من الشيوخ بأن يرفع رأسه، فأصابته الرصاصة الثانية في رأسه، ومات. ونشرت مجلة «پاري ماتش» صورة لجثته، مع مسلح ينظر إليها وهو يكشِّر استهزاءً. كما نشرت المجلة إلى جانبها صورة أخرى للعائلة المالكة المنفية، وهي تسبح في «جزيرة الفردوس ـ بارادايز أيلاند». لا تضعوا ثقتكم في الشاهات.

في تلك الأيام الأولى للثورة، كانت إيران في فوضى عارمة، بحيث لم تكن السلطات الجديدة متفرغة لضبط عمل الصحافيين. وكان الحرس الثوري على الطرقات يعيد المراسلين الأجانب إلى طهران؛ ولكنهم لم يأبهوا للبحث عنا في القطارات. فاشتريت ببطاقتي كطالب ـ كنتُ أحضِّر درجة الدكتوراه في السياسة في «كلية الثالوث الأقدس بدبلين» ـ تذكرة صالحة للاستعمال على جميع خطوط السكة الحديد في إيران. لقد كانت تلك القطارات الثورية طويلة، مكسورة النوافذ، مع صور ملصقة للإمام الخميني وزهور «الزنبق» ـ كرمز للاستشهاد ـ وكان الطعام في مطعم القطار مؤلفاً من الدجاج، والأرز، والشاي، للفطور، والغداء، والعشاء، على السواء. ولمَّا لم أستطع أن أكتب

إلى جريدتي، أرسلت رسالة مطوّلة إلى «إيفان بارنز»، رئيس تحرير القسم الأجنبي، أصف فيها الثورة غير المكتملة، وأخبره بأن معاوني الشاه كانوا متغطرسين في العادة بشكل لا يحتمل، بقولي: «وجدت أن غطرستهم اختفت عند بروز الثورة. لقد عوملت بلياقة ولطف، تقريباً أينما ذهبت. وألفيت الإيرانيين أكثر وعياً بمغازي الأحداث العالمية من... سكان البلدان العربية. كانت لديهم صفة قدّرتها أيّما تقدير في الأرياف والبلدات. كانوا متشوّقين عطشى للتحدث عن أيّ شيء. والإزعاج الوحيد الذي صادفته في سفري إلى مدينة «قم»، جاء من قِبل جماعة من الحراس الإسلاميين (بشريط أخضر على الذراع، ورشاش (m-16)، عندما فتحوا باب مقصورتي، ورأوني أسجّل على كاسيت مع صوت القطار. اتهموني فوراً بأني جاسوس لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). لكنني شرحت لهم أني صحافي أعمل للإذاعة الكندية. وكرر المترجم، الطالب اليساري الذي يرافقني إلى كل مكان، الشيء ذاته، فارتاحوا قليلاً. وقد علّموني في طهران بأن أقول: «ديروت دو خميني، مارغ باشاه»، أي: «يحيا الخميني، والموت للشاه» باللغة الإيرانية، كلما صادفت أناساً مُتعبين. مثّلتُ دوري بقولي هذه العبارات؛ فرفع الحراس الخمينيون قبضاتهم في الهواء وصاحوا موافقين. ثم صافحوني جميعاً مع ابتسامات طويلة عريضة، وراحوا يتسكعون في أرجاء القطار لتعذيب شخص آخر في مقصورة أخرى.

إلى الشمال من الصحراء، تنهض مدينة «قُمّ» كجزيرة من الذهب المتنوّع، بقبب مساجدها ومآذنها الريّانة الكريمة كواحة من واحات الجمال، عند الفجر. ويبدو مركز المدينة متسامقاً نحو السماء، مثل أبراج الجامعة الإنكليزية القديمة. ولكن القطار أوصلنا إلى هنا بعد حلول الظلام، وكانت ضواحي المدينة ملأى بالدخان، والغبار، وحشود الناس من رجال يرتدون سترات داكنة، ونساء يلبسن ملاءات سوداً، يتجهن نحو مبنى كالح من القرميد الأحمر، محاط برجال طوال القامة مفتولي العضلات مسلحين برشاشات آلية. التفت نحوي صديقي الطالب اليساري وقال: «هناك محاكمة لرجل من رجال الشاه». رميت كيسي في فندق محشور بين الحوانيت مقابل مسجد الجمعة، واصطحبت مسجلي القديم، وهرعت عائداً إلى ما سمّي «المحكمة».

كان رُستُمي، وهو معاون في الجيش الإمبراطوري للشاه، جالساً على كرسي ذي إطار معدني، على مسرح المحكمة الثورية، ويداه مشبوكتان أمامه، يحدِّق في الأرض الخشبية على المسرح المعدَّل الذي يحاكم الآن فيه. كان رجلاً في منتصف العمر، له لحية غبراء ـ سمراء شعثاء، يرتدي سترة «أنوراك» خضراء متغضِّنة، وبنطالاً قذراً من «الجينز»، بعدما خسر بزَّته الرسمية العسكرية في فرقة المدفعية منذ زمن طويل، ولا يزيِّن مظهره «المشوّش» سوى حذاء فرنسي أنيق. كان يبدو للناس أجمع كشخص مدعى عليه متضجر، ينتظر حكماً بشأن مخالفة سير بسيطة، لا كشخص يتوقع التفاصيل «القانونية» (إذا كان تعبير «القانونية» هو الكلمة المناسبة) للحكم عليه بالموت. إنه متهم بقتل متظاهرين ضد الشاه.

وكانت المحكمة الإسلامية في «قم» قد سبق لها أن أرسلت ضحيتها الخامسة إلى فريق الإعدام منذ ست ساعات. وكانت تلك الضحية شرطياً محلياً متهماً بقتل متظاهرين أثناء الثورة. إنه الرجل الذي ظهرت صورته على الصفحة الأولى من الجريدة موثوقاً بالسلَّم بينما تصطك أسنانه أمام فريق الإعدام. وقد تطفل أحدهم بقسوة وعرض الجريدة على رستُمي؛ وربما بسبب حتمية مثل ذلك الحكم الذي لا يمكن تفاديه بدا رستُمي هادئاً في جلوسه على المنصّة أمامنا. وكان كل بضع دقائق يخرج من جيبه علبة سجاير أميركية؛ فيتقدم منه مسلح برشاش، نعم رشاش أميركي، ليشعل له سيجارته بلطف. بالغ رستُمي في التدخين، وكان يتطلع إلينا من وقت إلى آخر، بعينين خاويتين من الحياة.

كان الجمهور الحاضر يتألف من حوالى ستمئة رجل، دون أية أمرأة؛ وكان أكثرهم يتكلم عن الإعدام الذي جرى ذلك الصباح؛ مع أنه كان من الصعب إدراك أسباب مثل تلك الإثارة. لم تحصل أية تبرئة في المحاكم الثورية، إذ كان القصاص الوحيد هو الموت. وكان الناس في هذا الحشد قد جاؤوا ليشاهدوا السجين يبكي، أو يلتمس الإبقاء على حياته، أو يسير متحدياً نحو فريق الإعدام، أي ليشهدوا سقوط القويّ. وقد ادّعى جورج «برنارد شو» مرة أنه لو طُرح المسيحيون طعاماً للأسود في صالة ألبرت الملكية في لندن، لكان

المشاهدون تدفقوا على ذلك المسرح كل ليلة. إن الناس المستثارين بين الجمهور لا بد أن يكونوا قد تقنّعوا بالوجوه ذاتها التي كانت للرعاع الذين تجمّعوا أمام المشانق أثناء الثورة الفرنسية.

وكان بإمكان المرء أن يرى لماذا يصبح الحكم بالموت على المتهم هو الحكم الوحيد الممكن. حالما ابتدأت محاكمة رستُمي. جاء شيخ مسلم يرتدي ثوباً طويلاً أسمر اللون، ومحام مدني عيّنته الهيئة الدينية، فصعدا إلى المنصّة، وأعلنا أنهما سيمثلان الإدعاء العام والقضاة. ولكن رستُمي لم يلتفت إليهما. ثم جلسا إلى طاولتين معدنيتين، وخلفهما صورة زيتية غير متقنة لآية الله الخميني؛ مما يوضح بجلاء السلطة المرجعية لهذه المحكمة.

توجه الشيخ بمقدمة موجزة إلى الحشد، مصرِّحاً بأن المحاكمة ستحصل بناء على أحكام القرآن الكريم، وأنه سيسمح للسجين بأن يجيب عن التهم الموجهة إليه. وكان الشيخ رجلاً طويلاً متميِّزاً، ذا لحية بيضاء طويلة، ووجه لطيف مستقيم؛ بينما ظهر المحامي المدني غاضباً ومنتقماً؛ ويبدو أنه قال شيئاً مؤذياً للسجين قبل أن يجلس. ولوَّح الشيخ بحزمة من الأوراق في يده، هي مجموعة من شهادات مكتوبة قدمها شهود شاركوا في التظاهرات ضد الشاه؛ ويدعي كل منها بأن «رستُمي» أمر الرجال الذين في فرقته بإطلاق النار على المدنيين.

نودي على الشهود واحداً واحداً من بين أفراد الجمهور الحاضر، ليقدموا إثباتاتهم ـ وقد قوطعت هذه العملية بصراخ علا خلف المسرح، حيث كان مزيد من الرجال يتدافعون للدخول إلى قاعة المحكمة. سحب رستُمي كرسيه وقرّبه من طاولة الشيخ، وأصغى. وكان الشاهد الأول شاباً، عُصبت كتفه بجبيرة؛ وكان الشاهد الثاني يعرج على المنصّة. وقد ادعيا بأنهما رأيا رستُمي يأمر رجاله بأن يطلقوا النار على المتظاهرين؛ بينما ركض رجل ثالث إلى المنصة صارخاً بأن رستُمي دخل المسجد عنوة وقتل صبياً كان يختبىء فيه. وجرت مناقشات مستفيضة حول التواريخ وأسماء الشوارع ـ إذ كانت هناك محاولة حقيقية إنما فوضوية لتحديد الأحداث التي رافقت إطلاق النار ـ قبل أن يدافع رستُمي عن نفسه وحقوقه.

كان الحشد يحثّه للدفاع عن نفسه، ولم يحرِّك الشيخ ساكناً لعدة دقائق. نظر رستُمي إلينا نظرات غير فاهمة. لقد أراد أن يتكلم، إذ اعترف بأنه أمر جنوده بأن يفرِّقوا المتظاهرين، عن طريق إطلاق النار في الهواء. وإذا أصيب أحد فذلك يعود إلى نبوّ القذيفة وارتدادها. حدث إذ ذاك صمت مؤقت في المحكمة، قبل أن ينبري شخص آخر، لا يكاد يبلغ عمره عشرين سنة، فيتسلق المنصة بجهد، ويشتم رستُمي وينعته بأنه كاذب، قبل أن يأمر القاضي بإخراجه.

ثم تمشَّى المحامي على المنصة وصاح: «كاذب» في أذن السجين. فتذكرت للحظة بغيضة بعض أحداث تلك الأفلام الوثائقية المخدَّشة التي تُري محكمة الشعب النازية، وهي تحاكم المتآمرين على حياة «هتلر» عام ١٩٤٤، عندما شتم القاضي «رولاند فريزلر» المدعى عليهم. وفي نهاية اليوم الأول في «قم»، مشى المحامي المدني نحوي مبتسماً، وهو يقول: «إنها محاكمة عادلة، كما ترى، فنحن نسمح لرستُمي بأن يجيب عن الاتهامات». وفي اليوم التالي التأمت المحكمة، وبدا رستُمي تعيساً وهو يستمع إلى اثنين من رجال فرقته، يتّهمانه بأنه قاتل. ولكنّ جندياً آخر تقدم بشجاعة ليدافع عن السجين، إنما أُمر بالصمت، بعدما اتُّهم بأنه شوّش تاريخ الحادث.

وعندما سمح الشيخ باستراحة للغداء، لاحظت رجلاً في حوالى الثلاثين من العمر، يتقدم نحوي خارج المسرح. وكان هناك مجموعة من حراس الثورة المسلحين يراقبونه بارتياب. وتبين أنه أخو رستُمي، وهو خائف. سرنا معاً في الشارع ليتسنّى لنا أن نتكلم، وحراس الثورة وراءنا. فسألني هل تعتقد بأن هذه محاكمة عادلة؟ ليس لأخي أيّ محام يدافع عنه؛ وقد سمحوا له بواحد؛ إنما طفت في طهران على لجنة المحامين، وعرضت على عشرين منهم قضيته، فلم يقبل أيّ منهم أن يتولّاها. إن هذه المحكمة أمرت بقتل كل سجين حاكمته. وتوقف قليلاً، وهو يحاول أن لا يبكي، ثم قال: «إن لأخي طفلاً صغيراً، قال لرفاقه في المدرسة أنه سيقتل نفسه إذا قتلت المحكمة والده». ثم افترقنا، وابتعد أخو رستُمي، وسار وراءه حراس الثورة يتبخترون. وبعد ظهر ذلك

اليوم، سألت آية الله كاظم شريعتمداري، أحد المستشارين المقربين من الإمام الخميني، لماذا لم يتيسّر لرستُمي محامٍ يدافع عنه. وكان آية الله بلحيته البيضاء متربعاً على السجاد الفاخر الغني بتزيينه، فقال: «يجب أن يُسمح لكل سجين في محكمة إسلامية بمحام يدافع عنه. وأنا لا أعرف ماذا يجري في هذه المحاكمة بمدينة «قم»؛ ولا أعرف ظروفها؛ وبالتالي لا أعرف الجواب عن سؤالك».

كان آية الله رجلاً مسنّاً ومعتدلاً بين رجال الدين في مدينة «قم»، ولكن ماذا تعني كلمة «معتدل» بعد كل هذا؟ ـ إنه لا يعرف ماذا يحصل في المحاكم وإني متأكد من أنه يفضل أن لا يعرف ذلك. ولا تزال لديّ الأشرطة التي سجّلت عليها اعتذارات الرجل المسنّ ـ وأصعب من ذلك ـ تسجيلات المحاكمة، وصراخ المحامي بكلمة: «كاذب»، في أذن السجين المدان الذي يحاول أن يشرح القواعد العسكرية، وبكاء أخيه خارج المحكمة. إنها وثائق تمثّل واقعاً مؤلماً، لظلم الأكثرية للأقلية. ولم تنفع في تبرئة السجناء المساقين إلى المسرح المعدَّل الأحكام التي سنَّها الخميني بعد زيارة «بازركان» الملهوفة إلى «قم». وبناء عليه، بدأت الإعدامات من جديد في الصباح الذي غادرت فيه «قم»؛ ومع أن هوية الضحايا لم تكن واضحة، فقد تبيّنت اسم واحد منهم كان جندياً في جيش الشاه. لقد تعرّفت على اسمه.

لن تكون هناك انقلابات مضادة في هذه الثورة، أو عمليات مثل عملية «آجاكس»، ولا قيام رجال وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) بالعمل من داخل السفارة الأميركية، ليشتروا ضمائر المستزلمين من أهل السوق (رجال البازار). وفي الواقع، لن يكون هناك سفارة أميركية عمّا قريب. أما المطالبة بعودة الشاه فلم تكن لإعادة تنصيبه، بل لمحاكمته. فلن تشعر الثورة بالأمان، إلّا بعد أن يُقطع رأس الحية؛ كما اعتقد الأميركيون بعد ٢٤ سنة أنه لن ينعم العراق بالاستقرار إلّا بعد القبض على صدّام حسين. وكذلك كان الخميني وحاشيته يعتقدون أن موت الشاه، أو بالأحرى شنقه كمجرم في إيران، «للجرائم

التي ارتكبها ضد الله» ـ هو الذي يحرر إيران من ماضيها الفاسد(*). وفي الواقع، كان الشاه يموت بالسرطان. وقد رأى كثير من الإيرانيين في نفيه المحزن، قصاصاً حقيقياً من الله تعالى، وانتقاماً إلهياً من شخص مثقل «بالخطايا على الأرض». إن تجوال الشاه عبر مستشفيات أميركا الوسطى، ونيويورك، وفي آخر الأمر القاهرة، أرضى الشيوخ الذين كانوا قد أفتوا باغتياله.

وبعد مغادرة الشاه بوقت قصير، سنحت لي الفرصة أن أجلس عند قدميّ «حجة الإسلام خلخالي»، قاضي الإعدام، الذي أورد في قائمته أسماء أعضاء آخرين من أسرة الشاه، الذين حكم عليهم بالإعدام غيابياً. وقد جلس حوله حوالى عشرين من حراس الثورة المشوّهين من جرَّاء الحرب الثورية التي شنَّت على الأكراد في شمالي ـ غربي إيران؛ وكل منهم يطقطق بأصابعه المعدنية التي ركِّبت له حديثاً، ويديه ورجليه، بينما رجل الدين يلخص المصير الذي ينتظر أعداءه الأرستقراطيين. وكان خلخالي نفسه هو الذي حكم على يافع بعمر ١٤ سنة بالموت، والذي وافق على رجم امرأة حتى الموت في «كرمنشاه». وهو هو الذي كان في مستشفى للأمراض العقلية، يخنق القطط في زنزانة سجنه، حتى لُقِّب «بالقط» (غوربيه). وقد قال لي القط: «إن الشاه سيُشنق ـ ثم يُنزل ويسحق، إنه أداة إبليس».

وفي الواقع، كان الشاه بديلاً ضعيفاً للشيطان، ولا يكاد يكون نداً مساوياً «لفاوست»؛ لأنه باع نفسه لوعدٍ بالنفوذ العسكري العالمي، ولما كان يبدو أنه دعم أميركي دائم. وكانت جوقة السلّابين النهّابين الطفيليين الذين تابعوا الشاه حتى منتصف الطريق عبر العالم، مجموعة من الجراحين والأطباء والممرضات المندفعين الجشعين، الذين قذفوا الرجل المحتضر بالأقراص، وصفائح الدم،

(*) كانت هناك أيضاً متشابهات مستغربة مع نكبة أميركا الأخيرة في العراق. فقد أصرّ الشاه دائماً وهو في الحكم على أن أعداءه هم «الشيوعيون» و«المتعصبون». كما كان الرئيس «بوش» يدَّعي دائماً أن أعداء أميركا كانوا «بقايا صدام» و«الإرهابيين الأجانب». فلم يعترف الشاه ولا «بوش» بأنهما يواجهان عصياناً شعبياً داخلياً.

والأمل الخدَّاع. إنهم عملاء الظلماء الذين يمثلون تكنولوجية العالم تمثيلاً جيداً، تلك التكنولوجيا التي باع الشاه نفسه لها منذ وقت طويل. وكان أصدقاؤه السابقون ـ الملك حسين ملك الأردن، والملك خالد ملك العربية السعودية، والملك الحسن، ملك المغرب، والسويسريون، والنمساويون، والرئيس كارتر، ومرغريت تاتشر ـ إما قد أنهوا إقامته عندهم، أو طردوه، أو نقضوا وعدهم له بقبوله، عندما أحسّوا بالثمن السياسي الذي سيدفعونه لإيوائه ـ وكان الحاكم الوحيد الذي احترم دعوة «لكارتر»، عندما أراد الأميركيون ترحيله من نيويورك، هو الرئيس السادات، رئيس جمهورية مصر. أما الرئيس «ثوريجوس» رئيس «باناما» الذي أعطى الشاه ملجأ مؤقتاً، والذي أراد أن يغوي الملكة فرح، التي رفضته وصرفته نهائياً ـ فقد رثا رثاء متشفّياً «نور الآريين» وقال: «هذا ما حدث لرجل عصرته الدول الكبرى؛ ثم لفظته بعدما استهلكت ما فيه من نَسغ».

وفي آخر المطاف، مات الشاه في القاهرة بتاريخ ٢٧ تموز/يوليو ١٩٨٠، وأودع الثرى في قبر متواضع في مسجد الرفاعي. وبعد ست سنوات، ذهبت في حر الصيف مع صديق إيراني لنلقي نظرة على مثواه. وكان الوقت عند الظهر. ولم يكن هناك سوى حارس واحد في المسجد، رجل مسنّ، أشيب، رضي أن يرينا المرقد الأخير للرجل الذي ظن أنه الخلف الروحاني لكسرى الكبير. وكانت هناك بلاطة رخام يتيمة تجثم فوق المثوى، مع قصيدة مكتوبة بخط اليد تعلن إيماناً ثابتاً بالشاه من قبل أحد حراسه «الجافيدان»، فضلاً عن بعض الورود المنثورة على الضريح. جاء إلينا الحارس الهرم، وتمتم: «بخشيش». فاتفقنا معه على ٥٠ قرشاً. وفي آخر الأمر، كلفتنا زيارة ضريح ملك الملوك ٤٠ سنتاً.

إن الثوريين المسلمين الذين ظهروا وراء آية الله الخميني كانوا من الطبقة الوسطى، ويا للغرابة! ومنهم صادق قطب زاده، مدير التلفزيون، ووزير الخارجية فيما بعد. مع العلم أنه أُعدم في تاريخ لاحق بتهمة التآمر ضد الخميني. وقد تخرج كل هؤلاء من جامعات أميركية؛ وكانوا يتكلمون الإنكليزية

بلهجة أميركية؛ مما يعني أنهم يمكن أن يظهروا فجأة وبسهولة على شاشات التلفزيون الأميركية. وكثير منهم كانوا يزدهون بأصلهم غير «البروليتاري»، مثل نائب رئيس مجلس الوزراء أمير عباس انتظام، الذي صرّح لي يوماً باعتزازه أن تكون الثورة صادرة عن الطبقة الوسطى، ثم انحنى إلى الإمام وربَّت على صدره مكرراً قوله: «أنا معتز بذلك». وكان مكتبه متواضعاً بالمستويات الوزارية، فيه طاولتان، وأريكة عريضة، ومجموعة كراسي غير مرتبة، وتلفون يخرخر في زاوية المكتب دون أن يجيب عليه أحد. وقد يكون من العسير أن تجد أحداً له صفات أبناء الطبقى الوسطى أكثر من «انتظام»، بتربيته الأميركية، ومهنته الكثيرة الأسفار كمهندس. ولكنه كان يقول الحقيقة، بطريقته الخاصة. فالقوة الفيزيائية وراء الثورة لفترة كانت ممثلة بالتظاهرات العملاقة في الشوارع التي قام بها الفقراء من سكان المدن، والمجدّدون الإسلاميون. لقد كانت تلك الطبقة الوسطى من البازار، الممثلة بعشرات الألوف من التجار الوافدين من أكبر سوق في الشرق الأوسط، الذين حاول الشاه أن يدجّنهم بنظام حرفي. إنهم هم الذين وفروا الدعم الاقتصادي لعودة الخميني. إنها طبقة التجَّار المتحالفة مع الشيوخ الأئمة (الملّات)، التي برزت كخليط حَرِج بين المعارضة العلمانية والدينية.

ولهذا السبب تجنَّبت الثورة الإيرانية حتى الآن السبيل التقليدي لمثل هذه التطورات، أي سلب البيوت ونهب ممتلكات الأغنياء. ولذلك، ما زال بإمكانكِ أن تستقلّ سيارة أجرة عبر طهران، وتخرج إلى الضواحي الشمالية عند أقدام الجبال، لتجد أن الشقق الفخمة، وبيوت الوفرة التي تظلل الأشجار شرفاتها، مع أحواض السمك الذهبي، كلها لم تمسّ. فالحكومة لم تصادر تراكم الثروة. ولكن هذا الوضع بدأ يتغير منذ أواخر آذار/مارس ١٩٧٩. فقد استولى العمال على المصانع في شمالي إيران حول بحر «قزوين»؛ بينما قاد اليساريون الثورة في شرقي «كردستان»، ولم يستطع الدينيون أن يحتفظوا بنفوذهم هناك ـ فقد صودرت الممتلكات. وكانت الحكومة المؤقتة التي عيَّنها الخميني تتلقى تقارير حول مزيد من مصادرة الممتلكات قرب «مشاد»، وبدء انتشار هذا النمط باتجاه طهران.

وقبل ذلك بأسبوع، علم «فاريبورز عطابور» أكثر صحافيي المدينة إنتاجاً وصراحة، بأن والده قد أوقف. وتبيّن أن ذلك الوالد الذي يملك عقاراً على شاطىء بحر قزوين، ذهب إلى مصرفه المحلي في طهران، ليقبض شكاً، فأوقفه أمين الصندوق الذي ظن أن عميله غني، وبالتالي فاسد. مع العلم أن السيد «عطابور» الأب البالغ من العمر سبعين سنة، كان جندياً في الجيش الإمبراطوري، لكنه تقاعد من الخدمة العسكرية منذ ٢٧ سنة، وهو الآن مدين إلى حد كبير. ومع ذلك، أوقفته في المصرف «كوميته» (Komiteh)، أي لجنة ثورية شديدة التسلح، وحملته إلى سجن «القصر». وعلى الأقل ظن ابنه أنه سُجن هناك.

لم يصدر أيّ بيان رسمي عن «الكوميته»؛ حتى أن الحكومة لم تستطع الوصول إلى السجن. وقدّر عدد المساجين هناك الآن بثمانية آلاف سجين في الداخل ـ بينما كان حوالى ألفي سجين في أيام الشاه ـ واستغرق الأمر بالصليب الأحمر عدة أسابيع للسماح له بدخول السجن وتفقده. فغضب إبنه الصحافي، وقال: «لقد تدهورت حالة هذه الثورة إلى مستوى الانتقام الصغير والاستبداد، بحيث تمكن مقارنتها بالإرهاب اليعقوبي (Jacobin) خلال الثورة الفرنسية. إن تجار السوق لديهم مال أكثر من والدي، ولكنهم لا يهتمون بمصيره. ولا يهتم بذلك أيضاً القادة الدينيون. فقد تكلمت بالتلفون مع آية الله المحلي في منطقتنا على بحر قزوين، فقال إن أبي يجب أن يكون فاسداً، لأنه غني. ولم يسمح لي بالرد على اتهامه لأبي، فأقفل خط التلفون».

كان «عطابور» الإبن يتوقع يومياً توقيفه هو؛ ولكن بعد ثلاثة أيام من حديثنا، أُسكت صوته الصحافي، عندما أعلنت جريدتا طهران الناطقتان باللغة الإنكليزية أنهما ستتوقفان عن الصدور. وأعطت إحداهما «جريدة طهران» (Tehran Journal) ـ التي كان يكتب فيها عطابور الإبن ـ حججاً اقتصادية لتوقفها عن الصدور؛ مع العلم أنه مضت أسابيع على تنديد «الكوميتات» الثورية بهذه الصحيفة بصفتها «معادية للإسلام». كما تلقى معظم الموظفين في هذه الجريدة مخابرات تلفونية مغفلة تهدِّد حياتهم. إن تشبيه عطابور الإبن لذلك بما

حصل أثناء الثورة الفرنسية ـ المتعارض إلى حدٍ كبير مع حماس «إدوارد مورتيمر» ـ لم يذهب سُدى بشأن النظام العقائدي الجديد في إيران. فالدكتور أحمد سالامتيان، المساعد السياسي في وزارة الخارجية الإيرانية، عثر على مقارنة مقبولة. فقد جرت إعدامات أقل في إيران مما جرى في الثورتين الفرنسية والروسية، كما قال. وعندما لفتُّ نظره إلى أنه لم يكن هناك أي فرق إعدام بإطلاق النار أبداً بعد الثورة البرتغالية عام ١٩٧٤، اندفع يجيبني قائلاً: «ولكن في البرتغال، كانوا يريدون التخلص من «كايتانو» فحسب ـ بينما كنا نحدث انقلاباً على أكثر من ألفي سنة من الحكم الملكي». وكان ذلك رد فعل مثيراً للفضول، لأن الفكرة القائلة بأن بلاد الفرس بقيت ٢٣٠٠ سنة تحت الحكم الملكي الاستبدادي دون معوقات، هي فكرة ملفَّقة دبَّجتها مخيّلة الشاه؛ إنها أسطورة نُشرت لتبرير حكمه الاستبدادي التسلطي.

وكان اعتبار هذه القاعدة استبدادية من القواسم المشتركة القليلة بين أولئك الذين يدعمون الثورة. وكان اليسار في إيران قد سبق له أن أدرك أن رجال الدين ينصبون أنفسهم في مواقع السلطة والنفوذ. وقد سأل سالامتيان قائلاً: «لماذا يدينوننا لمطاردتنا مجرمي الشاه بغية القضاء عليهم؟ ففي الغرب، سجنتم النازي «رودلف هيس». ونحن نعتبر عملاء «السافاك» من طراز المجرمين النازيين. وقد حاكمتم النازيين في بلاد الغرب. ولماذا لا نقدم النازيين عندنا إلى المحاكمة؟».

وكيف يستطيع المرء أن يناقش في هذا الأمر عندما يقوم مراسلون، مثل «دريك آيف» من «الصحافة المتزاملة»، فيتدبرون أمرهم ليلقوا نظرة خاطفة على بيت من بيوت عملاء «السافاك»، قبل أن تنجح الثورة؟ ـ دخل «آيف»، المبنى عندما كان حشد من الناس يقتحمون الباب الرئيسي. قال لي: «كان هناك في الخارج بركة للسمك، وأُصُص زهور في القاعة الأمامية. ولكن كانت هناك زنازين عند أسفل الدرج، في كل منها سرير من حديد الصلب مع أحزمة، وتحته موقدان بيتيَّان. كما كانت هناك أيضاً أدوات لتخفيض مستوى السرير، بحيث يمكن تنزيل الناس المربوطين إلى مستوى يصلهم عنده اللهب. وفي

زنزانة أخرى، وجدتُ آلة غريبة الشكل تمسك بالذراع البشرية تحت سكين، وقربها غمد معدني يمكن إدخال الذراع البشرية فيه. وعند أحد الطرفين، أثبتت قاطعة لشرائح اللحم. لقد كانوا يكشطون أيدي الناس». وقد وجد «آيف» كومة من الأذرع البشرية في زاوية «واكتشف في زنزانة أخرى أجزاء من جثث تعوم في عدة «إنشات» مما يعتقد أنه حمض. ومباشرة قبل أن يندفع رجال الشاه إلى مؤخرة المبنى، اختلس «آيف» بعض الصور لأدوات التعذيب.

بعد الثورة، تسنّى لنا أن نقابل بعض عملاء «السافاك» الكبار أيام الشاه. لم يظهر هؤلاء السجناء البالغ عددهم ١٨ رجلاً، مثلما تصور الأسطورة الشعبية رجال الشرطة السرِّية؛ بل كانوا رجالاً في منتصف عمرهم جالسين في سجن «إيفين»، يرتدون قمصاناً مفتوحة عند العنق، وسترات صوفية محبوكة، وسراويل من قماش مخملي مضلَّع، يدخنون السجاير الأميركية بعصبية. أحضروهم إلى مكتب حقير، مستطيل الشكل، يُوسَّع أحياناً ليستوعب محكمة ثورية. وكانوا منذ دخولهم إلى هذه الغرفة، ودودين، يبتسمون، أو يحدِّقون فينا، بينما يصفهم موظفو الحكومة بأنهم مجرمون.

ولكنهم كانوا يروون قصصاً مقلقة وأحياناً مخيفة. «فحسن سنا» المستشار الاقتصادي والأمني لنائب رئيس «السافاك»، تكلم عن تعاون الاستخبارات البريطانية مع الشاه. وادَّعى أنها كانت اتصالات صدوقة جعلت العملاء البريطانيين يعطون زملاءهم الإيرانيين معلومات عن الطلبة الإيرانيين في بريطانيا؛ مما يسمح للسافاك بمراقبتهم وتوقيفهم متى عادوا إلى طهران من لندن. وكان «سنا» متهالكاً على التدخين، يلبس نظّارة سوداء، وله ولع بالقمصان ذات الألوان الزاهية.

وتكلم «سنا» عن نقل عملاء «السافاك» بالطائرة من نيويورك بواسطة وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) إلى حيث يعطون دروساً في تقنيات الاستجواب والاستنطاق، في قاعدة أميركية سرِّية، برحلة ملغزة تستغرق أربع ساعات طيران عبر الولايات المتحدة بطائرة معتّمة نوافذها. وكنا، كصحافيين، قد طفنا سابقاً بمركز استجواب «السافاك» في مركز العاصمة، حيث وصف لنا نزلاء سابقون

كيف جرى تعذيبهم. ولم يبقَ من ذلك سوى غرفة سوداء القرميد، أرضها من الإسمنت ـ متماثلة تقريباً مع ما اكتشفه زميلنا «آيف» ـ حيث كان السجناء يُحَمَّصون على أسرَّة فوق مواقد غاز. وفي سجن «إيفين» هذا جابه «محمد صدَفَي» أحد عملاء السافاك ومن رافعي الأثقال، في لحظة مرعبة رجلاً ماتت إبنته عندما كانت تحت رعاية «صَدَفي».

صاح الرجل بصدفي: «لقد قتلتَ ابنتي؛ لقد حرقتم كل جسدها حتى أصابها الشلل. لقد حمَّصتموها». التفت صدفي إلى الرجل وأجابه بهدوء: «لقد شنقت إبنتك نفسها، بعد سبعة أشهر من السجن». فرد الرجل عليه بمعنى أنه لم يكن هناك في السجن شرشف يمكن للنزيل أن يشنق نفسه به. فقال صدفي: «بل كان»، فقد اطلع بنفسه على فواتير المغسلة في سجن «إيفين».

لقد قام نظام الشاه على مثل هذه الفظاعة وهذا الرعب؛ مما غذَّى روح الثورة. وإذا كان هناك من مفاجأة في إيران عند هذه المرحلة الأولى من حياة النظام الجديد، فهي ملاحقة عدد قليل من المطلوبين للعدالة بين أتباع الشاه، بدلاً من الكثيرين منهم. ولكن الثورة لم تنتهِ بعد. إنها لن تنتهي عند تلك المرحلة البورجوازية الصدوقة، التي أتعبت البرتغاليين. كما أنه لم تكن هناك أرض مشتركة بين الجمهورية الإسلامية الجديدة وديمقراطية الشعب التي تنشرها جماعات الجناح اليساري. فقد أصبح اليسار الآن «أكثر نشاطاً ـ إذ كان هناك إطلاق نار في الشوارع كل ليلة ـ والوضع يتفاقم بالتردي المستمر للأوضاع الاجتماعية؛ حتى أن الإمام الخميني وصف بلاده بأنها «حي الفقراء»(*).

ولكن مسؤولي الأمن في الدولة الإسلامية الجديدة، استمروا مقتنعين بأن

(*) كان في إيران إذ ذاك، ٣,٥ ملايين من الناس العاطلين عن العمل ـ أي حوالى ربع القوة العاملة ـ ونصف الناس يعيشون في مدن مكتظة بالسكان. وهناك قصور حاد في إمدادات الطعام، غير ناتج عن إصرار الخميني على أن لا يتناول المسلمون في المستقبل اللحم المجلّد، بل عن رفض إيران باعتزاز استيراد المزيد من السلع الأجنبية. ومع ذلك، كانت إيران لا تزال تستورد من الأطعمة ما قيمته مليارا دولار أميركي حتى فصل الشتاء الماضي.

بعض أعضاء الحكومة الجديدة يتطلعون إلى الولايات المتحدة كشريك ممكن للمستقبل، وليس «كشيطان أكبر»، كما أوحت بذلك مظاهرات الشوارع.

وكانوا مصيبين في موقفهم هذا. فبعد الاستيلاء على السفارة الأميركية في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩، بواسطة «الطلبة المسلمين المتَّبعين لخط الإمام»، وجد رجال الأمن أطناناً من أوراق المراسلات الدبلوماسية الأميركية ممزَّقة؛ ولذلك قضوا شهوراً من أجل إعادة جمعها وتلصيقها. وكان في هذه الأوراق كمّية مُحرجة من المواد حول عباس أمير انتظام، نائب رئيس مجلس الوزراء، واتصالاته بالحكومة الأميركية. وقد بدأ ذلك بشكل رسمي ـ فقد بقيت السفارة الأميركية مفتوحة بعد الثورة. وكان الموظفون الأميركيون يقابلون بشكل عادي رتيب موظفي وزارة الخارجية الإيرانية، من أجل ترتيب عودة الموظفين العسكريين الأميركيين والمدنيين ـ وقد أخبرت السفارة «انتظام» في شهر آذار/ مارس ١٩٧٩ «بأن الولايات المتحدة الأميركية ترغب في تطبيع العلاقات مع إيران بسرعة ثابتة». فأجاب «انتظام» بحسب الوثائق «بأن حكومته أيضاً تريد إقامة علاقة طيبة مع الولايات المتحدة الأميركية... وقد صرح بازركان رئيس مجلس الوزراء بذلك علناً».

ولكن خلال أيام قليلة بدأ «انتظام» يعبِّر عن رغبة حكومته في أن تتبادل «المعلومات الاستخبارية مع الحكومة الأميركية». وكان قد سبق للأميركيين أن أعطوا بشكل غير معقول تقريراً عن أفغانستان ـ إذ كان خوف الإيرانيين يزيد من أن يغزو الاتحاد السوفياتي جارتهم الشرقية ـ ولكن «انتظام» يشرح اليوم أن حكومته أكثر اهتماماً «بالتهديدات الداخلية لأمنها». وبحسب تقرير للسفارة الأميركية عن اجتماع تالٍ في أيار/مايو، قال «انتظام»: «إن حكومة إيران المؤقتة مهتمة بإمكان تدخل عراقيين في خوزستان، فضلاً عن أنشطة منظمة التحرير الفلسطينية والليبيين. وقد تناهت إلى حكومتنا معلومات مفادها أن جورج حبش، قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المدعومة من سوريا، قد زار مؤخراً عدة بلدان خليجية... بهدف افتراضي يرمي إلى إحداث مشاكل في

إيران». كما أن مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في مدينة الأهواز الجنوبية كان مدار انشغال، لكن «انتظام» هزّ رأسه وقال «إن حكومته لا تستطيع أن تفعل شيئاً بهذا الصدد... لأن رغبة الإمام الخميني تقضي بأن يبقى مفتوحاً».

كانت تلك مادة لإضرام نار الفتنة. فهذا هو «انتظام» ـ الذي كان منذ أسابيع قليلة يفتخر أمامي بأن الثورة هي ثورة الطبقة الوسطى ـ يناقش مخاوف إيران الأمنية مع وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)؛ ويكشف لا عن معلوماته الاستخبارية فحسب، بل يعبّر أيضاً عن تضايقه من الشخصية الأكثر احتراماً في البلاد بشأن تعريض الأمن للخطر. وفي حزيران/يونيو، صار «انتظام» يسأل عن معلومات أميركية حول «نوايا العراق إزاء إيران». وأثناء ذلك الوقت، جرى تبادل إطلاق المدفعية عبر الحدود الإيرانية ـ العراقية. وذكر القائم بالأعمال في السفارة الأميركية، بعد إيراد أنه لا يعرف من بدأ بالتحرش... أنه يتصور أن يحاول العراقيون إقامة «سياج شائك» على حدود العراق مع إيران، على شاكلة السياسة البريطانية القديمة على خط «دوراند».

وعقد «بروس لاينجن» القائم بالأعمال الأميركي اجتماعات أخرى مع «انتظام» الذي صار في غضون أسابيع يتلقى زيارات مباشرة من كبار موظفي وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)؛ وصار اسمه يرد في المخابرات تحت الرمز غير الرومانسي التالي: (SD/POD/1). وعندما صار «انتظام» سفيراً لإيران في السويد، تلقى مذكّرة استخباراتية من «جورج كايف»، عميل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) الذي أضحى فيما بعد أحد قادة فضيحة «الكونترا» عامي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦، كما عقدت اجتماعات أخرى في طهران بين وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) و«بازركان»، و«انتظام» و«إبراهيم يزدي»، وزير الخارجية الإيراني. وزار «كايف» بنفسه طهران، واتفق مع «انتظام» على وجوب إجراء مخابرات، ومذكرات أو تعليمات وتقارير موجزة كل ثلاثة إلى ستة أشهر مع إمكان وجود معلومات خاطفة يجري تبادلها إذا كانت هامة؛ بحسب ما جاء في الوثائق التي أعيد تلصيقها. وقد سأل «انتظام» عن إمكان وجود اتصال في طهران لتبادل المعلومات على أساس منتظم. (ملاحظة: قدّم

«كايف» كموظف تعليمات كبير من جماعة الاستخبارات. ولم يستخدم تعبير وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) أبداً).

وعندما اقتُحمت السفارة الأميركية في طهران، بعد قبول الشاه في الولايات المتحدة، وكشفت الطبيعة المتفجرة للاتصالات بين «انتظام» ووكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، في الملفات الممزقة التي أعيد تلصيقها، كما ذكرنا أعلاه، خسر «بازركان» و«يزدي» حظوتهما، وأوقف «انتظام» وحوكم بتهمة الخيانة العظمى، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة عام ١٩٨١، بعدما نجا من الإعدام. ولكنه استمر في القول إنه كان ثورياً حقيقياً يسعى لتوطيد علاقات مع الأميركيين لمصلحة إيران.

وقد رأت «معصومة إبتكار» ـ وهي من المقتحمين الرئيسيين للسفارة الأميركية ـ الأمر بشكل آخر، في ما كتبت حيث قالت: «يبدو أن وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) اعتقدت أنها تستطيع التلاعب بأية ثورة أو نظام سياسي، إذا نجحت في التسلل إلى مراتبها العليا باكراً. وفي إيران كانت تلك الوكالة مصمِّمة على ذلك. ولها من ماضيها خبرة وافية لذلك». وبحسب قول «ابتكار» وجد تلامذة الإمام بطاقات هوية وجوازات سفر مزورة لعملاء وكلاء الاستخبارات الأميركية (CIA) في السفارة، بما في ذلك طوابع وأختام لدخول المطار، وسمات خروج مزورة لأوروبا وآسيا؛ فضلاً عن ١٠٠٠ جواز سفر مزيَّف من «غانا». وتناولت الوثائق الأخرى مناصري الملكية «الذين تورطوا في قتل إرهابي». ولكن حتى لو كانت هناك عملية من نوع «آجاكس» قيد الاعتبار في واشنطن، فلا شك في أنها اندثرت في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩.

ولم تخلُ حياتنا في تلك الأسابيع الأولى من قيام الجمهورية الإسلامية من دعابة، وما دامت إيران قد احتفظت بنظام السمات الحرَّة التي كانت قيد الاستعمال تحت حكم الشاه، فقد كنَّا نستطيع دخول إيران والخروج منها كما نشاء ـ حتى أني طرت إلى «دبلن» لإجازة آخر الأسبوع، مغادراً طهران صباح الجمعة، وعائداً مساء الإثنين ـ ولم تؤثر علينا القوانين الجديدة للنظام إلّا تدريجاً. وبقينا أشهراً في فندق أنتركونتيننتال بطهران ـ الذي سمّي فيما بعد

«لاليه» أي الوردة بناء على شعار النظام ـ استطعنا خلالها أن نشرب الفودكا «بالبلينيز» (Blinis). ولكن ما لبث تحريم الكحول أن فُرض بسرعة. ولا يزال لديّ نبذة تذكارية من إدارة الفندق، دُفعت إليّ من تحت باب غرفتي بتاريخ ٢١ آذار/ مارس ١٩٧٩، تقول: «نظراً للإمدادات المحدودة من المشروبات الكحولية في البلاد، ولغلاء أسعار هذه المفردات، اضطرت الإدارة إلى رفع السعر بنسبة ٢٠٪. شكراً. ولم يطل بنا الوقت حتى دعت «كوميته ثورية» الصحافيين إلى أن يشهدوا إتلاف المخزونات الباقية من الكحول الشيطانية في أقبية الفندق. وبينما دارت آلات التصوير، قذف المسلحون بزجاجات الشمبانيا من ماركة «پول روجر» في قعر بركة السباحة الفارغة، مع أفخر النبيذ الفرنسي و«جن» و«غوردون»؛ حيث تراكمت الزجاجات إلى علو حوالى قدمين، وفاحت منها روائح التخمير التي غمرت الفندق أياماً تالية. ولكن، كان هناك أيضاً مطعم من كوريا الجنوبية يتفادى السلطات؛ إذ كان موظفوه يطمرون صناديق الجعة (البيرة) الألمانية في حديقتهم. وكان على الزبائن أن ينتظروا عشر دقائق حتى تستقدم كل جعة إلى طاولتهم معفَّرة بالتراب.

وبقيت الطبقات الوسطى العزيزة على قلب «انتظام» تكرم ضيوفها. وفي إحدى الأمسيات دعيت إلى عشاء في دارة أرضها من رخام، وفيها لوحات زيتية مقلّدة للنهج الفني «الباروكي» أي ذي الأشكال المنحرفة أو الملتوية، في شمالي طهران؛ حيث كان زوجان شابان يستقبلان مجموعة من الكتاب الإيرانيين والداعي لكم، بإنشاد الشعر، وبوليمة من بذخ ما قبل الثورة، مع كؤوس «فودكا» بيتية التحضير. أثارت مضيفتنا الجذابة فضولي، إذ يقال عنها إنها كانت آخر خليلة للشاه. وكان الشاه إذا أراد أن يطارح الحب امرأة، كما يقال، يدعوها للدخول إلى قصره من أحد الأبواب الجانبية، حيث تقضي معه ساعتين في صالون خفي ـ وقبل المغادرة ـ يهديها جرو كلب من نوع «لابرادور» كتذكار لعاطفة ملك الملوك نحوها. ونظراً للتنافر في سمعة الرجل، كنت غالباً أتساءل لماذا لا توجد في طهران مئات من كلاب «لابرادور» الشاردة؟ أبعدت عن خاطري كل هذه الأفكار عند نهاية العشاء، ووقفت أودِّع مضيفيّ، فإذا

بباب مطبخ ينفتح باندفاع فجأة ويُقذف منه شيء أوبر عليّ، ويطالعني إذ ذاك وجه صدوق لكلب ذهبي من نوع «لابرادور»، ينظر إليّ كما لو كان ينتظر طوال السهرة ليتعرف إليّ.

وللتعرف على طبيعة حياة الشاه، دعتنا وزارة الإعلام، المتمتّعة الآن باسم «وزارة الإرشاد الإسلامي»، لزيارة قصر «نيافاران» شمالي طهران. وإذا كان صحيحاً أن «ريتشارد» الثالث بادل مملكته بحصان، فقد اشترى الشاه من حريته مجموعة من القصور، وكومة من السجاد العجمي لا تقدر بمال، ورسماً تخطيطياً من «مارك شاغال»، ونموذجاً من القرن السابع عشر لسفينة أرقَّاء صينية، مصنوعة من ذهب عياره ٢٢ قيراطاً، ومكتبة من طابقين، ومجموعة من البيانوهات تحمل المرء على جناح النشوة، وجهازي تلفون من الذهب الخالص.

وقف أحد موظفي الحكومة الإيرانية تحت قضبان شجرة «البتولا» الفضية في قصر «نيافاران»، على مرجة خضراء يلعب فيها الهواء، وقام ببيع موجودات القصر، في جلسة من جلسات البيع التاريخية في هذا القرن. ولم يكن ذلك سوى فُواق مؤقت في تقدم الثورة ـ التي أثبتت أنها كذلك. أعلن الموظف: «سنطرح الموجودات بالمزاد؛ ثم تُحوّل القصور إلى متاحف». وهكذا بقينا نشاهد شيخاً بعمامة، ومسلحين برشاشين آليين من طراز (G-3)؛ وهم يجرُّون ويعرضون سجادة أصفهانية قرمزية وذهبية مصنوعة باليد، تبلغ مساحتها ٣٠ قدماً مربعاً، عبر الأرض الخشبية لقاعة استقبال الشاه. وعلى كل سجادة ظهرت صور أميرات شرقيات، وطيور تتباهى بريشها، وحيوانات برّية كاسرة ودخيلة، متداخلة مع تطريز النسق العربي في الزخرفة؛ ولكل سجادة لصاقة عليها رقم الجردة: مما يدل على أن للثورة حكاماً جداً فعّالين، ولو كان لها ضروب من الصعود والهبوط. وفي الأسابيع القليلة السابقة، دلَّت التقارير على أن سجادات الشاه جلبت دخلاً مقداره ١٥ مليون دولار أميركي.

وعلى المرء أن يُقرّ بأن ذوق الشاه في المفروشات كان رهيباً. ففي متروكاته تجد الكراسي «الباروكية» الفرنسية معششة حول طاولات من البلّور

والصلب، بينما أكثر أباريق القهوة أو الشاهي تنافراً ـ تلك التي غيَّرها صائغ الفضة بسحره الأسود إلى طواويس بشعة ـ موضوعة على طاولات حفرت فيها الفسيفساء في الخشب بعناية. أما زجاج الجدران المزخرف مع غبار خفيف عليها فيذكّر بدور السينما البريطانية في الثلاثينيّات من القرن العشرين. هكذا ترك الشاه وزوجته قصرهما في كانون الثاني/يناير ١٩٧٩، عندما غادرا في «عطلة» انقلبت إلى نفي مؤبَّد.

إن القدر لا يعطف على الناس العاديين، ويسمح لهم بأن يتجولوا في قصر الشاه المموَّه بالذهب؛ وتحدث أشياء غريبة عندما يُترك المخلوق الإنساني لشأنه في أحضان هذه الوفرة من الغنى. فعندما دعيت الصحافة الدولية إلى ما سمَّاه «أبو الحسن صادق» من وزارة الإرشاد تهكُّماً «حي الشاه للفقراء»، كانت هناك مشاهد شبيهة بغزو الأوستروغوت Ostrogoth لروما (قبائل شمالية بربرية غزت روما ودمّرتها في القرن الخامس). فقد تعثَّرنا بكومات من السجاد، واندفعنا لندخل إلى المكتبة، ونكتشف ما كان الشاه يقرأ في أوقات فراغه. كانت هناك كتب مجلّدة بالجلد لـ «فولتير»، و«فرلين» و«فلوبير»، و«بلوتارك»، و«شيكسبير» و«شارل ديغول». وكانت أعمال «ونستون تشرشل» الكاملة قائمة إزاء «الملّاح القديم» لـ «كوكريدج» ـ وهو مؤلَّف ملائم للقراءة خلال رحلة المنفى ـ وسيرة حياة المهاتما غاندي. أما كتاب «شعبي» لـ «أبا إيبان» وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق ـ الذي كتبه جزئياً في الواقع أحد محرري مجلة «تعليق» ـ فكان على رفٍ منخفض، وعليه الإهداء بخط اليد: «إلى صاحب الجلالة الإمبراطورية، الشاهنشاه»؛ وعلى رف آخر كانت مذكرات «غوبلز».

وفي المكتب الخاص للشاه، لم يستطع الحراس أن يمنعونا من أن نطلب رقماً بالتلفون المذهب. وعلى الشرفة فوق غرفة الجلوس، كان هناك شاب يحمل رشاشاً على كتفه ويهتم بأن يراقبني وأنا ألعب بالإصبعين صيغة من تأليف «باخ»: لحن على خليط G» على «البيانو القيثاري» الذي أهداه إلى الشاه الملك «بودوين» والملكة «فابيولا» من بلجيكا. وبوسع الساعين وراء التذكارات أن يعرضوا أسعاراً للألعاب التي كانت للأميرة ليلى، إبنة الشاه البالغة من العمر

ثماني سنوات. ومنها: نموذج مصغّر لطائرة، وبعض لعب الدببة، بجانب خزانة غير بعيدة عن الفراش ذي الجياد الأربعة. وعلى خزانة جانبية صورة لعائلة الرئيس الأميركي مع تحية خطية: «مع أسمى الأماني؛ روزالين وإيمي كارتر». كما كان هناك أيضاً لوح أسود يبيّن المحاولات الأولى لليلى في الكتابة بالطبشور للأرقام العربية بصيغتها الأوروبية. وفي غرفة دراسة الشاه، كانت الروزنامة لا تزال تسجل ١٦ كانون الثاني/يناير، يوم غادر الملك مملكته. وفي منفضة رماد السجاير الذهبية، وجدت خمسة أعقاب مغبَّرة لخمس سجاير، شهدت ساعات الكآبة الأخيرة من الحكم الامبراطوري.

وكانوا قد أخذونا سابقاً إلى أحياء الفقراء في جنوبي طهران في محاولة إلزامية ثقيلة الوطأة إنما بالغة الفعالية من قبل وزارة الإرشاد لإبراز الاختلاف بين أسلوب عيشة الشاه وأسلوب حياة شعبه. شاهدنا هناك أولاداً يلعبون على الأرض الترابية بساحة «ناجحين» ذات الرقم ٩٤، ونساء يغسلن فوق مجاري الصرف المفتوحة. وكانت أحياء الفقراء في طهران تبدو أقل فقراً من شقق القاهرة؛ كما كان قصر الشاه متواضعاً بالمقارنة مع قصور بعض الحكام العرب. ولكننا فهمنا المقصود ـ حتى لو امتزجت رائحة مياه البواليع القذرة بغرابة مع عطر آنسات الوزارة، الباهظ الثمن.

كان هناك كثير من الغرابة في طهران. فقد كان مجرى الحياة العادية لتلك المدينة الكبرى، القذرة، ذات إعاقات السير، بحد ذاته، أكثر صخباً من أزمة العلاقات الإيرانية ـ الأميركية. وبالرغم من كل الكلام عن الغوغاء المتعصِّبة، كنت أستطيع أن أركب الباص ذا الرقم ٢٠ ـ وهو باص مطلي بالأخضر من نوع «ليلاند» ذو طابقين ـ لأذهب إلى مركز المدينة، أشتري الثياب الفرنسية من المتاجر الغالية الأسعار؛ أو أتناول وجبة خفيفة من دجاج «كنتكي». وصار الإيرانيون المفطومون على أسلوب الحياة الأميركي، غير قادرين على شراء زبدة الفول السوداني من ماركة «سكيپي»، أو جبنة «كرافت» من المخزن الكبير المسمَّى «فور شاغ بوزورغ»، وتمشياً مع آراء الإمام الخميني حول المظهر الذي يليق بالنساء، حرِّمت مستحضرات التجميل الفرنسية والأميركية. لم تكن طهران

مدينة جذابة بحسب المستويات الغربية والشرقية. والصفوف المربعة لمبانيها والضعف المعماري لواجهات الحوانيت المبنية في الستينيّات من هذا القرن، أعطياها طابعاً عقيماً على شاكلة ما نجد في أوروبا الشرقية. مع العلم أن أهالي طهران أنفسهم يواجهون مشكلات في الجغرافيا السياسية للمدينة، لأن الشوارع الرئيسة غيِّرت أسماؤها بحسب التعليمات الثورية. وهكذا اندثر شارع بهلوي وأصبح شارع الدكتور حسين فاطمي، وزير الخارجية الأسبق في حكومة مصدّق، الذي أعدم بعد شهرين من «عملية آجاكس»(*).

وصار مكتب وكالة «رويتر» للأخبار في طهران موضعاً للإصلاح الروحي. وعندما فتحت بابه لقيت مديره «هارفي موريس»، محاطاً بغمامة من دخان السجاير الكثيف، مع زجاجة «ويسكي» على طاولته، وعلى وجهه نظرة مفاجأة أليمة. كان جالساً بشاربي «مارك توني» وشعر أشعث متعجباً من تصرفات الثورة. فهي تبدو مفرطة في الخيال بشكل لا يطاق؛ وهي شجاعة، ومضحكة كما هي قاسية. وكان عليه أن يحمي موظفيه من «الكوميته» وأن يبقي الكتَّاب الأحرار الإيرانيين خارج السجن، وأن يراعي وزارة الإرشاد الإسلامي. وكانت الوزارة هي التي سببت له أزمته الأخيرة، إذ طلبوا منه تاريخ وكالة رويتر للأنباء، فعبس وقال: «ولذا، قام الطيبون في مكتبنا اللندني بإرسال مجلد عن مؤسس وكالتنا «پول يوليوس، فرايهر فون رويتر» لأسلمه إلى الوزارة. ولكن تبيّن أن البارون السعيد الذكر بنى نصف خطوط السكة الحديد الدامية في هذا البلد، وأن «التنازل لرويتر» الصادر عام ١٨٧٢ منح الرعايا البريطانيين احتكاراً لجميع موارد إيران الاقتصادية والمالية. يا إلهي! كيف أستطيع أن أعلم رجال الوزارة بأن مؤسس وكالتنا كان أسوأ من الشاه السيّىء الذكر»؟!.

(*) لم تكن التغييرات شيئاً يذكر بالمقارنة مع المشكلات التي انتابت رؤساء تحرير «أطلس التايمز» في لندن. ففي ١٣ كانون الأول/ ديسمبر تلقيت رسالة من «باري وينكلمان» من دائرة الكتب في «التايمز»، يطلب فيها الأسماء الجديدة للشوارع، ومنها: «بهلويدز» في كردستان، وخزان «رضا شاه بهلوي» شمالي «دزفول»، و«شاهريزا» في جنوب أصفهان. وفي طهران أراد أن يعرف الإسم القديم لجادة «تليغاني»، والجواب هو شارع «تخت ـ إي ـ جمشيد».

أدركت قصده. لكن «هارفي» كان حاذقاً، يخفي وراءه مظهره الخامد المرهق رجلاً قادراً، ظريفاً، ذا فكر شرير أحياناً. كنت أمرّ كل مساء لأثقب نسختي بآلته السلكية، ولأخبره ماذا استجدّ هذا اليوم في تقاريري عن نشاط الشوارع، وعن أسفاري خارج طهران. وكان ينفحني بدوره بعض أخبار المؤتمرات الصحافية أو الفضائح ـ مثلما حصل لمدير التلفزيون «قطب زاده» الذي طلب من سكرتيرته أن تصور على الآلة الناسخة بعض الأوراق الرسمية التي انحشرت بينها رسالة من خليلته الفرنسية؛ فسحب من تلك الرسالة ألف نسخة. وكنت أتلقى من «هارفي» في الصباح مكالمات هاتفية، إذ يقول فيها مثلاً: «يا فيسكي، قد يهمك أن تعلم أن رجال خلخالي قد فتكوا بأناس آخرين بتهمة «الفساد في الأرض». أو يقول في الغالب: «هناك مظاهرة خارج السفارة الأميركية ـ والأفضل أن تذهب أنت لا أنا!».

ومن الغرابة بمكان، أن يصبح اقتحام السفارة الأميركية وعقابيله عملاً مضجراً للصحافيين. فالأميركيون لن يسلموا الشاه إلى «العدالة» الإيرانية، والإيرانيون لن يفرجوا عن الرهائن حتى تتواضع واشنطن. وإن نقل الشاه من مستشفاه في نيويورك، وإلقاءه في «باناما» لن يهدِّئا الثوريين في إيران. وهكذا، كنّا نشاهد كل يوم عشرات الآلاف من المتظاهرين، من طلاب، وحراس مسلحين، وأعضاء في المنظمات الإسلامية، يتدفقون بمحاذاة السفارة ـ التي يشار إليها رسمياً الآن بأنها «العشّ الأميركي للجواسيس» ـ مناشدين السماوات بإعادة الشاه فوراً، ومنددين بالرئيس «كارتر» كمثير للحروب. لقد ألفنا ذلك إلى درجة الرتابة. كان صراخهم «فليسقط كارتر، فليسقط الشاه» يدوِّي لعدة دقائق يتخلله نداء: «أيها «اليانكي» الأميركيون، اذهبوا إلى بلادكم». وعلى جانب الطريق، يتجمهر بائعو «الهامبرغر» وعصير جذور الشمندر، والبطاقات البريدية.

وكانت الحشود تقف استراتيجياً لتظهر صورتها على شاشات التلفزيون. وكان مسموحاً للصحافيين أن يقتربوا من السفارة وأن يحدِّقوا النظر إلى الداخل من بواباتها المصنوعة من الحديد المطاوع؛ بل كانوا يشجعون على ذلك. كان

الرهائن محتجزين في الأبنية الرئيسية للسفارة؛ وفيها الرجال مقيدو الأيدي، لا يمكن أن يُروا؛ بينما كان الطلاب يرفعون شعارات على سطح صف المباني المخصصة للاستقبال، وداخل الباحة الأمامية. لقد فرغوا الآن من نصب صورة زيتية على علو خمسة أمتار، كعمل رمزي، مستوحى من صورة التقطها «جو روزنتال» لجنود البحرية الأميركيين، وهم يرفعون علم النجوم والتقليم الأميركي على «أبو جيما» عام ١٩٤٥. وفي هذه الحال، حل حراس الثورة المسلحون محلّ جنود البحرية، وكانوا يجاهدون لرفع علم إسلامي أخضر، علق أحد أطرافه وظهر بأعجوبة كيدٍ تخنق النجوم والتقليم. لقد صار احتلال السفارة مسرحاً كاملاً مع مشاهد مصورة زيتية؛ بل أكثر من ذلك: أمسى كرنفالاً.

ومع ذلك فمن الخطأ اعتبار ذلك زيفاً. فقد عبَّر الإيرانيون عن احتقارهم للشاه بفصاحة ـ وبلهجة أميركية غالباً، على حد قول أحد طلاب جامعة طهران «البوليتكنيكية»: «أتريد أن تعرف لماذا نريد الشاه الملعون؟ لقد سرق ذلك الرجل خمسين ملياراً من الدولارات من إيران» وعاضده أحد جنود الطيران قائلاً: «إنه ابن حرام قام بأكبر عملية نهب وسلب في العالم».

وكانت لهجته بالإنكليزية تشبه نطق سكان شرقي نيويورك، وتفصح عن العلاقة بين إيران وأميركا أكثر من أية بلاغة سياسية. ويبدو أنه لم يسبق أبداً لمثل هذا العدد الغفير من الثوريين أن عملوا وتعلموا في بلد يعتبرونه اليوم مسؤولاً عمّا عانوه في الماضي(*).

وكان عدد الإيرانيين الذين كانوا في الولايات المتحدة يرقى الأميركية إلى نصف مليون شخص أحياناً أثناء حكم الشاه. وكان كثير منهم في الكليات والجامعات؛ كما كان بعضهم هاربين من نظام الشاه. بينما كانت آلاف عديدة منهم تحت التدريب العسكري؛ وكان الضباط الإيرانيون يتباهون ويتغطرسون بالقيام برحلة مجانية إلى نيويورك، على متن طائرة نفاثة إيرانية. وعلى سبيل

(*) ومما يرد على الذهن أيضاً في هذا المقام، إيرلندا عام ١٩٢٠.

المثال، نذكر أن الدكتور إبراهيم يزدي، الذي استقال الآن كوزير للخارجية، وقد عمل طبيباً في أميركا طيلة ١٧ سنة قبل تعيينه رئيساً مساعداً لمجلس الوزراء في تموز/يوليو ١٩٧٩، والذي استشهد في حرب إيران والعراق، ساعد في إقامة جمعية الطلبة الإسلاميين في أميركا عام ١٩٦٢، مع «صادق قطب زاده»، الوزير القائم بأعمال وزارة التوجيه الوطني».

وقد انبرت فتاة إيرانية درست الصحافة في نيويورك ـ وخبرت على حد قولها الديمقراطية الأميركية ـ وطلبت أن تعرف لماذا يدعم الأميركيون نظام الشاه، عندما يعارض هذا النظام الحرية الفردية وحق الاختلاف، بقولها: «لقد تعلمنا في الولايات المتحدة الأميركية كل شيء عن حرية التعبير عمَّا نريد أن نعبّر عنه. ومع ذلك، استمرت أميركا في تقوية الشاه وقسره على تبذير ثروة إيران على التسلح. لماذا فعلت أميركا ذلك؟ ولماذا تكون أميركا ديمقراطية في بلدها، ودكتاتورية في الخارج». إن في ذلك طبعاً تناقضاً صارخاً وإن التزام الرئيس «كارتر»، المعروف في إيران بحملته من أجل الحقوق الإنسانية، بدعم الشاه قبل الثورة مع بعض التردد، يعتبر نفاقاً؛ حتى لو كانت إدارته تعارض شكلاً الطبيعة الدكتاتورية لنظام الشاه، وتحثه على اتباع سياسة ليبرالية في بلاده.

كما اعتبر الإيرانيون أن من العسير احترام هذا الموقف، ومن اليسير رؤية شيء من السذاجة في تصريحات الرئيس «كارتر» خلال الأشهر الأخيرة من حكم الشاه. ففي تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٨، مثلاً، كان «كارتر» يصف الشاه «كصديق وحليف موالٍ»، ويقر بأن نقد سياسته «البوليسية» كان صحيحاً أحياناً، ولكنه لا يعرف تفاصيل ذلك. ولكن إدانة الإيرانيين وجِّهت غالباً لأعمال الإدارات الأميركية السابقة أيام أيزنهاور، أو كنيدي أو نيكسون. وعندما كان الطلاب يصرخون مندِّدين بمساوىء «كارتر»، كانوا يبدون معبّرين عن مشاعرهم السلبية التي شعروا بها حيال سياسات وزير الخارجية السابق «هنري كيسنجر»، والدور القوي الذي مثله، أيام كانوا يدرسون ويعملون في الولايات المتحدة الأميركية. وعلى سبيل المقارنة، نجد أن قليلاً من الطلاب

الإيرانيين قد اختبروا إدارة «كارتر» ـ ما خلا معرفتهم بأن «كارتر» رفض تسليم الشاه إلى إيران. كما أن قلة من الطلاب الموجودين خارج السفارة، اهتموا بالآثار البعيدة المدى لاحتلال السفارة، وبإمكان أن تفضي إلى انتخاب «رونالد ريغان»، الذي قد يبدي قلة تسامح ورحمة في الشؤون العالمية، وكثرة حماس إزاء أعداء إيران الخارجيين.

أما رد الفعل الإيراني على القوى النافذة الشيطانية الصغرى فكانت تقريباً «دونكيخوتية». فعند السفارة البريطانية، التي لا تزال ملطخة بطلاء المظاهرات السابقة، جاء حشد يعبر عن رضاه عن عدم منح «شاهبور بختيار»، آخر رئيس وزراء لدى الشاه، حق اللجوء في المملكة المتحدة. وعندما وصل المتظاهرون أنفسهم إلى السفارة الفرنسية ـ التي أعطت بلادها إقامة مؤقتة لبختيار ـ عبّروا عن تقديرهم للملاذ الذي قدمته فرنسا لآية الله الخميني قبل الثورة.

ولكن لم ينفع أيّ مسعى سياسي في فك الحصار عن السفارة الأميركية. فقد تم تجاهل نداءات الأوروبيين، والسفير البابوي «شي ماكبرايد»، مؤسس لجنة العفو الدولية ـ فضلاً عن ٧٥ سفيراً يمثلون الجسم الدبلوماسي بكامله. ولم يكن حتى باستطاعة السفراء أن يزوروا «بروس لاينجن» الذي كان في وزارة الخارجية، عندما احتلت السفارة، والذي بقي هناك حتى إطلاق سراحه عام ١٩٨١. وقد أبلغ آية الله الخميني البابا بصراحة أن «يسوع المسيح ذاته كان ليقتصّ من الشاه». وقد قطع التلفزيون الإيراني بثّه حول «الرجل الثالث» ليعلن أن إيران أوقفت التزويد اليومي بالنفط للولايات المتحدة الأميركية البالغ ٦٠٠ ٠٠٠ برميل ـ كاستجابة متسرعة للقرار السابق الذي اتخذته إدارة «كارتر»، بوقف استيراد النفط من إيران.

وفي ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر، أعلنت إيران سحب ١٢ مليار دولار أميركي من إيداعاتها في المصارف الأميركية، فبادر «كارتر» فوراً إلى تجميد الأموال الإيرانية في الولايات المتحدة الأميركية. وقد قوّت كل خطوة جديدة نفوذ الحكم الديني الإيراني، وأضعفت نفوذ اليساريين.

وقد اجتمع نصف مليون طالب قرب جامعة طهران بتاريخ ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر لدعم الفدائيين، الجناح اليساري من حركة رجال العصابات التي أصبحت الآن غير شرعية في إيران، والتي لم تناصر احتلال السفارة. وقد وجدتُ داخل حرم جامعة طهران، «مهدي بازركان» يصلي يوم الجمعة، ثم يجلس القُرْفُصاء، وهو يرتدي كنزة غبراء، ويستمع إلى آية الله حسين علي منتظري، رئيس لجنة الخبراء الذين كتبوا الدستور الإسلامي الجديد لإيران، وهو يقول لسامعيه: «لقد كانت إرادة الشعب الإيراني وراء احتلال السفارة». وكان «يزدي» يجلس بجانب «بازركان» الذي استقال إذ ذاك لأن حصار السفارة قوّض وزارته. وكانت المادة الخامسة من دستور «منتظري» تنص على أن زعيماً دينياً يحظى بتأييد الأكثرية ـ «عادلاً، تقياً، مستنيراً، شجاعا، حصيفاً» ـ يمكن أن يصبح وصياً على الأمّة. ومن الواضح أن هذا الدور المرهق حتى لا نقول الشاق روحياً، لا يُعطى لأحد سوى الإمام آية الله الخميني.

وفي هذا الحكم الديني الجديد، لن يكون هناك مكان لحزب «توده» الشيوعي، وكان الشاه بعد قلب مصدّق عام ١٩٥٣ قد أعدم بعض زعمائه، بينما هرب آخرون. وعمَّا قريب، سيأتي دور هذا الحزب ليُسحق من جديد، على يد الخميني هذه المرة.

ولكن بقي الحزب مناصراً رسمياً للخميني حتى شتاء عام ١٩٧٩ ـ حتى لو كان مكتب «نور الدين كيانوري» المكتب الوحيد في طهران الخالي من صورة الإمام؛ بينما كانت هناك لوحة نحاسية محفورة لصورة «لينين» فوق الدرج؛ وقد قطَّب الأمين العام لحزب «توده» حاجبيه عندما سألته لماذا لا يركّز آية الله نظره نزولاً على طاولة مكتبه.

قال لي «إن عبادة الشخصية مذهب غير موجود في إيران. فنحن لسنا مثل الإنكليز، الذين يعلّقون صورة الملكة في كل غرفة». ضحك «كيانوري» طويلاً لهذه الطرفة، مدركاً أن المقارنة كانت غير دقيقة. لقد كان رجلاً مدققاً، فكهاً إلى حدٍّ ما، له رأس أصلع، وعينان كبيرتان، وشاربان أغبران غليظان، يجعلانه يبدو كشخصية من رواية فرنسية عظيمة. لكن هذا الأستاذ السابق في جامعة

طهران، وفي أكاديمية برلين الشرقية، كانت لغته السياسية أقرب إلى جريدة «البرافدا» منها إلى «زولا». لقد كان حزب «توده» منشغلاً «بالكفاح الراديكالي ضد الامبريالية» و«بمعاودة تنظيم الحياة الاجتماعية، ولا سيما للطبقات المسحوقة في المجتمع». فالحزب يريد «ديمقراطية شعبية»، لا بورجوازية تمسي شعبية كما في بلاد الغرب. وفي حدود الإمكان، يريد حزب «توده»، أقدم حزب سياسي في إيران، ما يريده آية الله الخميني. كانت هذه هي النظرية؛ وقد تشبّث بها «كيانوري» بشجاعة. والحقيقة هي أن نظرة «توده» إلى إيران الجديدة تكاد تطابق نظرة الاتحاد السوفياتي ـ التي كانت إذ ذاك مؤيدة للخميني.

قال «كيانوري»: «نقدنا النظام القائم؛ ولاسيما بشأن الحرية في الدولة وحقوق النساء. وانتقدنا أيضاً التعصب الإسلامي ـ إذ إننا ضد الأفكار التقليدية للعناصر المحافظة. ولكن بالنسبة إلينا، تمثل الناحية الإيجابية في آية الله الخميني مسألة هامة تتضاءل إزاءها الناحية السلبية وتندثر». فقاطعته بقولي: «منذ ثلاثة أشهر أدان الخميني حكومة حافظ الله أمين المدعومة من الاتحاد السوفياتي في أفغانستان لمناهضتها المتمردين المسلمين. أليس هذا اختلاف في الرأي؟». فأجابني «كيانوري»: «لكن نظرة آية الله الآن مختلفة. فلديه معلومات جديدة حول الوضع هناك».

هل كان آية الله مخطئاً إذن؟ ـ صحح لي «كيانوري» كلامي بقوله: «لم أستعمل كلمة مخطىء»، بل قلت إن نظرة آية الله تغيرت، فهو يعلم الآن أن الحركة الإسلامية المناوئة للثورة هي أداة بيد عملاء وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)». ألم يكن ذلك صوتاً سوفياتياً يكلمني؟ أليس حزب «توده» ناطقاً باسم الاتحاد السوفياتي؟ ـ كان الجواب: «ليس هذا صحيحاً. فالنقاد الحقيرون اتهموا «فكتور هوغو» بأنه جاسوس للإنكليز، وقد وصِمت شخصيات عظمى بأنها عملية للأجانب؛ لأن مثل هذه الشتائم تستخدم ضد القوى التي تحارب الإمبريالية. إن «توده» ليس الصوت الرسمي للاتحاد السوفياتي».

وفي تقريري لجريدة «التايمز» عن تلك المقابلة، ذكرتُ أن آية الله قد يقلل

من قبوله للانتقادات المحدودة التي صدرت عن حزب «توده»؛ لكنني أخطأت في التوقيت. فقد أولى الخميني اهتمامه عام ١٩٨٣، في ذروة الحرب بين إيران والعراق، إلى حزب «توده» الذي يبغي «ديمقراطية شعبية». وعندما ارتدّ «فلاديمير كوزيكين»، ضابط (KGB)، سلّم قائمة بالعملاء السوفيات العاملين في إيران، إلى السلطات البريطانية التي تشاركت في ذلك مع السلطات الإيرانية. فأوقف على الأثر أكثر من ألف عضو من حزب «توده»، بمن فيهم «كيانوري» الذي أُقنع بسرعة بأن يقرّ بأن «الحزب مذنب بتهمة الخيانة والتجسس لصالح الاتحاد السوفياتي». وظهر «كيانوري على شاشة التلفزيون الإيراني وقال إنه استمر في الاتصال بالعملاء السوفيات منذ عام ١٩٤٥، وأن أعضاء من حزبه كانوا يفشون أسراراً عسكرية ويسلِّمون وثائق سياسية للسفارة السوفياتية في طهران. وعلى الأثر، طرد ١٨ دبلوماسياً سوفياتياً؛ وأرسل «كيانوري» مع زوجته «ريم فيروز» إلى سجن «إيفين» بعد أن حكم عليهما بالسجن عشر سنوات. ولكن لم يطل العمر «بكيانوري» الذي مات بعد إطلاق سراحه بقليل. وكانت تلك نهاية اليسار في إيران.

ولم تتح لي فرصة الجلوس في حضرة الإمام الخميني إلَّا في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩. ومنذ أمدٍ بعيد كانت بريطانيا إمبراطورية، وكان مراسل جريدة «التايمز» يُعار أذناً صاغية من قبل رجال الدولة ورجال الحرب. فالشاهات والأمراء كانوا يطلبون أن تجرى لهم مقابلات. ولكن هناك إمبراطورية جديدة الآن، تضمن بأن يكون رجال التلفزيون الأميركي، وأولاد «النيويورك تايمز»، والصحافيون الأميركيون هم المعتمدون والناطقون باسم وزارة الخارجية الأميركية التي فازت بالحصول على هذه المقابلات. وكان أفضل ما يمكن أن أقوم به هو أن أنضم إلى فريق السلم الأميركي الجديد الذي أراد «آيات الله» ـ الذين يستشمّون النفوذ كالسياسيين ـ أن يكلموهم. ولذلك، سافرت إلى مدينة «قم» مع شبكتين من شبكات التلفزيون الأميركي التي قدَّرتُ مراسليها، لا مستخدميها. وأعجبت بخاصة برجلين هما: «جان هارت» و«بيتر جيننغز». فلا بد من أن يتحلى الأميركي بالشجاعة ليصف الثورة الإيرانية

بتعاطف ونزاهة. وقد سافرت مرات عديدة مع «هارت» في طهران، إذ كان يقول: «لندعْ «بوب» الشاب يأتي معنا، أليس كذلك يا بيتر؟ وعقَّب على ذلك بجلبة، وأنا أقف بجانبه، مؤكداً: «أعني أنه لن يعيق طريقنا. وممَّا يبعث في النفس الرضا، أن نساعد البريطانيين القدامى المساكين! وفي أية حال، إني متأكد من أن «بوب» سيكون ممتناً لأميركا». كان التهكم قسرياً؛ ولكن صاحبه أدرك تماماً مكانتي المتدنية بين صنوف الكتّاب الصحافيين.

كان ذلك صباح يوم أحد مشرق من أيام الشتاء، ونحن ندلف باتجاه «قم»، بقبابها الزرق، ومآذنها الذهبية التي تتلألأ في الضياء. وكانت هذه هي الصورة التي تخيّلتها لمدننا الأوروبية في القرون الوسطى: بشكل أبراج عالية مستدقَّة على ظهر تلة أو على انحدار وادٍ. وهكذا، بدت «قم» صوفية عبر الصحراء، قبل أن نصل إلى مرائب ودكاكين إيواء السيارات وإصلاحها، والأحياء الفقيرة منها. لم نحتج إلى أن ننعتها بالمدينة «المقدسة» في تقاريرنا، بعدما قطعنا أميالاً من الكثبان الرملية الغبراء، وظهرت لنا كأعجوبة من الضياء والنفوذ. وبوسعك أن تدرك كيف يشعر الحجاج عندما تكتحل عيونهم بمرأى قبابها، وانعكاس الذهب على الأفق، وتجدد إيمانهم، بعد مسيرة أيام على الصخر والحصى والرمل الناعم. الله أكبر. من كل مكبِّر صوت في المدينة، وفوق كل ساحة من ساحاتها، يهدر هذا الصوت بالنصح والتسبيح. جئتُ مرة إلى «قم» عند الظهيرة في يوم قائظ، لإجراء مقابلة مع أحد رجال الدين؛ فقدّم إليّ تلميذ مسلم، بريطوني اهتدى إلى الإسلام، ماء بارداً في كأس من «البرونز». وما كدت أضع شفتيّ على الطاس حتى تهادت أمامي خارج النافذة شجرة «جاكاراندا» وردية في النسيم العليل؛ فشعرت كأني أرشف رحيق الحياة وأفرغه في جسمي. ولا عجب أن يقرِّر الخميني العودة إلى «قم». إنها المدينة التي بدأ منها هجومه على الشاه. هنا ولد وهنا مات شهداء الثورة الأولون. قالوا لي إنه كان يحيا حياة بسيطة متواضعة، وكانوا مصيبين. وقد أروني غرفة نوم الخميني، فإذا بها تحوي سجادة خشنة على أرض الغرفة، وفراشاً، ومخدة، وكأساً من أجل لبن الزبادي الذي يتناوله في الصباح.

ومن الظواهر المثيرة للاهتمام، هذه الرغبة الشرقية في أن يُروا الضيف عيشة زعمائهم ضمن أحضان البساطة والفقر. وفي القاهرة، أسعد أعضاء الجماعة الإسلامية السرِّية أن يطوفوا بي في أحيائهم الفقيرة حيث قضوا حياتهم. وقد أمر «بن لادن» أحد رجاله بأن يريني الخيم التي تعيش فيها زوجاته. وها هم حراس الخميني يفتحون لي باب غرفة الرجل المسنّ. لم يكن هناك قصور للإمام، لأنه بنى قصوره في أفئدة الناس، وبالناس. إن الإيمان والتوقير له يظهر على وجوه عشرات الرجال الذين اندفعوا واقتحموا وركلوا ليشقّوا طريقهم إلى غرفة الاستقبال الصغيرة، بجدرانها البيضاء العارية، حيث تتبدَّى أسس بيته الروحي وجدرانه. لقد كانوا خدمه ومحاربيه المخلصين، حماته وحراسه «البريتوريين»: حمى الله إمامنا. ويزيدهم تفانياً أن يصرِّح الخميني بأنه خادمهم، وأكثر من ذلك أنه خادم الله تعالى.

لم أره يدخل الغرفة، مع أني سمعت صراخاً يشبه الهستيريا عندما دخل. ثم حانت مني التفاتة صوبه لهنيهة، فرأيته يتقدم بسرعة، وتموج حوله عباءاته السود، وتظهر عمامة «السيد» بين الرؤوس، حتى جلس أمامي متصالب الرجلين على سجادة صغيرة بخطها الأزرق والأبيض. لم يبتسم، بل كان وقوراً يحملق بعينيه في الأرض. وغالباً ما تكون استجاباتي رديئة في مثل تلك اللحظات. فعندما رأيتُ ياسر عرفات لأول مرة ـ أقرّ بأنه ليس كالخميني ـ سحرتُ بعينيه، وأردتُ أن أقول له ما أكبر عينيك. وعندما قابلت حافظ الأسد في سوريا أُسِرتُ بتسطح قفا رأسه تسطحاً كاملاً لاثنية فيه. وقضيتُ أمسية مع الملك حسين، ودُهشتُ باستمرار لحجمه الصغير، وبقيت منزعجاً لعدم استطاعتي وقفه عن اللعب بعلبة السجاير الجاثمة على الطاولة فيما بيننا. والآن ها هو جبَّار من جبابرة القرن العشرين الميلادي، سيظهر اسمه في كل كتاب تاريخ لألف سنة قادمة بصفته أداة معاقبة لأميركا، و«سافونارولا» (Savonarola) لطهران، ومصلحاً رائداً إسلامياً. وعندما تفحصتُ وجهه، لاحظت البقعتين على خدِّه، وحاجبيه الفضفاضين، والأكياس تحت عينيه، ولحيته البيضاء الناصعة، ويده اليمنى على ركبته، وذراعه اليسرى مستورة بعباءته.

ولكني لم أستطع أن أرى عينيه؛ لأنه كان يحني رأسه وكأنه لا يرانا، ولم يلحظ الغربيين الجالسين أمامه، مع أننا كنَّا، بالنسبة إلى الرجال الفقراء، المتصبّبين عرقاً، المندفعين في غرفته، رمزاً لنفوذه وشهرته على الصعيد الدولي. كنَّا القناصل الأجانب الوافدين على البلاط الشرقي، المنتظرين لأن يسمعوا الجواب الحكيم من وسيط الوحي. كان «قطب زاده» جالساً عن يمين الإمام الخميني، يتفرس بتذلل في وجه الرجل الذي سيدينه فيما بعد ويأمر بقتله، ويميل برأسه نحو آية الله، حريصاً على أن لا تفوته كلمة واحدة من كلماته؛ فهو المترجم في كل حال. أردنا أن نعرف وضع رهائن السفارة. وكان الخميني يعرف أننا سنطرح هذا السؤال؛ فهو عالم بالشبكات. وكانت ملاحظاته التهكمية حول الجرائد في أواخر أيام حياته تفصح عن أنه يفهمنا، نحن الصحافيين، كذلك.

قال: «ستجري محاكمتهم، ستجري محاكمتهم، ومن تثبت منهم جاسوسيّته سيخضع لقرار المحكمة. وكان الخميني يعرف ـ كما نعرف نحن أيضاً منذ بداية الثورة ـ أن كل من يجدونه مذنباً بالتجسس سيحكم عليه بالموت. وتابع آية الله كلامه قائلاً: «يجدر أن نقول إنهم ما داموا هنا فهم تحت راية الإسلام، ولن يمسَّهم ضرر. . . ولكن بما أن هذا الأمر يستمر، كما هو واضح، سيبقون هنا ـ وحتى يُعاد الشاه إلى هذه البلاد، فقد يحاكمون». لقد قرر الخميني أن تسليم الشاه إلى إيران يجب أن تتسم به كل وجوه السياسة الخارجية للبلاد. وبالطبع، تكلم «هارت» و«جيننغز» عن القانون الدولي، واحترام جميع السفارات. وقد ترجم السؤال همساً بواسطة «قطب زاده». وكان جواب الخميني هادئاً، ولكنه بصوت خشن، كالحصى والرخام: «إن من نقض القانون الدولي هو الرئيس كارتر بإبقائه جواسيس في طهران، وإن الحصانة الدبلوماسية لا تشمل الجواسيس.

وكان يفكر طويلاً قبل كل جواب ـ مثل بن لادن ـ مع أنه ليس هناك ما يجمع بين الرجلين سوى التراث الإسلامي المنقسم ـ وأنه رفع نبرة صوته

غاضباً عندما ذكر كلمة «جواسيس». واستأنف قائلاً: «إن الدبلوماسيين في أي بلد يفترض بهم أن يقوموا بالعمل الدبلوماسي؛ ولا يفترض بهم أن يرتكبوا الجرائم وأن يقوموا بالتجسس.... وإذا عملوا كجواسيس، فهم غير دبلوماسيين. إن شعبنا ألقى القبض على بعض الجواسيس، وبناء على قوانيننا سيحاكمون ويلقون قصاصهم... حتى لو أعيد الشاه، فإن إطلاق سراح الرهائن سيتمّ بمبادرة طيبة من قبلنا».

كنتُ ما زلت أفتش عن العينين. وعند تلك اللحظة، رأيتُ أنه يحدِّق في نقطة على الأرض، على خيط من أشعة الشمس اخترق النوافذ العالية الوسخة، وكوَّن دائرة من النور على السجادة. كان رأسه منحنياً باتجاه النور، كأنه يستوحيه وبقيت ذراعه اليسرى مخبأة تحت الثوب. هل كان يراقب هذه النقطة المضيئة لسبب ديني ما؟ أو هل أعطاه ذلك تركيزاً ذهنياً؟ أو هل ضجر وتعب من أسئلتنا الغربية، المشحونة بمطالب أنانية لمعلومات حول بعض العشرات من الأرواح الأميركية، بينما قُتل في الثورة آلاف من الإيرانيين؟

ولكنه كان قد قرر ما سيقوله لنا منذ أمدٍ طويل قبل المقابلة. لقد كان يعلم أن ثلاثة من أولئك الأميركيين سيطلق سراحهم بعد خمس ساعات. وهم عنصران أسودان من جنود البحرية الأميركية، وامرأة هي «كاثي غروس». ولكن الخميني عاد تكراراً إلى الحجة ذاتها. وعلى غرار شبكة التلفزيون الأميركية، بدأ ينتابه هاجس واحد متسلط عليه، ألا وهو: العقوبة. لم يرد أن يعظنا، أو يتكلم عن الله والتاريخ ـ وعن مكانته فيه ـ بل عن أن كارتر ارتكب إثماً ضد القانون الدولي «إن أحدهم ارتكب جريمة؛ ويجب أن يعاد ذلك المجرم إلى بلده ليحاكم». وكان صوته يستمر في تطهيرنا: «ما دام كارتر لا يحترم القوانين الدولية، لا يمكن إعادة هؤلاء الجواسيس إلى بلادهم». ثم هبّ واقفاً، وكأنه فقد كل اهتمام بنا، وانهار الرجال الجالسون في الصفوف الأمامية، بعضهم فوق بعض، من تأثرهم بمغادرته. وتقدم أحد سائقينا إلى الأمام ـ ومال مترجمنا الخاص وهمس في أذن الخميني بأنها لحظة عظمى في حياة هذا

السائق، لو استطاع السلام على الإمام ـ وأمسك سائقنا بيد الإمام يقبلها، ويرفع رأسه والدموع تجري على خدَّيه. لقد ذهب الخميني(*).

لم يكن ذلك هبوطاً من الرفيع إلى الوضيع؛ بل كان نزوة عاطفية مفرطة. وعندما أعلن أحد رجال البحرية الأميركية المحرَّرين ذلك المساء، وهو الرقيب «وال مايپل»: أن الثورة الإيرانية هي «شيء جيد»، كان ذلك أيضاً مثيراً للاهتمام. ومنذ تلك الآونة، قررتُ أن أقرأ الخميني، وأن أطالع له كل خطاب يلقيه ـ مع العلم أن وزارة الإرشاد الإسلامي كانت تغرقنا بكل ما يقوله ـ من أجل معرفة ما الذي أسر قلوب الملايين العديدة من الإيرانيين. ثم فهمت تدريجاً. لقد تكلم بلغة الناس العاديين دون تعقيد وليس بلغة البلاغة الدينية؛ كما لو كان يتكلم إلى الشخص الجالس بجانبه. ومع إنه لم يكن يعلم من هو أسامة بن لادن عام ١٩٧٩ ـ إذ إن السعوديين لن يغادروا أفغانستان قبل مضي شهر آخر ـ فالخميني كان يعتقد أن المذهب السنّي الوهّابي يشكل خطراً على الشيعة وعلى العالم الغربي. وفي «رسالته الأخيرة» التي أطلقها قبل وفاته مباشرة، عندما كان قد سمع باسم «بن لادن» على الأرجح، هاجم الخميني بعنف الأفكار التي تروِّج للمذهب الوهَّابي.

كما أن الخميني عرف كيف يحاجّ ضد المحافظين الأميركيين الذين ادَّعوا وما زالوا يدّعون ـ أن الإسلام دين تخلف وانعزال، إذ كتب ما يلي: «يدّعون أحياناً بصراحة وبحجة واهية أن القوانين التي مرَّ عليها ١٤٠٠ عام، لا يمكن أن تنظِّم العالم الحديث بفعالية». كما كتب أيضاً: «كما يجادلون أحياناً أخرى

(*) دروس في الصحافة: عندما أرسلت تقريري ذلك المساء من طهران إلى جريدة «التايمز»، أبرزت فيه أن على هذه الجريدة الاعتراف بفضل الشبكتين الأميركيتين، وعدم تغيير الترتيب الذي وردت فيه أسماؤنا في التقرير، مع ذكر اسمي في آخر القائمة. فجاءني وعد من المكتب الأجنبي بالإيجاب. وفي آخر الليل، خطر لأحد المسؤولين عن التحرير أن يقدم مراسل «التايمز» على الأميركيين الآخرين، معطياً الانطباع بأن الأميركيين كانا تابعين لي في المقابلة. فلعنتُ الجريدة. لعنني جيننغز الذي توفي نتيجة مرض السرطان عام ٢٠٠٥؛ ولم يسامحني إلّا بعد أيام على هذا السلوك غير المهني الذي قامت به جريدة «التايمز».

على أساس أن الإسلام هو دين رجعي، يعاكس أية أفكار جديدة، وأية مظاهر جديدة للحضارة، وأنه لا يمكن أن ينعزل أحد عن الحضارة العالمية، في الوقت الراهن... كما يناصرون بلغة دعاية رديئة خرقاء، قدسية الإسلام وورعه، بتوكيدهم على أن الديانات السماوية لديها مهمة نبيلة تطهِّر النفوس، وتدعو الناس إلى التقشُّف، وإلى الزهد... وليس ذلك سوى اتهام باطل... فقد أكد القرآن الكريم والإسلام إلى حدٍ كبير على العلم والصناعة...

وعلى هؤلاء الأفراد الجهَّال أن يعلموا أن القرآن الكريم وتقاليد نبي الإسلام تحوي المزيد من الدروس، والقرارات والفرائض حول الحكم والسياسة، أكثر مما تحويه بشأن أية قضية أخرى...».

كان «هارفي موريس» شديد الإعجاب بالخميني، عندما وصلتُ إلى مكتبه لأرسل تقريري برقياً ذلك المساء في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩، إذ قال: «عليك أن تقدم هذا التقرير إلى الرجل الكبير؛ فهو يعرف كيف يعاملكم، أنتم الذين نرسلكم لإجراء مقابلة معه. فالخميني لا يضيع وقته على قضايا دينية عامة لا تفهمونها؛ بل يعالج مباشرة صميم الموضوع، ويعطينا العناوين الكبرى الرئيسية». كان «هارفي» يحترم الخميني بطريقته الخاصة. فالخميني يعرف كيف يخاطبنا، وكيف يخاطب الإيرانيين. وعندما يقرأون «رسالته الأخيرة» بعد موته عام ١٩٨٩، تظهر كلماته مفعمة بالتواضع التام، إذ يقول فيها: «إني بحاجة إلى صلواتكم، وأطلب من الله تعالى الغفران لقصوري وأخطائي... وآمل أن تسامحني الأمة أيضاً على ما بدر مني من نواقص وتقصير... واعلموا أن غياب أحد الخدم لن يؤثر أبداً على درع الأمة الفولاذي».

وباستطاعتكم أن تدركوا كيف اقتنع أتباع الخميني بورعه وتقاه، حتى درجة الطاعة التامة تقريباً. إني أذكر كيف تكلم معي «قطب زاده» عنه، وخفض صوته إلى درجة الخرخرة النسائية، وهو يحاول أن يقنعني بأن انزعاج آية الله من المسيرة البطيئة للثورة لا يعني أي تغيير في خُلُقه. «فالرجل»، بحسب قوله: «هو كما كان دائماً: ورع، تقي، شريف، عاقد العزم، نقي». هذا هو الرجل

الذي صادق الخميني على إعدامه. ولن ندري أبداً بمَ فكر «قطب زاده» أمام فريق الإعدام.

جابهني «هارفي» بسؤاله: «هل هي عودة إلى وكر الإثم، يا بوب؟»، عندما دخلت منقطع النَّفَس إلى مكتب «رويتر» لإرسال تقريري. كان دخان السجائر أكثف من العادة، مع زجاجة ويسكي أخرى على المكتب. واستأنف قائلاً: «كيف يكون الوضع في مركز الشر والقصف والعربدة» «ساتورناليا» (Saturnalia)، بحسب التعبير المفضل لدى الخميني. وكان من اليسير الهزء بالثورة الإيرانية، وبوعظها السرمدي، ونزاهة خصامها الذي لا يتغير، وثقتها الذاتية الطفولية. ولكن هناك إصرار وثبات في هذه الثورة، وضرب من المواظبة التي يمكن أن يكون لها آثار فائقة حالما يُحدّد الغرض بوضوح. ولا يرمز إلى ذلك التفاني شيء أفضل من معاودة توليف آلاف من الصفحات الدبلوماسية الأميركية الممزَّقة، التي وجدها الإيرانيون عندما احتلوا السفارة الأميركية.

وقد وصفت امرأة من «أتباع الإمام» فيما بعد كيف أن طالب هندسة يدعى «جافاد» استنتج أن الأجزاء الممزّقة من كل وثيقة لا بد من وضعها، بعضها بجانب بعض، بحيث يعاد تركيبها وردّها إلى شكلها الأصلي:

> «لقد كان عبارة عن دراسة في التركيز: ملتحياً، نحيلاً، عصبياً، وناشطاً. وقد اجتمعت هذه الصفات عنده مع سيطرة قوية على اللغة الإنكليزية، وعقلية رياضية، وفيض من الحماس؛ كل ذلك جعل منه شخصاً ملائماً بشكل طبيعي لهذا العمل... وبعد ظهر أحد الأيام، تناول حفنة من الأوراق الممزّقة من البرميل الذي يحتويها، وبسطها على ورقة بيضاء، وبدأ بتجميعها على أساس تشابه نوعياتها... وبعد مرور خمس سنوات لن نتمكن سوى أن نعيد تركيب حوالى ربع وثيقتين، لا غير. وفي اليوم التالي، زرتُ مركز التوثيق مع جماعة من الأخوات. فقال لنا مبتسماً: «اقتربن وانظرن. فبالإيمان وشيء من الجهد، نستطيع أن نحقق المستحيل، بعون من الله تعالى».

وهكذا التأم شمل فريق مؤلف من عشرين طالباً، ليشتغلوا في ضمّ تلك الأوراق. فبُسطت لوحة، ونُصبت عليها أربطة من البلاستيك لتثبيت الأوراق الممزّقة في مكانها. وكان بإمكانهم أن يعيدوا تركيب من خمس إلى عشر وثائق كل أسبوع. إنهم حائكو السجّاد، يعكفون بعناية على نسيجهم بمحبة، ليعيدوا خيوطه إلى أمكنتها. إن السجاد الإيراني حافل بالزهور والطيور، ومعاودة تخليق الحدائق في الصحراء. والمقصود من ذلك منح الحياة وسط الرمل والحرّ، وتخليق مروج خالدة وسط الأراضي القاحلة. إن الإيرانيين الذين كدّوا أشهراً على العمل بتلك الأوراق الممزّقة، كانوا يخلّقون سجادتهم الفذّة، التي عرضت الماضي، وتحولت إلى كتاب تاريخ حيّ وسط الدعاية الجرداء للثورة. وقد تطوع للعمل على هذه السجادة الورقية طلاب من المدارس الثانوية ومن المحاربين القدامى المعاقين. واستغرق عملهم ست سنوات لإكمال ٣٠٠٠ صفحة تحوي ٢٣٠٠ وثيقة، مجمعة في ٨٥ مجلداً(*).

وقد عكفتُ بدوري على كل منشور من تلك الوثائق كلما صدر، واستغرقت في مطالعتها، ليلة بعد ليلة، فوجدتها عبارة عن محفوظات للتاريخ المعاصر السرّي من عام ١٩٧٢ إلى فوضى بدايات الثورة في إيران، كتبت بواسطة أمّة تهدّد باتخاذ عمل عسكري ضد إيران. هنا ملاحظات السفير الأميركي «وليان سوليفان» في أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٨، يشير فيها بازدراء إلى «الائتلاف المتطرف للمسلمين المتعصبين الذين يقودهم آية الله الخميني في العراق (الائتلاف الذي تم اختراقه، والذي تساعده مجموعات متنوعة من العناصر الإرهابية، والشيوعية السرّية، وغيرها من العناصر اليسارية»...). وهنا، نستمع أيضاً إلى الشاه «الذي يصرّ على قوله إنه يرى اليد السوفياتية في كل المظاهرات

(*) ومن ضروب السلوك النموذجية لبيروقراطية الأمن الأميركي، أن الصحافيين الذين وصلوا إلى مطار كنيدي في نيويورك من طهران، حاملين المجلدات المنشورة المحتوية على وثائق السفارة، تعرضوا لمصادرة تلك المجلدات من قبل الجمارك الأميركية، بدعوى أنها تحوي أوراقاً حكومية «محظورة التوزيع». وهكذا، استطاع الشعب الإيراني أن يبتاع نسخة من تلك المجلدات على الرصيف في طهران؛ بما لا يزيد على ١٥ ريالاً، بينما حرم الشعب الأميركي من اقتنائها.

والاضطرابات التي حدثت». لقد كانت بعض التحليلات الدبلوماسية خاطئة تماماً، كما جاء في إحدى البرقيات السرِّية: «إن بعض الشخصيات مثل آية الله الخميني وشريعتمداري. . . ليس لهم أي حظ في أن يفيدوا من كثرة أتباعهم ليسيطروا على الحكم لأنفسهم».

أما الوثائق الأخرى، فكان منها ما هو تجريمي. فهذا «روبرت ر. بووي». مدير التقويم الوطني الأجنبي في وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، يشكر «سوليفان» بتاريخ ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٨ لإقامته حفلة «كوكتيل» مكَّنته من التعرف على الشاه، وعقد بعض المحادثات الأخرى غير الرسمية مع بعض العسكريين الإيرانيين وجماعة «السافاك». كما كانت هناك بالتاريخ ذاته، مذكرة من القنصلية الأميركية في أصفهان تسجل محادثة جرت مع «إبراهيم بشاور»، المدير المحلي للتلفزيون الإيراني، يُسأل فيها بشاور عن «صحة قيام فريق أو أكثر عنده بتغطية مظاهرات أطاح فيها المتظاهرون بتماثيل للشاه، وأنه سلَّمها لقوى الأمن من أجل التحقيق». فأجاب بالإيجاب، وقال: «إن هيئة الراديو والتلفزيون الإيرانية قررت أن لا تعرض ذلك على التلفزيون؛ وأن مثل تلك الأفلام يتم تبادلها مع «هيئات حكومية أخرى. وطلب. . . أن لا أفشي هذا السر».

وبين الملفات التي أعيد تركيبها كتيِّب لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) مؤلف من ٤٧ صفحة موسوم بأنه «سرِّي»، ومؤرخ في آذار/مارس ١٩٧٩ ـ كتب بعد الثورة، لكنه باقٍ بشكل لا يصدَّق، بين محفوظات السفارة ـ حول الهيكلية الداخلية «لأجهزة الأمن والاستخبارات الأجنبية» الإسرائيلية. وجاء في هذا الكتيِّب أن جهود إسرائيل لكسر الطوق العربي الملتفّ حولها، أفضت إلى:

> «إنشاء هيئة ارتباط ثلاثية رسمية سمّيت «المنظمة الثلاثية الشُّعَب». . . أقامها «الموساد» مع «جهاز الأمن الوطني التركي»، والمنظمة الوطنية للاستخبارات والأمن» الإيرانية أي «السافاك». . . ويشمل عمل هذه المنظمة الثلاثية الاستمرار في تبادل المعلومات الاستخباراتية مع عقد اجتماعات نصف سنوية بين رؤساء تلك

الوحدات. . . وكان الهدف الرئيس لعلاقة إسرائيل بإيران هو تنمية سياسة محابية لإسرائيل ومضادة للعرب لدى الموظفين الرسميين الإيرانيين. وقد تورط «الموساد» في عمليات مشتركة مع «السافاك» على مدى السنين الفائتة منذ أواخر الخمسينيّات من القرن العشرين الميلادي. وقد ساعد «الموساد» «السافاك» في أنشطتها، وناصر الأكراد في العراق. كما أن الإسرائيليين نقلوا إلى الاستخبارات الإيرانية تقارير منتظمة عن أنشطة مصر في البلدان العربية، وعن الاتجاهات والتطورات في العراق، والأنشطة الشيوعية المؤثرة على إيران».

وأظهرت بعض المذكرات الداخلية الأميركية استيعاباً كبيراً للأحداث السياسية، وفهماً لثقافة إيران ـ حتى لو كانت هذه الحكمة غير مقبولة في واشنطن. فقد أرسل «جورج لمبراكيس» مذكرة إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢ شباط/فبراير ١٩٧٩، يشير فيها إلى ما يلي:

«إن الناطق باسم الحكومة الإيرانية روَّج لفترة زمنية طويلة أن معظم أتباع الخميني هم أعضاء شيوعيون سرِّيون أو يساريون ماركسيون. . . وهذه المقولة مبنية إلى حدٍّ كبير على أسطورة مفادها أن الشيوعيين تغلغلوا كشباب في المدارس الدينية، وهم يؤلفون اليوم الشيوخ الأئمة وغيرهم من المنظمين للحركة الدينية. . .

وقد أحرز التغريب (Westernization) مكانة وشرعية له، تحت حكم العاهلَين البهلويَين، مما محا عملياً ذكريات الماضي الإسلامي لدى عدد غفير من أبناء الشعب الذين انخرطوا في المدارس الإيرانية ذات النظام المتغرِّب، وتابعوا دراساتهم العليا خارجاً في الغالب. . . وحاول الشاهان البهلويان دفع المؤسسة الإسلامية القائمة بأنها بقية جاهلة ورجعية من الماضي الذي عفّى عليه الدهر بسرعة. وقد اتخذت خطوات لجعل ذلك نبوءة تحقق ذاتها. وقد بذلت الحكومة جهوداً لقطع المساعدات الأهلية عن الشيوخ

الأئمة.. ومع ذلك، فقد اتضح تماماً أن الإسلام مستوطن في عمق النفوس لدى أكثرية الشعب الإيراني. وقد تماهى الإسلام بشكله الشيعي مع القومية الإيرانية... إن البلهويين حاولوا استئصال هذه القومية القديمة وإحلال صيغة حديثة محلَّها قائمة على العودة إلى تقاليد، وأساطير، وأمجاد الماضي الذي سبق ظهور الإسلام...».

ويشبه تقويم السفارة للمجتمع الإيراني عام ١٩٧٨، وضع المجتمع العراقي قبل سقوط صدّام عام ٢٠٠٣ ـ ليت الأميركيين قرأوه قبل غزوهم للعراق ـ وينتهي إلى استنتاجات لا يسع الخميني إلّا أن يوافق عليها:

«هناك كثير من تقاليد التاريخ الإيراني التي تؤهل الحاكم والمحكوم لممارسة السلوك السلطوي وتوقّعه. وليس هناك من تقليد منتظم تنتقل السلطة بموجبه من حاكم إلى آخر، كما أنه ليس هناك من خبرة حقيقية بالأشكال الديمقراطية... وهناك في إيران... تقليد قائم لحاكم قوي على رأس حكومة سلطوية، وعن إجلال أية سلطة تعبِّر عن إرادتها بالقوة. وخبرة الشاه الحالي مثلاً، توحي سطحياً بأن تأمين الاستقرار السياسي في إيران يتم عن طريق حكومة سلطوية، وأن فترات عدم الاستقرار السياسي الكبرى تحصل عندما يشارك الحاكم غيره في السلطة... كما حصل في أزمة مصدّق أعوام ١٩٥١ ـ ١٩٥٣، أو لدى محاولة السماح بالحريات، مثلما حدث في أواسط السبعينيّات بشأن البرنامج الليبرالي.. وإن عدم قدرة المجتمع الإيراني على التكيف مع هذه التغييرات الاجتماعية ناشىء إلى حدٍّ كبير عن التأثير المنتشر الطويل المدى للدين ولرجال الدين... إن الإسلام الشيعي ليس ديناً فحسب، بل إنه نظام شامل ديني، اقتصادي، قانوني، اجتماعي، وفكري، يسيطر على كل مناحي الحياة؛ ويُعتقد أن قادة هذا المذهب يكملون رسالة الوحي الإلهي على الأرض؛ خلافاً للمذهب السني المقابل له في الإسلام».

إن هذا المقال أفضى إلى استنتاجات غير دقيقة إلى حدٍّ كبير، إذ جاء فيه: «ونحن لا نتوقع قيام ظروف تأتي بحكومة قادة دينيين إلى السلطة»؛ بينما هناك وثائق أخرى معاصرة أكثر دهاء. فقد كتب «جون واشبورن» في ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٧٨: «إن كبت الشاه للدين في إيران جعل الجماعات الشيعية المهيمنة محافظة «ومتشبّثة» بعقيدتها في مقام دفاعها عن نفسها؛ مثلما حدث للروم الكاثوليك في البلدان الشيوعية». ومنذ أمد طويل يمتد إلى عام ١٩٧٢، تسلّم السفير «ريتشارد هيلمز» الرئيس السابق لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، مذكرة طويلة سرِّية حول الخُلُق (Character) الإيراني، مفادها أن الإذلال الوطني المتكرر الذي ألمّ بإيران، خلّف في الشخصية الإيرانية خصائص سلبية واضحة. ولكن تحت الاحتلال الأجنبي (العربي، والمونغولي، والتركي) أو في ظل التلاعب الدولي بهم (من قبل البريطانيين، والروس)، حافظ الإيرانيون على حسّهم الوطني والقومي عبر ثقافتهم... وعلى احترام الذات لديهم، في حياتهم الخاصة المنعزلة والمكتومة... بحيث يرون بحق أن العالم في الخارج هو عالم مُعادٍ لهم».

ولكن، كانت جهود الدبلوماسيين الأميركيين العادية أقرب إلى الحقيقة. ففي ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٨، وردت إشارة من القنصليات الأميركية في إيران حول الرأي العام خارج طهران تتساءل: «لماذا تحتاج إيران إلى طائرات (F-14)، بينما يبقى القرويون الساكنون على بعد خمسة كيلومترات من قاعدة «تادايون» الجوية في شيراز، دون كهرباء أو مياه جارية؟»(*).

(*) يبدو أنه ليست هناك نهاية للكشف عن مثل هذه الأسرار. فبين الوثائق الأخيرة التي أطلقتها الحكومة، كانت هناك أوراق سرِّية لا يمكن تفسير وجودها في الصحراء الشرقية الإيرانية بتاريخ ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٠، عندما خاب الأميركيون في محاولتهم إنقاذ رهائن السفارة بعدما اصطدمت طائرة (C-130) بمروحية أميركية؛ ونجم عن ذلك مقتل ٨ جنود أميركيين. والوثائق التي نشرها الإيرانيون في كتاب ـ شامل كامل مع الصور المخيفة لأجسام بعض القتلى المحروقة ـ تضمَّنت عشرات الصور المأخوذة على علو شاهق وبالأقمار الفضائية لطهران، ومدارج الهبوط الاضطراري في إيران، والخرائط، والإحداثيات، والكلمات الرمزية السرِّية، التي كان من المفروض أن يستعملها المنقذون في نقلهم وانتقالهم إلى حاملة الطائرات الأميركية «نيميتز».

ومما لم تتنبأ به أيّ من وثائق السفارة الأميركية وحشية الثورة الإيرانية، والقسوة غير العادية التي أبداها القضاة والمشترعون المزعومون، الذين كانوا جاهزين للتعذيب والقتل، بناء على النزوة لا على التفكير. وكانت ذروة ذلك في نهاية حرب الأعوام الثمانية بين إيران والعراق، عندما جرى الشنق الجماعي لآلاف من الأسرى المعارضين. كما ظهرت تلك الخصائص القاسية بوضوح تام، بعد أيام من قلب الشاه. ولم يكن هناك أكثر تشدداً ودماً بارداً في إيقاع القصاص من القاضي الرئيس للمحاكم الإسلامية «حجة الإسلام صادق خلخالي»، الذي لُقِّب «بالقط»، والذي أبلغني في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٧٩، عزمه على شنق الشاه. وعندما قال ذلك، وبالرغم من صيته الوحشي ظننتُ أنه يمزح، أو يرمي الكلام على عواهنه. ولكن بالطبع، لم يكن الأمر كذلك.

كان حراس الثورة الجالسون حول خلخالي، عندما زرته لأول مرة، من الجرحى الذين أصيبوا أثناء محاربتهم للمتمردين الأكراد في شمالي ـ غربي إيران. كان الطقس حاراً في تلك الغرفة الصغيرة بمدينة «قم»؛ التفت نحوي قائلاً: «أنت من «التايمز» في لندن؟ أنظر إلى هؤلاء الرجال». ثم توقف قليلاً، وبدأ يقهقه بصوت عال: «المتمردون هم الذين فعلوا هذا. «سأزيلهم عن بكرة أبيهم». وفي الواقع، لم يظهر خلخالي أنه صاحب هذا الدور. فقد كان رجلاً صغير الحجم، ذا ابتسامة لطيفة ـ مع العلم أن القضاة المسلمين في ذلك الزمن كانوا يبتسمون كثيراً ـ يُبديها ساعة يطرح دعاباته غير الملائمة. سأله أحد المراسلين منذ أسبوعين، ما هو شعوره لدى تضاؤل عدد الإعدامات في إيران، فأجابه بضحكة خافتة «أشعر بالجوع». ولكن من الخطأ الظن بأن هذا القاضي المخيف، المسمّى «غضب الله» من قبل المعجبين به، ليس جدِّياً في رسالته. قال: «إذا أدرك قاضٍ مسلم أن أحداً ما مذنب بتهمة الفساد في الأرض، أو محاربة الله تعالى، فإن القاضي سيدينه، حتى لو ادَّعى أنه بريء. فأهم شيء في الشريعة الإسلامية هو حكمة القاضي... حتى لو أنكر الرجل التهم الموجهة إليه، فلا يعني ذلك شيئاً يذكر، إذا قرر القاضي غير ذلك». وبالطبع،

ليس لدى خلخالي وقت يضيعه على أسئلة المراسلين بشأن كثرة عدد الذين أعدموا بعد الثورة، إذ يقول: «إن الناس الذين أُعدموا كانوا خدّاماً رئيسيين للنظام السابق المكروه. لقد استغلّوا الأمّة، وكانوا مسؤولين عن القتل. والتعذيب، والسجن غير القانوني. إني مندهش من طرح مثل هذه الأسئلة». كما أنه ضاق صدره عندما سُئل عن عزمه على تنظيم قتل الشاه السابق وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، حسبما كُررت الدعاية عن ذلك. قال بمنطق واقعي: «نحن نعلم أن أميركا لن تعيد الشاه؛ ولذلك علينا قتله، وليس هناك من خيار آخر. ولو استقدمناه إلى هنا وحاكمناه، فسنقتله بعد المحاكمة. ولكن، بما أننا لا نستطيع أن نحاكمه ـ ولمّا كنّا متأكدين أنه يجب أن يعدم ـ فسنقتله في كل حال. ألم يحاكم أحد «موسوليني»، والرجال الفرنسيين الذين تعاونوا مع جنود «هتلر» في الحرب العالمية الثانية؟».

بينما كان يتكلم، كان حراس الثورة يمسّدون أطرافهم الجريحة ـ أو ما تبقى منها ـ ويمرّنون أيديهم الاصطناعية. وتخلّلت طقطقة أصابعهم الحديث، بينما كان خلخالي يطوف في الغرفة حافياً دون حذاء أو جوارب، أو يدلك قدميه بيديه. سألته بماذا يشعر شخصياً عندما يحكم على رجل بالموت؟ قال: «أشعر بأني أقوم بواجبي وبما يتطلبه مني الشعب الإيراني. ولهذا لم ينتقدني أحد من شعبي بسبب هذه الإعدامات». ولكن، ألم يرفض طلب «هويدا»، و«نصيري» رئيس «السافاك» السابق، باستئناف الحكم عليهما بالموت؟!

وعقّب على ذلك قائلاً: «لقد استأذنا وطلبا العفو من الإمام ومن المحكمة. وجاءني كثير من الناس يطلبون العفو عن هؤلاء الناس. ولكني كنت مسؤولاً أمام الأمّة الإيرانية وأمام الله. فلم أستطع أن أعفو عن «هويدا» وعن «نصيري». لقد حطما حياة ٦٠ ٠٠٠ شخص». كما ادعى خلخالي أنه أوفد فرقة فدائيين إلى «باناما» حيث يقيم الشاه مع عائلته، كي تقضي عليهم كلهم؛ وأنه لا يعرف إذا كانوا قد غادروا إيران حتى الآن. ثم قهقه، وغمغم بالأسبانية: «لديهم كلهم مسدسات». وبعد اغتيال ابن أخي الشاه في باريس منذ أسبوعين،

صارت «الأنتربول» والضحايا المرتقبون يعيرون اهتماماً كبيراً لتهديدات القاضي. وقد تفضل خلخالي بإيراد الأهداف التي يسعى فريق الإعدام في أثرها، بقوله: «نحن نفتش عن «شريف إمامي» (رئيس وزراء سابق)، واللواء «پاليزبان»، و«هو شانغ أنصاري»، (وزير مالية سابق)، و«أزدشير زاهدي» (سفير سابق في واشنطن)، و«غلام علي غوفيزي»، (مدير الحكم العرفي السابق)، و«غراباجي»، (رئيس الأركان السابق في جيش الشاه)، و«فرح» (الإمبراطورة السابقة)، و«حجاب يزداني»، (صاحب مصرف سابقاً)، و«فاليان» (وزير زراعة سابق)، و«جمشيد أموزيكار»، (رئيس وزراء سابق)، و«شاهبور بختيار»، (آخر رئيس وزراء في عهد الشاه، والذي يعيش الآن في باريس). وكذلك نريد الشاه وشقيقه، وأخته التوأم «أشرف»، وأينما وجدنا هؤلاء، سنقتلهم».

لم يكن خلخالي محرجاً في الإعلان عن لائحته الخاصة بالإعدام. وكان بمنتهى الجدّية. وبعد مرور عقد من الزمن، التقيت رئيس تلك الفرقة الذي أُرسل إلى باريس ليقتل «شاهبور بختيار». سألت: «هل خلخالي غضب الله؟». فأُجبت بما يلي: «لقد نشأت في الفقر، ولذلك أفهم الناس الفقراء. وأعرف كل شيء عن النظام السابق. قرأت كتباً في السياسة. وأمرني الإمام بأن أكون القاضي الإسلامي، وقمت بالعمل خير قيام. ولذلك لم يفلت من قبضتي أي عميل من عملاء الشاه في إيران(*).

ومرّت سبعة أشهر قبل أن أعود فأرى خلخالي. لم تُلَطِّخ سمعته الرهيبة بمسألة عدد الإعدامات. وفي تموز/يوليو ١٩٨٠، صبّ جام غضبه على نواحٍ جديدة وأكثر فائدة. وقف الآن أمامي هذا النجم القضائي في ساحة سجن القصر المشمسة، يلوِّح بملعقة صغيرة وردية من البلاستيك، ويتمطَّق بشفتيه، ويدسّ في فمه قرناً من بوظة الفانيلا. إنه الرجل الذي أمر بتنفيذ أول إعدام علني في طهران منذ ١٥ سنة. وهو يبدو بأحسن حال ذهنية.

(*) يقدر عدد الذين أرسلهم خلخالي إلى الشنق أو إلى فريق الإعدام بحوالى ثمانية آلاف رجل وامرأة، قبل أن يموت بمرض القلب والسرطان عام ٢٠٠٣م.

وقبل خمسة أيام، كُرِّست سابقة شنيعة، عندما رُجم أربعة أشخاص حتى الموت، منهم امرأتان في منتصف العمر، في مدينة «كرمان» الإيرانية الجنوبية. وقد أدينوا كلهم بآثام جنسية من قبل إحدى محاكم خلخالي. وخلال ساعات أُلبسوا ثياباً بيضاء، ودُفنت منهم أجسامهم حتى صدورهم في الأرض، ثم رُشِقوا بحجارة بحجم قبضة اليد. وأعلنت المحكمة في تعليق نموذجي لها، مما لا لزوم له، أنهم ماتوا بسبب إصابات في الدماغ. وقد أُدينت المرأتان «بالبغاء، والتغرير بالبنات الشابات»؛ وأُدين أحد الرجلين باللواط والزنا، والآخر باغتصاب فتاة عمرها عشر سنوات. وقبل تنفيذ الإعدام، غُسلوا وكُفِّنوا، وأُلبسوا غطاء على رؤوسهم ووجوههم، مع العلم أن رجال الدين المحليين قد زاروا المُدانين واختاروا حجارة الرجم بقياس قطر يراوح من إنش إلى ستة إنشات. واستغرقت عملية الرجم ١٥ دقيقة حتى ماتوا(*).

وصرّح صادق خلخالي قائلاً: «لا أدري إذا كنتُ أوافق على الرجم»، وهو يبتسم ابتسامة عريضة وينظر باتجاه الصحفيين ومجموعة من الدبلوماسيين المذهولين الذين دُعوا أيضاً إلى سجن القصر. وأضاف: «لكن القرآن الكريم ينصّ على ذلك». ثم غرز ملعقته في البوظة التي باتت تذوب وهو يتناولها، غير عابىء بالمساجين المكشوفي الرؤوس الذين يمرُّون به متثاقلين، وهم يرفعون بجهد حاويات فيها مراجل من حساء الخُضَر. واستأنف كلامه بقوله: «ونحن نلتزم بكل ما جاء في القرآن الكريم. ما الفرق بين قتل الناس بالحجارة وقتلهم بالرصاص؟ لكن الرجم يعلّم الناس دروساً». إنما تبرَّأ خلخالي من مسؤولية الرجم في «كرمان»؛ ـ وأخبرنا مساعده للعلاقات العامة الملتحي أن المسؤول

(*) يُعتقد أن هذه كانت أول مرة في التاريخ الحديث، يُرجم فيها مسلمون حتى الموت في الشرق الأوسط بعد محاكمة. مع الإشارة إلى أن الرجم بالحجارة كان قصاصاً قروياً معروفاً في إيران وفي بعض البلدان الإسلامية لمئات السنين. وفي القرن التاسع عشر الميلادي، قُتل أعضاء من طائفة البهائيين بالحجارة في شيراز وطهران. ولكنهم قُتلوا على أيدي الغوغاء، وليس بعد محاكمة قضائية. وكانت المومسات يرجمن بالحجارة حتى الموت قبل ظهور الإسلام بزمن طويل. وتصف التوراة كيف حاول يسوع المسيح أن يوقف تلك العادة.

عن ذلك القرار الثقيل هو «فهين كرماني» ـ ولكنه أقر بأنه أمر ببعض الإعدامات ذلك الصباح؛ إذ أُوقف سبعة رجال في صف واحد في ناحية من شارع «جمشيد» عند الساعة الخامسة صباحاً، وأُعدموا بإطلاق النار عليهم من قِبل فريق الإعدام؛ بينما كان حشد من الناس يحدِّقون ببلاهة عن بعد. وكان كثير من أولئك الناس الذين أعدموا مُدانين بجرائم مخدرات، وكان حجة الإسلام خلخالي قد استقبلنا في سجن القصر بصفته رئيس فرقة مكافحة المخدرات في إيران، ليرينا غنيمته من عملية التهريب الأخيرة.

والواقع أن مشهد المصادرات خلَّف في نفوسنا تأثيراً قوياً. فقد جمع خلخالي في المسجد المحاذي للسجن ـ وهو مبنى مزيّن بأعمال الجصّ، وقرميد أحمر وأزرق ـ أطناناً من الأفيون، وأكياساً من كيلوغرامات الهيروويين، ولوحات كبرى لزجة من الحشيش، وثلّاجات مسروقة، وطاولات للنرد مزينة بالحفْر، وجداراً علوّه متران ونصف من السجاير ـ وهنا خطر على بالي «هارفي موريس» في عربدته بوكالة «رويتر» ـ وآلافاً من النارجيلات، والسجادات، والسكاكين، والبنادق الرشَّاشة، وصفوفاً من زجاجات الشمبانيا (من نوع كروغ ١٩٧٢). وكان المسجد الجميل عابقاً برائحة الحشيش، بينما يكمل خلخالي طواف انتصاره أمام غنائمه، شاقاً طريقه عبر عشرين طناً من الأفيون، ومئة كيلو من الهيروويين على الأقل، وكل منها معبَّأ في كيس أبيض نظيف. ولا بد طبعاً من أن يُسأل عما إذا كانت المحاكم الثورية جادَّة في تعاملها مع تجار المخدرات، ولا بد من أن يبدي حجة الإسلام ابتسامة عريضة ـ موجهة إلى الدبلوماسيين ـ قبل أن يجيب قائلاً: «لو فعلنا ما يريدنا الآخرون أن نفعل لكنّا قد قتلنا كثيراً من الناس ـ الأمر الذي أراه مستحيلاً؛ إذ يمكن أن يفضي إلى أزمة. فلو كنا سنقتل كل من يملك ٥ غرامات من الهيروويين، لكان علينا قتل خمسة آلاف شخص؛ وهذا أمر متعذر». ومن أجل الإنصاف، تجدر الإشارة إلى أن آية الله بدأ بخطوة عادلة؛ إذ أرسلت محكمة ١٧٦ رجلاً وامرأة إلى فرق الإعدام لإدانتهم بجرائم المخدرات؛ وكثير منهم حكم عليهم خلخالي ذاته بالإعدام الذي ينفّذ في مبنى الإسمنت الذي لا يبعد سوى ٣٠٠ متر عن المسجد.

حاول خلخالي جاهداً أن لا يبدو مثل «الغول»؛ وأنكر تكراراً أنه على تلك الشاكلة. فجسمه الصغير الريَّان، ولحيته البيضاء، وعيناه اللامعتان، كل ذلك كان يعطيه مظهراً أبوياً، كوالد يجلس في بيته قرب المدفأة، لابساً خُفّاً خفيفاً يتنقّل به على السجّادة، بينما قطّ العائلة يخرخر قربه ـ ما دام ذلك القط لا يزال على قيد الحياة. كان يمزح معنا تكراراً، وهو يقوم بجولته في المسجد، غارزاً إصبعه في كيس الأفيون. وكل دقيقة تقريباً، كان يقبل شاب يرتدي قميصاً أخضر باهتاً ويدسّ مسدساً في بنطاله، فيتسلق بجهد كومة من أكياس الهيرويين ويصيح بملء رئتيه «الله أكبر»، كلازمة يتناقلونها، فتتردَّد أصداؤها عبر المسجد.

قال خلخالي، وهو يعود إلى الظهور تحت أشعة الشمس: «إذا نظرتم إليّ لا ترون على وجهي المعاناة التي تجري في داخلي. لكنني شخص ثوري. إني ألاحق العملاء أينما كانوا ـ في فرنسا، وإنكلترا، وأميركا. هذا هو الواقع. إني ألاحقهم في كل مكان». كما ادَّعى نجاحاً منقطع النظير في محو تجارة المخدرات من إيران، ونصراً يبلغ ٨٠٪ في الوقاية من تلك التجارة عالمياً ـ ولهذا السبب تمَّت دعوة الدبلوماسيين إلى سجن القصر ليسمعوا تصريحات القاضي. وقال أيضاً: «هناك مافيا دولية للمخدرات تعمل في حلقة تشمل: باكستان، وبورما، وتايلند»؛ واتهم عضواً من عائلة الشاه السابق باستخدام طائرة خاصة لنقل المخدرات من أفغانستان إلى مدرج صغير خارج طهران. وأبلغنا بأن الأفيون المصادر سيستعمل من قبل الدولة لأغراض طبية. أمّا الحشيش والهيرويين فسيتمّ حرقهما.

وبينما كان حجة الإسلام ينتقل بسرعة من الساحة نحو سياج من الشريط، حدث شيء غريب جداً. فقد ركضت نحوه عشرات من النساء المحجبات بالأسود ـ وهن نساء وأخوات الرجال الذين سيحاكمهم خلخالي عما قريب ـ صائحات: «يحيا خلخالي». تظاهر حجة الإسلام أولاً بعدم الاكتراث لهن، بينما كان الجنود يصدّونهن، ثم شقّ طريقاً لنفسه عبر السياج. وكان ينوي عقد مؤتمر صحفي رسمي قبل دخوله إلى مقر محكمته الصغير، ولكن تقدم منا أحد

رجال الشرطة، وأخبرنا أن القاضي «غريب». وأوجسنا إذ ذاك خيفة من أن تطال نقمة خلخالي صحفياً أو اثنين، فعمدنا إلى إنهاء هذا الحدث العلني، بهربنا(*).

إن خلخالي يمثل للغربيين خطراً خاصاً. فإذا أُقرّت محاكمة رهائن السفارة بحسب الشريعة الإسلامية، فهلّا تطلق يد خلخالي فيهم؟ إن وعود الخميني بحماية الرهائن قد تُعدَّل الآن بعدما تمَّت إعادة تركيب الوثائق التي اكتشفت في السفارة وكشفت عن أن اتهام الإيرانيين للسفارة بكونها «وكراً للجاسوسية» في طهران، له إثباتات تبرّره. وهكذا، عندما نقل الشاه مكان إقامته من الولايات المتحدة الأميركية إلى «باناما» ـ تلك الرحلة التي أنذر ثلاثة دبلوماسيين إيرانيين بشأنها، بناء على طلب واشنطن ـ انبرى «طلاب الإمام» إلى نشر تصريح يكرِّر العزم على محاكمة الأميركيين(**). وفي آخر الأمر، طبعاً، لم تحصل تلك المحاكمة.

ولا مفرّ من نفاد صبر الإيرانيين بشأن وجود المراسلين الأجانب في طهران. فبعد يوم من صدور تصريح «المحاكمة»، مشى «أبو الحسن صادق» في وزارة الإرشاد الإسلامي، وعلى وجهه علامات الغضب أو الضيق التي يبديها مدير المدرسة من صف لا يراعي النظام باستمرار. ومن حسن الحظ بالنسبة إلى «هارفي موريس» ـ وهالة دخان السجاير التي تحيط به ـ أن يتأخر صدور تحريم

(*) كنتُ أسجِّل جولة خلخالي في السجن للراديو الكندي. ولا يزال لديّ ذلك التسجيل الذي يمكن أن يسمع فيه صوت شفتي خلخالي تتمطّقان البوظة (الجيلاتي)؛ بينما كان يناقش مسألة الرجم الدقيقة.

(**) وقد نشرت «وكالة پارس نيوز» بالإنكليزية وبتاريخ ١٦ كانون الأول/ ديسمبر مقتطفاً من التصريح المنذر بكامل نكهته في ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، وباسم أمة إيران الإسلامية ـ إن الولايات المتحدة الأميركية، ذلك الشيطان الأكبر، ومصدر الفساد في الغرب، بعدما خذلتها أمتنا العظيمة، تحاول أن تجد ملجأ لخادمها الفاسد الشاه الهارب، وتمنع العدالة من أن تأخذ مجراها... ومن أجل أن تخرج من مأزقها السياسي وتخدع أمتها، تبذل جهداً ضائعاً بإرسال المجرم محمد رضا إلى صنيعتها «باناما». ونحن نعلن هنا أننا سنحاكم الرهائن الجواسيس، لإظهار مؤامرات الخيانة التي اقترفتها الولايات المتحدة المجرمة، وللاقتصاص منها».

التدخين في أبنية الحكومة عقداً من الزمان. لكنه كان يدري ماذا ستأتي به الأيام. قال لي مهمهماً: «يا فيسكي، سنرى من سيطرد اليوم». وكانت في الوزارة قاعة استماع كبرى تحت الأرض، ظهرت كأنها قاعة محاضرات في مدرسة. وهناك انتظرنا لنتلقى الأخبار السيئة. جلس صادق مدير المدرسة إلى طاولته على منصّة صغيرة ونظر إلينا من علٍ بقساوة. فأحسسنا بأن في الجو طرداً لواحد أو اثنين منّا.

بادرنا بقوله: «أيها السادة» ـ وهارفي يحب شكيمة «السادة» ـ «أود أن نتشارك في الكرب الذي نعانيه بشأن وسائل التواصل الأجنبية. ويؤسفنا كثيراً أن نطرد كامل فريق مجلة «التايم» من إيران». ولم يكن مهماً أن يكون كامل ذلك الفريق مؤلفاً من شخصين فحسب، ولا كيف رأى صادق الأمور، إذ استأنف قائلاً: «لدينا في إيران ثلاثمئة صحافي أجنبي وافدون من أكثر من ثلاثين بلداً؛ ولكن «التايم» تجاوزت حدودها». وأومأ إلى قبضة من الصفحات الأولى من المجلة المسيئة، وعلى إحداها صورة غير مداهنة للخميني.

ثم قال، وهو يلوِّح بالعدد الأخير من مجلة «التايم»: «منذ أن نشأت مشكلة الرهائن، لم تقم هذه المجلة سوى بإثارة كره الشعب الأميركي؛ إذ كانت صفحاتها الأولى كمطرقة تهوي على الرؤوس. لقد خلَّقت هذه المجلة رد فعل غير عقلاني لدى الشعب الأميركي». ولم تكن مجلة «التايم» هيئة الأخبار الوحيدة التي أثارت الغضب الإيراني. فقبل ثمانية أيام، طرد «ألكس أفتيغولوس» مراسل الصحافة المتحدة ـ وهو شخص قبرصي ملتحٍ، له أرومة روسية جزئية تجعله يبدو مثل «راسبوتين» ـ بعد اتهامه بأنه شوَّه أخبار الشغب الذي حصل في تبريز، عاصمة محافظة أذربيجان؛ حتى أن البريطانيين تشاجروا مع الإيرانيين وتلقوا غضبهم. ففي أوائل كانون الأول/ ديسمبر، كان «عناية إتحاد»، وهو مسؤول من التلفزيون الإيراني يشاهد أخبار هيئة الإذاعة البريطانية في أحد فنادق لندن؛ فغضب لعرض تقرير عن الرهائن أعدَّه «كيث غرايفز» ووصف فيه بالتفصيل المحرج كيف تربط أيديهم بالحبال، ويمنعون من التكلم، بعضهم مع بعض، ومن تلقِّي أخبار من العالم الخارجي. ولم أفاجأ بذلك.

فمنذ عقدين ونصف من الزمن، و«غرايفز» يغيظ طالبان، والجيش الإسرائيلي، والحكومة الأميركية، والجيش الثوري الإيرلندي، والجيش البريطاني، و«الناتو» (حلف شمالي الأطلسي)، والمصريين، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وحزب الله، والسوريين، والأتراك، وحتى القبارصة: ـ ولا سيما إنجازه الأخير هذا الذي كان مدهشاً حتى بالنسبة إلى شخص قدير مثله ـ ويخرج من هذه الورطات كلها بخير. ولكن كان على هيئة الإذاعة البريطانية أن تدفع ثمن ذلك. فقد أعطى «إتحاد» تعليماته للتلفزيون الإيراني بأن يحرم كل فريق يأتي من قبل هيئة الإذاعة البريطانية من استخدام تسهيلات الأقمار الصناعية. فاضطرت هذه الهيئة إلى إرسال كل أفلامها غير المعالجة بالطائرة إلى لندن، حيث تصل متأخرة يوماً واحداً. ولكن، كان من الواضح أن «إتحاد» انزعج أكثر من ذلك بسبب برامج اللغة الفارسية التي تذاع من هيئة الإذاعة البريطانية، إذ كان صادق يلوِّح مهدداً بكومة من الأوراق فوق رأسه قائلاً: «إنها شكاوى من كل أنحاء إيران، بشأن قسم اللغة الفارسية في هيئة الإذاعة البريطانية».

كان صادق مطمئناً إلى وابل نقده. فقد نوَّه بصوت عال بأن أحد مراسليْ «التايم»، اشتغل سابقاً لصالح وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وقال: «ولكني مع ذلك أدخلته إلى إيران». وكان يشير إلى «بروس فان ڤورست»، الذي عمل مع تلك الوكالة بصفة ضابط بحوث في أواخر الخمسينيّات، والذي صرّح الآن بأنه قطع كل علاقة له مع تلك الوكالة ـ والذي بات نشاطه في إيران الآن هاجساً إيرانياً وطنياً؛ نظراً لاكتشاف وثائق السفارة الأميركية. وصادفت شبكة (CBC) الأميركية مشكلة، لأنها وصفت الطلاب في السفارة بزمرة «بادر ـماينهوف» الألمانية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى شبكة (ABC) لأنها أذاعت تقريراً لوزارة الخارجية الأميركية «جعل أيّ إيراني يبدو كالأحمق». ولكن، كانت ردود الفعل هذه التي صدرت عن الحكومة الإيرانية أقرب إلى الصغائر من الأمور، وإلى ردود فعل انفعالية ناتجة عن الغضب الوطني القومي، لا عن تفكير مستقبلي. وقد ظهر ذلك في بعض الحجج التي وردت لا شعورياً في كلام صادق، واستقاها من التاريخ الأميركي بتوازٍ غير موفق، إذ قال: «في

عام ١٨٣٤، كان الكولونيل «ترافيس» يدافع عن «آلامو» ضد الجيش المكسيكي؛ وعندما طلب منه الاستسلام، أجاب بإطلاق المدافع. لقد ناصر مبادئه. وهذا هو ما تفعله إيران اليوم». عندئذٍ، تنهَّد «هارفي»؛ وتعجب قائلاً: «ظننت أن «ترافيس» خسر معركة «آلامو» الدموية».

لقد كانت الثورة الإيرانية بمثابة عاصفة؛ وقد علقنا كلنا في دوَّامتها. لقد أجرينا مقابلة مع الخميني، وشاهدنا المظاهرات الملحمية، ورأينا أميركا في حالة عجز. ودخلت السفن الحربية الأميركية الخليج. وطلب الخميني تشكيل جيش لجب يتألف من عشرات الآلاف من طلاب المدارس المتطوعين، ليدافع عن إيران. وقد سافرتُ على متن «باص» عائداً من كردستان إيران، حيث كان الركاب يشاهدون أثناء الرحلة برنامج تدريب على الأسلحة، على شاشة تلفزيون نُصب لهذه الغاية في الباص: «كيفية تفكيك بندقية رشاشة وإعادة تركيبها، وكيفية سحب فتيل قنبلة يدوية، وكيفية الرماية بمدفع رشاش». كنت أتمايل في القسم الخلفي من الباص المنطلق، بينما كان الركاب صامتين منتبهين، واليوم، كما أظن، علينا تسمية الأجزاء.

ولكني كنتُ أفتش عن طريقة أخرى لوصف الوضع في إيران، بعيداً عن الأحداث التي صُمِّمت من أجلنا؛ ولاسيما من أجل مراسلي التلفزيون الأميركي. كنتُ في مكتب زميلنا «هارفي»، أحدِّق في خريطة لإيران ملطَّخة على الجدار، عندما خطرت لي فكرة. «ما رأيك في أن أغمض عينيّ، وأغرز دبُّوساً في الخريطة، ثم أسافر إلى تلك النقطة التي غرزت فيها الدبوس، وأسأل الناس عن رأيهم في الثورة»؟ فأجابني «هارفي» إلى طلبي. وقال: «هاك الدبوس، وأظن أنك ستغرزه في أفغانستان الدامية». شككتُ الدبوس في الخريطة وفتحت عينيّ، فإذا بالدبوس قد استقرّ على حرف (هـ) من اسم قرية تسمى «كاهاك»، تقع جنوبي ـ غربي مدينة قزوين. فسافرت إليها فجر اليوم التالي.

كانت «كاهاك» مكاناً لا يزوره أحد. ولا يطالع الغريب الداخل إليها سوى صف مستطيل من البيوت الطينية ذات الطابق الواحد، تبدأ عند آخر طريق

ترابية، ليس عليها سوى مجموعة من الأطفال وكومة كبيرة من روث الحيوانات يرعى عليها دجاج سمين. وإذا نظر المرء إلى الشمال عبر الغبار وسديم الحرّ، يرى جبال «ألبورز» تمتد على طول الأفق، بحيث تشكِّل الضفّة السفلى لحوض بحر «قزوين». إن الأجانب لا يرون «كاهاك» أبداً، إلَّا أن المسافرين على القطار الليلي إلى الحدود السوفياتية يمرون على أطراف بساتين القرية؛ وحتى لو مرّوا فمن الأرجح أنهم لن يلاحظوا شيئاً. إن «كاهاك» قرية صغيرة جداً، بحيث أن سكانها البالغ عددهم ٩٥٠ شخصاً لا يستطيعون أن يبنوا مسجداً لهم في القرية.

كان هناك رجل تبدو عليه علامات الشيخوخة المبكِّرة، في الرابعة والستين من عمره، يتقطّر على وجهه من تحت عمامته بعض العَرَق، ويلبس قميصاً تلوثت مقدمته بالتراب. لقد جاء من «قم» ليكون إماماً في البلدة، يرعى المؤمنين. لكنه كان رجلاً نشيطاً بشكل غير عادي، وهو يمشي برشاقة حول أكوام روث الحيوانات، وبريكات ماء الأمطار الآسنة، ويتكلم عن القرية، واثقاً من نفسه، وبلهجة شبه خطابية وعظية، ونبرة تعلو وتنخفض بحسب مجرى الكلام الذي كان رسمياً أكثر منه محادثة. سألته عمّا فعلت الثورة لهؤلاء الناس؛ فأشار الشيخ «إبراهيم زوده» إلى الأرض القاحلة التي تحيط بأكواخ الطين، التي تشبه صحراء من الأرض السمراء العصيَّة.

وقال: «إن القرويين يملكون كل شيء على جانبيّ الطريق؛ ولكنهم لا يعرفون بالضبط ماذا يملكون». وكان حرّ النهار يومض ويتراقص على أخاديد الريّ الجافَّة. لم تكن لدى هؤلاء السكان سندات ملكية أو ميثاق قانوني، بعدما غادر الملَّاكون الكبار. وكان في مغادرتهم شيء أزعج الشيخ «زوده»؛ كما شرح ذلك بقوله: «في النظام السابق، كان هناك ملَّاكان كبيران: «حبيب سرداي» و«إبراهيم صلحي». وكان القرويون يعيشون في ظروف سيئة. وكان بعضهم أشد فقراً بحيث تراكمت عليهم الديون؛ ولا سيما عندما جاء «سرداي وصلحي» وأخذا منهم محصول الحبوب. إني أذكر أنهم كانوا يذهبون إلى القرى الأخرى ليشتروا محاصيلهم من الحبوب بأسعار باهظة. ولذلك استدانوا المال، ودفعوا

فائدة على تلك القروض». وخلال حديث الشيخ، تجمّع حولي عشرات الفلاحين. كانوا فقراء، وأكثرهم من أصل تركي، تبرز عظام خدودهم وتلمع. كانوا يلبسون سترات غبراء ممزّقة وسراويل خدَّشتها قطع الحجارة وأشواك الحقل، مع صنادل بلاستيكية رخيصة بأرجلهم. وكان بينهم فتاة واحدة، تبلغ من العمر ١٣ سنة، شعرها أسود، وملفوفة بشادور أغبر وردي.

واستأنف الشيخ «زوده» كلامه قائلاً: «ثم تحسّنت حالنا؟ فغادر سرداي وصلحي بعد تنفيذ الإصلاح الزراعي». ولم يظهر أيّ تغيير على سحنة الشيخ الإمام. لقد سألناه عن الثورة الإسلامية في تلك السنة، لكنه تكلم عن ثورة الشاه البيضاء التي حدثت منذ ١٧ سنة، عندما جاءت القوانين الملكية وحدَّت من نفوذ الملَّاكين الكبار؛ وجرت إعادة توزيع الأملاك، واستبقى كل ملَّاك قرية واحدة. وهكذا دخل المزارعون الفقراء ميدان الاقتصاد، لكن لم تتغير حال الفلاحين وعمال الفلاحة. وهكذا، لم تستفد «كاهاك» تماماً من إصلاحات الشاه. قال الشيخ «زوده»: «كانت هناك أشياء مفيدة لنا في الإصلاحات. فقد زاد عدد الغنم الذي يملكه القرويون من ألفين إلى ثلاثة آلاف. ولكن القرية ذاتها التي كان يملكها اثنان، صارت تحت سلطة وكيل الحكومة. وهو رجل يسمى «دارود جيلاني»، وهو رأسمالي من مدينة «قزوين». كان رجلاً رديئاً، يأخذ من القرويين نصف محصولهم كأجرة».

وكان هناك أيضاً رجل آخر، له ذقن غير محلوقة، وعين يسرى أصابها السدّ (المياه الزرقاء أو البيضاء). كان يمشي باتجاه القرويين الذين هم في المقدمة؛ ولم أكن أتصور أن «عزيز محمودي» هذا هو أكبر مزارع في القرية ورئيسها، نظراً لقميصه القذر وحذائه المقطَّع. نظر إلى الشيخ لحظة، ثم قال بتمهل بطيء: «إن دارود جيلاني في سجن قزوين الآن». مشى محمودي عبر ساحة القرية يتبعه حشد من تلاميذ المدارس، وأشار إلى بيت متقوّض من الطين بطابقين، يعتبر بحبوحة وسط هذه الشدَّة؛ وقال: «كان صلحي يعيش في هذا البيت، مشيراً إلى النوافذ المحطمة؛ والآن ذهب جيلاني أيضاً؛ ولن يعود». ولم يكن هناك من سبب لعودة جيلاني، حتى لو خرج من السجن. وذلك لأن

القرويين شاهدوا على تلفزيون أبيض وأسود بسيط، في أول يوم من أيام الثورة في شباط/فبراير، الجيش الإمبراطوري يستسلم في طهران. وعلى الأثر نزلوا إلى الحقول التي كان يملكها «جيلاني» على جانبي سكة الحديد؛ وزرعوا شعيرهم كرمز للثورة التي وصلت إلى «كاهاك».

وفوق اللوح الأسود في مبنى المدرسة الطيني، وضعت لوحة تمثل آية الله الخميني وهو ينحني فوق قضبان سجن، ووراءه آلاف من السجناء الإيرانيين الذين ينتظرون بفارغ الصبر الإفراج عنهم. وفي الصف السابع، وقف الطلاب واحداً بعد الآخر يسمِّعون تهليلهم للخميني. ومنهم «جلال محمودي» البالغ من العمر ١٢ سنة، الذي تكلم عن فساد نظام الشاه؛ و«علي محمودي» ابن الرابعة عشرة من عمره وعريف الصف، الذي ألقى خطبة طويلة تصف حنان الإمام على الأولاد شملت ما يلي: «إني مسرور من الإمام آية الله، لأني لم أكن أتعلم جيداً في النظام السابق بينما لدينا الآن ثلاثة صفوف إضافية، ونستطيع أن نبقى في المدرسة وقتاً أطول». ويتوقع أن ينال علي من زملائه منديل تقدير يربط حول عنقه، نظراً للحماسة التي أبداها. لكن الأولاد الآخرين لبثوا ساكتين حتى يطلب منهم أن يتكلموا. وأدركت حينئذٍ أنني لو كنتُ قد زرتُ القرية ذاتها في أعقاب انقلاب عام ١٩٥٣ على مصدّق، الذي مثل فيه «مونتي وودهاوس» دوراً حاسماً، لسمعت من آباء هؤلاء الأولاد كلاماً مشابهاً عن فساد مصدّق ولطف الشاه.

واجتمعت أيضاً بالمعلّم «كريم خَلَج». وهو رجل في أواخر الأربعينيّات من عمره، فلم تنبس شفتاه إلّا بالقليل، عندما جلسنا معاً في غرفة المعلّمين. صبّ لي الشاي من إبريق فضي كبير، وحلّاه بالرشف منه تدريجاً وهو يقضم برفق قطع السكّر. ثم خرجنا نمشي عبر الحقول المغبَّرة نحو خط السكة الحديدية. فأخبرني بأنه سُجن لمدة قصيرة أثناء حكم الشاه؛ كما طُرد من عمله لأنه اشتكى من قبض أحد معلمي الحكومة رشوة.

بدأت الريح تتحرك، وصارت أشجار البساتين تتمايل. ولفَّ الأفق حزام من الضباب والدخان. وتخيّلت أن «مونتي وودهاوس» طمر أسلحته في مكان ما

قرب «كاهاك». وسألت «خلج»: «هل ناصر أيّ من القرويين الشاه؟»، فقال مؤكداً: «لم يناصره أحد». و«السافاك» لم تفد أبداً على القرية؛ فقد كانت لصغرها لا تسترعي أيّ انتباه. ثم سألته: «ما هي الصورة التي كانت معلقة فوق اللوح الأسود في الصف السابع قبل عودة آية الله إلى إيران؟»؛ فهزَّ كتفيه وقال: «لا بد من وضع صورة هناك. وبالطبع كانت صورة الشاه».

الفصل الخامس

الطريق إلى الحرب

«كان يطمح إلى ضَربٍ من الكمال، والشعر الذي ألّفه كان سهل الإدراك؛ عرف الحماقة البشرية مثلما يعرف ظاهر كفّه، وكان شديد الاهتمام بالجيوش والأساطيل؛ كان شيوخ المجلس يضحكون عندما يضحك، والأطفال يموتون في الشوارع عندما يبكي».

«و. هـ. أودِن» من «نقش على ضريح طاغية»

في آذار/مارس عام ١٩١٧، قام «تشارلز ديكنز»، الجندي ذو الرقم ٠٧٢ ١١ من فرقة «تشيشاير» بنزع ملصق عن جدار في المدينة التي تم احتلالها مؤخّراً: بغداد. كان ذلك نقطة انعطاف في حياته. فقد بقي حيّاً بعد حملة «غاليپولي»، ومهاجمة الإمبراطورية العثمانية على بعد ٢٥٠ كيلومتراً فقط من عاصمتها القسطنطينية. ثم مشى على طول «بلاد ما بين النهرين»، وهو يحارب الأتراك الذين كانوا لا يزالون يمتلكون الخلافة، ويتحمَّل معركة بغداد الشرسة. وكان قوام الجيش البريطاني الغازي ٦٠٠ ٠٠٠ جندي يقوده الفريق «ستانلي مود»؛ وصفحة الورق التي استرعت انتباه الجندي «ديكنز» كانت بيان «مود» لسكان بغداد، مطبوعاً بالإنكليزية والعربية.

كان ذلك الملصق بالذات ـ المؤطَّر الآن باللونين الأسود والذهبي بقياس ٢٨ × ٤٥,٧سم ـ معلّقاً على الجدار على مسافة قريبة من مكتبي فيما أحرّر هذا الفصل. إنه ملصق تاريخي ملطَّخ بالبقع؛ وربما لا تزال عليه بصمات «ديكنز» منذ ذلك الصيف العراقي القائظ عام ١٩١٧ . وقد قالت لنا ابنته «هيلدا» ، بعد

ش
تركيا
كردستان
دياربكر
زاخو
دهوك
ياسلوفا
إيران
الموصل
إربيل
السليمانية
سوريا
كركوك
حلبجة
الفرات
تكريت
قصر شيرين
سامراء
الحبانية
الرمادي
بغداد
الفلوجة
العراق
الأردن
المسيب
كربلاء
القادسية
النجف
الديوانية
العمارة
الناصرية
البصرة
أم قصر
الفاو
الكويت
العبدلي
الخفجي
المملكة العربية السعودية
٥٠٠ كم

٨٦ سنة، إنّ هذا الملصق سافر معها زمناً طويلاً مطوياً مرّات عديدة؛ وكانت تلقّبه بالوثيقة الثمينة. وأنا أدرك اليوم مغزى ذلك التقدير.

لقد كان ذلك الملصق حافلاً بالطموحات النبيلة والاستشعارات المسبَّقة لما سيأتي به المستقبل من مصاعب، وبالوعود الكاذبة لمستقبل أكبر إمبراطورية في العالم، وبالالتزامات والنوايا الحسنة وعهود الشرف التي ستتكرّر في المدينة ذاتها بغداد من قبل الإمبراطورية الكبرى التالية، بعد أكثر من عقدين من الزمن غداة وفاة «ديكنز». إنها وثيقة تُقرأ كترنيمة جنائزية:

بيان

. . . «إن عملياتنا العسكرية ترمي إلى أن نهزم العدو ونخرجه من هذه الأراضي. ومن أجل إتمام هذه المهمة، أنيطت بي السلطة العليا والمطلقة للسيطرة على كل المناطق التي يعمل فيها الجنود البريطانيون. ولكن عناصر جيوشنا لا يأتون إلى مدنكم وأراضيكم كفاتحين أو كأعداء؛ بل كمحرِّرين. فمنذ أيام «هولاكو»(*) خضع مواطنوكم لاستبداد الأجانب. . . وقد عانيتم وعانى آباؤكم قبلكم من العبودية؛ كما جُرَّ أبناؤكم إلى حروب ليس لهم فيها مطلب، وجرَّدكم الظالمون من أملاككم، وشتَّتوكم في أماكن مختلفة. إن رغبة مليكي وشعبه وحلفائه من الأمم الكبرى هي أن يعود إليكم الازدهار كما في الماضي عندما كانت أراضيكم خصبة. . . وأنتم يا أهل بغداد، لا تظنوا أن الحكومة البريطانية ترغب في أن تفرض

(*) حفيد جنكيز خان الذي دمَّر بغداد عام ١٢٥٨، كجزء من حملة المغول لإخضاع العالم الإسلامي.

عليكم مؤسسات غريبة عنكم؛ بل إنها تأمل أن تتحقق طموحات فلاسفتكم وكتّابكم من جديد، وأن يزدهر شعب بغداد وأن يتمتّع بثروته وممتلكاته، في ظلّ مؤسّسات تتلاءم مع قوانينه المقدّسة، ومُثله العليا العِرقية... إن الحكومة البريطانية تأمل وترغب في أن ينهض العِرق العربي مرة أخرى إلى العظمة والشهرة بين شعوب الأرض... ولذلك، أُمرت بأن أدعوكم إلى المشاركة في إدارة شؤونكم المدنية بواسطة نبلائكم وكباركم وممثليكم، بالتعاون مع الممثل السياسي لبريطانيا العظمى... بحيث تتّحدون مع بني قومكم في الشمال، والشرق، والجنوب، والغرب، من أجل تحقيق طموحات عِرقكم.

الفريق «ف.س. مود»

قائد القوّات البريطانية في العراق

(دون تاريخ)

قضى هذا الجندي مدة الحرب العالمية الأولى، وهو يحارب المسلمين. حارب أولاً الأتراك في «خليج سڤلافي غاليپولي»، ثم الجيش التركي ـ الذي كان يضمّ جنوداً عرباً ـ في بلاد ما بين النهرين. وكان والدي «بيل» في فرقة «تشيشاير»، ولكنه كان يخدم في إيرلندا في السنة التي دخل فيها «تشارلس ديكنز» بغداد، على أن يُرسل إلى الجبهة الغربية عام ١٩١٨. وكانت حرب «ديكنز» أطول. وتقول ابنته «هيلدا» إنه كان يتكلم تكراراً بإعجاب عن أحد رؤسائه من القادة، ألا وهو اللواء السير «تشارلز منرو»، الذي كان إذ ذاك بعمر الخامسة والخمسين، بعدما حارب في الأشهر الأخيرة من حملة «غاليپولي»، ثم استقر في البصرة بجنوب العراق، عند بدء الغزو البريطاني للعراق. ولكن قيادة منرو لم تنقذ حياة «صاموئيل مارتن»، ابن عم شقيقة «ديكنز» المتزوجة، من الموت في البصرة على يد الأتراك. وتذكر «هيلدا» كيف كان والدها يفكّر آنذاك

في أن يقتل تركياً انتقاماً لابن عمه. ولا تتذكر هل كانا في الكتيبة ذاتها؛ لكنهما كانا في العمر نفسه: ٢٢ سنة(*).

كان البريطانيون معتزِّين باحتلالهم للبصرة. وبعد ثمانين سنة أرسل إليّ شخص بريطاني مسلم من أصل باكستاني، رسالة أرفقها بعدد من البطاقات البريدية النادرة، طبعتها جريدة «التايمز أوف إنديا» في بومباي بالنيابة عن جمعية الشبان المسيحيين. تظهر إحداها المدفعية البريطانية جاثمة بين أشجار النخيل في البصرة؛ وتعرض صورة ثانية جندياً بخوذة ليِّنة يلتفت نحو آلة التصوير، بينما يربط رفاقه قيود الأحصنة. وبطاقات أخرى تبدي طاقم زورق حربي على نهر شط العرب، وبلدة القرنة التي لا تزال بيد الأتراك، وبنايةَ مزّقتها القذائف البريطانية، قبل أن تستسلم بقليل. وحتى عام ١٩١٤، تلقّى أحد كبار الموظفين البريطانيين تأكيدات «من الوجهاء العرب المحلّيين بأن القوات البريطانية ستُستقبل في بغداد بالودّ ذاته الذي استُقبلت به في جنوبي العراق، وأنها لن تلقى سوى مقاومة ضئيلة من قِبل الجنود الأتراك». ولكن الغزو البريطاني للعراق كان قد خاب. فقد سيَّر اللواء «تشارلس تونشند» جيشاً قوامه ١٣٠٠٠ جندي على ضفاف نهر دجلة باتجاه بغداد، ولكنه أُحيط بالقوات التركية وهُزم عند «كوت العمارة». وكان استسلامه من أكبر الكوارث العسكرية؛ وانتهى بمسيرة موت لأولئك الجنود البريطانيين الذين لم يقتلوا في المعركة وهم في طريقهم إلى تركيا. وقد غرقت قبور ٥٠٠ منهم في مقبرة الكوت الحربية، بمياه المجارير المالحة ، خلال فترة تنفيذ عقوبات الأمم المتحدة على

(*) بقي شاهد قبر «صاموئيل مارتن» سبعين سنة في مقبرة الحرب البريطانية في البصرة، وعليه العبارة التالية: «ذكرى الجندي صاموئيل مارتن ذي الرقم ٣٨٤ ٢٤، من الكتيبة الثامنة، وفرقة «تشيشاير»، الذي توفي يوم الأحد في ٩ نيسان/أبريل ١٩١٦. إنه ابن «جورج وسارة مارتن» من «بيتش تري إن، بارنتون، نورثويتش، تشيشاير». وأثناء التراشق بالقذائف في البصرة خلال حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ مع إيران، دمّرت المقبرة، ونهبت، وتكسرت شواهد القبور كلياً. وعندما زرتُ المقبرة في أشهر الفوضى التي أعقبت الغزو الأميركي ـ البريطاني للعراق عام ٢٠٠٣، وجدت هناك كلاباً سائبة تجول بين شواهد القبور المحطمة، ولاحظت أن التركيبات النحاسية قد سرقت من النصب المركزي.

إتفاقية سايكس - بيكو
ش
بحر
قزوين
البحر الأسود
روسيا
تركيا
الفرات
المنطقة الزرقاء
(المراقبة الفرنسية المباشرة)
أضنة
مرسين
الإسكندرونة
حلب
الموصل
قبرص
المنطقة أ
(تحت النفوذ الفرنسي)
حماه
حمص
كركوك
إيران
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
بغداد
حيفا
المنطقة ب
(تحت النفوذ البريطاني)
مركز التحالف
عمان
المنطقة الحمراء
(المراقبة البريطانية المباشرة)
القدس
مصر
البصرة
العقبة
الكويت
الخليج
العربي
الحجاز
البحر
الأحمر
٥٠٠ كم

العراق التي تلت غزو الكويت عام ١٩٩٠، عندما لم يُعْطَ العراق قطع غيار للمضخّات الضرورية لضخّ تلك المياه من القبور. وعندما زار زميلي «باتريك كاكبورن»، مراسل جريدة «الإندبندنت» تلك المقبرة عام ١٩٩٨، وجد أن شواهد القبور... لا تزال تُرى فوق المياه الخضراء القذرة، وأن هناك صليباً مكسوراً من الإسمنت يبرز من مهد القصب... لقد كانت أرضاً سبخة تنقّ فيها آلاف من صغار الضفادع التي تتغذّى على القمامة، كجماعات الصراصير. وبلغ مجموع خسائر البريطانيين حوالى ٤٠٠٠٠ جندي في حملة «بلاد ما بين النهرين».

وبدت بغداد على هذه الصورة عندما وصلها الجندي «ديكنز». وقبل ذلك بحوالى سنتين، وصف زائر تلك المدينة بأنها مدينة:

> «تتثاءب شوارعها فارغة، وتبقى حوانيتها مقفلة.... وفي المقبرة المسيحية، شرقي الطريق الكبرى المؤدية إلى بلاد الفرس، كانت تطفو التوابيت وأنصاف الهياكل العظمية العفنة. وفي ما يخصّ وباء «الكوليرا» الذي كان يكتسح البلد (بمعدل ٣٠٠ وفاة يومياً)، صار المسيحيون يقبرون على الجسر الجديد للطريق، بحيث لا يمر الماشي أو الراكب قرب القبور، بل عليها... لم تكن هناك أية حياة في البلد...».

وكانت للبريطانيين إذ ذاك آمال متفائلة عريضة لتجديد العراق بواسطة المشروع الغربي، على شاكلة الأوهام الأميركية المعقودة عام ٢٠٠٣، بعد غزو العراق. وكانت مجلّة «سفير» (Sphere) قد أنبأت قرّاءها عام ١٩١٥: «أن مساعدة العلوم والطاقة الأوروبية يمكن أن تعيد العراق ليكون جنّة لقارّة آسيا... وأنه تحت الحكم البريطاني يمكننا أن نأمل بتحقيق كل شيء...».

كان الاحتلال البريطاني مظلماً مع سوابق تاريخية. فالجنود العراقيون الذين كانوا مجنّدين في الجيش التركي «راودتهم دائماً أفكار ودودة إزاء الإنكليز»؛ ولكنهم ذاقوا المرّ في السجون البريطانية في الهند، إذ إنهم أُهينوا وتعرّضوا للإذلال بكل طريقة. وهؤلاء السجناء بالذات كانوا يريدون أن يعرفوا هل

سيسلِّم البريطانيون العراق إلى الشريف حسين في الحجاز ـ الذي وعده البريطانيون بذلك كذباً ورياءً، من أجل تحقيق «الاستقلال» للعالم العربي، شرط أن يحارب مع الحلفاء ضد الأتراك ـ على أساس أن بعض الأماكن المقدسة الإسلامية موجودة في بلاد ما بين النهرين.

كان الموظفون البريطانيون يعتقدون أن السيطرة على بلاد ما بين النهرين تؤمّن مصالحهم في النفط الفارسي ـ وقد صُمِّم احتلال البصرة المبدئي ليحقق هذا الغرض ـ وذلك «هو بوضوح حقنا وواجبنا، فإذا ضحَّينا بالكثير من أجل السلام في العالم، يجدر أن نحصل على تعويض ملائم، وإلّا نكون قد خذلنا أهدافنا» ـ ولكن تلك لم تكن الصيغة التي عبَّر بها اللواء «مود» عن المطامح البريطانية في بيانه المشهور الصادر عام ١٨١٧. وقد كتب «إيرل سكُوِذ» في مذكراته أنه «مع السير إدوارد غراي»، وزير الخارجية البريطاني، اتفقا عام ١٩١٥ على أن «احتلال بلاد ما بين النهرين». . . يعني إنفاق الملايين على الري والتنمية. . .». وحالما استقر البريطانيون في بغداد، قرروا أن يُحكم العراق ويعاد بناؤه بواسطة «مجلس مؤلف من المستشارين البريطانيين ومن ممثلين غير رسميين من السكان». وفيما بعد، فكروا في تأليف حكومة نصفها من أهل البلاد والنصف الآخر من البريطانيين، وراءها مجلس إداري أو هيئة استشارية تتكون من وجهاء القوم، بشكل رئيسي.

ولم يكن لدى «جرترود بل»، الرحَّالة والعالمة ومستشارة الشؤون الشرقية لسلطة الاحتلال البريطاني، أي شك بشأن الرأي العام العراقي. . . «فكلما شدّدنا قبضتنا، سُرَّ السكان هنا. . . فهم لا يتصورون قيام حكومة عربية مستقلة! وأنا أعترف بأني لا أتصور ذلك. فليس هنا من يستطيع أن يدير شؤونها!» وهذا أيضاً بعيد عن المطامح النبيلة التي جاءت في بيان «مود» قبل أحد عشر شهراً. ولن يتفاجأ العراقيون لو قيل لهم ـ وهذا طبعاً لم يحصل ـ إن «مود» يعارض بشدَّة البيان ذاته الذي ظهر بتوقيعه، والذي كتبه «السير مارك سايكس»، ذاته الذي اتفق سرّاً مع «فرنسوا جورج بيكو» عام ١٩١٦ على اقتسام السيطرة على معظم الشرق الأوسط بعد الحرب، بين الفرنسيين والبريطانيين.

وحتى الصحافيون بدأوا يدركون في أيلول/سبتمبر ١٩١٩ أن مشاريع بريطانيا للعراق كانت قائمة على أوهام. وقد كتب مراسل جريدة «التايمز» بتاريخ ٢٣ أيلول/سبتمبر يقول: «أتصوّر أن رأي كثير من الإنكليز بشأن بلاد ما بين النهرين هو أن كثيراً من سكانها المحلّيين يرحّبون بنا لأننا أنقذناهم من الأتراك، وأن البلد لا يحتاج إلّا إلى تنمية ليعوّض الإنكليز ما أنفقوه من مال وأرواح. ولكن أياً من هذه المثاليات لن يصمد عند امتحانه... فمن وجهة النظر السياسية، نحن نطلب من كل شخص عربي أن يستبدل بفخره وحريته بعض الحضارة الغربية، التي تمتص الإدارة فوائدها».

وهكذا أصبحت بريطانيا تحارب حركة التمرّد في العراق خلال ستة أشهر، وأمسى «دافيد لويد جورج» رئيس وزراء بريطانيا يجابه الدعوات إلى الانسحاب العسكري. ولكن «لويد جورج» لن يترك العراق فريسة «للفوضى والارتباك»، إذ يقول: «أليس من صالح هذا الشعب في هذا البلد أن يُحكم بحيث يستطيع أن ينمّي أرضه التي تذبل وتذوي تحت الانسحاق. ماذا يمكن أن يحصل إذا انسحبنا؟». عند هذه المرحلة، كان الموظفون البريطانيون في بغداد يعتبرون أن المسؤول عن العنف هو «اضطراب سياسي محلي ناشىء من خارج العراق»، موحين بأن سوريا قد تكون متورّطة. وعليك أن تقرأ بدلاً من سوريا ١٩٢٠ ادّعاء أميركا بأن سوريا تدعم التمرّد عام ٢٠٠٤. وقد اتخذ «أرنولد ويلسون» الموظف البريطاني الأعلى مقاماً في العراق، خطأً يمكن التنبؤ به، إذ قال: «لا نستطيع أن نحافظ على موقفنا... بسياسة توفيق بين المتطرّفين. وما دمنا قد بدأنا بمهمة تجديد «بلاد ما بين النهرين»، علينا أن نستعدّ لتقديم الرجال والمال... علينا أن نسير سيراً وئيداً بإرساء الدستور والمؤسسات الديمقراطية».

جرى قتال في مدينة الكوفة الشيعية، وحصار بريطاني للنجف بعد قتل أحد الموظفين البريطانيين، وطلبت السلطات استسلام المجرمين دون قيد أو شرط وغيرهم ممَّن اشتركوا في المؤامرة. ولكن القائد الديني الشيخ «السيد كاظم يزدي»، امتنع عن دعم التمرّد، واعتكف في بيته. وقد أُعدم ١٢ شخصاً من المتمردين؛ وصار الشيخ المحلّي «بدر الرميد» هدفاً للبريطانيين، إذ كتب أحد الموظفين السياسيين: «يجب قتل البدر أو أسره، وملاحقته دون هوادة حتى

يتحقق ذلك». وأدرك البريطانيون إذ ذاك أنهم ارتكبوا خطأ سياسياً كبيراً، إذ دفعوا بمجموعة سياسية كبرى إلى الاستلاب: الضباط والموظفين العراقيين السابقين لدى الأتراك. وتضخّم عدد الساخطين والمتمرّدين. ولم يُرجع «ويلسون» ذلك إلى القومية، بل إلى «الفوضى والتعصّب». وكانت السوابق كلها هناك. فبدلاً من كوفة ١٩٢٠، إقرأ كوفة ٢٠٠٤؛ وبدلاً من النجف ١٩٢٠، إقرأ النجف ٢٠٠٤؛ وبدلاً من يزدي ١٩٢٠، إقرأ آية الله علي السيستاني الكبير عام ٢٠٠٤؛ وبدلاً من البدر ١٩٢٠، إقرأ مقتدى الصدر عام ٢٠٠٤؛ وبدلاً من «الفوضى والتعصّب» عام ١٩٢٠، إقرأ «بقايا صدّام» و«القاعدة» عام ٢٠٠٤.

ونشب تمرّد آخر في منطقة «الفلُّوجة»، حيث قتل الشيخ «الضاري» ضابطاً، «الكولونيل جيرالد لكمان»، وقطع خط السكة الحديدية بين الفلّوجة وبغداد. فتقدم البريطانيون نحو الفلّوجة وكبّدوا القبيلة «قصاصاً ثقيلاً». ويعرف موقع هذه المعركة اليوم باسم «خان الضاري». وفي عام ٢٠٠٣ شهد ذلك الموقع أيضاً مقتل أول جندي أميركي من قوات الاحتلال الأميركية بقنبلة على جانب الطريق. وفي حالة يأس، احتاج البريطانيون إلى «أن يكملوا واجهة الحكومة العربية». فقام تشرشل بدعم حماسي، ونصّب على عرش العراق الملك فيصل الهاشمي، إبن الشريف حسين، ترضية للرجل الذي طرده الفرنسيون من دمشق. فلم تحتفظ فرنسا بأية ملوك في الأراضي السورية الواقعة تحت انتدابها. وكتبت «التايمز» بتاريخ ٧ آب/أغسطس عام ١٩٢٠ تتساءل: «كم ستطول التضحية بالأرواح الغالية، في مجهود فاشل لفرض إدارة كبيرة وباهظة الثمن على الجماهير العربية التي لم تطلبها ولم تُردها؟».

وتكبّد البريطانيون ٤٥٠ قتيلاً في التمرّد العراقي، وأكثر من ١٥٠٠ جريح. وفي ذلك الصيف قدّر ت. إ. لورانس، «لورانس العرب» نتائج البطش البريطاني «بقتلهم حوالى عشرة آلاف عربي في ذلك التمرّد. ولا نستطيع أن نأمل المحافظة على ذلك المعدَّل...(*). ومنذ ذلك الوقت، حصل ركود

(*) لم يذكر لورانس توكيده السرّي الذي أعطاه للجنة وزارية، قبل ذلك بسنتين، بمعنى «أن العرب في العراق يتوقعون من البريطانيين أن يحافظوا على سيطرتهم».

اقتصادي دولي، وفقدت الحكومة البريطانية الأرصدة المالية اللازمة لمعاودة التعمير، وجوبهت بجنود غير راضين، إذ إنهم اشتركوا في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وصاروا ينتظرون التسريح من الخدمة العسكرية؛ فلجأت إلى قوة الطيران لفرض مشيئتها.

فقام الطيران البريطاني الملكي، بدعم من تشرشل أيضاً، بقصف القرى الثائرة والمنشقين من رجال القبائل. وكانت حاجة الحكومة ماسَّة إلى قاذفات قنابل حديثة في الشرق الأوسط؛ وبدلاً من شحنها بالبحر، أقامت خط نقل متداعياً وخطراً، عرّضت فيه طواقم الطيران البريطاني الملكي نفسها للمهالك، وهي قادمة من أوروبا؛ إذ مات على الأقل ثمانية من ربابنة الطائرات في تحطم طائراتهم؛ وبلغت الخسارة في قاذفات القنابل ٣٠٪. وفي العراق، حثَّ تشرشل على استعمال غاز الخردل، الذي سبق استخدامه ضد المتمردين الشيعة عام ١٩٢٠. وكتب إلى مشير الطيران «السير هيوترنتشارد»، رئيس موظفي الطيران يقول: «من المؤكد أنك ستمضي قُدُماً في تجاربك على قنابل الغاز، ولا سيما غاز الخردل، الذي سيقتص من أهل البلاد المتمردين، دون إخضاعهم لإصابات خطيرة».

استُخدم «آرثر هاريس» قائد سرب الطائرات الذي صار فيما بعد مشيراً لسلاح الطيران الملكي، والرجل الذي أشعل النار وأحلّ الدمار في هامبورغ، ودرسدن، وغيرهما من المدن الألمانية في الحرب العالمية الثانية، من أجل إحكام القصف على المتمردين العراقيين. وكتب عن هذا فيما بعد: «إن الطيران الملكي وجد أن إحراق قراهم بأكواخها المصنوعة من القصب بعد إنذارهم بإخلائها، جعلهم بمنتهى الانزعاج، دون إيذائهم جسدياً، فتوقفوا حالاً عن الإغارة والنهب...» وكان هذا ما يسميه «البنتاغون» بإضعافه للغة الإنكليزية «نور الحرب» (War Lite). ولكن القصف لم يكن جراحياً تماماً كما جاء في سيرة حياة «هاريس» الرسمية. ففي عام ١٩٢٤، اعترف «هاريس» «بأن العرب والأكراد يعرفون الآن معنى القصف الحقيقي، بالنسبة للضحايا والأضرار؛ إنهم يعلمون أن ٤٥ دقيقة هي كافية لمحو قرية من الوجود وقتل أو جرح ثلث سكانها».

لاحظ «لورانس» في رسالة بعث بها إلى «الأوبزرفر» أن تلك الانتفاضات تأخذ مجرى منتظماً. فالعرب يحرزون نجاحاً مبدئياً، تقابله تعزيزات بريطانية تعمل كقوة معاقِبة. إنهم يحاربون (خسائرهم أكثر وخسائرنا أقل) من أجل تحقيق أهدافهم التي نعود فنقصفها بالمدفعية والطائرات والزوارق الحربية». وهذا الوصف يلائم تماماً العمليات العسكرية الأميركية في العراق عام ٢٠٠٤، أي حالما تفقد قوى الاحتلال وصنيعتهم الحكومة السيطرة على معظم العراق. وروى أحد أعضاء «جمعية لورانس» عنه أنه ذو خصال سيئة إذ «لديه عادة مثيرة ساخرة وحتى هزلية في قضايا جدّية خطيرة». فقد كتب في الرسالة المذكورة ذاتها: «من الغريب أننا لا نستعمل الغاز السامّ في هذه الظروف؛ فقصف البيوت طريقة ترقيعية للوصول إلى النساء والأطفال، وطالما كان مشاتنا يتكبدون خسائر في إطلاقهم النار على الرجال من العرب؛ بينما المهاجمة بالغاز تقضي قضاء مبرماً على جمهور كامل في المناطق المذنبة وتمحوه من الوجود بدقة وإتقان...»!!

ولكن، عندما تكلم «لورانس» عن احتلال العراق، جاء كلامه أقرب إلى العقل والصواب، إذ كتب إلى «التايمز» في السنة ذاتها يقول: «تمرّد العرب على الأتراك خلال الحرب، لا لأن الحكومة التركية سيئة، بل لأنهم يريدون الاستقلال. إنهم لا يخاطرون بحياتهم في المعارك ليستبدلوا بأسيادهم أسياداً آخرين، أو ليكونوا مواطنين بريطانيين... ولكن ليفوزوا بتسيير أمورهم بأنفسهم... أما كونهم قادرين على القيام بأعباء الاستقلال أم لا، فهذا أمر تحت التجريب. فالاستحقاق لا يؤهل للحرية».

وقد نشر «لورانس» أيضاً مقالاً آخر أكثر كشفاً عمّا سيأتي في «الصنداي تايمز» خلال آب/ أغسطس عام ١٩٢٠، تصلح كلماته أن تكون موجهة إلى رئيس الوزراء «طوني بلير»، بعد ٨٤ سنة؛ جاء فيه:

«إن شعب إنكلترا استُدرج في بلاد ما بين النهرين إلى مصيدة يصعب الخروج منها بكرامة وشرف. وقد خُدع في هذا الأمر عن طريق حجب ثابت للمعلومات. وكانت بلاغات بغداد الرسمية متأخرة عن موعدها، وغير صادقة،

وغير كاملة. فقد كانت الأحوال أسوأ بكثير مما قيل لنا؛ وكانت إدارتنا أكثر سفكاً للدم وأقل فعالية مما يعرف الجمهور. . . إننا اليوم غير بعيدين عن الكارثة».

لقد رُوِّع العميد البحري «ليونيل شارلتون» لعدد الضحايا التي أوقعت في القرى البريئة بالعراق، إلى درجة جعلته يستقيل كضابط عالي المقام في الطيران، لأنه لم يعد بإمكانه «الاستمرار في سياسة التهويل بالقصف». فقد زار مستشفى عراقياً ووجده ممتلئاً بالجرحى من رجال القبائل. وبعد أن قصف الطيران البريطاني الملكي السليمانية، مدينة المتمردين الأكراد، عرف شارلتون «ازدحام السكان في هذه الأماكن، وتصوَّر فظاعة وصول قنبلة دون إنذار إلى وسط تجمّع للناس في سوق أو حي تجاري، حيث ينزل البلاء بالرجال والنساء والأولاد على السواء». وكانت هذه سياسة اتُّبعت بحماس من قبل الولايات المتحدة الأميركية بعد جيل.

لقد كانت هناك سوابق تاريخية للوعود الكاذبة ذاتها التي قُطعت للبريطانيين والأميركيين بشأن ترحيب الناس بهم، وللبلاغة العظمى ذاتها بخصوص عراق جديد ديمقراطي، وتفجّر التمرّد ذاته بين العراقيين ـ في المدن والبلدات ذاتها ـ ومجلس الوزراء المماثل، والانهيار ذاته لنفوذ الاحتلال. ولمّا لم يستطع الأميركيون سحق التمرد، لجأوا إلى القصف الجوي دون تمييز؛ كما فعل البريطانيون قبلهم عن طريق: تدمير البيوت في القرى المنشقّة، وقصف المساجد حيث يُدَّعى أن الأسلحة تخبّأ، وقتل «الإرهابيين» بغارة جوية على الحدود السورية ـ الذين تبيّن أنهم مواطنون يقيمون حفلة عرس. كما أن سياسة القصف الجوي ذاتها، اعتُمدت في أفغانستان، حيث هُجرت ديمقراطية البلد بعد عام ٢٠٠١.

أمّا في ما يخص الجنود البريطانيين الذين قضوا خلال العشرينيّات من القرن العشرين الميلادي، فلم نستطع أن نعيد جثثهم بحراً إلى بريطانيا عبر حرّ الشرق الأوسط منذ ثمانين سنة. ولذلك، قبرناهم في مقبرة الجدار الشمالي في بغداد، حيث لا يزالون حتى اليوم؛ مقابل السفارة التركية التي جرى تفجيرها بقنبلة انتحارية بشرية. وكان أكثرهم يبلغون من العمر عشرين سنة أو أقل أو أكثر

بقليل. وبين تلك القبور كان الضريح الفخم للّواء «مود»، الذي مات في بغداد بعد ثمانية أشهر من انتصاره، لأنه اختار أن يشرب حليباً غير مغلي. وعندما زرتُ المقبرة لتفقّدها في صيف عام ٢٠٠٤، حذرني الحارس العراقي بأن لا أبقى أكثر من خمس دقائق أمام القبر، لئلا أُخطف.

وفي ١١ تموز/يوليو، ١٩٢٢، نصَّب مجلس الوزراء في بغداد «فيصل»، ابن الشريف حسين، ملكاً دستورياً على البلاد، بعدما نال في الاستفتاء ٩٦٪ من الأصوات، الأمر المضحك الذي صار مألوفاً في العالم العربي، خلال السنوات الثمانين التي أعقبت ذلك. وكان الملك فيصل سنِّياً من قبائل الخليج، ولم يكن عراقياً أو من الأكثرية الشيعية. وكانت تلك أول خديعة قمنا بها إزاء شيعة العراق؛ وستتكرر مرتين خلال المئة سنة القادمة. ومنذ ذلك التاريخ عرفت «بلاد ما بين النهرين» باسم «العراق»؛ ولكن ذلك لم يجلب السلام ولا السعادة إلى شعبه. ووقّعت معاهدة إنكليزية ـ عراقية تضمن المصالح الخاصة لبريطانيا، برغم المعارضة الوطنية. وفي عام ١٩٣٠، وقّعت اتفاقية أخرى لمدة ٢٥ سنة للتحالف الإنكليزي ـ العراقي، مع قاعدتين للطيران البريطاني الملكي في الشعيبة والحبَّانية. وممّا أذكى الغضب القومي العراقي بخاصة دعم بريطانيا المستمر لإقامة دولة يهودية في فلسطين، من خلال حكمها الانتدابي. ولكن الانتفاضات القبائلية وانقلاب عام ١٩٣٦، زادت في عدم الاستقرار ـ وبعد انقلاب آخر حدث عام ١٩٤١ ومجيء رشيد عالي الكيلاني ـ الموالي للألمان إلى السلطة ـ غزت بريطانيا العراق كله من جديد، وجابهت هجوم سلاح الجو الألماني القادم من سوريا ولبنان اللذين كانا تحت حكم «فيشي»، وعادت فاحتلت البصرة وبغداد(*). ولكن القوات البريطانية توقفت خارج بغداد لتتيح

(*) لم ينجح الألمان في العراق أكثر مما نجحت أية قوة غربية أخرى، خلال القرن الماضي. فقد أوفدوا إلى الموصل ٢٤ طائرة من طراز «هنكل» و«مسرشميت»؛ ولكنهم خسروا قائد ارتباط طيران سلاح الجو الألماني في معركة بين الطائرات المقاتلة فوق بغداد. وعندما كادت تنهار المقاومة العراقية ضد البريطانيين، أصدر «هتلر» توجيهاً عسكرياً يحمل الرقم ٣٠ وجاء فيه: «أن حركة التحرير العربية في الشرق الأوسط، هي حليفنا الطبيعي ضد إنكلترا. وفي هذا الصدد تكتسب الثورة في العراق أهمية خاصة...».

للأمير عبد الله الوصي على العرش أن يكون أول الداخلين إلى بغداد. وقد سمح هذا التأخير لأنصار الكيلاني بقتل ما لا يقل عن ١٥٠ شخصاً من الحوزة اليهودية العامرة، وحرق ونهب آلاف الممتلكات. وقد شُنق خمسة من قادة الانقلاب، وسُجن كثيرون غيرهم؛ ومنهم «خيرالله طلفاح» عمّ الطفل صدام حسين البالغ من العمر إذ ذاك أربع سنوات؛ وبقي في ذاكرة الطفل عداء عمه للبريطانيين. وخطّط الألمان لانقلاب عربي آخر يناصر دول المحور، بدعم من مفتي القدس الحاج أمين الحسيني ـ الذي سافر إلى برلين، وسنروي قصة رحلته هذه فيما بعد ـ ولم يسفر ذلك عن شيء.

ولكن العراق بقي دولة ضعيفة، ولم يكن لمليكها فيصل الثاني أيّ رصيد وطني ـ لانه لم يكن عراقياً ـ ولأن حكومته كانت لا تزال مؤلفة من مجموعة من الموظفين الأتراك، مثل نوري السعيد الذي احتال ليعود كرئيس وزراء أربع عشرة مرة، قبل أن يحصل إسقاطه الدموي. وفي ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨، هاجم العميد عبد الكريم قاسم القصر الملكي بقواته، وقضى على الملك فيصل وسائر أعضاء العائلة المالكة التي حاولت الهرب من القصر المشتعل؛ كما قضى على نوري السعيد بينما كان يحاول الهرب من بغداد بلباس امرأة. ولكن حكم قاسم أغاظ الولايات المتحدة الأميركية؛ إذ إنه سحب العراق من حلف بغداد المناهض للسوفيات. وهدَّد بغزو الكويت؛ وعجز عن أن يقمع ثورة كردية في شمال العراق. ثم أُسقط بانقلاب آخر في شباط/فبراير عام ١٩٦٣، وسيق إلى محطة الإذاعة، وقُتل في آخر الأمر. وقد قام بهذا الانقلاب حزب البعث بمساعدة كبرى ناشطة من قبل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وقد عُرضت جثة قاسم الممتلئة بثقوب الرصاص على شاشة التلفزيون مسنودة بكرسي، بينما كان جندي يرفس ساقيه ضاحكاً.

وقد أُسّس حزب البعث في سوريا عام ١٩٤١ ـ مستوحى من عبرة معاودة احتلال بريطانيا للعراق ـ كحركة عربية علمانية شاملة، تبغي رفع عبء الشعور بالذنب والذل الذي دام لدى الأمّة العربية على مدى أجيال. فقد قاسى العرب لعدة قرون تحت الحكم العثماني المجاعة وخسارة القوة الفكرية. وقد انحط

التعليم عبر السنين في البلاد العربية، وبقي الملايين من العرب أميين لا يحسنون القراءة والكتابة. و«البعث» يعني «معاودة الولادة». ومع أن مؤسّسه السوري المسيحي، ميشال عفلق، كان من متخرّجي جامعة السوربون في باريس ـ وكان يلبس طربوشاً فضفاضاً ـ فلا شك في أن فكرة البعث العربي لها جذور طبيعية بين الفقراء، والقرويين والقبليين، وبالطبع في صفوف الجيش. وكان صدّام حسين من الأوائل الذين التحقوا بهذا الحزب، ومن بين البعثيين الأوائل الذين حاولوا قتل عبد الكريم قاسم. وكان هربه على أثر ذلك عبر العراق، واستخراجه بنفسه رصاصة من ساقه بشفرة موسى، وسباحته عبر نهر دجلة طلباً للحرية ـ تقريباً في المكان نفسه الذي وجدته فيه القوة الأميركية الخاصة عام ٢٠٠٣ ـ وقد أصبح ذلك كلّه رواية رسمية نُسجت حوله.

بالرغم من الاختلافات ضمن حزب البعث، برز صدّام حسين كنائبٍ لرئيس مجلس القيادة القطرية، بعد انقلاب آخر عام ١٩٦٨. وبقي في هذا المنصب بصفته الرجل الثاني الأكثر نفوذاً في العراق حتى ١٦ تموز/يوليو عام ١٩٧٩، عندما تقاعد الرئيس أحمد حسن البكر، ابن عمّ صدّام، بعد ذلك دعا صدام قيادات حزبه إلى وليمة عشاء شائن في القصر الرئاسي، وطلب منهم أن يتهموا أنفسهم وأن يبلغوا عنها. ثم بدأ بإعدام زملائه خلال أيام قليلة.

وبينما كان صدّام يسيطر تدريجاً على العراق، عاود الأكراد تمرّدهم في العراق. وزار الرئيس المصري أنور السادات القدس في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٧؛ وبذلك أخرج أكبر دولة عربية سكانياً من النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وكرَّس ذلك في اتفاقية «كامب دايفيد». وهكذا ترأّس صدّام ما سمّاه العراقيون فوراً «قمّة المجابهة» في بغداد؛ مما جعل العاصمة العراقية تصبح ـ ولو مؤقتاً ـ مركز العالم العربي، وأبرز مقام صدّام حسين غداة تسلّمه الرئاسة من الرئيس البكر. ونُصبت خيمة كبيرة وراء قصر القمّة، واستُقدم خمسمئة صحافي إلى العراق من أرجاء العالم ـ وكانت كلفة كل المكالمات الهاتفية مجانية إنما تحت المراقبة ـ وأُسكنوا في فنادق بعيدة عن بغداد، على أن تنقلهم الحافلات إلى «مركز الصحافة» حيث يمنعون من الاتصال بأعضاء الوفود، ويُراقَبون بواسطة

جماعات من الشباب الذين يرتدون جوارب بيضاء؛ عرفنا أنهم من الشرطة لأنهم كانوا يضعون على طيّة ستراتهم كلمة «سياحة».

وكان المفروض أن تشغل السياحة معظم وقتنا. ولديّ ذكرى حيَّة عن رحلة طويلة بالباص إلى «القرنة» الواقعة شمالي البصرة، لرؤية جنّة عدن. وصلت سيارتنا أخيراً إلى مقربة من جسر على نهر كريه الرائحة، يجري ببطء بين ضفَّتين رمليتين عاريتين من الأشجار، تحت سماء مكفهرة. إذ ذاك وضع أحد رجال الشرطة يده اليسرى على ذراعي، مشيراً باليد الأخرى إلى هذا المشهد البائس. ناطقاً بتعريفه السياحي اليتيم لهذا اليوم: «وهذه يا سيد روبرت، هي جنة عدن».

وقبل انعقاد القمة، أُلزم كثير من القادة العرب بالتظاهر بالصداقة مع «الخائن صدام». وأُقنع الرئيس حافظ الأسد بنسيان الانشقاق الوحشي بين بعثه وبعث البكر وصدام. وأعلن السوريون أن الرئيسين الأسد والبكر سيناقشان «إقامة جبهة مشتركة ضد الهجوم الصهيوني المجنون على منطقتنا والمصالحة الاستسلامية المنفردة التي قام بها النظام المصري مع إسرائيل». وحالما وصل الرئيس الأسد إلى بغداد، باشر محادثات مع الرئيس البكر «في جو من التفاهم العميق»، بحسب جريدة «تشرين» الحكومية؛ بعدما كان قد صان حدوده مع العراق بكتيبة كاملة من جيشه، لئلا يغزوه العراق ـ مع العلم أنه كان قد نشر أيضاً ٣٣٠٠٠ جندي سوري في لبنان ـ وقد تقام الوحدة مع وجود التنوّع. وكان على الملك حسين عاهل الأردن أن يسافر إلى المدينة التي استُئصلت فيها شأفة الملكية الهاشمية، منذ ما لا يزيد عن ٢٢ سنة. وقد أُرسل موظفون بعثيون إلى المقبرة الملكية في بغداد، ليشذّبوا الحشيش النامي حول قبور الهاشميين، فقد يطلب الملك زيارتها؛ حتى إن «أبا نضال» رئيس أكثر الفصائل الفلسطينية قسوة، أُرسل إلى تكريت، لئلا يسيء وجوده في بغداد لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات.

وهكذا اجتمعوا: الرئيس البكر المسنّ، والشاب صدّام، وعرفات، وحسين، وولي العهد الأمير فهد من العربية السعودية. ومُنع المراسلون من

دخول قاعة الاجتماعات، ولكن سُمح للمصورين أن يشاهدوا أولئك الرجال، كما يسمح للزائرين بأن يلقوا نظرة على جثمان «لينين» المحنّط. تنكرنا بزيّ طاقم هيئة الإذاعة البريطانية للتلفزيون، كتابعين لميخائيل كول، ومشينا في قاعة الاجتماعات ندلف متثاقلين بين صفوف الأمراء ورؤساء الجمهوريات الذين جلسوا كتماثيل من الشمع منشغلين وموجسين خيفة، فمررت بعرفات الذي لا يفتأ يكرر بإبهامه رسم علامة النصر أمام آلات التصوير بشكل محرج، والملك حسين المقطب الحاجبين، وصدام المحملق. راقبت الزعيم العراقي المستقبلي بدقة وعناية، وعندما التقت عيوننا لحظة، رأيت في عينيه نوعاً من الاحتقار، ضرباً من التكبر والتشامخ. فقلت في نفسي: «إن رجلاً مثله لا يؤمن بالمؤتمرات».

وكان ذلك صواباً. فالسعوديون صمموا على أن لا يغضبوا الولايات المتحدة، وبعد ثلاثة أيام من المداولات، ولد الجبلِ العربي فأراً. فمصر وضعت قيد المقاطعة الاقتصادية ـ مثل إسرائيل ـ وألِّفت لجنة لتذهب إلى القاهرة وتقنع السادات بأن يتخلى عن «كمپ دايفيد»؛ مع تقديم ترضية سنوية لمصر تبلغ سبعة مليارات دولار لإنعاش اقتصادها المتردي. وكلف بمهمة رئاسة هذه اللجنة اليائسة «سليم الحص» رئيس وزراء لبنان الذي تضرب الحرب أطنابها في بلده المنقسم على نفسه أكثر من العالم العربي ذاته. لكن السادات صدَّهم، ورفض أن يستقبل الوزراء؛ إذ أعلن أن المال المعروض رشوة، وأن الملايين العالمية لا تستطيع أن تشتري إرادة مصر.

ولم تكن طبيعة النظام العراقي، ولا قساوته خافية على أحد. وكانت بريطانيا قد تخاصمت تجارياً مع الحكومة العراقية، بعد أن قام عملاء عراقيون عام ١٩٧٨ في لندن باغتيال عبد الرزاق النايف، وهو رئيس وزراء سابق في العراق، بعدما حكمت عليه بالموت سلطات بغداد. كما ألقي في السجن المركزَي دون اتهام ظنّي أحد ممثلي محل «ويمپي»، وسُحب «ريتشارد درو»، أحد الدبلوماسيين البريطانيين من سيارته في المدينة، وضُرب على أيدي الشرطيين بملابسهم الرسمية.

ولكن التفتيش عن «الجواسيس» ضمن الجسم السياسي في العراق كان مؤسساً قبل إحدى عشرة سنة. وتجب العودة إلى أيام نظام البعث الأولى لمعرفة الكره الذاتي الذي ولَّده ذلك في النظام ـ ودور صدام في عمليات التطهير ـ. وبعد أن رأيتُ صدام لأول مرة في بغداد، بدأت أجمع ملفاً عنه في مقرِّي ببيروت. راجعتُ محفوظات الصحف اللبنانية؛ وكانت بيروت آنذاك ترزح تحت القصف الليلي؛ لكن الصحافيين حافظوا على ملفاتهم في تلك الظروف. وهناك في مكتبات الصحف القذرة بلبنان، بدأ يبرز نمط تقشعر له الأبدان. ففي مؤتمر عام ١٩٦٨ لحزب البعث، وبحسب جريدة بغداد «الجمهورية»، صارت «تصفية شبكات التجسس» شأناً وطنياً؛ وبعد ذلك بشهر، اكتشف حزب البعث، المؤسس حديثاً، مؤامرة لقلب نظامه. واتهم ثمانين شخصاً متورطين في ذلك، بمن فيهم رئيس الوزراء السابق الدكتور عبد الرحمن البزَّاز، ووزير دفاعه السابق اللواء عبد العزيز العقيلي، ووُجهت اتهامات التجسس، بحسب ما أوردته جريدة لبنانية، «من خلال برامج خاصة لراديو وتلفزيون بغداد، صرّح فيها بذلك اثنان من المتهمين: جندي سابق من مرفأ البصرة، ومحامٍ من بغداد». وقد «أجرى المقابلة صدّام التكريتي شخصياً، أمين عام القيادة العراقية لحزب البعث الحاكم»؛ بحسب صحافة بيروت، التي أضافت إلى ذلك: «وقد قُدِّم للمقابلة بتسجيل لخطاب الرئيس البكر في بغداد بتاريخ ٥ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٦٨، جاء فيه: «لن يكون هناك مكان للجواسيس على أرض العراق».

وبدأت المجزرة خلال ستة أسابيع. ففي فجر يوم ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٦٩، شُنق علناً ١٤ عراقياً منهم تسعة يهود، بعد إدانتهم من قبل محكمة من ثلاثة أعضاء بالتجسّس لإسرائيل. وادُّعي أن «عزرا ناجي زلخا»، التاجر اليهودي في البصرة، والبالغ من العمر ٥١ سنة، كان زعيم حلقة تجسّس. وبينما كان هؤلاء يُشنقون في ساحة التحرير ببغداد، كانت قد بدأت محاكمة أخرى تورّط فيها ٣٥ عراقياً، منهم ١٣ يهودياً. وقبل عمليات الشنق التي جرت في كانون الثاني/يناير بساعات، نظم حزب البعث ـ الذي أصبح صدّام الآن سلطته الحقيقية، بحسب الصحافة اللبنانية ـ تظاهرة سار فيها ألوف العراقيين

إلى الساحة ليشهدوا الإعدامات؛ ويسمعوا تصريح الحكومة بأن «الحزب مصمِّم على تنفيذ وعده للشعب بإزالة الجواسيس». وأوردت «بغداد أوبزرفر» مقابلة مع رئيس المحكمة الثورية الكولونيل «علي هادي وِتْوِت» الذي قال: «إن المحكمة توصلت إلى هذا القرار بصرف النظر عن ديانة المدّعى عليهم، مع العلم أنها برَّأت ساحة سبعة يهود». وعندما أُعدمت المجموعة التالية من «الجواسيس»، بتاريخ ٢٠ شباط/ فبراير كان المدانون الثمانية من الرجال المسلمين. وكالعادة، قُبض عليهم سراً، لكن راديو بغداد أذاع ليلة إعدامهم تسجيلاً للتحقيق معهم. واتّهم هؤلاء بأنهم كانوا يجمعون معلومات عن انتشار الجيش العراقي، وكان رئيسهم «نجاة كاظم خورشيد» واحداً من الثمانية، لكن التحقيق معه لم يُذَع. وأنبأ الراديو العراقي الناس فيما بعد «أن الشعب العراقي عبَّر عن إدانته للجواسيس».

وحتى شهر أيار/مايو ١٩٦٩، فشل حزب البعث في قمع التمرد الكردي، فأوقف مئات من العراقيين، بمن فيهم ٢٤ شخصاً كانوا يخدمون في ظل النظام السابق. ومن هؤلاء محافظ بغداد «مدحت الحاج سرِّي»، الذي اتّهم «بإدارة شبكة مخابرات لوكالة الاستخبارات الأميركية». وشمل التوقيف وزراء سابقين بينهم إسماعيل خيرالله، وفؤاد الركابي، ورشيد مصلح، وصدّيق شنشل، وشكري صالح زكي. واستفسرت قيادة حزب البعث عن رأي «الشعب»؛ فجأر في الاجتماع ممثلون لنقابات المزارعين بدعمهم، عندما صرَّح الرئيس البكر بأنه «سيقطع رؤوس الخونة». وقد سيق محافظ بغداد السابق إلى تلفزيون بغداد «ليعترف» بدوره كعميل لوكالة الاستخبارات الأميركية؛ بينما انهار مدّعى عليه آخر، هو الدكتور «يوسف الميمار»، المدير العام السابق لوزارة الإصلاح الزراعي، وبلَّغ عن وزراء سابقين رفيعي المستوى في عملية ارتداد «منير رفعة» الطيار العراقي الذي فرّ بطائرة مقاتلة ـ قاذفة قنابل من طراز ميغ ٢١ إلى إسرائيل، قبل ثلاثة أيام.

وادَّعى «ميمار» أنه جُنِّد في وكالة الاستخبارات الأميركية عن طريق رجل أعمال عراقي يعمل في بيروت عام ١٩٦٤؛ وأنه تلقّى أمراً من شركة لتلك

الوكالة تشتغل تحت قناع سمسرة التمويل، بأن يفتح عملاً تجارياً تمويلياً في ليبيا، ثم تأمين دعوة لزيارة بغداد لوزير المالية في حكومة الرئيس أيزنهاور «روبرت أندرسن». ومن المتعذر معرفة مقدار الصحة في مثل هذا الاعتراف. وقد شُنق في الشهر الماضي أربعة مدنيين ـ هم طالب عبد الله الصالح، وعلي عبد الصالح، وعبد الجليل مهاوي، وعبد الرزاق دهب ـ لأنهم تجسسوا لصالح وكالة الاستخبارات الأميركية. وبتاريخ ١٥ أيار/ مايو ١٩٦٩، شنق حزب البعث عشرة أشخاص آخرين، بعدما ظهر على التلفزيون أحدهم، «عبد الهادي بشاري»، و«اعترف». واتهموا بأنهم عملوا لحساب إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية. وكان بينهم رقيب من الجيش، وملازم من سلاح الطيران.

وفي شهر حزيران/يونيو، أخبر «جاسوس» مقبوض عليه التلفزيون العراقي أنه عمل لحساب الاستخبارات البريطانية، واسمه «زكي عبد الوهاب»؛ وهو مستشار قانوني لرجل الأعمال العراقي في بيروت. واتُّهم في صحافة بغداد بأنه «عميل لبريطانيا وأميركا». وفي تموز/يوليو، أُخضع ثمانون عراقياً من الشخصيات البارزة للمحاكمة بتهمة «التجسس». ولم يكن ذلك سوى مقدمة لآلاف من عمليات الشنق؛ وكلها بسبب «التخريب» أو «التجسّس». وبعد إحدى عشرة سنة، عندما ثبت صدّام في السلطة، كان الجلّادون يرسلون إلى المقصلة ما معدله مئة شخص كل ستة أسابيع. وفي عام ١٩٨٠، أوردت منظمة العفو الدولية خبر إعدام ٢٥٧ شخصاً منذ وقت قريب.

وفي عام ١٩٧٩، أوقف صدّام شخصياً خمسة أعضاء من أصل ٢١ عضواً يؤلّفون مجلس قيادة الثورة؛ واتهمهم جميعاً بالتجسّس لسوريا، التي لم يمضِ على زيارة رئيس جمهوريتها لبغداد سوى سنتين، ليجري تلك المحادثات «للتفاهم العميق» مع الرئيس البكر. وقد أدانتهم المحكمة الثورية وحكمت عليهم بالموت دون حق الاستئناف والتمييز، مع التنفيذ في اليوم التالي. وقد ذهب صدّام شخصياً مع عدد من مستشاريه الكبار إلى السجن المركزي، وأعدمهم بنفسه؛ كما استخدم مسدّسه الخاص ليحطّم رأس أحد الضحايا.

وفي أيام النظام البعثي الأولى، كانت أسماء العراقيين الذين يُعدمون تُقرأ

من تلفزيون الدولة كل يوم عند الساعة الرابعة بعد الظهر. وكان لي صديقة عراقية قديمة ذكّرتني عام ٢٠٠٣ بأن أقرباءها كانوا مسجونين؛ وأنها كانت كل يوم بعد الظهر تهدِّىء نفسها بالمورفين قبل أن تجلس أمام شاشة التلفزيون. قالت: «لست أدري كيف استطعت أن أتجاوز تلك البرامج. كان المذيع التلفزيوني الذي يقرأ الأسماء ذا وجه نحيل وعينين نافذتين؛ وكان يقرأها بخشونة. وهو هو «محمد الصحّاف» الذي شاب شعره فيما بعد وصار وزير الإعلام الفِكه «علي الهزلي» أثناء غزو الأميركيين للعراق، والذي استفزّ الرئيس «بوش» ليضحك من ادعاءاته بأن القوة الأميركية لم تبلغ بغداد، بينما كانت دباباتها تقطع نهر دجلة؛ بعدما تطور من قسوته الأولى إلى التهريج المرح خلال ثلاثين سنة. وقد سجّل في ما بعد ذكرياته لمحطة التلفزيون الفضائية «العربية»، دون أن يذكر أنه كان ناطقاً باسم جلّاد بغداد.

وهنا يجدر التساؤل ماذا يقبع وراء هذا الشغف الوحشي بالإعدام الذي أبداه صدّام؟ هذه القسوة المضبوطة التي صارت جزءاً لا يتجزأ من وجود ذلك النظام(*)؟ لقد طرحت هذا السؤال يوماً على محمد حسنين هيكل، بينما كنّا جالسين على مرجة في مزرعته في منطقة دلتا النيل، وكانت الطيور البرِّية الملونة تنعب قربنا في أشجار النخيل، وكان الساقي يدور علينا بالجعة الباردة في أباريق لطيفة من الزجاج الأزرق.

بدأ هيكل بقوله: «سأروي لك قصة، يا روبرت»، مع العلم أن قصص هيكل تكون دائماً برّاقة؛ وعليك أن تبقى صامتاً طول الوقت، إذ إن ذكرياته

(*) كانت بلاد ما بين النهرين قاعدة لحكام لطفاء، ولكن ليس من المتعذر العثور على سوابق من القسوة. أثناء ثورة الزنج الإفريقيين في العراق من عام ٨٦٩ إلى عام ٨٨٣، حينما لم يستطع الخليفة المعتضد أن يقنع زعيم الزنوج المسمَّى «محمد شميلا» بأن يشي بأسماء رفاقه. ويقال أن «شميلا» قال له: «لو شويت جسدي لن أبوح باسم الشخص الذي عاهدته والذي اعتبره إماماً». فأمر الخليفة بأن يُعاقب كما قال. ويقال «إنهم أدخلوا قضيب حديد من إسته إلى فمه، ووضعوه فوق نار مضطرمة حتى مات، وهو يلعن الخليفة ويذمه بأبشع النعوت، ذلك الخليفة الذي حضر تعذيبه». وفي رواية أخرى، يقال بأن رجال الخليفة ربطوه بين ثلاثة رماح موضوعة فوق النار، وقلّبوه كطير الدجاج، «حتى فرقع جلده»؛ ثم علّقوه بالمشنقة في بغداد.

كان لها معنى التذكر الفذّ، كما كان لها وقع الأداء المسرحي. وهو يرفع يديه أمام وجهه وحاجبيه نحو السماء إذا أراد أن يعبّر عن صدمة، ويلوِّح بسيكار «هافانا» نحوي إذا ظن أني لستُ منتبهاً. لقد كانت القصص التي يرويها هيكل ذات لدغة ومغزى في طُرفها(*). لقد عرف هيكل صدّام حسين ـ وفي الواقع، عرف كل زعيم عربي تقريباً، وعومل على الأرجح بالاحترام أكثر من معظمهم ـ ولكن لم تكن لديه أية أوهام بخصوص حزب البعث.

قال هيكل: «خلال زيارتي الأولى لبغداد بعد الاستيلاء على السلطة قابلت وزير التخطيط، الذي كان لطيفاً، ومهذباً، ومثقفاً، فأحببته فوراً. وعندما عدت إلى العراق بعد فترة، طلبت أن أراه. وكلما سألت وزيراً أين هو، كان يتجنّبني. وكانوا يقولون عليك أن تسأل الرئيس صدّام عندما تقابله. وكلما سألت عنه تلقيت الجواب ذاته. وعندما وصلتُ إلى صدّام، سألته إذا كان باستطاعتي أن أرى وزير التخطيط مرة أخرى. نظر صدّام إليّ سائلاً: «ولماذا تريد أن تجتمع به؟». قلت: «لأنه بدا لي ذكياً ولائقاً». فنظر صدّام إليّ عندئذ جدّياً وقال: «لقد قطعنا رقبته!»، ففوجئت وأُخذت على حين غرّة. فسألت: لماذا؟ بماذا أخطأ؟ وهل لدى صدام إثبات على سوء فعله. فقال صدام: «لا نحتاج إلى إثبات. إن هذه ثورة دموية، وليست ثورة بيضاء، فالاشتباه كافٍ».

فوقفت مشدوهاً لا أنبس ببنت شفة. «نعم يا روبرت. إن هذا الإبريق الأزرق الذي تشرب منه هو إبريق عراقي، قدّمه لي صدّام حسين شخصياً كهدية». فوضعت عندئذٍ إبريقي على المنضدة.

أنا اليوم في طهران عام ١٩٩٧، أسكن في فندق رخيص وسط المدينة. ثم إنني في مطعم حميم، يقدِّم أباريق باردة من لبن الزبادي، وأمامي يجلس

(*) في كتابه عن «أبو الهول والقوميسَّار»، روى هيكل رد فعل «نيكيتا خروتشيف» على تدخينه السيكار قائلاً: «التفت خروتشيف فجأة نحوي، وسألني: لماذا أدخّن السيكار؟»، فأجبته: «لأني أحبّ السيكار». لكنه أمسك بسيكاري وسحقه في منفضة السجاير؛ فاعترضتُ. فقال: «إن السيكار شيء رأسمالي... وعندما عدتُ فقابلته عام ١٩٥٨، تركت سيكاري خارجاً، فسألني خروتشيف عنه، معلّقا بقوله: «أريد أن أسحقه ثانيةً».

الدكتور حسين شهرستاني. الحائز درجة الدكتوراه في الكيمياء النووية من جامعة «تورنتو»، والذي كان سابقاً المستشار العلمي الأول لمنظمة الطاقة النووية العراقية تحت حكم صدّام. وهو مسلم شيعي متزوج كندية، وله ثلاثة أولاد. قصته مخيفة، فصيحة، مثيرة، وفظيعة، تستحق أن تروى بكاملها، بكلماته، دون مقاطعة من صحافي. وها هي بقلم الدكتور شهرستاني نفسه:

«في عام ١٩٧٩، حصلت ردة فعل ارتجاعية من قبل النظام في العراق، بسبب الناشطين من حوزة الشيعة. وفي الصيف، بدأ النظام بإعدامات وتوقيفات على نطاق واسع. أما أنا فقد أدليت بما شغلني بشأن حقوق الإنسان في اجتماعات الطاقة النووية. وكنت أعلم أهميّتي بالنسبة إلى برنامجهم النووي - وظننت أنهم لن يوقفوني لإدلائي بشواغلي. وأردت أن يطّلع صدّام على ما قلته. وكنت مخطئاً؛ إذ قبل ذلك بقليل، أوقف النظام وأعدم أحد أبناء عمي «علاء شهرستاني» - الذي كان في شهر العسل مع زوجته، ولم يمضِ على زواجهما سوى ١٤ يوماً. لم يكن منتسباً إلى أي حزب. أُوقف في الشارع وسُحب إلى التعذيب، وجاؤوا بزوجته وأخته ليشهدا ما يحلّ به في غرفة التعذيب. لقد أنزلوا به تعذيباً بشعاً؛ وهددوا زوجته بحضوره؛ وصدموا رأسه في الجدار بشدة حتى هزّ الجدار. ثم قتلوه.

وأثناء ذلك، صار صدّام رئيساً للجمهورية، وجاء ليرانا ويقول لنا إنه سيغيّر توجّه «منظمة الطاقة النووية» العراقية، لتعمل على ما سمّاه «مشاريع استراتيجية»، وحتى تموز/ يوليو ١٩٧٩، كنا منشغلين بالتطبيقات السلمية البحتة للطاقة النووية. وكنت مع الدكتور زياد جعفر مستشارين لصدّام. كنا علماء مدرّبين حسني السمعة على الصعيد الدولي. وكنا أيضاً صديقين حميمين. وقد ناقشت الأمر معه قائلاً: «إذا أراد صدّام تطبيقات عسكرية، فلن أستطيع الاستمرار في هذه المؤسّسة».

وفي ذلك الوقت، لم نُعِر المسألة كبير اهتمام، نظراً لأننا كنا نعلم محدوديات العراق. فافترضت أني سأرمى في هذه الحال خارج المؤسّسة. جاءوا إلى منظمة الطاقة النووية، عندما كنت أتكلم مع مجلس المديرين بتاريخ

٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩، مستأذنين: «هل لنا بكلمة مع الدكتور حسين»؟ وحالما خرجت معهم، قيّدوا يديّ، وأكرهوني على الركوب في سيارة، وأخذوني إلى رئاسة الأمن في بغداد. وهناك أخذوني إلى مدير الأمن الدكتور فاضل بَراق، الذي أعدمه صدّام فيما بعد. قال لي إن بعض الموقوفين الذين اقتيدوا إلى رئاسة الأمن أعطوا اسمي. أنكرت أي تورّط في الأحزاب السياسية، وقلت إني مسلم ممارس، لكنني لم أشارك في أية أنشطة تخريبية.

ثم أحضروني إلى رجل أعرفه هو «جواد زبيدي»، مقاول البناء، الذي عذّبوه إلى درجة أني لم أقدر على التعرّف عليه. قال جواد: «إني أعرف الدكتور حسين. إنه يأتي إلى المسجد ويشارك في الأنشطة الدينية». وكانت «الأنشطة الدينية بالنسبة إليهم: أنشطة ضد الحكومة. قالوا لي: «من الأفضل أن تتكلّم لئلّا تندم على عدم الكلام». ثم أخذوني إلى غرفة التعذيب في القبو؛ فعصبوا عيني، ودفعوني على درج غرفة التعذيب. كانت قاعة كبيرة. وكانت يداي موثقتين خلف ظهري؛ وسحبوني في الهواء بيدي حتى صار الألم لا يحتمل بعد خمس دقائق. ثم أعطوني صدمات في الأمكنة الحسّاسة من جسمي. وفي آخر الضرب تصبح عارياً. كما كانت هناك صدمات في مواضع أخرى من جسمي بالإضافة إلى الأعضاء التناسلية.

وجاءوني بعد ربع ساعة قائلين: «وقِّع». وكنتُ بحالة عرق بارد جداً. إنهم يعرفون أنه سيغمى عليك. أنزلوني وأعطوني راحة قصيرة فنمت لعدة دقائق. لكن ذلك استمر ليلاً ونهاراً، ليلاً ونهاراً، لمدة ٢٢ يوماً. وكان يقوم بذلك أربعة منهم بالتناوب. وكان يقف هناك «براق» الذي حصل على درجة دكتوراه في علم النفس العسكري من موسكو. وعند نقطة معيّنة، قال: «يا دكتور حسين، سأخبرك ما هي مشكلتك. أنت تعتقد أنك ذكي، وأننا أغبياء. قد تكون ذكياً في حقلك، لكننا نعلم ماذا نفعل. قلْ لنا ماذا تعلم، وخلِّصنا».

عرفت صدّام وعرفني، ولكن قد يحدث لي هذا الأمر. أذكر أنه قال لي: «أنت عالم؛ وأنا سياسي. وسأخبرك ما هي السياسة. اتخذ قراراً. وأخبر أحدهم بعكس ذلك. ثم أقوم بعمل قد يفاجئني أنا».

كانت تقنيات التعذيب في بغداد مسألة رتيبة، ومتنوّعة من حيث قسوتها. والصدمات الكهربائية يمكن أن تحصل أينما كان. لكنهم قد يحرقون الأعضاء التناسلية للناس تارة، ويستمرون في ذلك الإحراق حتى يحرقوها كلها. وكذلك الأمر بخصوص أصابع القدمين. ويضربون الناس طوراً بالحديد على المعدة أو على الصدر. لكنهم كانوا معي حذرين، بحيث لا يتركون أثراً على جسدي. رأيت رجلاً ضربوه بالحديد على معدته. وهم يستعملون المثاقب لفتح ثقوب في العظام، والأذرع، والسيقان. رأيت أحد الضباط المدعو «نجيب حميد»، أذابوا قدميه بالحمض (الأسيد). وكان هناك أيضاً طريقة تعذيب أخرى، يضعون بها حمض الكبريت في حوض، ويبدأون بتذويب يدي الضحية. وقد ذوّبوا مرة عبد الصاحب دخيل من حزب «الدعوة»(*). وقال لي بَراق: «هل سمعت بشأن دخيل؛ ذاك هو المكان الذي ذوّبناه فيه».

وفي نهاية مراحل التعذيب، لديهم طاولة بمنشار كهربائي. وباستطاعتهم أن ينشروا يداً أو قدماً. والأكثرية من الناس تتكلم. ومن لا يتكلمون هم استثنائيون. فعدنان سلمان مسؤول حزب الدعوة، رفض الكلام. رأيتهم يجلبونه؛ وفي ذلك الوقت تجمّعت لديهم اعترافات كثيرة من قِبل رجال آخرين عذّبوهم. وكان عدنان سلمان معلّماً عارفاً بأمورهم ـ وكان مستعدّاً. قال لهم: «اسمي عدنان سلمان. أنا مسؤول عن حزب «الدعوة» ولا أحد من هؤلاء الناس مسؤول عن أنشطتنا. وهذا آخر كلامي معكم؛ فلن تستخرجوا مني أية كلمة أخرى». جلبوا ثلاثة أطباء وهددوا بأن يعدموهم إذا مات عدنان تحت التعذيب. لم يفه ببنت شفة. وكنت تسمع أحياناً الأطباء يبدون خوفهم لأنهم لم يستطيعوا أن يعيدوه إلى وعيه. كنت آنذاك في غرفة أخرى للتعذيب وكنتُ أسمع كل شيء. وكنت في سجن «أبو غريب» عندما علمت أنهم أعدموا عدنان؛ إذ لم يمت تحت التعذيب».

أخبرني أحد الأسرى الشباب البالغ من العمر ١٧ سنة، وكان أصغر

(*) أنظر تفاصيل أخرى في بعض الصفحات التالية من هذا الفصل.

السجناء، بأنهم جعلوه يكنّس وينظّف داخل رئاسة الأمن كل صباح عند الساعة السابعة. وفي هذه الأثناء رأى امرأة فلّاحة من مستنقعات الجنوب، وعليها وشم؛ ومعها فتاة بعمر العاشرة وصبي بعمر السادسة تقريباً؛ وتحمل طفلاً بين ذراعيها. روى الأسير أنه بينما كان ينظّف تقدّم ضابط من المرأة وسألها: «أخبريني أين زوجك، لئلا تحدث لك أشياء سيّئة جداً». فأجابته: «إن زوجي يعتزّ بالمحافظة على سلامة زوجته، ولو عرف أني هنا لجاء وسلّم نفسه». فأخرج الضابط مسدسه، وأمسك الفتاة بجدائل شعرها، وأفرغ رصاصة في رأسها. لم تعرف المرأة تماماً ماذا يحدث. ثم أفرغ رصاصة أخرى في رأس الصبي؛ فجنَّت المرأة. ثم أمسك الطفل برجليه وسحق رأسه بالجدار وباستطاعتك أن تتصوّر حالة المرأة. وطلب الضابط من الأسير الشاب أن يأتي بعربة القمامة، وأن يضع الأولاد الثلاثة فيها على ظهر القمامة، وأن تجلس المرأة على جثثهم. وأخذ العربة إلى الخارج وتركها. ويبدو أن الضابط معتاد على التخلص من الناس الذين لا قيمة لهم.

أخذوني إلى المحكمة الثورية؛ وكان «مسلَم الجبوري» هو القاضي؛ وكان هناك لواءان من الجيش على كل جانب من جانبيه. سألوني عن اسمي، وعمّا إذا كان لديّ شيء أريد قوله. وكانت التهمة أني «أداة للصهاينة» و«جاسوس إسرائيلي» و«أني أعمل مع الأميركيين» و«أتعاون مع الإيرانيين». وأدركوا أني لست عضواً في حزب الدعوة. فأصدرت المحكمة حكمها عليّ ـ ذلك الحكم المحضَّر سلفاً قبل أن يأتوا بي إليها ـ بالسجن المؤبّد؛ حتى أن المحامي الذي كان يدافع عني طلب إعدامي. ولم يكن له سوى تصريح خطي واحد تقدّم به: «إن هذا الشخص قد أقفل أبواب الرحمة ـ أنزلوا به أقسى عقوبة». فقلت للمحكمة: «إن هذه الدولة التي تحكمون فيها، أسّسناها بدمائنا. لقد عاقب البريطانيون والدي، وكنتُ أنا رئيساً للجمعية الفلسطينية في «تورنتو». فشخص بهذه الخلفية لا يمكن أن يكون عميلاً لإسرائيل». فقال المحامي: «إذن، أنت جاسوس للروس». قلت: «إن شجرة عائلتي ترقى إلى النبيّ محمد (ص)».

ساقوني إلى سجن «أبو غريب»، وألقوا بي في زنزانة صغيرة مع وجود

أربعين شخصاً بداخلها. وعندما غادرتها في أيار/مايو ١٩٨٠ صار عددنا ستين شخصاً لكل زنزانة. وتصوّرت أن هناك ثلاثة أحكام بالموت إزاء كل حكم واحد بالسجن. وهكذا، كلما ذهب ألف شخص ليسجنوا في «أبو غريب»، فمعنى ذلك أن هناك إزاءهم ثلاثة آلاف إعدام. وفي شهر أيار/مايو المذكور، أخذوني إلى رئاسة «المخابرات» وكان التعذيب هنا أسوأ بكثير. ففي مركز التعذيب السابق، كان يسمح بنسبة ١٠ في المئة من حوادث الموت؛ بينما سمح هنا بمئة في المئة. وكان الرئيس هو برزان التكريتي، رئيس وفد حقوق الإنسان الذي أرسله صدّام إلى جنيف. وقد أحضروا الدكتور زياد جعفر إلى التعذيب لأنه قال لصدّام إن البرنامج النووي لا يمكن أن يستمرّ دون وجود الدكتور الشهرستاني، وأن العراق بحاجة إلى الدكتور الشهرستاني الكيميائي. فتلقّى صدّام هذا القول كتهديد. لم أرَ جعفراً أبداً. وقد عذبوا عشرين شخصاً أمامه حتى الموت. وهكذا رضي بأن يعود إلى عمله.

وفي يوم من الأيام، جاءوني، فحلقوا ذقني، وحمَّموني، وجلبوا لي بيجاما جديدة، وحملوني بسيارة إلى شقة تبدو كأنها في قصر، فيها غرفة نوم، وغرفة جلوس، وفيديوات، وتلفزيون... ثم جاء في يوم آخر برزان التكريتي وعبد الرزاق الهاشمي ـ الذي أصبح سفير العراق في فرنسا خلال احتلال الكويت عام ١٩٩٠. كان بعثياً، وسخيفاً جداً، يحمل دكتوراه في علم طبقات الأرض من الولايات المتحدة الأميركية. وكان نائباً لرئيس منظمة الطاقة النووية العراقية؛ وقد وقف عند الباب كحارس. كنت مستلقياً هناك، ويداي مشلولتان تماماً. فجاءني رجل، يقول: «أنت لا تعرفني، ولكننا نعرفك معرفة جيدة. لقد صُدم صدّام عندما سمع أنك موقوف ـ وغضب على جماعة المخابرات. فهو يعرف إنجازاتك العلمية. إنه يريدك أن تعود إلى عملك في منظمة الطاقة النووية. فقلت: «إني ضعيف جداً، بعد الذي عانيته». قال: «نحن بحاجة إلى قنبلة نووية». ثم أضاف برزان التكريتي: «إننا بحاجة إلى قنبلة نووية لأنها تعطينا يداً طولى لمعاودة تشكيل الشرق الأوسط. ونحن نعرف أنك الرجل الذي يقدر أن يساعدنا في هذا السبيل». أخبرته بأن كل أبحاثي منشورة في

أوراق بحث، وأني لم أقم بأي بحث في الأسلحة الحربية. وبالتالي، لست الرجل الذي تبحثون عنه للقيام بهذه المهمة. قال: «إني أعرف ماذا تقدر أن تفعل ـ وكل شخص لا يريد أن يخدم وطنه، لا يستحقّ أن يبقى حيّاً».

تأكدت من أنهم سيعدمونني، فقلت: «أتفق معك في أن من واجب الرجل أن يخدم وطنه؛ ولكن ما تطلبه مني ليس خدمة لوطني». فأجاب: «يا دكتور حسين، ما دمت توافق على أن من واجب الرجل أن يخدم وطنه، فالباقي تفاصيل. عليك أن ترتاح الآن، لأنك تعب». بعد ذلك، أبقوني في عدة قصور لعدد من الأشهر. وجاءوا بزوجتي لتراني مرة في قصر كان بيتاً لعدنان حمدان، أحد أعضاء مجلس الثورة الذي أعدمه صدّام. ولكنهم أدركوا أني لن أتعاون معهم؛ فأرجعوني إلى سجن «أبو غريب». أمضيت هناك ثماني سنوات؛ ولم يكن يسمح لي بالكتب، أو الجرائد، أو الراديو، أو أي اتصال مع أي كائن بشري.

كنتُ أعلم أني على الصراط المستقيم. ولم أندم يوماً على الموقف الذي اتخذته. نمت على أرض الإسمنت في زنزانتي، تحت حرام من حرامات الجيش، يعجّ بالقمل. كانت هناك حنفية، وسطل بمثابة مرحاض. وكانوا يعطونني صحناً واحداً من الطعام يومياً، وفي العادة يخنة فيها بعض اللحم. عانيت من ألم مبرِّح في الظهر بسبب نومي على أرض الإسمنت. كنت أبتكر أحاجي رياضية، وأحلّها. فكرت في الناس الذين قبلوا النظام، والذين كان بوسعهم أن يحاربوه عندما كان ضعيفاً، ولم يفعلوا ذلك. وكلما فكرت في ذلك، زادت قناعتي بأني قمت بالعمل الصحيح؛ وعرفت أن عائلتي ستتفهّم أسباب ذلك. تمنّيت لو تأخذ زوجتي الأولاد وتغادر البلاد. فذلك كان سيخفّف من معاناتي. ولكنها قالت إنها لن تغادر البلاد ما دمتُ على قيد الحياة».

هذه هي قصة حسين الشهرستاني الباحث الذي هرب في آخر الأمر من سجن «أبو غريب»، خلال غارة جوية أميركية حدثت في شباط/ فبراير ١٩٩٠، بعدما ساعده أصدقاء له على أن يتنكّر بزي ضابط مخابرات عراقي. بعد ذلك

وجد لنفسه طريقاً عبر السليمانية إلى إيران. وتتذكر زوجته «برنيس» أنها قامت مرة بزيارة زوجها في السجن، فلم تكد تتعرف على وجهه، إذ قالت: «تعرفتُ على ثيابه فحسب، لكني عرفتُ أنه هو، من دمعة ترقرقت على خده».

وبعد نقل الدكتور الشهرستاني من سجن «أبو غريب» إلى أحد القصور بشهرين تماماً، قرَّر صدّام أن ينكر ما كان قد أقرَّ به للشهرستاني في العام السابق: بشأن خطته لامتلاك أسلحة نووية. وقد راقبت هذا الأداء النموذجي لصدّام، في ٢١ تموز/يوليو ١٩٨٠، أمام مئات من الصحافيين ـ بمن فيهم أنا ـ في قاعة الجمعية الوطنية العراقية غير الديمقراطية. ربما كانت القاعة بالغة الكبر، لأنه عندما دخل، كان الانطباع عنه أنه رجل بالغ الصغر، يرتدي سترة فضفاضة مثنية على الصدر وكأنه قائد بسيط بربطة عنق ساطعة وسترة لامعة. لم يبدأ بموجة الابتهاج التي يتبنّاها العديد من قادة العرب، بل بتحية رسمية طويلة، مثل وضع الجندي المضطرب أمام ضبّاط كبار. ولكن عندما تكلّم، رفع الميكرفون صوته ـ عن قصد، دون شك ـ إلى حجم «الأخ الأكبر»، بحيث كان يهدر نحونا بتهكمه وغضبه عن حقد وغلّ، لا عن انفعال. ويمكنكم أن تتصوّروا كيف يكون النقد الذاتي أمام مجلس قيادة الثورة.

أنكر صدّام أن بلاده كانت تخطط لإنتاج أسلحة نووية؛ بغضب الحاكم المستبدّ المطلق من أن يفكّر أحد في أن العراق أراد أن يصنع قنبلة نووية؛ مع الإشارة إلى أن العرب قادرون تماماً على صنعها لو اختاروا ذلك. وقد أدان أيضاً غزو السوفيات لأفغانستان، والتدخّل الأميركي العسكري في الخليج، وسخر من قيادة حزب البعث في سوريا، واتَّهم رجال الأعمال البريطانيين بالرشوة، وقلَّل من شأن التقارير الدقيقة عن القلاقل الكردية في العراق، قائلاً: «ليس لدينا برنامج يتعلّق بصنع قنبلة نووية؛ ليس لدينا مثل هذا البرنامج الذي يحمل إسرائيل على إحباطه... إننا نريد استعمال الطاقة النووية للأغراض السلمية».

كانت حجّته بارعة. قال: «نشر الصهاينة في أوروبا، منذ عدة سنوات، أخباراً تفيد أن العرب قوم متخلّفون، وأنهم لا يفقهون التكنولوجيا، وأنهم

بحاجة إلى من يحميهم. فالعرب لا يعرفون سوى أن يركبوا الجمال، وأن يبكوا على الأطلال، وأن يناموا في الخيم. ثم عادوا قبل سنتين مع من يدعمهم إلى الادِّعاء بأن العراق قارب إنتاج قنبلة نووية. فكيف يستطيع قوم لا يعرفون سوى ركوب الجمال أن ينتجوا قنبلة نووية؟ إن العراق وقّع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية؛ ولكن لم يسأل أحد: هل يصنع الإسرائيليون قنابل نووية في مركزهم النووي في «ديمونا» بصحراء النقب. إن البلدان العربية على عتبة عصر جديد؛ وسينجحون في استخدام الطاقة النووية. وسيتمكن ملايين العرب من استعمال هذه التكنولوجيا المتقدمة». وكرَّر صدّام استعمال تعبير «الانشطار الثنائي» (Binary)، كما لو قام العراق بفلق الذرّة.

وضمَّن صدّام كلامه إشارات إلى «الأمّة العربية»، وإلى روح جمال عبد الناصر ـ الذي كرَّر اسمه في ثلاث مناسبات ـ في محاولة لاسترجاع الأحداث. فبالنسبة إلى نظامه، كان يعتبره آية تجسّد الفلسفة العربية النقية، وبالنسبة إلى شخصه كان يرى نفسه الطامح إلى قيادة العالم العربي. ولكنه لم يستطع تفادي الإشارة إلى الحقيقة بصرخته التالية: «كل من يريد أن يعادينا، عليه أن يتوقع منا أن نكون عدواً مختلفاً تماماً في المستقبل القريب». لقد بيَّن غرضه: إذا كان العرب قادرين على استعمال التكنولوجيا النووية المتقدمة في المستقبل القريب، وإذا كان عدوّ إسرائيل سيصير «مختلفاً تماماً»، فذلك لا يعني سوى أنه ينوي امتلاك أسلحة نووية. ولم يكن سراً أن المفاعل النووي العراقي «أوزيراك» كان على وشك التلزيم خلال خمسة أشهر فقط.

ثم جاء دور الكلام عن إيران. قال إنه يعتقد بحق الإيرانيين في تقرير مصيرهم؛ ولكن الخميني صار «قاتلاً بين بني قومه». وعند نقطة معيّنة، بدأ صدّام يتكلم عن (٣٥ ٠٠٠) عراقي شيعي من أصل إيراني طردهم من العراق ـ لكنه لم يذكر عددهم، ولا أن العديد منهم يحملون جوازات عراقية ثم توقف عند منتصف الجملة، بقوله: «طردنا بعض الناس من أصل إيراني، أي أناساً لا ينتمون إلى العراق. ولكن الآن إذا أرادوا أن يعودوا...». وكان ذلك تحذيراً ينذر بالعقوبات التي ينوي أن ينزلها بالثورة الإيرانية.

استمرّ مؤتمر صدّام الصحفي حتى بواكير الصباح التالي. وفيه تكلّم دون رؤوس أقلام؛ وكان دائماً يرتجل خطابه وهو مستغرق فيه، كما كان يفعل الرئيس السادات المصري؛ ولو كانت المقارنة لا تمدحه. وقد سجّلت في تقريري المرسل إلى «التايمز» في اليوم التالي أنه «عندما يبتسم الرئيس ـ وقلّما يفعل ذلك ـ تلاقيه حدّة التصفيق من وزرائه ومن موظفي حزب البعث. وعندما يكون بعضنا قريبين منه، بعد خطبته، يصافحنا. وقد سجلت في مذكراتي، أن يده «طريّة ورطبة».

وبعد سنتين، حدث أن «ريتشارد پريم»، رئيس غرفة الخرائط في مكتب ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا في شارع «داوننغ»، استعمل الكلمات ذاتها «طريّة ورطبة» عندما وصف لي خبرته بمصافحة جوزيف ستالين، القدوة التي حذا حذوَها صدّام بوعي. وقد ذكر أحد الذين كتبوا سيرة حياة ستالين، أن صدام آلى على نفسه في السبعينيّات من هذا القرن أن يزور جميع «الڤيلّات» التي كانت لستالين على شاطىء البحر الأسود عند «أبخازيا»، وعددها ١٥، وبينها قصور كانت للقيصر. ويُعتقد أن صدّام استوحاها ليبني لنفسه قصوراً ملكية شاسعة دون فائدة في شتّى أنحاء العراق»(*).

ولكن بالنسبة إلى الغربيين، كان صدّام بمثابة شاه جديد قيد الإعداد للغرب، وعبد الناصر للعرب؛ كما اشتبهت، من حضوري مؤتمره الصحفي المذكور آنفاً. فشخصيته كانت قد تمذهبت على هذا النحو. فقد أراد أن يكون صيغة جديدة من الخليفة هارون الرشيد، كما يقال في بغداد ـ فهو سيصبح عمّا قريب صيغة أكثر إقلاقاً من محارب عربي قديم ـ إذ تعمَّمت صورة وجهه على كل البلد، باللباس الكردي، وبالكوفية العربية، وبلباس رجال الأعمال، وهو يحفر خنادق بلباس رجال العصابات، ومسدّسه على خصره على طريقة عرفات،

(*) وقد وجد «سيمون سيباغ مونتيفيوري» أموراً متوازية أخرى. فقد كانت «غوري»، مسقط رأس ستالين في «جورجيا»، لا تبعد أكثر من ٨٠٠ كيلومتر عن بلدة صدام «تكريت». وقد نشأ الرجلان في حضن والدتين قويتين طموحتين، ظلمتا من قبل والديهما؛ وكلاهما عُزِّزا من قبل رجال دين محترمين، لكنهما خانا الأمانة.

وعلى عملة الدينار العراقي. لقد كان، كما وصفه شاعر محلّي متذلّل: «شذا العراق، ونخيله، ومصبّ نهريه، وشواطئه ومياهه، وسيفه، ودرعه، والنسر الذي تبهر عظمته السماوات. فالعراق منذ وجد، كنت أنت له المنتظر والموعود».

وكان صدّام قد عوّد نفسه على زيارة العراقيين في بيوتهم من وقت إلى آخر، ليسألهم: هل هم سعداء؟ ـ وبالطبع كانوا كذلك ـ وكان زميلي «طوني كليفتون» من «النيوزويك» شاهداً شخصياً على مثل هذا. وخلال مقابلة مع الرئيس، تهوّر «كليفتون» وسأل صدّام: هلّا يقلق بشأن اغتياله؟ فاصفرّ المترجم من الخوف، وعقب ذلك صمت طويل. ويذكر «كليفتون» «أن صدّام كان يعرف بعض الإنكليزية وفهم السؤال: ثم قال له المترجم شيئاً، فانفجر صدّام ضاحكاً، وربّت على كتفي وهو يستمرّ في الضحك، وقال: «أخرج الآن من هذه الغرفة إلى الشارع، واسألْ أياً كان في العراق: هل تحبّ صدّام؟» ثم تابع ضحكه مع كل الموجودين في الغرفة. ولو فعلتُ ذلك، لأجابوني بأنهم يحبونه طبعاً»(*).

ورث صدّام السلطوي الإطار القبائلي والديني ذاته الذي جابه البريطانيين عندما احتلوا العراق عام ١٩١٧. وكانت حوزة الشيعة الكبرى مستبعدة من الحكم، إنما تهدّد دائماً حزب البعث الذي يسيطر عليه السنّة. فلهم أماكنهم المقدّسة المذهَّبة في النجف وكربلاء كرموز على تفرُّدهم في حضن الإسلام؛ فضلاً عن أكثريتهم الساحقة في إيران. وما دام الشاه يحكم جارة العراق الشرقية فلا خوف من النفوذ الطائفي. ولكن بعد خلع الشاه، كان البعثيون أول من أدرك التهديد الذي يمثله الشيعة في البلدين كليهما.

(*) مع أنه كان متعذّراً أن نقوّم الرأي العام تحت حكم صدّام، فقد كنت أستطيع التكلّم مع بعض الأصدقاء العراقيين في بيوتهم. وفي مقال كتبته «للتايمز» بتاريخ ٣٠ تموز/ يوليو ١٩٨٠، سجلت أن العديد من العراقيين «أقرّوا حتى على انفراد بأن الاستقرار تحت حكم الرئيس صدّام حسين أفضل من الفوضى الاجتماعية التي قد تحدث، إذا أطلقت الحريات فجأة على الطراز الليبرالي الغربي». وبعد ٢٤ سنة تأكدت مخاوفهم من الفوضى، كما يحدث الآن في العراق.

نازع الشيعة حول قيادة الإسلام، منذ القرن الثامن عندما اغتيل الإمام علي، صهر الرسول محمد (ص)، في الكوفة. واعتقدوا أن سلالته المتمثلة بالأئمة هي الخلف الشرعي للرسول. وإن تعلّقهم بالاستشهاد والموت من شأنه أن يمثّل تهديداً لأي عدوّ، إذا ظهر في حرب حديثة. أما السنَّة فقد أصبحوا أقوياء تجارياً لمزاملتهم المماليك والأتراك. وكان نفوذ السنّة بُني على ضعف الشيعة في العراق؛ مع مسعى صدّام إلى إبقاء الوضع على تلك الحال. ولكن هذا التباين يتفاقم باستمرار ـ كما حصل في المملكة العربية السعودية، ذات الغالبية السنِّية ـ لوجود معظم نفط الشرق الأوسط صدفةً تحت الأراضي التي يسكنها المسلمون الشيعة: في جنوبي العراق، وفي شمالي شرقي العربية السعودية، وبالطبع في إيران، حيث غالبية السكان شيعية.

وقد تسامح صدّام مع الشاه منذ أن حجب الشاه دعمه للتمرّد الكردي في الشمال. والأكراد، مثل الشيعة، خُدعوا تكراراً من قِبل الغرب وإيران. واتُّفق على جعل الحدود العراقية ـ الإيرانية على طول شط العرب. وكان صدام متهيئاً للسماح بإقامة آية الله الخميني في النجف حيث سكن، بعد طرده من إيران؛ إنما مُنع من تعاطي أيّ نشاط سياسي؛ لكن الخميني لم يأبه لذلك. فقد أعطى أتباعه شرائط كاسيت عبّر فيها عن اشمئزازه من الشاه، وتصميمه على قيادة ثورة إسلامية، مع دعمه للقضية الفلسطينية. وكان من أقرب مناصريه في النجف حجة الإسلام علي أكبر محتشمي ـ الذي صار فيما بعد سفيراً لإيران في سوريا، والذي أرسل حرّاس الثورة إلى لبنان عام ١٩٨٢، والذي سجنته السلطة العراقية ثلاث مرّات(*). ولكن سفير الخميني الديني كان آية الله السيد محمد باقر الصدر، أحد أكبر رجال الدين الشيعة في النجف نفوذاً وتأثيراً، والذي كتب عدداً من الأعمال المحترمة في الاقتصاد الإسلامي والتربية الإسلامية.

(*) وقد سُجن محتشمي في العربية السعودية وفي الكويت، لكنه أخبرني بعد سنوات أن «أياً من ذلك لم يفتّ في عضُدي، ولم يُعِقْ أو يؤثر على معتقداتي أو على تصميمي؛ لا بل إن ذلك جعلني وطيد العزم على المحاربة والجهاد ضد الولايات المتحدة الأميركية، وإسرائيل، وجميع وكلائها من حكومات وبلدان».

وقد دعا هو أيضاً إلى ثورة إسلامية في العراق، معتمداً ـ مثل حسين شهرستاني ـ على أهمّيته السياسية لتحميه من الهلاك. وحالما طرد صدّام الخميني ـ إلى تركيا، ومنها إلى باريس ـ صار باقر الصدر في خطر قاتل. وإزاء ثورة إسلامية مشتعلة في إيران، لم يكن لدى صدّام أي وخز ضمير في شلّ يد الخميني اليمنى في النجف، ناهيك بأتباعه. وبدأت المعاناة. فأوقف باقر الصدر، المريض في بيته، وأودع السجن في بغداد ـ ليفرج عنه بعد قيام مظاهرات واسعة في النجف ضد النظام، ثم أعلن حزب البعث عن وجود المعارضة المسلّحة المتمثلة بحزب «الدعوة»، وانقضّ على مناصري باقر الصدر. وأورد الإيرانيون فيما بعد أسماء الشهداء الأوائل للثورة الإسلامية في العراق. حجّة الإسلام الشيخ عارف البصري، وحجّة الإسلام السيد عزيز الدين القبنجي، وحجة الإسلام السيد عماد الدين طبطبائي تبريزي، والأستاذ حسين جلوخان، والأستاذ نوري طعمه. وقرّر حزب البعث سحق تأثير مدارس الشيعة الدينية في النجف، عن طريق نشر قوانين جديدة، تلزم كل المعلمين بالانضمام إلى حزب البعث. فأعلن باقر الصدر إذ ذاك أن مجرّد الانضمام إلى حزب البعث «تحرّمه القوانين الشرعية الإسلامية». وقرّر ذلك مصيره ـ وهو مصير لم يُرد صدّام أن يكشف عنه أولاً.

وشاعت على مدى شهور تقارير عن إعدام باقر الصدر في الخارج ـ دون صدور توكيد من النظام. ولكن، عندما طلبتُ أن أزور النجف عام ١٩٨٠، أخبرني أحد موظفي البعث الحقيقة؛ إنما بالطريقة البعثية القاسية. كان يوم **٢٣** تموز/ يوليو يوماً قائظاً، عندما وصلت إلى مكتب حاكم النجف البعثي المهيب «مصبان القاضي»، أحد أعضاء الحزب الأعلى مقاماً، والمؤتمن على الأسرار الشخصية لصدّام حسين. وقبل وقت الغداء في شهر رمضان الذي لا غداء فيه، وبينما كان ميزان الحرارة يشير إلى ٥٤,٤ درجة مئوية، جاءني الإقرار، جواباً عن سؤالي: «هل أعدم آية الله باقر الصدر؟».

قال القاضي: «ليس لي علم بآية الله باقر الصدر؛ ولكنني أعرف محمد باقر الصدر، الذي أُعدم، لأنه كان خائناً، وتآمر على العراق، وحافظ على علاقاته

مع الخميني. لقد كان عضواً في حزب «الدعوة». وقد كان مجرماً وجاسوساً؛ ولم تكن له علاقات مع الخميني فحسب، بل أيضاً مع وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وقد أعطت السلطات جثته إلى أقربائه ـ ليقبروه في وادي السلام؛ ولكن عائلته لم يلحق بها ضرر. ولا تزال تعيش في النجف».

أذكر كيف كان مكيِّف الهواء يُهسهس في ناحية من الغرفة، أثناء تكلّم القاضي. لقد تكلّم بنعومة، وملت أنا نحوه لأسمع كلماته. وكان ذلك كافياً لإرسال وخز انفعالي على طول العمود الفقري لأيّ سامع. فالخميني قلَّل من احترام حُماته السابقين؛ وهذا كامن في قلب النظام البعثي الذي قام بالكثير ليساعده. قال القاضي بلطف: «يتكلّم الخميني عن حشود الناس التي أتت لترى باقر الصدر في غيابه. ولكن ذلك الرجل أقرَّ في المحكمة أنه تجسّس. لقد شُنق منذ أكثر من خمسة أشهر. ولكن هذه أمور صغيرة تسألني عنها. إننا في العراق نُعدم كل خائن. ولماذا يطرح المراسلون أسئلة غير هامة مثل هذه؟ ولماذا لا تسألني عن مشاريع التنمية في النجف؟».

إن هذا التذكار كئيب نابذ للرجل الذي رافق الخميني خلال ١٤ سنة من النفي. وادي السلام هو مقبرة يتمنّى ملايين من الشيعة أن يدفنوا فيها، إذ إنها لا تبعد سوى بعض مئات الأمتار عن المقام الذهبي للإمام علي. وقد أُذن لعائلته أن تقيم له مأتماً إسلامياً تقليدياً. وهو يرقد الآن في قبر ضيّق بين مئات الألوف من القبور المتراصّة المحدودبة التي يعتقد الراقدون فيها أن قربهم من المرقد الأخير للإمام عليّ يؤمّن لهم الشفاعة الشخصية يوم القيامة لهذا المحارب المقدّس الذي توفّاه الله منذ زمن بعيد. ولكن كان هناك أيضاً قبر آخر قرب قبر باقر الصدر أنبأنا عنه أحد موظفي حزب البعث من الشباب، الذي أسعده أن يوسِّع قصّة الحاكم الوحشية.

قال: «شنقنا شقيقته أيضاً. وقد أُلبس كلاهما كفنين أبيضين للشنق. وقد شُنقت بنت الهدى في الوقت نفسه تقريباً. لم أر عملية الشنق، لكني رأيت باقر الصدر المشنوق فيما بعد، خارج سجن «أبو غريب». لقد شنقوه علناً. وكان بثوبه الديني مع قماش أبيض فوقه؛ ولكن دون عمامة. وفيما بعد أنزلوه

ووضعوه في تابوت خشبي، وأوثقوه على ظهر سيارة. ثم أُخذ إلى النجف. لماذا تسألون عنه، لقد كان شخصاً سيّئاً».

إن تاريخ حزب البعث في العراق يمكن أن يكتب بدم العلماء وعائلاتهم، وكيف أن زوال علماء الشيعة أصبح موضوعاً مخيفاً على مدى السنوات القادمة. ومن المعروف، أن الإمام موسى الصدر، زعيم الطائفة الشيعية في لبنان وأحد أقرباء باقر الصدر، اختفى بينما كان يزور ليبيا في آب/أغسطس عام ١٩٧٨. ولد في «قُمّ»؛ وكان رجلاً طويلاً ملتحياً، يبدو أصغر من أن يبلغ من العمر ٥٠ سنة. وقد دعي لزيارة ليبيا بمناسبة الاحتفال السنوي التاسع بثورة العقيد القذافي. وبحسب رواية إحدى الصحف اللبنانية، كان كل ما لديه ليتكلم عنه في العاصمة الليبية، هو الحالة في إيران. فهل قُبض عليه من قبل شرطة الشاه السرِّية المسمّاة «السافاك»؟ أو هل أخفاه القذافي من أجل صدّام؟ كان من المفترض أنه استقلّ طائرة «أليطاليا» على الرحلة ذات الرقم ٨٨١ المغادرة إلى روما بتاريخ ٣١ آب/ أغسطس في طريقه عائداً إلى بيروت. وقد ظهرت أمتعته على مَدْوَرة مطار «فيوميسينو» بإيطاليا ـ ولكن لم يكن على الطائرة لا هو ولا الصحافي اللبناني الذي كان يرافقه. ولا يزال كثير من الشيعة في لبنان يأملون بعودة إمامهم؛ بينما يحاول غيرهم اليوم اتّهام القذافي. إن موسى الصدر الذي أسّس حركة أمل في لبنان، لم يعد يُرى.

وفي النجف، رُوِّع الشيعة بالتهديد. لم يكن أحد يذكر اسم باقر الصدر في المدينة المغبرة، التاريخية بمسجدها المجيد المبني حول ضريح الإمام علي صهر الرسول وابن عمّه. وقد استغرب أحد المشرفين على مواقف السيارات وهزَّ كتفيه متعجّباً من جهلي، عندما ذكرت أمامه اسم باقر الصدر. وكانت اللافتات المنصوبة في شوارع النجف في ذلك الشهر القائظ، شهر تموز/ يوليو، كلّها تمدح كرم صدّام ـ وقد صُمِّم كل شعار منها شخصياً بواسطة أصحاب الحوانيت المحلّيين؛ كما أصرّ على هذه النقطة أحد موظفي وزارة الإعلام ـ وفي إحدى الطرق ارتفع علم أحمر صغير، وعليه ما معناه: «ليسقطْ نظام الخميني، الكاذب والخائن، وليتبعثرْ أشلاء».

كان آية الله أبو القاسم الخوئي الكبير والأكبر سناً، هو الوراث الشرعي للزعامة الشيعية في النجف. ولكنه كان رجلاً يعتقد أن الناس يجب أن تعطي ما لله لله، وأن تعطي ما للبعث لصدّام؛ ولم يكن له التأثير اللازم لتهدئة القلاقل ـ كما لم يستطع ضبط الغوغاء خلال التمرّد الذي حصل في جنوب العراق عام ١٩٩١. لم يُسمح لنا بمقابلة هذا الرجل الكهل. ولكن الحاكم كان مستعداً ليأخذني إلى البيت الذي كان يسكن فيه الخميني. وهو عبارة عن مبنى من طابق واحد له جدران مكسوّة بالطلاء المتقشّر. وكان موقعه في طريق سمّيت بما يناسبه ـ شريعة الرسول ـ في الضاحية الجنوبية من النجف.

يقولون لك إن للبيت باباً خشبياً مطليّاً؛ وهذا صحيح. لكن حرّ الظهيرة حجزنا في الظلّ، حيث كانت تهبّ علينا موجات حارّة من الأزقة حتى بتّ لا أرى سوى بيوت مقفلة، وشوارع أحادية اللون، الوجه السلبي لمدينة كُرِّست لهويّة العبادة وهويّة الموت. ولا نشكّ في أن آية الله الخميني قد أحبّ إقامته هناك.

ولكن المدينة كانت تمرّ بحالة تغيّر. فهناك تعبيد للطرق؛ كما أن مشروعاً بنائياً أزال من الوجود أحد البيوت «الأمينة» للخميني، والحكومة العراقية تبذل قُصارى جهدها لتأمين حاجات الشيعة في الأقدس من المدن. أضف إلى ذلك مصانع جديدة كانت تُبنى لجهة الشمال، وأكثر من مئة مدرسة حديثة ـ كاملة بمعلّميها البعثيين ـ كانت قد أنجزت، مع شبكة من المراكز الصحّية، والفنادق، وصفوف مباني الشقق المتلاصقة. وكان الحاكم يزدهي بأن يجعلني أمرّ بسيارته المرسيدس البيضاء عبر الشوارع الجافة الشديدة الحرارة، مشيراً بإصبعه القصير السمين نحو السوق الشرقية.

قال مصبان القاضي: «إني أعرف كل شخص هنا، وأحبّ هؤلاء الناس، وهم يبادلونني ذلك بإظهار مشاعرهم الحقيقية لي». ووراءنا كانت تسير سلسلة من سيارات الشرطة المرافقة؛ وهي تخرخر في ذلك الحرّ الرهيب. وكان «القاضي» شيعياً، ولكنه لم يكن من النجف، بل من ولاية قريبة اسمها «ديالا». كان يأتي إلى مسجد الإمام عليّ كل يوم، كما يدّعي، ويشير إلى علم منصوب

فوق فسيفساء المقام، وكان عليه مقطع من خطبة لصدّام يقول: «نشعر ببالغ السعادة، لوجود والدنا الكبير علي؛ لأنه أحد زعماء الإسلام، وصهر النبي (ص) ولأنه عربي».

وقد كرَّر الموظفون البعثيّون هذه النقطة: إن كل العراقيين الذين هم من أصل إيراني طُردوا من النجف. وقال القاضي بنزق: «لو اتصلت بي البارحة تلفونياً لأعطيتك العدد». وكانت الرسالة عبارة عن أن الإسلام الشيعي هو نتاج الحضارة العربية لا الفارسية. وقد ورد هذا الموقف تكراراً. ألم يقدّم صدّام شخصياً مجموعة من البوّابات المرصَّعة بالذهب لمقام النجف، وسعر كل منها لا يقل عن مئة ألف دولار أميركي؟ مشى الحاكم ببطء في السوق عبر الطريق. ولما كان الشهر شهر رمضان، كانت مصاريع الحوانيت مغلقة، وحارّة جدّاً لو مسستها لأحرقت جلدك. ولكن كان هناك كشك عطور لا يزال مفتوحاً، فجلس «القاضي» بثقله على مقعد متداعٍ؛ بينما كان البائع الثرثار يصبّ زيوته الفوّاحة الدافئة في قوارير.

سعل القاضي قائلاً: «اسأله هل يحبّ المعيشة في النجف». لكنني سألته عما إذا كان يتذكر الخميني، فأومضت عيناه عبر الموظفين القريبين منه، وقال بعناية: «نحن كلّنا نتذكّر الخميني؛ سكن هنا ١٤ سنة. وكان كل يوم يذهب للصلاة في المسجد، وكان أهل النجف يتجمّعون حوله بالآلاف لحمايته ـ فقد اعتقدنا أن الشاه قد يرسل شرطة «السافاك» لقتله؛ ولذلك كنّا نقف حوله في المقام». ثم جاءت لحظة صمت، بينما كان الموجودون حوله يقوِّمون حسَّه النقدي.

ولكن الحاكم قال: «هاكَ ولداً صغيراً يحبّ أن يقول لك رأيه في الخميني». وصرخ ولد صغير فقير يلبس عباءة قذرة: «الخميني خائن» بابتسامة فارغة. فأيَّد جميع الموظفين قوله، باعتباره يمثل المشاعر الحقيقية للناس في النجف. لم يرَ «القاضي» الخميني أبداً، لكنه يؤكد واثقاً أنه كان عميلاً لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)؛ حتى أن «الخوئي» أرسل برقية إلى «قمّ» يستنكر فيها قتل المسلمين الأكراد في شمالي إيران. وقد يكون الخوئي قد فعل ذلك ـ

مع العلم أن زميله المعلّم آية الله صاحب الحكيم قد أعدمه النظام ـ ولكن لم تُستثنَ عائلته. ففي عام ١٩٩٤، وبعد سنتين من وفاة الخوئي قُتل ابنه محمد تقي البالغ من العمر ٣٦ سنة، عندما اصطدمت سيارته بشاحنة متمفصلة غير مضاءة على الطريق العام خارج كربلاء. لقد كان ينتقد صدّام دائماً لاضطهاده الشيعة؛ وقد أخبر أصدقاءه في العام الماضي بلندن أنه من المرجح أن يموت على يد صدّام. ولم تجرَ له ولابن أخيه البالغ من العمر ست سنوات والذي مات معه، مراسم الدفن العادية، بناء على طلب السلطة.

وبعد أربع سنوات اغتيل آية الله الشيخ مرتضى البوروجردي. وهو يعود إلى بيته بعد صلاة العشاء من مقام الإمام علي. وهو من أبرز الباحثين والقانونيين في النجف، ومن تلاميذ «الخوئي» الأب، ومن أصل إيراني. وكان قد ضُرب في العام الفائت، ونجا من محاولة قتل عندما ألقيت عليه قنبلة يدوية. وذلك لأنه رفض أن يمتنع عن إقامة الصلاة في مسجد المقام. وكان آية الله علي السيستاني، مرجع التقليد الأساسي، لا يزال تحت الحجز في منزله؛ بينما كان البعثيون يروّجون لمن هو أكثر مطاوعة منه «السيد محمد صادق الصدر»، ابن عم الصدر الذي أُعدم. لكن صادق ذاته اغتاله مسلّح في النجف بعد تسعة أشهر من إصداره فتوى يدعو فيها الشيعة إلى حضور صلاة الجمعة، بالرغم من اعتراض الحكومة على تجمّع الحشود. كما أن يوسف ابن «الخوئي» ـ أخا تقي ـ ألقى اللوم على البعثيين، ونشب الشغب في أحياء الشيعة الفقيرة في مدينة صدّام ببغداد. ولكن تاريخ مقاومة الشيعة لم ينتهِ مع سقوط صدّام. فقد انبرى «مقتدى» ابن صادق الصدر لقيادة تمرّد ضدّ الاحتلال الأميركي للعراق، بعد خمس سنوات، في عام ٢٠٠٤؛ ممَّا جلب الدبّابات الأميركية إلى شوارع النجف ذاتها، التي مرَّت فيها مدرّعات صدّام، ولإثارة معارك مسلّحة عبر «مدينة الصدر» التي غيّر السكان اسمها بعدما أعدم صدّام باقر الصدر، من «مدينة صدّام» إلى «مدينة الصدر».

هؤلاء كانوا أبرز العراقيين من أصل عشرة آلاف عراقي قُتلوا خلال حكم صدّام الذي دام ٢٤ سنة. وقد نكّل النظام أكثر ما نكّل بالأكراد، والشيوعيين،

والشيعة. وإني أجد في ملفّاتي التي جمعتها منذ السبعينيّات والثمانينيّات من القرن العشرين، الكثير من المنشورات السيّئة الطبع الصادرة عن «الاتحاد الوطني الكردستاني» وعن اتحادات التجارة العراقية، وغير ذلك من الجماعات الصغرى للمعارضة، تذكر آلافاً من الرجال والنساء الذين أعدموا. وبينما كنتُ أقلّبها، عثرت على عدد من مجلة الاتحاد الوطني الكردستاني المسمّاة «الشرارة» (Spark) صادر بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٧، يُشتكى فيه من أن قوّات من البعث العراقي ومن قِبل شاه إيران قد حاصرت أنصار هذا الاتحاد في قرية «حلبجة» الشمالية، ويورد بالتفصيل أسماء القرى التي طُرد منها سكّانها الأكراد؛ فضلاً عن ذكر أن أربعمئة شخص من أعضاء هذا الاتحاد الكردي قد أُعدموا، أو اغتيلوا، أو عُذّبوا. وكان هناك أيضاً كرّاسة للاتحاد صادرة بتاريخ ١٠ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٧٧ تروي طرد ٣٠٠ ٠٠٠ كردي إلى جنوبي العراق. كما كان وهناك كذلك قائمة مخيفة من مجموعات شيوعية، تورد أسماء ٣٧ عاملاً عراقياً أعدموا أو «اختفوا» خلال عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣ ومنهم: «عامر قدير»، عامل في مصنع التبغ بالسليمانية ـ عُذّب حتى الموت؛ و«علي حسين»، عامل نفط من كركوك ـ أُعدم؛ و«مجيد شرهان»، فلّاح من الحلّة ـ أعدم؛ و«صدّام موهر»، موظف مدني من البصرة ـ أُعدم. . . وكان الموتى من الحدادين، والبنّائين، والطابعين، وعمّال البريد، والكهربائيين، وعمّال المصانع. ولم يكن أحد بمأمن.

لم تكن هذه الحالة الدائمة من قتل الجماهير عبر العراق خافية على أحد، خلال السبعينيّات والثمانينيّات. ومع ذلك كان الغرب صامتاً، أو مُديناً لذلك إدانة خفيفة. ومن أبرز الأمثلة الفاضحة على علاقاتنا الملطّخة بالعار مع النظام العراقي، تصريح رئيس بلدية باريس آنئذٍ «جاك شيراك» بأنه يكنّ للرئيس العراقي صدّام حسين: «الاحترام، والاعتبار، والودّ»؛ عندما زار صدّام باريس عام ١٩٧٥. وخلال ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، تورّط أفراد من السفارة العراقية في باريس، في معركة مع الشرطة الفرنسية، بعدما حجز مسلّحان عربيان بعض دبلوماسييهم. وقُتل في هذه المعركة مفتّش شرطة فرنسي وجرح شرطي؛ ولكن العراقيين الثلاثة الذين قاموا بهذا العمل تحصّنوا بالمناعة الدبلوماسية وسُمح لهم

بالمغادرة إلى بغداد بتاريخ ٢ آب/أغسطس عام ١٩٧٨، بعد يومين من عملية القتل. وانهمرت على العراق لمدة ١٥ سنة مختلف أنواع التصديرات الوافدة من الخارج الغربي، ومنها: اعتمادات التصدير والكيميائيّات، والطائرات المروحية الأميركية، والطائرات النفَّاثة الفرنسية، والغاز الألماني، والآليات العسكرية البريطانية. وكان قد سبق للعراق أن استعمل الغاز لقتل آلاف من الجنود الإيرانيين. عندما قام «دونالد رامسفيلد» بزيارته المرموقة إلى بغداد عام ١٩٨٣، ليصافح يد صدّام ويطلب منه السماح بمعاودة فتح السفارة الأميركية. وكانت أول وآخر مرّة زرت فيها القنصلية الأميركية هناك، بعد زيارة «رامسفيلد». وقد أكد لي أحد أشباح وكالة الاستخبارات الأميركية الشباب آنذاك أنه لم يعد يخاف من السيارات المفخخة، لأن له «ثقة تامّة في الأمن العراقي».

واعتُبرت مشاريع العراق آنذاك في ميادين محو الأمية، والصحة العامة، والعمران، والاتصالات، إثباتات على أن حكومة البعث كانت جوهرياً كريمة، أو تستحق الاحترام على الأقلّ. وقد وجدتُ في ملفّاتي أيضاً مقالات عديدة ظهرت في الصحافة الغربية، وهي تكاد تركّز حصراً على مشاريع العراق الاجتماعية. ففي عام ١٩٨٠ مثلاً، نشرت مجلة إدارة الأعمال في الشرق الأوسط (8 Days)، مقالاً طويلاً، كُتب بتهكّم لا شعوري، جاء فيه: «إن العراقيين الذين يتخلّفون عن حضور دروس القراءة، يمكن أن يدفعوا غرامة أو يودعوا السجن، لأن دروس محو الأميّة إلزامية. وقد تبدو مثل هذه التدابير قاسية. ولكن تجدر الإشارة إلى أن العراق يدخل سنته الثانية من حملته الحكومية لمحو الأمية، وأن النتائج التي حصل عليها نالت تقريظ الأمم المتحدة».

في عام ١٩٧٧، أجرت «دبلن صنداي برس» التي توقّفت اليوم عن الصدور، مقابلة مع «تشارلس هوغي» وزير المالية الإيرلندي السابق لم يرد فيها أي ذكر لانتهاك حقوق الإنسان في العراق. ولم يكن عسيراً أن نعرف السبب. فقد بدأ النص بتتويج عن «السوق الهائلة القادمة لمنتوجات إيرلندا في العراق؛ بما في ذلك الغنم، والبقر، والألبان والأجبان، ومتطلبات صناعة البناء... كما قال لي «تشارلس هوغي» بعد عودته من زيارة أسبوع لتلك البلاد». وقد علمنا أن «هوغي» وزوجته «مورين» كانا «ضيفين على الحكومة العراقية الاشتراكية التي

مضى على وجودها تسع سنوات»، فصار باستطاعته أن يطّلع على «الوضع السياسي والاقتصادي هناك، والمساعدة في تعزيز علاقات أفضل بين إيرلندا والعراق على الصعيد السياسي». وقد قابل هوغي «المدير العام لوزارة التخطيط، صدّام حسين»، وصرّح بأن «الوجه الأساسي للعراق الحديث هو التصميم التام لقادته على استعمال الثروة المجنية من الموارد النفطية العراقية لصالح الشعب...» وأخبر المقال قرّاءه «بأن حزب البعث، تسلّم الحكم في تموز/ يوليو عام ١٩٦٨ دون إراقة قطرة دم».

وقد فهم البريطانيون النظام العراقي فهماً جيّداً. ففي عام ١٩٨٠، اقتحم مسلّحون السفارة الإيرانية في لندن. وكانوا من «المنظمة السياسية للشعب العربي في عربستان»، تلك الزاوية الصغيرة الواقعة جنوبي غربي إيران، والمسماة «خوزستان». وقد انتهى الحصار بدخول شرطة (SAS) المبنى، والقبض على أحدهم، وقتل أربعة آخرين، وإعدام الخامس، قبل أن تلتهم النار ذلك المبنى(*). وبعد ذلك بأقل من ثلاثة أشهر، وبتاريخ ١٩ تموز/يوليو ١٩٨٠، دهشت عندما تلقيت مخابرة تلفونية في الفندق الذي أنزل فيه ببغداد، ودعوتي من قبل السلطات العراقية لحضور مؤتمر صحفي تعقده المجموعة العربية ذاتها التي اقتحمت السفارة. وانبرى منها «ناصر أحمد ناصر» البالغ من العمر ٣١ سنة؛ وهو متخرج في الاقتصاد من جامعة طهران، يتهم البريطانيين «بالتآمر» مع إيران على عرب المنطقة، ويطالب بإعادة جثث المسلّحين الخمسة إلى العراق.

كان ناصر ذا شاربين، يضع نظارة سوداء، ويرتدي قميصاً أسود وسروالاً متغضّناً. تكلّم بهدوء وبنظرة مستقبلية إلى ردّ الفعل على القتل، قائلاً: سنثأر،

(*) وقبل أيام من حدوث الحصار، كنتُ قد زرتُ السفارة، طالباً سمة سفر للدخول إلى إيران؛ وطُلب مني ترك جواز سفري لإنجاز المعاملة. وبعد حصول الحريق، توجب عليّ إرسال خبر إلى «إيفان بارنز»، رئيس تحرير القسم الأجنبي في الصحيفة، من بيروت، يقول: «علينا أن نفترض أن جوازي الثاني الآن قد احترق بجانب الجثث المتفحّمة في السفارة». وقررت استعمال جوازي الأول للحصول على سمة من الدبلوماسيين في السفارة الإيرانية في بيروت» آملاً أن لا يحدث انفجار آخر في السفارة، وأبقى دون وطن، وأن لا أضطر إلى محاولة دخول إيران دون سمة، إذا لم أحصل عليها.

لأن عدونا الثاني الآن هو إنكلترا». وادّعى أنه حُكم عليه بالموت غيابياً في إيران. ولكن مجرّد وصوله إلى المؤتمر ودخوله إلى مكاتب وزارة الإعلام العراقية الوثيرة، أوضح أن حكومة بغداد تناصر قضيّته تماماً، وقد تكون وراء اقتحام السفارة في لندن. وقد قام موظف ذو مقال عال في الوزارة بترجمة تلك الخطبة المنمَّقة.

كان عرب «خوزستان» يسعون إلى الاستقلال عن نظام الخميني؛ وقد أُعدم أو سجن العديد من أبناء تلك المقاطعة المتمرّدين، بحسب قول ناصر. وقد جرى اقتحام السفارة من أجل إطلاق سراح المسجونين. ووافق ناصر على أن هناك «رابطة» بين المتمرّدين وحزب البعث وكان علينا أن نستفسر منه عن ذلك. «فحزب البعث العربي الاشتراكي يرفع شعار: «أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة». وهو شعار مجيد نتبعه». فماذا يعني ذلك؟ بعد التفكير، كان علينا أن نستوعب أهمّيته: كان صدّام يحضّر لتحرير قطعة أرض من إيران في المستقبل، على شاكلة «السوديت»، أو «دانزيغ».

ولكننا طبعاً، سألنا عن الحصار في لندن، بدلاً من مغازي دعم العراق للمتمرّدين. قال ناصر: «عندما ذهبنا إلى السفارة الإيرانية في لندن، لم نكن ننوي أن نقتل فنحن لسنا إرهابيين. اخترنا الحكومة البريطانية كمفاوض، لأنها بلد ديمقراطي، وأردنا أن نستفيد من هذه الديمقراطية. وقد عرف البريطانيون ـ وعرف العالم أجمع ـ أننا لم نقصد قتل أي كان... ولكن انتظرنا ستة أيام، ولم يستجيبوا لطلبنا، أو ينشروا مطالبنا. وقطعوا خطوط التلكس والتلفون... ما كان ينبغي لهم قتل شبابنا. كان بوسعهم أن يأسروهم، ويحاكموهم».

وحمَّل ناصر القاضي الإيراني «صادق خلخالي» مسؤولية تعذيب العرب في «خوزستان» بقوله: «إنه يستخدم معذّبين يكسرون السيقان، ويطلقون النار على الأذرع، قبل قتل الضحايا بالسكاكين» ـ وقد ادَّعى أن العرب في تلك المقاطعة قبلوا أولاً الثورة الإيرانية، لأنها «جاءت باسم الإسلام»، لكنهم اليوم يريدون الاستقلال، «مثل الأكراد، والبلوشيين، والأتراك». وعندما سألناه: «كيف جاء مقتحمو السفارة بالأسلحة إلى بريطانيا؟»، أجاب: «كيف جلب الفلسطينيون

أسلحة إلى «ميونيخ»؟ وكيف يجلب الثوار الإيرلنديون أسلحة إلى بريطانيا؟ نحن قادرون على أن نفعل مثلهم». ولكن، لم يسأل أحد: «هل وصلت الأسلحة إلى لندن في الحقيبة الدبلوماسية العراقية؟ وناصر نفسه جاء من مرفأ «خرمشهر» الإيراني، مستعملاً تعبير «المحمّرة» للدلالة على ذلك المرفأ. وهكذا ستكون «المحمّرة» «دانزيغ».

ولكن بريطانيا لم تحتجّ لدى العراق بسبب الحصار ـ أو لأجل المؤتمر الصحافي غير الاعتيادي المنظّم بوضوح من قِبل الحكومة العراقية. لقد كان ذلك صمتاً فصيحاً. وبالطبع، كان هناك تساؤل حول علاقة بريطانيا المريحة مع العراق. فقد دارت مناقشة في «مجلس اللوردات» عام ١٩٨٩، بعد سنة من انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية التي دامت ثماني سنوات، وبعد توقيف مراسل «الأوبزرفر» في بغداد «فرزاد بازوفت»، وصديقته الممرضة «دفنه باريش» ـ عندما سأل اللورد «هايلتون»: «كيف تبرّر الحكومة البريطانية عملها في توفير رصيد جديد للعراق يبلغ ٢٥٠ مليون جنيه مع أن ذلك البلد يحتجز رعايا بريطانيين دون محاكمة، ويرفض إطلاق سراح أسرى الحرب مع إيران بعد وقف إطلاق النار، وله سجلّ في انتهاك حقوق الإنسان».

فأجابه اللورد «تريفغارني» عن الحكومة قائلاً: «لا شكّ في أن الحكومة العراقية تعرف اهتمامنا بالمواطنة البريطانية المحتجزة «مسز باريش»، وحول سجلّ العراق بخصوص حقوق الإنسان... لكننا أمّة متاجرة بصفة رئيسية. وأخشى أنه لا بد لنا من أن نتعامل تجارياً مع عدد من البلدان، لا نوافق على سياساتها... نحن لا نبيع سلاحاً للعراق». فردّ عليه «هايلتون» بقوله: «مع أني أقدّر أن بلدنا هو بلد متاجر... فإني أتساءل أليس الثمن الذي ندفعه غالياً؟». وتوقّفت المناقشة عند هذا الحدّ دون أي تعليق آخر.

أما «بازوفت» المولود في إيران، والذي لديه أوراق تعريف بريطانية دون الجنسية، فقد زار «الحلّة» في العراق بسيارة «باريش» مستطلعاً دلائل تثبت أن العراق ينتج أسلحة نووية. وقد أوقف وهو في المطار يحاول مغادرة بغداد، واتّهم بالتجسّس، وأحيل على المحاكمة مع «باريش» تحت خطر الموت. وبعد

شهر صرّح وزير الخارجية «وليم والدغريف»، بأنه «يشكّ في وجود سوق مستقبلية على نطاق واسع، في أي مكان للمملكة المتحدة فيه مكانة متينة، إذا لعبنا اللعبة السياسية لعباً جيّداً؛ كما لا أستطيع أن أتصوّر وجود سوق هامة حيث يكون أثر الدبلوماسية كبيراً على وضعنا التجاري. إنما يجب أن لا نسمح بأن يفوز بها الفرنسيون، أو الألمان، أو اليابانيون، أو الكوريون إلخ...» وأضاف: «وإذا حصلت حالات قليلة أخرى مثل حالة «بازوفت» أو استجدّ قتال للقمع الداخلي، فإن ذلك يعسّر الأمر». وقد سطّر «والدغريف» كلماته بعد أشهر من استعمال صدّام الغاز في «حلبجة». وقرّر «جيوفري هوي»، نائب رئيس مجلس الوزراء، أن يقلل من تقييد بيع الأسلحة إلى العراق ـ ولكنه أبقى الأمر سرّاً، لأنه «سيبدو من السخرية بمكان، أن نتبنّى أسلوباً متسامحاً في بيع الأسلحة إلى العراق، بعدما استنكرنا معاملة الأكراد فيه».

وقد حُكم على «بازوفت» بالموت بتاريخ ١٠ آذار/ مارس ١٩٩٠، فهاجمت «الأوبزرفر» صدّام بسبب هذه الإدانة ـ وربّما لم يكن ذلك قراراً حكيماً في تلك الظروف ـ وتطوّع «دوغلاس هيرد» وزير الخارجية بالذهاب إلى بغداد لمقابلة الرئيس العراقي. ولكن بحسب قول وزارة الخارجية العراقية، «لا يتدخّل صدّام تحت الضغط السياسي». ولكن، بدأت إذ ذاك عملية رتيبة شرسة، أوضحها لي البحث الذي أجريته في بيروت. فمنذ عام ١٩٦٨، كانت العادة أن المدانين «بالجاسوسية» يعترفون بذلك الإثم على التلفزيون؛ ثم يُعدمون. وفي عام ١٩٦٩، اعترف محافظ بغداد بالتجسّس على شاشة التلفزيون، ثم أُعدم. وظهر «بازوفت» على التلفزيون واعترف بالتجسس ـ ولم يكتشف أصدقاؤه إلّا فيما بعد أنه عُذّب بالكهرباء خلال استجوابه. وفي شباط/فبراير ١٩٦٩، وقبل إعدام سبعة «جواسيس»، أعلن راديو بغداد أن الشعب العراقي «عبّر عن إدانته للجواسيس»؛ ثم أُعدموا. وفي أيار/مايو ١٩٦٩، صفّق ممثلو اتحاد الفلاحين لقرار الرئيس البكر «قطع رؤوس أعضاء حلقة الجواسيس العاملين لصالح وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA). وأعدموا على الأثر، كما ينبغي. وخلال زيارة من زيارات صدّام التي لا تنتهي إلى مجموعات الأقلّيات في العراق، سأل صدّام جمهوراً غفيراً من الأكراد: هل يجب أن يُشنق «الجاسوس البريطاني»؟

فهتفت جوقتهم، بالإيجاب طبعاً. إنها التقنية البعثية القديمة ذاتها: إجعلْ الشعب يتّخذ القرار ـ بعد أن يعلم ماذا يجب أن يكون القرار ـ ثم عليك أن تطيع إرادة الشعب.

وفي صباح ١٦ آذار/مارس ١٩٩٠، أُعلم «رابين كيلي» أحد الدبلوماسيين البريطانيين في بغداد أن «بازوفت» سيشنق اليوم. فوصل إلى سجن «أبو غريب»، ووجد الرجل غير دارٍ بمصيره، وهو يحاول أن يقدّم استرحاماً لصدّام. وكانت وظيفة «كيلي» أن يخبره بالحقيقة؛ لكنه أبى أن يلبّي حضور دعوة الشنق. وبعد ثمانية أيام، كان أربعة عمال في مطار «هيثرو» يرفعون تابوته ويخرجونه من إحدى طائرات الخطوط الجوية العراقية القادمة إلى لندن. ولم يكن في استقبال ذلك التابوت أي موظف من وزارة الخارجية، أو قريب، أو صديق. فنقل التابوت إلى سقيفة شحن ريثما يدفن. وحكم على صديقته «دفنه (دي) باريش» بالسجن ١٥ عاماً. وكانت آخر كلمات «بازوفت» للدبلوماسي «كيلي»: «بلغ «دي» بأني آسف».

وخلال السنوات الأولى من حُكم صدّام، كان هناك صحافيون يقولون الحقيقة بشأن النظام، بينما فضّلت الحكومات أن تبقى صامتة إلى حدٍّ كبير، بسبب محافظتها على مصالحها المالية، والتجارية، والاقتصادية. ولكن بعضنا ممَّن عارضوا الغزو الأميركي ـ الإنكليزي للعراق عام ٢٠٠٣، اتّهموا حالاً بأنهم «ناطقون» باسم صدّام، أو على كل حال «مناصرون لبقاء النظام البعثي». مع العلم أن «ريتشارد پيرل» كان من بين كل الناس، من أول المحرِّضين على نشوب تلك الحرب الكوارثية، مع صديقه «دونالد رامسفيلد»، الذي كان يحاول مصادقة صدام وتأييده عام ١٩٨٣. وبعد سنتين من مقاربة «رامسفيلد» للزعيم العراقي ـ واجتماعاته المتكرّرة مع طارق عزيز خلال الأشهر اللاحقة ـ كنتُ أقدّم تقاريري إلى «التايمز» عن اغتصاب زُمر صدّام وتعذيبهم للموقوفين في السجون العراقية. وبتاريخ ٣١ تموز/يوليو عام ١٩٨٥، اشتكى «وهبي القراغولي» السفير العراقي في لندن إلى رئيس تحرير «التايمز»، «وليام ريس موغ»، قائلاً:

«إن مقال روبرت فيسك المتحيِّز جداً، يتجاهل التقدّم الهائل الذي أحرزه العراق في ميادين الإنعاش الاجتماعي، والتربية، والتنمية الزراعية، والعمران المديني، وتصويت النساء. وهو يدّعي، دون تقديم أي إثبات، بأن «صدّام ذاته يفرض نظاماً إرهابياً على شعبه». ومن أكثر أقواله إهانة «أن نقّاد النظام الذين يُشتبه بهم يسجنون في سجن «أبو غريب»، ويُجبرون على رؤية زوجاتهم يُغتصبن جماعياً من قِبل عصابات الأمن «الصدّامية». وقد أُجبر بعض السجناء على أن يشاهدوا تعذيب أطفالهم أمامهم». إننا نشجب تماماً أن يقوم بعض الصحافيين، دون براهين داعمة، بترداد مزاعم طائشة لا أساس لها بشأن بلدان مثل العراق...».

وكانت تلك التعابير: «متحيّز جدّاً»، «دون أي إثبات»، «مهينة»، «نشجب تماماً»، «مزاعم طائشة لا أساس لها»، هي ذاتها التي استعملها الأميركيون والبريطانيون، بعد حوالى عشرين سنة، بشأن تقارير كتبتها وكتبها زملائي الصحافيون الذين سجّلوا بعض وجوه الغزو غير القانوني للعراق، وعواقبه الكارثية. وفي شباط/فبراير عام ١٩٨٦، رُفِض طلبي للحصول على سمة للسفر إلى بغداد على أساس «أن زيارة أخرى للسيد «فيسك» إلى العراق تعطي تقاريره مصداقية مفرطة». طبعاً كان الأمر كذلك(*). وهكذا بقينا في بلاد الغرب كل هذه السنوات ـ حتى غزوه للكويت عام ١٩٩٠ ـ متسامحين مع قسوة صدام، وظلمه وتعذيبه للناس، وجرائم الحرب والقتل الجماعي التي ارتكبها. وفي الواقع، إننا ساعدنا في تخليقه وتكوينه. فقد أعطت وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) الحكومة البعثية الأولى في العراق أماكن الأُطر الشيوعية، من أجل توقيفهم، وتعذيبهم، وإعدامهم، بالمئات. وكلّما تقدّم صدّام نحو الحرب

(*) إن مهنيّتي «المشجوبة تماماً» كان لها الفضل، على الأقلّ، في إثارة الطرفين على حدٍّ سواء. ففي صيف ١٩٨٠ أخبر «طوني آلوواي»، مساعد «التايمز» في طهران، محرّرنا للشؤون الدولية «ايڤان بارنز» بأنه لم يستطع الحصول على إذن عمل لي في طهران لأن المسؤولين الإيرانيين «كانوا مستائين جداً بسبب وصولي إلى طهران من دون تأشيرة دخول صالحة، وأيضاً بسبب الاستمارة التي ملأتها. وقد صرّحوا له بأنهم لن يسمحوا لي بالدخول أبداً بعد اليوم»... إن مشكلة تأشيرة دخولي سببها احتراق جواز سفري الثاني في السفارة الإيرانية في لندن.

مع إيران زاد خوفه من شيعة العراق، وساعدناه نحن الغربيين. وفي موكب الشخصيات المكروهة، التي نصَّبتها الحكومات الغربية فضلاً عن الصحافيين على المسرح السياسي ـ كان هناك «ناصر»، و«القذافي»، و«أبو نضال»، وفي وقت ما «عرفات» ـ بينما كان آية الله الخميني «البعبع» أو الغول بالنسبة إلينا في أوائل الثمانينيّات. رجل الدين المزعج، الذي أراد أن يؤسلم العالم، والذي صرّح بعزمه على تصدير ثورته. وهنا برز صدّام لا كديكتاتور، بل «كرجل قويّ». لقد كان حُصننا ـ وحُصن العالم العربي ـ ضدّ «التطرّف» الإسلامي. وحتى بعد أن ضرب الإسرائيليون بالقنابل المفاعل النووي العراقي «أوزيراك» عام ١٩٨١، لم يضعف دعمنا لصدّام. كما لم نجابه قصد صدّام الواضح بجرّ بلاده إلى حرب مع إيران. فقد كانت دلائل هذا النزاع تنذر بوقوعه الوشيك أينما كان؛ حتى أن «شاهبور بختيار»، آخر رئيس وزراء لدى الشاه، كان يذكي نار المعارضة للخميني من العراق، كما علمت منه عندما زرته في منفاه الفخم ـ إنما الخطر ـ بباريس، خلال آب/أغسطس عام ١٩٨٠.

وكانت لدى «تشارلس دوغلاس هوم» رئيس تحرير القسم الأجنبي من «التايمز»، فكرة لملاحقة ما بقي من نظام الشاه؛ إذ قال لي على التلفون: «إني متأكّد من أن بختيار يحضّر شيئاً؛ علاوة على أنه يعرف الكثير ـ وأن ابنته مذهلة الجمال!». وكان محقّاً في الأمرين. مع أن بختيار ـ الناطق باللغة الفرنسية، والذي التحق بالجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية ـ يبدو مثيراً للإعجاب في صوره أكثر من واقعه. فصور الجرائد تظهره كرجل متين، له ملامح كاملة ومعبِّرة، وعيناه مضطرمتان تنذران بالرجوع إلى الديمقراطية الإيرانية. ولكن الحقيقة هي أنه رجل صغير الحجم، نحيله، خداه منقبضان، وثيابه أوسع منه بقليل، كشخصية صغيرة جالسة على أريكة كبيرة؛ يحرسه في الخارج سبعة من رجال الدرك بأسلحتهم الثقيلة.

وحتى في شقّته الباريسية، ومع ضجّة المرور في الشارع، وحفيف أوراق شجر الحور التي يداعبها النسيم بالقرب من النافذة في غرفة الجلوس، يمكنك أن تشعر بوجود فرق الاغتيال الإيرانية التي أرسلتها طهران لقتل بختيار. فعندما

جاءوا إليه منذ أقل من أسبوعين بقيادة «أنيس النقاش» اللبناني الإسلامي البالغ من العمر ٢٩ سنة، خلّفوا وراءهم امرأة ميتة، ورجلاً مقتولاً من الشرطة الفرنسية، ومقبض باب مسحوقاً بالرصاص، كذكرى من الفولاذ اللامع المثلوم الذي يقبع بجانب الطاولة على مقربة من رجلي «بختيار».

ولكن ذلك لم يفتّ في عضُد بختيار وتعبيره عن كرهه للخميني ولنظامه الثيوقراطي الديني. وقد اعترف لي، إنما بعد ساعة من الحوار، بأنه زار العراق مرّتين، ليتباحث مع موظّفي حزب البعث ـ المؤسّسة التي يصعب أن يُقال عنها أنها تمارس الديمقراطية الليبرالية التي يدعو إليها بختيار ـ وقد أذاع تصريحاً من الراديو السرِّي الذي يديره العراقيون على حدودهم مع إيران، والذي ينشر الدعايات ضد النظام. قال بختيار: «لماذا لا أذهب إلى العراق؟ لقد ذهبت إلى بريطانيا مرّتين، وذهبت إلى سويسرا وبلجيكا. ولذلك أستطيع أن أذهب إلى العراق للاتصال بأناس هناك. وقد دُعيت للتعاطي مع السلطات العراقية، ولديّ نقطة مشتركة مع الحكومة العراقية. إن العراق، مثل غيره من البلدان الإسلامية، يناهض الخميني بأكثرية ساحقة. ومن الممكن التعاون معه. إن هذه الإذاعة القائمة على الحدود مع إيران، تبثّ ما يحبّ الإيرانيون أن يسمعوه. وقد أذاعت تصريحي على شريط كاسيت. وهذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة عندما تتمركز الدكتاتورية في مكان ما».

كان بختيار، كسائر رجال الدولة الغربيين، يعاني من عقدة «تشرشل»، أي الرغبة في أن يبدو بأفضل مظهر في ظلّ التاريخ. قال: «عندما وصل الخميني إلى إيران، قلت: نجونا من دكتاتورية (الشاه) لنقع بين براثن دكتاتورية أدهى وأمرّ. فلم يصدّقني أحد. والآن لديهم كثير من الأمور التي يشتكون منها، ولكن ليس لديهم الشجاعة ليتفوّهوا بالشكوى. فإذن، لماذا يتكلّم الناس عن انقلاب؟ أعرف أن هناك رجالاً يؤيّدونني في الجيش. . . وأذكر أنه عندما كنت طالباً في باريس، كان هناك زعيم إنكليزي اسمه «ونستون تشرشل» يرى أخطار الدكتاتورية. لكن الناس الآخرين لم يقلقوا بشأن الدكتاتورية، وأرادوا أن يتعاطوا مع «هتلر». أما «تشرشل» فأخبرهم بأنهم على وشك الاندثار. وكذلك، عرفت أن السيّد الخميني لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجل إيران: إنه رجل لا

يفهم الجغرافيا أو التاريخ، أو الاقتصاد. ولا يمكنه أن يكون زعيماً لكل أولئك الناس في القرن العشرين، لأنه جاهل بشأن العالم».

وكان الشاه قد توفّي في مستشفى بالقاهرة، قبل مقابلتي لبختيار بستة أيام، ولكن لم يظهر عليه تأثر لفقدان مليكه السابق. قال: «إن موت شخص لا يسعدني، فلست رجلاً يرقص في الشارع لأن أحدهم مات، وهو ما زال حيّاً ـ حتى أني لم أفعل ذلك عندما مات هتلر. ويعلم الله بأني لستُ فاشياً، كما تعلم أنت. وقد كان الشاه مريضاً شديد المرض ـ وأعتقد أن الموت نفسه كان انعتاقاً معنوياً ومادياً بالنسبة إليه». وما كان بختيار يريده هو «حكومة مؤقّتة تعمل بدستور ١٩٠٦، وتدعو إلى جمعية تأسيسيّة، بهدوء ودون انفعال، وتدرس مختلف دساتير إيران». ولكن بختيار كان قد فقد اتصاله بما يجري في إيران بكل حسرة، وأصبح لا يدري أن ثورة الخميني لا رجوع عنها، لأنها تصرفت من جهة، مع أعدائها بشكل لا يرحم ـ بمن فيهم بختيار ذاته. فالنقّاش وفرقته الضاربة لم يتقنوا المحاولة الأولى لقتله(*). وحتى بعد أكثر من إحدى عشرة سنة، وبتاريخ آب/ أغسطس ١٩٩١، جاء مزيد من القتلة إلى منزل بختيار،

(*) وبعد مرور سنوات عديدة، أخبرني «النقاش» أنه مع رجاله المسلّحين ـ لبناني آخر، وإيرانيين، وفلسطيني ـ «حاولوا مهاجمة شقة «بختيار» وخابوا، لأن الباب كان مسلّحاً. قال: «ولم يكن لدينا سوى مسدّسات صغيرة. وعندما تتفحّص الباب لا تدرك أنه مسلّح أو غير مسلّح. وحصل تراشق بالعيارات النارية مع رجال الدرك الفرنسيين الذين كانوا يحرسونه. فقتل شخصان، وجرحتُ بذراعي وفخذي. ولم يرَ أحد المرأة؛ إذ إن الرصاصة اخترقت الباب وأصابت المرأة برأسها لسوء الحظ. وعندما صرت في المستشفى قال القاضي بأن هناك امرأة أصيبت فسألت: أية امرأة؟ إني لم أفهم. قلت: ذلك شيء سيّىء جداً، وشعرت بوخز الضمير. إننا لم نستشرف ذلك مطلقاً. لقد كانت بريئة. وقد اقترحت فوراً تعويض عائلة الضحية بحسب الشريعة الإسلامية، وكذلك عائلة الشرطي الفرنسي المقتول». وبرَّر «النقاش» سعيه مع رجاله لقتل «بختيار»، بقوله: «شعرت بخطر تكرار انقلاب، كالذي حدث ضد مصدّق. ولذلك قررنا مهاجمة «بختيار»؛ إذ إنه كان رئيس مؤامرة لإحداث انقلاب ضد الثورة، والرجوع إلى إيران... لم يكن لديّ أية مشاعر ضد «بختيار». إنها مسألة سياسية. ولم تكن القضية مسألة اغتيال. فقد صدرت إدانة بالموت عن المحكمة الثورية الإيرانية وتمَّت محاولة تنفيذها». وبحسب قول «النقاش»، جاءت البيِّنة الثبوتية على إعداد انقلاب من قبل «بختيار»، عن طريق أحد الضباط الإيرانيين الذي سلَّم السلطات أسماء ضباط آخرين تورطوا مع «بختيار»، فأُوقفوا وأعدم منهم أكثر من مئة.

وقطعوا رأسه هذه المرّة. وعندما اتُّهم أحد رجال الأعمال الإيرانيين بمساعدة القتلة، أخبر هذا الرجل المحكمة العليا أولاً إن بختيار «قتل ٥٠٠٠ شخص خلال مدّة ولايته كرئيس للوزراء التي لم تتجاوز ٣٣ يوماً في السلطة. وثانياً، كان يحضِّر لانقلاب في إيران، وثالثاً، أنه تعاون مع صدّام حسين خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية...»(*).

وبينما كان صدّام يخطّط لتدمير الثورة الإيرانية، كان الخميني أيضاً يدعو إلى قلب نظام صدام والبعث، أو ما سمّاه «العفلقيين»، نسبة إلى «ميشال عفلق» السوري مؤسس حزب البعث. وقد جهر الخميني بدعوته إلى قلب نظام الحكم العراقي، بعدما علم بإعدام باقر الصدر وشقيقته. وكتب بتاريخ ٢ نيسان/أبريل عام ١٩٨٠:

«من الغرابة بمكان أن تعمد الأمم الإسلامية، وبخاصة الأمة العراقية النبيلة، وقبائل دجلة والفرات، وطلّاب الجامعات الشجعان، وغيرهم من الشباب، إلى التغافل عن هذه النكبة الكبرى التي نزلت بالإسلام وآل رسول الله (ص)، وإلى السماح لحزب البعث الملعون أن يمعن في إعدام الشخصيات العراقية البارزة وضمّها إلى قافلة الشهداء، واحداً بعد الآخر. وأكثر من ذلك غرابة، أن يكون الجيش العراقي وغيره من القوى أدوات بأيدي هؤلاء المجرمين، يساعدونهم في إبادة الإسلام. ليس لدي ثقة بالضبّاط الكبار في القوّات المسلّحة العراقية، ولكن لم يخب أملي في الضباط الآخرين، الضباط غير المكلّفين (Non-Commissioned) وجنودهم. إني أتوقّع منهم، إمّا أن ينهضوا بشجاعة ويقلبوا هذا الظلم، كما حدث في إيران، أو أن يهربوا من الحاميات والثكنات... وآمل من الله تعالى أن يدمِّر نظام الظلم لدى هؤلاء المجرمين».

كان الظلم كرداء يغطّي الشرق الأوسط في أوائل الثمانينيّات في العراق،

(*) بقيت السلطات الإيرانية تتّهم «بختيار» علانية بالتخطيط لانقلاب لعدة سنوات. وقد ورد في كرّاسة صدرت عن وزارة الارشاد الإسلامي في طهران عام ١٩٨١، أن بختيار: «يحضِّر المسرح ليعود إلى إيران على شاكلة ما حدث عام ١٩٥٣. وفي هذا الوقت، كانت الإدارة الأميركية تفكر «بإيران أميركية» دون الشاه...».

وفي إيران، وفي أفغانستان. وإذا كان الغرب لا مبالياً بآلام ملايين المسلمين، فكذلك، ويا للعار، كان معظم القادة العرب. فعرفات لم يتجرّأ على إدانة الاتحاد السوفياتي بعد غزوه لأفغانستان ـ إذ إن موسكو كانت لا تزال أهمّ حليف لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ والملوك والأمراء ورؤساء الجهوريات في العالم العربي، الذين كانوا أفضل إدراكاً لما يحدث من نظرائهم الغربيين، التزموا الصمت بشأن ما قام به صدّام من طرد، وتعذيب، وإعدام، وإبادة جماعية. وأكثرهم استعملوا تنويعات على التقنيات ذاتها، وطبّقوها على جماهيرهم. وفي سوريا، حيث كانت «الكراسي الألمانية» للتعذيب تستعمل لكسر ظهور المعارضين الناشطين، جاء حمّام الدم لتمرّد حماة بعد أقلّ من سنتين(*).

وفي إيران، انقضّت السلطات بوحشية على أتباع المذهب البهائي، الذين يبلغ تعدادهم حوالى مليوني نسمة، ويعتبرون أن موسى، وبوذا، والمسيح، ومحمّد، «معلمون سماويون»، ويقع مركز عبادتهم ـ أي قبر النبيل الفارسي الذي عاش في القرن التاسع عشر الميلادي ـ في جوار مدينة عكّا الواقعة حالياً في إسرائيل. وفي عام ١٩٨٣، قدّرت لجنة العفو الدولية أن ما لا يقل عن ١٧٠ بهائياً أعدموا بذريعة الهرطقة من أصل ٥٠٠٠ إيراني فُرض عليهم الموت منذ قيام الثورة. ومنهم عشر نساء، اثنتان منهنّ لم يبلغن العشرين من العمر، وكلّهن شنقن في «شيراز» في حزيران/يونيو ١٩٨٣. واثنتان منهنّ على الأقلّ هما «زارين موكيمي» و«شيرين دالفاند»، وكلتاهما في العشرينيّات من عمرهما، سُمح لهما بالصلاة متوجّهتين نحو «عكّا» قبل تقييدهما وسوقهما بواسطة الجلاد إلى المشنقة. وقد اتّهموا كلهم بأنهم «عملاء للصهيونية». كما أن سجن «إيفين» بدأ يمتلىء بالنساء من «مجاهدي خلق» مع المجاهدين الشعبيين المدعومين من العراق؛ بينما أوقف آخرون عندما كانوا يتفرّجون على احتجاجات سياسية. وقد ضُربوا «الفلق» على أقدامهم ليعترفوا بأنهم مناهضون للثورة. وفي ليلة واحدة،

(*) أنظر ذلك في المجلّد الثالث من الكتاب.

قُتلت ١٥٠ امرأة بإطلاق النار عليهنّ. وعلى الأقلّ، طُلب من أربعين منهنّ أن يكتبنَ أسماءهنّ على أيديهنّ اليمنى وعلى سيقانهنّ اليسرى بأقلام رأسها من لبّاد. وذلك لأن الحرّاس أرادوا أن يتعرّفوا عليهنّ بعد الإعدام، إذ إن طلقات الرصاص الأخيرة على الرأس تشوّه وجوههن، وتعسّر عملية التعرف عليهنّ. ولكن الضحايا لم يكونوا من البهائيين، فحسب.

وتمّت الإعدامات في كل المدن الرئيسية في إيران. ففي تموز/ يوليو ١٩٨٠ مثلاً، ذكر راديو الدولة الإيراني حصول ١٤ عملية إعدام في «شيراز»، جرت كلّها عند الساعة الحادية عشرة مساء، وفيها إعدام لواء متقاعد ـ لأنهم «هاجموا مسلمين» ـ ومنهم ضابط شرطة سابق، وعقيد من الجيش متهم بأنه كان يضرب السجناء، ويهودي إيراني أدين لإدارته مركزاً للفسوق، وسبعة آخرون بدعوى مخدّرات. وأحدهم «حبيب فايلي» أُعدم «لعلاقاته اللواطية». وقبل يومين، أُطلقت النار على «مهدي قاهري» و«حيدر علي كيّور» بسبب اللواط في «نجف أباد». وبالطبع، ترأس «صادق خلخالي» معظم هذه «المحاكمات».

وسجّلت منظمة العفو الدولية بيّنة ثبوتية بشأن طالبة سُجنت في سجن «إيفين» بين أيلول/سبتمبر ١٩٨١ وآذار/مارس ١٩٨٢، ووضعت في زنزانة تحوي ١٢٠ امرأة، يراوح وضعهنّ من بنات مدارس إلى عجائز. وقد وصفت المرأة كيف:

> «حدث في إحدى الليالي أن جيء بفتاة شابّة اسمها «طاهرة» من غرفة المحكمة إلى السجن، بعدما حُكم عليها بالإعدام، وكانت مرتبكة ومضطربة. ولم يظهر عليها أنها عارفة لماذا كانت هناك، ثم استقرّت لتنام قربي؛ ولكنها كانت تستيقظ من وقت إلى آخر مجفلة، مرعوبة، وتتمسّك بي سائلة عمّا إذا كان صحيحاً أنها ستُعدم. طوّقتها بذراعيّ، وحاولت تهدئتها، وطمأنتها إلى أن ذلك لن يحدث. ولكن، جاؤوا إليها عند الساعة الرابعة صباحاً؛ وأخذوها لكي تُعدم. وكانت في السادسة عشرة من عمرها».

وقد أصدرت وزارة الإرشاد الإسلامي كرّاسة مخيفة من تسع صفحات ـ دون ذكر اسم الوزارة أو الكاتب عليها ـ تعترف بأن «البعض يعتقدون بأن المجرمين وحدهم هم الذين يستحقّون الموت. وليس غيرهم ممَّن هم مذنبون بسبب مئات من الجرائم الأخرى... أليست الأعمال الشرّيرة التي حُكم على أصحابها بقصاص الموت مساوية لنشر... الفساد... لقد أيَّد الناس بطريقة غير مباشرة أعمال المحاكم الثورية، لأنهم يدركون أن تلك المحاكم تصرّفت وفقاً لأمانيهم». وادَّعت النشرة ذاتها أن محاكمات الموظفين الكبار في حكومة الشاه ستعقد بسرعة، لئلّا تحاول «العناصر المناوئة للثورة» إنقاذهم من السجن.

اغتاظ الخميني غيظاً شديداً من اليساريين والشيوعيين الذين تجرّأوا على معارضة حكمه الثيوقراطي الديني، ومن أميركا، الشيطان الأكبر، وحليفها العراق. وتساءل: «لماذا يعارض الناس عقوبة الإعدام... ومحاكمة عدّة أشخاص... وإعدام عدد من أولئك الذين تمرّدوا ضدّ الإسلام والجمهورية الإسلامية، والحكم عليهم بالموت، ممَّا يجعلكم تستعرضون الإنسانية!؟ إن «القوى الاستعمارية، أخافت المسلمين بتقدّمها وقوّتها الشيطانية» ـ وهو التعبير الغيبي للخميني عمّا يسمّيه وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد «الصدمة والرهبة» ناعتاً به العراق، بعد مرور عشرين سنة ـ والآن نجد «الشيوعيين مستعدّين للتضحية بحياتهم حبّاً بما يمثّله الحزب من قِيَم»، بينما «يهلك شعب أفغانستان تحت قسوة النظام السوفياتي».

وهنا كان الخميني بمأمن. فقد جاء طوفان من الإثباتات على أن الجنود السوفيات يرتكبون فظاعات في أفغانستان؛ بحسب تقارير الجماعات المنفية من أفغانستان، والمنظمات الإنسانية. وقد نقلت مؤسّسة «مراقبة الحقوق الإنسانية» في عام ١٩٨٤ أنه أصبح من الواضح، أن الموظفين السوفيات باتوا يزيدون من مشاركتهم الحكومة الأفغانية في ظلم رعيتها. فالضبّاط السوفيات ليسوا «مستشارين» لوكلاء «الخاد» الأفغان الذين يطبّقون التعذيب ـ برتابة ووحشية في مراكز الاعتقال والسجون، وبحسب تقارير تلقيناها، هناك أيضاً سوفيات يشاركون مباشرة في الاستنطاق والتعذيب». وقد أبدت الوثيقة ذاتها إثباتات

مروّعة عن التعذيب. فقد عُلّق أحد الأفراد وعمره ٢١ سنة بحزامه حتى أوشك على الاختناق، وضُرب حتى تورّم وجهه إلى ضعفه، وسُحقت يداه تحت كرسي... لأنه كان يوزّع منشورات ضدّ الحكومة... وكانت هناك أمّهات يُجبرن على رؤية أطفالهنّ يُعطَوْن صدمات كهربائية... أما الرجال الأفغان، فكانوا يُستبقَوْن في غرف التعذيب حيث يجري التحرّش الجنسي بالنساء. وقد وصفت امرأة جرى تعذيبها في السجن، كيف أُجبرت هي وغيرها من النساء على الوقوف في المياه التي وضعت فيها موادّ كيميائية تقشر جلد القدمين». وبعد أن قبض الأفغان على نقيب من الجيش السوفياتي وثلاثة جنود آخرين في بلدة «طاشكورغان» في نيسان/أبريل عام ١٩٨٢، قتلوهم وقطعوا أجسادهم ورموها في النهر. فما كان من أخي هذا الضابط إلّا أن ساق وحدته ـ من اللواء السوفياتي ذي الرقم ١٢٢ ـ إلى البلدة، وارتكب مجزرة قضى فيها على جميع السكّان البالغ عددهم ٢٠٠٠ شخص.

وفي نشرة بالمنفى للحزب الإسلامي في باكستان، وردت قائمة بأسماء ٢٦ شيخاً (مولوياً) من رجال الدين وغيرهم، قُتلوا مع كامل عائلاتهم غالباً في أفغانستان، من كابول، وقندهار، وهرات، وكونار، وغازني. وكان السوفيات يدَّعون دائماً أن غاراتهم على القرى تطارد المتمرّدين، أو «الإرهابيين»، أو بقايا «الدوشمان» (Dushman) ـ ومن السخرية أنهم يستعملون الكلمة الأفغانية ـ الفارسية التي تعني «العدوّ» ـ ولكن لا مردّ لأن يكون معظم الضحايا من المدنيين. وقد تكرّر هذا النمط على يد القوّات الأميركية في العراق، بعد رُبع قرن تقريباً. وقد نُشرت صور في مجلّات المنفى تُظهر ضحايا غارات النابالم السوفياتية، ووجوههم محروقة بموادّ كيميائية. وقد انطلق أحد الضبّاط السوفيات اللواء «پافل غراتشيف» في مهنته وسط فظائع أفغانستان، وصار فيما بعد وزيراً للدفاع. وهو الذي استحقّ لقب «جزّار غروزني»، بعدما نسي دروس الحرب الأفغانية، وخيبة السوفيات على يد المجاهدين ورجال أسامة بن لادن، المحاربين العرب؛ وأطلق حرب الشيشان، بالنيابة عن «بوريس يلتسين»، وتبجّح بأنه يستطيع أن يصفّي الشيشان خلال ساعات؛ بينما حذَّر المرشدون الأكثر حكمة من نشوب «حرب مقدّسة».

والآن، عبر معظم مشاهد الرعب القائم في البلدان الإسلامية في جنوبي غربي آسيا، كانت هناك ملحمة لإراقة الدماء تكاد تبدأ؛ إذ يقوم نظام عربي علماني قومي، ديكتاتوري، يكره الأجانب، بالاستعداد للتغلّب على القوّات الثورية المسلمة المجاورة التي عقدت عزمها بدورها على تدميره. وكما كشفت الوثائق التي وجِدت في السفارة الأميركية في طهران في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٧٩؛ فقد كانت الحكومة الإيرانية تخاف من تشجيع العراقيين على إثارة تمرّد آخر في صفوف الأكراد. وقد أخبر إبراهيم يزدي وزير الخارجية الإيراني الدبلوماسيين الأميركيين أنه «قد أُعطيت لصدّام حسين تأكيدات كافية بشأن الأكثرية الشيعية في العراق»، لتهدئة مخاوفه من الحركات الشيعية؛ ولكن «إذا استمر التدخّل العراقي، فعلى إيران أن تدرس إمكان تحريك حوزة الشيعة في العراق». وفي تشرين الثاني/نوفمبر، روى الأميركيون أن النظام العراقي مقتنع بأن إيران ستتابع مطالبتها بالجزيرة العربية ذات الأكثرية الشيعية، المسمّاة البحرين، التي فكّر صدّام حسين في التفاوض بشأنها مع طهران بعد مقابلته «يزدي» في اجتماع قمّة في «هافانا»؛ لكن العراقيين يعتقدون الآن أن النفوذ الحقيقي يكمن في «النظام الديني الإيراني المعادي للعراق».

ولكنّ ما كانت عليه القوة العسكرية لهذين النظامين عام ١٩٨٠، استحوذ على تفكير الجهتين في الصراع القادم بينهما. ففي عام ١٩٧٨، فاخر الشاه «بعلاقاته الجيّدة» مع نظام صدّام في العراق، وادَّعى أن لدى العراق «عدداً أكبر من الطائرات والدبّابات بالنسبة إلى إيران»؛ مع أن إيران استحصلت على طائرات (80 F-14 Tomcat) من الولايات المتحدة الأميركية ـ لمواجهة أيّ هجوم من قِبل الاتحاد السوفياتي ـ مما يمكّنها من مجابهة قوة التعرف الفائقة لطائرات ميغ المقاتلة. مع العلم أن جميع ربابنة طائرات F-14 تلقّوا تدريبهم في الولايات المتحدة الأميركية. وقبل سقوط الشاه، وبحسب وثائق السفارة الأميركية في طهران، اعتقدت أميركا أن:

> «تفوّق إيران عسكرياً، يرجع أساساً إلى قوة طيرانها، الذي له أداء أفضل، وربابنة أمهر. . . ومعدّات حربية أرقى، مثل القنابل

الموجّهة باللايزر، والصواريخ الموجّهة بالتلفزيون؛ مما هو غير مُتاح للعراق. كما أن البحرية الإيرانية أرقى بكثير مما لدى العراق؛ وباستطاعتها إقفال الخليج بسهولة ومنع حركة السفن العراقية. أما القوّات البرّية لدى البلدين، فتكاد تكون متوازنة؛ لأنّ لدى كلّ من الجهتين أفضليات مختلفة في المعدّات، تؤهّلها للإغارة على أرض الأخرى. وإن استعداد القوّات الأرضية العراقية وسرعة تحركها، يمكن أن يعطيها أفضلية عددية كبرى على طول الحدود، في المراحل الأولى من الهجوم».

وقد كان ذلك تنبؤاً دقيقاً جداً، لما سيحصل في أيلول/سبتمبر عام ١٩٨٠ ـ وربما كان صدّام حسين وكبار ضبّاطه يعرفون ذلك، كما هو مفترض. وربّما كان يواسيهم أن يعلموا أيضاً، بحسب التقديرات ذاتها، أن اعتماد إيران على المعدّات الأميركية يعني أنه «إذا سحب الأميركيون دعمهم، قد لا تستطيع القوات الإيرانية الصمود أمام عمليات حربية شاملة لأكثر من أسبوعين». ولكن ذلك كان تنبّؤاً غير دقيق إلى حدٍّ كبير؛ مما حدا بصدّام أن يقامر بأكثر أعماله الدموية حتى الآن.

ولا شكّ في أن الثورة الإيرانية أضعفت جزءاً من الجيش الإيراني. فقد تقاعد كل لواء ـ وترك الخدمة ٣٠٠ من كبار الضبّاط خلال ثلاثة أسابيع ـ وأُنقصت مدّة التجنيد العسكري الإيراني من سنتين إلى سنة. وبينما كانوا يستعدّون لغزو أميركي ممكن خلال حصار الرهائن في السفارة، حاول الإيرانيون معاودة بناء جيشهم إلى ما كان عليه قبل الثورة، بحيث يناهز ٢٨٠ ٠٠٠ جندي. ولكن نشوب معارك ضارية في كردستان أدَّى إلى أن كل وحدة من وحدات الجيش الإيراني انضمّت إلى القتال في خريف عام ١٩٨٠. وكان حرّاس الثورة، الذين يمدّون الجيش بالزخم العسكري الديني، أثناء أي دفاع عن إيران، كانوا ـ كما وصفتهم في تقرير أرسلته إلى «التايمز» من طهران بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩ ـ «مندفعين، متحمّسين، وقليلي الخبرة»، بينما تقصلّت القوة الضاربة للجيش إلى حدٍّ كبير. فهناك الآن ١٦٠٠ دبّابة، منها

٨٠٠ من طراز «تشيفتين» البريطاني، و٦٠٠ من طراز (M-60) الأميركي ـ وقد اشتراها كلّها الشاه ـ وقد تكون هذه المعلومات كبيرة التأثير على السامع أو القارىء، ولكن دبّابات «تشيفتين» لها نظام إطلاق نار معقّد، وقد تكون قوّتها انخفضت إلى النصف، بسبب سوء الصيانة. لكنّ دبابات (M-60) أسهل من حيث صيانتها. وكان الجيش الجديد بقيادة اللواء حسين شاكر الذي تدرّب في «قلعة ليفنورث» الأميركية.

وكان للحكومة الإسلامية في طهران ثقة أكبر في سلاحها الجوّي أساساً، لأن طلّاب المدارس الحربية مثّلوا دوراً قيادياً في محاربة الجيش، أثناء الثورة. ففي الأيام التي أعقبت سقوط الشاه، كان أعضاء السلاح الجوّي الوحيدين بين سائر الأجهزة الذين سُمح لهم بأن يظهروا بلباسهم الرسمي خارج قواعدهم، ولكنّ طائرات (F-14) كانت بحاجة إلى صيانة أميركية. ومع أن الربابنة كانوا يستطيعون أن يحلّقوا بقاذفات القنابل من طراز فانتوم (F-4)، فقد كانت أكثر أجهزة الرادار الأميركية والبريطانية معطوبة، وكان التقنيون الأميركيون الذين كانوا يصونونها قد سافروا من إيران(*).

وفي أوائل عام ١٩٨٠، حصلت حوادث عنيفة على طول الحدود الإيرانية ـ العراقية لعدّة شهور. وكان معتمدنا في طهران هو «طوني آلوواي»، الذي زاد انعزاله، إنما بقي يوافينا بالأخبار المنظمة ـ وبات يوافينا الآن بأخبار التراشق المدفعي شبه اليومي بين العراقيين والإيرانيين. وقد كتب تقريراً في «التايمز» بتاريخ ١٠ نيسان/أبريل، عن تبادل إطلاق النار بالمدفعية وبالدبابات عبر الحدود قرب «قصر شيرين». ونُقل عن صادق قطب زاده، وزير الخارجية، تصريح مفاده أن حكومته «مصمّمة على قلب حكومة البعث التي يرأسها عميل الولايات المتحدة الأميركية، صدّام حسين». وبتاريخ ٩ نيسان/أبريل وحده، أُبعد عن العراق عبر الحدود مع إيران ٩٧٠٠ عراقي من أصل إيراني، مع وجود

(*) في ١٩٨٧، السنة التي سبقت انتهاء الحرب بين إيران والعراق، اعتقدت الحكومة الأميركية أن ليس لدى إيران سوى خمس طائرات من طراز (F-14) قادرة على الطيران، مع ١٥ طائرة من طراز «فانتوم».

١٦٠٠٠ آخرين قيد الطرد. ومن بين الواصلين الجدد من هؤلاء، ٤٠٠ من رجال الأعمال الذين دعوا دعوة كاذبة إلى وزارة التجارة في بغداد، حيث نُزعت عنهم ملكيّاتهم، ووضِعوا في الشاحنات، وأُرسلوا إلى الحدود.

وفي نيسان/أبريل اختبرنا طبيعة الأحداث القادمة، عندما اشتبك في شوارع بيروت أنصار إيران المسلّحين مع نظرائهم من أنصار العراق المسلّحين. وقد استطعت أن أعدّ في مستشفى الجامعة الأميركية ٥٥ من الموتى، وبعضهم مدنيون، بينما جاء مسلّحون يربطون جباهم وأذرعهم بعصبات ملطّخة بالدم، في شاحنات مزوّدة بمدافع مضادّة للطائرات. وتصاعدت سحب الدخان المنتفخة المتموّجة من المخيّم الفلسطيني في برج البراجنة، حيث وجِدت ست جثث متفحمة داخل أحد مراكز حزب البعث.

وكان الإيرانيون يشتكون غالباً من أن الطيران العراقي دخل أجواءهم. ففي أوائل تموز/يوليو، مرَّت الطائرات النفّاثة العراقية فوق مقاطعة «كرمنشاه»، على مدى يومين متتابعين، على علو منخفض بحيث تطالها قذائف المدافع المضادة للطائرات. ومن المفترض أن الطيّارين كانوا يحاولون معرفة مواقع الدفاع أرض ـ جو. وبتاريخ ٣ تموز/يوليو أوردت صحيفة «كيهان» في طهران أن النظام العراقي شكَّل «جيشاً من المرتزقة، يقوده ضابط عراقي، قرب «قصر شيرين». وفي شهر آب/أغسطس، تمّ تبادل إطلاق النار من المدافع عبر الحدود في الاتجاهين. وقد نفى العراقيون ما يشتكي منه الإيرانيون من أن قراهم تتعرّض لهجمات مستمرّة. لكن وزارة الخارجية العراقية سجّلت عشرين حادثاً لإطلاق النار ـ على القرى والسفن العراقية في شط العرب وحول البصرة ـ بين ١٨ و٢٢ أيلول/سبتمبر. وحتى فيما بعد، ادَّعى صدّام أن حرب إيران ـ العراق بدأت في ٤ أيلول/سبتمبر، عندما اشتكى العراقيون من إطلاق نار المدفعية على مواقعهم الحدودية، ومصافي النفط المجاورة، ٩٨ مرّة. وشجب العراق خرق إيران للاتفاق المعقود مع الشاه عام ١٩٧٥، الذي عيَّن للبلدين حدوداً مشتركة عند شط العرب، معلناً أن الاتفاقية باتت ملغاة.

ومع أنه اتضح عدم إمكان تفادي النزاع، لم يجتمع مجلس الأمن ليناقش

الاعتداءات، حتى الوقت الذي غزا فيه العراقيون الأراضي الإيرانية. وقد بذل العراق جهوداً مضنية لتفادي تصويت سبعة أعضاء من جماعة عدم الانحياز. ولو لم تُنبذ إيران بسبب اقتحامها السفارة الأميركية، لكانت حصلت على نتيجة تصويت لصالحها. وفي النهاية جاء قرار مجلس الأمن رقم ٤٧٩ الذي لم يطلب حتى انسحاب القوات العراقية، بل طلب وقف إطلاق النار ـ مما لا يُرضي أيّ طرف. وصارت إيران مقتنعة بأنّ العالم كلّه يقف ضدّ ثورتها، ويدعم الاعتداء الذي شنَّه صدّام.

وسيذكر فتحي داوود موفّق، مصوّر الأخبار العسكري العراقي، البالغ من العمر ٢٨ سنة، تلك الأيام حتى نهاية عمره. فبعد حوالى ربع قرن، ذكَّرني في بغداد، كيف أنه انطلق في صباح يوم من أيام أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ من وزارة الدفاع العراقية إلى موقع قرب «قصر شيرين». قال: «عندما وصلنا وجدنا مواقع التفتيش العراقية مدمّرة تحت وطأة الهجوم. وكانت قوّاتنا هناك أقلّ من لواء. زرنا «قصر شيرين» و«سربول ذهاب». لقد دُمّرت كل نقاط التفتيش عندنا بقذائف المدفعية الإيرانية. صوَّرنا ذلك، ووجدنا جثثاً عديدة لشهدائنا، وأكثرهم من شرطة الحدود. لم أرَ قبلاً ذلك العدد الكبير من الأموات، ثم جلبنا معنا أفلامنا التي صوّرناها إلى بغداد». وكانت جريدة السينما التي يصوّرها «موفّق» تُعرض على التلفزيون العراقي تحت عنوان: «صور من المعركة». وكانت توفّر نوعاً من التحضير النفسي للشعب العراقي، وربّما لصدّام ذاته. فبتاريخ ٢٢ أيلول/سبتمبر وهو أول يوم ممّا اعتبره الإيرانيون «الحرب المفروضة» عليهم، انطلقت فِرق صدّام بآلاف الدبّابات، والمدرّعات، والمدفعية، واجتازت الحدود إلى إيران، على جبهة طولها ٦٥٠ كيلومتراً.

الحرب الخاطفة

الغاز! الغاز! أسرعوا أيها الشباب. بهجة تلمُّس الأشياء، وتركيز الخوذة غير الملائمة في الوقت المناسب؛ ولكن، لا يزال هناك مَنْ يصرخ ويتعثّر ويتخبَّط كانسانٍ واقع في النار أو في الدبق...

... لو تستطيع أن تسمع، عند كل نخعة، صوت الدم قادماً متغرغراً من زبد الرئتين، فاحشاً كالسرطان، مرّاً كالاجترار، متحدّراً من القروح الفاسدة التي لا شفاء منها، على الألسن البريئة...

«ويلفرد أوين» من: «دلسي وديكوروم أَست»

سمّاها صدّام «الحرب الخاطفة». ولذلك أراد العراقيون أن نكون هناك. لقد اعتبروا أنفسهم منتصرين قبل حصول النصر، وكانوا يحتفلون بذلك قبل إنجاز النجاح. ولم يستطع سعد البزّاز، من السفارة العراقية في لندن، أن يصبر على التأخّر في منحي التأشيرة، بعد أن جئت من بيروت ـ فالصحافة في الشرق الأوسط تستلزم رحلات انكفائية يقطع فيها الصحافي آلاف الكيلومترات لتسهيل رحلة لا تستغرق سوى مئات الكيلومترات من نقطة الانطلاق ـ وهكذا وجدتني محشوراً في مكتب السمات، مع «غافين هيويت» من هيئة الإذاعة البريطانية، وطاقمه، وغيرهم من مراسلي الإذاعات والصحف، أكثر من أيّ وقت مضى، في غرفة تعبق بالدخان. كنا سنسافر إلى الكويت. ومن هناك، يأخذوننا عبر الحدود العراقية إلى جبهة الحرب في البصرة. وهكذا كان. ففي أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ ، دخلنا البصرة ليلاً في طابور من سيّارات السفارة العراقية في مدينة

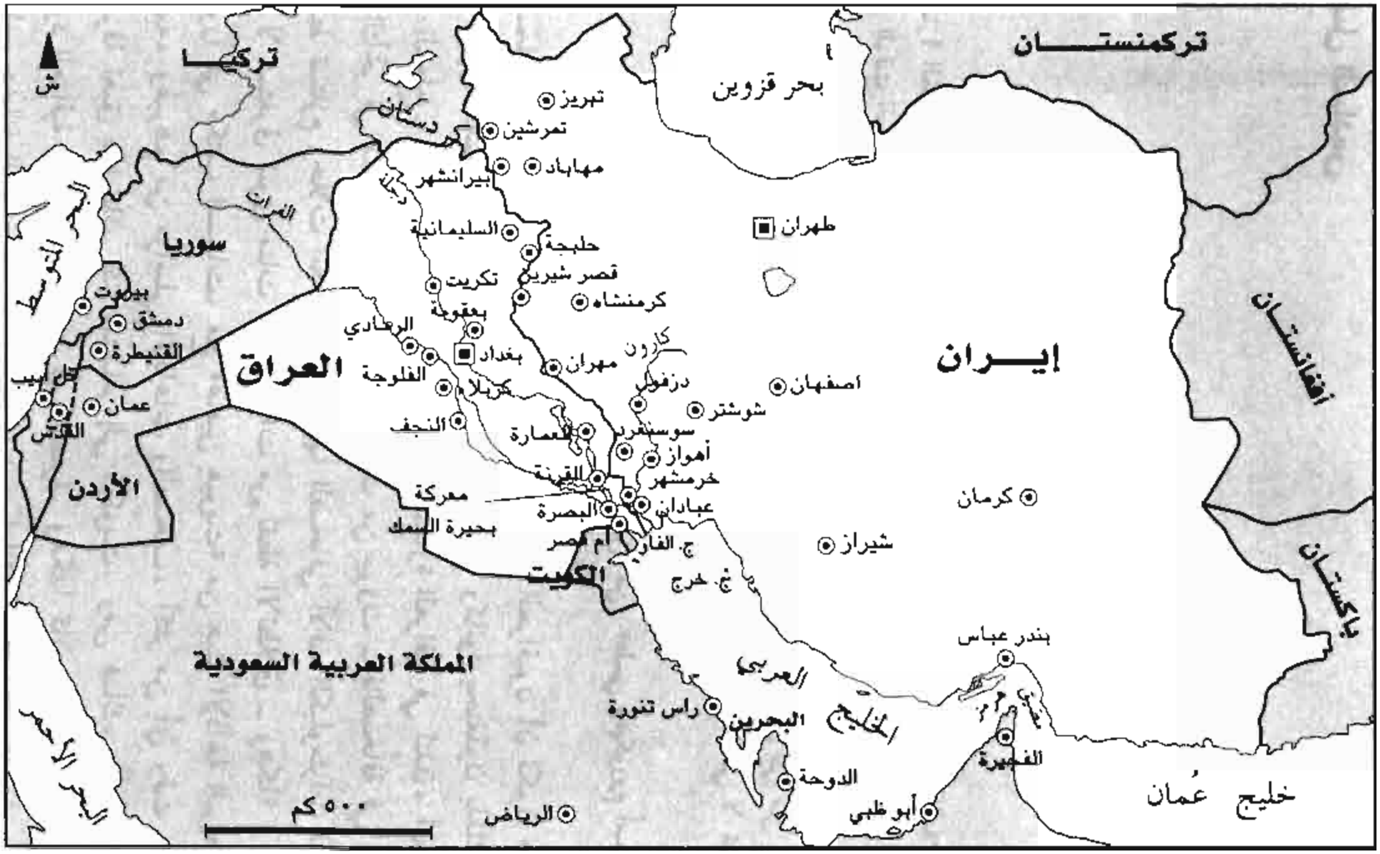
ش
تركيا
تركمنستان
بحر قزوين
أفغانستان
باكستان
إيران
العراق
سوريا
الأردن
الكويت
المملكة العربية السعودية
تبريز
تمرشين
مهاباد
بيرانشهر
السليمانية
حلبجة
قصر شيرين
كرمنشاه
طهران
تكريت
بعقوبة
بغداد
الرمادي
الفلوجة
كربلاء
النجف
مهران
كارون
دزفول
اصفهان
شوشتر
سوسنقرد
أهواز
خرمشهر
عبادان
العمارة
القرنة
البصرة
معركة
بحيرة السمك
أم قصر
ج. الفاو
غ. خرج
شيراز
كرمان
بندر عباس
الخليج العربي
البحرين
راس تنورة
الدوحة
أبو ظبي
الفجيرة
خليج عُمان
الرياض
بيروت
دمشق
القنيطرة
تل أبيب
القدس
عمان
البحر المتوسط
البحر الأحمر
الفرات
دجلة
دسكان
٥٠٠ كم

الكويت، بينما تجوب السماء ذيول القذائف الخطّاطة. وكانت الطائرات النفّاثة تئزّ فوق رؤوسنا، والأنوار مطفأة كلّها عبر المدينة، للحماية من الغارات الجوّية.

صاح العراقيون: «أخرجوا من السيّارات»؛ فقفزنا من سيّارات «الليموزين»، وربضنا على الأرض المرصوفة، رافعين آلات التسجيل في الظلام الدامس الحار، بينما كانت ترتجّ دارات البصرة الهشّة على دويّ المدفعية المضادة للطائرات، وتتراءى لنا تحت نور القمر الباهت. وكانت أنوار القذائف الخطّاطة تندفع كالبرق في السماء، وتشكّل حُجُباً تختفي خطوطها الذهبية عبر الدخان المتهادي نحو البصرة. وكانت صفّارات الإنذار تزعق بجنون، وكنّا نسمع وراء تلك الجلبة أزيز الطائرات الإيرانية النفّاثة. وكانت هناك نار كبرى تشتعل يصعب السيطرة عليها بعيداً نحو الشرق، وراء شط العرب الذي لا نراه. وكان «غافين» الذي شاركته معظم مغامراتي في أفغانستان، واقفاً في عرض الطريق متعجباً يقول: «يا لها من رواية». وهكذا كانت؛ إذ لم يسبق أبداً لجيش عربي أن رحَّب بالصحافيين واستقدمهم إلى معارك الجبهة، وأعطاهم كل تلك الحرية، وشجّعهم على الركض وحماية أنفسهم، وعلى التقدم مع جنودهم. ففي مدخل فندق «حمدان» العابق بالبخار ـ حيث توقفت مكيّفات الهواء بسبب التعتيم في البصرة ـ كان الموظفون يستمعون إلى أجهزة الراديو العاملة على البطاريات، التي تتردّد منها أغنية مشوّشة متكرّرة بأصوات الأبواق والطبول تقول: «**الحرب الخاطفة. نحن سنربح الحرب الخاطفة**».

وقفنا على الدرج، نراقب بخّ الرصاص الوردي والذهبي الصاعد نحو السحب الداكنة التي تسوقها الرياح عبر البصرة. فهناك في مكان ما إلى الشرق، عبر بساتين النخيل على الشاطىء الشرقي لشط العرب، وعلى طول الجهة الشمالية، كان جيش صدّام يتحرّك نحو الشرق عبر الليل داخل إيران، في صحارى الأهواز الكبرى، وفي الجبال الكردية باتجاه «مهاباد». كان الصحافيون العرب الذين رافقونا في حالة نشوة. سيربح العراقيون، ويحمون العالم العربي

من تهديد الثورة الإيرانية. كان صدّام رجلاً قوياً، رجلاً عظيماً. وكانوا واثقين من نصره ـ وربّما أوثق من ثقة صدام نفسه.

ولا بدّ أن تكون الأوامر بإعطاء الصحافيين الحرّية في ميدان المعارك، قد جاءت من صدّام نفسه. فقد كان باستطاعتنا أن نستأجر سيارة دون المراقبة العادية، ونذهب بها إلى الجبهة، إذا أردنا. وكانت وزارة الإعلام توفّر لنا موظفين يرافقوننا عبر نقاط التفتيش، إذا رغبنا في ذلك. وماذا بشأن شبه جزيرة «الفاو» تلك القطعة القصيرة من الأرض غير الحصينة الواقعة جنوبي البصرة، التي يمكن أن تنظر منها إلى الشرق عبر شط العرب، فترى صفوف أشجار النخيل على الشاطىء الإيراني؟ لا مشكلة بشأنها. ولكن عندما وصلنا إليها كانت تحت القصف الإيراني المستمرّ، وكانت محطتا النفط الطرفيّتان الواقعتان تحت سطح البحر وعلى بعد ثلاثين كيلومتراً من الشاطىء «الأمايا» و«البكر» ـ وهذه الأخيرة إحدى أحدث محطات النفط في العالم، ولم يمض على افتتاحها أربع سنوات ـ قد تضرّرتا إلى حدٍّ بالغ بالصواريخ الإيرانية أرض ـ أرض. ولكن العراقيين استطاعوا إسكات المدافع الإيرانية.

وبتاريخ ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠، وبعد أسبوع من الغزو العراقي بالضبط، كانت قذائف الإيرانيين تسقط حول الفاو بمعدل واحدة كل ٢٥ ثانية، وكان من المجازفة المرور بسيارة حتى على جانب النهر. وكانت النوافذ والأبواب في المدينة تهتزّ عند كل انفجار، فالقذائف تهسهس فوق السوق الشرقية، وتنفجر وراء مستودعات التخزين النفطية. وللأخذ بالثأر، هاجم العراقيون المحطة الطرفية الكبرى للنفط في «عبدان». وقد جلستُ قرب النهر لأكثر من ساعة، أراقب شُهب النار تتصاعد في الهواء فوق «عبدان»، بشكل موجة من اللّهب تندفع بسرعة مخيفة على طول شاطىء النهر تحت غطاء من الدخان الأسود. وكان هناك موظف عراقي رابض إلى جانبي، يشير إلى المواقع الإيرانية على الشاطىء الآخر. وكان العراقيون يدَّعون في إذاعتهم أنهم طوّقوا «عبدان». وفي البصرة، ألقت طائرتا «فانتوم» إيرانيتان قنابل على سفينة راسية في النهر فأشعلت فيها النيران، واستمرّت ترشّ الرصاص على طول الواجهة المائية؛ مما يثبت أن سلاح الطيران الإيراني ما زال قادراً على الإغارة نهاراً.

وادَّعى العراقيون أنهم أسقطوا أربع طائرات «فانتوم» في خمسة أيام، وخزّاناً للوقود غير متضرّر من إحدى الطائرات ـ وبالفعل، كان يمكن قراءة التعليمات الأميركية لإعادة التعبئة على إحدى العُلَيبات في أحد مراكز حزب البعث المحلّية. وقد أوقع الإيرانيون الضرر بالمنازل والمدارس في «الفاو» ـ ولم يكن باستطاعة ربابنة طائراتهم طبعاً أن يميّزوا بين الأهداف «الحربية» و«المدنية» وهم يهاجمون بسرعة عالية وعلى علوّ منخفض.

صارت «الفاو» مهجورة. فقد رأيت العديد من سكّانها يتّجهون إلى الشمال الغربي نحو البصرة في قافلة من سيّارات الأجرة القديمة من طراز «شيفروليه»، محمّلين الأفرشة على سطوح سيّاراتهم، بينما تجلس الأمّهات والزوجات اللابسات «الشادور» على المقاعد الخلفية، ولا يأبهون جميعاً للحرائق التي تشتعل في «عبدان». وما هذا سوى غيض من فيض تدفّق اللاجئين بالملايين في تاريخ الشرق الأوسط. لقد كان هؤلاء من المسلمين الشيعة العراقيين الذين يقاسون الآن من قصف أبناء طائفتهم الإيرانيين، كهديّة يقدّمها لهم صدّام.

وإذ ذاك، كنتُ قد بدأت أدرك أن النصر في هذه الحرب قد لا يكون يسيراً؛ كما تريد السلطات العراقية أن نعتقد. وفي واشنطن ولندن، كان «الخبراء» العسكريون، والجنرالات السابقون المتحجّرون يتشدّقون بنوعيّة الجيش العراقي العالية، وخرائب إيران بعد الثورة، والقوّات العراقية المجهّزة بشكل واسع بالأسلحة السوفياتية. ولكن بتاريخ ٣٠ أيلول/سبتمبر، بعد ثمانية أيام من الغزو، لم يستطع العراقيون أن يتقدموا إلّا إلى مسافة تبعد ١٥ كيلومتراً عن «خرمشهر» ـ المرفأ العباسي القديم، الذي كان أكبر مرفأ لإيران، وعلى مقربة من «عبدان» دون «تطويقها».

قطعتُ النهر عند البصرة، وراء قوافل من الشاحنات الحربية التي تحمل معدّات لبناء جسر ـ فلا يزال يلزم العراقيين أن يقطعوا نهر «قارون» شمالي «خرمشهر» ـ وتوجّهتُ نحو الصحراء اللاذعة، باتجاه الموقع الحدودي الإيراني في «شَلَمْشه». وتجاوزت بالسيّارة عشرات الدبّابات من طراز (T-62)، والمدرّعات السوفياتية، والشاحنات المملوءة جنوداً؛ وقد أومأوا كلّهم إلينا

بإشارات النصر. كان صوت المدفعية يتردّد مكتوماً في الهواء؛ ووصلت إلى محطّة حدودية إيرانية مدمّرة على ظهر تلّة، فتوقّفت ودخلتها بكل حذر. لقد كنتُ في إيران، في إيران المحتلة؛ وليس لديّ الآن أيّة مشكلة بخصوص سِمة السفر. فمن المثير الغامض دائماً أن تدخل بلداً مع جيش غازٍ، عالماً كم سيغضب كل أولئك الموظفين الأتقياء في قسم السمات ـ أولئك الذين جعلوني أنتظر ساعات في غرفة صغيرة تغلي بالحرّ، والعرق يتصبّب عبر شعري ـ لو رأوني أقطع الحدود دون تواقيعهم وأختامهم الرثّة التي لا تكاد تقرأ على جوازي. كانت هناك صور لآية الله الخميني مشوّهة شعائرياً على الجدران في محطة «شلمشه» الحدودية، وكومة كبيرة من السجلّات الرسمية المكتوبة بخطّ اليد متناثرة على الأرض.

لديّ انجذاب إلى الوثائق التي تبرز من ثنايا أطلال الحرب. كالرسائل البيتية، وأوراق البيروقراطية في الجيوش، والتعليمات لتوجيه الصواريخ أرض ـ جو التي أصبحت نافلة، والتي ما زالت ترفرف عبر الصحراء، وتغطّي أرض المصانع التي دُمّرت سطوحها. وقد سُطّرت تلك الكتب بالفارسية وسجّلت أسماء وأرقام السيّارات العراقية والإيرانية التي قطعت الحدود عند «شلمشه». وكان آخر دخول بتاريخ ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠، أي قبل بدء الغزو العراقي بيوم. ومع أن العراقيين يدَّعون أن الحرب بدأت بتاريخ ٤ أيلول/سبتمبر، فقد سمحوا للمسافرين ـ بمن فيهم أهل بلدهم ـ أن يمروا ويجتازوا الحدود كالعادة، حتى عشيّة هجومهم.

وكان هناك طاقم تصوير أميركي خارج الحُطام، يصوّر على شريط سينمائي صور الخميني المشوّهة؛ بينما يعدّ مراسلهم تقريره: «لقد شقّ الجيش العراقي طريقه بهجوم ساحق عبر الحدود الإيرانية، منذ أكثر من أسبوع، وهو يقف الآن لاستراحة المحارب، أمام مدينتي «خرمشهر» و«عبدان». . .» أجل، كانت المدن دائماً «استراتيجية» ـ على الأقلّ كما تبدو في التلفزيون ـ وعلى الجيوش أن تتقدم بهجوم ساحق عبر الحدود وتتوقّف لتعيد اتّزانها خارج المدن. وكأنه ليس هناك سوى نصّ واحد لكلّ حدث. ولا شكّ في أن العراقيين سيكملون حربهم

باتجاه «خرمشهر» عمّا قريب، أو ينتظرون خارجها أو «يدَّعون الانتصار» على المدافعين الإيرانيين.

ولكن من أنا لأتكلّم؟ كان مسجّلي، الذي وهبتني إياه هيئة الإذاعة الكندية، على كتفي، وكانت هناك وراء مركز الحدود بطّارية مدافع روسية من عيار ١٥٥ ملم، وهي بهائم ضخمة تتّجه مواسيرها نحو «خرمشهر». وقد عرض علينا قائدها بلطف، بعد أن اقترب منّا مبتسماً، إذا كنّا نرغب في مشاهدة إطلاق النار. أردت للحظة أن أقول: نعم لهذا الإغراء، وكنت أركّز مذياعي، عندما ناداني صوت ضميري ـ لأتصوّر جسماً مجهولاً يتمزّق أشلاء ـ فركضت في إثر القائد الذي تهيّأ ليأمر بإطلاق النار، وصحت به: كلّا، كلّا، لا تُطلق النار من أجلي، في أيّ وقت من الأوقات.

ولكني وجدتُ حُفرة في الرمل، وجلست فيها، وركّزتُ مسجّلي على حافتها وانتظرتُ، فهبّت عليّ ريح الصحراء الهوجاء، وعجّ شعري وأنفي وأذناي بالرمل، وبعدها انفجرت أول قذيفة مدفعية باتجاه الخطوط الإيرانية. أدرت حينئذ مسجّلي. ولا أزال أحتفظ بالشريط. وكانت المدافع قاتمة اللون تحت السماء، وهي تخور. وظللت أفكّر في وصف «دافيد أوين» للذراع السوداء الطويلة التي أوشكت أن تلعن». وكان أمامي عشرون، بل ثلاثون ذراعاً سوداء، وأكثر من ذلك وراء كثبان الرمال. وهناك أيضاً، سجّلتُ، دون أن أدري، خسارة في السمع بأذني اليسرى، الأمر الذي لا يمكن إصلاحه. وهذه اللحظة ذاتها مسجّلة على الشريط هكذا:

> «نستطيع أن نرى ضابط المدفعية أمامنا، خلال هذه العاصفة الصحراوية، يلقِّم بالقذائف المدافع الروسية من عيار ١٥٥ ملم، ويسدّ الجميع آذانهم. صوت المدافع عالٍ جدّاً، إلى درجة خلَّفت طنيناً في آذانهم. صوت المدافع، هناك طلقة أخرى انطلقت، بلسان طويل من اللهب يبلغ عشرين قدماً ـ بانغ ـ أمامها ـ بانغ. توقفت المدافع حولي؛ يا للعجب الذي لا يصدّق؛ هذه المدفعية الثقيلة

تطلق النار في وسط ـ بانغ ـ وهذه طلقة أخرى، في وسط الصحراء المغبّرة التي تُسفيها الرياح».

ما زلت قادراً على أن أسمع صدى المدافع البعيد في أذنيّ، وأنا أكتب هذه الكلمات، طنيناً ثاقباً، يكاد يجنّني في الليل، أو عندما أكون تعباً أو مهتاجاً، أو عندما أحاول أن أستمع إلى الموسيقى، أو لا أسمع مخاطبي على العشاء.

فتحت الراديو على محطة الإذاعة العراقية، فإذا بمزيد من الأراضي الإيرانية توشك «أن تسقط» بأيدي العراقيين، والجنرالات العراقيون يعلنون عن «آخر دفعة» للدخول إلى «خرمشهر». ومنذ خمسة أيام، كان سكّان البصرة سعيدين بأن يستمعوا إلى الأخبار عن التقدّم العراقي على التلفزيون. ولكن التجار وأصحاب الحوانيت في المدينة، أرادوا أن يدعموا معرفتهم عن الحرب بمعلومات إضافية يجنونها من الصحافيين الأجانب. ولم يخطر ببال أحد أن القذائف الإيرانية قد تسقط على أرض العراق، على هذا البُعد بعد الغزو.

وقد دعينا ذلك المساء إلى جولة نقوم بها في مستشفى قضاء البصرة. وكان في مبنى أجرد كئيب معزول، من الآجرّ، مطليّ باللون الأزرق الشاحب. إنه يبدو كثكنة للجيش؛ ولا يخفّف من رتابته سوى أناقة مساكب الزهور خارجه، ونشاط الأطبّاء، ولا سيّما الوجود الدائم للدكتور سعدون خليفة التكريتي، نائب وزير الصحّة العراقي. وكان رجلاً قصيراً ودوداً، له شاربان كبيران وابتسامة لعوب؛ يُستقبل بالهتاف والتربيت على الظهر أينما ذهب. وكان كلّ واحد يسلّم عليه بحماس؛ وعندما يلقي الوزير طُرفة، ترتفع في ممرّات المستشفى هبّات من الضحك والاستحسان. وقد استوعب مستشفى البصرة كل الجرحى الذين بلغ عددهم خمسمئة خلال الأسبوع المنصرم. ولكن كان للتكريتي اهتمام آخر، بالإضافة إلى الاهتمام بالمرضى وهو يطوف بأجنحة المستشفى؛ إذ كان يسلّم على المراسلين الأجانب بخطاب قصير حادّ ينتقد فيه مساوىء قصف المدنيين؛ ثم يقف ويضرب بقبضته الطاولة ضرباً مكتوماً، ويدّعي أن سلاح الطيران الإيراني قتل الأطفال العراقيين عن عمد.

مشى التكريتي إلى جناح الأطفال، وهو عبارة عن غرفة طويلة، مجلَّلة بالستائر، حيث تبدو وجوه مروَّعة من تحت صفّ الضمادات التي تلفّ الرؤوس؛ بينما كانت تحدّق الأمّهات الفلّاحات بشدّة في الأطباء بأثوابهم الخارجية البيضاء. قال هذا الطبيب الطيّب، عندما وقف لحظة أمام طفلة لها عينان سمراوان جميلتان وشعر أسود أجعد: «خذوا مثلاً، هذه البنت الصغيرة.. إنها لم تتجاوز السنة الثالثة من العمر، وقد فقدت ساقاً من ساقيها». وهنا نزع التكريتي عنها الغطاء، فبدا فعلاً أن ساقها اليسرى مفقودة، ولم يبقَ منها إلا الجَذْعة (أي أرومتها). فعبست البنت الصغيرة، وهي مرتبكة لكشفها عارية. ولكن التكريتي كان قد سار وأمامه مسلّح بلباسه الرسمي. فقد كان هذا المسلّح في الحياة المدنية مساعداً للجرّاحين في المستشفى، ولكن سترته التمويهية ومسدّسه الموضوع في جِرابه، أعطياه مظهراً متعارضاً مع بيئة المستشفى، بينما كان يمشي متثاقلاً، وبجلبة حول الأسرّة، ولا سيّما عندما وصلنا إلى جناح الأطفال الثاني.

فقد كان هناك صبيّ في الخامسة من عمره قابعاً في زاوية مظلمة، وملفوفاً بالعصبات. وبدا أنه محروق بشكل فظيع بواسطة قنبلة إيرانية حارقة، وعلى وشك الموت. وكانت هناك أنابيب لدائنيّة في منخريه وشاش ملفوف حول صدره وفخذيه، وعيناه تقطران دمعاً وألماً؛ إنه في بحر من العذاب المقيم الذي لم نُرد أن نتخيّله. وكان الصبيّ قد أغرق وجهه في مخدّته، وهو يتنفّس بصعوبة، عندما تقدّم منه ذاك المسلّح المذكور، ورفع رأسه المعصوب بالضمادات، كي تراه الصحافة. فلهث الصبيّ من الألم، واشتكى أحد الصحافيين من هذه المعاملة؛ فقيل له إن المسلّح مساعد طبّي متدرّب.

وبرشاقة، أشار الدكتور التكريتي إلى السرير التالي، وتُرك الصبيّ يقاسي تحت رحمة ربّه، بعدما أثبت لنا جور الإيرانيين الذي لن يفهمه. وزعقت صفّارة إنذار بغارة جوّية، وسمعنا عن بعد إطلاق مدافع مضادّة للطائرات بشكل متقطّع. وكانت هناك طبعاً أجنحة أخرى في المستشفى، منها جناح فيه بحّارة بنغلادشيون، قصفتهم نفّاثات إيرانية بالقنابل. وكانوا رجالاً نحافاً، تمسّكوا

بأغطيتهم ارتباكاً، عندما نزعها عنهم الدكتور التكريتي ليرينا أجسامهم العارية المشوّهة؛ إنهم يشكّلون جيلاً من الشحّاذين المبتوري السيقان جدير بشوارع «داكا». وكان هناك أيضاً عمّال نفط، أصيبوا عندما انفجرت مراجل النفط، يحدّقون في السقف بوجوههم المحمَّصة؛ وكان الأطبّاء في ذلك الوقت قد شرعوا بإزالة الضمادة عن وجه أحدهم. ابتسم التكريتي ببراعة، قائلاً: «إن بعض هؤلاء، يتكلمون الإنكليزية، وباستطاعتكم أن تسألوهم عمّا حصل»؛ مشيراً إلى جمهور منهم على الأسرّة. لماذا لا تسألوهم عمّا حدث؟.

وكان نائب وزير الصحّة إذ ذاك يقود زائريه إلى مستشفى التدريب على شطّ العرب، في مبنى من ستّة طوابق، يبدو كوزارة حكومية أكثر من كونه مركزاً طبّياً. وكانت المدافع الإيرانية قد ثقبت الطابق الرابع، وجرحت أربعة مرضى؛ وادّعى الدكتور أن ذلك كان أيضاً هجوماً مقصوداً؛ نظراً لأن المستشفى كان قد رفع أعلاماً بيضاء عليها الهلال الأحمر. ولكن تلك الأعلام كانت بمقياس ستّة أقدام مربعة، بينما كان الهلال القاتم اللون الذي طلاه الأطبّاء على السطح المنبسط أقرب إلى لون الإسمنت. أشار التكريتي إلى لطخات الدم على السقف، مستنكراً: «إن العرب لا يفعلون ذلك، إنهم لا يهاجمون المدنيين». وبينما كان يغادر المبنى، جاءت شاحنة بالية، مفتوحة السطح؛ وفي مؤخّرتها جثتان، مغطّاتان جزئياً بحرام قذر، تبرز منه أربعة أقدام سمراء. سأل السائق عمّا يجب أن يفعل بالجثتين. ولمّا لم يرَ الدكتور التكريتي أيّ صحافي حوله، قال له: «خذهما إلى خلف المبنى».

وكان أوّل فوج من الفدائيين العراقيين قد اخترقوا الضفّة الغربية من نهر قارون على شطّ العرب عند الساعة ١٢:٢٣ ظهر ٢ تشرين الأول/أكتوبر، كانوا أربعة يركضون على رصيف مرفأ «خرمشهر» وراء خطوط الشاحنات المحروقة والمنحرفة عن الطريق؛ يرمون قنابل يدوية على الرصيف التحتاني. كنتُ أستطيع أن أراهم من خلال منظار حربي عراقي على بعد ٤٠٠ متر، وأنا أسترق النظر من فوق أكياس الرمل في كوخ طينيّ متداعٍ، بينما يكمن بجانبي قنّاص عراقي يقصف الخطوط الإيرانية على الضفّة الأخرى من نهر قارون.

وكان بجانبي أيضاً «بيار بايل» من وكالة الصحافة الفرنسية، وهو رجل قوي عملي، يأبى الخوف، كما تعلّم من خبرته في الفيلق الفرنسي الأجنبي. وكان يغمغم: «لا بأس، لا بأس»، كلّما تقدّم عراقي نزولاً على رصيف الميناء. «لا بأس بهؤلاء الشجعان»، على حدّ قوله. كان المنظر استثنائياً؛ كان هجوماً للمشاة يمكن أن تراه في إحدى الصور الزيتية الرومانسية وراء أكياس الرمل، وهم يرشقون آخر معقل للإيرانيين على ضفّة النهر بالقنابل اليدوية. وبقي أزيز رصاصهم مستمرّاً أكثر من ساعة بين زروع الجزيرة الصغيرة التي لذنا بها وهو يصطدم بأشجار النخيل فوقنا، ويرنّ على جسر الأطواف العائم الذي يصل هذه الجزيرة بالبرّ العراقي الرئيسي. وكان العراقيون قد نجحوا في اجتياز نهر قارون، وساروا صعوداً أربعة كيلومترات من شط العرب، وأرسلوا فرقة دبّابات عبر النهر، قبل ذلك بأربع ساعات؛ وبدأوا أخيراً بتطويق الإيرانيين في عبدان. وقد اعترفت الإذاعة الإيرانية بأن «جنوداً من الأعداء» قد تسللوا شمالي المدينة.

يرفد نهر قارون شطّ العرب، عند زاوية قائمة. وكنا نحن قُبالة ملتقى النهرين، في جزيرة الزروع المسمّاة «أمّ الرسّاس» المنبسطة في وسط شط العرب، نراقب كيف يستولي العراقيون على واجهة النهر. وكانت القذائف العراقية تتفجّر في مجموعة من دبّابات «تشيفتين» هجرها الإيرانيون عندما قُطع انسحابهم عند نهر قارون. واستمرّ العراقيون يرمون وابل قذائفهم على عبدان طيلة الصباح وبعد الظهر، بأصوات مخيفة تهدر فوق رؤوسنا على الجزيرة الصغيرة، كأصوات الطائرات النفّاثة.

إن القذائف تنطلق بسرعة، عندما نراها بالعين المجرّدة. ولكنني أدركت بعد بعض الوقت أن ظلالها تنعكس على النهر، وتطير بسرعة عبر المياه؛ وحقول الأرز، ثم تسقط نحو عبدان حيث تترك الانفجارات الهائلة آثارها المدمّرة. لم أستطع أن أصرف نظري عن هذه الظاهرة الغريبة. فعندما تصل القذائف إلى أعلى نقطة لمداها قبل أن تعود فتسقط على الأرض، كانت الظلال الصغيرة ـ كنقط سوداء مشؤومة تنسحب على صفحة النهر ـ ترفرف قربنا، كغمامة بالغة

الصغر تستقرّ على الماء. ثم ينكمش الظلّ، ويأخذ في الانتقال بسرعة مخيفة نحو الشاطىء، حتى يختفي في نور الشمس.

وعلى الضفّة المقابلة من النهر، أصابت إحدى هذه القنابل سفينة كبيرة، وأشعلت فيها النار التي ارتفعت كجدار علوّه ١٠٠ متر على ظهرها، من مقدّمتها إلى مؤخّرتها. أما في وسط النار فتشكّلت دائرة بيضاء ساطعة إلى درجة أحسستُ عندها أنها تحرق وجهي، وتؤذي عينيّ عندما أنظر إليها. وفي بعض الأحيان، كانت الجلبة الناتجة عن إطلاق المدفعية العراقية، وعن انفجار القذائف الإيرانية حول كوخنا الطينيّ، بالغة الشدَّة إلى درجة جعلت الجنود العراقيين المرابطين وراء النوافذ والأزقّة في القرية المهجورة على الجزيرة، عاجزين عن إسماع بعضهم بعضاً. وقد أوجس أحد الضبّاط العراقيين ـ صاحب المدالية الذهبية البعثية التي تزيّن لباس المعركة الذي يرتديه ـ خيفة من أن يصيب جنوده بعضهم بعضاً بالرشّاشات على ضفّة النهر البعيدة؛ ولذلك أعطى أوامره تكراراً بتوجيه إطلاق النار باتجاه مجرى النهر. وجاء إلى كوخنا الطيني البالي، قنّاص عراقي، طويل القامة، جسيم، عريض المنكبين، مفتول الذراعين، وعلى خدّه الأيسر ندب؛ وهو يحمل رشّاشاً سوفياتياً طويلاً من طراز «دراغونوف» مع منظار تلسكوبيّ. ابتسم لنا ابتسامة عريضة مثل تلميذ مدرسة، وحكّ وجهه، ثم وضع سلاحه على النافذة المكسورة، وأطلق النار على الإيرانيين في جولتين. وكلّما سقطت قذيفة قربنا، كانت تهتزّ أشجار النخيل في الخارج، وتتساقط علينا قِطع طين من سقف الكوخ.

وأخيراً، يبدو أن العراقيين باتوا يزاوجون بين واقعهم ودعاياتهم، فلو استطاعوا أن يحتلّوا «خرمشهر» و«عبدان» وأن يسيطروا على ضفّتي شطّ العرب، لبسطوا تلك السيطرة على كامل ذلك المجرى المائي ـ وذلك أحد الأسباب الظاهرة للحرب. وجاءت تقارير تبيّن أن العراقيين يتقدّمون باتجاه «دزفول»، على بعد ٨٠ كيلومتراً داخل إيران؛ فضلاً عن تقدّمهم نحو الأهواز، مع أن ادّعاءهم بأنهم احتلّوا الأهواز صعب التصديق. لقد احتلّوها أصلاً منذ ١٢ يوماً، لكنّ الصحافيين راقبوها فيما بعد وهي تتمزّق أشلاء تحت القصف

الإيراني. ولم يكن هناك من نفي لشراسة الدفاع الإيراني عن عبدان؛ حتى أنهم ما زالوا يدافعون عن «خرمشهر» وما فتىء قنّاصوهم يطلقون النار من أعلى رافعات الميناء.

وقد حذَّرنا الجنود العراقيون من أولئك القنّاصين، عندما كنّا نتهيّأ لمغادرة «أمّ الرسَّاس». ومع أنه لم يكن باستطاعتهم أن يرونا قرب الكوخ، فقد كانت لديهم رؤية واضحة من فوق أشجار النخيل، حالما نصل إلى جسر الحديد المعزول الذي يصل الجزيرة بالشاطىء الغربي لشط العرب. ركضتُ مع «بيار بايل» بسرعة بين الأشجار، ونحن نسمع بعض طلقات الرصاص السريعة، دون أن نقلق، حتى وصلنا إلى ضفّة النهر. وهناك أيضاً، كنا نرى ظلال القذائف تتهادى على المياه. قال بايل: «علينا أن نركض»، لكنني لم أوافق على ذلك. وربّما كان نور الشمس الساطع، والنخيل الأخضر السماوي، ما جعلني أعتقد ـ أو أريد أن أعتقد ـ أنه لن يزعجنا أحد أثناء انسحابنا عبر الجسر.

وبالطبع، كنت مخطئاً. فحالما انطلقنا عبر جسر الحديد الضيّق، صار الرصاص يفرقع حوالينا، وبعضه قريب جعلني أشعر بانحراف الهواء عن خطّ سيره. ورأيت خطّاً من رذاذ يتقدّم نحونا فوق النهر ـ وكنتُ إذ ذاك أركض، وأنا أفكّر كالطفل الطائش بأن ذلك يشبه ما نراه في أفلام هوليود، موجات من الماء تنطلق نحو الجسر، ثم تنبو وتئزّ عند اصطدامها بالحديد، وتنثر حوالينا ارتداداتها. وقد رأيت منها قطعة معدنية سطَّحتها الطلقة، ومرّت على بعد إنشات قليلة من وجهي، فزدت من سرعة ركضي، لكنّ ركوداً شعورياً ـ وهو الأخطر ـ تمّلكني، على أساس أنّ هذا لا يمكن أن يحدث لي، وإذا حدث فعليّ تحمّل نتائجه. وما هي إلّا ثوانٍ حتى صار «بايل» إلى جانبي، يخطف المسجّل مني، ويصيح: «أركضْ، أركضْ»، في أذني اليسرى، وهو يدفع جسمي إلى الأمام من الخلف، ثم عندما قاربنا نهاية الجسر، أمسكني بذراعي وجذبني لنقفز معاً إلى الماء في شط العرب، بينما الرصاص ما زال يتناثر حولنا على صفحة الماء. خضنا الأمتار الأخيرة، وتسلّقنا الضفّة، وغصنا في أيكة النخيل، بينما انفجرت مجموعة من قذائف الهاون حول الجسر، الذي صار حديده يرنّ بفعل الشظايا المتناثرة.

ووسط الأشجار كانت فصيلة عراقية تطلق قذائف الهاون نحو «خرمشهر» وأومأ الرقيب إلينا، فارتمينا على التراب منهوكين لنرتاح وسط جنوده. وجلب لنا أحد جنوده الشاي، ونظر إلى «بايل» وقابلني بانحناءة. فظننت أولاً أنه يريد أن يبلغني عن سوء الحالة، وأننا نجونا بحياتنا من وضع عسير. ثم أدركت أنه يفكّر مثلما أفكّر: لقد قضم صدّام أكثر مما يستطيع أن يمضغ؛ وقد لا تكون هذه حرباً خاطفة كما توهّم، بل غزواً مرهقاً قاسياً طويل الأمد. وعندما عدنا إلى فندق «حمدان» بعد الظهر، سجّلتُ قصّتي على آلة التلكس القديمة، وأرسلتُ الشريط إلى لندن بجهد، وعدتُ إلى غرفتي، ونمتُ ١٥ ساعة. وبدأ شعوري بالمغامرة يتلاشى شيئاً فشيئاً.

لماذا أردنا أن نعود في طلب المزيد؟ ولماذا أخبرت القسم الأجنبي في «التايمز»، أنني سأبقى في البصرة، ولو لم يكن لديّ ما يكفي من المال؟ ـ من المؤكّد أنني أردتُ أن أرى بعض المزيد من هذا التاريخ الذي أشهده، وأعرّض نفسي فيه للخطر. فإذا كان صحيحاً أن صدام قد قلّل كثيراً من تقديره لآثار هذا الغزو ـ وأن الإيرانيين يقاومون بشجاعة كبرى ـ فقد يستجيب الجيش العراقي لدعوة الخميني بالعصيان. وهذا يعني نهاية نظام صدّام ـ أو نهاية الكابوس الأميركي والعربي ـ ومن ثمَّ احتلالاً إيرانياً للعراق، وقيام دولة إسلامية شيعية أخرى.

ولكنّ الحرب عبارة عن خبرة فذّة، جذّابة، مؤلمة، وفريدة للصحافي. ولا بدّ من إحراق ذلك المخدّر. وإذا لم يحصل ذلك، قد يموت الصحافي. كنا شباباً. وكنتُ قد عدتُ لتوّي من أفغانستان وما انتابها من غزو سوفياتي، وكنت غارقاً أيضاً في تغطية الحرب الأهلية اللبنانية، وآثار غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٧٨. وكنتُ قد غطّيتُ كذلك الثورة الإيرانية، تلك البوتقة للحرب العراقية ـ الإيرانية. لقد كانت هذه حربي أنا. أو على الأقلّ، هذا ما كنتُ أشعر به كل يوم، عندما أنطلق إلى الخطوط الأمامية من الجبهة العراقية. وكانت هذه المرّة مع «غافين» وطاقمه في صباح حارّ، حيث تعرّضت لخطر الموت مرة أخرى، على طول شط العرب. وكنتُ كالعادة، أحمل مسجّلي، وأسمع قبل تسجيلي

هذه الكلمات، شريط ذلك اليوم الرهيب، وأسمع نَفَسي وقلبي يدقّ، عندما بدأت أدرك كم تكون الحرب مخيفة ومرعبة.

صارت الآن معظم السفن على الضفّة البعيدة طُعمة للنيران، أبّهة فارغة للدمار، صوّرتها كلّ الكاميرات. ولكن كالعادة، كان علينا أن نقارب النهر من الخطوط العراقية. وصارت الآن للإيرانيين استعدادات أخرى، منها ربط رجال بالحبال إلى صواري الرافعات على الضفة المقابلة من النهر، وتزويدهم بقنابل يدوية تُقذف صاروخياً، بالإضافة إلى الرشّاشات. وفيما يلي نصّ التسجيل الصوتي الذي حضَّرته لهيئة الإذاعة الكندية:

فيسك: نحن نمشي عبر هذه القرية المهجورة الآن، ولا يبدو لنا أيّ مخلوق هنا، ما خلا بعض الجنود العراقيين على السطوح، ممّا لا نراهم. ولكن، هناك كثرة من إطلاق نار خفيفة بقربنا. (صوت إطلاق النار يزيد). نعم، أوقف السيّارة يا «غافين» هنا.

هيويت: هنا في المنحدر؟

فيسك: نعم، ها هم، (صوت إطلاق النار أصبح أقرب هذه المرّة). لقد بدأت أفكّر لماذا انخرطت في سلك الصحافة. (ضربات قلبي الآن تعطّل تعليقي). مشينا عبر ساحة تبدو كساحة مدرسة، مع بعض المقاعد الملقاة هناك.

(يأتي الآن صوت قنبلة يدوية مقذوفة صاروخياً، يتبعه رعد انفجار يقطع التعليق، ويكسر مفتاح السمع على المسجِّل).

فيسك: إلى الوراء هنا، أعتقد، نلفّ بهذه الطريقة، (عشرات الطلقات وصوت غافين وطاقمه وفيسك، يركضون لإنقاذ حياتهم، وهم يلهثون) نحن نحاول أن نرجع إلى السيّارة طلباً للأمن. آخ، هذه الطلقة قريبة. أعتقد أن بإمكانهم أن يرونا نتجوّل هنا. لنذهب.

هيويت: (للطاقم)، نعم، تعالوا، تعالوا، نحن نغادر. هل يمكن أن نذهب؟

اللعنة!

ومن ثمَّ، عند الإصغاء إلى هذا الشريط، أسمع حثَّنا سائقنا العراقي على الانطلاق، بالصراخ، وأحدنا يصيح به بعنف ونحن نغادر: «إمشِ، بس، إمشِ». ثم أتكلّم بالمذياع، وأرسل رسالة قصيرة إلى «جورج لويسكي» و«سوهيكي» في مكتب هيئة الإذاعة البريطانية في لندن:

«يا «جورج وسو»، آمل أن تكونا قد استمعتما إلى كل هذا الآن. أرجوكما، أرجوكما، استعملا هذا التسجيل ما استطعتما إلى ذلك سبيلاً، لأنه يدلّ على الأخطار التي نتعرّض لها. ومن ثمَّ، احتفظا به مهما حصل ـ إنه ذكرى أريد أن أحتفظ بها لباقي حياتي، وأنا جالس في كوخي الإيرلندي. لا ترمياه، مهما فعلتما!».

ولكن التسجيل لم يجد لنفسه منفذاً. أعطيته لسائق التاكسي الذي يخدمنا في البصرة، ليخرج به عبر الحدود، ويرسله من مطار الكويت، لكنهم أرجعوه من نقطة الحدود، وأمضى أربع ساعات حتى عاد إلى الفندق يبتسم مداهناً، وملوّحاً بشريطي من نافذة السيّارة كسمكة ميتة. لكني أرسلته فيما بعد عبر خط يطقطق من خطوط التلفون. والله يعلم ماذا فعل به الكنديون ـ إنما علمت فيما بعد أن أحد سائقي الشاحنات في موقع «هوايت هورس، يوكان»، خابر هيئة الإذاعة الكندية من أحد أكشاك التلفون، سائلاً: «هل كان ذلك حقيقياً؟».

لقد كان حقيقياً، فالصوت المسجّل هو صوت أربعة من الرجال الشباب الذين عرّضوا حياتهم للخطر من أجل... لا شيء؟ ـ لا أعتقد ذلك. فهذه المجازفة بحياتنا، كما أظنّ، تعطي مصداقية حقيقية لعملنا، ولمواقفنا التي نتحدّى بها أحياناً صدق الحكومات ـ أو غيرنا من الصحافيين ـ في القول وفي الفعل. وقد أثبتت هذه الخبرة لي دون أيّ شكّ أنّ العراق «لن يربح» الحرب. فقد كان هناك هجوم مضادّ مستمرّ بالمدفعية الإيرانية؛ وقد كتبتُ إذ ذاك في شهر تشرين الأول/أكتوبر ـ بدقة وإنما مبكراً ستّ سنوات ـ إذا حملنا هذا على محمل النتائج المنطقية، لن تكون «خرمشهر» هي الوحيدة الواقعة تحت القصف العراقي؛ ولكنّ البصرة أيضاً ستكون تحت القصف الإيراني».

ويمرّ الآن على جسر «بايلي» في البصرة سيل مستمرّ من سيّارات الإسعاف العسكرية. وقد غامرتُ بالذهاب إلى «شلمشه» أيضاً. وهناك كان الجرحى العراقيون ممدَّدين على الرمل، بينما كانت بطارية للمدافع الثقيلة عيار ١٥٥ ملم بقربهم ترمي ببطء قذائفها عبر الحدود. وجاءت سيارة إسعاف تتخبّط على الطريق الصحراوية صعوداً وهبوطاً، ثم تثب لتقف في حوض رملي محاط جزئياً بأشجار النخيل. أخرجوا منها رجلاً من المشاة على حمَّالة. ونزعوا عن كتفه الرباطات الملطّخة بالدم، ووضعوه على فراش بديل مؤقّت في ظلّ محطة قديمة للشرطة. وكان الرجل الذي أصيب بطلقة من قِبل قنّاص إيراني لا يزال متألماً، لكنه لا يئنّ، بينما كان ثلاثة من الممرِّضين الطبّيين العسكريين يتنازعون حول أكياس تغذيته بالتقطير، وبينما كانت المدافع تقوم بجولة إطلاق كل دقيقة، بتفجيرات صاعقة تهزّ جدران المبنى، وتجفِّل الأطباء.

وجيء أيضاً من وراء كثبان الرمل بجندي آخر مصاب إصابات بليغة، إذ إنه عضو من طاقم دبابة فُجِّرت. كان رأسه يتمايل من جهة إلى أخرى، وركبتاه تلتويان، عندما حمله رفاقه، ونقلوه إلى ساحة محطة الشرطة. أما الجريح الآخر الذي أصيب في كتفه، فقد بدأ يئنّ قليلاً؛ وكلما أطلقت المدافع باتجاه «خرمشهر»، كان يلتفت حواليه مذعوراً، ويخبط بذراعيه يمنة ويسرة، كأنه لعبة أُخرجت أحشاؤها.

وكان مركز الإسعاف المتقدّم للجيش العراقي في الجبهة الجنوبية عبارة عن مكان صغير كالح، تشهد فيه لطخات الدم الطويلة التي لا تزال على الأرض على التضحيات الجسام التي تكبّدها الجيش العراقي لقيامه بـ «الحرب الخاطفة». وكان الممرِّض الطبّي الأعلى مقاماً واقعياً بهذا الشأن، إذ قال مكشِّراً غاضباً: «إن هذا مبنى قديم، وهو ظاهر على كل خرائط الإيرانيين، وسيطلقون النار عليه، وسيكون لدينا مزيد من الضحايا. وبعد ذلك بثلاث دقائق بدأت القذائف الإيرانية تتساقط، وتقضّ مهاجع المدافعيين العراقيين في حُفرهم».

وقد احترق سائق إحدى سيّارات الجيب العسكرية ومات على طريق «خرمشهر ـ شلمشه» ـ التي وقعت بأيدي العراقيين ومضى عليها وقت طويل

وهي آمنة ـ عندما سقط وابل من قنابل الإيرانيين على قافلته. ولم تسقط بعد أية مدينة إيرانية رئيسية بأيدي العراقيين، ما عدا «قصر شيرين» إلى الشمال. وكل ما احتلّه العراقيون حتى الآن عبارة عن ٣٠٠٠ كيلومتر مربّع من الصحراء السمراء العطشى، إنه منظر رثّ للصخر والرمل، أحسن الإيرانيون بانسحابهم منه، ليستمروا في قتالهم من التلال.

وعندما طلبت مع «غافين» و«هيويت» أن نزور المستشفى العسكري في البصرة أعطونا الإذن خلال دقيقتين، ولم يحاول أحد أن يمنعنا من أن نتكلّم مع الجنود الجرحى في الداخل. وكل المصابين أخبرونا بالقصص ذاتها، عن هجمات مفاجئة يقوم بها الإيرانيون، برشّاشات المروحيات الإيرانية ـ «الكوبرا» التي باعها الأميركيون للشاه ـ فضلاً عن طائرات الفانتوم المنقضّة عليهم من الشرق. ووصف رجل من طاقم إحدى الدبّابات أنه سمع صوت محرّكات الطائرة النفّاثة قبل أن تصاب دبّابته بصاروخ. وبلحظة اكتسى معظم جسمه بالنفط الملتهب. وقُذف أحد جنود قيادة النقليات في الجيش من سيارة الجيب التي كان فيها جنوبي الأهواز بصاروخ أُطلق من طائرة مروحية إيرانية. وبينما انطرح على الطريق، أطلّت طائرة «فانتوم» من جهة الشمس وقصفت بالقنابل رفاقه الذين لا يزالون يترنّحون من هول الضربة الأولى للدبابة المنكوبة.

وبتاريخ ٥ تشرين الأول/أكتوبر دخل العراقيون «خرمشهر» أخيراً، ونحن معهم. وجدناها مدينة محروقة محطَّمة. وكان هناك رجل عربي إيراني، يمثّل وحده الملايين من عرب «عربستان» الذين يحاول صدّام أن ينقذهم ـ يجلس القرفصاء على الأرض الحجرية لبيته الطيني، وهو يخمّر الشاي لأحد الجنود العراقيين ويتجاهل أسئلة الغرباء. كانت على وجهه تجاعيد عميقة، وله لحية بيضاء. لقد حُرِّر هذا الرجل. وهذه هي المدينة التي جاء منها ممثِّل حصار السفارة الإيرانية في لندن، المدينة التي يسمّيها «المحمّرة». هذه هي «دانزيغ» صدّام، والصحراء التي وراءها هي «السوديت». كان العراقيون يحاولون أن ينقذوا عرب إيران؛ ولكن كل ما نستطيع الآن أن نراه على أحد الشوارع

الرئيسة، هو طريق عامة مدمّرة وأعمدة تلغراف مكسورة، وحوانيت مسودّة ذات طبقة واحدة، حيث يجلس الجنود العراقيون، الملوّثة وجوههم بالطين، على الدرج، ويتحدّثون تحت ألواح من التوتيا (الحديد المغضّن).

وكان اللواء عدنان خيرالله، وزير الدفاع العراقي، وابن خال صدّام، قد عرض على الإيرانيين وقفاً لإطلاق النار ـ لتبيان «نوايا العراق السلمية»، أمام العالم، دون أية رغبة في الانسحاب من الأراضي الإيرانية ـ ولكن، لم يمضِ على الهدنة من طرف واحد، ستّ ساعات ونصف ساعة، حتى فتح الإيرانيون النار على «خرمشهر» المحتلّة. وكنا إذ ذاك نستمع إلى اللواء «رمزي» من الجيش العراقي، بعينيه المحتقنتين بالدم، ورأسه المائل من الإرهاق، وهو يدَّعي أن جنوده سيطروا على المدينة ومينائها، عندما نزلت زخَّة من القذائف على البيوت والبساتين حولنا.

وقال أحد عمداء الجيش، بينما بدأت القنابل تنفجر حول الجسر عند آخر الشارع: «نرجوكم أن تذهبوا الآن، لأن الوضع غير آمن». وأُدخل من البوابة أحد الفدائيين العراقيين، والدم يسيل على خدّه الأيمن من جرح سبّبته شظايا القنابل. ولم تعد «القوّات العراقية الخاصّة» تضحك وتشير إلى الصحافيين بإيماءات النصر ـ بل جلس أفرادها عند حافة بركة خالية من السمك، وحدَّقوا فينا بكآبة. فقد كان حرّاس الثورة الإيرانيون ما زالوا يدافعون في المباني المتقوّضة الواقعة في الجهة الغربية من نهر «قارون»؛ وقد قادوا ستّ دبّابات من طراز تشيفتين» واجتازوا المركز الرئيس للبريد، مطلقين النار على أقرب مركز للقوّات العراقية، حتى أصيبت واحدة منها بصاروخ. وبينما كنتُ أركض من الدارة التي كنتُ فيها، لمحت دبابة عراقية تدور ماسورتها بشكل هائج، وتسحق جنازيرها القمامة في طريقها إلى مركز المدينة.

صار للعراقيين الآن دبّابات متمركزة على طول الواجهة المائية في «خرمشهر». ولا بدّ أنهم دخلوا المرفأ فجأة، لأن الأرصفة كانت لا تزال ملأى بمركبات الأطعمة الخالية، والصناديق، والحاويات التي تحترق وهي مدلّاة من الرافعات المعطوبة. وكان بعض الجنود العراقيين ينهبون محتوى بعض

الحاويات، المؤلف من خليط من درّاجات «سوزوكي» النارية، وكرات القدم، وعلف الدواجن الهولّندي، ومضارب كرة الطاولة.

وكانت السفن راسية إلى جانب الرصيف تحت القصف منذ عدّة أيام. وكان الضابط الرئيس في سفينة الشحن «كراسيكا» ينحني عند مؤخرة ظهر سفينته المثقّبة بالرصاص، ويبتسم ابتسامات عريضة صارخاً: «لقد قُصفنا من الجهتين كل الوقت ـ خلال الأسبوعين الفائتين. ولذلك قبعنا في أسفل السفينة، ولعبنا بالورق، وشربنا البيرة. وماذا كان بإمكاننا أن نفعل؟». ولا شكّ في أن الحال كانت سيئة، لأن الرجل لم يأبه لينظر ناحية الشرق على الواجهة المائية حيث كان الدخان يتصاعد بكثافة من سفينة تحترق. وقد أتلفت النار في سفينة الشحن الإيطالية «كابريلّا» جسرها، ومدخنتها، وبناءها الفوقي. وكان بحّارة سفينة إيطالية أخرى قد أطفأوا النار بعد القصف الأول، ثم هربوا إلى سفينة شحن كورية منعتهم من الإلتجاء إليها، ولكن آوتهم سفينة يونانية. أما سفينة «يانغ تشون» الصينية فقد أصابها صاروخ ورصاص ثاقب في بدنها. وأبعد من ذلك لجهة الشرق كانت سفن أكبر تحترق.

لن تستطيع أي من هذه السفن أن تُمخر عُباب البحر من جديد؛ بل ستبقى حُطاماً متفحّماً على جانب المرفأ، لمدّة ثمانين سنة تالية. أمّا في البصرة، حيث توجد أيضاً تسعون سفينة شحن ذات أحجام أكبر راسية على طول الأرصفة، ومُتهيّئة للهرب، حالما يحصل أيّ وقف حقيقي لإطلاق النار؛ وإلّا ستبقى وتبلى بعد مرور ربع قرن. ويُعتبر ذلك تطوّراً حزيناً لمرفأ أسّسه الخليفة عمر بن الخطاب عام ٦٣٨، واحتلّه البريطانيون عام ١٩١٤ وعام ١٩٤١ وعام ٢٠٠٣. فالمصالح التجارية البريطانية كانت هنا منذ عام ١٦٤٣؛ ولا يزال بالإمكان رؤية الواجهات الخشبية المحفورة ومصاريع النوافذ المحسّنة للبيوت العثمانية وراء قنوات المدينة الستّ النتنة. وكان الخليفة عمر قد شرّع بأن لا يسمح لأحد بقطع نخيل المدينة؛ مع أنّ آلافاً من نخيلها تقف اليوم مقطوعة أو متفحّمة بالنار في مزروعات ضلّعتها مجاري مياه أحدثتها منذ زمن طويل السفن البخارية في القرن التاسع عشر. إنها متاحف بالية للتكنولوجيا الصناعية التي أطلقت في أيّامها دون شكّ بتباشير النصر، عندما أُنزلت إلى البحر في

«بوركنهيد» و«بلفاست»، منذ جيلين. ففي البصرة، التي لقّبها أحد مكاتب السياحة هناك في لحظة حماس، بـ «بندقية الشرق» (فينيسيا الشرق)، كان لا يزال من الممكن مصادفة ما تبقّى من تذكارات من أيام الإمبراطورية البريطانية. ففندق شطّ العرب كان محطّة مرحلية للخطوط البريطانية الملكية للزوارق الطائرة التي كانت تتوقّف في شطّ العرب، وتنزل ركّابها في قاعة استقبال لا تزال حتى اليوم مزيَّنة بنماذج مصفَّحة لسفن بُنيت في بريطانيا.

وكان العراقيون يتعلّمون في كلّ يوم الآن أن النصر لن يكون لهم ـ على الأقلّ، لأسابيع أو أشهر، أو حتى سنوات. ومن «خرمشهر» تقدّمت القوّات العراقية ثمانية كيلومترات فحسب في عشرة أيام، وفي المدينة، وافق معنا لواء يرتدي الطاقية الحمراء لرجال المظلّات، ويحمل مِخْصَرة (أي عصا الضبّاط التي يختالون بها) أن الإيرانيين لا يزالون يحاربون بشدّة. وبينما كان يتكلّم مرّ بنا جندي شاب محمول مغطّى بالدم يصيح بأنه يموت. وقد قال لي ضابط آخر في ذلك اليوم: «ظننَّا أن الإيرانيين لن يقاتلوا، لكنّي أعتقد الآن أنهم سيستمرّون في القتال، مهما حدث». ولكن، لن يقول أيّ مرجع رسمي هذا الكلام.

ونادانا أحد مراقبي وزارة الإعلام في بهو فندق حمدان قائلاً: «يجب أن تأتوا ـ يجب أن تأتوا، كي تروا أسرى الحرب الإيرانيين. وكان ذلك أوّل عرض للأسرى من قِبل الفريقين في الحرب، في إخراج مسرحي سيشمل الآلاف من أسرى الحرب، ومناسبة «صحفية» تُعتبر خرقاً فاضحاً لاتفاقية جنيف. ولكننا ذهبنا في ذلك الصباح الساطع من تشرين الأول/أكتوبر لنرى كيف يبدو الأسرى الإيرانيون. وهل هم «حيوانات في زنزانة؟»، كما وصفهم «غافين» في تعليقه الملائم![*].

(*) علينا أن نحذر من الحرية في تقديم تقاريرنا، تلك الحرية التي كنا نتمتّع بها أحياناً. وقد استأجر «هيويت» وطاقمه في أحد الأمكنة قارباً ركبوه ليصوّروا عند شط العرب؛ فأوقفتهم السلطات العراقية، واعتقلت صاحب الزورق. وقيل «لهيويت» الذي وخزه ضميره: «إن الرجل سيعاقب»، ولُفت نظره إلى أن كل تدخّل للاحتجاج والدفاع عن صاحب الزورق سيفاقم عقابه.

كانوا جالسين في زاوية من كوخ ثكنة عسكرية، جدرانه من الإسمنت. وهم جماعة من الرجال الشباب سود الشعور وغير مرتّبين، لبعضهم عصابات، وكلهم ببزّاتهم «الكاكية» السمراء غير المتغضّنة التي يلبسها الجيش الإيراني، وغير حليقي الذقون. فغروا أفواههم محدّقين أمام آلات التصوير التلفزيونية، وهم جالسون على الحصير الذي كان فراشاً لهم خلال الأيام الثلاثة الماضية. وأعلن عقيد عراقي أنه لن يسمح لنا بالتكلّم معهم، بينما كان الأسرى البالغ عددهم ١٧ رجلاً ينظرون إلى معدّات التصوير والتسجيل الممدودة قصداً إليهم. سأل أحد الصحافيين عمّا إذا كان أحدهم يتكلّم الإنكليزية، فانبرى رجل شاب ملتحٍ كان جالساً تحت نافذة ذات شعرية وقال إنه يتكلّم الألمانية، ولكن الرائد أسكتَه وقال: «أُخذوا أسرى في الأهواز والمحمّرة؛ ماذا تريدون أن تعرفوا عنهم غير ذلك؟».

لكن الأسرى كانوا أفصح بأيديهم ووجوههم. وكان نصفهم من الجرحى المعصوبي الرؤوس والأذرع. وكان هناك رجل نحيل عند الجدار أومأ إلينا بإشارة النصر خفية. وقد أُمر خمسة منهم بأن يمسكوا بنسخ من جريدة بغدادية على صفحتها الأولى صورة صدّام حسين؛ ولكنّهم اجتهدوا في طيّها بحيث لم يعد بالإمكان رؤية الصورة. وقد ابتسم لنا الجندي الذي يتكلّم الألمانية وانحنى بينما كنّا نُساق كقطيع خارج ذلك الكوخ. ثم أعلن الرائد أن هناك اثنين من الأسرى سيكلّماننا إذا وعدنا بعدم أخذ صور للمقابلة. جاءنا رجلان شابان حزينان منسحبان، أحدهما ملفوف الصدر بجبيرة من الجصّ. جيء بهما أخيراً إلى غرفة غير مرتّبة، حيث كانت صورة منسوخة لصدّام إلى جانب زهور بلاستيكية، تبغي مكاناً على الجدار.

أُجلس الرجلان على كرسيين فولاذيين في وسط الغرفة، بينما وقف الموظفون الحكوميون والعقيد حولهما «من أجل الترجمة». عقد الأسير الجريح يديه بعصبية وأخذ ينتفض. وهزّ العقيد إصبعه أمام الجندي الأول، قائلاً: «إنهم يسألون عن الإصابات التي ألمّت بجيشكم». فهزّ الرجل كتفيه وأعلن جهله. قال: «أنا جندي إيراني». فسأله الصحافيون «هل كان الشيوخ والأئمة الإيرانيون

مسؤولين عن الجيش الإيراني؟»؛ وقد ترجم الرائد ذلك بقوله: «هلّا يؤثر رجال الدين على ضبّاطكم؟». فقال الأسير: هذا صحيح. وأردف: «إن معنويات جنودنا لم تعد كما كانت».

وما كانت الصحافة العالمية تبغيه من هذين الأسيرين هو معرفة رأيهما بآية الله الخميني. لكنّ الرائد أساء ترجمة السؤال هكذا: «والآن، بعدما ساءت أحوالكما، ما رأيكما بالخميني؟ فقال الأسير الأول: «لم يعد «الرأي» ذاته بعد الحرب». لكن الأسير الجريح نظر إلينا نظرة خاطفة وقال: «إذا كان آية الله الخميني هو الذي أشعل الحرب بين بلدين مسلمين. فهذا خطأ». وضاعت جملته الشرطية الأخيرة، إذ أمر الرائد بسحب الأسيرين.

ويبدو أن الجيش العراقي مستعدّ للقيام بأي شيء كان لإثبات نصره، فقد صرفنا ساعة أخرى على تفقّد الآليات الإيرانية التي غنمها في «خرمشهر». ومنها مدفع مضادّ للدبابات مصنوع في أميركا بواسطة شركة «هيوز» ورمزه هو: (DAA-HOI-70-C-0525)، ومجموعة من عربات مصفّحة سوفياتية، وناقلة جنود أميركية، رسم عليها العراقيون بالطلاء الرذّاذ شعارهم لذلك اليوم: «غنيمة من الفرس الآسيويين العنصريين». وهكذا صارت الغنائم من الدروع جزءاً مملاً من دعاية الحكومة المتزايدة حول الحرب.

نقلونا بالباص إلى العمارة، الواقعة على بعد ١٦٠ كيلومتراً شمالي البصرة، والتي لا تبعد سوى ٥٠ كيلومتراً عن الحدود الإيرانية، كي نرى عشرين دبّابة من طراز «تشيفتين»، أُسرت على الجبهة الوسطى حول الأهواز، وهي جزء بسيط من ٨٠٠ دبابة من النوع ذاته باعتها بريطانيا للشاه، وقد أصيب بعضها بقذائف أو قنابل يدوية. تسلّقناها بجهد؛ ولاسيّما واحدة منها معطوب هيكلها وملقاة في حقل. وفتحتها مشرَّعة؛ فنزلت منها إلى مقعد السائق، ونظرت فوجدت في حقيبة على جدارها: دليل الدبّابات لوزارة الدفاع البريطانية، «محظور التوزيع»، ورمزه: (Wo 145571) ـ أما كيف يترجم طاقم الدبابة المحتوى من اللغة الإنكليزية، فهو سرّ لا ندركه. جلست هناك لحظة، فخطر ببالي أن طاقم هذه الدبّابة لم يبقوا على قيد الحياة بعد مجابهتهم للعراقيين.

وبالفعل التفتّ إلى مقعد المدفعي على يميني، لأجد جثة رهيبة للإيراني المسكين ـ الذي دخل المعركة قبل عدّة أيام ـ بشكل هيكل متفحّم، مع الأسمال المحروقة للباسه الرسمي مدلّاة على عظامه كعلم صغير أسود؛ إنما لا تزال الجمجمة تحتفظ ببعض اللحم.

ولكن، لم يستطع العراقيون إخفاء خسائرهم. فقد صادفت شماليّ البصرة سيّارة أجرة بيضاء وبرتقالية واقفة في محطّة بنزين، بينما كان سائقها يتكلّم مع عامل المحطة، دون أن يأبه بالصندوق الذي يحمله على ظهر سيارته. فالتوابيت في العراق تُحمل على ظهر السيّارات، ولا تختلف عن غيرها في هذه الحال سوى بأنها ملفوفة بالعلم العراقي. كان ذلك التابوت لجندي ذاهب إلى بيته كي يدفن.

وبحسب جريدة «الثورة» البعثية، لم يُقتل سوى جنديين عراقيين خلال اليوم الفائت؛ مما يعني أني شاهدت صدفةً في محطة البنزين ٥٠٪ من ضحايا اليوم المنصرم. ولكن كانت هناك أيضاً أربع سيّارات أُجرة أخرى على الطريق ذاتها، كلها متجهة شمالاً بحمولتها الكئيبة، مع العلم الأحمر والأبيض والأسود، ونجومه الثلاث، يرفرف على سطح التوابيت. مع العلم أننا لم نكن نرى هذه السيّارات في الأيام الباكرة للحرب، ولا هذا العدد الغفير من سيّارات الإسعاف التي تكاد تسدّ الطرقات الآن. ففي يوم واحد من الأسبوع الأول من تشرين الأول/أكتوبر، جلب الجيش ٤٨٠ جثّة إلى مستودع الجثث في بغداد. فلو جاءت هذه الجثث من القطاع الأوسط للجبهة، فهذا يعني أن الخسارة اليومية قد ترتفع إلى ٦٠٠ أو ٧٠٠ قتيل. ولذلك باتت الصحافة العراقية تمجِّد الآن «تضحية» الجنود بأرواحهم في المعركة؛ وصار صدّام عندما يزور الجرحى المدنيين، كما حصل بتاريخ ١٢ تشرين الأول/أكتوبر في كركوك، يصف الإصابات بأنها «مداليات شرف».

وكان التلفزيون العراقي يوالي تغطيته المسرفة للنزاع ـ مع وقف موسيقى الحرب الخاطفة الآن ـ ويعرض بكثرة الدبّابات والمدافع، والطائرات الإيرانية المعطوبة، دون عرض صور للموتى من الطرفين. وعندما قدّمت محطة التلفزيون

فيلم «همنغواي»: «لمن تُقرع الأجراس»، من بطولة «غاري كوبر»، أزالت منه السلطات بطريقة خرقاء المقطع الذي يصوّر جثث الجنود الجمهوريين الإسبانيين ملقاة على قارعة الطريق. إنما عاد العراقيون فيما بعد لعرض جثث الإيرانيين بتفاصيل غزيرة ومتوحّشة.

ومن بين المراسلين البريطانيين في البصرة، كان «جان سنو» من (ITN)، الذي كان زميلاً ممتازاً في زمن الخطر الشديد، نظراً لشجاعته وفكاهته. ولكنه لم يتصوّر أبداً المسرحية التي دُفع إليها في منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٠. كان «سنو» مقلّداً ماهراً للأمير «تشارلز»، مما كان يؤهّله لتمثيل ذلك الدور في مسرحية هزلية(*). وكان أيضاً مراسلاً منتظماً للكاميرا من شط العرب، جنوبي البصرة. وكان يشاهد تقاريره في لندن صاحب شركة الشحن البحري المسمّاة «سيلفرلاين» (أي الخط الفضّي). وقد مضى عليه ستة أسابيع، وهو يفتّش يائساً عن ناقلة بحريّة تخصّه تسمَّى «التنّين»، يقودها قبطان بريطاني وحمولتها ٢٢ ٠٠٠ طن من زيت فول الصويا. وفجأة، رأى صاحب هذه الشركة سفينته تبدو على الشاشة وراء كتف «سنو»، عائمة، ولكن في وسط معركة. ولم يستطع المكتب الأجنبي أن يفعل شيئاً لمساعدته. فما كان منه إلّا أن عيَّن «سنو» وكيلاً رسمياً للشحن في البصرة، وثبّت له تعيينه بالتلكس لصالح السلطات العراقية. كان على السفينة خمسون شخصاً، منهم تسعة بريطانيين، ولم يكن لديهم من وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي إلّا سفينة أخرى من بين عشرات السفن يقودها نرويجي وتتّصل يومياً بسفينة «التنّين». وقد أبلغ هذا القبطان «سنو» بأن قبطان «التنّين» وبحّارتها متلهّفون لمن يمدّ لهم يد الإنقاذ.

وقرّر «سنو» أن يطلب مساعدة العسكريين العراقيين، وأن يذهب إلى سفينة «التنّين» سباحة، لإعداد خطّة لإنقاذ بحّارتها. ولكن، لم تستطع البحرية ولا السلطات العراقية في البصرة أن تساعده بشيء سوى تقديم خريطة سياحية تحدِّد

(*) ادّعى «سنو» بدقّة أن الأمير «تشارلز» يلفظ هذه العبارة بشكل آخر: "thousands and thousands of pounds" as "thicends and thicends of pines". كما كان «سنو» قادراً على أداء منوّعات من اللهجات والنبرات الملكية في وضعيات الخطر الشديد.

معالم هذا المجرى المائي الحيوي، الذي يحارب صدّام من أجل استرداده. كانت هذه طبعاً قصّة «سنو» الاستثنائية ـ مذهلة إذا نجح في تنفيذها، ومأساة إنسانية وسياسية للبحّارة وله ولـ (ITN)، إذا انتهت بكارثة ـ ولكنه أخبرني شخصياً بأنه يجد صعوبة في الحصول على خريطة للنهر، قائلاً: «اسمع يا فيسكي، أيها الفتى العجوز، إذا استطعت أن تجد لي خريطة، سأسمح لك بأن تأتي معنا». فتذكّرت فوراً جدّي «إدوارد» الوكيل الأول للربّان في سفينة «كاتي ستارك»، وكل ما قرأته عن البحرية التجارية. فقد كان كل قائد لسفينة ملزماً بأن يحمل خرائط تفصيلية للموانىء والقنوات المائية التي يستخدمها، كما علمتُ. ولذلك رحت أفتّش حتى اهتديت إلى قبطان بحري من منطقة البلطيك، ذي لحية كبيرة، كانت سفينة الشحن التي يقودها راسية عند أرصفة البصرة، وهو الذي رضي أن يعيرني كشف الأميرالية البريطانية الذي لديه عن شط العرب. وقد نسخنا صورة وافية من هذه الوثيقة الرائعة ـ التي كانت آية من الفن الأوقيانوغرافي بشأن المحيطات، ومن الكفاءة التقنية ـ وقدّمناها إلى رجال الضفادع من البحريّة العراقية.

كانت كل عناصر المغامرة الكبرى في مكانها: ربَّان سفينة «التنّين»، واسمه البحري الملائم «دايك»، الذي خطَّط بالدرجة الأولى لعملية الإنقاذ؛ و«جاك سيمونز» الموظّف في القنصلية البريطانية، ذو الوجه المستدير، وصاحب النظّارة دون إطار، الذي وصل دون إعلان إلى البصرة، ولكنه لم يستطع أن يحصل على مساعدة من قِبل العراقيين. كما كان هناك أيضاً رائد من البحرية العراقية، بهي الطلعة، أشيب الشعر، هادىء، شجاع نبيل، خاطر بحياته من أجل بحّارة هذه السفينة البريطانية. لم يعطنا اسمه أبداً، ولذلك كان «سنو» يشير إليه بودٍّ وحفاوة قائلاً: «رائدنا». ثم كان هناك طبعاً «سنو» ذاته البالغ من العمر ٣٢ سنة، وطاقمه ـ المصوّر «كريس سكواير»، وضابط الصوت «فيجل ثومسبون» ـ وبالطبع فيسك، الذي سيعتبر هذه المجازفة آخر قصّة له من نوع «أوراق الصبيّ الخاصّة» (Boy's own paper) في حياته. أمّا باقي تقريري فسيكون حول المأساة.

رست سفينة «التنّين» في شطّ العرب منذ خمسة أسابيع، كي تُفرغ حمولتها من زيت الطهو بواسطة الصنادل (أي المراكب المسطّحة القعر المعدَّة لهذه المهمّة). ولكن عندما بدأت الحرب، وجدت نفسها محبوسة بين جيشين ـ كسائر السفن الكبيرة على النهر ـ فقد مشّطت المدافع والبنادق الرشّاشة سطح المياه وشاهد البحّارة لعدّة أيام الصواريخ المنخفضة المستوى تقشط سطح النهر حول هيكل سفينتهم. وقد تكلّم القبطان «دايك» مع «سنو» بواسطة الراديو الخاصّ بالقبطان النرويجي، واقترح تنفيذ الخطة بتاريخ ١٥ تشرين الأول/أكتوبر، وسمّى العملية «عملية الإجّاصة»، فاذا أخفقت أو أُجّلت، يمكن تكرار المحاولة بتاريخ ١٦ الجاري، إذ تصبح العملية «عملية التفّاحة». ولكنّ رائدنا أراد أن يزور القبطان «دايك» في سفينته «التنّين»، لمناقشة عملية الهرب. فوافق «دايك» على ما سمّاه «صعود الألياف» ـ مفترضاً أن الإيرانيين الذي يستمعون إلى محادثته لن يعرفوا أن تلك العبارة تعني: الحبل ـ إذا سبح المنقذون إلى سفينته.

وفي الساعة التاسعة مساء بتاريخ ١٥ تشرين الأول/أكتوبر، تسلّلت عُصبة غريبة عبر المزروعات المشبعة بالماء، على جزيرة في شط العرب ـ غير بعيدة عن «أمّ الرسّاس»، التي دبّرتُ مع «بيار بايل» هربنا منها قبل أيام قليلة. وكانت العصبة ـ العِصابة مؤلّفة من الرائد واثنين من رجاله الضفادع، و«سنو» ـ بالبذلة السوداء مع زعانف بيديه ـ و«سكواير»، و«تومسون»، وأنا. ولا شكّ في أن منظرنا كان مشهوداً ونحن ندلف في الظلام عبر الجزيرة الاستوائية إلى مقطع النهر الذي نعلم أن سفينة «التنّين» ترسو فيه، ونحن نجرّ معنا قارباً مطّاطياً، من أجل محاولة الإنقاذ التي أخذها «سنو» على عاتقه. وفي الظلام الدامس، انسللنا عبر ممرّات الطين إلى بُحيرات ضحلة سيّئة الرائحة، وانزلقنا في الخنادق المنسيَّة، وتحرّكنا بتثاقل فوق جسور مهترئة لها صرير. ولمَّا أثرنا مرةً حفيظة كلاب القرية المهجورة، فتح القنّاصة الإيرانيون النار على المزروعات لأكثر من دقيقة، سمعنا فيها أزيز الرصاص حولنا على مستوى الورك، عندما كان الإيرانيون يخمّنون مواقع المتطفّلين.

وحتى قبل أن نصل إلى ضفّة النهر، كنا نرى البنية الفوقية لسفينة «التنين» مضاءة كلّياً، وكذلك أنوار السير، كما وعد بذلك القبطان «دايك». كان صدى مولّدات الكهرباء في السفينة مسموعاً عبر غابة النخيل، وكانت مدختنها البرتقالية الساطعة تبدو «سوريالية» من خلال ظلال جذوع الأشجار. وقد اكتشف «سنو» مع الرائد أولاً الخطأ الذي وقع. فقد طلب منهم «دايك» أن يصعدوا إلى سفينته عند الساعة ٩:٣٠ مساء من جهة ميمنة السفينة، عندما يكون الجزر قد أدار السفينة نحو الضفّة الغربية العراقية من النهر. وقد أضاء الجهة اليمنى من هيكل السفينة لهذه الغاية. لكنّنا جئنا إلى السفينة من جهتها المظلمة. أما الآن فكل إيراني يستطيع أن يرى الجهة اليمنى المضاءة من السفينة أمام الخطوط الإيرانية تماماً؛ وبالتالي، لا نستطيع أن نصعد منها.

جلس «سنو» على الضفّة محشوراً في زعانفه، وحدَّق في السفينة قائلاً: «يا للتفاهة!». نظرنا كلّنا إليه؛ ونظر هو إلى الرائد، وكذلك الرجلان الضفدعان. وقد اعتبر «سنو» فيما بعد هذا الحدث «كعمل جنوني لا يُضاهى». وكنّا شاكرين «سكواير»، و«تومسبون» وأنا لأنه لا دخل لنا في ذلك.

ثم انزلق «سنو» في المياه الموحلة، وإلى جانبه الرائد ورجلا الضفادع البحريان، وتسلّقوا قاربهم المطاطي، وهم يدفعون به ويجذّفون حتى وصلوا به إلى النهر. ولكنّ التيّار كان قوياً ـ فقد كان المدّ آنذاك في أعلى مستوى له ـ ولذلك استغرق معهم قطع ٢٠ متراً باتجاه السفينة حوالى عشرين دقيقة. وعند نقطة معيّنة، كما كنت أراهم بالمنظار، تعرّضوا لخطر انجرافهم وتجاوزهم للسفينة وخروجهم إلى عرض النهر. ولكنّهم تعلّقوا بسلّم على الجهة المظلمة من السفينة، وصعدوا إليها.

صادف «سنو» أولاً البحّارة الفيلبينيين الذين صعقوا لظهوره بالبذلة السوداء والزعانف. كما تفاجأ أيضاً القبطان «دايك» الناشط المرح بوصول الجماعة قبل ثلاث ساعات من موعدهم. فالسفن تسير على توقيت «غرينتش» لا على

التوقيت المحلّي. ولو وصل «سنو» والرائد العراقي بعد نصف الليل بنصف ساعة لكانت الساعة ٩:٣٠ بتوقيت «غرينتش»، وكانت الجهة اليمنى من السفينة تقابل العراق.

واتّفق «سنو» والرائد، و«دايك» على أن يتّجه ٢٣ من بحّارة السفينة إلى الشاطىء عند الساعة ٣:٣٠ صباحاً؛ ورأينا قارب «سنو» المطاطي يتّجه بصمت عبر النهر نحونا. وهكذا جلسنا خلال كل تلك الساعات الطويلة في الظلام، نراقب أنوار السير المشعَّة من «التنّين» والمنعكسة على المياه المتدفّقة، عندما دارت السفينة أخيراً مع الجزر، وصرنا نرى وراءها نيران «عبدان». وكانت طلقات نار بعيدة تخور في الليل، بينما صرنا نحن طُعمة للبعوض. وعند حدٍّ معيّن، التفت «سنو» نحوي قائلاً: «يشعر المرء فعلاً بثقل المسؤولية الهائلة». كنت إذ ذاك أتساءل كيف يلفظ الأمير «تشارلس» هذا ـ فالعبارة كانت من خصوصيّاته ـ عندما انطلق من ظهر السفينة وميض مشعلين أحمرين، دلالة على بدء عملية «الإجّاصة». فأرسل «سنو» وميضيْ مصباح، ردّاً على ذلك. وسمعنا صوت رافعة تُدار بالماء يُهمهم بعلوّ مزعج فوق سكون النهر، تبعه صوت اصطدام. فقد تعطّلت البوّابة التي تقود إلى زوارق النجاة. كنا نرى البحّارة واقفين على ظهر السفينة، منتظرين فرج المغادرة؛ وتعاطفنا معهم بينما كان صوت ضربات المطرقة يتردّد صداه فوق النهر باتجاه الإيرانيين.

ثم أُنزل قارب النجاة، وصار شفيره يغطس في الماء، ويرسل باتجاهنا مويجات، لا بد أن الإيرانيين رأوها. ولكن عندما اصطدم القارب بطين ضفّتنا عند الساعة الرابعة صباحاً، زال خوف التوقّع عن رجلي الضفادع العراقيين، إذ انبرت فتاة إنكليزية على الظهر الزلِق للقارب تقول: «هل من أحد يساعدني لأنزل إلى الشاطىء؟». كانت تلك اللحظات من الهُنيهات الجوهرية الحبيبة إلى قلب الإنكلوسكسونيين؛ وكان البريطانيون يخدعون الخطر من جديد، بنزولهم على شاطىء استوائي تحت نور الهلال، مع إمكان نشوب قصف يقطّعهم إرباً، ومع ثلاث نساء شابّات بحاجة إلى حماية. وسررنا أيّما سرور برؤية قارب النجاة الصغير الذي جررناه إلى ضفّة النهر بضجّة كافية لإيقاظ أيّ إيراني ناعس

على الضفّة الأخرى. وابتسم رجال البحرية العراقيون ابتسامات عريضة تدلّ على سعادتهم.

ولم يبقَ على السفينة سوى ١٣ رجلاً لحراستها. ولم يكن بين الذين أنقذناهم، والبالغ عددهم ٢٣ شخصاً، سوى سبعة بريطانيين، بحسب تقاليد ما بعد الاستعمار. أما الباقون فكانوا مجموعة من الفيليبينيين الأشدَّاء، رجالاً صغار الجسم مرحين ضاحكين؛ صرخوا فرحين عندما أنزلناهم على الشاطىء ودفعناهم بفظاظة إلى الخنادق العراقية وراءنا. وقد ناولني العديد منهم كنوزهم التي جاؤوا بها من المنطقة الحرّة: كالراديوات، وأجهزة التلفزيون ـ وحتى غسّالة ثياب أوقعتها في الطين. وسرعان ما قادهم الجنود العراقيون داخل الغابة.

اهتم الضابط الأول في السفينة بأولئك البحّارة الذين لبثوا على ظهر السفينة ليحرسوها، وأعلن مهندسها أنه سيأخذ إجازة طويلة. أما «تيريزا هانكوك» زوجة أحد البحارة من «ستوك ـ أون ـ ترانت»، فكانت في شهر عسلها واحتفلت بعيد ميلادها الحادي والعشرين في شط العرب قبل ذلك بثلاثة أيام في حفلة صغيرة. ولكن القصّة السعيدة الكبرى كانت من نصيب البحرية العراقية التي نالت بهذه العملية مجداً ـ بتأديتها عملاً إنسانياً بشجاعة وتمهُّن ـ كما أن «سنو» نال أيضاً حصّته؛ وكان سبّاقاً إلى الإعلان عن تسمية نفسه منذ الآن بالكلمة العربية «الثلج». أما رائدنا العراقي المحبوب المقدَّر، فقد ذهبنا إليه في مكتبه المكيَّف لنشكره؛ فوجدناه يرشف لبن الزبادي، ويبتسم ابتسامات عريضة جداً من الأذن إلى الأذن؛ وهو عالم بأنه قلَّد لحية آية الله الخميني، وسار على تقليد «السير فرانسيس درايك».

لفّ «سنو» فيلمه وأعطاني إياه لآخذه معي إلى الكويت، حيث كانت بانتظارنا طائرة نفّاثة خاصّة استأجرتها محطة (NBC) الأميركية لأخذ فيلمها وفيلم (ITN) الإخباري إلى عمَّان، ونقله من هناك فضائياً بالأقمار الصناعية إلى نيويورك ولندن. وحالما حلّقت بنا النفّاثة، قدّم لي ضابط المحاسبة في الطائرة شطائر سمك السلمون المدخّن وكأساً من الشمبانيا. ومن عمَّان أرسلتُ قصّة

«التنّين» إلى «التايمز». ثم غرقتُ في أعمق فراش بفندق «الأنتركونتيننتال». ومن ثمَّ أفقت لأجد تلكساً ينكزني في الخاصرة ويقول ما معناه: «لماذا لم تسبح في شطّ العرب المليء بسمك القرش؟».

ولكن هنا تنتهي القصص السعيدة. ففي آخر شهر تشرين الأول/أكتوبر أدرك العراقيون أنهم عاجزون عن التقدّم في صحارى إيران، دون أي أمل في نصر سريع ـ وكانوا يطلقون صواريخ أرض ـ أرض على المدن الإيرانية. وفي أوائل ذلك الشهر، قُتل ١٨٠ شخصاً في «دزفول»، عندما أطلق العراقيون صاروخاً على السوق. وفي ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر، قُتل أيضاً مئة مدني آخرون، عندما أطلق العراقيون سبعة صواريخ روسية من طراز (Frog-7) على «دزفول». لقد بدأت حرب المدن. وكان ذلك محاولة مدروسة لإخراج السكّان من المدن والقصبات الكبرى عن طريق الإرهاب.

لقد جوبهت الحرب في إيران حتى من قِبل معارضي النظام الثيوقراطي الديني بالاستفظاع والروح الوطنية. فتبرّعت آلاف من نساء الطبقة الوسطى بجواهرهنّ التي تساوي ملايين الدولارات إلى «صندوق الحرب» الإيراني. وكان القائم بالأعمال الأميركي «بروس لاينجن» لا يزال أسيراً في وزارة الخارجية الإيرانية. قال: «عرفت أن هناك شيئاً يحدث، عندما سمعتُ ألحاناً عسكرية من مكبّر الصوت خارج وزارة الخارجية ـ تلك التي يستعملها الإيرانيون في المناسبات العسكرية. وسمعتُ فيما بعد أن العراقيين يستعملونها أيضاً. وفي تلك الليلة، استُعملت المدافع المضادّة للطائرات، وامتلأت السماء بالقذائف الخطّاطة، التي لا يبدو أنها تصيب شيئاً. وفي الواقع، كنا نرتاح عندما نسمع صوت صفّارة الإنذار، لأننا نعلم أن الطائرات العراقية تكون إذ ذاك قد ضربت وهربت».

كان الإيرانيون، على شاكلة صدّام، يحاربون الأعداء الداخليين والخارجيين على السواء خلال الحرب، لعلمهم أن بعض الجماعات مثل «مجاهدي خلق»، يتمتّعون بدعم ناشط من قِبل النظام العراقي. أما الموت المستغرب الذي أصاب وزير الدفاع الإيراني «مصطفى شمران» على جبهة القتال، فلن نستطيع تفسيره

أبداً. ولكن لا شكّ في ما حدث عندما انفجرت قنبلة تزن ٦٠ رطلاً (باونداً)، في الساعة التاسعة مساء بتاريخ ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٨١ في اجتماع الحزب الجمهوري الإسلامي الحاكم، فقتلت ٧١ من قادة الحزب، وهم يستمعون إلى خطاب يلقيه «آية الله محمد بهشتي»، رئيس المحكمة العليا، وأمين عام المجلس الثوري، ورئيس الحزب الجمهوري الإسلامي، والمرشّح لخلافة الخميني. فقد دمّرت القذيفة جسور الحديد في المبنى، وعلى الأثر تداعت الأعمدة البالغ عرضها ٤٠سم من تأثير الانفجار، وسقط السقف على الضحايا. وكان بينهم أربعة وزراء من الحكومة، وستّة نوّاب للوزراء، و٢٧ عضواً من مجلس النواب الإيراني.

وكان «بهشتي» الذي مات معهم شخصية محيِّرة؛ إذ كان يبدو كمتآمر ذكي من القرن الثامن عشر، بوجهه النحيف، ولحيته الغبراء المستدقّة، ولهجته الألمانية الثقيلة، الباقية من أيام كان فيها إماماً شيعياً في ألمانيا. وعندما قابلته عام ١٩٨٠، لاحظت أنه يستعمل خليطاً فريداً من السلطة الفكرية واللطافة الحزينة، مما يجعله يشبه مزيجاً من الكاردينال «ريشيليو» و«السير آلك غينّس». ولعدّة شهور مضت كان يكيد للرئيس «بني صدر»، الذي ما عتّم أن عُزل. وقُتل «بهشتي» بعد أسبوع من عزله، فلم يتسنَّ له وقت لينال إربه منه.

لقد كان رجلاً له أعداء، ولا يتأثّر بالوباء المتنامي للإعدامات الجارية. وقد شرح لي ذلك مهتاجاً بعض الشيء، قائلاً: «ألا ترى أن هناك عدداً قليلاً جدّاً حُكم عليهم بالإعدام، بسبب فشلهم في وزارات (الشاه). لكنّ الذين حُكم عليهم بالإعدام يقعون في فئة أخرى ـ إنهم تجّار أفيون وهيروويين». ومن الواضح أن ذلك لم يكن صحيحاً؛ فمعظم الإعدامات تمَّت لأسباب سياسية. قال «بهشتي»: «عندما تدرس تاريخ الثورات، تجد دائماً أن هناك مشكلات. وهذا أمر طبيعي. وعندما يقول الناس هنا إنهم غير سعيدين، فذلك لأنهم لم يختبروا الثورة من قبل. أجل، هناك مشكلات، ولكنها ستحلّ». وكان «بهشتي» يُعتبر خسارة كبرى للثورة ـ حتى وفاة الخميني عام ١٩٨٩ ـ لأنه نظَّم الحزب

الجمهوري الإسلامي على نمط الحزب الشيوعي السوفياتي، بشكل يجمع بين عدّة حركات ثورية تحت راية قائد واحد.

ومن قبيل المصادفة، نجد أن حمّام الدم الذي حصل بتاريخ ٢٨ حزيران/ يونيو وراح ضحيته ٧٢ شخصاً، يساوي عدد الضحايا الذين ماتوا في معركة «كربلاء» عام ٦٨٠، وشملوا الإمام الحسين نفسه، وعائلته وأنصاره. وقد نوّه الخميني سريعاً بهذا الأمر، وذكر أن «صدّام وأميركا قد ضربونا من جديد عن طريق مجاهدي خلق». وسأل متهكّماً: «افترضْ أنك عدوّ للشهيد بهشتي... فما هو عداؤك لسبعين شخصاً من الأبرياء، وكثير منهم كانوا بين أفضل من خدموا المجتمع، والأعداء الألدّاء لأعداء الأمّة؟». ثم قُتل أيضاً «حسن آية»، أحد الأعضاء النافذين في مجلس النواب بتاريخ ٥ آب/ أغسطس. وبتاريخ ٣٠ آب/أغسطس قتلت قنبلة أخرى الرئيس «محمد رجائي»، الذي حلّ محل «بني صدر»، والرئيس الجديد لمجلس الوزراء، «محمد جواد بهنار». كما قُتل كذلك المدّعي العام «آية الله علي قدسي» بتاريخ ٥ أيلول/سبتمبر، وقُتل بعده بستة أيام الممثل الشخصي للإمام الخميني في تبريز «آية الله أسد الله مدني».

ولكن النظام ردّ على كل ذلك بقمع وحشي. وقد برز بين الإعدامات التي بلغت حوالى ستين إعداماً في اليوم، التلاميذ والطلاب. وأفادت بعض التقديرات عن شنق أو إعدام ما مجموعه عشرة آلاف من المشتبه بهم ـ وهو العدد الذي قُتل من الإيرانيين في الأشهر الستة الأولى من الحرب الإيرانية ـ العراقية. فكما كان صدّام يحاول القضاء على حزب «الدعوة» كامتداد عسكري شيعي، كان الخميني من جهته يحاول إزالة «مجاهدي خلق» كفرع من فروع حزب البعث. وقد جعلت هذه الثنائية في الأعداء كلا الطرفين يتخذ خطوات لإبادة خصومه في ساحة المعركة، وفي السجون وقاعات التعذيب.

وعندما زرتُ طهران في ربيع عام ١٩٨٢، لأجري استقصاءاتي بشأن تلك الإعدامات الجماعية، أخبرني الناجون من سجن «إيفين»، بأنه تمّت ٨٠٠٠ عملية شنق أو إعدام. وحصل تطوّر وحشي لدى حرّاس الثورة البالغين من العمر ١٤ سنة، بسبب اشتراكهم في عمليات القتل. ومن بين ١٥٠٠٠ معتقل

ممَّن لم يعدموا، وممَّن يُفرج عنهم اليوم ـ جزئياً بسبب إدانة منظمة العفو الدولية للعدالة الإسلامية في إيران ـ هناك من أدلى بإفادات عن وحشية مرعبة. وحدث بعد اغتيال بهشتي، ورجائي، وبهنار، أن طُلب من المساجين أن يبرهنوا عملياً على ندمهم وتوبتهم بأن يشنقوا أصدقاءهم. وكانت هناك ثلاث مراحل في هذا التطهّر: خنق زملائهم السجناء فعلاً، أو قطع حبل مشنقتهم، أو وضع جثثهم في التوابيت. وهكذا كان السجناء يخرجون من سجن «إيفين» بعد التنقية، إنما أيديهم ملوّثة بالدم. فقد مُحيت الاشتراكية الإسلامية؛ ولم ينجُ من الموت سوى قليل من اليساريين، ممَّن هم قادرون على إطلاق النار على نائب وزير الخارجية الإيراني في نيسان/أبريل عام ١٩٨٢. وإنما جرى تحطيم «مجاهدي خلق».

وفي آخر الشوط، ادَّعى صدّام الاستيلاء على «خرمشهر»؛ وأقرّ الإيرانيون بأنهم فقدوا الاتصال بقوّاتهم التي لا تزال في المدينة. وصار الإيرانيون منذ الآن يسمّون تلك المدينة «كومين شهر» أي «مدينة الدم». ولم يستطع العراقيون احتلال «عبدان»، لكنّ صدّام زجّ بعشرات الألوف من الجنود في «خرمشهر»، وأعلن العراق أنها ستكون «ستالينغراد» أخرى. وكانت تلك صيغة باكرة من «أمّ المعارك» التي هدّد بها صدّام دائماً دون أن يخوضها. وبعد ١٥ شهراً من بدء الحرب، وجد الجيش العراقي أن خطوط تموينه وإمداداته صارت مترامية الأطراف، فقرّر استراتيجياً الانسحاب، وبناء خطّ دفاعي ضخم على طول حدوده مع إيران، تاركاً وراءه أرضاً محروقة. وقد احتلّ العراقيون «الحويزة» البالغ عدد سكانها الذين يتكلّمون العربية ٣٥٠٠٠ نسمة، بتاريخ ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠. ولكن عندما عادت إليها القوّات الإيرانية في أيار/مايو ١٩٨٢ وجدتها مسطّحة بعدما هُدمت كل مبانيها البالغ عددها ١٩٠٠ مبنى، ما عدا مبنَيين لا يزالان واقفين، وهما: الجامع المتضرر الذي كان مركز مراقبة، ومنزل آخر كان مركزاً للقيادة؛ حتى إن الأشجار اقتلعت. وهذا ما فعله الإسرائيليون بمدينة «القنيطرة» السورية بعد حرب ١٩٦٧. وعند هذا الحدّ، تخلّى صدّام عن هدف أساسي للحرب هو تحرير «عربستان» أي «خوزستان». وكان الإيرانيون هم

الرابحين. وصارت إيران الآن ترحّب بالصحافيين الغربيين بمودّة وحفاوة، كما كان العراق يرحّب بهم خلال «الحرب الخاطفة» الوهمية.

وكانت «دزفول» أول خيبة كبرى للجيش العراقي. ففي أواخر شهر آذار/ مارس ١٩٨١، قام الإيرانيون بهجوم مضادّ ساحق، قوامه ١٢٠ ٠٠٠ جندي وحارس للثورة، ومتطوّع، وغاصوا في الصحراء باتجاه الخطوط العراقية، فأسروا ١٥٠٠٠ جندي عراقي، واستولوا على ٣٠٠ دبّابة ومدرّعة، واستعادوا ٤٠٠٠ كيلومتر مربّع من أراضيهم. وعندما وصلتُ إلى مسرح الانتصار الإيراني، كانت ساحة المعركة صامتة تماماً. وكانت هناك ورود بريّة بجانب الطريق جنوبي «دزفول»، فضلاً عن نمل عملاق يخرق أرض الصحراء. وكان رجال المدفعية الإيرانية يجلسون تحت ظُلّة مدافعهم المضادّة للطائرات، وينظرون إلى السماء الخالية، من وقت إلى آخر. وكانت الدبّابات العراقية التابعة للفرقة المدرَّعة الثالثة، مسحوقة ومنزوعة الأحشاء بنار الصواريخ، ودروعها مقشَّرة، كما لو قُشِّرت بفتّاحة عُلب، وملقاة تحت حرّ الشمس بعد الظهر، شاهدة على ما أصرَّ الإيرانيون الرافضون على تسميته «عمليّة النصر البديهي».

وكان الصمت الذي يخيّم على الصحراء، يدلّ على مدى نجاح الإيرانيين، وعلى واقع الأمر الغريب بعدم الردّ على إطلاق النار إلا لِماماً؛ فقد أوقف الجيش الإيراني تقدّمه على طول خطّ مستقيم هندسياً يبلغ حوالى ٦٥ كيلومتراً. وهو يمتدّ من سلسلة التلال الواقعة شمالي غربيّ «دزفول» إلى مستنقعات «سَنْدل»، حيث تغوص الدبابات والمدرعات العراقية في عمق الوحل؛ بعدما ساقتها إلى هناك قوّات صدّام المنسحبة تحت شعور الإحباط والخوف. وقد أعلن الإيرانيون عن توقف هجومهم في قطاع «دزفول» ـ على بعد ٥ كيلومترات تقريباً من الحدود العراقية ـ ومُنعوا من التقدّم عبر الحدود الدولية، بأمر من الخميني.

وكان الكولونيل «بيروز سليمان جار» من فرقة المشاة ذات الرقم ٢١، دقيقاً عندما كلّمنا، وعصاه بيده، في مركز قيادته المظلم تحت الأرض الواقع على

سفح سلسلة من التلال المنخفضة. قال بثقة عسكرية: «لا يُسمح لنا بتجاوز الحدود، بتوجيه من الإمام». ثم ربَّت على خط نهر أزرق غير مستقيم ظاهر على خريطته المغطاة «بالبوليثين»، وأردف قائلاً: «باستطاعة جنودنا أن يتجاوزوا ذلك النهر، ولكن الإمام لا يسمح لهم. فهدفنا الاستراتيجي هو دفع جنود العدو، وإرجاعهم إلى أراضيهم». وكلّما تكلّم الكولونيل ـ بتواضع ظاهري ـ عن الهجوم المفاجىء الذي حصل بتاريخ ٢٢ آذار/مارس، ردَّت جوقة الموجودين معنا في آخر المخبأ، من ضبّاط صغار الرتبة، وشيوخ، بهتافها: «الله أكبر؛ فلتسقط أميركا؛ فليسقط الاتحاد السوفياتي». لن تكون أيّة تعليمات عسكرية أبداً مثل هذه التعليمات.

كان الخميني قد وعد في وقت سابق بأن جيوشه لن تغزو البلدان المجاورة. كما كان حجّة الإسلام «رفسنجاني» رئيس مجلس النواب، قد وعد أيضاً «بأن إيران ليس لها أيّة أطماع في أرض العراق». وكل ما تريده إيران هو تلبية أربعة مطالب: طرد الجنود العراقيين من الأراضي الإيرانية؛ وعقاب المعتدين؛ والتعويض عن أضرار الحرب؛ وإعادة لاجئي الحرب إلى ديارهم. وأوضح الإيرانيون أن عقاب المعتدين يعني إطاحة صدّام حسين؛ وهو أمر لن يسمح به العرب أو أميركا؛ ولاسيّما بعد إصرار الإيرانيين على إنهاء حكم صدام؛ كما حدث في معركة «دزفول» الدامية التي قُتل فيها ٤٠٠٠ عراقي بحسب التقديرات.

وقد حشرنا الإيرانيون، «جان كيفنر» من «النيويورك تايمز» وأنا، في مروحية حربية من طراز «بيلا ـ أوغستا» مع جماعة من الشيوخ (الملالي). ـ وكان الطيّارون قد تدرّبوا في الولايات المتحدة الأميركية طبعاً ـ وطاروا بنا كيلومتراً بعد كيلومتر فوق الحُطام والجثث. إنه منظر هائل لمذبحة بحدّ الشفرات القاطعة، ونحن نجول بمروحيّتنا بين التلال والوديان التي لا نكاد نراها حتى تطالعنا فجأة. وقد وضعنا كل ثقتنا في الربّان، وسلَّمنا أمرنا لله، وخلدنا إلى التمتّع تقريباً بهذا الطيران الجنوني. وكانت كومة من موتى الجنود العراقيين قد جُرفت إلى قبر جماعي ـ ووضعت على المكان إشارة «مقبرة المعتدين»، فوق

طين تلك المدافن ـ ولكن بقي من القتلى مئات لا يزالون منطرحين تحت الشمس. وكثير منهم لم يبرحوا المكان الذي قُتلوا فيه، في مجاري الأنهار الجافة؛ وتُمكن ملاحظة تحلّل جثثهم من مروحيتنا. وقد حوّم الربّان بمروحيته عدّة مرّات فوق كومة من الجثث، بينما كانت رائحة تعفّنهم تطغى على طائرتنا، والشيوخ يصيحون: «الله أكبر»، و«كيفنر» وأنا نسدّ أنفينا. وكانت الجثث منتفخة بفعل الحرّ تحت الملابس الرسمية الرثَّة. وكنا نستطيع أن نرى حرّاس الثورة قربها، يحفرون مزيداً من القبور الجماعية لعسكر صدام.

وعندما هبطنا بمروحيتنا وراء ما كان يعتبر خط الجبهة العراقية، ركض حراس الثورة مثل كثيب النمال، من بين سراديب المخابىء وصناديق الذخيرة ـ ولم يكن هناك تقريباً أي دليل على قصف مرتقب، أو قصف مبدئي كاسح بالمدفعية الثقيلة، بالأسلوب الذي تستخدمه الجيوش التقليدية. وكانت المواقع العراقية المهجورة قائمة لم تُمسّ؛ كما لو أن شاغليها أُخذوا من فراشهم ليلاً وهم نائمون، تاركين خنادقهم وسواترهم معروضة للزائرين الغيلان ـ مثلنا ـ الذين يتابعون شأن كل حرب من الحروب. وقد دعانا الإيرانيون لدخول مخابىء أعدائهم. وكان من اليسير معرفة سبب هذه الدعوة؛ فقد كانت تلك المخابىء مجهّزة بمكيّفات الهواء، والتلفزيونات، والفيديوات، والأفلام، وصور نساء شابّات من المجلّات. وكان لدى أحد الضبّاط ثلّاجة مليئة من الجعة، ولدى آخر سجّادة عجمية على أرضيّة الإسمنت. وهذه هي «ساتورناليا» اللهو والعربدة التي ندَّد بها الخميني، بأوسع تجلّياتها. فصدّام لم يرد أن يتمرّد جنوده ـ حسبما كان يدعوهم الخميني ويحثّهم تكراراً ـ ولذلك رفّههم. فكيف يستطيع جيش مدلَّل مثل هذا أن يحارب عندما يهاجمه الإيرانيون بعشرات الألوف؟

وتعلّم الإيرانيون أن مجابهة الهجوم المدرَّع العراقي الواسع النطاق بدبّابات «تشيفتين» الضعيفة الصيانة كان نوعاً من الانتحار ـ ونتج عن ذلك تحطّم عشرات من تلك الدبّابات المعطوبة في المعارك الأولى التي جرت قبل سنة حول «دزفول»، والتي لا تزال ملقاة في الصحراء. ففي «عين الكوش»، تمشّيت حول الدبّابات العراقية المعطوبة ساعة من الزمن. ولاحظت واحدة منها وقد

نُزع برجها بكامله من قاعدته واستقرّ مع ماسورة مدفعه غير ممسوس بجانب حقل صغير، وكان قد تجمهر حول الدبّابة المقطوعة الرأس وحول برجها مجموعة من الجنود والفلاحين الإيرانيين، وكلهم يحملون بأيديهم محارم يسدُّون بها أنوفهم.

وكان الموتى من طاقم الدبّابة غير واضحي المعالم؛ وكأنهم مخلوقات ورقية محروقة، قادمة من كوكب آخر، وما زال كلّ منهم في موضعه؛ وجثّة المدفعي مسحوقة تحت البرج. وكانت حصيرة من الذباب متعلقة بهذه المدرّعة المنكوبة. وتطلّع أحد الجنود الإيرانيين إلى السماء ثم مرّ بيده سريعاً على لحيته القصيرة، احتراما لله تعالى الذي منّ عليهم بالنصر الدموي على أعدائهم. ولكنّ الدبّابة نفسها لم تُقصف وتُدمَّر ـ فلم تكن في المنطقة حُفرة لقنبلة، بل فجوة مثلومة في درع الدبّابة قرب صفائح البرج؛ مما يدلّ على أن إصابتها حدثت بفعل صاروخ مضادّ للدبّابات يطلق باليد. وفي الصحراء أصيبت دبّابات عراقية أخرى بالطريقة ذاتها.

وقد أصبح واضحاً أن الإيرانيين لم يستخدموا المدفعية الثقيلة أو الدبّابات بشكل يذكر في معركتهم التي دامت ستّة أيام. فقد أرسلوا الرجال بأعداد هائلة إلى الخطوط العراقية، وفاجأوا أعداءهم. وكان الإيرانيون يجرّبون الهجوم بالأمواج البشرية. فقد اندفع آلاف من الشباب يحملون رشّاشات وقنابل تُطلق صواريخ، وغمروا الخطوط العراقية المجابهة، بكل بساطة. وقد لفت أحد الضبّاط الإيرانيين نظرنا بغرور إلى «أن الغربيين خاضوا حربين عالميّتين، وأعطونا أدلّتهم العسكرية لاستعمال الأسلحة. ولكننا الآن سنكتب للغرب أدلّة التكتيك ليقرأها. وقد لاحظنا خلوّ الصحراء من جثث الإيرانيين؛ لكننا شاهدنا بكل تأكيد من طائرتنا المروحية آثار عجلات رفيعة عبر الرمال. هل هذه الآثار تدلّ على ما خلّفته الدرّاجات النارية للجنود الصبيان الذين سمعنا عنهم؟ أولئك الأولاد البالغين من العمر ١٤ سنة وأخوتهم الذين شُجِّعوا على أن يحملوا سيف الاستشهاد حول أعناقهم، وهم يسوقون درّاجاتهم عبر حقول الألغام العراقية لتفجيرها بأنفسهم، تمهيداً لتقدّم المشاة؛ وهم يرتدون سترات شتوية

ثقيلة، تسهيلاً لجمع ما تناثر من أجسادهم بغية دفنها في قراهم. وقد طلبتُ مع «كيفنر» أن نرى الناجين من المعركة الأصغر سناً. وفهم الإيرانيون فوراً قصدنا.

وتحت قصف المدافع، أخذونا إلى الخطوط الإيرانية على الجبهة الجديدة المحميّة بالسواتر الرملية، عند مرتفعات «دوسالوك». سرنا في الخنادق مثل جنود الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨. فهذه الحرب الإيرانية ـ العراقية باتت تشبه فجأة الحرب التي قبرت العديد من مئات الألوف في مواقع «الصوم» و«ڤردان» في أوروبا. وكان المخبأ الذي التجأنا إليه صغيراً، مع غبار كثيف في هوائه. وكانت هناك أسلحة من الغنائم على الطين وعلى الجدران المؤطّرة بالخشب ـ مدفع رشّاش، وبندقية رشّاشة ـ وبعض الخُوَذ الفولاذية الملقاة في الزاوية. وكان الضوء يتسرّب إلى داخل هذا المستودع من ناحية أكياس الرمل عند الفوّهة، ويرينا معالم الصبيان الموجودين في الداخل بمنظور ذي بعدين، كرسم مُجمل للموت الذي يترصّد الجميع في الجبهة. لم يكن هناك غضب رهيب للمدافع؛ بل نبض مكتوم يحصل في بعض الأحيان، ليدلّ على أن العراقيين لم يتخلّوا عن مدفعيتهم كلّها عندما انسحبوا من «دزفول».

وهنا، تنتهي المقارنة المتوازية. فالصبيّ المتحمّس الأصغر سنّاً ـ الذي رحّب بنا عند المدخل ـ لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ولم ينفعل صوته من الخوف أو من الرجولة. وكان أكبرهم سنّاً في الحادية والعشرين؛ وهو إسلامي متطوّع من «حملة إعادة البناء» الإيرانية التي تشرح لنا وتؤيّد وتدافع بالحجّة عن مبادىء الاستشهاد، بينما يتناهى إلينا دويّ المدافع من بعيد. وفهمت أن «الاستشهاد» كان موضوع مناقشة مستفيضة في هذا المخبأ، لأنهم شاهدوا أمثلة وافرة عليه.

قال الصبيّ البالغ من العمر ١٤ سنة إن اثنين من أصدقائه من «كرمان» استُشهدا في معركة «دزفول» ـ واحد بعمره وآخر أكبر بسنة فحسب. وقد بكى عندما أخَّرت السلطات رحلته إلى جبهة المعركة. فسألته: هل بكيت؟ وهل يبكي الولد لأنه لم يستطع بعد أن يموت؟ ـ وهل نحن الآن على شفا حروب أطفال، وليس شفا حروب يُقتل فيها الأطفال ـ كما تخصّصنا نحن في ذلك

خلال القرن العشرين الميلادي ـ أهي حروب يذهب فيها الأطفال، والصبيان بصوت غير مرتعش، ليقتلوا غيرهم؟ ـ لقد كانت تعليقات الصبي، ابن الرابعة عشرة مرعبة لا تُصدّق، وإنما حقيقية في الوقت ذاته؛ وبالطبع غير محضَّرة، لأننا دخلنا إلى مخبأه بالصدفة، ملتجئين من القصف الدائر في الخارج.

ولم يكن هناك شكّ في مَن مِن هؤلاء الجنود الصبيان يفهم بوضوح إيديولوجية الاستشهاد داخل هذا المستودع الرملي الترابي الذي يشيع في النفس الخوف من الأماكن المغلقة. فعندما سألتُ عمّا يظهر من رغبة الإيرانيين في الموت في المعركة، أومأ الجنود إلى شابّ ملتحٍ وانفعالي يحمل بيده بندقية رشّاشة، ويجلس القرفصاء على سجّادة قذرة قربَ المدخل. قال ما معناه أن من الصعب أو بالأحرى من المستحيل على الناس في بلاد الغرب أن يتفهّموا تسلّط فكرة الاستشهاد البادية على إيران. فهل يريد هذا الشاب أن يموت في هذه الحرب؟

رفع الشابّ صوته بانفعال رتيب، واعظاً بدلاً من أن يجيب عن سؤالنا. إنه «حسن قصقاري» جندي من «حملة إعادة البناء»، يدفعه إيمانه إلى تجاوز مثل تلك الأسئلة. قال: «يستحيل عليكم في بلاد الغرب أن تتفهّموا هذا الأمر. إن الاستشهاد يقرّبنا من الله تعالى. فنحن لا نسعى في أثر الموت ـ ولكننا نعتبر الموت رحلة من شكل من أشكال الحياة إلى شكل آخر. والاستشهاد خلال مجابهة أعداء الله يدنينا من الله. وهناك مرحلتان للاستشهاد: التقرّب من الله تعالى، وإزالة العوائق القائمة بين الله والناس. وأولئك الذين يضعون عوائق في سبيل الله في هذا العالم، هم أعداء الله».

ولا شكّ في أنه اعتبر العراقيين من هذه القوّات الدينية المعادية. وإذ ذاك جأر صوت المدفعية عالياً، كإشارة من السماء، لا من جيش صدّام حسين؛ فرفع «قصقاري» سبابته نحو السماء. وانتظرنا لنرى أين سقطت القذيفة، خائفين من تلك الإصابة المباشرة التي يفضّل جميع الجنود أن لا يفكّروا فيها. حصل الانفجار وراء الخندق والمستودع؛ ولكنه هزَّنا في مخبأنا. وأعقب ذلك صمت. لم أتصوّر أنّ مثل هذا الخطاب قد يُلقى في مخبأ عراقي، أو في أي جيش

آخر. وربّما يتكلّم قسّيس بريطاني وأميركي كلاماً دينياً بمثل هذا الخيال. ولكنني أدركت أن هؤلاء الجنود الصبيان الإيرانيين كانوا كلّهم رجال دين واعظين، مؤمنين؛ كانوا كلهم من «أتباع الإمام» ـ وصرتُ الآن أفهم هذا التعبير ـ ثم سمعنا صوت انفجار آخر خارج الخندق.

بدا «قصقاري» ممتنّاً لانفجار القذيفة وأعلن ما يلي: «إن واجبنا الأول هو أن نقتل القوّات العدوَّة، بحيث يسود نظام الله أينما كان. وإذا استشهد المرء فليس ذلك أمراً سلبياً. فقد قَتل الحسين، الإمام الثالث، مَن استطاع قتلهم من أعدائه قبل أن يستشهد ـ ولذلك يجب علينا أن نحاول البقاء أحياء». وإذا لم نفهم ذلك، بحسب قول «قصقاري»، فذلك لأن النهضة الأوروبية في عصر التنوير استبعدت الدين. ولم تهتمّ بالأخلاق، بل ركّزت على المادّيات. ولم يكن هناك من حدٍّ نضعه لهذه المفاجأة، أو من فرصة لتطعيمها بحجج حول الإنسانية والمحبّة. فقد أردف قائلاً: «لقد حصرت أوروبا والغرب هذه القضايا في قشور كنائسهم. والغربيون هم مثل السمك في الماء، الذي لا يفهم سوى المحيط المباشر الذي يعيش فيه. فهم لا يهتمون بالروحانيات».

عندئذٍ ودّعنا «قصقاري» دون سوء نيّة، وأعطانا برتقالاً عندما غادرنا مخبأه لنخرج إلى الرمل الساطع الخطر في الخارج. فكيف نودّعهم نحن؟ ـ نظرنا في عيونهم، عيون الأولاد الذين لهم أسلوبهم في الحياة والموت؛ لقد بدأوا رحلتهم. ثم سقطت القذيفة التالية وراءنا على بعد حوالى مئة متر، بينما كنا نركض على طول الخندق. وكان انفجار رعدي، أثار دخاناً أسود وأغبر، ونسف جزءاً من الطريق في الهواء، وأخافنا، لا بناء على الخطر المحدق بنا فحسب، بل لأنه وضع الاستشهاد في منظور مرعب.

عدنا إلى مدينة «دزفول» المبتهجة جدّاً، قبل أن يستعر غضب صدّام بساعة، ويبدأ بأخذ ثأره؛ إذ أحدث انفجارين كبيرين، تبعهما ارتفاع أعمدة قاتمة من الدخان الأسود، في أحد أحياء المدينة السكنية الأكثر فقراً. وكان ذلك الهجوم هو العاشر بالصواريخ أرض ـ أرض على «دزفول»، منذ بداية الحرب. وكانت مشاهد هذا الهجوم رهيبة ومألوفة: نصف طفل، ورأس امرأة على حجارة

منزلها المهدّم، وسلسلة من الأذرع والسيقان مطروحة بعضها قرب بعض، إلى جانب سلسلة من الجذوع، لعلّ أحداً يجمع الأطراف مع الأجسام الصحيحة، ومئات من الرجال بارزة أيديهم من تحت حُطام حجارة الآجرّ التي يبني بها معظم الإيرانيون بيوتهم دون إسمنت أو هيكل يدعمها؛ لأنها رخيصة. وكأنها بُنيت من أجل التدمير السهل.

وفي أوائل العام ١٩٨٢، كان الإيرانيون يهدّدون باجتياز الحدود مع العراق. فقد استُبدِل بوعود الخميني بالمحافظة على حرمة الأراضي العراقية مفهوم عملي جديد. فإذا كان دخول العراق ينهي الحرب، فإن الجنود الإيرانيين قد يفعلون ما فعله العراقيون في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٨٠. وقد كرّر الخميني الكلام على ما يقاسيه الشيعة العراقيون، معبّراً عن بعض الإحباط الذي يعانون منه. فهل يكتفي الخميني برأس صدّام؟ ـ لا شكّ في أنه يريد نظاماً عراقياً إقطاعياً على شاكلة نظام إيران، أو ما يشبهه، وهو ما بدأ العرب يخشونه.

ولم يكن صعباً أن نسبر مكنونات هذا الأمر. فالطائفة الشيعية في لبنان هي الأوسع ـ وإن لم تشكّل الأكثرية ـ وسوريا يحكمها فعلاً العلويون، وهم طائفة شيعية في كل شيء ما عدا الاسم. وإذا حكمت الأكثرية الشيعية العراق، يمكن أن تتألّف دولة شيعية تمتدّ من البحر الأبيض المتوسط إلى حدود أفغانستان، فيها النفط ومياه النهرين الكبيرين دجلة والفرات. فيمكن في هذه الحال، أن يستولي الخميني على نفط إيران والعراق، ويقاطع «أوبيك» ويبيع بأسعار أدنى، ويسيطر على أسعار النفط العالمية، ناهيك بسيطرته على مياه الخليج والجزيرة العربية. وهذا على الأقلّ هو كابوس العرب والأميركيين، والخوف الذي كان يعزّزه صدّام باستمرار. فهو يصوّر نفسه الآن كمدافع عن أراضي العرب، ويسمّي حربه مع إيران «القادسية الجديدة»، تلك المعركة التاريخية التي وقعت عام ٦٣٦م، وانتصر فيها القائد العربي سعد بن أبي وقّاص على الجيش الفارسي الأكبر من جيشه بقيادة رستم. وتصف بغداد الإيرانيين الآن بلغتها الرسمية بأنهم «الوثنيّون الزرادشتيون».

وفي البصرة، عرض العراقيون علينا أسرى الحرب الإيرانيين؛ كما أخذنا

الإيرانيون لمقابلة الأسرى العراقيين ـ البالغ عددهم كلهم ١٥٠٠٠ أسير. ففي مخيّم أسرى الحرب في «پارنداق» في شمالي إيران، جلس هؤلاء الأسرى العراقيون القرفصاء على أرض ميدان تعصف فيه الريح، ويمتد نحو ميل، وكثير منهم بلحى حسنة التشذيب، ويضعون حول أعناقهم صورة ملوّنة للخميني، وعيونهم تتحرّك بأسلوب لا يضبطه سوى الأسر؛ يدرسون أحوال بعضهم بعضاً بعصبية، ثم يحدّقون في حرّاسهم، مشدوهين بضخامة استسلامهم. وعندما أخبرهم رئيس الأركان الإيراني، الأشيب، ذو النظّارة، عن عدم العدالة في العراق، صاحوا جميعاً: «فليسقط صدّام حسين».

لم يكن ذلك غسل دماغ بالمعنى المقبول للعبارة. ولا يمكن حتّى أن نسمّي ذلك تطبيعاً. فلا شكّ في ما يحاول الإيرانيون أن يفعلوه في «پارنداق»، ألا وهو: جعل جنود صدّام أكثر خطراً على نظامه البعثي من الجيش الإيراني الذي يشقّ طريقه نحو الحدود العراقية. وعندما كان يُذكر اسم الخميني كان له صدى عام على امتداد أرض الميدان، يردّده الآلاف من الجنود العراقيين، الذين ركعوا وهم يؤدّون الصلاة، ويعبّرون عن إجلالهم وولائهم للمعتقد الإسلامي الذي أطاح بالشاه.

كان هناك بعض المنشقّين، والحقّ يقال، في صفوف الجنود العراقيين، الذين احتفظوا بهويّتهم السياسية والإسلامية. وفي آخر صفّ من صفوف قُدامى الأسرى ـ المحتجزين منذ أكثر من عام ـ صاح جندي عراقي: «إن صدّام رجل طيب»، فوافقه بعض رفاقه بإحناء رؤوسهم وشرح لنا ذلك أحد الموظفين الإيرانيين بثقة المعتاد على الكذب قائلاً: «لم يقل الرجل صدّام ـ بل كان يحييكم بكلمة السلام». وقد رفض بعض مئات من الأسرى أن يصلّوا. فقال الموظف ذاته: «إنهم لم يتوضّأوا قبل الصلاة، لم يتطهروا».

وكان الخميني قد أصدر تعليماته المحدَّدة من مسكنه في شمالي طهران، بأن يُعامل أسرى الحرب العراقيون معاملة حسنة، وأن يُعطوا جميع حقوق الأسرى. وقد تمّت زيارة هؤلاء السجناء من قِبل الصليب الأحمر الدولي،

واستمعوا إلى محاضرات باللغة العربية كل يوم، ألقاها ضبّاط إيرانيون شرحوا لهم أن الولايات المتحدة الأميركية، وفرنسا، وبريطانيا، وغيرها من بلاد الغرب دعمت كلّها هجوم صدّام حسين على إيران عام ١٩٨٠. وبالطبع لم تكن هناك معارضة من جمهور المستمعين الواسع هذا. وعندما كان الأسرى العراقيون يركعون للصلاة كانوا ينزعون صورة الخميني من أعناقهم، ويضعونها على الأرض أمامهم، ثم يمسّونها برؤوسهم عند السجود. وفي ثكنات الجيش كان هؤلاء الرجال ـ بمن فيهم رجال المظلّات الذين جيء بهم من جبهة القتال يوم هذه الزيارة بالذات ـ لا يزالون يلبسون طواقيهم الزرقاء ويتلقّون دروساً أسبوعية من قِبل الشيوخ (الملّات) حول معنى الإسلام. وكان قد سبق لهم أن تسلّموا جريدة طهران اليومية «كيهان» مطبوعة باللغة العربية من أجلهم.

وعندما عاد هؤلاء إلى العراق، لا بدّ أن يكون بعضهم، لا بل نسبة جيّدة منهم قد نقلوا دروسهم معهم من الأسر، كحافز من أجل الإطاحة بصدّام حسين ـ أو كاستلهام لمعارضة أيّ جيش آخر يتجرأ على السيطرة على بلادهم، في ما سيأتي من السنين. ولم نعلم نسبة الشيعة والسنَّة بين أولئك الجنود العراقيين الشباب.

لم يسمح لنا الإيرانيون بالتكلّم مع الأسرى، مع أنهم أرونا أكثر من مئة محجوز من «ضيوفهم» كما يسمونهم باستمرار ـ من الأردن، ولبنان، وتونس، ونيجيريا، والصومال الذين كانوا بين الأسرى العراقيين. وادَّعى صاحب مكتبة ملتحٍ من زحلة بلبنان ـ وهي مدينة مسيحية ـ أنه أُجبر على التطوّع عندما كان يشتغل في بغداد. أما الصومالي «فوزي حجازي»، الخائف، والمبتسم، فقد طلب مني أن أُعلم سفارته عن وجوده. لقد كان طالباً صاحب منحة في جامعة بغداد، بحسب قوله، عندما ضغطت عليه زمرة للتطوّع في الجيش. ولم يزره موظفو الصليب الأحمر. وعند هذا الحدّ منعه الحارس الإيراني من متابعة الكلام.

والآن في زياراتنا مع مرافقينا إلى الجبهة الإيرانية، أصبحنا نرى ملامح الثقة بالنفس تعود إلى الإيرانيين. فقد أصبح حرّاس الثورة هم العمود الفِقري

للقوة العسكرية الإيرانية. وهم يفدون بكثرة هائلة كمتطوّعين «باسيجي» (Basiji) من المناطق الريفية، أولاد مدارس ومتقدّمين في السنّ، وعاطلين عن العمل، وحتى المرضى. وقد نُشر كتيّب عن التاريخ الرسمي «لتكوين الحراس» في طهران خلال الحرب، وادَّعى «أن هؤلاء الحرّاس يشبهون من وجوه عديدة المقاتلين في صدر الإسلام، أيام الرسول (ص)... ومن بين النقط السائدة والهامّة... الحياة بحسب الأخوّة الإسلامية؛ وقصّة المسافرين والأتباع. فالمسافرون... ساروا إلى جبهات القتال، بينما بقي الأتباع... ليعتنوا بعائلاتهم في المدن خلال الحرب». ومن أنشطة الحرّاس الهامّة، كما تقول النشرة «التدرّب العسكري، والسياسي، والإيديولوجي، الذي ينظم المحيط اللامتناهي من شعبنا»(*).

توجّه الآن «الحرّاس» و«المسافرون» في قوافل نحو حدود العراق، وهم يغنُّون وينشدون، معبّرين عن رغبتهم في تحرير العتبات المقدّسة للشيعة في العراق. وقد تجاوزتُ بسيارتي قافلة من هؤلاء قرب مدينة «سوسنغرد» فيها الشاحنات، وسيّارات الجيب، والدبّابات، وطولها خمسة كيلومترات، فضلاً عن آلاف من المتطوّعين الريفيين المذكورين؛ وكلهم يلوّحون بأعلام سوداء وخضراء، عليها اسم «النجف» و«الكوفة». وعندما أخذت صورتهم، صرخوا بي «حرب حتى النصر». وكانت هناك أيضاً قافلة أخرى تقودها دبّابة، مع إعلان مربوط عند فوّهة مدفعها يشير إلى أنها «قافلة كربلاء». وكان معظم هؤلاء سائرين إلى حتفهم في العراق، وهم يقومون بأدائهم بلا مبالاة وخلواً من الهموم ـ بنوع مثير من العناد الصفيق الشموس ـ وأفترض أن جنود حرب ١٩١٤، كان لديهم بعض هذا الابتهاج، كالبريطانيين الذين ظنّوا أن الحرب ستنتهي في عيد الميلاد، والفرنسيين الذين كتبوا اسم «برلين» على جوانب

(*) ومن الجمل المشؤومة التي وردت في الوثيقة ذاتها: «سوف يكون من برامج (الحرّاس)، بعد قيام الحرب البعثية المفروضة علينا، تطهير كردستان من العناصر الشنيعة المرتزقة، تلك الجماعات المدعومة من الولايات المتحدة الأميركية، مثل «الحزب الديمقراطي (KDP)، وبهذه الطريقة يصبح إقليم كردستان منطقة إسلامية كاملة.

القطارات التي تقلّهم، والألمان الذين رسموا «باريس» على مركباتهم. وقد جاء في كتاب «نحن جنودها» من تأليف «فريدريك مانينغ»، وهو شبه سيرة حياة، أن وحدة من الجنود البريطانيين السائرين عبر قرية فرنسية ليلاً خلال الحرب العالمية الأولى، أيقظت السكّان:

«... فُتحت الأبواب فجأة، وانطرح الضوء من الممرات، وسألتهم أصوات إلى أين هم ذاهبون.

فصرخوا: «إلى «الصوم»! إلى «الصوم»؛ كما لو كان ذلك تحدّياً. فأُجيبوا: «آه، ليس ذلك أمراً جيّداً»، بلطف، وبأصوات مشفقة... وكان ذلك بمثابة عداء لهم. تلك اللمسة، لمسة اللطف والعطف؛ وقعت عليهم أقسى من الموت. فأنشدوا بصوت أعلى، وهم لا يرون سوى الطريق البيضاء أمامهم...».

فلا عجب والحالة هذه أن ينبري الجندي الصبي في مرتفعات «دوسالوك» ويحاضر أمامي عن الروحانية والماديّة؛ إذ إنّ في حياة الجندي لحظة تُمسي عندها حتميّة الموت وتعذّر اجتنابه أكثر إلحاحاً من إمكانية الحياة.

والآن، خاف العرب الذين وضعوا ثقتهم في صدّام من أن يخسر الحرب التي دعموها بابتهاج. فوصل الملك حسين إلى بغداد مسرعاً لإجراء محادثات مع صدّام، معلناً وقوفه مع العراقيين، «جنباً إلى جنب»، ولكنّه يعبّر في مجالسه الخاصة عن مخاوفه من أن يتقهقر جيشهم أكثر، سامحاً للإيرانيين بدخول العراق. فموّل الكويتيون والسعوديون التسليح الجديد للجيش العراقي. وأرسلت قذائف المدفعية الثقيلة جوّاً إلى العراق من القاهرة، مروراً بأجواء السعودية(*).

(*) أولاً، بحسب مراسل جريدة «الأهرام» العسكري، أرسل العراقيون عملاء أسلحة أوروبيين إلى القاهرة لشراء الذخيرة «لأنهم لم يرغبوا في أن نعلم أنهم يتعاطون معنا. ولكن عندما طلبوا ذخيرة سوفياتية للمدفعية الثقيلة... علمنا أنهم العراقيون... فأخبرناهم بأننا نحن المصريين، لنا كرامتنا واحترامنا؛ وعليهم أن يأتوا إلينا شخصياً، ففعلوا؛ وحصلوا على القذائف وعلى خبرتنا القتالية».

ولكن لم يكن العرب هم وحدهم الخائفين من انكسار صدّام. فقد كانت الولايات المتحدة الأميركية تزوّد العراق بصور فضائية عن الخطوط الإيرانية في المعركة منذ الأيام الأولى للحرب، وكان سيل ثابت من المستشارين الأميركيين غير الرسميين يزور بغداد بانتظام منذ ذلك التاريخ. وقد روى اللبناني محمّد سلام، وأحد مراسلي «الصحافة المتحدة الأميركية» الذي عُيِّن في العراق عام ١٩٨٣، «أن «دونالد رامسفيلد كان في بغداد آنذاك لمقابلة صدّام، وقد عاملوني كملك، مثل جميع الناس الذين هم على اتصال مع الأميركيين. وكانوا بمنتهى التعاون». وفي المثنّى، المطار الحربي القديم في قلب بغداد، أقام العراقيون معرضاً للأسلحة، و«كان هناك الجميع، من البريطانيين إلى الكوريين الجنوبيين»، بحسب تقرير سلام. وحوالى شهر أيار/ مايو ١٩٨٥، جاء وفد عسكري أميركي إلى بغداد، وفيه ١٢ ضابطاً من ذوي الرتب. وبحسب رواية سلام «لم تتكلم السفارة الأميركية عن ذلك. فقد جاؤوا على طائرة «پان أميركان» ولبثوا في بغداد ثلاثة أيام».

وفي ذلك الوقت، لم يستطع محمّد سلام ـ الذي غطّيتُ معه أحداث الحرب اللبنانية الأهلية ـ أن يذهب دون مرافقة إلى العراق. ولكنه أخبرني كيف أن الأميركيين يركّزون في ذلك الوقت على العراق. «بدأت الولايات المتحدة تعتبر العراق ورقتها الرئيسة في المنطقة. . . وكان صدّام لا يزال ناجحاً حتى ذلك الوقت في أن يقمع الشيوعيين، والشيعة وكل المعارضة. وكان ذلك مناسباً جداً للأميركيين. والملك حسين مفيد في ترويج العراق للغرب. **ولكن، لا تريد الولايات المتحدة الأميركية أن يبقى العراق مصدر قوة في المنطقة، بعد الحرب!** ـ ما مِن شيء واضح في السفارة. هناك رجل يعمل في المجال الإعلامي الأميركي يسمّى «بولوك»، ونائب رئيس البعثة «تد قاطوف»؛ بينما كان «دين سترونغ» هو رجل الشؤون العسكرية. ولكنهم مُبعدون عن الأنشوطة التي يحوكها البنتاغون». ويذكر سلام الآن أنه «رأى صوراً فضائية للقوّات الإيرانية في قسم المصالح الأميركية في بغداد عام ١٩٨٤».

وصار سكّان العراق الآن، البالغ عددهم ١٥ مليوناً، يواجهون سكّان إيران البالغ عددهم ٣٥ مليوناً، والذين يزيدونهم بنسبة خمسة إلى واحد تقريباً في

ميدان المعركة. ولا يستطيع جيش صدّام، والحالة هذه، أن يحارب في ظلّ عدم التكافؤ هذا في معارك مفتوحة ـ وآية ذلك ما حصل في «دزفول» ـ ولذلك لا بدّ من تبنّي منطق جديد لا رحمة فيه: تتخندق القوّات العراقية عند الخطوط الأمامية، وتُركّز آلاف الدبّابات في التراب، وتستخدمها ككتلة مدفعية شاملة لإبادة الهجمات بالأمواج البشرية. ولكن في عام ١٩٨٤، قاد حرّاس الثورة الإيرانيون هجوماً إلى عمق العراق في مستنقعات الحويزة والأنهر التي تجري في منطقة المستنقعات العربية، على طول السدود، مستعملين زوارق بمحرّكات. ولم يعترف العراقيون بذلك إلّا بعد ثمانية أشهر؛ بينما رأى سلام ذلك بأمّ العين ـ إذ دفع الإيرانيون بدروعهم عبر الطريق الواسعة التي تربط بغداد بالبصرة. فقطعوا نهر دجلة، وبدأوا بتدمير الدبّابات العراقية بإطلاق النار عليها من جسور الطريق العامّة.

وكان ردّ فعل بغداد ناجحاً إنما تدميرياً وقاسياً. ولمّا كان محمد سلام أحد الصحافيين القلائل الذين شاهدوا النتيجة، يجد القارىء في ما يلي تقريره عمّا حدث بعد ذلك:

> «حصلت معركة كبرى في «العزير»، و«السادة»، و«البيضا»، في مستنقعات «الحويزة» جنوبي العمارة ـ وكان القائد العراقي هو اللواء هشام صباح الفخري. قد جرّ الإيرانيين إلى جيب في المستنقعات ثم بنى العراقيون سدّاً كبيراً إلى الشرق منهم. وكنا لا نزال في أوائل عام ١٩٨٤. جاء الفخري بصهاريج ضخمة مملوءة وقوداً وضخّها في المستنقعات ثم أطلق قذائف حارقة على المستنقعات، فنشأ أكبر حريق شهدته في حياتي، قضى على كل شيء في البيئة. وعندما انطفأت النار، جلب مولّدات كهربائية، ووضع أسلاكاً ضخمة في المستنقعات، وكهرب كل شيء، بحيث لا يبقى مصدر حياة في كل تلك البقعة. مشيت نحو سدّ لأقضي حاجتي، فناداني أحد الجنود قائلاً: «لا تبوّل في الماء، أتريد أن تكون أحد شهداء التبويل؟»».

كانت الأجساد التي أُخرجت أحشاؤها تطفو في كل مكان، وكان بينها أجساد نساء وأولاد ـ هم سكّان المستنقعات الذين يعرفون ما هو الضفدع، والذين عاشوا بين السدود والجواميس، واصطادوا السمك بالرماح؛ هؤلاء ضاعوا، وفُقدت حضارتهم. رأيت منهم حوالي ثلاثين امرأة وولداً. كلّهم مبقورو البطون كالسمك؛ فضلاً عن العديد العديد من الإيرانيين. لقد مات البريء مع المذنب».

ولكن النفط والكهرباء وحدهما لا يستأصلان الغزاة. ففي معركة القادسية التاريخية، دهش «سردار» ورفاقه العرب من رؤية جيش رستم يتقدّم نحوهم بحيوانات ضخمة جدّاً لم يروها في حياتهم، بهائم أكبر حجماً من الحصان بستّ مرات، ذات عظمين ناتئين حول خرطومها، وأرجلها ضخمة جداً كذلك، حتى غاصت في الرمل. إنها الفيلة. فطلب «سردار» من رماة السِّهام ومن جنوده، أن يرموا سهامهم وحرابهم في عيون الفيلة. ولا يزال العراقيون حتى اليوم يعتقدون أن ذلك كان سرّ انتصارهم. فما هو سلاح صدّام ضدّ القطعان المخيفة التي تدخل العراق الآن؟ وما هو الرمح المسموم لمجابهة الفرس «العنصريين»؟

أنا الآن على متن قطار حربي إيراني، يتدحرج على عجلاته عبر الليل البهيم في الصحراء شمالي الأهواز، عائداً من سفرة أخرى قمتُ بها إلى الجبهة؛ وها أنا آكل الدجاج والأرزّ، وأشرب كولا دافئة في مطعم القطار. إننا في عام ١٩٨٣. و«رامسفيلد» يصافح صدّام، طالباً معاودة فتح السفارة الأميركية. كان القطار بطيئاً، يصرّ صريراً عند المنعطفات بسبب عدم تزييته، ويهوي على المنحدرات، ويرتطم على خطّه الدائم غير المُصان. ومن وقت إلى آخر يمرّ ضوء عبر النافذة. إنها قرية بلا شكّ، لها نصيبها من الشهداء. وكان المراقب الذي يمثل وزارة الإرشاد نائماً، لعلمه أني لا أستطيع أن أشرد من قطار في حال سيره.

لم أستطع النوم؛ ولذلك تمشّيت عبر عربات القطار. كان الطقس بارداً والنوافذ مغلقة، حتى لا يدخل نسيم الليل الصحراوي، ولكن هناك رائحة خفيفة

غريبة. ظننت أولاً أنها مرتبطة بمزيل للروائح النتنة في المراحيض عند آخر كل حافلة. ثم فتحت الباب الموصل إلى الحافلة التالية، فوجدتهم هناك، جالسين بالعشرات. جنود من حرّاس الثورة الشباب، يسعلون بنعومة في محارمهم الورقية أو مناديلهم الشاشية، بعضهم في عربات مكشوفة، وآخرون في حُجيرات، وكلهم يتقاطر الدم والمخاط رويداً من أفواههم وأنوفهم. وكان أحدهم ـ وأظن أنه في عمر الثامنة عشرة تقريباً ـ يغطّي وجهه بالشاش الملطّخ بالزهر والأصفر، لكنه يحمل بيده اليسرى قرآناً ذا غلاف أزرق لامع. ومن وقت إلى آخر، كان يضع الشاش على ركبته ويسعل، فيسيل خط أحمر جديد من أنفه، ويقلب صفحات القرآن الكريم بيده اليمنى؛ ثم يعاود وضع قطعة الشاش على وجهه، لتمتص الدم الجديد، ثم يمسك بالقرآن ويعاود القراءة فيه.

كانوا يجلسون في عربات متتالية من القطار، دون أن يتكلموا، أو يشتكوا، راضين ـ كما يبدو ـ بما أصابهم. وبعد حوالى ربع ساعة أدركت أن الرائحة التي أزعجتني، ينفثها هؤلاء من رئاتهم. ذهبتُ إلى نوافذ العربات وفتحتها، لأملأ المماشي بهواء الليل النافذ؛ إذ إنني لم أردْ أن أتنفّس الهواء الذي يزفرونه، وألهث كما يلهثون. ولم ينظر الجنود إليَّ وأنا أستمرّ في فتح النوافذ، لأنهم يقاسون جهّنهم الخاصة، التي لم أدخلها والحمد لله.

يقول التاريخ الرسمي الإيراني للحرب إن العراق هو الذي استعمل الأسلحة الكيَميائية ضدّ الإيرانيين بتاريخ ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٨١ فقتل سبعة منهم. وفي عام ١٩٨٢، سجّلت إيران ١١ هجوماً كيميائياً من قبل جيش صدّام، و٣١ هجوماً من هذا النوع عام ١٩٨٣. وقد فحص الدكتور «ناصر جلالي»، رئيس جناح أمراض الجلد في مستشفى «لقمان الدولة» في طهران، عدداً من الجنود الذي استُقدموا إلى العاصمة بعد هجوم بالأسلحة الكيميائية على «پيران شهر» و«طمرشين»، بتاريخ ٩ آب/أغسطس ١٩٨٣. قال الطبيب: «سبب هذه الإصابات هو التعرّض لموادّ سامّة، أطلقت في الجوّ بشكل غاز، أو سائل، أو مسحوق. . . فقد استُعملت أسلحة لإطلاق مادّة كيميائية سامّة تُدعى «نيتروجين الخردل» أو «غاز الخردل». وكان ذلك عند الساعة ٩:٣٠ من صباح ٢٢ تشرين

الأول/أكتوبر ١٩٨٣ بين «ماريفان» و«سلطان»، إذ انفجرت قذيفة مدفعية على الخطوط الإيرانية، أعطت رائحة الكاز (الكيروزين). وفي الصباح التالي أصيب ١١ إيرانياً ـ من الجنود، وحرّاس الثورة و«الباسّيجي» أي المتطوّعين ـ بالغثيان، والتقيّؤ، وحرقة في العينين، وغشاوة في البصر، والحكّ، والاختناق والسعال. وعندما أُخذوا إلى المركز الطبّي، وجرى الكشف عليهم، تبيّن أن البثور والقروح تغطّي جلودهم. وبين ٢١ و٢٢ تشرين الثاني/أكتوبر، تعرّضت ثلاث قرى كردية متعاطفة مع إيران لهجوم كيميائي. وجاء في التقرير الطبي الإيراني «أن الكثير من القرويين في هذه المقاطعة الكردية، بمن فيهم النساء والأولاد، وأصيبوا إصابات بالغة». وبين ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٠، و٢٠ آذار/مارس ١٩٨٤، يورد التاريخ الرسمي الإيراني للحرب ٦٣ هجوماً منفصلاً بالغاز من قِبل العراقيين.

ومع كل ذلك، لم يحصل ردّ فعل عالمي؛ مع أنه لم يحدث منذ أعوام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، أي هجوم بالأسلحة الكيميائية على هذا النطاق الواسع. ولكن كان الخوف من إيران والاشمئزاز منها كبيرين؛ وكان ولاء العرب لصدّام كلّياً؛ وكان دعمهم له لمنع ثورة الخميني من الانتشار دعماً مطلقاً جعلهم يبقون صامتين. ولم تطبع أبداً في الصحافة العربية التقارير الأولى عن استخدام صدّام للغاز. وكان ذلك يُعتبر في أوروبا وأميركا ضرباً من ضروب الدعاية الإيرانية؛ وكان ردّ فعل أميركا محدوداً. ولكن الولايات المتحدة أدانت العراق في آذار/مارس ١٩٨٤ لاستعماله الغاز السامّ وحتى تلك الإدانة كانت ملطَّفة. أما في عام ١٩٨٥، فقد أوردت «النيويورك تايمز» «أن محلّلي المخابرات في الولايات المتحدة الأميركية توصّلوا إلى نتيجة مفادها أن العراق استعمل أسلحة كيميائية في ردّه على الهجوم الإيراني الأخير في حرب الخليج». وقد نُميَ هذا التقرير، بحسب أسلوب تلك الصحيفة الجبانة، إلى المصادر الأميركية المفضّلة لدى المراسلين الأميركيين ـ موظفي الإدارة الأميركية.

وقد أوحت الإثباتات الأوليّة أن العراقيين كانوا «يستخدمون الكبريتيد» (bis 2-chlorethyl)؛ وهو عنصر مقرِّح يؤذي كل الأنسجة البشرية. ومضى تقرير «النيويورك تايمز»، على المنوال الجبان ذاته، يقول: «وقد نقلت إيران ضحايا الهجمات المزعومين إلى النمسا، وألمانيا الغربية، حيث نُمي عن بعض الأطبّاء قولهم إن علامات ظهرت على الجرحى تدلّ على أنهم هوجموا بغاز الخردل...». وقبل ذلك بأربعة أيام، قابل «جورج شولتز» وزير الخارجيّة الأميركي، نظيره العراقي طارق عزيز في واشنطن؛ ولكنه لم ينتقد الهجوم الكيميائي. وبالرغم من البيّنات الثبوتية الوافية، بقيت حتى جريدتي، جريدة «التايمز» اللندنية، تضع صورة جندي إيراني يعالج في إحدى مستشفيات لندن في آذار/مارس عام ١٩٨٥؛ وهو مغطّى بقروح جلدية رهيبة، مع تعليق يذكر أنه يشكو من «حروق تقول إيران إنها مسبّبة بأسلحة كيميائية».

وكان محمّد سلام أيضاً من الصحافيين القلائل الذين استطاعوا أن يحصلوا على إثباتات مباشرة، وتقريباً قاتلة، لهذا الهجوم الأخير بالغاز. وها هو يروي لنا مرّة أخرى، قصّته المرعبة، إذ يقول:

> «دُعيت مع «زوران غراماسييف» من وكالة «تانجوغ» اليوغوسلافية للأنباء، للذهاب إلى البصرة، حيث حصل هجوم كبير للإيرانيين. وقد جوبه الجيش العراقي الثالث بقيادة اللواء ماهر عبد الراشد بهذا الهجوم الهائل الغامر؛ ولم تمكن مجابهته إلّا بالقتل الجماعي. فقهر الراشد الهجوم الإيراني. ولم يكن هناك أي طوفان، أو نار، أو كهرباء. فتجوّلت مع «زوران» في الصحراء حيث حصل كل ذلك، وصادفنا مئات ومئات من القتلى الإيرانيين، بل آلافاً منهم؛ وكلّهم أموات. وكانوا لا يزالون يحملون رشاشاتهم ـ فكّر فقط في الآلاف منهم موتى في خنادقهم، وهم ما زالوا يمسكون برشّاشات كلاشينكوف. كما كانت أكياس طعامهم لا تزال على ظهورهم ـ فكل الإيرانيين يحملون أكياساً صغيرة للطعام. ولم يكن هناك أية ثقوب أحدثها الرصاص، أو جراح ـ كانوا موتى، لا غير.

بدأنا بالعدّ ـ وسرنا أميالاً وأميالاً في تلك الصحراء المشؤومة ونحن نعدّ. وصلنا إلى الرقم ٧٠٠، فتشوّشنا، ورحنا نعدّ من جديد. كان هناك دم على أفواه وذقون جميع الإيرانيين، وكانت سراويلهم من تحت الخاصرة، كلّها مبلولة. لقد بالوا جميعاً في سراويلهم. فقد استعمل العراقيون لأول مرّة خليطاً من غاز الأعصاب وغاز الخردل. فغاز الأعصاب يشلّ أجسادهم، فيبولون جميعاً في سراويلهم؛ بينما غاز الخردل يحرق رئاتهم؛ ولذلك بصقوا دماً. وصفنا كل هذا في تقاريرنا، لكننا لم نعرف هويّته. سألنا الجنود العراقيين، الذين كانوا يأكلون البندورة (الطماطم) والخيار؛ ولكنهم كانوا يلبسون خوذ الغاز عندما يتوقفون عن الأكل. وبسبب تلك الزيارة أُصبت بالتهاب في جيوب أنفي، وذهبت لأرى طبيباً صديقاً لي في بغداد. فقال لي: «هذا ما نسمّيه «التهاب الخطّ الأمامي»؛ أنصحك بمغادرة العراق فوراً». ثم ذهبت لأرى «إيلين پاول وجيري لابل» الزوجين من فريق الصحافة الأميركية في نيقوسيا، فأرسلوني إلى العيادة القبرصية حيث أعطوني مضادّات حيويّة. ولكن ما رأيته كان آلة قاتلة. وفي آخر الأمر، عددنا «زوران» وأنا حوالى ٤٧٠٠ جثة إيرانية. أتعلم؟ إننا نحتاج إلى قرون من الزمن لنكتب عمّا حصل في تلك الحرب.

وعند الساعة السادسة من كل مساء، كانت الإذاعة العراقية تبثّ النشرة الرسمية عن الحرب. ولا أزال أذكر ما قالته حرفياً في أوائل عام ١٩٨٥: «إن أمواج الحشرات تهاجم البوّابات الشرقية للأمّة العربية. ولكن لدينا مبيدات الحشرات الكفيلة بالقضاء عليها».

ومن أين تأتي «المبيدات»؟ ـ جزئياً من ألمانيا (طبعاً). ولكن بتاريخ ٢٥ أيار/ مايو ١٩٩٤، أصدرت إحدى لجان مجلس الشيوخ الأميركي (لجنة المصارف والإسكان والشؤون المدينية) تقريراً حول «الصادرات الأميركية الثنائية الاستعمال المتعلّقة بالحرب الكيميائية والبيولوجية إلى العراق؛ وإمكان تأثيرها

على العواقب الصحّية لحرب الخليج الفارسي» وحرب الخليج هنا تعني حرب ١٩٩١ وتحرير الكويت، ولكنّ استقصاءات هذه الدراسة شملت الحرب الإيرانية ـ العراقية، التي كانت تسمّى أصلاً حرب الخليج من قِبل الغرب حتى شاركنا في حرب الخليج التي تخصّنا، واختلسنا الاسم.

وقد أعلم تقرير هذه اللجنة الكونغرس الأميركي حول ما وافقت عليه الحكومة الأميركية من شحنات الموادّ الكيميائية، التي أرسلتها الشركات الأميركية إلى العراق منذ عام ١٩٨٥ أو قبل ذلك. وشملت هذه الشحنات ما يلي:

Bacillus an thracis-which produces Anthrax; Clostridium botilinum; Histoplasma capsulatum; Brucella melitensis; clostridium perfringens and Escherichia coli (E.Coli).

وجاء في التقرير ذاته «أن الولايات المتحدة الأميركية زوَّدت حكومة العراق بمواد مجازة «ثنائية الاستعمال»، ساعدت على تطوير البرامج الكيميائية، والبيولوجية، وبرامج نظام الصواريخ، بما فيها... مصنع لتسهيل إنتاج الموادّ الكيميائية الحربية، ورسومات تقنية (قُدّمت كخطط لتسهيل إنتاج المبيدات)، وتجهيزات تعبئة للحرب الكيميائية...».

وفي صيف ١٩٨٥، أخذت وزارة الإعلام العراقية محمّد سلام إلى مقربة من الحدود السورية، لتريه مقلعاً أو محفرة تسمّى «القايم قاشات» تُستخرج منها أسمدة، بحسب قول مراقب الوزارة. وكان هناك مهندس أميركي من تكساس، بحسب رواية سلام التالية:

«أجريتُ معه مقابلة فقال إنهم يصنعون أسمدة هناك. لكنهم كانوا ينتجون غاز الخردل وغاز الأعصاب. وكثير من الناس في العراق يعلمون ذلك. وكان بجانب المحفرة قرية اصطناعية فيها مطعم و«شاليهات». وقد قصف الأميركيون هذا المكان عام ١٩٩١ أثناء حرب ١٩٩١. وبقي أهل النظام فترة هناك بعد الغزو الأميركي عام ٢٠٠٣ في هذا المكان الرائع المخصّص لإنتاج السماد. وقد بسطوا لنا وليمة مع كثير من الخمر والويسكي».

كان «حميد كردي عليبور» راقداً في فراشه بالمستشفى وهو في شبه غيبوبة، تصفر رئتاه من خلال شفتيه المشقوقتين، ويبدو جبينه متغضّناً، نظراً لتقطيبه من شدّة الألم. وكانت الممرّضة بجانبه ـ وهي فتاة تلبس نظّارة سوداء الإطار، و«شادوراً» أسود كذلك ـ تصبّ الماء بلطف في فمه من إبريق لدائنيّ. وتبتسم له، كما لو كانت لا تلاحظ الجلد الأسود المتدلّي من وجهه، أو الحروق الزهريّة المزرقّة حول حنجرته. لقد حدث له أمر جلل مرعب، لكنّ الأطبّاء الإيرانيين أصرّوا على أن يخبرني قصّته بنفسه.

إنها القصّة ذاتها للعديد من الجنود الإيرانيين البالغ عددهم ١٩٩ جندياً وحارساً للثورة، الذين يتعذّبون في فراشهم في مركز «لابافينجاد» الطبّي في طهران. نحن الآن في شباط/فبراير عام ١٩٨٦. قال «عليبور»: «كنتُ في ملجأ في الجهة الإيرانية من «أرفاند» أي شط العرب؛ عندما سقطت قذيفة. لم أكن أدرك أن العراقيين كانوا يقصفون بالغاز. ولم أكن أرى المادّة الكيميائية؛ ولذلك لم أضع القناع الواقي. ثم فات وقت وضعه». ارتاح المصاب قليلاً، وهو يتنفّس بصعوبة، بينما كانت الممرّضة تمسك الكأس له. وسألت عن عمره فنظر إلى الفتاة وقال: «١٩ سنة».

وكان ثمّة مرضى ينظرون إليه من أسرّتهم، وآخرون يرقدون وعيونهم متجمّدة ومغلقة، وقرب مخدّاتهم كُتل من مماسح العيون موضوعة في إناء. إنهم لا يتكلّمون. وكل ما تسمعه هو التنفّس الخشن العاني. كان هناك الدكتور فايز الله يزداني وهو من كبار الأطبّاء في المستشفى؛ له جسم صغير مع حاجبين كثيفين جداً، لكنه يشيع البهجة وسط كل هذا الألم. قال لنا: «المشكلة الحقيقية تكمن في الرئتين ـ نحن نعيدهم إلى بيوتهم عندما تتحسن أحوالهم، ونستطيع أن نتعاطى مع التهابات الدم... ولكنهم يعودون إلينا ولديهم مشكلات في الرئتين. إنهم يسعلون كثيراً. مع العلم أن بعضهم هوجموا بالغازين معاً: غاز الأعصاب وغاز الخردل».

أرسل الإيرانيون علانية بعض ضحايا الحرب الكيميائية إلى لندن، وستوكهولم، وفيينا للعلاج، ولكن أجنحة المستشفى التي يشرف عليها الدكتور «يزداني» لا تزال تعجّ بالمصابين. ولم يمت حتى الآن من الذين استقبلهم عنده

والبالغ عددهم ٤٠٠ سوى ٧ أشخاص فقط. وهو يأمل أن يرسل ٢٠٠ منهم إلى بيوتهم، مع أن العديد منهم لن يشفوا أبداً. وبحسب تصريح الأطبّاء، يستعمل العراقيون غاز الخردل و«التابون» (Tabun)، وغاز الأعصاب ضدّ الإيرانيين. وقد جدَّدوا هجماتهم الكيميائية على نطاق واسع بتاريخ ١٣ شباط/فبراير. وعندما يتأثّر المصابون كثيراً من إصاباتهم، يختنقون بلعابهم هم. والذين يبقون على قيد الحياة يؤتى بهم إلى القطارات الاستثنائية الطويلة، وهم يكادون يختنقون؛ تلك القطارات التي خلفت قطار ضحايا الغاز الذي سافرتُ فيه منذ ثلاثة أعوام. وتسافر هذه القطارات الآن من الأهواز كل ٢٤ ساعة. قال الدكتور «يزداني»: «لا يمكنك أن ترى الغاز، ولذا يفاجئك ويروِّعك. فيشعر الجندي برائحة خُضَر عفِنة، ثم تبدأ عيناه تحرقانه، ويعاني من ألم في الرأس، ويجد صعوبة في الإبصار، ثم يشرع بالبكاء، ويسعل وتصفر رئتاه».

كانت معاناة الألم في الجناح الذي زرته برفقة الطبيب، إذ قمتُ بجولة معه على الأسرّة، حيث يرقد رجال مقروحون، لُفَّت أجسامهم التي تتلوّى من الألم بأربطة صفراء. وكانت القروح أحياناً تغطي كل أجسامهم، وهي تبدو صفراء ووردية، طريّة جدّاً، وبحجم كرة السلّة أحياناً، وتفرز باستمرار انتفاخات جديدة من الجلد المرتعش، عليها.

وفي السرير ذي الرقم ١٦، صادفتُ طبيباً مصاباً، له من العمر ٣٤ سنة، وهو طبيب جلد من تبريز يُسمّى حسن صنافة. كان يعمل في مستشفى طبّي قرب شط العرب، بتاريخ ١٣ كانون الثاني/يناير، عندما انفجرت قنبلة غاز على مسافة ٢٠ متراً منه. ولا بدّ أن يكون إذ ذاك لابساً قناع الغاز، لأن الغاز ترك في جلده نسيجاً غير مشوّه حول عينيه وفمه، محدثاً إطاراً تهكّمياً حول جبهته وخدّيه. قال ببطء وهو ناعس من «المورفين»: «لم يكن هناك ما أستطيع أن أفعله، كنت مرتدياً الثياب المضادّة للغاز، لكنّ القذيفة كانت قريبة منّي جدّاً، فلم يستطع المنقذون حمايتي. أحسست بالحروق، وعرفت ما حلّ بي».

ابتسم. لقد نُقل بأمان إلى طهران، لكنه لم يسمح بإبلاغ زوجته ومعها ابنته البالغة من العمر ٢٠ شهراً، إلّا بعد يومين. فسألت عمّا فعلت زوجته عندما

جاءت إلى المستشفى؟ فأجابني: «طلبت منها أن لا تأتي ففعلت، إذ لم أردهما أن يرياني وأنا في مثل هذه الحال».

وخلال هذه السنوات كلّها، استمرّ الأميركيون في تزويد العراقيين بمخابرات حربية للمعارك، بحيث يستطيعون الاستعداد للهجمات الإيرانية الجماهيرية، والدفاع عن أنفسهم، بالغاز، بمعرفة الحكومة الأميركية. وكان هناك أكثر من ستّين ضابطاً أميركياً من وكالة الاستخبارات الأميركية، يزوّدون سرّاً أعضاء الأركان العامّة العراقية بمعلومات مفصّلة عن التحرّكات الإيرانية وإعادة انتشار القوّات الإيرانية، والتخطيط التكتيكي، وتقويم الأضرار التي يوقعها القصف بالقنابل. وبعدما عاد العراقيون فاستولوا على شبه جزيرة الفاو من الإيرانيين في أوائل عام ١٩٨٨، قام الكولونيل الملازم «ريك فرانكونا»، وهو ضابط استخبارات للدفاع في أميركا، بجولة في مسارح المعارك، وأخبر واشنطن أن العراقيين استخدموا أسلحة كيميائية لتأمين انتصارهم. وفيما بعد أبلغ الكولونيل «ولتر لانغ»، ضابط الاستخبارات الأعلى مقاماً للدفاع في أميركا، جريدة «النيويورك تايمز»: «إن استعمال العراقيين للغاز في المعارك ليس شاغلاً استراتيجياً عميقاً».

وقد استعمل العراقيون الغاز لمعاودة الاستيلاء على «الفاو» بتاريخ ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٨٨ ـ بينما أبدى العالم اللامبالاة. وقبل ذلك بشهر تماماً، أي في ١٧ و١٨ آذار/مارس، وخلال «عملية الأنفال» أي «الغنيمة» ـ أخذ العراقيون بثأرهم من بلدة «حلبجة» الكردية، لأنها تعاونت كما ادّعوا مع الإيرانيين خلال هجوم «والفجر ١٠» في المنطقة. فألقت الطائرات النفاثة العراقية على مدى يومين الغاز المصنوع من مركّب «سيانيد الهيدروجين»، بمساعدة شركة ألمانية، على حلبجة، وقتلت ٥٠٠٠ مدني. وفي واشنطن، أرسلت وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، التي لا تزال تدعم صدّام ـ مذكّرة إلى سفاراتها في الشرق الأوسط، تصرّح فيها بأن إلقاء الغاز قد يكون من جانب الإيرانيين.

وفيما بعد، استخلصت المنظمات الإنسانية استنتاجاتها المخيفة من هذه

الكذبة. فقد صرّح «جوست هيلترمان» من مؤسّسة «مراقبة حقوق الإنسان»، بعد ١٥ سنة، بقوله: «إن سجلّ أميركا بشأن «حلبجة» مخجل. فقد أبلغت وزارة الخارجية الأميركية دبلوماسييها بأن يقولوا إن إيران كانت ملومة جزئياً. وكانت نتيجة هذه المغالطة المذهلة أن المجتمع الدولي فشل في استجماع إرادته لإدانة العراق بقوة لقيامه بعمل شائن كهذا، على شاكلة الضربة الإرهابية لمركز التجارة العالمي». وفي الولايات المتحدة الأميركية ذُكرت «حلبجه» ١٨٨ مرّة في سرد الأخبار عام ١٩٨٨؛ ولكنها لم ترد سوى ٢٠ مرة في عام ١٩٨٩. أما عام ٢٠٠٠، فقد ظهرت «حلبجه» عشر مرّات في وسائل الإعلام الأميركية. ثم جرت محاولة تسخيفها من قبل إدارة جورج و. بوش، كتبرير لغزوه القادم للعراق. مع العلم أن الصحافيين ذكروا «حلبجة» ١٤٥ مرّة في شباط/ فبراير عام ٢٠٠٣. وبالاشتراك مع طوني بلير وغيره من زعماء الغرب، شدَّد بوش تكراراً على أن صدّام «شخص قصف شعبه بالغاز».

وتعبير «قصف شعبه» هامّ؛ لأنه يؤكّد على شناعة الجريمة ـ فالضحايا ليسوا أعداء له، بل هم عراقيون من شعبه؛ وقد لا تكون تلك نظرة الأكراد إلى الأمر. ولكنّ تلك الوصمة استعملت أيضاً لاستبعاد، وتخفيف، جرائم صدّام المماثلة وإنما التي تشمل أعداداً أكبر بكثير من الإيرانيين، الذين راحوا ضحايا الغاز، مثلما حدث في «حلبجة». ولما كنا، نحن الغربيين، ما زلنا إذ ذاك نخدم صدّام عندما حدثت تلك الجرائم ـ ومنها جريمة «حلبجة» ـ أُعطي قصف الأكراد بالغاز، كمثل فريد على وحشية صدّام.

وبعد عقد من حدوث قصف «حلبجة» بالغاز، اتهمت الولايات المتحدة الأميركية إيران بأنها تسعى للحصول على أسلحة كيميائية. وكان رئيس الجمهورية المغادر آنذاك هو علي أكبر هاشمي رفسنجاني، المسؤول عن القوّات الإيرانية خلال فترة طويلة من الحرب الإيرانية ـ العراقية. وعلى الأثر نفى ذلك رسمياً، بانفعال غير عادي عام ١٩٩٧، قائلاً: «كانت لنا تجربة خبيثة بصدد استعمال الأسلحة الكيميائية مع العراقيين في الحرب التي فُرضت علينا، ممّا لا نريد أبداً أن نستعمله أو نحصل عليه. وفي ذلك الوقت، كنتُ القائد الوحيد

للقوّات الإيرانية في الحرب. وعندما استولينا على منطقة الأهواز رأيت مشاهد فظيعة، لا أستطيع أن أنساها. إن أهل حلبجة تعاونوا معنا بعد نصرنا... وقد قام صدّام بذلك العمل المنكر ضدّ شعبنا دون أن يتعرّض لعواقب وخيمة. ولذلك عمد إلى الحصول على أسلحة كيميائية متطوّرة من ألمانيا، واستخدمها ضدّ أولئك الناس (الأكراد). وقد استُعملت تلك الموادّ الكيميائية وحصدت الناس على الأرض. فعندما يستنشق المرء هذه الموادّ لا يمكن أن يعيش. لقد رأيت مناظر رهيبة هناك (في حلبجة)، وآمل أن لا يتكرّر هذا المشهد في أي بلد».

أنا الآن جالس على الأرض في خيمة بشمالي العراق، بتاريخ ٢٨ أيار/ مايو ١٩٩١، وكانت «حلبجة» قد قصفت بالغاز منذ ثلاث سنوات، وحولنا آلاف من اللاجئين الأكراد، من ضحايا التطهير العِرقي الأخير الذي قام به صدّام ـ ذلك القمع الذي تلا تحريضَنا لهم خذلاننا لهم بعد التمرّد الكويتي ـ العراقي ـ ها هم يقاسون الضنى والمرض، والفساد السياسي تحت حماية الولايات المتحدة الأميركية. كان سفح التلّة بارداً، ولا تزال في الحُفر حول الخيمة مسحات من الثلج، والهواء جليدي، ولكنّه كثيف، بسبب تحويم مروحيات «تشينوك» الأميركية التي تحمل الطعام والبطانيات إلى مخيم اللاجئين.

كانت زليخة مصطفى أحمد في الثانية والعشرين من عمرها. وهي تلبس ثوباً أبيض مطرزاً، وتنّورة طويلة، ووشاحاً على شعرها الأسود. إنها تنحدر من عائلة كانت بين قتلى حملة «الأنفال» التي ربّما راح ضحيتها حوالى عشرة آلاف شخص. تزوّجت في الرابعة عشرة من عمرها. وكانت مع زوجها موسى عيسى الحاج، عندما ابتدأت حملة «الأنفال». وككثير من الأكراد كانوا يطيعون أوامر الحكومة بأن يبلغوا أقرب بلدة إليهم. «كنا في حافلتنا الصغيرة على مقربة من «دهوك» عندما أوقفنا جنود عراقيون؛ وأخذونا مع مئات غيرنا إلى قلعة «دهوك». أصعدونا إلى الطابق الثاني حيث رأيتهم يضربون زوجي موسى بحجارة الإسمنت. وقد رأيتُ بنفسي عشرة رجال ماتوا تحت الضرب بحجارة الإسمنت ـ فلم أكن أبعد عنهم سوى ستة أمتار. ثم جرّوهم كلهم معهم.

فحاولت أن أكلّم زوجي وأعزّز معنوياته، فقلت له: «لا تخفْ، أنت رجل»، فأجابني: «اهتمّي بأولادي؛ وإذا قتلوني فلا بأس». ماذا كنتُ أستطيع أن أقول؟ أخذوه؛ ولم أرَه منذ ذلك الحين. وأعتقد أحياناً أني لن أرى زوجي من جديد أبداً ـ نعم، إني أعتقد ذلك، أحياناً».

رجعت زليخة إلى قريتها «بهارقة». قالت: «حدث ذلك بعد عدّة أيام. وكنا معتادين على رؤية الطائرات. غادرتُ القرية باكراً مع ثلاثة من أولادي ـ وتركت الثلاثة الآخرين مع جدّهم ـ لأذهب إلى الحقول؛ لكني رأيت طائرتين تنقضّان على علوّ منخفض فوق «بهارقة»، وتلقيان قنابل. فتصاعد الدخان، واتجه مع الريح نحونا؛ وغطّى الأرض. كنّا نختبىء وراء تلّة صغيرة، لكنّنا رأيناها تتّجه نحونا. وكانت للدخان رائحة حسنة، كالدواء. وبدأ ولداي الصغيران «سرباس» و«صلاح» بالبكاء؛ وحصل لهما إسهال لا يتوقّف. فأخذتهما إلى المستشفى في «أربيل»؛ فخاف الأطباء؛ وأعطوهما حقناً ودواء دون جدوى. فقد اسودّا كلاهما كالإسفلت، وماتا بعد تسعة أو عشرة أيام. وكان الولد الأكبر سنّاً يتقيّأ رئتيه عندما توفّي. قبرتهما في مقبرة القرية. ومات أطفال كثيرون هناك. وإذا عدت الآن، لا يمكنني العثور على مكانهما».

قالت زليخة إنها لن تتزوج ثانية. فسألناها كيف ترى حياتها الآن؟ قالت: «أنا أعيش الآن لأربّي أولادي. هذا كل شيء. وفي أحلامي، أرى أولادي الذين ماتوا. وفي أحد أحلامي، أرى زوجي يقول لي: «لم تهتمي بالأولاد الاهتمام الكافي؛ ولذلك ماتوا».

ستبقى ذكرى الهجمات الكيميائية حيّة أيضاً مع بعض الجنود من الجيش العراقي، المعتدين لا المنكوبين، إلى الأبد. نحن الآن في شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٤، بعد ربع قرن تقريباً على اندلاع الحرب الإيرانية ـ العراقية، و١٦ سنة منذ حدوث حملة «الأنفال» ضدّ الأكراد. لقد أصبحت بغداد الآن المدينة الأكثر خطراً في العالم، تحت الاحتلال الأميركي ودُميتها الحكومة العراقية. فالقنابل الانتحارية، والإعدامات، والخطف، كلّها تمثل نبض المدينة. وها أنا أصل إلى حديقة السوق الصغيرة وراء شارع فلسطين لأشتري شُجيرة تنُوب

(كالأرز الإفرنجي) لشرفتي في الفندق، كي أستردّ بعض عافيتي في حرٍّ منتصف الصيف الشاوي في العراق. وهذه الحديقة هي مكان للزهور والنباتات البازغة، ونباتات الأصيص؛ يديرها «جواد». وهو رجل ابن ٤٤ سنة، له ندبة حادّة على جبهته؛ لكنه يعلم أنه يعيش في الجنّة.

ولكني أكتشف بسرعة أن جواد عاش أيضاً في الجحيم. سألته عن الندبة في جبهته. فأخبرني أنه أصيب بشظيّة من قذيفة إيرانية، أثناء قصف على جبل «بنجوين»، خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية. لقد كان عامل مخاطبة بالراديو في الجيش العراقي لمدّة ١٣ سنة. قال: «فقدت تقريباً جميع أصدقائي» وهو يفرك يديه بحركة نبذ خاطئة. وأردف: «ما حدث لهم كان فظيعاً. وكذلك ما حدث لي. لا أستطيع أن أتذكّر اسم أحد من أصدقائي الذين توفوا ـ لأن شظية القذيفة التي أصابت رأسي، ذهبت بذاكرتي».

ولكنها لم تذهب بكامل ذاكرته. كان جواد ينتقل بصمت بين الأشجار، ولا شيء يزعج رحلته هذه سوى تنقيط الماء من النافورة، وخلفية الأصوات التي يحدثها مرور السيّارات ببغداد. قال: «هل ترغب في شجرة تين؛ إنها جيّدة لتحمّل الحرارة». إنها الشجرة الوحيدة الخضراء المعروضة للبيع؛ وهي ذات جذور عميقة تلزمها ساعة لاقتلاعها. وقد قضى جواد كل حياته في حديقة السوق، مع والده. وكانت الحرارة تزيد من فوح الروائح النباتية؛ بحيث تكون أصغر وردة فوّاحة، بينما تزهر الورود البيض.

أجل، لقد بقي جواد حيّاً، بعد انقضاء الحرب الإيرانية ـ العراقية. لقد كره صدّام، ولكنه حارب من أجله ثماني سنوات فظيعة. قال: «كنتُ في الأهواز، عند نهر «قارون»، في جبال «شاميران»، خلال حملة الأنفال «في بنجوين». كنتُ مجنّداً، ثم جندياً احتياطياً؛ ولكنني رفضتُ أن أصبح ضابطاً، لو بقيت في الجيش مدّة أطول. وقد وضعتُ في دفتري خطّاً قرب كلمة «الأنفال». وكان جواد قد قطع الحدود الإيرانية عام ١٩٨٠، ودخل «خرمشهر»؛ ثم انسحب خارجها تحت جنح الظلام أثناء حصارها.

قال: «لاحظت أوّلاً استعمال الغاز شرقي «العمارة»، عندما كانت مدفعيتنا تطلق قذائف غاز على الإيرانيين. لم أكن أشمّ الغاز، ولكنّي بللت منديلي بالماء ووضعته على أنفي. ولمّا كنت عامل مخاطبة بالراديو، كانت لديّ أجهزة وافرة حولي تحميني من الغاز. كانت تلك أياماً سوداء؛ وقد تعذّبنا كثيراً. وبعد أن جُرحت، أصرّوا على إرسالي إلى الجبهة. كانت لديّ إعاقة مقدارها ٣٥٪ في المئة، ومع ذلك أصرّوا على إعادتي إلى الحرب».

يحرّك جواد في طريقه نبتة أصيص، ويلوّح بيديه للعصافير التي تبرز من النباتات البازغة. وإذا كان صحيحاً أن الجنّة عبارة عن حديقة دافئة ومريحة، فجواد يعيش فيها. ثم سألته عن حملة «الأنفال»، وهل رأى آثارها بأمّ عينيه؟

فرفع جواد يديه بحركة المتوسّل الذي لا حيلة له، وقال: «رأينا كل شيء. فهل تصدّق ذلك؟ لقد حدثت أشياء غريبة عندما ابتدأنا باستعمال الغاز. وقد رأيت طيوراً تسقط من السماء؛ وبراعم الأشجار تصبح سوداء، وأوراقها تبلى أمامنا. فاحتفظتُ بالمنشفة المبلولة حول وجهي، كما فعلت في العمارة».

والجثث؟

«نعم، رأينا الكثير منها. وكلّها لمدنيين. كانت مُلقاة خارج القرى وعلى سفوح التلال أكواماً. وكأنّهم تجمّعوا ليموتوا هناك. وكان بعضهم متفرّقين، ولكن كان هناك كثير من النساء يحملن أطفالهنّ بأذرعتهنّ؛ ولكنهم كانوا جميعاً أمواتاً. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لم أستطع أن أقول شيئاً. كنّا، نحن الجنود، خائفين جدّاً، حتى بشأن مناقشة هذا الأمر. لقد رأينا العديد من الأموات. وبقينا صامتين».

«الحرب ضدّ الحرب» والقطار السريع إلى الجنّة

«أيّة شموع يمكن أن نمسك لاستعجالهم كلّهم؟ لا بأيدي الصبيان، بل بعيونهم، سيومض بصيص الوداع المقدّس».

«ويلفرد أوين» من «نشيد الشباب الهالكين»

في سكون الغرفة الأمامية المزوّدة بالستائر، جلس أمامي ربّانا الطيران العراقي سابقاً، والرجل الذي كان ثاني اثنين في قيادة السلاح الجوّي لصدّام حسين، صامتين. تكلّم الطيّاران بنبرة فرنسية ثقيلة تعلّماها من تدريبهما على قيادة قاذفات القنابل من طراز «ميراج» في «شربور». وقد سألتهما عن السفينة (USS Stark). ولكنهما أرادا أن يعرفا لماذا الآن؟ لماذا أردتُ أن أعرف المزيد عن السفينة التي كادت تغرق، بعد مرور ١٦ سنة على إطلاق صاروخين من طائرة «ميراج» عراقية على تلك الفرقاطة الأميركية الموجّهة للصواريخ في الخليج، وحرق ٣٧ من بحّارتها؟ ولماذا لا أبحث معهم الفوضى الضاربة أطنابها في بغداد الواقعة تحت الاحتلال الأميركي؟ ففي ذلك الصباح بالذات، انفجرت سيّارة مفخّخة خارج بوّابات مقرّ القيادة الأميركية في القصر الجمهوري السابق لصدّام.

خاف الرجال الثلاثة من كوني جاسوساً، ومن أني أحاول أن أعرف الطيّار الذي قتل البحّارة الأميركيين الشباب منذ أكثر من عقد ونصف من الزمان.

ولماذا أسأل: ألا يزال على قيد الحياة؟ قلت لهم إني لن أخدع أو أخون أيّ كائن إنساني، وإني صحافي ـ ولست ضابط مخابرات ـ وإني لن أسلِّمهم للأميركيين، كما لا أسلِّم الأميركيين إليهم. وكنتُ أعلم أن كبار الضبّاط العراقيين استمرّوا على اتصال بعضهم مع بعض، بعد غزو العراق عام ٢٠٠٣، حتى أنهم باتوا يؤلّفون الآن سلاحاً للطيران، دون طائرات. لكني اشتبهت أيضاً عن حقّ بأن العديد من هؤلاء متورّطون الآن في التمرّد ضدّ الاحتلال. حاولت أن أشرح لهم أن تلك كانت مهمّة سلاح الطيران التي غيَّرت الشرق الأوسط. فالعمل الذي قام به زملاؤهم بتاريخ ١٧ آذار/مارس عام ١٩٨٧ هو الذي جعل إيران تركع على ركبتيها، من خلال المواقف المزدوجة الفظّة التي تبدو واشنطن وحدها قادرة على اتخاذها.

نظر إليّ اللواء السابق لدقيقة تقريباً دون أن يتكلّم. ثم أعطانا تقريراً إجرائياً عاديّاً، قائلاً: «رأيته ينطلق بطائرته من «الشعيبة». وكانت تلك رحلة عاديّة فوق الخليج لاصطياد سفن إيرانية. إنما كانت هناك «منطقة محظورة»، على جميع السفن. وكانت السفينة «ستارك» في تلك المنطقة. ولم يعرف ربّان الطائرة أن الأميركيين كانوا هناك؛ بل كان عليه أن يدمّر أيّة سفينة تمخر عُباب تلك المنطقة ـ هذا هو كل شيء. رأى سفينة كبيرة على شاشة الرادار عنده، فأطلق عليها صاروخين؛ اعتقاداً منه أنها إيرانية. لم يرَ أبداً الهدف الفعلي. لأننا لا نستعمل النظر أبداً بالعين المجرَّدة ـ هكذا يعمل النظام. ثم دار وقفل راجعاً إلى دياره».

على بعد ٧٠ كيلومتراً شماليّ شرقيّ قطر، التقط الرادار في فرقاطة «پيري ـ كلاس» الأميركية صورة طائرة عراقية من طراز (ميراج F1)، وهي تطير ببطء على علوّ منخفض على طول شاطىء العربية السعودية باتجاه البحرين. ولكنّ النقيب «غلين بريندل» وطاقمه كانوا متعوّدين على النفّاثات العراقية وهي تطير فوقهم. وقد أخبر النقيب الصحافيين فيما بعد أن الطيران العراقي «يعتبر صديقاً». وبالتالي، لم تمثّل البقعة الخضراء على الرادار تهديداً لهم. ولمّا كانت «ستارك» تتّجه تقريباً مباشرة نحو الميراج العراقية، اعترضت البنية الفوقية

للفرقاطة سبيل أجهزة التحسّس المضادّة للصواريخ، وبطّارية، «فالانكس» المضادّة أيضاً للصواريخ، التي بإمكانها أن تشعر بدنّو الصاروخ، فتطلق النار عليه آليّاً. وفي الوقت ذاته، كان النظام قد أعيد إلى التشغيل اليدوي، لتحاشي إسقاط أيّة طائرة بالخطأ في منطقة الخليج المكتظّة. كما ادّعى النقيب فيما بعد أن أجهزة الكشف كانت أيضاً سيّئة في تأديتها لوظيفتها. وعند الساعة ١٠,٠٩ بعد الظهر، أمر «بريندل» بإرسال إشعار إلى ربّان الطائرة يقول: «أيتها الطائرة المجهولة، هذه سفينة بحرّية أميركية على خطّ ٧٨. لمسافة ١٢ ميلاً. نطلب أن تعرِّفي بنفسك». فلم يأتِ ردّ على ذلك الإشعار. وبعد دقيقة، مالت الطائرة نحو الشمال، وارتفعت ٥٠٠٠ قدم. وقد فشل طاقم «مركز المعلومات للاشتباك» في تحديد صاروخي «إكزوسيت» برأسيهما الحربيين (16-352) اللذين انفصلا عن الميراج واتجها يتسابقان نحوهم.

وكان الرقيب الحارس هو أوّل مَن رأى الصاروخ ينزلق على سطح الماء نحو السفينة، فخابر القائد «بريندل». وبعد ذلك بثانيتين، ثقب صاروخ «إكزوسيت» جسم السفينة بسرعة ٦٠٠ ميل في الساعة، وانفجر في المقصورات الأمامية للبحّارة، حارقاً عدّة أفراد منهم، وهم مستلقون في أسرّتهم المبيَّتة؛ بينما انفجر الصاروخ الثاني بعد ثلاثين ثانية. فمات في هذه الحال أكثر من سُدس بحّارة الفرقاطة في أقلّ من دقيقة، بعدما لفظ الصاروخ الأوّل ١٢٠ باونداً من وقود الصواريخ الجامد الحارق في مهجع البحّارة. إنما لم ينفجر الرأس الحربي، لكنّه سحق ما اخترقه عبر سبعة حواجز فاصلة بين حُجيرات السفينة، ليستقرّ على ميمنة بدن السفينة المصفّح. أما الصاروخ الثاني فأرسل كرة من النار عبر مقرّ البحّارة فقتل معظم الضحايا البالغ عددهم ٣٧، وأحال العديد منهم إلى رماد، بوقوده الحارق البالغ ٣٥٠٠ درجة. وامتلأت السفينة «ستارك» بالدخان الكثيف السامّ، وحلّقت الحرارة في الحُجيرات المجاورة إلى ارتفاع عظيم بلغ ١٥٠٠ درجة. وذابت في هذا الحرّ الأسرَّة، والحواسيب، والحواجز الفاصلة بين الحُجيرات. وقد قضى أحد الضبّاط الصغار ١٣ ساعة في غرفة مظلمة لمستودع الذخائر الحربية، وهو يرشّ الماء على ٣٦ صاروخاً،

بينما شبَّت نار حرارتها ٢٠٠٠ درجة عبر حاجز فاصل واحد عن الصواريخ. وبقيت السفينة تشتعل ليومين. وحتى بعد أن جُرَّت مقطورة للإصلاح، بقيت النار تعود فتشب فيها من جديد.

وهكذا جرى تنكيس العلم الأميركي على السفينة «ستارك» وتمّ جرّها إلى البحرين. وقد وصف كاسبار واينبرغر وزير الخارجية الأميركي الهجوم بأنه «لا يميِّز، إذ إن ربّان الطائرة لم يهتم بمعرفة هويّة السفينة التي يطلق النار عليها». وهنا انتهى انتقاد أميركا للعراق. وحتى قبل أن يعبّر صدّام حسين عن ندمه الشخصيّ، الذي ليس له سابق، وقبل أن تبدأ البحرية الأميركية بإجراء تحقيقاتها الثلاثة بوقت طويل، قرّر الرئيس رونالد ريغان إلقاء اللوم على إيران قائلاً ما معناه: «لم يكن العراقيون معادين لنا، ولم نعتبرهم كذلك بأي شكل من الأشكال. والخليج ممرّ مائي دولي؛ وليس لأيّ بلد الحقّ في إقفاله، والاستئثار به. والوغد في هذا الأمر هو إيران؛ إذ إنهم سعيدون جدّاً بما حدث»(*).

وبالاستماع إلى أقوال ريغان، يظنّ المرء أن إيران هي التي بدأت غزو العراق عام ١٩٨٠، وأن إيران هي التي تستعمل الأسلحة الكيميائية ضد العراق، وأن إيران هي التي حدّدت المنطقة البحرية المحظورة في الخليج عام ١٩٨٤، التي أشعلت حرب ناقلات النفط في الخليج ـ والتي وقعت السفينة «ستارك» ضحية لها بطريقة غير مباشرة. بينما كان العراق هو المسؤول عن كل هذه الأعمال. ولكن العراق كان يُعتبر «صديقاً». وقبل حصول عملية شبه إغراق «ستارك» بعدّة أسابيع، زار بغداد نائب الوزير الأميركي ريتشارد مورفي شخصياً، وأثنى على «شجاعة» العراق بالتصدّي لإيران؛ فصار رشّ الغاز السامّ على الأعداء دليلاً على شجاعة العراق، بالنسبة إلى السيّد مورفي. وقد كافأ ريغان المعتدي بأن قبل أعذاره، وأشار إلى الأمّة التي لم تقتل مواطنيه بصفتهم «الأنذال». وكانت تلك سابقة مثيرة للاهتمام. فعندما كاد العراق يُغرق فرقاطة

(*) على خلاف الشماتة بما حدث من هجوم، سمّاه «مركز الإعلام الحربي» الإيراني في طهران «فخاً جدّياً وخطراً» ينصبه العراقيون لجرّ واشنطن وموسكو إلى الحرب.

أميركية أُلقي اللوم على إيران. وعندما هاجمت «القاعدة» الولايات المتحدة الأميركية بعد ١٤ سنة، ألقي اللوم على العراق.

ولم يبقَ في هذه الحال، سوى أن يقدّم صدّام تعازيه إلى أهالي الضحايا الأميركيين، قائلاً في رسالة بثّها إليهم دون تأخير: «تأكّدوا أن الحزن الذي تقاسونه نتيجة فقدانكم لأبنائكم هو حزننا كذلك». وكانت تلك الرسالة بتاريخ ٢٢ أيار/مايو. وقد طُبعت على أوراق السفارة العراقية في واشنطن، هكذا:

> «بمناسبة مأتم الضحايا الذين فُقدوا في الحادث المحزن وغير المقصود الذي حصل للفرقاطة الأميركية «ستارك»، أودّ أن أعبّر لكم عن... مشاعري الحزينة، وأقدّم لكم تعازيّ. إن كل العراقيين يشاركونني الحزن في مثل هذه اللحظات. وذلك لأننا نحن كذلك فقدنا كثيراً من أعزّائنا في الحرب التي لا تزال مستعرة منذ سبع سنوات، بينما لا تزال الحكومة الإيرانية مصرَّة على... رفض نداءاتنا ونداءات المجتمع الدولي لإقرار سلام عادل ودائم».

وحتى في هذه المناسبة، عبّر صدّام عن خطّه الدعائي الخاصّ، مع أنه تبع بذلك تماماً نظرة «ريغان» المشوَّهة للنزاع. وقد قصد برفض إيران لنداءات المجتمع الدولي عدم موافقتها على قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار، تلك القرارات التي قصَّرت في طلب عقاب الأمّة المعتدية. وقد شرح «دان هوارد» الناطق باسم البيت الأبيض أن ريغان وصف إيران «بالوغد أو النذل» لأنها «رفضت المجيء إلى طاولة المفاوضات»(*). وقد اشتبه

(*) أجريتُ مقابلة انفعالية مع سفير الولايات المتحدة في البحرين «سام زاخم»، الذي بقي يذرف الدمع خلال تلك المقابلة، أمام سكرتيرته المذهولة «آن أوليري»، ويصرّ قائلاً: «لم يكن لدينا سابقاً أيّ مبرّر لنشعر بأن العراقيين قد يهاجمون سفينة أميركية... وشعبنا يدرك أن الحادث حصل خطأً. وقد دفعنا ثمناً باهظاً لذلك الخطأ... لأن طبيعة الشعب الأميركي تمنح الآخرين تبرئة الظنّ والشكّ». وإذا كان الاتحاد السوفياتي يريد أن يظهر حسن نواياه في الخليج، بحسب قول «زاخم»: «عليه أن يوقف شحن الأسلحة من دول أوروبا الشرقية إلى إيران... إن إيران هي التي رفضت أن تأتي إلى طاولة المفاوضات». وهكذا يبدو العراق «صديقاً» ــ ويجب حرمان إيران من الأسلحة التي تلزمها للدفاع عن نفسها.

موظفو الملاحة البحريّة في الخليج دائماً بأن العراقيين قاموا بهجومهم الليلي على «ستارك»، آملين أن تعتقد الولايات المتحدة الأميركية أن الطيران الإيراني هو الذي حاول أن يقضي على الفرقاطة، وبالتالي تقتصّ من إيران. وعلى كل حال، لم يحتاجوا إلى إضاعة الوقت بمثل هذه النظريات عن المؤامرات: فقد ألقت الولايات المتحدة اللوم على إيران في كل حال. وبعد عدة أيام نعت «ريغان» إيران بأنها «بلد البرابرة».

وقد قارن صدّام بين الأقرباء الأميركيين لضحايا «ستارك» وعائلات العراقيين الذي ماتوا خلال غزوه لإيران؛ وبالتالي، حوَّل موظفي البحرية الأميركية إلى أموات بُدَلاء قضوا نحبهم في حربه الضروس. وما كانت دعوته المبتذلة الشاكية لإحلال «السلام العادل والدائم» تشبه دعوة عرفات، إلّا من حيث الشكل. ثم جاء الإذلال الأخير للأميركيين عندما أوفدت واشنطن إلى بغداد فريقاً بحرياً أميركياً لاستقصاء ملابسات الحادث تحت إمرة العميد البحري «دايفيد روجرز». ولكن لم يسمح لهم باستجواب ربّان الطائرة الذي أطلق الصاروخين؛ ولم يوافق العراقيون مع الأميركيين على أن «ستارك» كانت خارج «المنطقة المحظورة» المفروضة ذاتياً، عندما أُصيبت. فقال الأميركيون إن السفينة كانت بعيدة عن تلك المنطقة بما لا يقلّ عن ١٠ أميال بحرية؛ بينما ادَّعى العراق أنها كانت على مسافة ٢٠ ميلاً بحرياً داخلها. وقد تمّ تجاهل طلب الوزير وينبرغر بإحضار الربّان العراقي؛ كما أعفي النقيب «بريندل» من قيادته؛ وعوقب ضابط الأسلحة الذي ترك الخدمة في البحرية، وعوقب الضابط التنفيذي لتقصيره في القيام بواجبه.

وقد افترض الأميركيون دائماً أن الربّان العراقي قد أُعدم ـ ولذلك رفض العراق إحضاره ـ ولكن نائب القائد العامّ للقوّات الجوّية العراقية أصرّ أمامي في بغداد على أن ذلك غير صحيح، قائلاً: «رأيته منذ أشهر قليلة. فهو مثلي عاطل عن العمل. ولكنه عمل بموجب كل القواعد المرعية الإجراء عندنا. كنا نقاتل عدوّاً شرساً. وكانت غلطة. ولم نكن لنضحّي بأحد طيّارينا الأعلى مقاماً لأجل خاطر الأميركيين. لقد دخل الأميركيون منطقتنا المحظورة. وكنا قد طلبنا منهم أن لا يدخلوها ثانية، ففعلوا».

وقد زارت مجموعة من الشيوخ الأميركيين المهاجع المصهورة للبحارة في السفينة «ستارك». وكانت تلك الزيارة كافية لجعلهم يستشيطون غضباً ضدّ البلد الذي لا علاقة له بإماتة أولئك الأميركيين. فقد وصف الشيخ الجمهوري «جان وورنر»، الذي كان وزيراً سابقاً للبحرية الأميركية، إيران بأنها «دولة محاربة، لا تعرف القواعد ولا الأخلاق». كما لخّص الشيخ «جان غلين» إساءته إلى إيران بقوله: «إنها ترعى الإرهاب وخاطفي الطائرات». وهكذا جلب هجوم صدّام على «ستارك» فوائد له لا تخطر على البال. وقد تكلّم الأميركيون كما لو كانوا يفكّرون في القيام بعمل عسكري ضدّ إيران.

وادَّعى ريغان أن الأميركيين كانوا في الخليج «يسعون إلى السلام»، بقوله شارحاً: «لو قامت قوة معادية وسيطرت على هذه المنطقة الاستراتيجية ومواردها، لشكّلت نقطة اختناق للحرية ـ لحلفائنا ولنا. . . ولذلك نحافظ على حضور بحري لنا هناك. وهدفنا هو الوقاية من توسّع النزاع لا استثارته؛ من أجل إنقاذ الأرواح العديدة التي سيكبّدنا إيّاها مزيد من النزاع. . . ويعلم معظم الأميركيين أن تراجعنا أو انسحابنا لا يبوء إلّا بتكرار أخطاء الماضي القصيرة النظر، ويمنح النصر النهائي لأولئك الذين يسعون في أثر الحرب، ويشعلون نارها». وغنيّ عن البيان هنا، أن الإيرانيين ـ ضحايا الغزو العراقي ـ هم الذين «يسعون في أثر الحرب ويشعلون نارها»، وليس العراق «الصديق»، الذي أزيل اسمه عن قائمة «البلدان الإرهابية» عام ١٩٨٢، أي بعد سنتين من غزوه لإيران وفي السنة ذاتها التي أعلنت فيها إيران وقوع ١١ هجوماً عراقياً بالغاز السامّ ضدّ قوّاتها. والحقيقة هي أن السفينة «ستارك» ـ إحدى سبع سفن حربية أميركية ـ كانت تبحر في ظلّ ادّعاءات خاطئة.

وكان العراق قد أقام «منطقته المحظورة» حول جزيرة «خرج» في كانون الثاني/يناير ١٩٨٤، بينما كان يخسر حرب اليابسة التي بدأها قبل سنتين. وكان صدّام يأمل أن يخنق خصمه اقتصادياً بمهاجمة ناقلات النفط التي تأخذ شحنتها من المحطّة الطرفية في جزيرة «خرج» الإيرانية. وصار سلاح الجوّ العراقي يطلق النار على أيّة سفن من أيّة جنسية تتحرّك من المرافىء الإيرانية وإليها، منذ ذلك

الوقت. وأخذت إيران ثأرها باستهداف المراكب المتاجرة مع العراق عبر بلدان الخليج. فقد كانت واردات العراق من أسلحة الحرب تمرّ عبر السعودية والكويت، البلدين اللذين موّلا المجهود الحربي العراقي بحوالى ٤٠٤ مليارات دولار أميركي. وصارت تجارة النقل البحري إلى أيّ منهما مهدّدة بالقصف الجوي الإيراني. وبين ١٨ نيسان/أبريل ١٩٨٤ و١٨ أيار/ مايو ١٩٨٧ ـ أي ثاني يوم قصفت فيه السفينة «ستارك» ـ هوجمت ٢٢٧ سفينة في الخليج، منها ١٣٧ هاجمها العراق، و٩٠ هاجمتها إيران. وأصيب بعضها بصواريخ وأصلحت تكراراً؛ وكان منها ١٥٣ ناقلة نفط. وبين أيار/ مايو ١٩٨١ و١٨ أيار/ مايو ١٩٨٧، قُتل ٢١١ بحّاراً تجارياً، وأكثرهم من الأجانب، على تلك السفن، ومنها ٩٨ ناقلة نفط. وما ذاك العدد سوى نزر بسيط بالمقارنة مع مئات الآلاف من المحاربين الذين قضوا نحبهم في حرب اليابسة. ولكنّ ذلك نقل النزاع إلى الصعيد الدولي ـ ربّما كما كان العراق وإيران يأملان.

ومن الواضح الآن أن السفن الحربية الأميركية تحافظ على إبقاء خطوط الملاحة الدولية مفتوحة، تلافياً لتحوّل الخليج إلى «نقطة اختناق»، بحسب القول الغريب لريغان. ولكن السفن الأميركية، لم تكن تحمي ناقلات النفط الإيرانية من الهجمات العراقية، ولا ناقلات النفط الأجنبية التي تأخذ شحنتها من النفط الإيراني في جزيرة «خرج»؛ بل كانت مهمّة أميركا في الخليج حماية جهة واحدة من السفن ـ أي ما يخصّ العراق من الخطوط البحريّة، كما كان الأميركيون قد اقترحوا مرافقتهم للناقلات التي ترفع العلم الكويتي في الخليج، والتي لا تحمل نفطاً إيرانياً بل نفطاً عراقياً معدّاً للتصدير. وقد أدرك الإيرانيون فوراً أن العراق قد لا يستطيع أن يربح أيّ نصر في الحرب البرِّية، لكنه قد يتمكّن من الانتصار في الحرب البحريّة بمساعدة الأميركيين. وادَّعت الكويت أن الولايات المتحدة الأميركية كانت «تحارب الحرب» في الخليج. ولكن الواقع يشهد بأنها كانت تحارب إيران.

وبعد ١١ يوماً من إصابة السفينة «ستارك»، اشتكى الإيرانيون من أن السفن الحربية الأميركية «هدّدت» طائرة نفّاثة للطيران الإيراني كانت تنقل الركاب من

شيراز إلى الدوحة في قطر، وأمرت ربّانها بتغيير اتجاهها. وقد تحرّيتُ الأمر مع مراقبي خطّ الطيران إلى دُبَي، فوجدت أن التهديد الأميركي جاء من إحدى السفن البحرية الأربع التي ترافق السفن المسجّلة في الكويت وتنقل حمولة من الأسلحة إلى البحرين. وقد كتبتُ تلك الليلة في «التايمز» أن ذلك الحادث «وفَّر مشهداً من نوع. . . المأساة في الخليج. فإيران لها خطوط طيران إلى الدوحة، عاصمة قطر، وإلى دُبي في الإمارات. . . وبالتالي، تطير فوق المياه التي تحرسها الفرقاطات الأميركية. وربّما يكون ربَّان تلك الطائرة قد مرّ فوق إحدى تلك الوحدات البحرية التي حدّدت هويّة الطائرة الإيرانية، وأمرتها بتغيير اتجاهها، ولو لم يذكر الإيرانيون ذلك». ولكن «المأساة» ستحدث بعد ١٤ شهراً بالتمام.

وقد كانت هناك وفرة من الإشارات المنذرة. فبعد زمن قصير من إصابة السفينة «ستارك»، قضيت يوماً وليلة على سفينة الحراسة في الخليج لصاحبة الجلالة المسمّاة «برود سوورد» أي «السيف العريض»، التي كانت ترافق السفن البريطانية عبر مضيق «هرمز»، نقطة الاختناق الشهيرة الآن التي أشار إليها ريغان ـ مع أن تعبير «المرافقة» لم يستعمله البريطانيون أبداً ـ وقد يكون تحويل انتباه الإيرانيين مسألة بسيطة في المذكّرات الجافّة المستخدمة في وزارة الدفاع بلندن؛ ولكن، في داخل تلك المدمِّرة من طراز (Type-22)، كانت رادارات المراقبة تلاحظ بنشاط محموم عدداً من الطائرات المدنية التي تمرّ فوق تلك المدمّرة «برود سوورد»، حتى قال أحد المراقبين: «عليك أن تكون شديد الحذر، إذا أردت أن تتجنّب إحراق ستّة شيوخ في نفّاثاتهم الخاصّة».

وقد شُغِّلت مكيّفات الهواء في عشّ المراقبين ـ لا من أجلهم، بل من أجل الحواسيب ـ ولكن البلاء الأعظم بالنسبة إلى معظم البحارة في الخليج، كان الحرّ الذي كان يلهب سطح السفينة إلى درجة يتعذّر معها المشي على ذلك السطح البالغ السخونة. وكان البحّارة البريطانيون يقفون على رؤوس أحذيتهم، ليخففوا من الحرارة الحارقة الصادرة عن فولاذ المدمِّرة. وكانت غلافات قنابل الأعماق، ووسائل تصويب المدافع من طراز «بوفور» حارّة جدّاً، لا تُلمس.

وعلى مدرج الطائرات المروحية ارتفعت الحرارة إلى ٥٤,٤ درجة مئوية؛ ولن تمسك بمفتاح الربط (الصمولة) يد إلّا وعليها قُفّاز. إنه وضع يلبّد الحسّ، ويبعث الإرهاق واليأس، ويثير السخط، لدى تلك الكائنات البشرية الموجودة على سطح المدمّرة الأمامي.

ولا شكّ في أن «اللوردات» (Lordships) كان من شأنهم أن يقدّروا نظافة هذه المدمّرة بأروقتها، وسطوحها، وغرفها الحصينة، وتحذيراتها من أخطار الأيدز في مرفأ «مومباسا». لكنّ الحرّ كان يتنقّل في داخلها بأسرع من تحرُّك بحّارتها. أما مقصورة الضابط فلم تتجاوز حرارتها ٢٦,٧ درجة مئوية. وكأس واحدة من الماء كافية ليسيل مني العرق. وإذا فتحتُ أيّ باب موصد أقع في كمين الحرّ؛ كما حصل لي منذ سبع سنوات في شوارع النجف. وإذا فتحت الباب الثاني أسير في مصهر استوائي، بينما البحر الأغبر المألوف ذو اللون الواحد يلطم جدران السفينة تحت السطح. كيف يستطيع الناس أن يعملوا في مثل هذا الجوّ وأن يبقوا عقلانيين؟ أو ـ بدقّة أكثر ـ كيف يتمكّن العراقيون والإيرانيون من أن يتحاربوا في مثل هذا الجو القائظ، ويبقوا سليمي العقل؟

قال ضابط الرادار، وهو يضبط التصويب: «هذا هو مطار «الشارقة». إني أسمع صوت طائرة تهبط الآن ـ إنها طائرة تجارية ـ ولكن إذا أردتُ أن أستعلم عن طائرة معيّنة، أسأل: هل هي صديقة أم عدوّة؟ وأتكلّم مع برج المراقبة في الشارقة». كانت هناك ألواح وخرائط وعلامات بالقلم العريض على خطوط مناطق الحرب. وهنا تظهر سفينة «ريد» الأميركية، كجزء من الأسطول الصغير لريغان، وقد قطعت «المنطقة المحظورة» العراقية؛ حتى لا نعود نتكلّم عن إصرار «ستارك» أنّها كانت خارج تلك المنطقة. وتبدو أيضاً نازعتا ألغام سوفياتيّتان من طراز «ناتايا»، مع سفينة مستودع غوّاصة أيضاً خارج مضيق هرمز. كما تظهر أيضاً سفينتان من هونغ ـ كونغ تنتظراننا عند عودتنا.

أرخى الليل سدوله؛ ولم يجلب لنا الراحة. وعند الساعة الرابعة والربع صباحاً، وصلت المدمّرة «برود سوورد» إلى خليج عُمان. وجرّ مهندسوها حبل سفينة تدعمها تُسمّى «أورانج ليف» أي «ورقة البرتقال»، من أجل معاودة التزوّد

بالوقود في الحرّ اللافح، والرطوبة التي تغمرنا كلّنا. كان سطح السفينة يندى بالماء المتكاثف، والعرق يسيل على وجوه البحّارة. وقد جرى العرق من خلال شعري وسال على ظهري. واسودّت قمصاننا بفعل الرطوبة. وقد حدث ذلك للجميع؛ بمن فيهم الروس. فعلى مقربة من الفُجيرة، كانت هناك سفينة مستودع ونازعتا ألغام متجاورتان تستكنّان فوق المدّ الدافىء، هدية من موسكو لحريّة الملاحة في الخليج. وكان البحّارة السوفيات نصف عُراة، ولامعي الأجسام، ينتظرون الناقلة الكويتية التالية للإبحار إلى الميناء. هنا كان السبب الرئيس الذي يحمل ريغان على حراسة الخطوط البحرية، وهنا كانت «القوّة المعادية» الحقيقية التي قد «تسيطر» على الخليج. ثم جاءت سفينتا شحن بريطانيتان لتقفا قربنا بانتظار أن «ترافقهما» المدمّرة «برود سوورد».

وعلى سطح السفينة، سمعنا الموظّف الهندي الذي يتخاطب بالراديو يبرِّر وضعه لسفينة حراسة إيرانية بقوله: «نحن لا نحمل سوى التمر، والتمر فقط». وكانت هذه السفينة على بعد ٣٠ كيلومتراً منه. ولكنّ طائرة استطلاع إيرانية أجابت بصوت مسموع على السفينة «برود سوورد»: «انتبهوا، فالبارحة شنّ العراقيون هجوماً بصواريخ «إكزوسيت» على ناقلة نفط مالطية تحمل النفط من إيران. ولذلك من المتوقّع أن يأخذ الإيرانيون بثأرهم...». وأحاط الموج الهائج بالسفينة تاركاً قطعاً متراصّة من الملح على سطحها حيث مدرج الإقلاع. وكانت سفينتا الشحن تمخران عُباب البحر قربنا في هذا الحرّ، على شاكلة ما كان يحصل للقوافل في المحيط الأطلسي خلال الحرب العالمية الثانية، إذ إن سفينة «برود سوورد»، مهما كانت الرطوبة فيها أقلّ، فهي لا تعدو كونها قائمة بالمرافقة البحرية، مثل السفن الأميركية.

وبالرجوع إلى عام ١٩٨٤، عندما أثار العراقيون هذا النزاع البحري، كان الخليج يبدو أكثر بساطة. وكان العرب يحتجّون بقوّة عند كل اعتداء إيراني، ويصمتون عندما يضرب العراقيون الملاحة الإيرانية؛ وكانوا أيضاً يخافون من التدخل الأميركي، مثلما يخشون الإيرانيين. وقد حافظت العربية السعودية على علاقات هادئة مع إيران ـ تحسُّباً لانهيار العراق ـ في الوقت الذي تؤمّن فيه العون المالي لحرب صدّام. وبقي العرب ظاهرياً على الحياد ـ مشاركين في

الحرب وإنما متهرّبين ـ كما وصف تشرشل بغير حقّ الإيرلنديين في الحرب العالمية الثانية ـ يقدّمون ملجأ لكلّ قائد سفينة يجد نفسه تحت القصف. فالبحرين ودُبي تستقبلان هياكل السفن المعطوبة من قِبل طرفي الاعتداء، مستفيدتين من ملايين الدولارات التي تنفق لإصلاح السفن لديهما. وحتى عام ١٩٨٧، شملت الإحصاءات ١٨ سفينة أصيبت مرّتين، وستّ سفن هوجمت مرّتين، واثنتين (سوبيرير ودينا) تميَّزتا بأنهما قُصفتا بالصواريخ وأُصلحتا أربع مرّات في أربع سنوات. وحتى في وقت مبكر بتاريخ أيار/مايو ١٩٨٤، كانت قرب البحرين مقبرة «خردة» عائمة للمراكب التي كانت إصاباتها قاتلة.

سمّوها مقبرة السفن بحقّ. فقد جُرَّت إلى هنا الناقلات الكبرى التي دمّرتها إيران والعراق بحالتها النهائية، تنزف النفط على الأمواج الموحلة الدافئة في قلب الخليج، وتُبدي الثقوب التي أحرقت هياكلها، وسبّبت هلاكها؛ حتى أن الحكومة البحرينية سيَّرت قارب حراسة إلى تلك المقبرة البحرية لتُري الصحافيين ماذا تمثّل هذه الحرب. فقد قصفت طائرة «فانتوم» إيرانية السفينة المسمَّاة «كاميكال فانتشور» أي «المخاطرة الكيميائيّة»، البالغة حمولتها ٢٩٠٠٠ طنّ، في ٢٤ أيار/مايو، بصاروخ مركَّز أصاب مركز جسرها حيث كانت هناك لافتة طولها ١٢ متراً تقول: «ممنوع التدخين». وهكذا صار بحّارة الناقلات موجسين خيفة من الأخطار. وعند آخر شهر أيار/مايو رست حوالى ٢٥ سفينة قرب الإمارات وحدها، بانتظار تعليمات من أصحاب السفن. وما عليك إلّا أن تنظر إلى أطلال الناقلة المسمّاة «الحوت» لتدرك خطورة الموقف. فهذه الناقلة العملاقة، البالغة حمولتها ١١٧٠٠٠ طن، كانت تميل لتبدي فجوة بجانبها عند مستوى المياه بحجم «باص» لندني، نتجت عن إصابتها بصاروخ عراقي، قبل ثلاثة أسابيع. وقد فُتل هيكلها إلى الخلف وبرز فوق مؤخّرتها؛ وانصهر مهجع البحارة، كما لو كان من لدائن وليس من فولاذ. وكان الشقّ على جهتها اليمنى واسعاً إلى درجة أنني كنتُ أرى نور النهار من خلاله.

وإلى الشمال، كانت تقف ناقلة النفط «صافينا العرب»، البالغة حمولتها ١٧٨٠٠٠ طن، والمسجّلة في السويد، تتمايل على الأمواج الطويلة بانتظار

تحميل آخر شحنة لها من النفط الخام. كان النفط عالقاً بكل مكان: بجوانب الناقلة، وعبر المياه، حتى أنه لوَّن زبد الأمواج بالسواد. وكنتُ أستطيع أن أشمّ رائحته من بُعد ميل. وكان بحّارة الإنقاذ ـ الهولّنديون في معظمهم ـ يعلمون بوجود المخاطر؛ لكنهم كانوا يتمشّون على سطوحها، وكأنهم في مرفأ مسالم، وليس على قنابل في الخليج، لا تبعد عنهم سوى ١١٥ كيلومتراً.

كان ذلك مكاناً معزولاً(*). فالخليج يبدو بكل بساطة كشقّ صغير على خريطة الشرق الأوسط، يفصل الصحراء العربية عن صحراء جنوبي إيران؛ لكن بحر الخليج يمكن أن يُصبح مضطرباً هائجاً، ويكون أفقه دون معالم، ما خلا وجود الناقلات المنعزلة السريعة العطب التي تغالب الرياح الشرقية الحارّة حتى رأس تنّورة والكويت. لم تكن هناك قوافل آنذاك، ولا حماية جوّية، بل كانت السفن تقترب قدر الإمكان من الشاطىء الجنوبي، وتمرّ بنا ونحن نصوّر مقبرة أخواتها العاثرات الحظّ، وهي سيّئة الطلاء بعامّة، غارقة في ضباب الحر، تشكِّل أهدافاً لأيّ من الجانبين في النواحي العُليا من الخليج، بحسب أسيادها والمرافىء التي تقصدها.

لا بدّ أن يكون البحر قد تلوّث، لكنّه كان لا يزال حيّاً بوجود السمك الطائر الذي يقف على ذيله، وحيّات البحر الطويلة الصفراء التي تخرج من الأعماق الخضراء لتنظر إلينا، وخنازير البحر، وحتى السلاحف. كما كانت طيور النورس ذات المنقار الكبير تطير فوقنا على مهل ونحن في قارب الحراسة البحريني. وبدت بقع النفط كثيفة، زَلِقة، وأيضاً بخطوط رفيعة طويلة تتمزّق وتتجه صعوداً نحو المياه الزرقاء الشاحبة حيث حُطام السفن. وكان الشاهد الوحيد على شاغل الرئيس ريغان في تلك الأيام هو الطرّاد المهيب الكتوم

(*) يزيد المراسلون الأجانب على أسمائهم زمان صدور التقرير ومكانه ليعرف القرّاء فوراً وبالضبط من أين يقدّم المراسلون تقاريرهم. لكن إرسال التقارير من البحار والمحيطات أكثر عناء. وكنتُ أقوم بواجبي وأرسل خط المكان والزمان من الخليج بدقة هكذا:
51 degrees 40 mins E, 26 degrees 40 mins N لكن رؤساء التحرير المساعدين في «التايمز» كانوا يزيدون على ذلك تعبير «من البحر» بعد استشارتي. فذلك يلخّص إلى حدّ كبير شعورنا حول القصّة.

«لويس» من الأسطول السابع، الذي يحمل صواريخه، ويرسو طول النهار خارج «ميناء سلمان» مرفأ البحرين، ويطوف حوله قارب طوارىء فيه بحّارة مسلّحون، لدفع المهاجمين غير التقليديين عنه ـ وهي فكرة سابقة لأوانها، إذ إن القطعة البحرية «كول» الأميركية لن تهاجمها القنابل البشرية في عدن إلّا بعد عقد من الزمن. وعلاوة على ذلك، كنا نسمع الاتصالات بالراديو، ونحن في طريقنا من السفينة إلى الشاطىء، وبدا أنها مشغولة بتعقيدات أفلام الفيديو الجديدة التي استُقدمت لصالح الطاقم. وبعد عدّة ساعات جاء مركب حراسة أميركي صغير إلى المرفأ، فأبحر الطرّاد «لويس» في الظلام القائظ، وقد تمَّ له الحصول على الجديد من الأسباب الداخلية للترويح عن النفس.

ولكن، كانت هناك أيضاً ـ حتى في ذلك الوقت ـ سفن حربية أخرى تقوم بدور المرافقة للقوافل. وهذه الحماية غير الرسمية وغير المعترف بها، لم تُوَفَّر لها الدعاية لا في واشنطن، ولا في البلدان العربية، تجاوباً مع رغبتهم في إبقاء البحرية الأميركية عند الأفق. وكانت الحماية تقدّم أحياناً بواسطة الطرّاد الصاروخي الأنيق ذي المدخنتين «جان رودجرز» الذي دافع مؤخّراً عن المصالح الأميركية بقصف جبال الشوف في وسط لبنان منذ سنة. وفي أوقات أخرى قامت بالحماية حاملة الصواريخ الثقيلة الثخينة المسطّحة الظهر «يوني»، التي جاءت ليلاً من الإمارات ورست قرب البحرين. وكل مَن يقترب مِن السفن الحربية نهاراً ـ كما فعلنا، طبعاً ـ يجابهه بحّار أميركي بخوذة فولاذية، ومدفع رشّاش.

كانت طائرات الشحن الأميركية النفّاثة قد صارت تطير بانتظام إلى مطارات دول الخليج، وتحمل معدّات ضخمة تجعلها تستعمل جانحها العملاق المنخفض (C-48) لهذا النقل. وكانت هذه الرحلات تتوجّه إلى البلدان التي وصفها ريغان دائماً «بالعربية الصديقة»، ذلك التعريف الذي لم يعد يشمل لبنان ـ حيث «أعيد انتشار القوّات الأميركية إلى البحر» منذ ثلاثة أشهر، بعد تفجير ثكنات البحرية الأميركية في بيروت، وقتل ٢٤١ من رجالها ـ ولكنه التعريف الذي يضمّ بالتأكيد دول الخليج النفطية المحافظة. «وإذا عاد الأميركيون

وتورّطوا استراتيجياً ـ كما فعلوا بعد ثلاث سنوات ـ تصبح البلدان العربية آنئذٍ بصورة أخرى»، كما كتبتُ عنها في «التايمز» في أيار/مايو ١٩٨٤، «طرفاً بريئاً في النزاع: مع بقاء الإيرانيين، في خانة الأعداء، لا محالة». وهكذا كان. ألم يكن سلاح الطيران الإيراني، والنظام الإيراني، وفي النهاية الإيديولوجية الإيرانية هي العناصر التي تهدّد المنطقة؟ ونعود ثانيةً، فننسى أن العراق هو الذي بدأ الحرب، وأن العراق هو أوّل مَن أمر سلاحه الجوّي بمهاجمة ناقلات النفط في الخليج.

وفي خريف عام ١٩٨٠، عندما بدا مؤكّداً أن نظام الخميني سينهار ويبوء بالفوضى تحت الهجوم الضاري للجيش العراقي حول عبدان، كانت البلدان العربية تصبّ المليارات في المجهود الحربي العراقي، وتطلب هي ذاتها عام ١٩٨٤ رقابة الأمم المتحدة على الهجمات الجوية الإيرانية على خطوط الملاحة. ولكن الآن، وقد أثبتت الثورة الإسلامية الإيرانية أنها أكثر ثباتاً مما قدَّروا، علَّق العرب آمالهم على مهمّة سلام عديمة القيمة، تقوم بها سوريا بين طهران والرياض. وسوريا هي البلد العربي الوحيد الذي راهن على أن أعداءها البعثيين العراقيين هم الذين قد يخسرون الحرب. وقد أدَّى عدم بلوغ العرب عموماً مثل هذه النتيجة إلى قيام سياسة عربية عسيرة المتابعة، يصعب تبريرها تاريخياً.

وقد أكَّد لي الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة، رئيس وزراء البحرين وشقيق الأمير، بتاريخ حزيران/يونيو ١٩٨٤، أن العراق لم يبدأ الحرب، بقوله: «أعتقد أن العراق يحاول أن يحمي نفسه، مثل أي بلد آخر... ولكن الحرب تبدأ من شيء ما. ولا يعُرف مداها من كل جانب. تبدأ النار بالاشتعال أولاً، ثم تعتمد النار على هبوب الريح، واتجاه هبوبها. وينجرف البعض أحياناً، ويظنّون أنهم أقوياء». وهذا أقرب انتقاد صدر عنه لصدّام. والآن صارت البحرين ـ مثل كل دول مجلس التعاون الخليجي ـ تطلب من مجلس الأمن الدولي إدانة إيران وحدها لتوالي هجماتها الجوّية في الخليج. ولم يكن الشيخ خليفة محبِّذاً للتدخّل الأميركي. قال: «هناك أساليب أخرى لمساعدتنا، ومنها إيقاف مدّ الطرفين المتحاربين بالسلاح من قِبل أوروبا وبلدان الشرق الأقصى». وهذا

التصريح للذكرى؛ فهو صادر عن رئيس وزراء هذا البلد الذي شارك في دعم صدّام.

والكويتيون الذين شجبوا أيّ تدخّل أجنبي على أرض الخليج، وصلوا في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٣ إلى نتيجة مؤدّاها أن الدفاع عن مضيق «هرمز» هو مسؤولية البلدان المنتفعة به، أي بلاد الغرب. وقد نقلت جريدة «النهار» البيروتية عن الشيخ صباح الأحمد الصباح وزير الخارجية الكويتي، قوله: إن الخليج منطقة دولية، لا نعترض فيها على التدخّل الدولي». ثم بتاريخ ٢٧ أيار/مايو ١٩٨٤ كان سفير الكويت في واشنطن يحذّر من التورّط الأميركي، لأنه «قد يدفع الاتحاد السوفياتي للدخول إلى المنطقة». وكان ذلك تصريحاً غريباً من البلد الخليجي الوحيد الذي سمح بإقامة سفارة سوفياتية في عاصمته، والبلد الذي أمل استمالة حُسن نيّة السوفيات بالنيابة عن دول الخليج في مجلس الأمن بالأمم المتحدة.

أما السعوديون فكانوا ما زالوا خائفين من أيّ وجود أميركي في الخليج. فالقواعد الأميركية على أرض الخليج تناقض الحملة المضادة لإسرائيل التي تقودها المشيخات؛ فضلاً عن أن إطالة مدّة الوجود الأميركي، قد تشعل النار التي جلبت الدمار على الأميركيين وحكومتهم العميلة في لبنان. فبلدان الخليج لم تنسَ اتفاق التعاون الاستراتيجي المعقود بين حكومة ريغان وإسرائيل ـ وقد أضرمت إسرائيل وقوداً إضافياً في حرب الخليج بإمداد إيران غريمة صدّام حسين بالأسلحة. وكان ذلك قبل «إيران ـ كونترا» بكثير، عندما استخدم الأميركيون إسرائيل لإرسال الأسلحة إلى طهران.

ولمّا شهد السوفيات تدمير حزب «توده» في إيران، صاروا يرسلون شحنات كبرى من الدبّابات إلى العراق، بينما كانت إسرائيل تزوّد إيران بأسلحة خفيفة وذخيرتها. وكذلك القول عن السوريين. أما الفرنسيون فكانوا ما يزالون يمدُّون العراقيين بصواريخ «إكزوسيت»، بينما كانت كوريا الشمالية تبيع رشاشات سوفياتية لإيران. وفي هذه الأثناء، كان الأميركيون يعيدون تنظيم وترسيخ علاقاتهم مع بغداد ـ وعند هذا الحدّ، كانوا ينمُّون «قسم الاهتمامات» في

السفارة البلجيكية في بغداد ـ في ذلك الوقت بالذات الذي كان فيه صدّام يحتاج إلى الدعم المعنوي والمادي من قبل إحدى الدول الغربية. فبينما كان جورج بوش يشجب في باكستان النظام القمعي لإيران، نُمي عن صدام أنه كان يشنق الهاربين من الخدمة العسكرية على جوانب الطرق، خارج بغداد.

وبتاريخ ٢٩ أيار/ مايو عام ١٩٨٤، وصلت إلى العربية السعودية بالجوّ أول شحنة من صواريخ «ستينجر ٤٠٠» المضادّة للطائرات ومدافعها القاذفة. وحذّر الإمام الخميني واشنطن ساخراً، من أن إيران «ستقاوم وتحارب» أيّة قوّات أميركية تُرسل إلى ساحة المعركة، قائلاً: «إذا كان الأميركيون مستعدّين للغرق في أعماق مياه الخليج من أجل لا شيء، دعهم يأتوا بإيمانهم، ودوافعهم، وبقوّتهم الإلهية». كما حذّر عرب الخليج بقوله: «ستكونون على الحياد في الحرب، إذا لم تمدّوا صدّام بأية معونة. لكنّ الجار الذي يوجّه إلينا ضربة يكون أخطر من الغريب. وعلينا أن نجابه هذا الخطر». وعلى الأثر، حملت طواقم ناقلات النفط كلام الخميني على محمل الجدّ، مع معرفتهم التامّة بالدعم المالي المستمرّ للعراق. ولذلك صارت عدّة سفن تبحر ليلاً خوفاً من الهجمات الإيرانية، على الخطوط البحرية شمالي ـ غربي البحرين، وصولاً إلى الكويت.

وكانت تغطية مثل هذه الحرب المتطاولة على الزمن عملية مرهقة وغير مجدية بالنسبة إلى أية جريدة. فتكرار الأحداث، وهجمات العراقيين على جزيرة «خرج»، وتجميع مئات الآلاف من الجنود خارج البصرة، ونداءات الطرفين لمجلس الأمن بالأمم المتحدة، وإغراق المزيد من ناقلات النفط، هذه الأمور كلها كان لها تأثير مخدّر. وكان هذا الحمّام الدموي الهائل يُسمَّى أحياناً «الحرب المنسيّة» ـ حتى لو قاربت أحياناً مجزرة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ الكوارثية. وأنا لا أحبّ المقارنة مع أكبر نزاعين حصلا خلال القرن العشرين الميلادي. فهل نستطيع القول مثلاً، إن قرار صدّام بغزو إيران عام ١٩٨٠ كان خطأً فاضحاً من وزن عملية «برباروسا» لهتلر، التي غزا فيها النازيون الاتحاد السوفياتي في حزيران/ يونيو عام ١٩٤١، والتي أدّت إلى مقتل ٢٠ مليون روسي ـ بينما لم يمت من الإيرانيين سوى مليون شخص كنتيجة لاعتداء صدّام؟

ولا شكّ في أن سفك الدماء في الحرب الإيرانية ـ العراقية دام الفترة الزمنية ذاتها التي دامت فيها حرب فيتنام، وكانت حرب صدّام أطول نزاع تقليدي حصل خلال القرن العشرين الميلادي السالف، وكانت نضالاً ذا قسوة بالغة، جعلت الإيرانيين يضطرّون إلى تغيير مواسير مدافعهم ١٢ مرّة قبل انتهاء تلك الحرب عام ١٩٨٨.

وكانت زياراتي إلى جبهات القتال، وإلى طهران وبغداد، تورث قصصاً لها نكهة «الآتية من بعيد»؛ حتى أن الإحصاءات فقدت قوّة الصدم. ففي عام ١٩٨٥ وحده، قدَّر الكولونيل «هيكي هولما» من فريق الأمم المتحدة للتفتيش في إيران أن ١٥٠٠ إيراني قد ماتوا أو جرحوا بالأسلحة الكيميائية. وفي سنتين حصل على الأقلّ ستّون هجوماً رئيسياً بالموادّ الكيميائية من قِبل العراق. وكان الضحايا على مستوى ضحايا معركة «الصوم» في الحرب العالمية الأولى. وهنا وجدتني دون رغبة مني أقارن مع الحرب التي خاضها أبي ـ ولكن لم يعترف أيّ من الطرفين بمدى خسائره. وفي عام ١٩٨٦ وحده، هلك مليون شخص في الحرب منهم ٧٠٠ ألف إيراني، بحسب قول الدبلوماسيين الغربيين الذين قلما زاروا جبهة القتال. وقال الإيرانيون من جانبهم أن ٥٠٠ ألف جندي عراقي قد قتلوا. وكان هناك ١٠٠ ألف أسير عراقي في إيران، وحوالى ٥٠ ألف أسير إيراني في العراق ـ وقد أُثبتت هذه التقديرات من قِبل الصليب الأحمر الدولي ـ وكان الطرفان ينفقان معاً ملياراً ونصف مليار من الدولارات شهرياً على الحرب.

وفي إيران، غيَّر النزاع مِزاج المتديِّنين الذين يحاولون متابعة المعركة مع العراق. وقبل سنة واحدة فحسب، كانت هناك تقارير يومية عن التعذيب، والاغتصاب الجماعي في سجن «إيفين» ذي الجدران الغبراء. ولكن في نيسان/ أبريل عام ١٩٨٥، سُرِّح «حجة الإسلام علي لادجيفاردي» المدّعي العامّ في طهران من وظيفته، مع عديد من الجلّادين القتلة. وصارت الإعدامات الآن قليلة بحسب رجال أعمال إيراني قال بشيء من التهكّم: «إنهم الآن يقتلون المجرمين ورجال المخدّرات. وأسوأ ما يرتكبونه بحقّ فتاة خالفت الشريعة الإسلامية هو قصّ شعرها». وصار هناك إذعان لنظام الخميني ـ بدلاً من قبوله ـ

ذلك النظام الذي أنتج حرّية محدودة للتعبير، بحيث يستطيع الآن أصحاب المتاجر، ورجال الأعمال والصحافيون الإيرانيون، وحتى العائلات المحافظة المتديّنة أن يشتكوا من الحكومة، دون خوف من تخوين حرّاس الثورة لهم.

وكان ذلك جزءاً من الأوهام. فالجمهورية الإسلامية لم تصبح فجأة ديمقراطية؛ ولكنها أمعنت تنكيلاً بأعدائها السياسيين إلى درجة لم يبقَ معها وجود لأيّة معارضة مركَّزة. ففي عام ١٩٨٤، يُعتقد أن عدد الإعدامات التي حصلت في طهران لا تقلّ عن ٦٦١؛ أضف إليها ٢٣٧ حالة إعدام حتى تسريح «لادجيفاردي»، بحسب إحصاءات لجنة العفو الدولية، ولكن الإيرانيين أنفسهم أقرّوا بنحو ١٩٧ حالة قتل قانوني بين آذار/مارس ١٩٨٤ ونيسان/أبريل ١٩٨٥، بادّعاء مفاده أن كل هذه الإعدامات بسبب التعامل بالمخدّرات. وقد أعلن باعتزاز في جرائد طهران عن آلة صمَّمها المهندسون الإيرانيون لقطع الأصابع، دلالة على أن الثورة حريصة على إنزال العقوبة بدقّة، على أولئك الذين يخالفون القوانين.

ولكن، لا يزال هناك مثل حرّية التعبير هذه في «المجلس» أي مجلس النواب، تلك المؤسّسة التي تنبّأ لها بعض النقّاد بأنها لن تكون سوى برلمان لختم قرارات الخميني. إنما حصلت فيها مجابهات حول سلسلة من القوانين المتعلّقة بالإصلاح الزراعي، والتجارة، والميزانية. فالمحافظون بزعامة رفسنجاني، رئيس المجلس، أرادوا استبقاء نفوذ رجال الدين وتجّار البازار، ودافعوا عن الاقتصاد الليبرالي، دون تغيير في ملكية الأراضي. ولكن الأعضاء الراديكاليين المدَّعين بأنهم يتبعون «خط الإمام»، كانوا يطالبون بسيطرة الحكومة الكاملة على التجارة، وتوزيع الأراضي، وعدد من الإصلاحات الاجتماعية التي تبدو وكأنها اشتراكية. وكانت النتيجة شللاً حكومياً. كما رفض ملّاكو الأراضي حراثة حقولهم لئلّا تصبح مجدية، فتصادرها الدولة.

وكان للخميني حقّ النقض لدى كلّ تشريع؛ ولكنّ وظيفته الرئيسة كانت عبارة عن حضور؛ إذ إنه الأب المؤسّس الذي تبرز مكانته لأهالي الشهداء، ونادراً للدبلوماسيين الأجانب، وكوجه للصلابة، ولكن ليس للحركة، كصورة

وليس كمحتوى، كمرآة لانتصارات الماضي وليس لما سيأتي. وقد كان اجتماعه الأخير مع الدبلوماسيين نموذجياً. فقد تجمّع أكثر من ستّين سفيراً، وقائماً بالأعمال، وسكرتيراً، في غرفة صغيرة في مسكن آية الله، وأُلزموا بأن يجلسوا متصالبي الأرجل، على سجّادة وضيعة، بحيث أصاب القائم بالأعمال الفرنسي تشنّج حادّ إذ إنه ربض فوق القائم بالأعمال الإسكندنافي. وفي الوقت المناسب، دخل الخميني الغرفة، وألقى خطاباً باللغة الفارسية دام ربع ساعة، دون ترجمة. فقال أحد السفراء بمرارة: «ليس ما قاله مهمّاً، إلّا بنقطة واحدة أبداها الكهل لنا، ألا وهي أن الشاه استقبل ضيوفه في قصره الملكي، لكن الخميني يستقبلنا في مسكنه المتواضع».

وفي كلّ ليلة الآن، كان الخميني يُحمل إلى غرفة محصَّنة تحت الأرض، أسفل قصر الشاه القديم في «نيافاران»، الملجأ الوحيد في طهران من الغارات الجوّية. وذلك من أجل حمايته من الحرب التي صارت الآن تركته المستديمة. وكلّما حلّقت قاذفات القنابل العراقية فوق العاصمة، دون أن يضايقها أحد، كان عشرات الآلاف من مواطنيه يهربون إلى الجبال بسيّاراتهم. وبينما كان الخميني يطالب بالانقلاب على صدّام، كان الشيوخ يظهرون على التلفزيون الوطني ويطلبون من الأهالي في أصفهان وشيراز، والأهواز، ودزفول، وحتى طهران أن يتبرّعوا بالطعام واللباس لجنودهم في جبهة القتال. وقد طُلب من بلدات معيَّنة أن تعيد تموين أبنائها المرابطين في وحداتهم على الجبهة. وفي مستنقعات جنوبي العراق، كان المتطوّعون الإيرانيون «الباسيجي»، يتماسكون وسط الطين الحارّ والهجمات العراقية المضادّة.

والآن، أصبح الإيرانيون يشحنون صواريخهم أرض ـ أرض ذات الستمئة كيلو غرام إلى قاعدة جديدة في «سربول زهراب» في كردستان، حيث سلّطها المهندسون من كوريا الشمالية لضرب بغداد. وعندما يعلمون أن الصاروخ قارب الوصول إلى الهدف بعد ربع ساعة، يعلن الإيرانيون عن تلك الضربة الوشيكة من إذاعتهم الوطنية. ويحدث ذلك تأثيراً غريباً على الصحافة والصحافيين؛ فيقول أحدهم، سمير غطاس، أو محمد سلام ممثل الصحافة الأميركية في

العراق: «قد أكون جالساً في مكتبي ببغداد، عندما تخاطبني «نبيلة ميغالي» بالتلكس من البحرين مخبرةً أن الإيرانيين أعلنوا الآن عن إطلاق صاروخ على بغداد. فأُبقي على خط التلكس ـ إذ لم يكن لدينا «فاكس» في تلك الأيام ـ وحالما أسمع صوت الانفجار في بغداد، أكتب: «نعم». ويرسل العراقيون طلقهم الناري على الأثر. مع العلم أن الصاروخ يستغرق عشرين دقيقة ليصل من الحدود إلى بغداد».

ولم تستثر الغارات العراقية إلّا عرضاً خيالياً لإطلاق المدافع المضادّة للطائرات من الأرض حول طهران؛ إذ لا يتمكّن الطيّارون من أن يحدّدوا أيّة أهداف الآن، ما دام الإيرانيون قد حصلوا على رادار إنذار ألماني من طراز (SEL) يكشف الطائرات القادمة، وما داموا يطفئون الكهرباء في المدينة. ولكن، بتاريخ ٢ حزيران/يونيو ١٩٨٥، ألقت إحدى طائرات «إليوشن» العراقية قنبلتين من علوّ شاهق على مجمع سكني مدني كبير في ضاحية «غيشة» من المدينة، فدمّرت خمسة صفوف كاملة من المباني وما فيها من شقق. وكنتُ أستطيع أن أرى من نافذة غرفتي في الفندق الذي أنزل فيه، أنوار قاذفات القنابل البعيدة، ثم أرى لمعتين قرمزيّتين هائلتين، وأسمع زمجرة صوت القنبلتين أثناء انفجارهما تتّحد مع صوت انهيار المباني. وهكذا، أطلق العراقيون الصواريخ على طهران، وكانت تلك سابقة جديدة في حرب المدن. فقُتل ٥٠ مدنياً وجُرح ١٥ في تلك الغارة. وعندما وصلتُ لأعاين المكان، وجدت القصّة العادية ذاتها: تحوُّل القرميد الرخيص الذي صُنعت منه تلك المباني المتهدّمة إلى رماد وغبار، واندثار البناية المؤلّفة من أربع طبقات ـ والتي تؤوي ١٦ عائلة، بعد إصابتها بإحدى القنبلتين. وصدف أن كانت بنت صغيرة في ذلك المبنى تحتفل بعيد ميلادها، وقد دعت صديقاتها اللواتي نمن عندها، عندما نسفت القنبلة منزلها. وفي الصباح التالي، تجمهر الإيرانيون الغاضبون حول المكان، فاضطرّ حرّاس الثورة «الباسدران» إلى إطلاق النار في الهواء لتفريق الجمهور وفتح الطريق.

وعلى مدى شهري آذار/مارس ونيسان/أبريل عام ١٩٨٥، حصلت ١٣ غارة

على طهران. والآن صار عدد الغارات ١٣ غارة أسبوعياً؛ وأحياناً ثلاث غارات في الليلة الواحدة. ولم يسقط من الطائرات سوى واحدة نفّاثة ـ خلال غارة نهارية في آذار/مارس ـ عندما اعترضتها طائرة (F-14) فوق العاصمة. فتحطمت الطائرة العراقية في الجبال الواقعة فوق طهران، وربّانها معها. وإنما، يمكن أن يُغدر الإيرانيون لاعتقادهم أن العالم كلّه يقف ضدّهم. ففي تموز/ يوليو، بدأ العراق بتسلّم دفعة من الطائرات المروحية الأميركية من طراز "Bell" ذات العشرين مقعداً، والبالغ عددها ٤٥ طائرة. وكلّها قادرة على نقل الجنود إلى جبهة القتال. وقالت إدارة ريغان، بكل جدِّية، إن هذا البيع لم يخرق الحظر على تزويد المتحاربين بالسلاح، لأن «المروحيّات مدنية»، ولأن الحكومة الأميركية ستراقب استعمالها. وكانت المفاوضات حول ذلك البيع قد دامت أكثر من سنتين؛ وكانت الولايات المتحدة الأميركية خلالهما عارفة تماماً باستعمال العراقيين للغاز السامّ، و«تطهيرهم» للأكراد. وقد رأيتُ فيما بعد ستّاً من مروحيّات «بل» هذه قرب «العمارة» مموَّهة بالطلاء، وراقدة على الإسفلت في إحدى القواعد العسكرية الجوّية.

إنما ما زال من الممكن استعمال إيديولوجية الاستشهاد في الحرب من أجل إرسال دم جديد إلى جبهة القتال. ويبدو أن هؤلاء الجنود الأولاد من الإيرانيين سيرسلون دائماً وأبداً إلى خنادق «كرمان» و«الأهواز» و«خرمشهر». وكلّ من هذه العمليات تُسمّى «والفجر» الذي يعني للمسلمين أيضاً «صلاة الفجر». وهكذا تسلسلت هذه العمليات من الفجر ١ إلى الفجر ٨. وكنتُ أنزل لمتابعة صلاة الجمعة في جامعة طهران خلال الحرب، وأشاهد هؤلاء الجنود المنمنمين ـ وكلّهم صغار السنّ، مبتهجين وخالين من هموم الحياة والموت، مثل أولئك الشباب الذين قابلتهم في الخنادق خارج «دزفول». ويقول الكلام المكتوب على عصابات رؤوسهم: «لبّيك، يا خميني، نحن مستعدّون». هؤلاء هم شهداء المستقبل، يلبسون بذلات الركض الخفيفة الصفراء، ويضربون صدورهم بقبضاتهم مثل سائر المصلّين، في الوقت المناسب من الإنشاد. إنه قرع للطبول الدماغية ـ لا يقلّ عن عشرة آلاف يدٍ تصفّق كل أربع ثوان ـ يتردّد صداه عبر

البلاد كلّها، كل يوم جمعة، وعبر الإذاعة والتلفزيون الإيرانيين. إنه جمهور الجمعة المألوف، ولو تغيّرت الوجوه من أسبوع إلى آخر: وفيهم الشيوخ، وقُدامى المحاربين في كراسيهم النقّالة، وفقراء جنوبي طهران، والمتطوّعون من الأولاد، وأسرى الحرب العراقيون بلباسهم الأخضر، الذين يُشحنون إلى المساجد ليلعنوا رئيس جمهوريتهم.

كانت صلاة الجمعة في طهران مزيجاً فريداً من طقس ديني مع تصريحات تتعلّق بالسياسة الخارجية، وضرباً من حملة «بيلي غراهام»، وخطاباً عن حالة الأمّة في وقت واحد وعمل واحد، والغريب ـ ولا سيّما إذا جاء من بلاد الغرب ـ قد يرتبك ويتشوّش؛ لكنّ ذلك سيخلّف في نفسه انطباعاً قوياً، دون شك. ولا يكون الإمام الذي يقيم الصلاة هو مركز الاهتمام في هذا المسرح الكبير؛ بل يكون رفسنجاني، الذي قد يتحدّث إلى جمهوره الذي لا يقلّ عن عشرة آلاف شخص، حول منشأ الثورة، وإحباط القوّة العظمى في لبنان، والانتصارات الإيرانية التالية خارج البصرة. وقد يكون الخطاب غير مترابط؛ ويبدو شعره الأجعد تحت عمامته، وهو يضع يده على رشّاش آلي، ولا يستثير في جمهوره انفعالات متطرّفة.

وفي شهر حزيران/يونيو هذا، أمَّنت الرعيّة وحدتها بنفسها؛ إذ كانت أصواتها تعلو وتهبط بإيقاعات ونغمات ختامية منتظمة في إطار نشيد طويل باللغة الفارسية، يحاول أن يكامل بين التاريخ الإسلامي والكفاح ضدّ العراق؛ بينما بقي الصبيان الصغار، ومنهم من لا يتعدّى عمره عشر سنوات، يضربون بقبضات أيديهم على رؤوسهم. مع العلم أن أكثر الشعر الفارسي مقفًّى، وتأتي هذه الدعوات إلى الحرب بسذاجة مهجورة، تكاد تكون من العصر «الفيكتوري». وفي ما يلي الترجمة العربية المقفاة عن الترجمة الإنكليزية المقفّاة أيضاً:

مستعدّون لبذل أرواحنا، مستعدّون للذهاب،

والقتال ضدّ أعدائنا، كما في كربلاء، لا نهاب،

قال الإمام الحسين إن رجاله هم الأفضلون،

ونحن مع الإمام الخميني واقفون،

نحن ندافع عن شرف الإسلام،

عندما نتبع كلمة الإمام.

وكان هناك بعض صغار المتطوّعين «الباسيجي»، الذين اختيروا من أجل الاستشهاد، أبناء الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العمر، مطقومين في بذلات صغيرة، مموَّهة، مشرقة. كانوا واقفين على جانبي منصّة رفسنجاني، حاملين صواني الحلوى ملفوفة بورق السيلوفان القرمزي، بانتظار إشارة تسمح لهم بأن يتجوّلوا بين صفوف الشيوخ وجرحى الحرب، وحرّاس الثورة بستراتهم العسكرية، والمسنّين المرسلي لحاهم قليلاً، وأصحاب الثياب الداكنة القادمين من جنوبي طهران، ويقدّموا لهم الحلوى. فيأخذ كل رجل منهم حبّة دون أن ينظر إلى الولد الذي يقدّمها في هذه المناسبة، التي يتشارك فيها مع هؤلاء الشباب الصائرين إلى حتفهم، والتي لا تشكّل فترة استراحة بين الركعات.

ثم يعود هؤلاء الصبيان مفعمين بالعاطفة في هذا الموقف إلى أمكنتهم على جانبيّ المنصَّة، وتبدو شعورهم قصيرة القصّ، وعيونهم تطوف أحياناً بخجل على جماهير المصلِّين، الذين أُبلغوا بأن هؤلاء مدركون للرسالة التي يؤدّونها. إنهم واقفون هناك، يتململون أحياناً، وتنحرف العصبات المعقودة حول رؤوسهم؛ لكنهم يبقون في حالة تأهُّب، كما يلعب الطفل لعبة الجندي في البيت. لم يذكرهم رفسنجاني؛ إذ إن رسالته كانت مرهونة بتلك الفترة الزمنية، وصيغتها هي صيغة قديمة مألوفة التعابير. فالعراق يخسر العديد من الرجال على الجبهة؛ ولحماية أولئك الرجال، لا بدّ من خسارة مزيد من الأرض؛ إن العراق يخسر الحرب. ففي أسبوع واحد، خسر العراق أربعة ألوية. فأنشد المصلون شكرهم لجيشهم على الجبهة.

وتجدر الإشارة إلى أن صلاة الجمعة تُذاع من مكبّرات الصوت عبر تلك الخنادق ذاتها المقابلة للبصرة، حتى يتسنّى للجنود الإيرانيين أن يسمعوا الآلاف العشرة من الأصوات فوق نيران القصف، وهم يطلبون الأخذ بالثأر بسبب

الغارات الجوّية العراقية على المدن الإيرانية. كما أن رفسنجاني أضاف إلى ذلك ملاحظة عملية لأمّته جمعاء، قائلاً: «إذا أردتم أن تكونوا مفيدين، تستطيعون أن تحفروا ملاجىء للوقاية من الغارات الجوّية، كلٌّ قرب بيته». وكان الصبيان لا يزالون واقفين قربه من الجانبين، وقد فترت هِممهم؛ وكأن بيوتهم لم تعد شاغلاً مباشراً لهم.

وساق العراقيون الأسرى الإيرانيين ـ بالآلاف الآن، كما فعل الإيرانيون قبلهم ـ وقدّموهم متباهين إلى الصحافة العالمية. ففتح العراق لأسراه الجدد مخيّماً ـ سجناً هائلاً في الصحراء غرب بغداد، قرب المدينتين الحارّتين الفلّوجة والرمادي حيث تتجمّع أكثرية سنّية، ليس فيها حوزة شيعية تقدم الراحة والمساعدة لمن قد يهرب من السجن. وكان ذلك معتقلاً كاملاً بقيادة النقيب عليّ المرح الذي أراد أن يقدّمنا إلى أسراه النموذجيين. تجمّع نزلاء السجن حولنا عندما وصلنا؛ وهم شباب في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، لا يزالون يلبسون بذلاتهم الصحراوية الصفراء ـ السمراء. وقد وصفهم الضابط العالي المقام في الرمادي «أنيس الطوسي» بأنهم سعداء. وكيف لا يكونون كذلك؟ فلديهم هنا مدارس، ومكتبة، وغرفة خياطة، ولوازم كرة الطاولة، على حدّ قول طبيب المخيّم.

وكانت فوقهم صورة لصدّام، وهو يبتسم بسخاء لهم. وعلى الجدار إعلان باللغة الفارسية يقول: «من الأفضل لكم وللآخرين كلّهم، أن تطيعوا قواعد المخيّم. أطيعوا قواعد المخيّم وقائده، كي تُعامَلوا كأصدقاء». ابتسم النقيب علي في قيظ الظهيرة، وأشار بفخر إلى المطعم، قائلاً: «شاهدوا الأكل الجيّد الذي نقدّمه للأسرى، ودفع بيده باب كوخ صغير بداخله ثلاثة متطوّعين إيرانيين «باسيجي»، قُبض عليهم في مستنقعات «الهويزة» قبل سنة، وهم يحرّكون بلطف في خلقين من السمك وآخر من الدجاج المحمَّر. وأردف القائد المرح قائلاً: «هذا مخيّم الرمادي الثاني؛ وكل مخيّماتنا في الرمادي متماثلة. إن الأسرى ينعمون هنا بظروف جيّدة لا تحملهم على الهرب».

والعين النافذة تكشف عن عنصر في هذا التصريح. فمخيّم الرمادي الأول،

مثلاً، محاط بأسلاك شائكة لامعة، عمقها تسعة أمتار وعلوّها خمسة أمتار، بشكل لا يكاد يسمح للمسجونين أن ينحنوا إلى خارج نوافذهم، ناهيك بإمكان اللعب بكرة السلّة. ومخيّم الرمادي الثالث، ليس فيه غرف للخياطة، ومكتبات للقراءة. وربّما كان المسجونون في المخيّمات الأخرى، لا يتكلّمون عن الخميني بمثل هذه المرارة والقسوة. وقد أدان اثنان من أولئك الجنود الصبيان في المخيّم الثاني للنقيب علي، نظام الخميني بحماس، بينما أومأ موظفو حزب البعث برؤوسهم موافقين، وابتسم الحرّاس من الشرطة العسكرية مرتاحين.

وعلى سبيل المثال، أقرّ محمّد إسماعيلي، البالغ من العمر عشرين سنة، من «كرمان»، بأنه أرسل إلى أهله من الإذاعة باللغة الفارسية، يقول «إن هذه الحرب ليست حرباً مقدَّسة». وكان أحمد تقي الذي بلغ السابعة عشرة من عمره فحسب، أكثر دقّة. وهو نحيل، خجول، محلوق الرأس تماماً؛ كان متطوعاً «باسيجياً» أُرسل إلى جبهة القتال منذ سنة تقريباً. قال: «كنتُ في المدرسة عندما دخل على صفّنا شيخ (مولى)، وأخبرنا بأنه يجب علينا أن نحارب في المعركة ضدّ العراق. وأنه سمع الخميني يقول إن جميع الشباب يجب أن يذهبوا إلى الجبهة «ولكني أعلم الآن أنها لم تكن حرباً مقدّسة». كانت تلك القصص متشابهة، تنبىء أولئك الأولاد بأن الله تعالى يكافئهم إذا ماتوا في المعركة. وهذا استيحاء روحاني يتبدّد حالما يدخلون مخيم الرمادي الثاني.

وقد اعترف بعضهم بأنهم لن يستطيعوا الرجوع إلى نظام الخميني بعدما أعلنوا تلك التصريحات ضدّه، حتى ولو انتهت الحرب. وكان الإيرانيون بدورهم، قد أقنعوا مئات من الأسرى العراقيين بأن يتكلّموا بمثل هذه الهرطقة عن صدّام. وربّما يكون هذا ما يريده الطرفان: أسرى لا يستطيعون العودة إلى وطنهم.

قال النقيب عليّ برباطة جأش: «لا يزال هنا حوالى ستّين أو سبعين أسيراً، يناصرون الخميني ـ وليس هذا كثيراً، وهي نسبة متدنّية، وقد يذكرونه أحياناً في صلواتهم ـ ونحن لا نتدخّل بشؤونهم الدينية». ولكن النقيب تدخّل في الأخبار التي تصلهم؛ إذ لم يسمح لهم إلّا بالاستماع إلى البرنامج الفارسي

من الإذاعة العراقية ـ الذي قد لا يكون طرفاً غير متحيِّز حول الحرب ـ ولا شيء غيره. أما الشيء الوحيد المسموح بتسلّمه فهو الرسائل المرسلة من قبل أهلهم عبر الصليب الأحمر الدولي. وقد أصرّ النقيب عليّ أن نرى الثكنات فمشينا إلى كوخ يحوي حوالى مئة شاب تحت العشرين من عمرهم، وكلّهم في بزّاتهم الغبراء الصفراء الشاحبة. كانوا حُفاة واقفين على بطّانيات عسكرية مزدوجة كأفرشة لهم؛ وحالما رفع أحد المصوّرين العسكريين العراقيين آلة التصوير، طأطأوا رؤوسهم، نظراً لأنهم إذ أخفوا هويّتهم قد تتسنّى لهم العودة إلى بيوتهم.

وكلّما حصلت نكسة عسكرية للعراقيين، اتُّخذت ذريعة لكسر المزيد من قواعد الحرب. فقد كان هناك الغاز لدرء الهجمات بالأمواج البشرية. وكانت هناك حرب بحرّية على التجّار العزَّل، بعد حدوث مزيد من الخسائر. وقد حصلت سابقة غير أخلاقية جديدة في أوائل عام ١٩٨٦ ـ بعد أن استولى الإيرانيون على شبه جزيرة الفاو ـ عندما أسقط العراقيون طائرة إيرانية تحمل شارة الصداقة و٤٦ راكباً مدنياً، بمن فيهم بعض أعضاء مجلس البرلمان ورئيس تحرير جريدة «كيهان» السيّد «حسن شاه شرجي».

أراد الإيرانيون أن يأخذوا الصحافيين إلى الفاو، لكنني رفضتُ أنا شخصياً أن أستقلّ طائرة إيرانية عسكرية من طراز (C-130) ليلاً إلى الجبهة. فإذا كان العراقيون قد أسقطوا طائرة مدنية إيرانية، فلا شيء يمنعهم من أن يدمّروا الصحافة الدولية التي جاءت لتشهد أحدث انكساراتهم. ولذلك، أخذنا القطار من جديد نزولاً إلى الأهواز وإلى الحرب التي ما زلتُ أغطّيها منذ خمسة أعوام ونصف العام.

وكان للفاو معنى خاص بالنسبة إليّ. فقد كانت المكان الذي رأيت منه الحرب الإيرانية ـ العراقية لأوّل مرّة. إنها قطعة أرض تقع عند أسفل نهر شط العرب؛ وقد قصف منها العراقيون عبدان. وكان العراقيون آنذاك يعتزمون أن يحتلّوا الضفّة الشرقية للنهر، والاحتفاظ بها دائماً للعراق. وبالفعل لم يفشلوا في الاستيلاء على الضفّة الشرقية؛ ولكنهم خسروا الآن الضفّة الغربية، بما فيها

مرفأ الفاو. وسيكون الهدف القادم للإيرانيين مرفأ البصرة الكبير، بسكّانه الشيعة، وطرقه المتوجّهة مباشرة إلى المدينتين المقدّستين: كربلاء والنجف إلى الشمال الغربي. وإن لم أكن أرسل تقاريري من البصرة ذاتها، الآن، فعلى الأقلّ أبعث بها من المدينة التي بدأت منها عملي في تغطية تلك الحرب.

لم أكن سعيداً؛ فقد كانت هناك تلميحات متكرّرة في طهران إلى حصول «نكسات» في معركة الفاو. وقد أشار رفسنجاني إشارة مقلقة إلى حاجة إيران إلى الاحتفاظ بالفاو، بينما يعلن عدم وجود خطط للتقدّم نحو البصرة ـ مما كان من الأمور الغريبة. فلماذا تمَّ احتلال الفاو أولاً، إذن؟ وكانت جرائد طهران تصف كيف «تدعم» القوّات الإيرانية مواقعها ـ وذلك يدل دائماً على وجود صعوبات لدى الجيش. وعندما وصلنا إلى الأهواز وأخذونا إلى أقرب قاعدة جوّية لنطير بالمروحية إلى جبهة القتال، وجدنا أن الطيّارين الإيرانيّين قد ملآ الطائرة بالصحافيين والشيوخ ـ ثم أحبطا الرحلة. وادَّعى أحدهما أن هناك ريحاً قوية فوق النهر، وتنبّأ بطقس سيّىء لما بعد الظهر. ولكنّ أحد رجال الدين وصل ليأمرهما بالانطلاق. وكان «تجيري ج. لابيل» من الصحافة المتحدة، الذي أمضيت معه سنوات في بيروت خلال الحرب، جالساً قربي على أرض المروحية. ونظر كلّ منا إلى الآخر بينما كانت المروحية تغادر ساحة المطار، وتُحلّق على علوّ مترين فوق الأرض، وتتّجه نحو الغرب ـ ثم تعود بلطف وتحطّ على إسفلت المطار. وكنّا ككثير من الصحافيين في أوقات الحرب، متهوّرين وساعين للوصول إلى الجبهة، وأكثر سعياً لإيجاد حجّة لتفادي الذهاب إلى هناك(*).

وكنتُ مع «تجيري» نقنع أنفسنا بقولنا «دعنا نذهب وننهِ هذه القضية». ألم

(*) يصف «جايمس كاميرون»، أحد أبطال الصحافة الذين أقدِّرهم، الظاهرة ذاتها بدقّة، في تقريره عن الهبوط بالطائرة في «إنكون» خلال الحرب الكورية عام ١٩٥٠. فقد كتب وسط عملية هبوط بطائرة عسكرية تتجه نحو الشاطىء: «كنا نتجوّل في قارب ممهور بأحرف كبيرة: «صحافة»، يضمّ مراسلين مضطربين ومتبارين؛ وكلّ منا يحاول أن يعطي انطباعاً بأنه قرر أن يكون الهبوط من الطائرة عند «الموجة الأولى»، بينما كنا نسعى جاهدين لاستنباط طريقة مشرِّفة كي ننزل في «الموجة الخمسين».

أسرع إلى ركوب مروحية «بيل» مماثلة للذهاب إلى «دزفول»، قبل سنة تقريباً؟ ألم نعترف، «كيفنر» وأنا، بأننا تمتّعنا برحلة المروحية السريعة التي تكاد تمزّق القمصان وتقطع الأنفاس فوق الوديان وآلاف الدبّابات المحروقة؟ ألم تكن تلك مهمّة المراسل الأجنبي في الحرب؟ بالذهاب إلى ساحة المعركة، والحصول على القصّة، ومن ثمَّ العودة إلى البيت سالماً معافى، دون حاجة إلى الرجوع إلى هناك في اليوم التالي؟ خرجنا من المروحية؛ وكنتُ أرى دلائل الفرج على وجهي الطيّارين. فإذا لم يريدا الذهاب، فذاك يعني أن هناك مانعاً من الذهاب إلى الفاو.

لم أنم تلك الليلة في فندق «الأهواز» الذي يشبه الكهف. فقد جاءتني أسراب البعوض تطنّ حول وجهي، ونفد ماء الشرب بالزجاجات عندي، وأسقمني الدجاج الذي أكلته على العشاء. قال لي «لابيل» بابتسامة خبيثة: «نراك غداً صباحاً، يا فيسكي». وكان «لابيل» من نيويورك، لكنه نشأ في «أريزونا»؛ وكان سريعاً، صلب العود، حاضر البديهة بالمفردات الحشوية؛ ولا سيّما إذا ضايقه أحد على خط التلفون باستقصاءات طفولية حول تقاريره. سألني يوماً: «اللعنة! كيف تريدني أن أعرف إذا كان ابن صدّام الملعون يحارب في هذه الحرب الملعونة، عندما أكون على جبهة القتال الإيرانية، أُقصف بواسطة العراقيين الملاعين؟! إني أتساءل أحياناً لماذا أنا الملعون، أشتغل لهذه الوكالة الصحافية الملعونة؟!». لكنه كان يحبّ وكالة الصحافة المتحدة (AP)، ومواعيد الإنجاز لديها، وكيف يرنّ الجرس فيها لقصة تعرض على لوحة الإعلانات. وقد قال لي على التلفون عام ١٩٨٩ عندما مات الخميني: «أتعلم يا فيسكي، بأن ذلك الكهل الخميني قد انتهى. وأتصوّر أن ذلك يعني: لا حرب في المستقبل».

بعد تلك الليلة الليلاء من الأرق ولسع البعوض، أفقت في ذلك الصباح الحارّ اللعين، وأنا بأشدّ الحاجة إلى بعض فكاهات زميلنا «لابيل». وبينما كان مراقبنا من الوزارة ينادينا لنذهب إلى القاعدة الجوّية، واجهني «لابيل» بابتسامات «ستيف ماكوين» الخالية من المرح قائلاً: «على رِسْلِك يا فيسكي؛

لقد أُخبرتُ أننا سنتلقّى التعليمات في الغرفة المحصَّنة كالعادة، ثم نتمشّى قليلاً على شطّ العرب، ثم نزور الفاو سياحياً. وسيكون أمامك الكثير من إطلاق النيران، ومن الجثث في الشارع». وعلمنا أنه قبل أيام قليلة أصيب مراسل ألماني بنوبة قلبية قاتلة، خلال غارة جوّية عراقية على الفاو. فقد كان مع رفاقه يقفزون ليجدوا ملجأ لهم، عندما فاجأتهم الطائرات؛ وبعدما عادوا ليركبوا شاحنتهم التي يسافرون فيها، بقي المراسل الألماني ملقى على الأرض. وسيسمِّيه الإيرانيون فيما بعد «شهيداً» من شهداء الحرب «المفروضة عليهم».

صدق «لابيل» بشأن الغرفة المحصَّنة. كانت هناك طائرتان مروحيتان من طراز «بيل» في القاعدة الجوية، وعليهما الشارات الإيرانية، تغالبان الهواء الساخن وتتهيّآن للانطلاق من أرض المطار. تراكمنا في إحداهما، «لابيل»، وأنا، مع أربعة صحافيين آخرين، ومجموعة من الشيوخ المنضمِّين إلينا كالعادة. خفضنا رؤوسنا ونحن نترنّح في الهواء، بينما تنساب المروحيّة فوق بساتين النخيل، وتطير بسرعة فائقة على علو أمتار قليلة من أطراف الأشجار نحو جبهة القتال، التي نعرف جميعاً أنها رحلة إلى الجحيم، ما خلا إخواننا الشيوخ، على ما أظنّ. كانت الرحلة كأنها رجوع إلى الوراء، إذ كنّا نحاذي الأهراء، ونرتفع فوق أبراج الأسلاك الكهربائية، ثم نقع في جيوب هوائية ورملية، ونحوِّم كالصقر فوق قوافل عسكرية تتجه نزولاً إلى النهر. كنتُ و«لابيل» ننظر تحتنا بدهشة، ونحن نحسّ بالمخاطرة إحساساً قوياً، لركوبنا الطائرة في مثل هذه الظروف، وقيامنا بهذا الجنون، على شاكلة ما اختبرته في دزفول: «ذاهبين إلى الجحيم مع أخطاره كي ننظر إلى الحرب».

رأيتُ مياه الشط على يميننا ـ وكان شحوبها عند ضوء الفجر يأخذ بألبابنا ـ ومن تحتنا كنا نشاهد، كما في قاذفة الانقضاض، مخيّماً إيرانياً فيه الأسلحة ومدافع الهاون، والسواتر الترابية، ومرابض إطلاق النار، والدبّابات والمصفّحات في الصحراء التي يبلّلها ندى الصباح، وكلّها يجرفها الرمل والدخان. كان الطيّار المساعد يلبس خوذة الخنافس التي يقدّمها الأميركيون لمن يشتري مروحيات «بيل» (Bell)، ويكتب شيئاً على ورقة صغيرة، بينما نحن على

وشك الوصول، والطائرة تهبط لتقف قرب غرفة محصَّنة من الإسمنت. كان الطيّار المساعد يمسك مقود طائرته باليد اليمنى ويكتب باليد اليسرى. فظننت أنه يكتب كلمة مستعجلة للربّان؛ لكنه استدار نحونا وأرانا الورقة وهو يبتسم ابتسامة عريضة. وكان عليها العبارة الآتية بالإنكليزية: «سنقتل صدّام حسين». نظرنا «لابيل» وأنا أحدنا إلى الآخر. وهمس «لابيل» في أذني بخشونة: «عال، على الأقلّ إن الملعون يعرف ماذا يريد».

كنت أستطيع أن أرى من خلال ضباب الصحراء ومطرها، وعبر الهواء الحارّ الكاتم للضجّة، أن كلّ مخبأ مزيّن بعلم أخضر عليه أقوال إسلامية، وهنا، سارع إليّ جندي ممتلىء الجسم في منتصف العمر مبتسماً يصرخ: «الموت لإنكلترا»، وهزّ يدي مصافحاً وقائلاً: «كيف حالك؟ هل تريد بعض الشاي؟». وكان على غرفة «علي مازينان» المحصنة، لافتة تمنع الدخول إليها إلّا لمن نزع حذاءه، فدخلتها بالجوارب، ومشيت على أرضها المكسوّة بحرام صوفي، بينما كان مدفع من عيار ١٢٢ ملم يطلق قذائفه على البصرة. وكان المؤذّن إذ ذاك يدعو إلى الصلاة. وفي الوضع الذي أرسلت فيه تقاريري السابقة إلى هيئة الإذاعة الكندية: كان صوت القصف يتخلّل صوت الأذان. وبالنظر إلى خريطتي، علمت أنني الآن في مكان ما يدعى قرية «نهر الهاد».

أمسك علي مازينان بمسطرة خشبية بيده اليمنى، وأشار بها بهدوء إلى الزاوية اليسرى الدنيا من خريطة كبيرة مصفّحة مثبتة على جدار مخبأه بشريط لاصق. وكان مازينان يلبس نظّارة كثيفة، ذات إطار أسود كثيف ـ على غرار عادة الأشخاص المحترمين، مثل الشيوخ، وقادة حزب الله، وضبّاط الحرس الثوري، وكُتّاب الوزارة ـ وكان هو ذاته قائداً للحرس، وأحد الذين استولوا على الفاو. قال: «فزنا لأننا اتّبعنا أوامر الله تعالى». وسألتقي مازينان أيضاً؛ وسيكون لي رمزاً للمهامّ الصحافية الخطرة والطائشة.

سألنا: «ما هي مساحة الأرض التي غنمتموها؟». فتحرّكت مسطرة مازينان نحو الخريطة، وحدّد الخطوط الخضراء الباهتة ورفع مسطرته بيده اليمنى أيضاً،

وأطبق براحة يده اليسرى كلّها على شبه جزيرة الفاو. لم يمسّ الكويت، لكنه أشار بإبهامه نحو البصرة، واجتاز بإصبعيه الأوسطين المجرى المائي، والجسرين العريضين المؤقّتين المنصوبين فوق نهر الشط على مقربة من عبدان، ذينك الجسرين الأسطوريين الجديدين اللذين ربطا اليابسة الإيرانية بالأرض العراقية. ولم يتطرّق الحديث إلى ما يمكن أن يقوم به العراق من هجوم مضادّ؛ بل عاد مازينان إلى الخريطة، ونقر عليها مشيراً إلى الشقّتين الخضراوين الشاحبتين اللتين ترافقان كل ضفّة من ضفتي النهر. وقال: إن الضفّتين انتجتا التمر خلال الحرب؛ وبدأ يجري تحليلاً إحصائياً لمنتوجهما الزراعي. وبينما كان يتكلّم، وزّع رجال الوزارة علينا أكياساً بلاستيكية صغيرة قذرة، فيها أنبوبا سائل، وحقنة بغيضة المنظر. وهمس أحدهم في أذني: «لغاز الأعصاب» وهو يبرز الزجاجة ذات السائل الأخضر، ثم «لغاز الخردل»، وهو يشير إلى الزجاجة ذات السائل الأغبر. وها نحن نتزوّد بالحقن الطبّية المضادّة لسمّ صدّام قبل أن نحطّ في الفاو؛ ونستمع إلى القائد العسكري المحلّي، وهو يخبرنا عن صادرات العراق من التمر عام ١٩٧٩.

وقد ارتحنا إلى حدٍّ ما عندما أبلغونا أنهم سيأخذوننا إلى «الفاو». وقال لي «لابيل» بخبث: «تصوّر يا فيسكي، أنك ستكون عما قريب في مكان، يكون فيه خط تاريخك: من روبرت فيسك، في الفاو المحتلّة من قِبل الإيرانيين». وفي الخارج صار الرمل يدوّم حول وجوهنا، ويتخلّل ثيابنا، ويتسلّل تحت ياقات قمصاننا. وها هي قذيفة أخرى تنطلق انفجارياً باتجاه البصرة. صعدت إلى المروحية وكأني في حلم. وهي تستطيع أن تستوعب بأمان ثمانية ركّاب كحدٍّ أقصى؛ ولكننا كنا ١٩ شخصاً، وأكثرنا من الشيوخ الصاخبين. واكتشفت أني عندما أقوم بشيء جنوني، هناك جزء غير محدّد من دماغي يتولّى أمري. فلا أتخذ قرارات، ولا أقوم بخيارات، فدماغي الآن يشتغل باستقلال عني. وهو يعلمني أنه يجب أن أجلس قرب باب المروحيّة المفتوح على ميمنة الطائرة الحربية المسلّحة. وهناك ألاحظ «لابيل» رابضاً بقربي وبيده دفتر. فقلت لنفسي حالماً: هل يأخذ ملاحظات خلال هذه المهمّة الانتحارية؟

كان لإيقاع شفرات الدوَّار الذي يسيِّر الطائرة، والجلبة الحاصلة فيها، تأثير يخمد صوت الحرب. وكانت انفجارات المدفعية تؤول إلى صوت مكتوم. وعند أول وكزة، ترتفع الطائرة فوق الرمل، ونصبح بأحسن حالاتنا، وكأننا خالدون! ها هي مروحيّتنا تدور، وتواجه الشرق، ثم الغرب، ثم الشرق من جديد، ثم تستدير ١٨٠ درجة، وتستوي، وتشقّ طريقها بين المدافع. وبينما كنا نتجاوز الخط المسلّح ـ مع إبقاء باب مروحيّتنا مفتوحاً بسبب الحرّ ـ لاحظنا أزهاراً وردية من النار تخرج من أفواه المدافع بشكل سدّ جميل ورهيب. وتمر إحدى هذه الأزهار النارية بجانب ميمنة مروحيّتنا، وأكاد أحسّ بوهجها حتى نتجاوزها. ثم يطالعنا خطّ من النخيل ينطوي تحتنا، ثم شطّ العرب، عن كثب، ولا تكاد الطائرة ترتفع سوى مسافة قدم عن الماء.

وها أنا أجلس وأنظر شزراً من نافذة الربَّان. إني أستطيع أن أرى سحابة ضباب على الأفق داكنة بالنسبة إلى شحوب النهر، ثم سلسلة من المسلّات المكسورة تنتصب عند شاطىء العرب البعيد. أما مياه النهر فتتدفّق تحتنا بسرعة تفوق مئة كيلومتر في الساعة؛ وكأننا أسرع المتزلّجين على الماء في العالم، ودوَّار طائرتنا يغالب الحرّ والريح، ويسحبنا فوق هذا النهر العريض. إننا آمنون في شرنقتنا، كملائكة لا يقعون من السماء؛ نتعجّب ونندهش ونحاول أن نتذكّر أننا لا نعدو كوننا بشراً. إننا نطير عبر دخان تنفثه ناقلتا نفط تحترقان؛ ويلكزني «لابيل» على قدمي، ويشير إلى تلّة من الطين والقذارة، تدور المروحية حولها، ثم تحطّ عليها بحذر شديد. صاح بنا الربَّان: «اذهبوا، اذهبوا اذهبوا». فقفزنا على كتلة من الطين السائل الذي كاد يمزّق أحذيتنا عندما كنّا نتحرّك، ويجذب أقدامنا ويمنعنا من الابتعاد عن المروحيّة، عندما تعود لتحلّق، وتتركنا في صمت صارخ. حاولت مع «لابيل» أن نرفع سراويلنا عن الوحل، لكنّ أثواب الشيوخ تلطّخت بروث الحيوانات، وأحسسنا بارتجاج الأرض تحتنا بينما كانت الطائرة تغادر المكان.

وبالتأكيد، كانت الأرض تنبض تحتنا، كما لو كانت هناك هزّة أرضيّة تحت أقدامنا. وكانت الريح تذرو الدخان فوق الطين، ورافعات المرفأ المكسورة في

الفاو ـ وهذه هي المسلّات التي رأيتها سابقاً من بعيد ـ وبقايا المدرّعات العراقية المحروقة. فشققنا طريقنا عبر المستنقعات؛ أنا و«لابيل» والشيوخ وأحد الشباب الزاهدين الذي تبيّن أنه من وزارة الإرشاد الإسلامي. وكنا آنذاك نستطيع أن نسمع صوت القذائف، كقعقعة تختلط فيها أصوات الانفجارات؛ وكأننا قرب مزلجة صاخبة على عجلات يتسابق فيها أولاد هائجون دون توقّف على أرضية خشبية. وعندما وصلنا إلى رصيف المرفأ، وجدنا فيه رُكاماً من أجزاء أجسام لا تزال مشتعلة، وكُتلاً ضخمة من الرافعات، وقذائف غير منفجرة. وجاءني «لابيل» وهو يترنَّح، وحذاؤه عالق بطين دبق، وكنّا كلانا مُنهكين، نحاول استرداد أنفاسنا. فقال لي «لابيل» متجهّماً صافراً: «لقد حصلت على خط تاريخك اللعين!». ورمقني بنظرات وتكشيرات «ستيف ماكوين».

نزلنا وتمشّينا ميلاً على الشاطىء؛ فوجدنا خزّانات نفط محروقة، وما غنموه من قطع المدافع، والإسمنت المسحوق، وجثثاً عراقية غارقة في السماد الحيواني. فهذا جندي بلا رأس، وآخر دون ذراعين. وكلاهما أصيبا بالقنابل اليدوية. ولقد لقيت مع «لابيل» حوضاً من الرمل والإسمنت، ونادينا ممثل الوزارة. وحالما مشينا لنجلس على التراب، رأيتُ جثّة أخرى مسودّة قابعة في حُفرة مدفع، لشاب متقوقع كالطفل الجنين، يلبس خاتم زواج في أحد أصابعه. سُحرتُ بهذا الخاتم؛ إذ كان يتألّق ويتلألأ بالنضارة والحياة، في ذلك الصباح الذهبي الحارّ. كان الشاب في حوالى الخامسة والعشرين من عمره، وذا شعر أسود. فهل نوقف الساعة عندما يفاجئنا الموت؟ وهل نقول إن الموتى لا يكبرون بالسنّ، بينما بعضنا يعيش ليهرم؟ لم يعد العمر يهمّهم، ولا إدانة السنوات؛ ولكنهم سُلبوا إنسانيتهم بسرعة الفساد الذي دبَّ فيهم، والشمس القديمة المشرقة على رُفاتهم. نظرت إلى الخاتم ثانية، وتساءلت: هل كان ذلك زواجاً مدبَّراً أو زواج حبّ؟ من أيّة بلدة أتى هذا الجندي ـ الجثّة؟ وهل كان سنّياً أم شيعياً أم مسيحياً أم كردياً؟ وماذا عن زوجته؟ لا يعقل أن يكون قد مضى على موته أكثر من ثلاثة أيام. وفي مكان ما نحو الشمال، توقظ زوجته أولادها، وتعدّ لهم فطور الصباح، وتلقي نظرة على صورة زوجها على الجدار،

غير عالمة بأنها أصبحت أرملة، وأن خاتم الزواج لدى زوجها، ما زال يلمع حبّاً بها في هذا الصباح المجيد، لكنه يُطبق على إصبع ميت.

وبدا ممثّل الوزارة ممتلئاً بالثقة الكاذبة؛ إذ أعلمنا أنه لا داعي لأن نخشى من الغارات الجوّية، نظراً لأن سلاح الجوّ الإيراني قد أعدَّ غطاء دفاعياً فوق الفاو لحماية الصحافيين الأجانب الزائرين. فنظرنا «لابيل» وأنا، أحدنا إلى الآخر. إنها كذبة كبيرة؛ فلن يُضيع طيّار إيراني وقته ليحمي «الكاباناغوران» أي «الصحافيين»، عندما يكون جيشه تحت قصف عراقي كثيف إلى الشمال. وعلى الأثر، رأينا طائرة تطير على علوّ مرتفع، فأشار موظف الوزارة إلى السماء، قائلاً: «أترون، مثلما قلت لكم». ولكن «لابيل» وأنا نعرف طائرة «الميغ» عندما نرى واحدة. إنها عراقية.

ثم جاءتنا شاحنة عسكرية غنموها من العراقيين تعطس وتقفز على روث الحيوانات، فتسلّقناها. وكانت قد وصلت نقلة أخرى بالطائرة المروحية تضم جماعة من المراسلين آتين من «نهر الهاد»، يخوضون في الطين. يا له من وقت للسياحة! لم أستطع أن أتبيّن ملامح الفاو التي عرفتها ـ مع الخوف ذاته ـ منذ خمس سنوات ونصف السنة. لكنني تذكّرت ثكنات الجيش العراقي، التي نصبوا الآن على مدخلها علماً كُتب عليه: «الإسلام يعني الظفر». لقد احتلّ المدينة آلاف من حرّاس الثورة. كانوا يلوّحون لنا، ويرفعون المصاحف، ويبتسمون، ويقدّمون لنا الشاي بين الخرائب والأطلال. وقد اكتسب اسم الفاو بحد ذاته نوعاً من المعنى الديني. قال لنا أحد ضباط «الباسداران» الشباب: «سترون أن ليس للعراقيين من أثر هنا». وهكذا كان الطين ـ على شاكلة طين «صومّ» في الحرب العالمية الأولى؛ كما كتبتُ في مقالي المثير ذلك المساء ـ قد استهلك الفاو، وطرقها، ومواقع مدافعها، وأسفل صهاريج النفط التي تحترق، وبذلات المحاربين الإيرانيين الغبراء الشاحبة، وغطّى تدريجاً أجساد العراقيين المبسوطة والمنتشرة عبر المدينة. فهنا جندي عراقي قدَّته قذيفة شقّين، يرتمي أحدهما على الآخر قرب دبّابة؛ وهو يلبس أيضاً خاتم زواج. وكانت الدفاعات العراقية ـ التي تعلو بأكياس الرمل ثلاثة أمتار ـ قائمة عند النهاية الشمالية للفاو؛ وفيها

المدافع الرشّاشة غير المعطوبة التي لا تزال منتصبة أمام الكوى. فهل كان ذلك نتيجة تراخٍ من قِبل العراقيين سمح للإيرانيين بأن ينسابوا في المدينة ولا يلقوا سوى مقاومة بسيطة، حتى إنهم استولوا على بطّارية صواريخ كاملة على الشاطىء؟ ولا تزال بعض البيوت صامدة، بينما دمّرت المدينة في معظمها. وقد عرض الإيرانيون عدّة مدافع من عيار ١٥٥ ملم، بدأوا يستعملونها لقصف البصرة.

وبرز من بين أنقاض بيت متهدّم، رجل عجوز أشيب اللحية يمشي على عُكّازه، وهو يصيح: «جانغ إي پيروزي» أي «حرب حتى النصر»، بحسب الجوقة العادية ذاتها. وانهمر المطر بغزارة من السحاب المنخفض المارّ فوق الفاو، فصقل وجه الرجل. كان جبينه معصوباً بخرقة حمراء، وهو يلوّح بعصا فوق رأسه. وخرج أعضاء «دائرة الدعاية الحربية» من أحشاء مصنع، وتوجّهوا نحو الزائرين الأجانب، وهم مسرورون، يقولون: «أترون. هذا واحد من متطوّعينا. إنه يريد أن يموت من أجل الإسلام بمحاربة صدّام». وجاءت سيّارة «جيب» ووقفت قرب الرجل، وعليها مكبّر صوت صدىء، يصيح: «حرب حتى النصر» بينما الرجل يتواثب فوق الطين والوحل. وخلفه كان اللهيب الأحمر يتموَّج عبر قاعدة مستودع للنفط يحترق، بسبب قصف العراقيين للخطوط الإيرانية.

وفي أعلى الطريق، كان غطاء من نار وستار من دخان أسود. ومن هناك كان يأتي صوت قرع الطبول، تلك الهزّة التي شعرنا بها عندما لامست طائرتنا الأرض. فالإيرانيون يبدون لامبالين عابثين كالأطفال بمناسبة ظفرهم. وقد لاحظنا أن في شاحنتنا ثقباً على مستوى علوّ الشخص خلف مقصورة السائق، أحدثته رصاصة. وفي المؤخّرة، وقف ضابط إيراني يحمل بوقاً ليخاطبنا ويشير عبر مضيق خور عبد الله الحارّ إلى جزيرة بوبيان الكويتية، صارخاً: «الكويت على يساركم». وكان ذلك أحد الأسباب التي كانت وراء مجيئنا إلى الفاو. فها نحن داخل العراق مع الإيرانيين، ننظر إلى البلد العربي الذي كان أحد اثنين من كبار مزوّدي الأسلحة للعراق.

ومساحة جزيرة «بوبيان» تبلغ ١٣٠ كيلومتراً مربّعاً من المستنقعات

والشواطىء الطينية؛ ولكن الكويت تستبقي هناك قوّة صغيرة للحراسة، وما يرمز إليه ذلك واضح. فقد صرخ الضابط من جديد قائلاً: «نأمل أن تبقى الكويت حاملة مسؤوليتها خلال هذا النزاع». وكان العديد من حُفر المدافع الجديدة التي أحدثها الإيرانيون على طول الطريق إلى «أم القصر» ـ المرفأ الذي لا يزال بيد العراقيين ـ مجهّزاً تجهيزاً جديداً بالمدفعية المصوّبة مباشرة نحو الكويت. وفي الفاو، مدينة الأشباح، أصبح من الضروري دفن الجثث، إلّا إذا سبقت إلى ذلك الريح والرمل. وعلى قطعة أرض خالية، كان يرقد حُطام طائرة «ميغ» عراقية، مغمورة إلى نصفها بالرمل السائل، ولا يزال رأس قائدها يبرز من مقصورته المدمَّرة. كما كان هناك أيضاً جندي ميت جالس قرب الطائرة، وكأنه مستعدّ لاستقبالنا.

صرفنا ثلاث ساعات ونحن ننتظر مروحيّتنا، لتنقلنا إلى الشاطىء الشرقي من الشط، وكنا «لابيل» وأنا جالسين من جديد في حوض من الرمل، والجندي الميت وخاتم زواجه على بعد أمتار قليلة منا. وبينما كان «لابيل» يتمشّى بين قطع الآليات المحطَّمة، وهو ينفث الدخان من سجائره العديدة ـ ناهيك بأنه مدخّن لديه ربو ـ اكتشفنا قنبلة غير منفجرة غارقة في الطين قربنا، فطمأننا رجل الوزارة بأنها معطّلة، لكنه كان يكذب. نظر «لابيل» إليها شزراً، وأشعل سيجارة أخرى، متمتماً: «يا فيسكي، إنها لن تنفجر»، وانفجر ضاحكاً. ولم ترجع سوى مروحية واحدة لتأخذنا. وهنا حصل سباق مخجل بين المراسلين والشيوخ عبر الطين كي يجدوا لهم مكاناً في الطائرة. وبينما كان «لابيل» يرفعني فوق مزالق الطائرة إلى خلف الطيّار، رأيت حذاء شخص يائس على كتف أحد الشيوخ، وهو يحاول أن يقحم نفسه إلى الداخل، لكنه لم يوفّق، وانقلب إلى الوراء على الطين. ثم انطلقنا، وعدنا نطوف فوق ماء الشط الرقراق، وفوق القاعدة الجوّية في «نهر الهاد» باتجاه الأهواز والفندق ـ الكهف، ومركز البريد هناك الذي ليس لديه خطوط إلى لندن. ولذلك خابرت «طوني آلوواي» في طهران، وأمليت عليه تقريري، فأخبرني أن القسم الأجنبي من «التايمز» بعث إليّ بكلمة مفادها أن الجريدة صارت كاملة الموادّ الليلة، فهل يبقى مضمون قصّتي صالحاً للغد؟

وكان الإيرانيون قد احتلّوا حوالى ٣٠٠ كيلو متر مربّع من أرض العراق جنوبيّ البصرة ـ وادَّعوا في إعلانهم عنها أنها ٨٠٠ كيلو متر مربّع بما فيها المياه الإقليمية ـ وسيبقون هناك طيلة السنتين التاليتين، حتى يأتي اللواء ماهر عبد الراشد ـ الذي قضى جيشه الثالث على آلاف الإيرانيين خارج البصرة في أوائل عام ١٩٨٥. فهو الذي قصف بالقنابل المبيدة ليفتح له طريقاً إلى المدينة في نيسان/ أبريل عام ١٩٨٨.

ولكن كيف استولى الإيرانيون على الفاو أوّلاً؟ ـ قالوا إنه سرّ يعلمه الله وحده. ولكن بعد سنوات من انتهاء الحرب، صادفت إيرانياً شابّاً ـ طيّار مروحيّة ـ سبح في شط العرب ليلاً ليستطلع المدينة، عندما كانت لا تزال تحت السيطرة العراقية. وقد استنبط خطة غير عادية: فوضع أنابيب النفط العملاقة في قلب النهر، حتى تشكّل جسراً تحت الماء، اجتازته الشاحنات والمدفعية الإيرانية بحيث لا تغرق في الماء سوى عجلاتها، كما مرّ عليه الجنود الإيرانيون، بحيث لا يغطس في الماء سوى أقدامهم، وهكذا فوجىء المدافعون العراقيون في الظلام الدامس بجيش إيراني من الأشباح يمشي على صفحة الماء مهللاً: «الله أكبر، الله أكبر»، وهو يترجّل على الشاطىء. ومن جهة أخرى، كيف استطاع اللواء الراشد أن يعاود احتلال الفاو؟ ـ فقد كتب مراسل «الأوبزرفر» بتاريخ ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٨، عن ممانعة المسؤولين في الكشف عن ذلك. لكنّ العراقيين استعملوا وسائلهم العادية، فأغرقوا الفاو بالغاز السامّ ـ كما لاحظ الملازم الأميركي «ريك فرانكونا» ذلك دون اكتراث، عندما جال في ساحة المعركة مع العراقيين فيما بعد. وكان كاتب تقرير «الأوبزرفر» الذي دعاه العراقيون لدخول الفاو «المحرَّرة» هو «فارزاد بازوفت»، الذي لم يعشْ بعد ذلك سوى سنتين، إلى أن شنقه صدّام.

وعند عودتنا إلى طهران، كان قطارنا قطار العذاب، فنصفه مستشفى ونصفه الآخر للجنود، ولكن دون المصابين بالغاز والحمدلله. كان الجنود صغار السنّ ـ لا يبلغ العديد منهم الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر ـ وقد جلسوا في مركبات الدرجة الثانية، وشعورهم محلوقة، يأكلون قوالب خبز «النان»،

وينامون بعضهم على أكتاف بعض، وهم في بزّات السخرة الشاحبة التي تُعطى للجنود الفلّاحين. وكان الجرحى على عُكّازاتهم يجوبون المماشي ذهاباً وإياباً، كما لو كان ذلك سيخفّف من آلامهم.

كان أحدهم صبياً قصير الشعر، متألّم الوجه، ينخر كلّما ألقى بثقله على عُكّازيه، ويحدِّق في حُجيرات القطار، كما لو كان رفاقه هم الذين سببوا محنته. وجلس شاب يلبس سروالاً كاكياً، وذراعه مع يده ملفوفتان بضمادات، على صندوق قرب باب المركبة متفطّر القلب، وأدار ظهره إلى النافذة المفتوحة، وصار يرمي أغطية الزجاجات من فوق كتفه إلى الصحراء شمالي الأهواز، وهو يقهقه بشكل تشنُّجي متقطّع مقلق.

كان قطارنا بطيئاً صعد بجهد لمدّة ١٧ ساعة من جبهة القتال على شط العرب، وعبر الجبال الشاهقة، وهبط إلى سهول «قم»؛ إنه قطار تَعِب، ينقل رجالاً تَعِبين من حرب مُتعِبة. وعندما حلّ الظلام، ترك بعضهم الحُجيرات المكتظّة وناموا في المماشي القذرة، حتى اضطررتُ إلى أن أرفع رجلي لأمرّ فوق حوائجهم من بطّانيات، وأحذية، وحقائب كي أصل إلى مركبة الطعام المعطوبة، وما فيها من أجنحة دجاج وشاي؛ فضلاً عن صور الكهل الملتحي الذي يقاسي هؤلاء الأمرّين من أجله. كانوا رجالاً لطفاء حزانى يتمتمون بكلمة «مرحباً» من طاولاتهم المكسّرة المصنوعة من «الفورمايكا»، وينتظرون ردّاً قبل أن يبتسموا. سأل أحدهم بشكل مثير للشفقة في الممشى: هل «جانغ» جيّد؟ أي هل الحرب جيّدة؟ فقال صوت داكن آخر: «لقد انتهى صدّام». ثم «مرحباً بكم في إيران».

وقفنا في «شوشتر» على بعد مئة كيلومتر شمالي الأهواز؛ وعقدنا «لابيل» وأنا محادثة مع مهندس مدني حاول أن يستوعب المسافة الفاصلة بينه وبين بني قومه. قال: «أنا لا أفهم هؤلاء الناس الذين يقولون إنهم يريدون أن يموتوا. لم أعرف أبداً أناساً مثل هؤلاء. إنهم يقولون إذا كان الخميني يريدهم أن يموتوا، فسيموتون. ماذا تستطيع أن تقول لهؤلاء الناس؟».

عاد القطار فغادر «شوشتر» في وقت متأخّر، ومحرِّكه الذي هو من نوع «ديزل» بدأ يهدر. ثم سلك قطارنا فجأة طريقه إلى وادٍ ضيِّق. ورأينا من خلال النافذة المفتوحة جبالاً شديدة الانحدار، مكلّلة قممها بالثلج، بينما الجليد يتلألأ على صخورها، وتحتها الأنهار المتجمدة، وفوقها النجوم. وبينما كنا ندور حول قرية نائية، رأيت للحظة رجلاً وامرأة يقفان على سطح منزلهما، وينظران إلينا، وقد وضع ذراعه حول كتفيها اللتين يتدلّى عليهما شعرها، وهي دون حجاب. قال أحد الجنود. «إنها سلسلة جبال مشؤومة تُسمّى الجبل الأصفر» وقد تسامقت فوق قطارنا الذي يتسلَّل عبر الأنفاق ويسير بجانب النهر وينعطف بحدّة إلى درجة يرى المرء عندها نور القاطرة يضيء الصخور والسيل الجارف المظلم في الحضيض. هذه أرض تستحقّ أن يموت من أجلها هؤلاء الشباب؛ وليس من أجل الرجل صاحب الصورة الباهتة المعلّقة في حافلة الطعام. ولكن قلّما نظر الجنود إلى الخارج من النوافذ. فقلّة منهم يقرأون المجلّات، وآخرون يدخّنون وعيونهم مغلقة، وأحدهم يقرأ في قرآن صغير الحجم ويتمتم كلماته بهدوء.

وكان على القطار رجل تاجر من الأهواز، يذهب إلى طهران ليوم واحد؛ مستدير الوجه، قصير وبدين، يتحسَّر على مستقبله الاقتصادي؛ لكنّه قال إنّ أحواله تحسّنت منذ قيام الثورة، لأن أعضاء عائلته صاروا أكثر تديّناً. ما رأيه بالحرب؟ فكَّر برهة، وهو ينظر إلى شلّالات نهر «بالارود» تحت ضوء القمر، هذا النهر البريء يشبه معظم الجنود المسافرين على هذا القطار ـ إذ إنه يسير في نهاية الشوط إلى طين شطّ العرب. قال في ظلمة الممرّ: «أعتقد أن الأميركيين وراء هذا الأمر. إن القوى الكبرى تريدنا أن نكون ضعفاء، لكننا سنربح الحرب». فسألته: «بأيّ ثمن؟». عندئذ وصل القطار بنا إلى قرية «تشامسنغار» ذات لوحة التعريف البيضاء. أشار الرجل بإبهامه من فوق كتفه إلى حُجيرات الشباب الهاجعين، قائلاً: إنهم سيدفعون الثمن». ثم نظر إلى الخارج حيث النجوم والجبال والجليد؛ وأردف قائلاً: «سندفع الثمن؛ إننا نستطيع ذلك».

مَنْ يمكن أن يصدّق أن الولايات المتحدة الأميركية ستعود وتشحن جوّاً إلى إيران صواريخ مضادة للدبابات وللطائرات؟ كان عليّ أن أعتقد ذلك. كنتُ في لبنان أحاول إطلاق سراح زميلي «تيري أندرسن» الذي أُخذ كرهينة لدى إحدى الجماعات التابعة لحزب الله الشيعي منذ أكثر من سنة، وفكّ أسره بواسطة الوسطاء الإيرانيين. كان «أندرسن» رئيس مكتب الصحافة المتحدة في بيروت، ومن أعزّ أصدقائي، وقاطناً في البناية ذاتها التي أسكنها، وقد سافرنا معاً بمهامّ يشيب لها الشعر(*). فبدأ الإيرانيون يطلبون مني أن أكتشف مكان وجود ثلاثة من مواطنيهم أُخذوا رهائن في لبنان عام ١٩٨٢. ولكن عندما قابلت الوسيط الإيراني في مطعم ببيروت في أواخر أيار/مايو ١٩٨٦، أخبرني بفظاظة «أن «جماعة» أندرسن صاروا في طهران». لم أحمل ذلك على محمل الجدّ. ولكن بعد خمس سنوات من إطلاق سراح رهائن السفارة الأميركية في طهران، لم أظن أن أحداً من الموظفين الأميركيين، سيتجرّأ على السفر إلى إيران.

ولكنني كنتُ مخطئاً في كلا الأمرين. فقد وقعتُ مصادفة على أول البيِّنات الثبوتية بشأن مبادلة الأسلحة بالرهائن في فضيحة إيران ـ كونترا بتاريخ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥، عندما كنتُ مارّاً عبر قبرص في طريقي من القاهرة إلى بيروت ـ فتكرَّم عليّ صديق قديم لي، كان يشتغل في مراقبة سير الطيران في مطار «لارنكا»، بخبر مفاده أنه كانت هناك طائرة جاءت من «تبريز» في شمالي إيران وفُقد أثرها بعد أن مرَّت بتركيا ثم توجّهت إلى الجنوب، فجأة. ودلّتني اتصالاتي على أن موظّفي «تلّ أبيب» خابروا شخصياً مراقبي سير الطيران في قبرص ليثبتوا لهم أن طائرة نفّاثة من طراز (DC-8) حطَّت سالمة في مطار «بن غوريون»، بعدما تعرَّضت «لمشكلات كهربائية».

لكنّ الإسرائيليين نفوا رسمياً أيّ علم بالطائرة ـ ممّا يدلّ بصورة أكيدة على

(*) بقي «أندرسن» محتجزاً في لبنان حوالى سبع سنوات. وقد روى قصّة محنته في كتاب «عرين الأسود» (شركة «هودر» (Hodder) ١٩٨٤). ويمكن الرجوع إلى تقرير المؤلف عن أسْر «أندرسون» في كتابي: (Pity the Nation)، «ويلات وطن» الصادر عن: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة السابعة عشرة، طبعة جديدة وفريدة بفصلين، ٢٠٠٥. انظر الفصل الرابع عشر.

أن الطائرة تقوم بمهمّة سرِّية ـ وعندما ادّعى أصحاب الطائرة العلنيّون في «ميامي» أنهم باعوها في الشهر الماضي إلى شركة نيجيرية، زاد اهتمامي بالموضوع. وقد ادَّعت هذه الطائرة، المسجّلة في أميركا تحت رقم (N421AJ) بتعريفها عن ذاتها لمراقبي سير الطيران، أنها تنتمي إلى شركة «الخطوط الدولية». وكانت تلك الطائرة قد سجّلت خطّ رحلة إلى «مالاغا» في إسبانيا، حيث قال أحد أصدقائنا من موظفي الطيران إن طائرة (DC-8) شوهدت هناك، كما حطّت أيضاً هناك طائرة من طراز «بوينغ 707»، ادَّعت أنها تنتمي إلى شركة «الخطوط الدولية»، وأنها قادمة من «تبريز»، ثم طارت في طريقها إلى مدينة إيرانية أخرى تُسمّى «زال» ـ ولم يستطع أحد تحديد مكانها ـ وكان ذلك بتاريخ ١٥ أيلول/ سبتمبر.

وحتى عندما علمت بأمر هذه الرحلات الجوّية غير النظامية، كان عليَّ أن أكون أكثر ارتياباً. فإذا كانت إسرائيل ترسل أو تتلقّى شحنات جوّية إلى إيران أو منها، فليست تلك شحنات لتصدير البرتقال أو استيراد الكافيار. ولمَّا كانت واشنطن حليفة إسرائيل الحميمة في الشرق الأوسط، فلا شكّ أن أميركا متورّطة في الموضوع. ولو ربطتُ هذا الأمر بإقرار الوسيط الإيراني بأن «جماعة» أندرسن هم في إيران، لكنتُ قد اهتديت إلى قصّة إيران ـ كونترا. ولكن الذي فعل ذلك هو مجلّة «الشراع» المحدودة التوزيع في بيروت؛ والباقي لا يعدو كونه جزءاً من التاريخ، كما يقول المحاربون القُدامى. فقد انبرت جماعة من موظفي البيت الأبيض السذَّج، بوحي من «أوليفرنورث» المقدَّم البحري الساذج إنما البهيّ الطلعة، فتجمّعوا مع بعض الوسطاء الإسرائيليين، وأقنعوا الرئيس ريغان أنه يمكن تحرير الرهائن الأميركيين في بيروت بواسطة حلفاء إيران ضمن حزب الله، لقاء إمداد إيران بكمّية كبيرة من صواريخ «هوك» المضادّة للطائرات، وصواريخ «تاو» المضادّة للدبّابات، على أن تُستخدم المدفوعات الجزئية لثمن هذه الأسلحة ـ التي خرقت بها واشنطن حظر تصدير السلاح إلى إيران ـ من أجل تمويل مسلّحي الكونترا اليمينيّين في نيكاراغوا، الذين يعجب بهم «ريغان» و«نورث».

كنتُ قد سمعتُ اسم «نورث» قبل ثلاثة أشهر، عندما كنتُ مسافراً إلى سويسرا على متن طائرة الشرق الأوسط من بيروت، ووجدت نفسي جالساً بجانب أحمد شلبي المستشار المالي الأوّل لنبيه برّي زعيم حركة أمل في لبنان(*)، الذي تدخّل لإطلاق سراح المسافرين والطاقم في طائرة (TWA) التي خُطفت وجيء بها إلى لبنان. وقد كرَّر شلبي توصيته لي بأن «نبيه برّي» يستحق المساندة لأن «البديل عن ذلك هو حزب الله، غير المرغوب فيه». ولم تمضِ على طيراننا عشرون دقيقة حتى قال لي: «روبرت، هناك شخص أرغب في أن تتعرّف عليه في واشنطن؛ اسمه «أوليفر نورث» (Oliver North) فأنبأتني حاسّتي السادسة أن لا أضع ثقتي في «شلبي»، فرفضت الدعوة. ولكن، لا بدّ أن يكون شلبي قد حدَّث «نورث» عني، إذ كتب اسمي في مذكّرته، بخصوص اجتماعه في منتصف عام ١٩٨٦ مع «تشاك لويس» أحد أعضاء الصحافة المتحدة في واشنطن، الذي خابرني بعد عدّة أيام، ليسألني إذا كنتُ أريد أن أردّ على مخابرة من المقدَّم، فرفضت.

وتجدر الإشارة إلى أن رحلة «نورث» السرِّية إلى طهران مع مستشار الأمن القومي الأسبق روبرت ماكفرلاين ـ من ٢٥ إلى ٢٨ أيار/ مايو ١٩٨٦ ـ كانت مهزلة شائنة، مضحكة، تلفيقية، لم يدرك الأميركيون أنهم يقيمون بازاراً للرهائن ـ مما أوقع فادح الضرر بالرئيس ريغان، وبعلاقات أميركا مع العالم العربي. ويمكن الرجوع إلى تقرير وافٍ عن هذه الحماقة كتبته «لجنة البرج» حول هذه الفضيحة. مع العلم أن ذيول هذه القضية استمرّت لسنوات تلت، وأظهرت تفاصيل عن الصفقة السرّية للأسلحة، التي طُمست فيها هويّة الطائرات الإسرائيلية عن جوانبها، تلك التي نقلت صواريخ إلى مطاري «تبريز» و«بندر

(*) حُكم على شلبي في عمّان عام ١٩٩٢ بتهمة احتيال بمبلغ مقداره ستون مليون دولار أميركي ـ أنكرها، ثم هرب من الأردن في حقيبة صديق له. وبعد إحدى عشرة سنة، صار شلبي ذاته زعيم البرلمان الوطني العراقي المموّل من وكالة الاستخبارات الأميركية. وصار مرشّح «البنتاغون» لخلافة صدّام في زعامة العراق. ولكن صُرف النظر عنه بفظاظة بعد استطلاع رأي شعبي لم ينل فيه سوى ٢٪ من المناصرين العراقيين. وفي عام ٢٠٠٥ أصبح نائب رئيس مجلس الوزراء للعراق «الجديد».

عباس». ومن أبرز تلك التفاصيل ـ التي تبرهن على يأس إيران في الوقت ذاته الذي احتلّت فيه الفاو ـ مقتطفات من مخابرات تلفونية جرت بين «أوليفر نورث» في فرانكفورت، ومستشار الحكومة الإيرانية غير المسمَّى، في أواخر شهر شباط/فبراير ١٩٨٦. وقد يُسِّرت أشرطة هذه المكالمات لشركة التلفزيون الأميركية (ABC) في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩١؛ ويبدو أنها سُجّلت أيضاً في إسرائيل.

وعند مرحلة معيَّنة من الحديث، يناشد «نورث» مخاطبه بأن يطلق سراح أحد الرهائن المحتجزين في بيروت قبل متابعة إرسال الأسلحة. فيجيب الإيراني عبر أحد المترجمين: «يجب أن نحصل على صواريخ «هوك». يجب أن نحصل على تقارير مخابرات عن قوّة الجنود العراقيين. إن إيران في طريق التدمير. نحن بحاجة إلى تلك الصواريخ». وفي مقطع آخر من المكالمة، يحاول «نورث» أن يلطّف من واقع مقايضة السلاح بالرهائن، فيؤكّد للموظفين الإيرانيين ما يلي: «إذا استطاعت حكومتكم أن تعمل على إطلاق سراح الأميركيين المحتجزين في بيروت إنسانياً، فسيعقب ذلك فوراً خلال عشر ساعات، (وكرَّر)، فوراً خلال عشرة ساعات من إطلاقهم، وصول طائرة تحمل ما تبقى من قطع صواريخ هوك».

تسلّم الأميركيون رهينة واحدة؛ وربح الإيرانيون ملايين الدولارات من ثمن الصواريخ. وكما بيَّن علي أكبر رفسنجاني بسرور مغرور في طهران: «كعكة حلوى مع مفتاح مرزباني ـ أعدّت في تلّ أبيب، ولو لم يعرف الإيرانيون ذلك ـ وزوج من مسدّسات «كولت»، وتوراة موقّعة من ريغان. وآنذاك، كنتُ في طهران، أتابع هذه المفارقة المضحكة، فقد دعانا رفسنجاني إلى مؤتمر صحفي بتاريخ ٢٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٧، حيث وجدناه يحملق في كومة من الوثائق المنسوخة بالتصوير، وتحمل كلّ منها صورة صغيرة لماكفرلاين بحجم صورة الجواز. تجاهل رفسنجاني باعتزاز عشرات الصحافيين الواقفين حوله، وأشار إلى أحد المساعدين الذين يتكلّمون الإنكليزية بطلاقة وأمره بأن يتوجّه

نحو مراسل أميركي؛ ففعل. وبعد لحظات، سأل المراسل رفسنجاني، وهو واقف بدوره، ما الدليل الذي يثبت أن ماكفرلاين دخل إيران بجواز إيرلندي؟

فأمسك رفسنجاني الوثائق المصوّرة، ولوّح بها فوق رأسه، ومدّ يده بها إلى الموجودين، كتاجر سجّاد يقدّم نماذج مجّانية للزبائن. فمن جهة اليمين كانت صورة ماكفرلاين المشبوه، وعلى الصفحة التالية ظهر ما يبدو بوضوح أنه جواز سفر إيرلندي. فغمغم سكرتير رفسنجاني «لقد زوّروا الأوراق»، بينما مال معلّمه إلى الوراء في كرسيّه ذات الذراعين، وضحك بخفوت؛ وأعطاه بعض شعره الأجعد تحت عمامته مظهر البارع الماكر. ولكن نظرة واحدة إلى الصورة أقنعتني بأن ذلك لم يكن تزويراً رخيصاً. فقد شككت كثيراً في أن تستطيع وكالة الاستخبارات الأميركية تهجئة اللون البندقي لعينيّ ماكفرلاين باللغة الإيرلندية، أو حتى تهجئة المقابل الإيرلندي لكلمة «دبلن». مع العلم أن فبركة اسم ماكفرلاين الإيرلندي الوهمي ـ شين دفلن ـ كان خالياً من الخيال؛ لكنهم جعلوا منه كاثوليكياً على الأقلّ، وبعد انتهاء المؤتمر الصحافي لرفسنجاني مباشرة، أقلّتني سيّارة أجرة، وأسرعت إلى السفارة الإيرلندية، ومعي النسخة المصوّرة؛ فأرسلها القائم بالأعمال «نويل پورسيل أوبرن» فوراً إلى وزارة الخارجية في «دبلن». وتبيّن أن جواز ماكفرلاين لم يكن مزيّفاً تماماً، بل كان بين مجموعة من الجوازات التي سرقت من السفارة الإيرلندية في أثينا.

أما بالنسبة إلى التوراة، فقد أشرق وجه رفسنجاني بابتسامة وهو يرفع الكتاب أمام حشد من الصحافيين. والكتابة باليد عليه تبدو غير منتظمة على الصفحة بحسب الحروف اللاتينية، وكأنها عمل شخص مسنّ منقول عن رسالة القديس بطرس إلى «الغالاتيين» حيث يقول: «والكتاب المقدّس، يتنبّأ بأنّ الربّ يبرّىء المسيحيين بالإيمان، وقد بشّر إبراهيم بالإنجيل قائلاً: «ستتبارك كلّ الأمم بك». لكن الشكّ لا يرقى إلى التوقيع: رونالد ريغان، ٣ تشرين الأول/أكتوبر، ١٩٨٦». وذكر الشهر هامّ، نظراً لأن ريغان وعد بقطع كلّ الاتصالات مع الإيرانيين قبل ذلك التاريخ بوقت طويل.

ولكنّ رفسنجاني أنكر ذلك. فالتوراة أُرسلت بعد مهمّة ماكفرلاين بوقت

طويل، ومنذ شهر فقط كما أعلن رفسنجاني ـ وكان يتكلّم عن شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦ ـ عندما قابل موظف من وزارة الدولة الأميركية يسمّى «شارل دنبار» تجّار السلاح الإيرانيين في فرانكفورت، محاولاً بدء محادثات جديدة مع قيادة الثورة في طهران. وذلك صحيح بشكل لا يصدّق؛ مع أن «دنبار» الذي كان يتكلّم الفارسية يصرّ على أنه أخبر موظّفاً إيرانياً في فرانكفورت بأن لا مكان للأسلحة في هذه العلاقة.

وأردف رفسنجاني قائلاً: «وفي ما يتعلّق بالتوراة، لقد دُرس الكتاب من وجهة نظر الاستخبارات؛ وليس لدينا شعور مُعادٍ لإرسال ذلك الكتاب إلينا لأنه (ريغان) مسيحي يؤمن بهذا الدين، ولأننا مسلمون نؤمن بالمسيح وبالتوراة. وبالنسبة إليه كانت تلك نقطة مشتركة بيننا. ونحن نعتقد أن هذا الاستشهاد من التوراة، يدعو كلّ الناس من كلّ الأديان إلى الوحدة». لكنّ الإيرانيين رفضوا هدية المسدّسين، بحسب قول رفسنجاني. أما الكعكة فقد أكلها حرّاس المطار.

وإذا كان ماكفرلاين هو «شين دفلن»؛ فهناك عدّة شخصيات «لأوليفر نورث». فكان هناك أولاً أوليفر نورث «الوطني»، الذي يصفه ماكفرلاين بأنه «ضابط ملتزم عدواني صاحب مخيِّلة»؛ إنه «البطل» الشخصي الذي كرّسه ريغان. وكان هناك أوليفر نورث «رجل الربّ» الذي ولد مسيحياً مرة ثانية بحسب نظرة «كنيسة الرسل الأسقفية البروتستانتية» التي اعتقدت أن الإله شفى له جروحه في فيتنام، والذي «كان يعتقد أنه كان يخدم الله في عمله في مجلس الأمن القومي»؛ بحسب قول أحد المرتبطين بذلك المجلس. وكان هناك «أوليفر نورث»، «رجل الفعل» الذي يقدر أن يعمل ٢٥ ساعة في ٢٤ ساعة، والذي لُقّب «بالمطرقة الفولاذية» من قبل «روبرت أوين» رفيق السناتور «روبرت كايلي»؛ إذ إنه يطلق مذكراته من مركز الأزمات الذي هو على مستوى تقدّم الفنّ في هذا المجال، ضمن البيت الأبيض.

وكان هناك كذلك «أوليفر نورث» «السفّاك ـ السفّاح»، الذي يكتب مسوّدة التعليمات التي خوّلت وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) أن «تجمّد» الإرهابيين، وتدعم «الإضرابات الاستباقية» ضدّ البلدان العربية أو ضدّ الزعماء

الذين تعتبرهم أميركا مسؤولين عن مثل ذلك الإرهاب؛ كما تدعم أيضاً زمرة أخرى من الإرهابيين «الكونترا، المحاربين من أجل الحرية» في نيكاراغوا ـ مع عائدات صفقة لصالح زُمرة أخرى من الإرهابيين، يحتجزون رهائن أميركيين في بيروت. إن «أوليفر نورث» الذي حظي به الشرق الأوسط هو السفّاح(*).

وقد أخبر رفسنجاني الخميني بزيارة ماكفرلاين ونورث، بعد وصولهما إلى طهران. أما خليفة الخميني «آية الله حسين منتظري»، فأُبقي في جهل تامّ لهذا الأمر، ممّا جعله يستاء من ذلك أكثر من اغتياظه من شحنات الأسلحة. وعندما ناقش مجلس النواب الفضيحة، اشتكى الخميني من أن صوت النوّاب الجماعي كان «أقسى من صوت إسرائيل». فلم يكن يريد «إيران غايتس» (Irangates) في طهران.

وأثناء تغطيتنا للسنوات الأخيرة من الحرب الإيرانية ـ العراقية، مرَّت أوقات سبقتنا فيها الأحداث، ولم نستطع أن نفهم معناها. ولو فهِمنا، فإنّ فهمَنا يكون مقصوراً على ظاهرها. ومهما كان صدّام قاسياً في معاملته للعراقيين، فقد كان بوسعه أن يبرِّر كل ذلك بالأسباب الأمنية لحماية الوطن ـ في زمن الحرب. فقد علمنا مثلاً أن صدّام قد أكمل شبكة عملاقة من الطرقات عبر مساحة حوالى ٣٠٠٠ كيلومتر مربّع من مستنقعات «الحويزة»، وقطع كل أجمات القصب في المنطقة ـ ومع ذلك افترضنا أن ذلك تدبير أمني لحماية العراق من هجمات إيرانية جديدة، بدلاً من اعتباره حرب إبادة ضدّ عرب المستنقعات بذواتهم. وقد وُفّق سمير غطّاس في كتابة تقرير للصحافة المتحدة من بغداد ـ التي لم يعد هناك عاصمة أكثر قمعاً منها ـ أعلم فيه العالم بالإشارة إلى حملة إبادة جديدة ضدّ الأكراد. وكانت رسالته الصادرة بتاريخ ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧، قد صيغت بعناية، ونُسبت إلى الدبلوماسيين الغربيين ـ أولئك الأشباح الذين

(*) يمكن الرجوع إلى أشمل تقرير عن حياة «أوليفر نورث» ومهنته في كتاب «بن برادلي الصغير»: «الشجاعة والمجد: صعود وهبوط «أوليفر نورث»» (دار نشر غرافتون (Grafron) في لندن عام ١٩٨٨. مع العلم أن المؤلّف ارتكب بعض الأخطاء الساذجة حول الشرق الأوسط، وأنه يتبنّى نظرة مناصرة لإسرائيل في المنطقة.

يستخدمون الصحافيين، كما يستخدمهم الصحافيون ـ ولكنّ من قرأ التقرير أدرك أن هناك فظاعات تُرتكب. فقد قال فيه: «دمَّرت القوّات العراقية مئات من القرى الكردية في شمالي العراق، وجنّدت آلافاً من الأكراد في حملة ضدّ رجال العصابات المدعومين من إيران. . .».

وها هو نضال صدّام ضدّ إيران يتجدّد. فرجال العصابات كانوا طبعاً من الأكراد ـ وشكّلوا حجّة لتبرير جريمة الحرب هذه. وقد حاول غطّاس أن يشير إلى ابن عم صدّام «علي حسن المجيد» ـ الذي سيعرف بلقب «علي الكيماوي» ـ على أنه الرجل المسؤول، واستشهد بسفير لم يذكر اسمه يقول إن ما لا يقلّ عن ٣٠٠٠ قرية قد مُسحت. وتكلّم عن تفجير القرى وتهديمها بالجرّافات والتركتورات؛ كما ذكر ادّعاء الأكراد بأن العراقيين يستخدمون الغاز السامّ، وأضاف أن التلفزيون العراقي ذاته عرض شريطاً عن عاقبة إحدى الغارات، حيث كانت «جثث المدنيين منتشرة على الطرقات المدمّرة». كما ذكر «غطاس» أيضاً أن «معظم الدبلوماسيين استبعدوا حصول قتل جماعي» ـ وهذا الشك هو سوء نقل للأخبار، صادر عن الدبلوماسيين في بغداد.

وفي الخليج، كان صدّام يحاول أن يقضي على كفاءة إيران في تصدير النفط. ففي آب/أغسطس ١٩٨٦، خرّب الطيران العراقي المحطّة الطرفية لتحميل النفط وتصديره في جزيرة «سرِّي»، ودمّر ناقلتي نفط عملاقتين، وقتل أكثر من عشرين بحّاراً، وألزم إيران بنقل تسهيلات التحميل إلى جزيرة «لاراك» المتلاطمة الأمواج قرب مضيق «هرمز». وهبط تصدير إيران من النفط من ١,٦ مليون إلى ١,٢ مليون برميل يومياً. كما أن الغارات العراقية على جزيرة «خرج»، التي تبعد أقلّ من مئة ميل عن جبهة القتال خارج البصرة، أوقعت أضراراً جعلت ١١ من أحواض التحميل البالغ مجموعها ١٤ غير صالحة. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، صار العراقيون يستعملون طائراتهم النفّاثة من طراز «ميغ» لقصف جزيرة «لاراك»، قبل أو بعد تزوّدهم بالوقود من العربية السعودية سرّاً، في طريق ذهابهم أو عودتهم. كما أن سلسلة من الغارات العراقية على المدن الإيرانية قتلت ١١٢ شخصاً، بحسب المصادر الإيرانية؛ فردّت إيران

بصواريخ «سكود» على بغداد، وقتلت ٤٨ مدنياً، بمن فيهم ١٧ امرأة، و١٣ ولداً. وحمَّل العراق إيران مسؤولية خطف طائرة عراقية في رحلتها من بغداد إلى عمّان، بتاريخ ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر، انتهى بسقوط الطائرة في الصحراء، بعد أن انفجرت قنابل يدوية في مقصورة الركاب. ولم ينجُ من ركّابها وطاقمها البالغ عددهم ١٠٦ سوى ٤٤ شخصاً. وفي اليوم ذاته، نزل الإيرانيون على أرض جزيرة «أمّ الرسَّاس» في شطّ العرب، التي هربتُ منها مع «بيار بايل» ونجونا بأنفسنا، منذ أكثر من ستّ سنوات.

وبسبب سلسلة من الاعتداءات على السفن التي ترفع العلم الكويتي تطوّع الاتحاد السوفياتي لحمايتها ـ ممّا أطلق فوراً اقتراحاً مماثلاً تقريباً من قبل الرئيس ريغان. وصارت الكويت تحسّ الآن بأن نَفَس الحرب صار أقرب إليها. وباتت صواريخ «دودة القزّ» الإيرانية تهبط على أراضي الكويت، بعد إطلاقها من الفاو بفاصل زمني قصير. وفي ليلة من الليالي، كنتُ راقداً في فراشي بفندق «مريديان» في الكويت، متعجّباً من صرير النوافذ والأبواب باستمرار، حين أدركت أن إطلاق المدافع خارج البصرة صار يتردّد صداه فوق مياه الخليج العليا ويصل إلى مدينة الكويت. وكان الكويتيون يجدون يومياً تقريباً جثثاً لإيرانيين تقاذفتها الأمواج إلى شواطئهم من شبه جزيرة الفاو الواقعة على الطرف الثاني من الممرّ المائي.

وبينما كان الأميركيون يضغطون في الأمم المتحدة من أجل حظر إرسال الأسلحة إلى إيران، كان موظفو الحكومة الإيرانية يحاولون الحصول على شحنات كبيرة من الأسلحة في برنامجهم. وقد أراني تجار سلاح في ألمانيا والنمسا مئات الصفحات المرسلة من قبل «مؤسّسة الصناعة الدفاعية القومية» (INDIO) الإيرانية، يطلبون فيها بإلحاح آلافاً من صواريخ «تاو» المضادّة للدبّابات ومن صواريخ مضادّة للطائرات لتحميلها على طائرات (F-14) الإيرانية. وكان الإيرانيون يعرضون مبلغ عشرين مليون دولار أميركي، في طلب واحد لمدافع عيار ١٥٥ ملم، مع ٢٠٠ ٠٠٠ قذيفة، بسعر ٣٥٠ دولاراً للقذيفة الواحدة.

خاف ملك الأردن حسين مما سمَّاه «كابوسي» أي هزيمة العراق وانتصار الإيرانيين الوشيك، فاستضاف في قاعدة جوّية لديه يرمز إليها بـ (H4)، كلّاً من صدّام حسين وحافظ الأسد رئيس الجمهورية السورية، آملاً أن يقنع الأسد بالتخلّي عن تحالفه مع إيران. فقضوا تسع ساعات من المحادثات بين الدكتاتورين: العراقي والسوري، اللذين يتبادلان الكره للملك؛ ولم تُفضِ جهودهما إلّا إلى أن يجتمع وزيرا خارجيتهما؛ فمكانة الملك السياسية المحدودة كانت دائماً تنعكس عليه. وكانت جهوده قيِّمة دائماً بمظهرها لا بنتائجها. ألم يحاول أن يضع حدّاً لحرب الخليج بدعوته القادة العرب إلى الوحدة؟

وقبلت الكويت الآن عرض ريغان بأن ترفع ناقلات نفطها علم التقليم والنجوم (الأميركي). وقرّرت واشنطن أن تبهرج سياستها الجديدة الاستفزازية بمرافقة ناقلة النفط العملاقة «بريدجتون» البالغة حمولتها أكثر من أربعمئة ألف طنّ (٣٨٢ ٤٠١) صعوداً في مياه الخليج حتى الكويت. فتزاحم موظفو التلفزيون من أنحاء العالم ليستأجروا مروحيّات من دولة الإمارات العربية المتحدة لمتابعة هذه القصّة الاستثنائية. طرتُ إلى دُبي بتاريخ ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٨٧ على طيران الشرق الأوسط من بيروت. وقد تكرّم عليّ طاقم الطائرة بدعوتي للجلوس في مقصورة الربّان، حيث استطعت أن أرى على علوّ ١٠ آلاف قدم الناقلة «بريدجتون» تزيد عقدة إضافية على سرعتها القصوى البالغة ١٦,٥ عقدة؛ وتحوم حول هيكلها ثلاث سفن حربية صغيرة في دوائر قُطرها ثلاثة كيلومترات. فكتبت إذ ذاك في مفكّرتي بازدراء: «الدجاجة الأمّ محاطة بصغارها». واستعدّ الأميركيون للقتال عندما صاروا تحت مرمى صواريخ «دودة القز» الإيرانية، وعند جزيرة «أبو موسى» حيث توجد قاعدة لحرّاس الثورة.

كان ذلك إخفاقاً تاماً. فقد اصطدمت الناقلة «بريدجتون» بلغم من جانبها الأيسر، جنوبي شرقي الكويت، وعلى بُعد مئتي كيلومتر من وجهتها المقصودة. وسارت سفن المرافقة وراءها، لتتفادى مصير «ستارك» التي أصيبت منذ شهرين. وعلى ظهر المدمّرة الأميركية المرافقة «كيد»، وضع القائد بحّارة مسلّحين على

مقدَّمة السفينة وأمرهم بأن يدمّروا بالرشاشات أيّ شيء في الماء يشتبهون به. وكانت هناك زوارق صيد إيراينة في المنطقة قبل إصابة «بريدجتون»؛ ولكن لم تكن هناك طريقة لاكتشاف اللغم. وهذا ما سمح لرئيس وزراء إيران «مير حسين الموسوي»، بأن يمدح «الأيدي الخفيَّة» التي أثبتت قابليّة العطب «للحملة الأميركية العسكرية». وعلى أثر الحادث خفّفت «بريدجتون» سرعتها بنسبة الربع؛ بينما كانت المقصورة الأولى في ميسرتها لا تزال مغمورة بالماء، وتابعت سيرها الذي أصبح طابعه سياسياً بدلاً من أن يكون تجارياً، باتجاه الكويت.

ورشحت لنا أخبار مفادها أنه ليس للأميركيين من كاسحات ألغام في المنطقة؛ كما أنهم لم يهتمّوا بتحرّي وجود ألغام في القناة التي أصيبت فيها الناقلة وعرضها ٣٠ كيلومتراً؛ وهم خائفون من أن تصاب سفنهم الحربية الأكثر تعرّضاً لخطر الألغام من السفن التي جاؤوا لحمايتها. وقد قام الموظفون الكويتيون والأميركيون بتحميل الناقلة «بريدجتون» بالنفط الخام؛ وهو عمل سياسي، عبَّر عنه أحد وكلاء النقل البحري مزدرياً بقوله: «أيّ ذي عقل سليم يحمِّل بضاعته على سفينة معطوبة؟». وازدادت القصّة الحزينة المتعلّقة بعدم التهيّؤ العسكري سوءاً عندما عمد «يونكرز» قائد السفن الثلاث الحربية ـ المدمرة «كيد»، وفرقاطتين ـ إلى الإقرار بلطف أنه لا يرغب في أن يعود على الخط البحري ذاته لأنه ليس لديه إمكان حماية سفنه من الألغام. وتفاقم وضع هذا التصريح بكلام العميد البحري «هارولد ج. برنسون» الذي أخبر المراسلين المرافقين للقافلة ما معناه: «قد يبدو متناقضاً القول بأن سفينة كبرى غير حربية، مثل «بريدجتون» قد تكون أقلّ تعرّضاً لخطر الألغام من سفينة حربية... وإذا كانت الناقلة ضخمة، فمن الصعب إيذاؤها بلغم واحد، يمكن أن تتجاوزه. وهذا أفضل دفاع؛ وقد فعلنا ذلك». واستدعت هذه التصريحات سؤالاً واضحاً: إذا لم تكن البحرية الأميركية قادرة على حماية نفسها، دون الاختباء وراء سفينة مدنية، فكيف تدَّعي أنها تحافظ على حرية الملاحة في الخليج؟

وكانت هذه القصّة مُحبطة لمراسلي الصحف؛ إذ لا يمكن من الشاطىء رؤية أسطول الناقلات ومرافقاته. ولا تتيسّر مراقبة هذا النزاع الهائل إلّا من

الطائرات. فقد امتدّت الحرب الإيرانية ـ العراقية الآن من جبال كردستان على الحدود التركية على طول الخط إلى شاطىء شبه الجزيرة العربية، الأرض التي كانت جزئياً تحت سلطة الشريف حسين في مكّة، الذي أقنعه «لورنس» بأن ينضمّ إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. ومن الأسئلة الملحّة هنا: كيف نكتب عن النار والدمار الشاملين، إذا لم نستطع أن نراهما؟ فشبكات التلفزيون بميزانية تفوق مليون دولار لكلّ منها، استخدمت طائراتها الخاصّة. فهي بحاجة إلى صور، لا نحتاج إليها نحن. ولكنني في الحرب اللبنانية التي دخلت الآن عامها الثالث عشر، تصاحبت مع عدد من طواقم تلك الشبكات التلفزيونية ومنتجيها ومخرجيها الذين يحملون أفلامهم إلى دمشق أو إلى قبرص ليرسلوها بالأقمار الصناعية إلى الولايات المتحدة الأميركية. وقد سمحت لي شبكة (NBC) الأميركية لحسن الحظّ، أن أسافر في مروحية لها خارج دُبي ـ إذا تصرّفت «كمستكشف» إضافي للسفن على الممرّات البحرية التي يغطّيها السديم.

كانت هناك أربعون سفينة حربية تستعدّ لدخول مياه الخليج وخليج عمان خارج مضيق هرمز؛ وهي آتية من الولايات المتحدة الأميركية، وفرنسا، والاتحاد السوفياتي؛ لكن الأسطول الأميركي المؤلّف من ٢٤ سفينة كان هو الأضخم، وعليه ١٥٠٠٠ رجل، بما في ذلك البارجة الحربية «ميسوري». وقد جاءت أفضل السفن فيه. وكان أحد أكبر الأساطيل البحرية الأميركية منذ حرب كوريا، والأكبر منذ حرب فيتنام. وكل هذه السفن جاءت لتضمن حرّية الملاحة في الخليج «لأصدقائنا العرب» ـ وبالتالي للعراق ـ ولكنها لن تفعل شيئاً لحماية الملاحة الإيرانية. وليس مفاجئاً أن يعمد الإيرانيون للإعلان عن «عمليّة الاستشهاد» ذات المناورات البحرية أمام الشواطىء الإيرانية، مع التحذير بأن «الجمهورية الإسلامية لن تكون مسؤولة عن حصول حوادث ضدّ الطائرات والسفن الحربية الأجنبية التي تمرّ في المنطقة».

ومن مقعدي في مروحيّة شبكة (NBC)، سنحت لي الفرصة من هذه المنصّة أن أراقب المدى الملحمي لهذا النزاع. خرجنا من دُبي وطرنا على علوّ صواري السفن تقريباً، وسرنا عبر مئات من الناقلات وحاملات الغاز، الراسية على

مسافة أميال في البحر؛ بعضها كحيوانات ضخمة قشدية اللون، قرب سفن شحن، ومراكب قديمة محمَّلة بالرافعات وتجهيزات النقل بالعربات. ولا تظنَّن أنها تؤخّر انطلاقها بسبب التهديدات الإيرانية؛ فهي تخضع لأوامر الانتظار حتى ترتفع أسعار النفط لهذه المنطقة. لكن الحرّ اللافح عبر الخليج جعلنا نتخبّط في سيرنا ونخطىء في رؤية السفن الحربية ضمن ذلك الضباب الرقيق، فنسمع بمكبّرات الصوت: «هذه سفينة حربية أميركية، نطلب منكم أن تبقوا على بعد عقدتين بحريتين. حوّل». أما الصوت على الراديو فهو بلهجة الشاطىء الأميركي الشرقي، واقعي مختصر مفيد، دون الإعلان عن هوية الشخص. «السفينة الحربية الأميركية. طيّب. نخرج».

رأيناها منتشرة بغرور على مسافة ستة كيلومترات ـ ثلاث ناقلات نفط بشكل (٧)، والسفن الحربية على المسافة ذاتها من الناقلات ـ ظنَّنا أننا في مهرجان سباق للمراكب، وليس في رحلة مخاطرة تسير صعوداً في الخليج. والناقلات الأجنبية منتشرة حولها، بعضها ينفث دخانه، وبعضها الآخر، يمتطي المدّ والجزر بانتظار أوامر أسياده، وكان ذلك منظراً مألوفاً من صدى الأيام الخوالي عندما كانت القوافل الكبرى تنطلق عبر المقاربات الغربية (Western Approaches)، منذ ٤٦ سنة خلت. وكان هناك ثلاث سفن مسجّلة في أميركا حديثاً: «غاز كنغ»، و«سي آيل سيتي»، و«أوشن سيتي» ـ ولكنها لا تلفت النظر كرموز لعزم أميركا السياسي في الخليج، إذ إنها سيّئة الطلاء، يظهر بعض الصدأ على أجسامها. ولم يرفع العلم الأميركي بعد على مؤخّراتها. والسفن الحربية الأميركية: «كيد»، و«فوكس»، و«ڤالي فورج» تحاذي مؤخّراتها أو وسطها، بينما سفينة أميركية أخرى تقف استعداداً للطوارىء. كان في كل هذا عنصر مسرحي، لهذه التشكيلة الأنيقة الصغيرة من ناقلات النفط الفارغة ومرافقاتها الغبراء، مسترخية في البحر الحارّ، بانتظار رفع الستار عن مسرحية هزلية أو مأساوية.

ظهر ضوء ذهبيّ ساطع صغير إنما فجائي على متن سفينة «ڤالي فورج»، وصعد منها صاروخ ضوئي جميل فوق البحر ثم تاه بغير انتظام نحو الأمواج.

وصاح بنا الصوت المختصر من جديد بنبرة أعلى ترنّ في سمّاعاتنا. «أنتم الآن ضمن عقدتين بحريّتين. نطلب منكم الخروج. حوّل». وأتت إلينا الآن من «ڤالي فورج» مروحية كبيرة مضادة للغوّاصات من طراز (SH 603) تسترعي الانتباه بمحرّكَيها عند صعودها. جاءت قربنا، وحملق فينا طاقمها من وراء الستائر، وأشارت إلينا يد من داخلها ببطء أن نبتعد عن السفن. وعند الساعة التاسعة صباحاً، بدت سفينة حربيّة، لها مدخنة طويلة ومسطّحة، مع جهاز إطلاق صواريخ «إكزوسيت» على ظهرها، وهي تمخر عُباب اليمّ في مؤخّرة القافلة الأميركية. إنها فرقاطة بريطانية من «دورية أرميلا» في الخدمة الناشطة لصاحبة الجلالة؛ تحافظ على مسافة متحفّظة من المقامرة السياسية الأميركية الأخيرة، تلك المسافة التي قد توافق عليها رئيسة وزراء بريطانيا «مرغريت تاتشر»، ألا وهي ميل بحري واحد من أقرب سفينة أميركية.

كان غضب إيران يزداد(*). وبدأ حرس الثورة يهاجمون السفن التجارية غير المرافقة، بقاذفات قنابل؛ إذ يقتربون منها بقوارب ذات محرّكات، آتين من جُزر إيرانية صغيرة في الخليج، ثم يفتحون النار عليها عن كثب. وطيلة هذا الوقت اتّسعت هوامش الخطأ. ففي منتصف شهر آب/أغسطس، أطلقت طائرة حربية أميركية في الخليج صاروخين على «طائرة» إيرانية، تبيّن فيما بعد أنها مجرّد سراب بفعل الحرّ. وبعد أسبوعين، أطلق الكويتيون صاروخ أرض ـ جوّ على غمامة منخفضة لأن الرطوبة جعلت شكلها يشبه شكل طائرة نفّاثة على شاشة الرادار عندهم.

وقامت حشود بنهب السفارة السعودية في طهران، لكنّ المظاهرة «المعنوية»

(*) ليس بسبب وقوف مزيد من الدول الغربية إلى جانب العراق في الحرب. فقد قتل ٣١٧ إيرانياً خلال موسم الحج إلى مكة بتاريخ ٣١ تموز/يوليو ١٩٨٧، ادعت ايران أن رجال الشرطة السعوديين أطلقوا عليهم النار. وجاء في التقارير الأولية أن الحجاج سحقوا بتأثير فرار جماعي مذعور عبر ممرَّات ضيقة قرب المسجد الكبير، عندما امتزجت مظاهرة إيرانية سياسية بالانفعال الديني، والغضب من رجال الأمن السعوديين الذين يلبسون بذلات سوداء. وفي عام ١٩٨٦، قال السعوديون إنهم اكتشفوا متفجرات في أكياس ١١٣ حاج وحاجة من الإيرانيين، لكن رئيس جمهورية إيران «علي خامنئي» وعدهم بأن لا يتكرر ذلك عام ١٩٨٧.

التي جرت احتجاجاً على موتى مكّة، ضمّت بعض صانعي الأقفال من الحدَّادين الذين استطاعوا سلب أربعين ألف دولار أميركي من النقد الموجود في سرداب السفارة. وهدّد السعوديون بتخفيض سعر النفط بغية الإضرار بالاقتصاد الإيراني؛ لكن كان هذا سلاحاً مُحبطاً. والعراق على شاكلة إيران يعتمد على صادرات نفطه لتمويل الحرب، دون احتياط يُذكر من النقد الأجنبي. وقد ارتفع دينه الخارجي إلى ستّين مليار دولار أميركي. ورأت الكويت أن ما ربحته من حماية الأميركيين لناقلاتها والبالغ ١٧ مليون دولار أميركي، قد تبخّر بين ليلة وضحاها. وهكذا بقي العرب عرضة للخسائر المالية، كما اعتقدوا أنهم يخسرون عسكرياً.

واكتُشف الآن مزيد من الألغام في الخليج. وانفجر أحدها بالناقلة العملاقة «تاكساكو كاريبيين» خارج الفُجيرة في خليج عُمان، على بُعد من الخليج العربي، فأحدث الانفجار ثغرة كبيرة في خزانها الثالث تكفي لمرور سيارة عائلية منها. وحصل مزيد من الإدانة لإيران، دون إشارة تُذكر إلى أن تلك السفينة كانت تحمل نفطاً خاماً، حمَّلته من جزيرة «لاراك» الإيرانية. واستثار هذا الانقضاض بالألغام غضباً شديداً لدى واشنطن، على شاكلة ما حدث للسفينة «ستارك» من ضرب بالصواريخ العراقية: ويُظنّ أن الإيرانيين باتوا يفجّرون الألغام بناقلاتهم هم، ضاربين عرض الحائط بالسلام العالمي، كما اتُّهموا بذلك دائماً. وبالتأكيد، تكلّم وزير خارجية بريطانيا بعد أيام عن نظام طهران «غير العقلاني».

ومن بين كلّ الناس، وجد طاقم شبكة التلفزيون الأميركية (NBC) لغمين آخرين. فبينما كان «ستيف أونيل» يتجول بمروحيّته المعهودة على مستوى منخفض لمح جسماً كروياً أسود لجهة مزلجة الطائرة إلى اليسار. وكانت الطائرة على علو أمتار قليلة عن الماء، وسرعتها تبلغ ١٥٠ كيلومتراً في الساعة. ولكن الشيء المكتشف كان مشؤوماً جدّاً ـ كما هو مألوف في عشرات الأفلام السينمائية ـ ليكون أي شيء آخر غير اللغم. وبعد ساعات قليلة، وفي ظروف مماثلة تقريباً، وجد طاقم (CBS) لغماً آخر مطلياً بالأسود مثل اللغم السابق،

لكنه مربوط إلى الأسفل بسلسلة. وقد أشار التقنيون العسكريون الصينيون الذين يعملون مع الإيرانيين إلى أن إيران أنشأت قرب مرفأ «بندر عبّاس» مصنعاً لتحسين الألغام القديمة التي اشتروها، والتي كانت قد صُنعت أصلاً في روسيا القيصرية ـ فتأمّل في هذا المدّ الإمبريالي.

وفي نيسان/أبريل، كادت تغرق السفينة الحربية الأميركية المسمَّاة «صموئيل بو روبرتس» عندما اصطدمت بلغم، أثناء قيامها بدوريّتها في الخليج. وبتاريخ ٢١ أيلول/سبتمبر، انبرى العميد البحري «برنسون»، وهو الضابط الخنوع ذاته الذي قبل أن تسير سُفنه الحربية وراء ناقلات نفط عملاقة لحمايتها من الألغام؛ وقرَّر القيام بهجوم على المركب الإيراني «إيران فجر»، الذي كان تحت المراقبة وتبيّن أنه يزرع ألغاماً في الخليج على بعد ٨٠ كيلومتراً شمالي شرقي البحرين؛ على أن تقوم بهذا الهجوم مروحيّات «وطواط البحر» المجهّزة «بالسونار»، انطلاقاً من السفينة الأميركية «جاريت»، أخت السفينة «ستارك»، ويا للصدفة التاريخية! وقد جاء المراسلون الذين استقدموا فيما بعد للزيارة، وعاينوا المركب الإيراني ـ الياباني الصنع منذ تسع سنوات، وغير الرومانسي، والذي يُفتح ويُغلق عند الإنزال إلى البرّ ـ وشاهدوا عشرة ألغام كبيرة مطليّة بالأسود وتحمل الرقم المتسلسل (MO8)، قرب مؤخّرة المركب، مع مزلاقة خاصّة مربوطة بسطح المركب، بحيث يستطيع الطاقم أن يدحرجها في البحر. ورأوا ثقوب الرصاص على سطح المركب، ومقصوراته، وهيكل جسره، مع آثار دم في الممرّات. وقد قُتل في الهجوم ثلاثة من طاقم المركب المؤلّف من ثلاثين إيرانياً، وفقد اثنان يعتقد أنهما ماتا، وجُرح أربعة، إثنان منهما بحالة خطرة. وقد كذّب رفسنجاني الادّعاء الأميركي بأن إيران تزرع ألغاماً في البحر؛ ولكن من الواضح أن ذلك حصل. مع العلم أن الإيرانيين عادوا وتراجعوا عن ادّعائهم بأنّ مركب «إيران فجر» كان بريئاً. وقد اطمأنّ صدّام حسين الآن إلى أن الأميركيين وقفوا إلى جانب العراق، كمحاربين للإيرانيين.

وتابعت الولايات المتحدة عملها بعد نجاحها ضدّ زرع الألغام الإيرانية بثلاثة أسابيع عن طريق ضربة بحرية ضدّ منصّتين إيرانيتين نفطيتين، تقعان في

البحر على بعد ١٣٠ كيلومتراً من قطر. فقد أطلقت أربعة طرَّادات للصواريخ الموجّهة مدافعها من عيار ٥ إنشات قذائفها على منصّتي «رستم» و«رخش» فدمّرتهما. وسمّى وزير الدفاع الأميركي «كاسبار واينبرغر» هذه العملية «استجابة مدروسة على القياس»، ردّاً على هجوم بالصواريخ حصل الأسبوع الماضي على ناقلة ترفع العلم الأميركي. وكلّ ما صدر أولاً عن الإيرانيين بهذا الخصوص، كان صوتاً إيرانياً بعيداً بالراديو المقرقع يطلب وقف إطلاق النار لإخلاء الجرحى من أحد التجهيزات التي لا تزال النار تشتعل فيها. وكانت المنصتان قد استُعملتا كقاعدتين بحريّتين من قِبل حرّاس الثورة، بحسب قول الأميركيين. وقد حذّرت طهران الولايات المتحدة الأميركية، دون كبير مصداقية، من أن ردّها سيكون ساحقاً.

ولمّا كانت هذه الأفعال العسكرية قد ورّطت القوى الغربية، فقد قلّ الاهتمام المُعطى لأمر أخطر، ألا وهو وقوع كثير من الضحايا في الحرب البرِّية، حتى عندما يكون الضحايا من المدنيين. وعلى سبيل المثال يُذكر أنه بتاريخ ١٢ تشرين الأول/أكتوبر سقط صاروخ إيراني أرض ـ أرض موجّه كما يدّعون إلى وزارة الدفاع العراقية في بغداد، على مدرسة ابتدائية في ساحة الشهداء، التي تبعد ٢٠ كيلومتراً عن الوزارة، بينما كان التلاميذ يتجمعون للدخول إلى الصفوف صباحاً. فقتل الانفجار ٢٩ ولداً وجرح ٢٣٨ مدنياً آخرين، منهم ١٠٠ في حالة خطرة. وكان العراق قد أوحى باستعمال الأسلحة الكيميائية ضدّ القوّات الإيرانية، خارج البصرة؛ ولكن ذلك لم يمنع العراقيين من التركيز على إدانتهم المباشرة لهذا الدليل الجديد على «وحشية الإيرانيين».

وكان من نصيب البصرة أن تحدِّد هويّة هذه المرحلة الأخيرة والوحشية من الحرب. فهي بالنسبة إلى الإيرانيين بوّابة جنوبي العراق، والطرق بذاتها المؤدّية إلى مزارات كربلاء والنجف والكوفة التي تغري الجنود و«الباسداران» الإيرانيين، الذين ما زالوا محبوسين في أطلال الفاو المدمّرة. ولكن العراق كان لا يزال يحتفظ بجيش قوامه ٠٠٠ ٦٥٠ جندي موزّعين على سبعة ألوِية من

السليمانية إلى جبهة القتال خارج الفاو. ويشكِّل الحرس الجمهوري والقوّات الخاصّة ٣٠ ألفاً منهم؛ فضلاً عن الجيش الشعبي من «المتطوّعين» البالغ عددهم ٤٠٠ ألف جندي. أضف إلى ذلك «الجيش العربي»، وقوامه ٢٠٠ ألف جندي أكثرهم من مصر، لاستكمال صورة القوة العراقية. ولكنّ الإيرانيين حشدوا ٦٠٠ ألف جندي مقابل البصرة. فصار مفروضاً على المشير صدّام حسين رئيس جمهورية العراق، ورئيس الوزراء، والأمين العامّ القطري لحزب البعث العربي الاشتراكي، ورئيس مجلس الثورة، أن يقوم بأحد انسحاباته المشهورة.

وعندما اخترق الإيرانيون الخطوط العراقية باتجاه البصرة في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٧، أرادوا أن نشهد ذلك. فجاءوا بنا إلى خلف الخطوط الإيرانية، و«باصنا» يسير بجلبة عبر الوديان ساعة بعد ساعة عبر الظلام الدامس، وسط جيش جرَّار من الجنود الذاهبين إلى جبهة القتال، تحت رهبة الموت والجراح، بينما الأفق يلمع بنار المدفعية. وقبل عدّة سنوات، قاد أحد المراقبين من الوزارة مصوّراً من مكتب «رويتر» إلى حقل ألغام، فانفجرت فيهما كليهما وصارا أشلاء. فأعلن الإيرانيون مراسل «رويتر» شهيداً، وأرادوا أن يرسلوا إلى أرملته كتاباً لمَّاعاً بالصور الملوّنة التي تظهر جثث الشهداء في مراحل مختلفة من تقطيع الأوصال والتعفّن؛ ولكنّ العقلاء تداركوا ذلك قبل فوات الأوان. قضيت تلك الليلة على أرض رملية في غرفة بيضاء محصَّنة، قُدِّم لنا فيها العصير و«الدوك» أي لبن الزبادي البارد أو «العيران»، مع خبز «نان»، والجبن، والشاي؛ وبقيت كالعادة أرقاً تحت حرامي. وقبل الساعة السادسة صباحاً من اليوم التالي، جاء حرّاس الثورة ليأخذونا إلى «الجبهة»؛ فصعدت بسأم الدرج الشديد الانحدار إلى الشمس والحرّ وزمجرة إطلاق المدافع وصوت الانفجارات الثقيلة للقذائف التي سقطت عندنا. كانت «دزفول» شاشة عرض عريضة «سينما سكوب». وكانت «الفاو» مدمَّرة. ولكنها كانت ملحمة الآلاف، إذ كانت الدبّابات والشاحنات تتدفّق غرباً مع مئات من الجنود الإيرانيين الجالسين على الدروع وسيّارات الشحن المكشوفة، أو الماشين قربها. وجزعتُ لأنّ مرافقنا لم يكن سوى علي مازينان، ضابط الحرس الثوري، لابس النظّارة المخبول،

المشغوف بتصدير التمر، الذي أرسلني بتلك الرحلة الجنونية بالمروحية إلى «الفاو». تقدّم مني بأحرّ العواطف والابتسامات، وضمَّني معانقاً ضمّة الدب الأشيب، وقبّلني على الخدّين. وفي مثل هذه الحال، لم يكن هناك ما هو أنسب للمراسل من قول «كولريدج» عن «الوقف الإرادي للتكذيب». ولم يكن هناك أفضل من الإيمان بالشِّعْر للاعتصام به خلال الساعات القليلة القادمة.

كانت «بُحيرة السمك» عبارة عن مُنبسط من الصحراء يقع شمالي نهر كارون، وغربي «شلمشه» ـ المركز الحدودي الذي فقدتُ فيه جزءاً من سمعي بفعل صوت المدافع العراقية التي كانت تقصف «خرمشهر» آنذاك، منذ أكثر من ستة أعوام ـ ولكن «شلمشه» الآن عادت إلى أيدي الإيرانيين، واتجه الجيش الإيراني نحو نهر شطّ العرب والبصرة. وهكذا عدتُ مرة ثانية إلى «الأرض العراقية المحتلّة من قِبل الإيرانيين»؛ ولكن في الصحراء التي أغرقها العراقيون بالمياه عند انسحابهم. ولذلك بات الإيرانيون يتقدّمون الآن على سلسلة من السدود والممرَّات التي تعلو مستوى الماء في الصحراء المشبعة به، وتحت قصف قويّ ومستمرّ من المدفعية العراقية، التي اهتدت فوراً إلى مواقع السدود والممرّات، كي تضربها بقنابلها.

وقد وفَّر الإيرانيون للصحافيين سيّارة شحن مكشوفة أخرى من صُنع اليابان، مع مجموعة من الخوذ الفولاذية القديمة الملقاة في إحدى الزوايا، كي نلبسها متى وصلنا إلى ساحة القتال. سرنا بسيّاراتنا بين السواتر الترابية والمخابىء وخطوط الخنادق، بينما كان جنود الجمهورية الإسلامية يمشون قربنا، وهم يبتسمون، ويلوِّحون بإشارات النصر، رافعين رشّاشاتهم كالأبطال الظافرين. وهذا ما آلت إليه حالة الضحايا الذين عادوا وانتصروا على المعتدين كما اعتقدوا، بعد سنين من العذاب والضياع. وفجأة، حالما تسلّقنا مرتفعاً صخرياً، رأيت رؤوس صواريخ «هوك» المهداة من قبل «أوليفر نورث»، مع قِطع غيار، والتي عزّزت الدفاع الجوّي للجيش الإيراني الظافر.

ثم عدنا إلى الممرّ المعبَّد؛ وهو سدّ متداع من الرمل، تحيط به بُحيرات ضحلة، لا تزال تشتعل فيها بعض الدبّابات العراقية، وترتمي فيها بعض قاذفات

الصواريخ، وشاحنات للجنود العراقيين، مغمورة إلى نصفها بالماء، وعشرات الجثث، لا يبدو من بعضها سوى القدمين فوق المستنقع. ولكنّ المخيف أكثر من ذلك، كان التعرّض لقذائف المدفعية العراقية الموجّهة إلى السدود والممرّات. شددت على رأسي خوذتي الروسية التي أعطاني إيّاها الإيرانيون؛ فقد أصيبت أمامنا شاحنة، اندلعت فيها النيران الوردية، وارتمى بعض من فيها في الماء، والنار تشتعل بثيابهم. تراجعت القافلة الآن، وتوقّفت شاحنتنا؛ ونحن نسمع وقع القنابل في البُحيرات الضحلة حولنا، و«طرطشة» الماء والوحل فوقنا.

كان «إيان بلاك» من «الغارديان»، أحد المراسلين الذين يمكن أن يذهب المرء معهم إلى الحرب، جالساً قُبالتي في الشاحنة، ينظر إليّ نظرات فاحصة من خلال نظّارته، قال: «هذا وضع خطر جداً»؛ فوافقت. وحولنا، على أكمات صغيرة وسط بُحيرات الماء الكبرى الزرقاء المائلة إلى الاخضرار، كان رجال المدفعية الإيرانية يطلقون قذائف من عيار ١٥٥ ملم باتجاه البصرة، ولم يكن أولئك الصبيان الإيرانيون يهتمّون بلبس خوذهم خلال القصف؛ بل كانوا يصرخون من تأثّرهم، ويعانقون بعضهم بعضاً؛ ويتسكّعون حول السواتر الترابية في الخطوط الأمامية التي غنموها؛ يدخّنون، أو ينشرون غسيلهم، ويلوِّحون لنا بأيديهم بطيبة خاطر؛ بينما تطنّ فوقنا أصوات القذائف المدفعية العراقية؛ حتى أن انفجار القنابل حولهم كان يضحكهم. فهل كان ذلك ازدراءً بالموت، أو كان ردّ فعلهم إزاء خوفنا؟

ولدى حصول «طرطشة» أخرى، انحنيت مع بلاك إلى الأمام متلاصقَي الأكتاف، تفادياً لهبوط الروث والسائل المالح الكريه على وجهينا. وجاءت القذائف خمساً دفعة واحدة تئزّ فوق كواسر الأمواج. وفي رحلة مشابهة حصلت قبل عدّة ساعات، لخّص المراسل البريطاني لمجلّة «أخبار الولايات المتحدة الأميركية والتقرير العالمي» مشاعره تحت القصف على طول السدود والممرّات بقوله الفصيح: «لا أعتقد أني أستطيع أن أتحمّل أكثر من يوم في مثل هذه الظروف». وكان سطح الطريق لا يعدو ارتفاعه عن الماء أقداماً قليلة؛ ولكن

الطريق تبدو وكأنها ممتدّة إلى يوم القيامة، في فتيل من الرمل البالغ حدود الأفق حيث النار والدخان. وفجأة، انقطع رباط خوذتي فارتميت على الأرض. التقطتها، وعاودت وضعها على رأسي ممسكاً إياها بيدي اليسرى، ولكن ما الفائدة؟ فلو أُصبتُ برأسي، لقطعت أصابعي. وكان زميلنا «بلاك» مقطّب الجبين، وكنّا كلّنا مركّزين انتباهنا، تراودنا فكرة الموت؛ بينما كان صبيان الجيش، والمتطوعون المسنّون، وضبّاط حرّاس الثورة، يمرّون بنا تحت الشمس، ونحن نتقدم ببطء نحو جبهة القتال.

وظلّوا يصرخون «حرب حتى النصر» نحونا، وهم يمشون في الطين والوحل. فمتى نصل إلى نهاية هذا الأمر وهل أصل إليها في حياتي؟ بعد أن سرنا بسيّارتنا حوالى ثلاثة كيلومترات على طول تلك السواتر الترابية، ووصلنا إلى «شلمشه» وتجاوزناها؛ وظهر أمام شاحنتنا «مازينان» كالشبح وهو يشير كالمعتوه إلى الشمال الغربي، ويصيح تكراراً: «البصرة، البصرة، البصرة!!!» وكنتُ مع «بلاك» ننعم النظر في ألسنة اللهب والدخان، والأعاصير التي تثور بغرابة حولنا، كهيجان بركان، يحمل الطين الأغبر في الهواء للحظة، ثم يلقيه علينا. وصار «بلاك» ينظر إليّ من جديد، فقلت: «إنها مثلما حدث في كتاب «البحر القاسي»؛ فعقّب على كلامي قائلاً: «وأسوأ من ذلك».

كان «مازينان» مهووساً، يكرّر طلبه: «تعالوا، تعالوا». فزحفنا إلى سدّ من الطين، اهتزّ عندما أطلق الإيرانيون قذيفة ١٥٥ ملم من حفرة في الأرض المشبعة بالماء ورائي. حدّقتُ فوق الحافة، واستطعت أن أرى عبر فسحة من الماء اللامع أبراج مجمّع صناعي وبناياته في ضواحي البصرة يبدو أغبر في الأفق؛ وقد تراءى لرجال المدفعية في نور الشمس صباحاً. وكانت حولنا زمرة من الصبية يتضاحكون، ويقولون: «لماذا تخافون؟ انظروا إننا محميّون، إن صدّام سيموت».

وقبل ساعات قليلة، كان صدّام قد صرّح بأن طريق السدود والممرات ستنقلب إلى فرن يفنى فيه الإيرانيون. وأوجسنا «بلاك» وأنا خيفة من أن يعني صدّام ما يقول. ومع ذلك، انحصرت حماية الصبي بعصابة حمراء ملفوفة

بإحكام حول رأسه؛ وقد كتب عليها بالأصفر ابتهالاً لله كي يبيد النظام العراقي. وتذكرتُ ما جاء في قصيدة «جان سكواير» من أنّ الربّ يقول: «لقد هيَّأتُ عملي». ولم تكن الحرب العالمية الأولى «روسماً» يشبه ما يجري هنا. فسقوط مليون قتيل في معركة «بُحيرة السمك»، جعلها كمعركة «الصوم»؛ لكن معركة «باسخندالي» انقلبت فيها التضحية إلى هَوس مُفرح لدى «مازينان» ورفاقه. وكان هناك صبيّ ـ لا يكاد يتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره ـ يقف قرب مخبأ، ينظر إليّ. وما كان منه إلّا أن رفع خوذته على مهل، ووضع القرآن الكريم على قلبه، وابتسم. وكان ذلك هجوم «كربلاء» الخامس. وإني متأكّد من أن هذا الصبي يعتقد أنه سيصلّي عما قريب في مزار الإمام الحسين. إنه منظر مؤثّر وحزين في الوقت ذاته. إن هؤلاء الشباب يعتقدون أنهم خالدون بنظر الله تعالى. لم يكونوا متحرّرين من الخوف بقدر ما كانوا لا مبالين ـ وهذا ما جعلهم فريدين من نوعهم، وعُرضةً للعطب. لقد وجدوا مفتاح الخلود وآليّته؛ بينما لم نجد نحن ذلك. لذلك، كان الصبي شجاعاً وضاحكاً، بينما كنت أنا خائفاً؛ لأني لم أرد أن أموت.

وكانت القنابل غير المنفجرة منثورة حولنا كبهائم تشبه أسماك القرش بذيولها الغبراء؛ إذ إنها نصف مطمورة في الأرض السبخة، وقد أطلقها العراقيون عندما حاولوا دون جدوى أن يوقفوا هجوم «كربلاء» الخامس. وهناك لافتة تقول: «النصر لنا»، منصوبة فوق مخبأ مسحوق، بُنيت جدرانه بصناديق الذخيرة والقذائف. فمن يشكّ في ذلك؟ لقد كان للعراقيين خمسة خطوط دفاع عن البصرة، وقد اخترق الإيرانيون الخطوط الثلاثة الأولى. كما غنموا دبّابات عراقية من طراز (T-72)، وضمّوها إلى عتادهم، وأداروا مواسير مدافعها، وباتوا يطلقونها على البصرة.

وقد ادّعى «مازينان» بحقّ أن حرّاس الثورة قد انتصروا في هذه المعركة، وأن الجيش الإيراني النظامي لم يقدّم لهم سوى الإمدادات اللوجستية والتغطية النارية، وأن العراق خسر ١٥٠٠٠ قتيل وأُصيب لديه ٣٥٠٠٠ جريح، ودُمّرت عنده ٥٥٠ دبّابة ومدرّعة. ولكني تهوّرت بقولي معترضاً إن الإيرانيين لا يزالون

بعيدين عن مركز البصرة. فاتّسعت حدقتا «مازينان» وراء نظّارته الكبيرة، وقال لي: «تعال». وسار بي هذا العملاق المخبول ـ الذي كان عقلانياً عندما ناقشنا موضوع الحرب الدينية ـ إلى سدّ طيني آخر. فتسلّقناه إلى سطحه، ونزلنا من جانبه الثاني، وصرنا أمام خط الدفاع العراقي الثالث. فالطلقات تئزّ حولنا. وتذكّرت كم يشبه ذلك أزيز الزنابير السريعة، إذ كنت أسمعها تغرز في الطين ورائي. جذبني «مازينان» بذراعي اليمنى وأشار إلى أعمدة من الدخان الأسود التي بدت كستار جنائزي أمامنا. قال: «هل ترى تلك البناية؟». ولم أرَ في الظلام الدامس سوى الخطوط الكبرى لبناء مستطيل الشكل. وصرخ: «ذلك المبنى هو فندق «الشيراتون» في البصرة.

كان الإيرانيون يستعملون مدفعيّتهم ثلاث مرات أكثر من العراقيين؛ وتلمع أفواه مدافعهم عبر النهر بغزارة. وكان الصبيان والرجال المسنّون الملتحون يتسكّعون على طول السدود والممرات، ويسمعون أحياناً موسيقى دينية من مُكبّرات الصوت. وعندما عدنا إلى الشاحنة نظرنا «بلاك» وأنا بعضنا إلى بعض. وكان «برنت سادلر» وطاقم شبكة التلفزيون (ITN) قد ذهبوا ليصوّروا كومة من الجثث العراقية مزّقتها القذائف في أحد المستنقعات. قال سادلر: «إنها مهمّة خطرة، ولكن ليس لديّ أيّ خيار آخر». وكانت غمزة الموت في عينيه. ولكنه قد يبقى على قيد الحياة، كما حصل له سابقاً. أمّا «بلاك» وأنا فلم نكن متأكّدين من مثل هذا المصير. فصحت بمازينان متذمّراً: «نريد أن نعود». فرفع حاجبيه. كما صرخ «بلاك» أيضاً: «نريد أن نعود، أن نعود، أن نعود». فالتفت إلينا مازينان التفاتة أسوأ من الازدراء، سائلاً مزمجراً: «لماذا؟». لأننا جبناء. هيّا قلها يا «فيسك». لأني أرتجف من الخوف وأريد أن أعيش وأكتب قصّتي، وأعود إلى طهران، وإلى بيروت، وأدعو امرأة شابّة لتشرب النبيذ الأحمر الفاخر على شُرفتي.

أومأ مازينان برأسه إلى السائق؛ ثم رفع يده اليمنى إلى مستوى رأسه، وأطبق على أصابعه وفتحها مودّعاً، كما تلوّح الأمّ لطفلها الصغير مودِّعة. وقال: باي، باي» بصوت ناعم. وهكذا انعطفت شاحنتنا إلى اليسار عن السدّ،

وسارت في طريق معبَّدة طويلة باتجاه أطلال «خرمشهر» ؛ وبقيت الشكوى قائمة.

وفي مستودع أحد المصانع، عُرض علينا منظر ألف أسير عراقي، بمن فيهم العميد «جمال البيّودي» من الفيلق (٥٠٦) العراقي، الذي شرح لنا كيف حفر «الباسدران» و«الباسيجي» الإيرانيين طريقهم عبر صفوف طويلة عريضة من الشريط الشائك بعمق ٦٠ متراً حتى وصلوا إلى خط دفاعهم الثالث(*).

وقد ردّد الأسرى العراقيون بفتور لعنات تنصبّ على قائدهم العراقي الذي كانوا يحاربون من أجله منذ عدة أيام. وقد ابتسم البعض لنا عندما غفلت عنهم أعين الحراس. وتمتم أحدهم اسمه لي قائلاً: «أرجوك، بلّغ عائلتي أني آمن، ولم أمت في المعركة. وبعد أسبوع أعطيت اسمه للصليب الأحمر الدولي الذي وعد بإيصال رسالته إلى أهله(**).

عدتُ من معركة «بُحيرة السمك»، وأنا أشعر باليأس. فذلك الصبي الذي كان يحمل القرآن الكريم على صدره اعتقد بشكل من الأشكال أن القليل من الغربيين، بمن فيهم أنا، قد يستطيعون فهمه. لقد علم من مُجريات ومعتقدات حياته أن الجنّة بانتظاره. إنه سيذهب مباشرة إلى هناك بالقطار السريع، دون أية

(*) يمكن تقدير الانتصار الإيراني من معرفة عدد الضباط الكبار المعتقلين أثناء الهجوم. ومنهم الكولونيل «ياسر الصوفي» قائد لواء المشاة (٩٤)، والمقدَّم «رضا جعفر عباس» من الفيلق السابع للقوات الخاصة الجوّالة، والمقدَّم الركن «وليد علوان حمادي» القائد الثاني للواء المشاة (٩٥)، والمقدَّم «مجيد العبيدي»، القائد الثاني لفرقة المدفعية (٢٠)، والمقدَّم «سليم حمود عرابي» قائد الفرقة المدفعية (١٦)، والمقدَّم «جابر حسن العماري»، قائد كتيبة المشاة الثالثة، من اللواء (١٩). ويبدو من أسمائهم أن ثلاثة منهم هم شيعة، على الأقل.

(**) قال الأسير الطيار «عبد علي محمد فهد» من سرب الطيران (٤٩) في الناصرية، أن دفاعات إيران الجوية تحسنت خلال الأشهر الأحد عشر السالفة، وأجبرت قاذفات القنابل العراقية على أن تطير على ارتفاعات أعلى. أما طائرته «الميغ ٢٣»، فقد أُسقطت، كما يبدو بأحد صواريخ «هوك» المهداة من «أوليفر نورث». وقد ادّعى الطيار ذاته أن التقنيين الروس، والفرنسيين، والهنود، يقومون بالاستشارات لصالح الأسراب العراقية في الناصرية، وأن العراقيين استخدموا غالباً قاعدة جوية كويتية، لمعاودة التزود بالوقود، خلال قصفهم لناقلات النفط الإيرانية.

إعاقة أو أي تأخير ـ إذا حالفه الحظّ بأن يُقتل على يد العراقيين. وبدأت أفكّر في أن الحياة ليست الشيء الوحيد الذي يموت في إيران. فقد كانت هناك أيضاً بشكل غير محدّد عملية موت في الدولة ذاتها.

فالأمّة التي تنظر إلى الوراء وليس إلى الأمام، والتي تُلبس فيها النساء ثياب الحداد إلى الأبد، والتي يُعتبر فيها الموت إنجازاً، والتي ينحصر فيها الإنجاز البطولي للأولاد في التضحية بذواتهم، تكون بلاداً تهلك نفسها، وتسير نحو خبرة قاتمة مكفهرَّة، وتجد لنفسها شبيهاً في كمبوديا حيث جرى القتل الجماعي مثلما جرى في معركة كربلاء التاريخية.

وقد أقضي أياماً وربّما أسابيع من حياتي وأنا أزور مقابر موتى الحرب الإيرانيين. ففي أقلّ من سنة بعد احتلال الفاو ـ ذلك الهجوم الذي كان من المفروض أن يقود إيران إلى البصرة، ومن ثمّ إلى كربلاء والنجف ـ كنتُ أقف في مقبرة الإمام «زاده علي أكبر» الصغيرة، على المنحدرات الباردة لجبال «ألبورز» في «شازار»، حيث كانوا يستعدّون للقيام بالهجوم الإيراني التالي. فقد حفرت الجرَّافات عميقاً تحت جليد المقبرة، وظهر من ذلك العمق التراب الجديد ـ على اتساع رميتين من كرة القدم ـ لتستوعب المقبرة القافلة الجديدة من الشهداء.

وكان حارس المقبرة النحيل الأسمر فظّاً بهذا الشأن، إذ قال: «كلّما حصل هجوم كربلاء من جديد، يصل الشهداء إلينا، خلال أيام. فلدينا منهم الآن ثلاثمئة هناك بزيادة ١٢ خلال الأسبوع الفائت. ونحن نُتلف قبور الناس العاديين بعد ٣٠ سنة ـ ولا يبقى منها شيء ـ ولكن الحالة مختلفة بخصوص شهدائنا. إنهم يمكثون هنا لألف سنة أو أكثر». أما إحصائيات الحارس، فقد كانت أكثر دلالة رؤيوية مما تبدو. «فشزار» ـ التي لا تتميّز إلّا بمزارها المتداعي القديم ـ لا تحوي سوى موتى الحرب في ضاحية صغيرة من شمالي طهران. ولكن، إذا نظرنا على مستوى البلاد كلها، يراوح عدد الشهداء بين ٣١٢ ألفاً ونصف مليون، أو ثلاثة أرباع المليون أو ربّما أكثر. ففي مقبرة «بهجة الزهراء» خارج المدينة، يرقد الشهداء بعشرات الألوف.

وكل الشهداء شباب صغار السنّ، وكلّهم يكرَّمون، علناً على الأقلّ، بمزيج من الحزن والرضا المعنوي الخاصّ بالمسلمين الشيعة. فلنأخذ مثلاً «علي ناصر زيارات». لقد كان في الحادية والعشرين من عمره، عندما مات في معركة مستنقعات «مينون»، غربي «الحويزة» عام ١٩٨٦، وتُفصح صورته المعلّقة على قبره ضمن إطار فولاذي، يغطيها الزجاج، أنه كان شاباً نحيلاً جميل الصورة، ذا شاربين كثيفين. وعلى شاهد قبره رسالة إلى والده يوسف وإلى والدته، يقول فيها:

> «لا تبكي يا أمّي، لأنني سعيد. أنا لست ميتاً؛ بل أذكر كلّ ما فعلتما من أجلي. لقد سقيتماني الحليب، وأردتما أن أهب حياتي للدين. ويا أبي العزيز، لا تبكِ ولا تلطم، لأنك ستفخر بي وتعتزّ عندما تعلم أنني صرت شهيداً...»

وهناك نقوش أخرى متشابهة على شواهد بعض القبور الأخرى. حتى أن الزهور الموضوعة على قبر جنديّ شابّ يُسمّى «زمان» قرب كوخ حارس المقبرة، تعلن ما يلي: «إننا نهنّئك على استشهادك». وأصحاب التواقيع هم طلاب وموظفو جامعة طهران للعلوم. فهل هناك فرح حقيقي بين قبور «شازار»؟ إن تلك الصناديق الفولاذية القاسية القائمة فوق القبور تحمل زهوراً ناضرة، وحَمَاماً من البلاستيك، وبعض الرصاصات الحقيقية؛ لكنّ الصور تُظهر الشباب الذين قضوا في كلّ حرب يضحكون بين الحدائق، أو واقفين مع أهلهم على عتبات بيوتهم، أو رابضين على قمم الجبال ممسكين بمناظير الميدان. فمن يدرك معنى هذا الهدر في أرواح الناس؟ مثل هدر حياة الرقيب «أكبر زاده» البالغ من العمر ٢٥ سنة الذي مات عام ١٩٨٢ في «خرمشهر»، و «مهدي بلوش» ـ الذي رسمت قنبلة يدوية على شاهد قبره ـ وكان عمره ٢٣ سنة عندما قُتل في «زاكدان»، و«مهْردرودي نصيري»، البالغ من العمر ٢٥ سنة الذي أصيب في «مهران» خلال شهر تموز/ يوليو ١٩٨٦. وهناك أيضاً شابّ آخر يبلغ من العمر ٢٤ سنة، مات خارج البصرة، قبل بضعة أيام ـ ربّما في معركة «بُحيرة السمك» ذاتها التي شهدتها ـ وقد ظهر في الصورة مع ابنتيه الصغيرتين،

وإحداهما عاقدة شعرها فوق رأسها، يضمّهما بين ذراعيه قبل أن يذهب إلى جبهة القتال.

أليس هناك من يدرك معنى هذا الهدر في حياة الناس؟ ـ كان هناك رجل ملتحٍ لا يبتسم، في الأربعينيّات من عمره يهزّ برأسه. وماذا عن سؤال «أوين» عن الشباب المقضي عليهم بالهلاك؟ وأيّ ناقوس يُقرع لنعي هؤلاء الذين يموتون كقطعان من الماشية؟ قال الرجل: «لقد قابلت رجلاً واحداً يتكلّم بوعي لهذا الهدر. لقد كان رجلاً مسنّاً في مستشفى. كانت رجلاه مقطوعتين وكذلك إحدى ذراعيه بقنبلة قرب «الأهواز». كما أنه فقد إحدى عينيه. وكانت القنبلة قد قتلت زوجته وأولاده، وأخواته وإخوته. قال هذا الرجل بصراحة إنه يعتقد أن صدّام والخميني يعملان ليحصلا على ما يستطيعان الحصول عليه، دون اهتمام بشعبهم. ولكنه الرجل الوحيد الذي سمعته يقول مثل هذا الكلام النقدي».

وكان خارج المقبرة حانوت يبيع كتباً حول الاستشهاد؛ وبداخله شاب من حرّاس الثورة، عاد لتوّه من جبهة القتال الجنوبية، اسمه «علي خاني». فبمَ شعر أهله عندما كان غائباً؟ ـ أجابني بقوله: «أنا وإخوتي الثلاثة في الجبهة. وتعلم أمي ويعلم أبي أني إذا استشهدتُ، سأبقى حيّاً». ولكن ألم يدعُ له أهله بالسلامة، ألم يوصوه «بالحرص على حياته» عندما غادر إلى الجبهة؟» قال مبتسماً لمثل هذا الشعور الغربي: «كلّا، إنهم يعلمون أنها إرادة الله، إذا متّ». ولكن، ألا يبكي أهله إذا مات؟! لقد فكّر «علي خاني» في ذلك برهة طويلة، وأخيراً قال: «نعم؛ وقد بكى النبيّ محمّد (ص)، عندما مات ابنه إبراهيم. ولكن، لم يكن ذلك علامة ضعف أو قلّة إيمان؛ فقد كان كائناً بشريّاً».

الفصل الثامن

تجرُّع كأس السمّ

«. . . وأشرقت الشمس،

كما كان عليها أن تفعل، على الساقين البيضاوَين المختفيتَين تحت الماء الأخضر؛ ولا بدّ أن تكون السفينة الثمينة اللطيفة، قد رأت شيئاً مدهشاً: صبيّاً يسقط من السماء، وكان عليها أن تصل إلى المكان المقصود، فنشرت شراعها، وسارت بهدوء».

«و. هـ. أودن» متحف الفنون الجميلة»

إنها لمسافة طويلة من واشنطن إلى مخزن «موسّان» البرّاد للأطعمة والفواكه في «بندر عبّاس» وإنّ تقرير «البنتاغون» المفصّل تفصيلاً عن آخر رحلة للطائرة الإيرانية (IR 655)، بتاريخ ٣ تموز/يوليو ١٩٨٨، لا يعكس الأبعاد الإنسانية لمستودع الجثث الذي أقف فيه الآن. ففيه ترقد «ليلى البهبهاني» البالغة من العمر ثلاث سنوات، في تابوتها الرخيص. لقد كانت بنتاً صغيرة؛ وهي لا تزال تلبس ثوبها الأخضر ومئزرها الأبيض اللذين ماتت فيهما منذ ثلاثة أيام، عندما أصاب صاروخ مُرسل من قِبل البحرية الأميركية طائرتها الإيرانية فوق الخليج، فقتل ليلى والمسافرين معها الذين يبلغ عددهم ٢٨٩ شخصاً. وقد سُحبت من الماء فوراً بعد الانفجار. وبقيت كما لو كانت نائمة، وحول رسغها الأيسر سواران ذهبيان، وما زالت قدماها في جوربهما الأبيض وحذائهما الأسود. وقد خُطّ اسمها بالقلم على تابوتها المسنود قربها. وعلى بعد إنشات منها يرقد أيضاً أخوها بهيئته الجميلة السمراء وشعره الأسود القصير، في تابوت آخر من الخشب الرقائقي.

ولا يدلّ على أن هذه الجثث على أُهبة الدفن سوى بعض الجليد العالق بشعورها؛ وهي منثورة في هذا المخزن المركزي للفواكه بتوابيتها الخشبية الشاحبة. ويجد المرء على أحدها الكتابة التالية: «يوغوسلافي»، وأخرى «غير معروف حتى الآن». وفي إحدى الزوايا، كان رجل في منتصف العمر يعاين بعض الجثث. إنه يحاول أن يتعرّف على أعضاء من عائلته ـ فهناك اثنان لم يتمكّن من الاهتداء إليهما ـ ثم يدخل شخص إيراني يرتدي سروالاً من «الجينز»، وهو يدفع عربة خفيفة عليها ثلاثة توابيت أخرى مكدّسة دون ترتيب. ويبلغ مجموع الجثث ٥٨ جثة، بالإضافة إلى صفّ من البقايا الآدميّة الفظيعة، ممّا لا يمكن وصفه بدقّة سوى بتقرير طبّي أو في مجلّة طبّية. فهناك الأطراف، وجذوع الأجسام، والرؤوس ـ المفتوحة عيونها ـ شبه الملفوفة بحرامات أو بغلافات بلاستيكية. والإيرانيون من «الپاسداران» الذين هم أكثر نشاطاً بين الثوريين، صاروا إلى خمود وصمت. ويقول أحدهم لإحدى المراسلات «أنتِ سيّدة، تعالي انظري إلى هذه المرأة التي قُتلت». ويعبث بقفل تابوت، ثم يكشف عن وجه شاحب، وشعر مبلّل، من تحت أغطية البلاستيك.

ولا بدّ من بلوغ بعض النتائج البغيضة، مهما كانت بنظر الغربيين غير ملائمة، وعبارة عن تدخّل في حزن الآخرين: فمعظم الموتى ـ البالغ عددهم ٦٦ ـ هم من الأطفال، وبعض التوابيت صغيرة الحجم، حتى أن هناك إمرأة شابّة في العشرين من عمرها مسجّاة مع طفلها في صندوق خشبي. «إنها فاطمة فايدازايدا» التي عُثر عليها في البحر بعد ثلاث ساعات من إسقاط الأميركيين الطائرة، وهي لا تزال متشبّثة بطفلها على صدرها؛ ولذلك «وضعناهما معاً؛ فقد وجدناهما معاً، ولا بدّ من أن يبقيا معاً».، على حدّ قول أحد الموظّفين الإيرانيين.

وصادفت أيضاً رجلاً في منتصف العمر، يضع محرمة على وجهه، ويمشي متهادياً في ذلك المخزن البرَّاد، مفتشاً عن أقاربه. لم يجدهم بين الجثث التي شوَّهها انفجار الصاروخين الأميركيين في الطائرة الإيرانية. ولكنه عاد فيما بعد فوجد جثّة شقيقته وصهره تحت غطاء من البلاستيك، فركع وبكى ومسّ

وجهيهما بلطف. وقبل ذلك بساعات، كان الرئيس ريغان قد أعلن عن بالغ أسفه لأهل الضحايا البريئين، وأن اعتذاره هذا أمام العالم «كافٍ وافٍ».

ومن غير الاعتيادي هنا في «بندر عباس» المرفأ الجنوبي الذي يغلي، وقع التفاسير الرسمية الأميركية، والتعازي، وإظهار الحزن وتبرئة الذات في واشنطن. فكلّ هذه الاعتذارات تبدو هنا خاوية وانتهازية. وما يُسمّى في واشنطن «مأساة» ـ كما لو نزلت بهؤلاء الضحايا المنثورين حولي كارثة طبيعية ـ يوصف في «بندر عباس» بأنه هجوم وحشي وانتهاك لحرمة القانون والأعراف. وقد حاول بعض رؤساء التحرير الأميركيين عُزْوَ حصول الكارثة إلى أن الطائرة كانت تقوم بمهمّة انتحارية، وأن ربّانها كان عازماً على سحق ركّابه الغفيرين في الفرقاطة الأميركية التي أسقطت تلك الطائرة؛ حتى إن جريدتي «التايمز» ادّعت الادّعاء الشائن ذاته. ولكنّني سمعتُ في «بندر عباس» من زملاء الطيار وأصدقائه دون أي تدخّل رسمي، أن هذه الادّعاءات هي عدوانية وداعرة. وكانت بين ركّاب الطائرة عائلة كاملة مؤلّفة من ١٦ شخصاً إيرانياً، ذاهبة لحضور عرس في دُبي. وكان أولادها ما يزالون راقدين في توابيتهم بألبسة العرس الزاهية؛ بينما كان ريغان يبعث برسالة إلى الكونغرس يعلن فيها أنه يعتبر الآن قضيّة تحطّم الطائرة قضية «مغلقة».

كنا نمشي بين صفوف الموتى، في صمت الكنيسة أو المسجد ورهبتهما، غربيين دون اعتذاريات، ورجال كاميرا يصوّرون الموتى في لقطات مديدة للجماهير التي ترفض أن تتقبّل حقيقة الأمر الذي سبّبته البحرية الأميركية. وكانت الجرائد الغربية لا تكرم بالنشر إلّا صور الموتى اللطفاء الذين كان حظّهم أن يقتلوا دون تشويه وجوههم بالانفجار الذي أحدثه صاروخان مباشران أطلقتهما على الطائرة الفرقاطة الأميركية «فانسان». لقد كان ردّ فعلنا ـ نحن الغربيين ـ منتظراً: لم نقصد ذلك؛ لقد كان إسقاط تلك الطائرة خطأ؛ ولكنه خطأ إيران.

وإني ما أزال أذكر تماماً تلك المخابرة التلفونية من «التايمز». كنت أمضي عطلة في «إيرلندا»، خلال ذلك الصيف الدافىء الساطع، وقضيت وقت الصباح

في «دبلن» أتحدّث مع «جان كريغ»، المؤرّخ الذي سيكتب المجلّد الرابع من تاريخ «التايمز» من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٨١، تلك الفترة التي تسلّم فيها «مورداك» الجريدة. وعلى فنجان قهوة، سردت لكريغ قصّة السنوات الأربع التي كنت فيها مراسلاً للجريدة، انطلاقاً من إيرلندا الشمالية، وقصّة «مذكّرات هتلر» الشائنة؛ مع أن هذه الأخيرة لا تقع ضمن اهتمامات مجلّده الرابع. وكان «مورداك» منهمكاً ومرتبكاً بشأن تسلسل تلك الأوراق الخيالية الزائفة؛ ولا سيّما هذيان «الفوهرر» النازي بخصوص تشامبرلين، وبشأن خليلته «إيفا براون»، إلى آخره(*).

قال لي رئيس التحرير المناوب في لندن: «إني متأكد من أنك تعرف ماذا حدث. إن رئيس التحرير يريد أن يعرف متى ستذهب إلى الخليج، وبأية سرعة». إن كل مراسل يكره هذه اللحظة. ماذا «حدث»؟ لم أستمع إلى الأخبار ذلك الصباح. ويمكن أحياناً أن تخادع بإعطاء جواب مبهم، ثم تلجأ إلى أخبار الراديو لمعرفة ما يجب أن تعرفه. ولم تكن هذه مناسبة من تلك المناسبات، فقد جاء الصوت عبر الهاتف يقول: «لقد أسقط الأميركيون طائرة ركّاب إيرانية. فوق مياه الخليج؛ وكانت السفينة الأميركية التي أطلقت صاروخين حراريين على الطائرة هي «فانسان». يقولون إنها كانت غلطة». أجل، إنهم قد يقولون ذلك،

(*) كان المؤرخ «هيو تريفور ـ روبر»، لورد «داكري»، قد سبق أن أفتى بضمان حقيقيّتها. وكنتُ أمرّ بالمكتب الأجنبي في لندن، في طريقي عائداً إلى بيروت، عندما بدأ جرس «رويتر» للإعلان يئز في غرفة الأسلاك، وصادر «إيفان بارنز» الرسالة، ثم جأر بصوت عالٍ عميق: «آها، إن المذكرات مزوَّرة». فقد أعلنت حكومة ألمانيا الغربية أن تحليلاً قضائياً أكّد أن الوثائق كتبت بعد الحرب.
واقترح عليّ «إيفان» أن أذهب وأخبر «تشارلي»، إذ إنني أظن أن «مورداك» معه الآن. وأضاف «بارنز»، الذي يشك دائماً في مصداقية المذكرات مثلي، وقد افترّ ثغره عن ابتسامة ذئب: «أعلمني بردود فعلهما». سرت نحو مكتب التحرير حيث وجدت «تشارلس دوغلاس ـ هوم» وراء مكتبه، بينما يجلس على أريكة إلى يمينه «روبرت مورداك». فقال «تشارلي»: «كنا كلنا ننتظر تصريحاً من الحكومة الألمانية ذلك الصباح». فأجبته ناظراً إلى رئيس التحرير ومتجاهلاً صاحب الجريدة: «يقولون إنها مزوَّرة». ونظر «تشارلي» إلى رئيسه مثلما فعلتُ. فقال «مورداك» مقهقهاً: «لا بأس، ها نحن، لم نغامر بشيء، ولم نربح شيئاً». فأخبرت «كريغ» بأن هذا يلخص السياسة الأميركية في الشرق الأوسط.

أليس كذلك؟ أعني أن الأميركيين لن يقدروا أن يدَّعوا أن الطائرة مكتظّة «بالإرهابيين»؛ أو ربّما يستطيعون. فقد سبق أن صرّح البنتاغون بأن ربّان الطائرة كان يحاول أن يرمي بطائرته على السفينة الحربية. وكان على قائد السفينة الأميركية أن يذهب إلى البحرين ليشرح كيف أطلق النار على طائرة مدنية.

كان هذا النوع من «المآسي» هو ما تنبّأت به في تقريري إلى «التايمز» الذي أرسلته من الخليج في شهر أيار/مايو عام ١٩٨٧، إذ توقّعت أن تجزع سفينة حربية وتظنّ أن طائرة مدنية هي نفّاثة مهاجمة. وهذا بالضبط ما قاله لي الرائد البحري قائد السفينة الحربية «برود سووردو» عن تلك الليلة القائظة، عندما كان موظف الرادار يدقّق أرقام التلقّي فوق الخليج: «إذا أردتَ أن تتجنّب حرق ستّة من شيوخ القبائل في طائرتهم النفّاثة الخاصّة، عليك أن تكون بمنتهى الحذر».

ولكنّ هذه الطائرة لم تكن طائرة خاصّة؛ بل كانت طائرة ركّاب مكتظّة فُجِّرت في السماء. طرت إلى باريس مع «لارا مارلو»، التي ستكتب تقريراً قاسياً جداً «للإنترناشينال هيرالد تريبيون» حول المجزرة، ومع «هارفي موريس»، الذي أصبح الآن مع «الإندبندنت»، ووصلنا إلى مطار «رواسيّ ـ شارل دي غول» في شمالي باريس، حيث كان «هارفي» يوالي تدخين سجايره المعتادة، ويقول: «لقد علقوا، وسينالون جزاءهم»، دون أن يفصح عمّن هم: الأميركيون، أم الإيرانيون. وسنعرف ذلك عمّا قريب؛ إذ طرنا مع خطوط الإمارات إلى دُبي ـ أقرب مدينة غير إيرانية إلى موقع القتل الجماعي الجوّي.

استغرقت الرحلة ثماني ساعات؛ في الحرّ الخانق والاكتظاظ. وجلس أمامي مراسل لإذاعة لندن، وهو يكتب في دفتره بنشاط محموم. قال ما معناه إنه يكتب مسوّدة تقرير أول، بحيث يُتلى تقريره صباح اليوم التالي، بعد أن تصل طائرتنا إلى مطارها. فلم يكن بوسعي إلّا أن أسأله عن فحوى تقريره، ما دام لم يصل بعد إلى وجهته، ولم يقم بأيّ تحرٍّ عن الموضوع. فقال إنه يكتب «عن الخطر المتمثل في استعمال الإيرانيين لزوارق انتحارية ليثأروا من الأميركيين». ولكنه أقرّ بأنه اختلق التقرير وهو على متن الطائرة؛ وأخبرني بأنه سيكتب تقريراً آخر عن إمكان قيام الإيرانيين بمحاولة اغتيال قائد السفينة

«فانسان». وعندما سألته عمّا إذا كان واجباً عليه أن يتساءل عن كفاءة الأميركيين البحرية؛ ردّ بقوله: «قد نجابه تحدّياً إذا قلنا ذلك». وكانت محرّكات الطائرة قد بدأت تدور. وهكذا جعل هذا المراسل الأميركيين الذين دمّروا طائرة الركاب ضحايا محتملين للمستقبل، وصيَّر الضحايا الحقيقيين ـ الذين قُتلوا فعلاً ـ معتدين.

وقد ذهبتُ حالما وصلتُ إلى دُبي شطر المراقبين البريطانيين لحركة الطيران، الذين طالما ساعدوني في تقصّي أنباء «حرب ناقلات البترول». لقد سمعوا الإذاعة فوق الخليج في ذلك الصباح الدامي وكانت قصّتهم مرعبة. أخبروني بأنه راعهم لأسابيع خلت قلّة تدرّب الموظفين الأميركيين وقلّة فعاليتهم في تحدّيهم للطائرات المدنية. فقد تكرّر تحدِّي طواقم السفن الحربية الأميركية لربابنة الطائرات المدنية التي تسافر بانتظام على خطوطها فوق الخليج من الكويت، وبدت تلك السفن غير دارية بأنها تمخر اليمّ تحت خطوط السفر الجوّية.

ففي أحد الحوادث ـ المعروف لدى المراقبين، والمحجوب عن الصحافة ـ رست فرقاطة أميركية قرب شاطىء الإمارات، وتحدّت كلّ رحلة مدنية تقترب من مطار دُبي الدولي. فقام المراقب البريطاني المناوب في المطار بمخابرة السفارة الأميركية في «أبو ظبي»، وطلب من الدبلوماسيين الأميركيين جعل السفينة تخرج من موقعها لأنها تشكِّل «خطراً على الطيران المدني». واشتكى ربابنة الطائرات المروحية العالمية قرب الشاطىء من تحدِّي السفن الأميركية لهم، على تردّدات إذاعية خاطئة. وقد تسنَّى للمراقبين في دُبي أن يسمعوا بعض شطور من المخاطبات البحرية الأميركية. وقد أخبرني أحدهم قائلاً بهدوء: «يا روبرت، علم الأميركيون فوراً بأنهم أصابوا طائرة ركّاب. وكانت هناك سفينة حربية أميركية أخرى قريبة ـ ورمزها هو (FFG-14). وقد أخبرتنا أن بعض أعضاء طاقمها رووا أنهم شاهدوا أناساً يهبطون بسرعة فائقة من أعالي السماء».

جلست خلف برج المراقبة في دُبي، أفكّر في هذا. أجل، قد يقع المسافرون من السماء هكذا، على نطاق واسع معاً في كُتل، أو قِطع، من علوّ

شاهق مقداره عشرة آلاف قدم، كما يبدو. ويمكنني أن أتخيّل الوقع والوقوع على البحر، وانبجاس الماء، وأن يبقى بعض الركاب دون شكّ محتفظين بوعيهم طول مدّة السقوط. وبعد ثلاثة أيام، سأنظر إلى «فاطمة فايدازايدا» في مستودع الجثث «ببندر عباس»، وأدرك بفظاعة وقوعها حيَّة من أعالي السماء متشبثة بطفلها، وسقوطها في الماء تحت شمس الصيف الساطعة؛ بينما يتساقط حولها رفاقها في الطائرة، وبعض قِطع من الطائرة. وقد تمسّكت بطفلها عالمة ـ فهل كانت تعلم؟ ـ أنها لا بدّ هالكة.

وقد أرسلتُ مساء ذلك الأحد من دُبَي ثلاثة تقارير إلى «التايمز». وهي أطول ما كتبتُ عن سجلّ البحرية الأميركية في سوء تحديد هويّة الطائرات المدنية المسافرة فوق الخليج، والجزع الذي أصاب السفن الأميركية، والذي سمعه مراقبو الحركة الجوّية على الهواء. وقد ادَّعت السفينة «فانسان» أنها كانت تحت وقع هجوم من قِبل زوارق حرّاس الثورة، عندما قصفت الطائرة المنكوبة. ولكنني أعلم أن لدى السفن الحربية الأميركية توقيت الخطوط الجوية المدنية، في مراكز المعلومات عن القتال (CICs). ألم يكن لدى القائد «روجرز» وطاقمه وقت ليتفقّدوا الأمر في نسختهم عن التوقيت؟ لقد كانت الطائرة الإيرانية (IR 655) تطير من بندر عبّاس إلى دُبي يومياً. فلماذا استهدفها القصف بتاريخ ٣ تموز/ يوليو؟

وقد صرّح القائد «روجرز» نفسه أن عليه أن يعيش إلى الأبد محمِّلا ضميره عبء ما فعل. وقد نشر بعد أربع سنوات تقريره عن إسقاط طائرة «الإيرباص» الإيرانية(*). وشمل ذلك وصفاً حيّاً لهجوم على السفينة «فانسان» من قبل الزوارق الإيرانية. وكان الإشعار الأول بانطلاق طائرة من «بندر عباس» ـ ومن مطارها الحربي والمدني ـ قد أرسل رمزين للتلقّي، الأول يُستخدم لطائرة

(*) بعنوان: «مركز العاصفة: «السفينة الأميركية «فانسان» ورحلة الطائرة الإيرانية ٦٥٥». تأليف «روجرز» وزوجته شارون، من منشورات المعهد البحري في «أنابوليس». وقد أصبح هذا التقرير فيما بعد موضع مناظرات ضارية بين ضباط آخرين في البحرية الأميركية، بمن فيهم قائد السفينة «سايدز».

ركاب، والآخر هو رمز حربي معروف استعماله لطائرات (F-14) الإيرانية المحاربة. وكانت الطائرة أيضاً تحت مراقبة الفرقاطة الأميركية «سايدز» ذات الرمز (FFG-14) التي رأى طاقمها الأجساد تتساقط من السماء، بحسب رواية مراقبي الحركة الجوّية.

وقبل أن تصل طائرة «الإيرباص» إلى بُعد ٤٠ كيلومتراً عن سفينته الحربية، كان «روجرز» قد أرسل تحذيراً بصيغة عادية ـ ولكنه موجّه إلى طائرة مقاتلة: «إلى الطائرة العراقية... المقاتلة السائرة على خط اثنين ـ واحد ـ واحد، بسرعة ٣٦٠ عقدة، وعلو ٩٠٠٠ قدم. هذه سفينة حربية أميركية، بارتكاز اثنين ـ صفر ـ اثنين، تطلب تغيير سيركم فوراً إلى اثنين ـ سبعة ـ صفر، وإذا حافظتم على سيركم الحالي فأنتم تقعون في موضع الخطر، وتتعرّضون لتدابير دفاعية من قبل البحرية الأميركية...» ويقول «روجرز» إنه طلب توضيحاً آخر من الطائرة على بعد ٢٥ كيلومتراً من سفينته. وعند الساعة ٩,٥٤ و٢٢ ثانية صباحاً، أطلق صاروخيه اللذين انفجرا بعد ٢١ ثانية في الطائرة النفّاثة «رضايان» التي لم تعد تظهر على شاشة الرادار في السفينة «فانسان». وقد قدّم طاقم السفينة تقريراً يفيد بأنه رأى لمعان انفجار الصاروخين عبر السراب، بحسب ما كتبه «روجرز». و«علا هتاف تلقائي من الرجال الذين تنفّسوا الصعداء». ولكن طاقم سفينة أميركية أخرى رأوا بعد لحظات جناحاً كبيراً من طائرة تجارية مع حُجيرة محرّك متعلّقة به يهويان إلى البحر.

وقد أظهر استقصاء جرى فيما بعد من قِبل «مركز معلومات المعارك» في السفينة «سايدز»، أن رمز «الإيرباص» هو رمز طائرة تجارية، في الوقت ذاته الذي أطلق النار فيه «روجرز». وقد علّق على ذلك قائد السفينة «سايدز» «دايفيد كارلسون» بقوله إن تدمير الطائرة الإيرانية «دلّ على قمّة ما وصل إليه القائد «روجرز» في عدوانيّته، التي ظهرت لأوّل مرّة منذ أربعة أسابيع». فبتاريخ ٢ حزيران/ يونيو اضطرب اثنان من زملاء «روجرز» لأنه مخر بسفينته قرب فرقاطة إيرانية كانت تنفّذ خطة مشروعة وإنما لا سابقة لها للعثور على ناقلة شحنة من الموادّ الحربية المرسلة إلى العراق. ويوم قصفت «فانسان» طائرة «الإيرباص»

الإيرانية، أرسل «روجرز» مروحية تطير على بعد ميلين أو ثلاثة أميال فقط من مركب إيراني صغير ـ مع أن القواعد تنصّ على أن تكون المروحية على بعد لا يقلّ عن أربعة أميال ـ وتعرّضت المروحية للقصف، بحسب قولهم، وبدأ «روجرز» يطلق النار على بعض القوارب العسكرية الصغيرة الإيرانية؛ مما أزعج قائد سفينة «سايدز» «دايفيد كارلسون»، إذ صرّح في مقابلة مع أحد الضباط البحريين السابقين قائلاً: «لماذا تريد أن يقوم طرّاد درعي يحمي السفن الأخرى بإطلاق النار على القوارب الصغيرة؟ ـ إن ذلك ليس من البراعة في شيء. لقد كان القائد يؤزّم الحالة دون أن تكون لديه خطة...». وقد فتح «روجزر» النار إثر ذلك على قوارب إيرانية ضمن مياهها الإقليمية. مع العلم أن السفينة «فانسان» كانت قد لُقّبت سابقاً باسم «روبوكروزر»، من قبل طاقم السفينة «سايدز».

عندما سمع «كارلسون» لأول مرّة «روجرز» يعلن لرؤسائه عزمه على إسقاط الطائرة التي تقترب من طرّاده، صُعق وقال: «قلتُ لمن حولي: لماذا؟ وماذا يفعل بحقّ الله؟ وعدت إلى التمرين ذاته. طائرة (F-14). إنه يصعد. وصار الآن على علوّ ٧٠٠٠ قدم...» لكن «كارلسون» ظنّ إن السفينة «فانسان» لديها معلومات أكثر ـ ولم يعرف أنهم قالوا لـ «روجرز» خطأ أن تلك الطائرة تهبط. وأسف «كارلسون» لأنه لم يوقف «روجرز». وعندما أدرك رجاله أن الطائرة تجارية «ارتعبوا». وقد بيَّن التقرير الرسمي الأميركي فيما بعد أن معلومات الحاسوب والاستخبارات التي يعتمد عليها، أكّدا أن طائرة القائد «رضايان» كانت على خطّ السير التجاري... وعلى صعود مستمرّ منذ انطلاقها من «بندر عبّاس». وقد قامت مجلّة «نيوزويك» باستقصائها الخاصّ بها، ونعتت التقرير الرسمي بأنه «تلفيق واهٍ، وأنصاف حقائق وخُدع سافرة. ووضعت صورة مثيرة لقائد متلهّف للفتك، وطاقم مرعوب، وللرغبة في تغطية الحقائق...» وجاء في تقرير «نيوزويك» أن الكتب كانت تنزلق عن الرفوف في مركز المعلومات في السفينة «فانسان» خلال مناوراتها قبل إطلاق الصاروخين. فلم تكن هناك والحالة هذه أيّة فرصة لمراجعة توقيت خطوط الطيران.

ولكن في أعقاب المجزرة مباشرة، التزم الأميركيون بقصّة البراءة التامّة. وقد ظهر «بوش» نائب رئيس الولايات المتحدة أمام مجلس الأمن بالأمم المتحدة، ليقول إن السفينة «فانسان» كانت تُسرع لمساعدة سفينة تجارية تتعرّض لهجوم إيراني ـ ممّا كان خبراً عارياً عن الصحّة. أما مرغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا فقد وصفت تدمير طائرة «الإيرباص» الإيرانية بأنه أمر «يمكن أن نتفهّمه». فهل يمكن لتاتشر «أن تتفهّم» إسقاط الإيرانيين لطائرة بريطانية تجارية فوق الخليج والادّعاء بكون الحادث «غلطة»، وأن القائد ظنّ أنه كان تحت وطأة هجوم طائرة نفّاثة أميركية؟ ومن مفاتيح الحادث أن الأميركيين يدّعون أنهم أرسلوا إلى القائد «رضايان» تحذيراً على الموجات العسكرية والمدنية. فهل سمع القائد «رضايان» هذه التحذيرات؟ وإذا لم يسمع، فلماذا لم يسمع؟

وكانت إثباتات تدمير الطائرة منشورة أمام الصحافيين على أرض معرض أمام القيادة البحرية الإيرانية في «بندر عبّاس». ومنها: غطاء محرّك الطائرة، وأجنحة، وقِطع مفصولة، ومثلومة ومحروقة بشظايا معدنية؛ وكتلة ضخمة من رفرف الجناح معوّجة مع فجوة كبيرة في وسطها يبلغ طولها ١٢ سم؛ وجزء من جدار مقصورة الركّاب بحجم ثلاثة أمتار مربّعة، اخترقته الشظايا المعدنية. وقد رأيتُ حروقاً قرمزية وحمراء على جسم بعض الجثث، مما يدلّ على أن هؤلاء كانوا جالسين في وسط الطائرة فوق المحرّكين اللذين جذبا بحرارتهما الصاروخين. وقرب هذا الحُطام، عُرض أيضاً المخروط الأمامي للطائرة، ومزالق النجاة، وأنظمة الكهرباء والأوكسجين. لقد كانت تلك الانفجارات كارثية.

بعد ثلاثة أيام من تدمير طائرة «الإيرباص»، طرت عائداً من «بندر عباس» إلى «دُبي» على متن أول طائرة إيرانية تعاود الطيران على تلك الخطوط. وكان رقم الرحلة طبعاً (IR655). جلست في مقصورة القائد في النفّاثة (بوينغ ٧٠٧)، الذي كان ملّاحاً مساعداً للقائد المرحوم «رضايان». إنه القائد «ناصر» الذي كان يطير مع القائد «رضايان» طيلة الأيام الماضية، ما عدا الأسابيع الستّة الأخيرة، عندما نُقل إلى قسم «البوينغ» ـ مما أنقذ حياته ـ وقد سجّل النقطة

التي أصيبت عندها طائرة «رضايان»، وأصرّ على القول بأنّ صديقه كان دائماً يردّ على تحدّيات البحرية الأميركية في الخليج. قال: «لقد كان رجلاً حسَّاساً وكفؤاً في مهنته، لا يخطىء أو يلاعب الأميركيين، إن ما فعله الأميركيون هو أمر بمنتهى القسوة ـ لا بدّ أن يكون قد أصابهم خوف شديد». أما قولهم بأن الطائرة كانت تقوم بمهمّة انتحارية «فهو قول يثير القرف والاشمئزاز». مع العلم أن «رضايان» طار على هذا الخط في السابق ما لا يقلّ عن ٢٥ مرّة، وكان ربّاناً «للإيرباص» خلال سنتين ونصف السنة. فماذا حدث فعلاً صباح ذلك الأحد المشؤوم؟

ولم يكن من العسير اكتشاف الجواب عن هذا السؤال. فالقائد «أسداپور»، كان عليه أن يتواصل باستمرار مع ثلاثة مراكز لضبط الملاحة الجوّية: طهران، وبندر عبّاس، ودُبي؛ وهو ما فعله بلغة إنكليزية طلقة. وعندما يتكلّم معهم لا يمكنه أن يرسل أو يتلقّى أيّة رسالة على موجة الراديو ١٢١٥ المدنية التي كانت مرتكز طائرتنا «البوينغ» ـ وهي الموجة ذاتها التي أرسلت سفينة «فانسان» عليها تحذيرها للقائد «رضايان». وعندما ارتفع «رضايان» بطائرته من علوّ ١٢٠٠٠ قدم إلى ١٤٠٠٠ قدم ـ ولم ينزل «بطريقة هجومية» كما ادَّعى الأميركيون مبدئياً ـ كان يتكلّم طبعاً مع مطار «بندر عبّاس» على بعد ٥٠ كيلومتراً من السفينة الحربية، وإذ ذاك نسف الصاروخ الأميركي الأول جناح الطائرة الأيسر. وقد أخبرتني المراقبة الأرضية في «بندر عبّاس» أن آخر رسالة بعث بها «رضايان» كانت: «نحن نرتفع إلى علوّ ١٤٠٠٠ قدم». فإذا لم يتمكن «رضايان» من سماع الأميركيين على موجته المدنية، فهو لم يكن أيضاً قادراً على سماعهم على الشبكة العسكرية. ولم تكن رسالتهم سوى تحدٍّ لطائرة حربية من طراز (F-14) غير موجودة، تكاد تُطبق على الطرّاد الأميركي.

ثم كان هناك أيضاً سرّ التلقّي (Transponder). فعلى طائرتنا الإيرانية يلمع ضوء أخضر قرب ركبة الربّان اليسرى. مما يدلّ على أنه يرسل تحديد هويّة في الظلام الدامس فوق الخليج. فأيّة سفينة موجودة تحتنا تمخر في ضوء القمر، تعرف من نحن. وقد أخبر «أسداپور» مراقبة دُبي تكراراً ـ لفائدة جميع

المستمعين ـ أننا في رحلة (IR655)، و«معنا ٤٤ شخصاً في الطائرة». ولو كان جهاز الإرسال والاستقبال غير شغَّال لكان الضوء الأخضر قد انطفأ. وأكد «أسداپور» أنه لا ينطلق أبداً قبل أن يتأكّد من حصول هذا التدقيق. وقد أخبرني «حسين پيروزي»، المراقب الأرضي ومدير مطار «بندر عبّاس» بتاريخ ٣ تموز/ يوليو، أنه يفترض أن جهاز الإرسال والاستقبال لدى «رضايان» كان يعمل. ولا يعقل أن يكون «رضايان» قد انطلق قبل أن يتأكد من لمعان ذلك الضوء الأخضر المطمئن. وكان «پيروزي» رجلاً في منتصف العمر، له شارب أسمر حاذق، وشعر أجعد؛ تلقّى تدريبه الكامل في مراقبة الملاحة الجوّية في مطار «هيثرو» بلندن. قال إنه لم يعلم بوجود أيّ اشتباك بحري يجري عند انطلاق «رضايان» بطائرته. كما اكتشفنا فيما بعد أنه لم تكن هناك أية معركة قائمة عند وقت الانطلاق. قال «پيروزي»: «يذيع الأميركيون تحذيرات في كلّ مرّة يرون فيها زورقاً مسرعاً ـ ويتّخذون وضع «التأهّب الأحمر» عندما يرون كلّ طائرة. ليس لهم الحقّ أن يكونوا في الخليج، وأن يتحدّوا حقنا الشرعي في أن نطير على خطوطنا الجوّية ـ ولماذا علينا أن نردَّ عليهم؟».

كان تعليقه مُفحماً. وحتى لو كان الافتراض السعيد «لپيروزي»، القائل إن الأميركيين لن يطلقوا النار أبداً على طائرة «إيرباص»، قد اتُّخذ قاعدة لسياسة الملاحة الجوّية، لكان من اليسير فهم الهلع الذي انتاب الطواقم البحرية الأميركية، المعبّئين نفسيّاً ضدّ ذلك البلد الذي حمّله رئيس جمهوريتهم مسؤولية حرب الخليج، بحيث أطلقوا النار على أول طائرة اقتربت من سفينتهم، بعدما ورَّطوا أنفسهم في قتال مع مركب حراسة إيراني صغير.

فهل كان ذلك جزعاً وهلعاً، كما ارتأت مجلّة «نيوزويك» بعد أربع سنوات، جعل ضبّاط السفينة «فانسان» يسيئون قراءة المعلومات التي بدت على شاشات رادارهم، ورؤية طائرة هابطة عليهم؛ بينما كانت في الواقع ترتفع؛ فضلاً عن الحرّ الخانق الذي يكتنف أجسام وطاقات الطواقم البحريّة التي تعمل فوق مياه الخليج؟ وعلاوة على ذلك، ألم تكن إيران آنذاك هي العدوّ؟ ألم تكن «دولة إرهابية» ألم تكن بحسب كلمات «ريغان» «بلداً بربرياً»؟ ألم يكن القائد

«رضايان» وركّابه المسافرون فوق الخليج غريبين عنهم؟ ألم تكن هناك فجوة ثقافية ووجدانية تفصل بين أميركا وإيران، بل هوّة عميقة وخطرة، نسف تيّارها الصاعد طائرة «إيرباص» إيرانية في الجو؟

لا شيء يمكن أن يوضح ما حدث ويثير مزيداً من الألم سوى ردّ الفعل الأميركي على قتل ٢٩٠ مدنياً بريئاً بواسطة السفينة الحربية «فانسان». فقد تطوّع سكّان مدينة «فانسان» في ولاية إنديانا، للقيام بحملة تبرّع لإقامة نصب تذكاري ـ لا للضحايا الإيرانيين، بل للسفينة التي سلبتهم حياتهم(*). وعندما عادت السفينة «فانسان» إلى قاعدتها الوطنية في «سان دياغو»، استقبلوها استقبال الأبطال؛ وأُعطي رجالها أوسمة تقدير للعمل القتالي. وقد نال منسّق العمل الحربي الجوّي الضابط «سكوت لستيغ» مدالية الإطراء البحرية، «لإنجازه البطولي»، و«لمحافظته على رباطة جأشه وثقته بنفسه تحت وطأة إطلاق النار» التي مكّنته من «إتمام إطلاق النار بسرعة واختصار»؛ حتى أن مجلة «نيوزويك» اضطرّت إلى وصف ذلك «بالسوريالية». وقد تقاعد «روجرز» بشرفه العسكري عام ١٩٩١. وبعد أقلّ من سنة على إسقاط طائرة «الإيرباص» تعرّضت زوجته «شارون» لانفجار تحت سيّارتها «التويوتا» في «سان دياغو»؛ ولكنها لم تُصب بأذى. وكتب «روجرز» أن واسطة العقد في كتابه كانت «أحداث ٣ تموز/ يوليو ١٩٨٨ و١٠ آذار/ مارس ١٩٨٩ ـ وكأنَّ حمّام الدم الذي حصل فوق الخليج والمحاولة الفاشلة لعقاب زوجته، كانا متعادلين؛ وهي الفكرة التي عُرضت على غلاف الكتاب، حيث وصف محتواه بأنه «تقرير شخصي عن المأساة والإرهاب».

ولكن، من العدل أن نذكر لـ «روجرز» أنه ضمَّن كتابه رسالة طويلة مريرة كُتبت بخط اليد، أرسلها إليه «حسين» شقيق القائد «رضايان»، ويقول فيها:

(*) أُطلق اسم «فانسان» (Vincennes) تيمّناً باسم المدينة الأميركية المشار إليها في القطاع الجنوبي ـ الغربي من الولايات المتحدة الأميركية، حيث توجد قلعة بناها الفرنسيون، واستولت عليها القوات الأميركية بقيادة «جورج روجرز كلارك»، عام ١٧٧٩. أما السفينة «ستارك» السيّئة الحظ، فحملت اسم اللواء «جان ستارك»، الذي قاتل في «بنكر هيل» عام ١٧٧٥.

«لقد تحوّل أخي إلى رماد في الفضاء بفعل سدّ النيران الذي أقامه هجومكم بالصواريخ، واندثر مع عدد كبير من الأرواح البريئة التي كانت على متن الطائرة، دون أن يرتكبوا أقلّ خطيئة أو إثم من أيّ نوع كان.

«كنتُ في منطقة المجزرة ثاني يوم حدوثها؛ ولسوء الحظ شاهدت نتيجة جريمتكم البربرية، وضخامتها. لقد كنت أنا أيضاً قائداً بحرياً؛ ودرستُ في الولايات المتحدة الأميركية، مثل المرحوم أخي. ولكن منذ إسقاط الطائرة الذي لا يعقل، شعرت حقاً بخجل من نفسي. كرهت بحرّيتكم وبحريّتنا؛ حتى أني تركت وظيفتي ودمَّرت مستقبلي... ومستقبل عائلتي... وربما استطعت أن أتحمل ألم المأساة، لو مات أخي (محسن) في حادث، ولكن هذا الأمر المدبَّر والمفتعل لا يُغتفر ولا يُنسى... والحكومة الأميركية بصفتها المجرمة في هذا الحادث المريع، لم تظهر أي تأنيب للضمير، أو أيّ تعاطف مع فقدان هذه الأرواح البريئة... ألا نستحقّ أيّة بادرة صغيرة من العطف؟ وهل كان عليكم أن تتفوّهوا بجملة من الأكاذيب والتصريحات المتناقضة حول الحادث من أجل تبرير وقوعه؟... أو أنه كان نتيجة هلع وقلّة خبرة. إني أقدّر لكم إجابتكم العاجلة عن هذه الرسالة».

وقد أحسن «روجرز» بإعطاء هذه الرسالة موقعاً بارزاً في كتابه. وكتب يقول: «بالرغم من النقد العنيف الساخر البادي في هذه الرسالة، ألمَّ بي الألم والحزن المتفجران من هذه الرسالة، وضرباني بقسوة. فكل الحزن والهمّ اللذين انتاباني منذ تموز/ يوليو عادا إليّ بقوة». وقد أراد «روجرز» أن يجيب عن الرسالة، لكن ضابط العلاقات العامّة في البحرية الأميركية حذّره من أن تستخدم الحكومة الإيرانية المراسلة الجوابية «لغايات سياسية». وهكذا بقي الإيرانيون هم الأشرار. وسُلِّمت رسالة «حسين رضايان» إلى قسم الاستخبارات في البحرية الأميركية؛ ولعلَّهم قرأوها.

لم يكن هناك من فائدة كبرى تُجنى من قراءة تقريري الأول عن المجزرة. ولكن، كنتُ أثق إلى حدٍّ كبير برؤساء التحرير الذين أتعاطى معهم؛ فجريدة مثل «التايمز» احترمت مراسلتي لها خلال ١٨ عاماً بشأن: الجيش البريطاني في إيرلندا الشمالية، والإسرائيليين والفلسطينيين، والسلطات الأميركية والإيرانيين والعراقيين عندما كانوا يشتكون من تقاريري. وعندما كانت تقاريري تُجتزأ، كان يحصل ذلك لأسباب وجيهة مثل تدبير مكان لها في الجريدة ـ فقد كانوا يسمحون لي باختصارها ـ أو تغيير موقعها في الجريدة، نظراً لوصول أخبار عاجلة تقضي بتغيير موقع الصفحات، ولكنهم لم يجتزئوا منها أبداً لأسباب سياسية.

اشترى «مورداك» جريدة «التايمز» قبل أن يغزو الإسرائيليون لبنان عام ١٩٨٢؛ ولكنّني قدّمت تقاريري دون أيّة مراقبة عليها ذاكراً أن إسرائيل قتلت حوالى ١٧٠٠٠ شخص من اللبنانيين والفلسطينيين ـ ومعظمهم من المدنيين ـ وما تبع ذلك من مذبحة مئات من اللاجئين الفلسطينيين بواسطة حلفاء إسرائيل المسيحيين، وقد أدانت السفارة الإسرائيلية تقاريري، كما أدانت أيّة تقارير صحافية أخرى تجرّأت على ذكر أن الجيش الإسرائيلي غير المنضبط قتل المدنيين كما قتل العسكر. إنما لم يحدث أن تغيّر ما كتبه أيّ مراسل أجنبي، بسبب الخوف أو التحيُّز، تحت قيادة رئيس التحرير «تشارلس دوغلاس هوم». وكان نائبه «تشارلس ويلسون» رجلاً صلب العود من البحرية الملكية؛ وقد يتنمّر، لكنه لم يلطِّف كلامه بخصوص إسرائيل أو أيّة دولة أخرى تحاول أن تطعن في استقامة صحافيي الجريدة. وعندما أخبرته أن التصريح الإسرائيلي الذي يدين تقاريري كان محشوّاً بأخطاء في الوقائع، زمجر قائلاً: «يا لهم من زمرة من الفاشيين».

على أن الإسرائيليين ليسوا فاشيين؛ ولكنه أمر جيّد أن لا يخاف نائب رئيس التحرير من مناوئي المراسل. وقد صار «ويلسون» رئيساً للتحرير بعد وفاة «دوغلاس هوم» بالسرطان؛ وبقي متنمّراً، لكنه كان يمكن أيضاً أن يكون بمنتهى اللطف؛ ولاسيّما إزاء الموظفين الذين أصابهم مرض؛ فقد كان درعاً من القوة والتعاطف معهم. لقد أراد أن يكون محبوباً. وكان كريماً جدّاً معي عندما

احتجت لأسباب شخصية إلى أن أعمل سنة في باريس. ولكن، حصل بعد ظهر أحد الأيام أن أرسلتُ تقريراً طويلاً ومفصّلاً، يستقصي أحوال التعذيب الذي تقوم به إسرائيل في سجن «الخيام» بجنوبي لبنان. ولم يمضِ على إرسال التقرير ساعة، حتى تلقّيت من مكتب الصحيفة الأجنبي تلكساً يطلب مني أن أوافق على زيادة فقرة إلى التقرير بمعنى أن المزاعم حول مثل هذا التعذيب ـ بالضرب ومسّ أعضاء التناسل بالكهرباء ـ هي أمور معتادة في الدعاية التي يقوم بها أعداء إسرائيل. فاعترضت؛ إذ كانت لديّ إثباتات من الأمم المتحدة تدعم استقصائي ـ وقد تأكد كل ذلك في تقرير مفحم نشرته لجنة العفو الدولية. وفي آخر المطاف، أدخلتُ في تقريري المذكور فقرة ساندت فحوى التقرير تقول: لنستخدم مثل هذا المزاعم ضدّ إسرائيل، ولكن في هذه المرّة لا شك في أن هذه الاتهامات صادقة.

ربحت هذه الجولة، ولم أعد أفكّر فيها. ثم ظهر مقال على الصفحة الوسطى من «التايمز»، التي تُحجز في العادة للتعليق والتحليل. وادَّعى أنه يشرح الصعوبات التي تعترض كتابة التقارير الصحفية في الشرق الأوسط ـ على أساس التخويف الذي يلقاه الصحافيون من «الإرهابيين» ـ ثم ينتهي المقال معمّماً بأنّ كل من يكتب تقاريره من بيروت هو طفيلي مبتزّ. وكنتُ أنا أكتب تقاريري من بيروت؛ حيث مقرّي كمراسل من الشرق الأوسط ـ وبخاصّة لجريدة «التايمز» ذاتها. فما معنى ذلك؟ ـ تجنّب قسم الجريدة الأجنبي هذا الإحراج بالضحك. ولكني لم أضحك؛ بل تساءلتُ هل كان «ويلسون» يحاول أن «يعادل» مقالاتي بالسماح لأعداء النقل الصادق للأخبار أن يسيئوا معاملتي في الجريدة؟ كلّا، إن ذلك مستحيل. أنا لا أؤمن بالمؤامرات. كما كنتُ أعلم أن «ويلسون» لا يقرأ الصفحة الوسطى من الجريدة.

ولكن القضية أصبحت أكثر جدِّية بتاريخ ٤ تموز/ يوليو ١٩٨٨، عندما اكتشفت أن تقريري الرئيسي «للتايمز» ـ الذي طُلب مني كتابته للصفحة الأولى ـ لم يظهر في عدد الجريدة لليوم التالي. لقد أزالوا من النشر كل الاستقصاءات التي قمتُ بها عن هلع طواقم السفن الحربية الأميركية وقلّة فعاليتهم في

الخليج، وكل البراهين على أن الموظفين الأميركيين عرَّضوا الطائرات المدنية للخطر طوال أسابيع ـ ولا سيّما المحادثات الطويلة والمفصَّلة التي عقدتها مع مراقبي الملاحة الجوية في دُبي، أولئك الذين سمعوا المخاطبات بين ضبّاط البحرية الأميركية، عندما كانت السفينة «فانسان» تُسقط طائرة «الإيرباص» الإيرانية. ولو كان هناك شكّ في مصداقية تقريري، لأثيرت القضية معي ذلك المساء عندما قدّمتُ تقريري. ولكن لم يكن هناك سوى الصمت المطبق. كما أنه كان هناك أيضاً تقريران عاديّان حول ردّ الفعل الإيراني على تدمير الطائرة وإمكان الاقتصاص من الأميركيين ـ نُشرا في وسط الصحيفة.

وفي صباح اليوم التالي، تكلّمت مع «بيرز أكرمان» في مكتب الصحيفة الأجنبي، فأخبرني أن قصّتي ألغيت في الطبعة الأولى لعدم توافر مكان لها، ولكن صيغتها المختصرة التي أعيدت للنشر تضمّنت «النقط الرئيسة». وعندما سألت عن إمكان حصول هذا الاجتزاء لأسباب سياسية، قال: و«ربّي، لو عرفتُ أن الأمور وصلت إلى هذا الحدّ، لاستقلت». فأعلمته أيضاً أنه لو رشح لي أن الاجتزاء كان سياسياً، لاستقلت»: لم تصل جريدة «التايمز» إلى الخليج إلّا بعد أيام، وكنتُ قد سافرت إلى إيران، فلذلك لم أقرأ تلك الجريدة خلال عدّة أيام. وعندما رأيت النشرات اللاحقة وجدت أن كل عنصر ذكرته في قصتي مما ينعكس سلبياً على الأميركيين قد أُزيل.

لا يجدر أن يكون الصحافيون تحت الأضواء، مثل المغنّيات الأوليات في الأوبرا؛ إذ علينا أن نجاهد لنثبت قيمة عملنا. ولا يعمل رؤساء التحرير ولا القرَّاء لصالح الصحافيين. ولكنّ هناك شيئاً غير أخلاقي في هذا الأمر: فقد جرت مراقبة، وتلطيف، وتغيير لمقالي عن إسقاط طائرة «الإيرباص» الإيرانية، بكل معنى الكلمة. لقد غُيّرت معانيه عن طريق الحذف. فأصبح الأميركيون في تقريري المجتزأ أبرياء بالتأكيد، مثلما ظهروا معذورين تماماً في تصريح السيدة «تاتشر». شعرت حينئذ أن هذا الأمر حدث بسبب ملكية «مورداك» لجريدة «التايمز». لم أعتقد أنه متورّط شخصياً في القصص الفردية التي تُنشر في الجريدة ـ مع أن هذا يمكن أن يحصل ـ بل لأن ملكيّته بثّت ثقافة طاعة

ومطاوعة في أعمال الجريدة كافّة، على أساس الشعور بأن وجهات نظر «مورداك» ـ وما يريده «مورداك» ـ هي شؤون «معروفة».

وما صعقني هو أن يكون الموظف في قسم الجريدة الأجنبي الذي كان شديد الحماس لإدخال فقرة «الدعاية» إلى مقالي عن التعذيب في سجن «الخيام»، عضواً يسارياً في «اتحاد الصحافيين القومي» ـ ذلك الاتحاد الذي بذل جهده لإضعاف ثقة «اللورد ثومسون» في جريدته «التايمز»، ولتوضيب الجريدة وتهيئتها ليشتريها «مورداك». فقد انقلب أسد اشتراكي إلى فأرة لشركة الأخبار (News Corp). إني لست أسداً ولا فأرة، ولكني كلب شديد المراس؛ وعندما أُمسك بحبل بين أسناني، لا أرخيه إلّا بعد أن أهزّه وأشدّه كشيء نتن، حتى أرى ما يكمن فيه عند طرفه الآخر. وهذا في نهاية الأمر ما يفترض في الصحافيين أن يقوموا به. ولكن استفساراتي اللاحقة من مكتب القسم الأجنبي في الصحيفة، لم تُسفر عن أيّة معلومات. فالمحرّر المطاوع «جورج بروك» الذي يعاون «ويلسون» لا يكون متاحاً لي أن أودعه ملاحظاتي؛ بينما «ويلسون» يقضي إجازته؛ والموظفون البديلون لا يداومون ليلاً عندما أتلفن. وهكذا مضت أيام على تقديم تقريري الأصلي المشار إليه؛ ولكني لم أترك القضية. فاقتطاع أو «تشذيب» أجزاء من مقال لعدم توافر مكان له في الجريدة هو أمر وتعريض حياة الصحافي للخطر ليجد على الأثر أن الناشرين ليست لديهم الشجاعة اللازمة لنشر التقرير، هو أمر آخر. وهكذا حدث لي في الخليج وفي صيفه اللاهب، أن فقدت إيماني بجريدة «التايمز».

قرّرتُ أن أنضمّ إلى هيئة جريدة هشّة، ذكية، شجاعة، وقليلة التمويل؛ ولكنها حرّة مستقلّة ـ وهي بالطبع ـ جريدة «الإندبندنت» (The Independent)، أي «المستقلّة». وستمرّ شهور قبل أن أُقنع «أندرياس ويثام سميث»، رئيس تحريرها والمالك لها جزئياً، أن يضمني إلى فريقه، أو يقوم «بتوزيع» الحصص المِقنّنة، بحسب تعبيره. وهكذا استغرق الأمر حوالى سنة، حتى صرتُ أكتب من الشرق الأوسط لرئيس تحرير جديد، ولجريدة جديدة، ولزملاء جدد ـ مع العلم أن كثيراً منهم رفاق لاجئون جاؤوا من جريدة «التايمز».

ولم أعرف أنني بدَّلتُ ولائي لأسباب وجيهة، إلّا بعد أن قدّمت استقالتي إلى «ويلسون» في جريدة «التايمز». فبعد حلول العام الجديد ١٩٨٨، تلقّيت مخابرة من أحد المحرّرين الليليين الأعلى مقاماً في الجريدة، الذي أراد أن يحدّثني عن قصّة «فانسان» بقوله:

«نصحتُ رئيس التحرير في اجتماع يوم الأحد المعقود عند الساعة الخامسة بعد الظهر بأن نُفسح لمقالك نشراً عريضاً في مطلع الصفحة الأولى على ثمانية أعمدة. فقال «ويلسون» إنه يريد أن يطّلع على القصّة، التي كانت تدور حول قلّة كفاءة طقم العاملين في السفينة «فانسان». قرأته وقلتُ لنفسي: هذه أوضح قصّة قرأتها حتى الآن حول ما حدث فعلاً. وقد واجهت رئيس التحرير فيما بعد على المقعد الخلفي. فسألني «ويلسون»: «هل هذه هي القصة التي تتكلّم عنها؟» قلت: نعم. قال: «ليس فيها شيء؛ ليس فيها أيّة واقعة؛ إني لا أنشر مثل هذا الكلام الغامض». ووصفها «ويلسون» بألقاب مثل: (Hollocks) والبسكوتة الهشّة. وأذكر أني قلت لتشارلي: «هل أنت متأكد؟ إنها قصّة هائلة». لقد صُدمتُ. نظرت في مفكّرتي ليلة ٣ تموز/ يوليو فوجدت ما يلي: «مجزرة، فوضى في قصة الخليج. بروك يكتب مجدّداً إلى فيسك».

لم يظهر المقال في النشرة الأولى، لكن القصّة ظهرت في النشرة الثانية بعد أن أُزيلت منها كل الإشارات إلى قلّة الكفاءة الأميركية. راجعتها على الشاشة، فوجدت أن «جورج بروك» هو الذي دقّق في أمر نشرها. وقد حذف منها كل تلك الإشارات. وقد كتب على رأس المقال ملاحظة تقول «لا يجوز معاودة نشر الأجزاء المقتطعة من هذه القصّة، في أيّ حال من الأحوال». أردتُ أن أستقيل. ولكني راجعت نفسي بهذا الشأن، ولم أستقل. ربما كان عليّ أن أستقيل. أخبرت «دنيس تايلور» عن هذا الأمر في القسم؛ فاشمئزّ. وعلم جميع الأعضاء العاملين في قسم الصحيفة الأجنبي بالأمر.

ولكن، لم يفعلوا شيئاً بهذا الخصوص. لقد خافوا. ولم يخبرك أحد بهذا. فقلت لنفسي: ربما كان أفضل للجريدة أن لا يعلم بوب (أي روبرت) بهذا الأمر. خفتُ أن تستقيل إذا علمتَ بذلك».

وفي اليوم الذي قدّمتُ فيه أول قصّة لي عن السفينة «فانسان»، تكلّمت مع «بيرز أكرمان»، وطلبت منه أن يُعلم الكتاب الأساسيين في الجريدة بنصيحتي القائلة إنه مهما كان ردّ فعل رؤساء التحرير على الكارثة، يجدر بنا أن لا ننساق مع التوجّه القائل بأن «محسن رضايان» كان ربّاناً ينوي الانتحار، الأمر الذي هو هُراء. وقال لي «أكرمان» إنه بلّغهم نصيحتي. ولكنّ المقال الافتتاحي عاد يقول إن الطائرة ربّما كانت تحت إمرة ربّان «انتحاري». وكان ذلك عارياً عن الصحّة تماماً. وهكذا تشوّه جوهر قصتي، حالما جرى تشذيبها المنشور في الصحيفة ذلك الصباح ذاته. فقد قُدِّمت لقرَّاء «التايمز» بجلال ومهابة صيغة احتيالية، خادعة، مغشوشة عن الحقيقة.

قلّما تُقدَّم للصحافي ترضية معقولة، عندما لا تنشر الصحيفة التي يكتب فيها القصّة الحقيقية. ولكن «فنسنت براوني» رئيس التحرير العنيد «للصنداي تريبيون» في «دبلن»، وهو صديق وزميل قديم لي من إيرلندا الشمالية، لم يخشَ قول الحقيقة عمّا يجري في الخليج، كما فعل «ويلسون». فقد دعاني لأن أكتب لصحيفته ثمار استقصاءاتي. ونشرها على الصفحة الأولى لجريدته، مع صورة شغلت نصف الصفحة لطرّاد أميركي مدرَّع يُطلق صاروخاً إلى السماء، مع تضمين الصورة هذا العنوان: «ماذا حدث فعلاً؟»، مع مقالي على كامل تلك الصفحة. وهكذا سمح لسكّان منطقة (County Mayo) أن يقرأوا ما حُجب عن قرَّاء «التايمز» في لندن.

من اليسير أن يشعر الصحافي بأهمّيته الذاتية بخصوص إنجازه، وأن يدَّعي بأنه هو الوحيد الذي يحمل الحقيقة، وأنّ على سائر المحرّرين أن يفسحوا له في المجال، كي يكشف عن عبقريّته للقرّاء. كما يغريه أن يقدِّم حججه الصحفية على المآسي المروِّعة التي يفترض فينا، نحن الصحافيين، أن نغطّيها بمقالاتنا. علينا أن نحسّ ببعض الاتِّساق، وأن يكون لدينا منظور واضح في عملنا. ماذا

أفعل؟ ماذا يفعل فيسك؟ أستطيع أن أسمع مُراجعاً معادياً لهذا الكتاب يتساءل بشأن الكتابة عن قتل ٢٩٠ شخصاً بريئاً من الكائنات البشرية قتلاً عنيفاً، ثم يستغرق ردّه خمس صفحات يشرح فيها مشاجراته الصغيرة مع «التايمز». والجواب يسير. فعندما نفشل، نحن الصحافيين، في كشف حقيقة الأحداث لقرّائنا، لا نكون قد فشلنا في عملنا فحسب، بل نكون قد أصبحنا طرفاً في النزاعات الدامية التي يفترض فينا أن نكتب عنها. فإذا لم نتمكّن من قول الحقيقة حول إسقاط طائرة ركّاب مدنية ـ لأن ذلك «يضرّنا» في الحرب، أو لأنه يجعل من البلد الذي «نكرهه» ضحية، أو لأنه يُزعج صاحب جريدتنا ـ عندئذٍ، نسهم نحن في التحيّزات التي تسبّب الحروب، بالدرجة الأولى. وإذا كنا لا نستطيع أن نطلق صفّارة الاستنكار لبحرية تطلق النار على مدنيين في عرض السماء، فإننا إذ ذاك نجعل من مثل هذا القتل أمراً «قابلاً للتفهّم» في المستقبل، كما وجدته السيدة «تاتشر». فلنسقطْ من حسابنا رعب الأميركيين وقلّة كفاءتهم ـ كما سيظهر كل ذلك في الأشهر التالية ـ ولنزعمْ أن الطيّار كان مهووساً بالانتحار، فلا يبقى لنا في هذه الحال سوى مرور بعض الوقت قبل أن ننسف طائرة مدنية أخرى في الجوّ. وتكون الصحافة إذ ذاك أمراً قاتلاً.

ولكني بقيت أتساءل، وأنا أقف في مستودع الجثث في «بندر عباس»، عن إمكان حصول حوادث مشابهة لهذا القتل الجماعي، مثلما حدث فوق بلدة «لوكربي» الاسكتلندية، بعد خمسة أشهر. وخلال ساعات من تدمير طائرة «الإيرباص» الإيرانية بتاريخ ٣ تموز/ يوليو ١٩٨٨، صرّح الرئيس خامنئي، رئيس إيران، بأن ريغان وإدارته هم جماعة من «المجرمين والقتلة». وأعلن راديو طهران وعيده بالقول: «لن تُترك جرائم أميركا دون قِصاص... إننا سنقاوم مؤامرات الشيطان الأكبر، وننتقم لدماء شهدائنا من المجرمين المرتزقة». ولم يكن لديّ شكّ في ما يعنيه هذا الكلام. وعندما عدتُ إلى بيروت لم أصادف أحداً يعتقد أن السفينة «فانسان» أسقطت الطائرة الإيرانية بطريق الخطأ. لكنني صرت أسمع ملاحظات متفرّقة مقلقة. فعلى مائدة الغداء، تصوّر أحد الأطبّاء الذي يتزعّم المناداة باللاعنف ـ أنه يجوز أن تكون الطائرة قد لُغمت بقنبلة موجودة بين الأمتعة المحمولة في الطائرة. وبعد عدّة أيام، قلت لنفسي،

إذا كان الناس يتكلّمون عن هذا الأمر بهذا الاستخفاف، فلا بدّ أن ينبري أحد ليجرِّب ذلك.

وقد كان للإيرانيين دافع، على الأقل. لكنّ تدمير طائرة الركاب الإيرانية عمل رهيب، مهما كانت أعذار واشنطن. ولكن هل يتطوّع أحد لتدبير الانتقام؟ كنتُ في باريس عندما أعلنت هيئة الإذاعة البريطانية عن سقوط طائرة «پان أميركان» فوق بلدة «لوكربي». وكانت الحصيلة هذه المرّة ٢٧٠ روحاً أُزهقت في الطائرة، فضلاً عن أحد عشر قتيلاً على الأرض. لم أحتجْ أن أتصوّر الجثث ـ إذ إنني رأيتها في تموز/ يوليو ـ ولم أشكّ لحظة في السبب. فقد كانت هناك نظريات المؤامرات المعهودة: خطة فاشلة من قِبل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) بتغطية قوامها مكافحة المخدّرات، تدخّل فيها العملاء الأميركيون على الأرض بعد الحادث لإزالة الإثباتات. ومن ثمَّ انتقام إيراني للقتل الجماعي في طائرة «الإيرباص».

وكانت هذه النظرية الأخيرة محبَّذة في الولايات المتحدة الأميركية. فأظهرت الأخبار من جديد شريط الفيديو ـ الذي صوَّره فريق البحرية الأميركية ـ عن السفينة الحربية «فانسان»، وهي تطلق صواريخها بتاريخ ٣ تموز/ يوليو. وقد رأى القائد «روجرز» الشريط من جديد، وكتبت فيما بعد أنه «شعر بعقدة في معدته، وتساءل هلّا يتوقف هذا الأمر أبداً؟» لقد كان التوازي بين الحادثتين معقولاً، ولكن ليس من الناحية الأخلاقية. فإبادة «الإيرباص» كانت قتلاً جماعياً مخجلاً، لكنّ «لوكربي» كانت عملية اغتيال. وقد قال لي أحد معارفي القدماء في بيروت ممَّن لهم اتصالات رهيبة في عالم الرهائن، بهدوء: «إنه (أحمد) جبريل والإيرانيون». وكان جبريل رئيساً «للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة» المتمركزة في دمشق. وكان المراسلون الدبلوماسيون في واشنطن ولندن ـ وهم يشكّلون الذرائع التي تتستّر وراءها اتهامات الحكومة ـ قد بدأوا يشيرون إلى الإيرانيين، والجبهة الشعبية المذكورة، والسوريين. وفي طهران، كان الناس ينظرون إليّ نظرات حادّة عندما أذكر حادثة «لوكربي»؛ مع أنهم لم

يدَّعوا أبداً أنهم مسؤولون عنها؛ كما أنهم لم يستنكروا أبداً فظاعتها. ولكن بعد حصول مذبحة «الإيرباص»، قد يتحرَّون هذا الأمر أكثر.

وفي بيروت، صار رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة معروفين بأنهم «جماعة لوكربي»؛ ولكنّي لم أعلّق أهمّية على ذلك. إنما حدث شيء غريب بعد سنتين. فقد عقد جبريل مؤتمراً صحفياً في مخيّم من المخيّمات الفلسطينية في بيروت، ليتحدّث أولاً عن إطلاق ليبيا سراح الرهائن الفرنسيين والبلجيكيين الذين احتجزوا في سفينة في البحر الأبيض المتوسط. ولكن ذلك لم يكن ما يشغل باله؛ إذ انتقل فجأة إلى القول: «إني لست مسؤولاً عن تفجير طائرة لوكربي؛ وهم يحاولون زجّي في محاكمة لا تراعي مبادىء العدالة». مع العلم أنه لم تكن هناك محكمة آنذاك؛ ولم يتهمه أحد بحادثة «لوكربي». كانت إيران عدوّاً لصدّام الهمجي؛ وكانت سوريا ترسل دبّاباتها لتنضمّ إلى الجيوش الغربية في الخليج. وقد توارى رجال جبريل عن الأنظار؛ وكذلك إيران، البلد الوحيد الذي قد يكون له دافع لذلك الأمر.

وفي أعقاب إسقاط طائرة «الإيرباص» الإيرانية، علَّق آية الله حسين علي منتظري، الذي كان متوقّعاً أن يخلف الخميني، قائلاً: «إنني متأكّد من أنه إذا صدرت أوامر الإمام ستنبري جميع القوّات الثورية وخلايا المقاومة، داخل البلاد وخارجها، لتصبّ جام غضبها على المصالح الأميركية المالية، والسياسية، والاقتصادية والعسكرية». لكنّ هجوم السفينة «فانسان» أقنع معظم القيادات الإيرانية بأن الولايات المتحدة الأميركية قد انضمّت في الحرب إلى جانب العراق. فالأميركيون قد دمَّروا منصَّات النفط الإيرانية، وأزالو البحرية الإيرانية؛ ويبدو أنهم عازمون الآن على استعمال الصواريخ ضدّ طائرات الركّاب المدنية، كل تلك الأمور التي اتَّخذها صدّام حسين أهدافاً يهاجمها. وصار الاقتصاد الإيراني في حالة انهيار؛ وحذَّر رفسنجاني الخميني من أن معاودة إمداد الجيوش الجرَّارة الإيرانية صارت مستحيلة، ولم يعد بالإمكان تجديد الهجوم على العراق، بحسب ما علم الخميني من «محسن رضائي» القائد العام لحراس الثورة في البلاد، حتى عام ١٩٩٣. ولذلك قبل الخميني قرار

مجلس الأمن في الأمم المتحدة ذا الرقم ٥٩٨، ووقف إطلاق النار بدءاً من ٢٢ تموز/ يوليو ١٩٨٨، حمايةً للثورة الإسلامية ـ وبقائها على قيد الحياة ـ و«لصالح استتباب الأمن على أساس العدالة». وكان ذلك للشيخ الهرم بمثابة كارثة شخصية وعسكرية؛ إذ قال بكآبة: «وا أسفاه، لأنني ما زلت على قيد الحياة، وقدِّر لي أن أتجرّع في الثورة كأسَ السمّ».

ولكن الآتي كان أدهى وأمرّ؛ إذ لم يمضِ أسبوع على قبول الخميني قرار الأمم المتحدة بتاريخ ١٨ تموز/ يوليو، حتى تجاوز «جيش التحرير الوطني» لمجاهدي «خلق» الحدود الإيرانية بدبّابات ومدرّعات عراقية لقلب نظام الخميني. وكان ذلك منتهى الخيانة بنظرهم، لأن المهاجمين هم أيضاً إيرانيون، فقاتلوهم بشراسة؛ وبدأت الشرطة السرِّية بتصفية مؤيّدي أولئك المجاهدين، بالجملة. وانقلب حرّاس الثورة على المجاهدين، وشنقوا أسراهم باستعجال في بختران، وكنغافار، وإسلام أباد. وتعرّض آلاف من المجاهدين ومناصريهم، والذين لا يزالون منهم مسجونين في كل إيران إلى معاودة محاكمتهم، وشنقهم.

وقالت جريدة «رسالات»: «نطلب من القائد أن يتعامل بقسوة مع المجرمين، وأن يخلّص الناس من وجودهم بأسرع ما يمكن». وألقى «آية الله الموسوي الأردبيلي»، رئيس المحكمة العليا خطبة نارية يوم الجمعة في طهران. وجاء فيها: «إن المنافقين لا يعلمون أن الناس يعتبرونهم أقلّ من الحيوانات؛ إنهم غاضبون منهم. وصار القضاء واقعاً تحت ضغط كبير من الرأي العام... إذ يقول الناس إنه يجب إعدامهم جميعاً... سنحاكمهم، عشرة عشرة، أو عشرين عشرين، ونأتي بملفّ ونستبعد ملفّاً آخر؛ وآسف لعلمي أن ربع الملفّات قد ضاع، فقد كنت أتمنّى تدمير جميع الملفّات...» مع العلم أن عبارة «المنافقين» تشمل الهرطقة والردَّة، أي أكثر من أن يكون المرء ثنائي الولاء. فالنفاق إثم كبير يستحقّ العقوبة القصوى أي الإعدام.

وحتى قبل أن تنتهي الحرب، جرت معاودة استجواب جماهير المسجونين في إيران، وتمّ تصنيفهم إلى الذين لا يزالون يقرّون بمقاومتهم للجمهورية

الإسلامية، وأولئك الذين تابوا ـ والذين يصلّون، والذين لا يصلّون. وعند حدٍّ معيّن، أمر الخميني بتصفية المساجين السياسيين بالجملة؛ مع العلم أن هذا الأمر بقي سرّاً؛ وأن آية الله منتظري، الذي اختير ليخلف الخميني، اعترض بقوّة على المذابح، فصُرف النظر عنه كإمام للمستقبل. وقد جاء في رسالة وجّهها منتظري إلى الخميني: «... أما بشأن أمرك بإعدام المنافقين في السجن، فإن الأمّة مستعدّة لقبول الإعدام، إذا كان الموقوفون على صلة بالأحداث الأخيرة (أي بغزو المجاهدين المدعوم من قِبل العراق)... لكنّ إعدام الذين سبق وجودهم في السجن... قد يؤوَّل كانتقام وأخذ بالثأر». وقد جرى تقسيم نزلاء السجون إلى فئتين أوقفتا إلى الجانبين المتقابلين من الممرات: إحداهما ستعود إلى زنزاناتها بعد التوبة، والأخرى تساق فوراً إلى مقصلة الجماهير. وقد بدأ الحرس الثوري في سجن «إيفين» بتاريخ ٣ تموز/ يوليو بإعدام المسجونات من نساء المجاهدين؛ واستمرّت عمليات الإعدام عدّة أيام. أما المسجونون من الرجال الشيوعيين فقد شُنقوا في مسجد «إيفين»، عندما سيقوا إلى الحسينية ليُشنقوا؛ «وكان بعضهم يبكون، وآخرون يشتمون، وكلّهم يرتجفون»، بحسب شهادة أحد المسجونين السابقين الذي أضاف قوله: «... وكان بعضهم يبتسمون دون أمل... وكان بعض حرّاس الثورة يتنافسون في ما بينهم من أجل تنفيذ الإعدام، كي يسجّلوا لأنفسهم مزيداً من الولاء والتقوى. وقد راعت قلّة منهم رؤية هذه الأعداد الغفيرة من الجثث. كما قاوم بعض المسجونين وضُربوا بقسوة. وكان الإعدام سريعاً». وقد عُرضت أجسام المشنوقين أمام المسجونات من النساء، لتحطيم معنوياتهنّ. ونشرت إحدى جماعات حقوق الإنسان المتمركزة في إيران أسماء ١٣٤٥ ضحية «لهذه الكارثة القومية» في طهران وحدها.

كما نشرت فيما بعد مجلّات المنفى المعارضة للنظام شهادات مروِّعة لمن شاهدوا عمليات الشنق في السجن. فقد أُعدم حوالى ٨٠٠٠ وربّما ١٠ ٠٠٠ سجين في صيف عام ١٩٨٨. وقد تلا الإعدامات السرّية إيداع الجثث في قبور سرّية أيضاً. كما روت إحدى السجينات ما يلي:

«أُخذتْ زوجة تائبة من الزنزانة الواقعة تحت قسمنا لتشهد إعدام زوجها، فرأت الحبل يلتفّ حول عنقه، ورأت امرأة أخرى و«شادورها» ملتفّ حول عنقها. وقد أنقذتها توبتها من الإعدام... لكنها فقدت توازنها النفسي فيما بعد...»

وكتبت إحدى السجينات السابقات عن سجينة مناضلة يسارية أخرى اسمها «فاريبا»، أُخذت إلى حصن تحت سجن «دستغورد»، لترى زوجها. وفي ما يلي وصف «فاريبا» للمشهد:

«روَّعني ما رأيته... فقد كان أمامي مسعود زوجي منحنياً، وعيناه تومضان وهما غائرتان في مِحجرين أسودين عميقين. صرختُ قائلة: مسعود، حبيبي، وقفزتُ ناحيته، فأرجعوني... وحذرني أحد رجال «الپاسداران» بقوله: «اصمتي، بإمكانك أن تنظري فقط، لتشهدي كيف نصفِّي الحسابات هنا ـ أو تصبحين بجانبه». ... كان مسعود موثق اليدين وراء ظهره، والحبل حول عنقه، وهو واقف فوق كرسي بلا ظهر، ينظر إليّ بكامل كيانه، نظرات مرهقة إنما حافلة بالحبّ والحنان، خصبة بالشعور، وهو يحاول أن يبتسم، ويقول بصوت متهدِّج ضعيف: «ما أحلى أن أراكِ يا فاريبا». وارتفع صوت الجلّاد ورائي يقول: «إذا دفعتِ هذا الكرسي، وشنقت هذا المرتدّ، سأطلق سراحك فوراً في هذه اللحظة. أعدك بشرفي». فنظرت مباشرة إلى عينيه وصرخت: «هل لديك أي شرف، أيها الجلّاد الفاشي!». فقبض عليّ «الباسدار»، وانتضى الجلّاد مسدّسه وأطلق النار على مسعود، كما أزال الكرسي من تحته «باسدار» آخر. لقد شُنق مسعود في غمار محنتي وأمام عينيّ اللتين لا تصدّقان ما تريانه...».

هناك إثباتات مفحمة مستمدّة من مسجونات سابقات تفيد أن السجينات العذراوات اغتُصبن بواسطة المستنطقين قبل إعدامهنّ. ومن أصل ١٥٣٣ سجينة، شُنقن أو أطلقت عليهن النار، خلال عقدين من الزمن، بعد قيام الثورة

عام ١٩٧٩، من اللواتي دوِّنت وصنِّفت أسماؤهنّ بواسطة مجموعة نسائية ألمانية، كانت هناك فئة يبلغ عددها ١٦٣ سجينة، لا يكاد تبلغ أعمارهنّ أكثر من ٢١ سنة، وكان بينهن ٣٥ حبلى. وكانت أصغرهنّ «نفيسة أشرف جهاني» في العاشرة من العمر، بينما كانت «أفسانه فارابي» في الثانية عشرة، وبلغت ثلاث بنات أخريات ١٣ سنة. وكان عمر «أكرم إسلامي» سبعين سنة؛ و«أرسته غوڤيلاند» ٦٥ سنة عندما شُنقت وتركت وراءها ستّة أولاد.

ماذا نستطيع أن نقول لعائلات هذه الآلاف من الضحايا؟ إننا، معشر الصحافيين، نأخذ النظام على محمل الجدّ؛ نقابل الشيوخ والأئمّة من مقام آية الله وحجّة الإسلام، إلى مقام الآخرين الأكثر تواضعاً، ونطرح أسئلة حول حقوق الإنسان؛ وتُلقى علينا محاضرات عن شرور الشاه وعن مسؤولية بلاد الغرب في دعم حكمه «الشيطاني». فقد سبق أن سجن الشاه تقريباً كل حكام السجون على عهد الخميني؛ وكذلك العديد من مساجين «المجاهدين» الذين أُعدموا عام ١٩٨٨ وقبله. وها أنا جالس في بيت يقع في شمالي طهران، وأمامي أرملة تقلِّب محفظة صور عائلية؛ وتشير إلى صورة «كوداك» لشاب جميل يلبس قميصاً بنّياً. قالت ببساطة: «لقد كان في المقاومة، فأوقف وقُتل». كان صاحب الصورة يعود حيّاً وهي تتكلم، بينما ينحني هو إلى الأمام باتجاه آلة التصوير، ويضع ذراعاً حول كتف شقيقته، وذراعاً أخرى حول والدته. قالت المرأة: «لم تستطع أمّه أن تتجاوز هذه المحنة؛ بينما كانت ابنتها الصغيرة ترقب بصمت. ربّما كانت في الخامسة من عمرها، أنيقة، مرحة، ذات شعر خفيف، وابتسامة مازحة. قالت والدتها: «إنها تلبس «الشادور» لتذهب إلى المدرسة... أرينا يا «فرشته» كيف تبدين عندما تذهبين إلى المدرسة». فتنطلق «فرشته» إلى غرفة نومها، وتخرج منها مرتدية لباس الحداد الأسود من رأسها إلى أخمص قدمها، بحيث لا يبدو شعرها؛ وتصبح جدِّية؛ ثم تعود أدراجها ببطء إلى غرفة نومها لترجع طفلة من جديد.

ولم تتقنّع آلة القتل الداخلي بوجود الحرب في إيران وحدها. فقد أوردت لجنة العفو الدولية أسماء ١١٦ شخصاً أعدمهم نظام صدّام بين ١١ تشرين

الثاني/نوفمبر و٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧؛ وكان أصغرهم في الرابعة عشرة من عمره. وبالإجمال، من تاريخ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧ إلى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨، أُعدم ٧٠٠ سجين في سجن «أبو غريب» الواقع غربي بغداد؛ وأكثرهم يحملون على أجسادهم آثار التعذيب. وقد جاء هؤلاء الضحايا من بغداد، والسليمانية، وبعقوبة؛ وكانت أعمار أكثرهم تحت الثامنة عشرة.

ولكن الحرب لم تنتهِ بالنسبة إلى تلك الملايين التي اشتركت في النزاع الذي قام بين إيران والعراق، وبالنسبة إلى كل جندي. فبعد صدور وقف إطلاق النار بتاريخ ١٨ تموز/ يوليو ١٩٨٨، تبادل البلدان الأسرى الذين بلغ عددهم تسعين ألف أسير؛ ولكن بقي آلاف منهم قيد الأسر لعقد زمني آخر. وبقيت إيران تخلي سبيل الأسرى العراقيين حتى عام ١٩٩٧. وبقي منهم ٥٠٠ أسير، أمضى بعضهم ١٧ سنة في الأسر، حرَّرته إيران قبل عقد مؤتمر القمّة الإسلامي في طهران في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٩٧. ولكنّ العراق استمر يدّعي أن إيران ما زالت تحتجز ٢٠ ٠٠٠ من جنوده، منهم ٨٧٠٠ جرى تسجيل أسمائهم بواسطة الصليب الأحمر الدولي؛ كما ادّعت إيران من جانبها أن العراق ما زال يحتجز ٥٠٠٠ من رجالها كأسرى حرب.

وعندما عاد «قدّوم الفاضل» إلى بغداد بعد ١٦ سنة من الأسر، لم يعد يتذكّر سوى الحزن والجوع و«داء المفاصل» في مخيّم إيراني محاط بالأسلاك الشائكة والألغام، بينما هو مقيّد بالأغلال في معظم الأوقات. لقد عاد آلاف من الأسرى العراقيين إلى ديارهم بعد عشر سنوات من معاناة ما يقرب من الجوع في المخيّمات الإيرانية، ليجدوا العقوبات المدعومة من الأميركيين مفروضة على بلادهم، وآثار حرب ١٩٩١، التي لم يشتركوا فيها، تُعرّض عائلاتهم للمجاعة. وصار لدى العراق جيش جرّار من الأسرى السابقين ـ يملأ نفوسهم الحقد على إيران وعلى صدّام وعلى الولايات المتحدة الأميركية ـ وهم يعيشون في الفقر والبؤس في بلادهم: العراق. وقد تعلّموا في أحضان الطين والرمل، مع ملايين العراقيين الآخرين الذين لم يخضعوا للسجن أو الموت، أن يعيشوا وأن يموتوا. وكانوا قد تعلّموا أن يحاربوا، وأن يحافظوا على الخطّ

الفاصل بينهم وبين إيران. فاستعملوا دبّاباتهم، كمنصّات لمدافعهم، مغروزة في الصحراء، وأحرقوا أعداءهم بالغاز، وأغرقوهم بمياه المدّ من الأنهار، أو أزهقوا أرواحهم بالكهرباء في المستنقعات. وأضحى جيل كامل من العراقيين بين ملازم ونقيب، ينظر إلى الحرب ـ بدلاً من أن ينظر إلى السلم ـ كعنصر طبيعي في حياته. وحتى لو جاءه يوم آخر بعد زوال صدّام، فماذا يستطيع هؤلاء الضبّاط ورفاقهم الآتون من الخنادق، أن يفعلوا إذا واجهوا جيشاً عرمرماً آخر؟ ماذا يستطيعون أن ينجزوا، إذا استخدموا مبادرتهم، ومخيّلتهم، وشجاعتهم ـ وإذا اعتصموا بوطنيّتهم، وقوميّتهم، وإسلامهم واستوحوا كل هذه المصادر، بدلاً من الاعتصام بيد البعث الحديدية؟

وبالطبع، كان هناك الموتى أيضاً. فقد بدأ صدّام، قبل انتهاء الحرب بثلاثة أعوام، ببناء نُصب تذكاري يلائم عصر الفضاء، لأكبر خطأ فاضح ارتكبه. وهو نُصب يبدو من الجو كأنه منصة لإطلاق الصواريخ، ويظهر من الأرض كصدفة بحرية عملاقة، ويمتد منحدراً على مساحة ٤ آلاف متر مربّع، بشمسية من الإسمنت يعلوها الرخام. ويأتيه الزائرون ـ وأهل البلاد بالآلاف ليزوروا موتاهم ـ فيصعدون إلى الحافة السفلى من النصب، ثم ينزلون في مجرى هواء مكيّف إلى سرداب تحت الظلّة. وهنا، بحسب الحروف العربية المحفورة، والمطليّة بالذهب الخالص، يرقد المحارب العراقي المجهول، بطل الأمّة العربية، وشهيد القادسية الثانية. مع العلم أن النصب لم يكتمل، حتى بعد مرور خمس سنوات على انتهاء الحرب.

وقد زرتُ النصب من جديد عام ١٩٩٣، لأجد جيشاً من البنّائين العراقيين، يقطعون ألواح الرخام. وكل شريحة منها، بين آلاف الشرائح الأخرى، تحمل أسماء ١٦ عراقياً لم يعودوا سالمين من تلك الحرب الهائلة. فقد تمَّ حفر اسم الجندي «كاتم أحمد»، وبجانبه «محمد جادي»، و«عبد الله أحمد»، و«المحارب» صلاح يونس. فشهداء صدّام كانوا بنظره يستحقّون أعلى تكريم. ولذلك كانوا يبنون في بغداد «الجدار الفيتنامي» لصدّام حسين. ومن الصحيح أن الرخام كان أصفر شاحباً بدلاً من أن يكون أسود اللون؛ وكان يبنى حول

السرداب الدائري، بدلاً من أن يكون تحت جزء إهليلجي بيضوي قرب القصر الرئاسي. ومن الصحيح أيضاً أن بناء هذا «الجدار»، كما قيل، كان من بنات أفكار صدّام. ولكنّ عدد القتلى الأميركيين في فيتنام بلغ ٥٦ ٥٥٥ قتيلاً؛ بينما بلغ عدد قتلى صدّام بين عام ١٩٨٠ و١٩٨٨ حوالى نصف مليون على الأقلّ.

وكان جدار شهداء صدّام أمراً سرّياً رسمياً حتى ذلك الوقت. فلم يُبلَّغ أحد عن بنائه، بل سيُزاح الستار عنه بعد إنجازه فقط عام ١٩٩٥، عندما يسمح للعائلات أن تتأسّى وتندب موتاها وأحبّاءها أمام أسمائهم. طلبت الإذن بأخذ صورة لقائمة الأسماء، فأجابتني سيّدة من لجنة النصب التنفيذي بحزم وعزم: «ممنوع أخذ الصور؛ لأنه غير مسموح لنا أن نعطي معلومات؛ ولا نستطيع التحدث معك عن هذا الأمر. ليس لدينا تفصيلات أو أرقام؛ ولا يجدر قول شيء قبل أن يكتمل النصب. إن هذه التعليمات جاءت من أعلى مقام». ولم يكن لديّ شكّ فيمن يكون الأعلى مقاماً. ولكن ألا يمكننا مثلاً أن نستعلم عن عدد الأسماء التي ستظهر على الجدار. ولكن السيّدة كانت صلبة عنيدة، إذ قالت: «من المستحيل إعطاء أية أرقام، ما دام العديد من جنودنا ما زالوا أسرى في إيران، حتى بعد انتهاء الحرب بخمسة أعوام».

وهكذا كان. ولن ينعم موتى حرب الخليج الثانية ـ بين العراق والجيوش التي تقودها الولايات المتحدة الأميركية ـ بالتكريم هنا، أو في أيّ مكان آخر في بغداد. وذلك لأن حرب الثماني سنوات بين العراق وإيران، هي التي كرَّسها تاريخ حزب البعث، بصفتها هي الأهمّ، والأكثر استراتيجية؛ وهي التاريخية المجيدة ـ وبتعبير أدقّ، الأكثر ضرورة ـ في تاريخ العراق. وكلّما تساءل العراقيون عن جدوى حرب الخليج الثانية، صارت حرب الخليج خارج نطاق النقد؛ حتى أن مسوّدة دستور العراق المحضَّرة عام ١٩٩٠، طلبت من أي رئيس جمهورية قادم أن يقبل كون الحرب العراقية ـ الإيرانية السالفة «كأسلوب وحيد لضمان وحدة أراضي العراق وسلامة الأماكن المقدّسة فيه».

ولكن، هل يمكننا أن نقفل الباب على التاريخ، بشكل آمن؟ لقد كانت هناك عائلات كاملة من الإخوة، والآباء، والأبناء، محفورة أسماؤها معاً على

ألواح الرخام البادية على جدار شهداء صدّام، بمثابة دقّات لناقوس الموت البشع، تتخلّلها استشهادات محفورة مستمدّة من القرآن الكريم، تضمن ـ ما لا يضمنه أي دستور ـ الجنّة الخالدة لأولئك الذين مزّقتهم القذائف وطلقات الرصاص، أو الذين غرقوا في أوحال «الحُوَيزة»، و«بُحيرة السمك»، و«الأهواز»، و«خرمشهر»، و«قصر شيرين»، و«الفاو». وقد فاجأني أحد الموظفين العراقيين في شهر آذار/ مارس من عام ١٩٩٣ بقوله إن الدفاع عن «الفاو» كلّف العراقيين ٥٨٠٠٠ قتيل.

وبين قتلى هذه الحرب العراقيين البالغ عددهم حوالى نصف مليون، حُفِظت جثّة واحد منهم فقط ـ مستنقعة في الموادّ الكيميائية التي يفترض فيها أن تحفظها من التحلّل لمئة سنة ـ ضمن تابوت معلّق فوق «متحف الجندي المجهول» على بعد خمسة كيلومترات، وملفوف بالعلم العراقي، وسط الأسمال الباقية من ثياب المعركة الخاصة برفاق الشهيد. كانت تلك البذلات ملطّخة، ممزّقة بيد الجرّاحين الذين حاولوا إنقاذ الأرواح العراقية، ومحفوظة في صندوق زجاج، مع ضمادات الموتى الدامية، التي مضى على جفافها وقت طويل. سألني أمين المتحف الشاب: «هل ترى هذه السيوف المشكوكة في أحجار سود فوق البذلات، إن عددها هو ١٧؛ وهي ترمز إلى ١٧ تموز/ يوليو، تاريخ الثورة، بينما تمثل الأحجار السود قلوب أعدائنا». كما كانت هناك أيضاً لوحات محفورة معروضة على جوانب القاعة، مهداة من الملحقين العسكريين لبعض البلدان: رومانيا الاشتراكية، وألمانيا الشرقية، والاتحاد السوفياتي، والصومال؛ وكلّها بلاد ماتت منذ ذلك الوقت موتاً بائساً، مثل موت أي من الجنود الذين يكرّمون هنا.

وبكل بساطة، كان هناك معرض، مثل المعرض القائم أمام جدار الشهداء، لحياة صدّام حسين بالصور، منذ ولادته إلى أن اعتلى عرش البعث؛ ذلك الذي غامر بالقتل، وكان محارباً من رجال العصابات، وكان زعيماً قائداً. وكانت هناك صورة تمثّل كوخاً من الطين في قرية «عوجه» التكريتية، حيث ولِد عام ١٩٣٧. ثم صورة تمثّله كابن ثماني سنوات، مقطّب الجبين قليلاً، ذلك الذي

سيقود حزب البعث العربي الاشتراكي. وكانت هناك صورة مقطّعة تظهر قسمات وجه مروّعة مألوفة للتلميذ صدّام، وهو جالس على درج عربة قطار. ثم كانت هناك أيضاً صور لسيّارة الليموزين التي كان فيها عبد الكريم قاسم، وهي مثقوبة بالرصاص، بعدما حاول صدّام حسين اغتيال الدكتاتور في شارع الرشيد. كما كانت هناك صور تمثّله مع طالبات في منفاه بمصر، وواقفاً وحيداً أمام الأهرام. وكانت زوجته «ساجدة» تبتسم في صورة من صور عرسها. وكان له صورة أخرى وهو يختال أمام آلة التصوير متباهياً بمن وراءه من بنّائين يحملون المطارق والأزاميل من أجل حفر آلاف الأسماء لشهداء صدّام. وقلّما رأينا رئيساً بهذا القرب من أولئك الذين أرسلهم إلى الموت. إنهم «شهداء قادسية صدّام». لاحظ صفة التملّك هنا ـ إنهم ملكه الشخصي. ولكن المعرض الصغير بلغ آخره خلافاً لتوقّعنا؛ إذ كانت هناك صور لموظفين بعثيين رسميين، ولبيوت صدّام ـ ليست صوراً للداخل بل لجدرانها من الخارج، ولبواباتها الفولاذية، ولأكشاك الخفراء، والأسوار التي تحيط بها. وإذا كان النفوذ والسلطة لا يفسدان المرء، فلا شكّ في أنهما يستلزمان الجدران والأسوار العالية. كانت أشعّة الشمس خارج السرداب الكبير تكاد تعمي الأبصار. ولم ألاحظ إلا بعد لحظات أن هناك ساحة كبيرة إلى اليمين، تحوي آلافاً من لوحات الرخام، تنتظر أن يمهرها البنّاؤون بشهادة الدم.

وخلال كل فترة الحرب، كان هناك بناء تذكاري أكثر جدّية، وأقلّ مدعاة للتفاخر واقع بغرب بغداد، في بلدة الغبار العسكرية، «الفلّوجة». هنا كان مستودع الجثث الأكبر في العالم، الذي يتّسع لألفي جثّة في كل مرّة، وهو منظّم في سقائف مبرَّدة. إنه المكان الكئيب الحارّ في ضواحي بغداد، الذي كانت تقصده عائلات ضحايا الحرب من أجل تحديد هويّة أبنائها، وأزواجها، وآبائها. وحتى هنا، لم تستطع السلطات أن تتغلّب على مشكلات إراقة الدم. فبعد مذبحة مستنقعات «الحويزة» في ربيع عام ١٩٨٥، كانت هناك جثث كثيرة برسم النقل إلى الفلّوجة، إلى درجة جعلت الحكومة تصادر رخص سوق السيّارات العمومية في بغداد، وإلزام صاحب كل سيّارة بنقل جثّة من البصرة،

حتى تُعاد إليه رخصته. ومع ذلك بقيت جثث الموتى بالآلاف راقدة في سهوب الطين والوحل؛ كما نُقل آلاف من أقارب الشهداء إلى جبهة القتال لتحديد هويّة أقاربهم في ساحة المعركة. وقال بعضهم إن عدد قتلى المستنقعات من العراقيين في ذلك الربيع، بلغ ٨٠٠٠ قتيل؛ وقال بعضهم الآخر ١٤٠٠٠؛ وقال آخرون ٤٧٠٠٠.

إني أعود دوماً إلى الحروب القديمة وأتحدّث مع قُدامى الجنود. أعود إلى إيرلندا الشمالية، وإلى البوسنة، وإلى صربيا، وإلى الجزائر، وجنوبي لبنان، والكويت، وبغداد بعد الغزو. وأعتقد أني أحاول أن أفهم ما أشهده، وأن أضعه في سياق لم يكن موجوداً لديّ، عندما كنت أحاول أن أبقى حيّاً، وأتكلّم مع أولئك الذين شاركتهم تلك الكوابيس، ولو لفترة وجيزة. إني أنتظر أن يتوقّف مشكال الصور الزجاجية عن الدوران، لأرى رقائق الذكرى تنعكس في نمط أخير غير قابل لمزيد من المعالجة. هذه هي قضيّتي. وبينما أدوّن هذا الكتاب، أسمع أحياناً القطع الزجاجية تتحرّك في المشكال، وتُحدث صوتاً شبيهاً بما يصدر عن تشغيل السجلّ الأساسي لحاسوبي النقّال، خلال التفتيش عن التطبيقات والبرامج، ومحاولة الوصول إلى نتيجة، إلى شاشة واضحة المعالم، ذات ذاكرة لا تخطىء.

أستطيع أن أجلس على شرفتي المطلّة على البحر في بيروت وأتذكّر بوضوح تام كيف كان الإيرانيون يأخذوننا إلى مواقع حربهم بناقلاتهم من طراز (Herculus-C-130) ـ عندما لا نختار القطار ـ عبر الظلام الحارّ إلى «الأهواز» أو «دزفول»، ونحن، الصحافيين، محبوسون في مقاعدنا الضيّقة، يسيل منا العرق، ونحن أيضاً متشبثون بدفاترنا وآلات التصوير على أحضاننا، نصلّي ونرجو أن لا يشعر العراقيون بنا بسبب الأصوات التي تحدثها محركاتنا في الليل البهيم. كما كنا نطير إلى قاعدة جوّية في الصحراء لنرى نيران النفط تشتعل ـ بلونها الأرجواني عند الفجر، ونحن نتناول قطع «الشوكولاتة» السوداء المسبّبة للسرطان وغير القابلة للأكل ـ ونسمع دمدمة المدافع التي تشبه مدافع «الصوم»، ونخشى من ٣٦ ساعة قادمة وما سنقاسيه خلالها من: قضاء الليل في

غرفة محصَّنة تحت الأرض، واستنشاق الغبار المتطاير من أرضها، وتمضية النهار ونحن نتنقلّ بالسيّارة عبر خطوط القتال، والقذائف تتناثر فوق رؤوسنا، والجثث تُطلق روائحها العفنة على طريقنا، ومقابلة الرجال المحاربين دون خوذ على رؤوسهم، وهم يحملون بأيديهم القرآن الكريم.

وبعد مرور سبع سنوات على انتهاء الحرب، صار من اليسير أن نعود إلى زيارة ميادين القتال. وبناء على ذلك، وجدتُ نفسي صباح يوم من أيّام الصيف عام ١٩٩٥ في مطار «مهراباد» أصعد إلى طائرة إيرانية (IR 417) إلى الأهواز، وأتناول على متنها الخبز والمربَّى ـ نعم إنها طائرة أخرى من طراز (A300)؛ بينما كان مرافقي من وزارة الإرشاد الإسلامي يغطُّ ويشخر في نومه بجانبي. بعد ساعة دارت بنا الطائرة حول شُعَل غاز «البوتان» فوق مصافي النفط؛ ثم نزلنا وركبنا في سيّارة «بيجو» يقودها «غلام رضا»، واتّجهنا نحو الصحارى حيث خسرنا سنوات من عمرنا. وحالما قطعنا أوّل ساتر من الرمل، تبدّت لنا الشمس كبثرة بيضاء عند الساعة السابعة صباحاً، فأشار غلام رضا إلى هذا الخلاء من الغبار وقال: «بانغ، بانغ، الحرب».

وكان في ذلك «البانغ» تصوير صادق لأصوات مدافع الميدان العراقية، التي دمَّرت الكثير من مقدرتي على السمع، هناك إلى الغرب من هنا، منذ عقد ونصف من الزمن. وبينما كان غلام رضا يغذّ السير بسيّارته «البيجو» عند الفجر، كان صوت القصف البعيد يطنّ في أذنيّ، كما لو كانت تلك المدافع لا تزال تطلق النار على حقول الموت الذاوية. وعن يميننا ويسارنا، كان مشهد الصحراء يختلف من أغرّ إلى كُميْتٍ في نور الشمس البازغ؛ وكانت الخنادق ومواقع الدبّابات تمتدّ أمامنا على مسافة كيلومترات عديدة. وكان المزارعون قد حوَّلوا بعضها إلى حواجز تقي الذرة من الهواء، وبقيت الأخرى راقدة لا يمسّها شيء خلال ١٥ سنة، ولكنّ آثار مرورها على الرمل لا تزال ظاهرة بعد تدمير تلك الدبّابات الإيرانية والعراقية. ومن ناحية الطقس، كانت الحرارة قد بلغت ١٠٠ درجة فارنهايت في الظلّ، وبدأ العرق ينساب على وجهي، بينما كان رجل الوزارة نائماً على المقعد الخلفي للسيارة.

ربّما مات مليون رجل هنا، وعلى جبهة القتال الملتوية والممتدّة على مسافة ٩٠٠ كيلومتر إلى الشمال، إلى ثلوج الحدود التركية؛ أي بمقدار ضُعفَي طول الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وعلى مدى زمن يناهز الضعفين أيضاً. لقد مرَّ من هنا جيل كامل من الإيرانيين والعراقيين إلى خطّ الموت في القرى التي تبدو للناجين ولأهل الموتى كئيبة مثل مواقع الحرب العالمية الأولى في «إيپر» و«فردان» و«التلّة ٦٠»، و«فيمي ريدج» و«بومونت هامل». لقد صارت أسماء أمكنة العذاب مألوفة لديّ الآن: «كرمان» و«شلمشه»، و«بنجوين» و«خرمشهر»، و«عبدان» و«الفاتح» و«الأهواز»، و«الفاو»، ومعركة «بُحيرة السمك». لقد كان الإيرانيون آنذاك هم الأكثر خسارة. وكنتُ أتساءل في تقاريري خلال تلك الأيام، هل كان لديهم من أمثال «أوين» و«ساسون» ليكتبوا عن أهوال الحرب، وليرثوها؛ وأنا مذهول من صمود الإيرانيين المدافعين ومرونتهم.

ولمّا كان الإيرانيون يكرهون الأجانب، ومغايرين في عقيدتهم، ومعادين للغرب، حتى لنا نحن الصحافيين الذين خاطرنا بحياتنا لزيارة خنادقهم، فقد بقينا بعيدين عنهم، ولم نحاول أبداً أن نفهم دوافعهم، وأثرَ حمّام الدم هذا على عقولهم؛ وحتى اليوم ما زلنا ننسى ذلك. لكن الإيرانيين لا ينسون. فهل كانوا على شاكلة جنود الحرب العالمية الأولى. يعودون إلى بيوتهم كسيري الجسم والروح، بعد أن يتخلّوا عن إيمانهم، ويتركوه في الصحراء المرويّة بالدماء؟ لقد سألت ضابطاً في حرس الثورة عالي المقام، بينما كنا نتغدّى في طهران: «ما هي أسوأ لحظة مررتَ بها في هذه الحرب؟». فأجابني فوراً: «١٨ تموز/ يوليو ١٩٨٨، ذلك اليوم الذي قبلنا فيه وقف إطلاق النار لإنهاء الحرب، عندما قال إمامنا بأنّ عليه أن يتجرّع السمّ، ويقبل بوقف إطلاق النار. كنتُ آنذاك أقود شاحنة حمولتها طنّان ونصف الطنّ إلى الجبهة عند «شلمشه»، فلم أستطع أن أصدّق أذنيّ عندما سمعت الأخبار من الراديو. سقت شاحنتي إلى الصحراء، وأوقفتها، واستلقيت على الرمل، والشمس من فوقي. وسألت خالقي لماذا وجدتُ على هذه الأرض؟ لقد كان ذلك أسوأ يوم في حياتي».

أسرع غلام رضا بسيّارته جنوباً؛ بينما كانت حرارة الجوّ ترتفع، ومرّ بسياج من الشاحنات والمدرّعات العراقية المهترئة، ميلاً بعد ميل، على امتداد يبلغ الأفق وما بعده. وكان هناك خفير إيراني لهذه الساحة الحربية، لهذا المتحف الذي يحوي دبّابات ومركبات عراقية مسحوقة، أكثر مما رأيناه عندما قام «نورمان شوارزكوف» بهجومه السقيم على الجيش ذاته عام ١٩٩١. فعلى اليمين، كان هناك قطار كبير من الحافلات الملتوية المحروقة والمقلوبة على جنبها قرب خطّ سكّة الحديد الممتدّ بين «الأهواز» و«خرمشهر». لقد تجاوز العراقيون هذه الناحية من إيران أكثر من مرّة. وكانت الخنادق ومراقد المدافع متواصلة بالآلاف امتداداً على الطريق، ومتراكمة سنة بعد سنة من زمن الحرب. وكان باستطاعة المرء أن يرى بالمنظار المقرابي هذه الأراضي العنكبوتية من القمر. قطعنا المياه العكرة لنهر قارون؛ لقد كنت في هذه المنطقة لآخر مرّة عندما كانت الجثث تطفو على تيّاراته الحارّة. وكانت حرارة الجوّ قد بلغت حينئذٍ ١١٠ درجات فارنهايت. لقد قاتلوا في ذلك الحرّ، وماتوا برياح حامية مثل رياح الأفران، وتعفّنوا خلال ثلاث ساعات. فلا عجب أن يكونوا قد قبروا العراقيين في مدافن جماعية، وأرسلوا قتلاهم إلى ديارهم في أقلّ من يوم.

لقد كتبوا فعلاً قصائد؛ وكانوا ألوفاً من «الباسيجي» و«الباسداران»، والفنّانين الذين سيقوا إلى جبهة القتال. لكنّ قصائدهم لم تكن مثل قصائد «آل أوين» و«آل ساسون». ففي مجلّدات قصائد الحرب المعروضة في مكتبات طهران، يشكر الجنود القُدامى اللّه الذي زكّاهم وأكرمهم بساعته. طفت بالحوانيت القائمة قرب جامعة طهران، ووجدت أشباح «بروكي» و«و.ن. هدغسون» في هذه المجلّدات الضخمة. فهنا مثلاً الشاعر «محمّد رضا عبد الماليكيان»، يخطّ «رسالة إلى بيته» من جبهة «الأهواز ـ خرمشهر»، حيث يقوم الأولاد أبناء السنة الثانية عشرة من العمر بهجوم انتحاري على الشريط الشائك العراقي:

«هنا على خطّ الجبهة

تُنثر نعمة التضحية حولنا،

إن قوّتهم أكبر من أمواج نهر قارون،

هنا، يمكنك أن تقدّر تضحية الأولاد والراشدين،

الذين يتلهّفون ليمشوا في حقل الألغام،

إنهم هنا، لنراهم كلّنا»

إن في ذلك الأمر شيئاً مخيفاً: فليس هناك صورة استشهاد الأولاد الرهيبة فحسب، ولكن ـ بالنسبة إلى عقلي الغربي ـ هناك نوع من الاتزان في النضج والتطوّر. نعم لقد كان الشاعر «هدغسون» يكتب شيئاً من هذا القبيل عام ١٩١٤، عندما يقول:

«يا أبنائي، أسمعكم تهتزّون شوقاً

لنداء بوق الحرب،

... عاقدين العزم والتصميم على تحمّل

الخسارة والخيبة، والألم والموت،

دون شكوى».

ولكن، لم يهلّ عام ١٩١٦ حتى أدرك شعراء الحرب عندنا فُحش الحرب وقذارتها. أما «عبد الماليكيان» فقد كتب أبياته الشعرية بعد عدّة سنوات متتالية من الحرب؛ ولم يفقد الإيمان. فهل مردّ ذلك إلى أنه كان يحارب للدفاع عن بلاده، أو لأن الإسلام لا يسمح بأن يخامر الشكّ فؤاد المؤمن؟ أو لأن القصيدة في إيران يفترض فيها أن تكون شيئاً مقدّساً، أن تكون كلاماً روحانياً، وليس كلاماً استفزازياً؟ نحن، في بلاد الغرب، ننتظر أن تحرّكنا قصيدة ـ إذ إن الوطنية والإيمان وحدهما لم يكونا كافيين لـ «ساسون» أو لـ «روبرت غرايفز». ألم يكن بمقدورهما أن يقولا شيئاً أكثر ممّا قاله «عبد الماليكيان»؟ في الواقع، دامت مدّة الحرب الإيرانية ـ العراقية ثماني سنوات منذ غزو صدّام بتاريخ ٢٢ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٨٠، واشتملت على استخدام الغاز السام والهجوم

بالصواريخ، أي أنها كانت أشدّ رعباً من الحرب العالمية الأولى، وأرهب أسلحةً من الحرب العالمية الثانية.

وعندما كتبتُ لأوّل مرّة في جريدة «الإندبندنت» عن «اتّزان النضج» المذكور آنفاً، في قصيدة «عبد الماليكيان»، وقذارة الحرب التي تخلّلت قصائد الشعراء البريطانيين التالين، تلقّيت رسالة تحدٍّ طويلة من مُسلمة بريطانية، تقول: إذا أردتَ أن تفهم الواقع الإيراني والمرونة الإيرانية، يجب أن تدرك أولاً مغزى موقعة كربلاء التي حصلت في القرن السابع:

«أشكّ في أن أُجانب الصواب إذا قلتُ إن الإيرانيين ـ بعامّة ـ كانوا مُدركين لأهوال الحرب قبل حصول حمّام الدم الإيراني ـ العراقي. وأعتقد أن الشيعة بصورة إجمالية، يدركون معنى الاستشهاد، أكثر من غير الشيعة. أذكر محاولتي في شرح مأساة كربلاء لصديقاتي البريطانيات في المدرسة، ودهشتي من ردّ فعلهنّ. لقد سبق أن تصوّرتُ الطفل «عليّ الأصغر» مصاباً بسهم في عنقه، و«عبّاس» مقطوع الذراعين، و«أكبر» يخترق الرمح صدره، و«الحسين» يرفع كلّ جسد، ويبكيه، ويعود به إلى الخيام... وتخيّلتُ النساء في عائلة الإمام الحسين، يُسقنَ عبر الأسواق بعد فقدان أعزائهنّ، ويتكلّمنَ ضدّ الحكّام. لقد تربّيت على هذا التاريخ؛ فقد كان ولا يزال جزءاً لا يتجزّأ مني. إن معظم الشيعة يدركون تماماً الثمن الذي قد يدفعه المرء، لوقوفه مناصراً لمبادئه...».

كانت سيّارة غلام رضا تهسهس على إسفلت الطريق الذائب، عندما ربَّت موظّف الوزارة على كتفي صارخاً: «أنظر هناك». فأبطأ غلام رضا في سيره وهجم علينا الحرّ من النوافذ المفتوحة. كان هناك خطّ لسكّة الحديد قرب الطريق، ووراءه حُطام جيش مهزوم: دبّابات وشاحنات مدرّعة لنقل الجنود كلّها محترقة، ومواسير بنادق مشقوقة، ومدافع رشاشة تصدأ على أبراج الدبّابات؛ إن مسوخ صدّام تتحلّل وتتفسّخ في الصحراء. سرنا عبر خطّ السكّة الحديد.

وقطعنا منطقة رمال متحرّكة ـ مشى فيها موظف الوزارة إلى ركبتيه ـ ووجدنا أنفسنا بين أشلاء وحُطام لمعركة كبيرة. فالعديد من هذه المركبات دخل بها سائقوها الرمل حيث عجزوا عن التقدّم بها، فأخلوها خائفين، ولا تزال آثار جنازيرها الفولاذية بادية على الصخور وعلى مواضع المدافع الإسمنتية. أمّا دواخلها فقد حوّلتها القنابل اليدوية المقذوفة صاروخياً إلى مراجل.

تسلّقت على دبّابة من طراز (T-62)، وفتحت برجها، وانزلقت إلى داخلها. كانت مؤخّرة المدفع منسوفة، ومقعد السائق قد ذاب، وكان هناك مليون ذبابة صغيرة تحوم حول مقصورة المدفعي الممزّقة. ربضتُ على سطح الدبابة وبدأتُ بأخذ الصور. لكنني أدركت أنها صور دون ألوان. فالشمس وبياض الصحراء امتصّا اللون من بصري، بحيث ظهرت دروع صدّام ذات لون واحد. وكان موظّف الوزارة يحدّث نفسه أكثر مما يحدّثني، ولكن بالإنكليزية من أجل أن أفهم ما يقول: «فكِّر في أن صدّام جاء إلى هنا، إلى بلادنا، فكِّر في غطرسته. فهل يمكن أن يقوم بذلك دون أن يتعرّض لعواقب وخيمة؟... فكيف لا تدركون سبب محاربتنا له؟».

ورأيت على الجهة المقابلة من الطريق هيكل شاحنة روسية، فمشيت نحوها، ووجدت أنه لم يبقَ منها سوى مقدّمتها، وهي ملأى بآلاف الثقوب الصدئة التي أحدثتها الشظايا. وظهرت لي وراءها حُفرة كبيرة تتناثر فيها عُلب الذخيرة الممزّقة بانفجار جرى منذ وقت طويل، وهي مطمورة جزئياً بالرمل. إنها آلاف من رصاصات المدافع الرشّاشة ملتوية ومجمَّدة بأشكال غريبة ـ بعد إصابة مباشرة ألمّت بشاحنة ذخيرة. وكان على حافة الحفرة مسحوق أبيض، ربّما كان عظماً بشرياً. أما موظف الوزارة فجلس على الرمل ليستريح.

مشينا في الصحراء فوجدنا خوذة إيرانية اخترقتها رصاصة، وعشرات من الأحذية العسكرية، أحدها ممزّق من جهة العقب مع شيء قاتم بداخله. كانت هناك فجوات أحدثتها القذائف ثم امتلأت بالرمل، وأسلاك شائكة، وصفّ من الملاجىء وراء خندق، كُسيت أرضها بأغطية صناديق الذخيرة، وأكياس الرمل

المبقورة. وفي مكان ما بالقرب من هنا كتب الشاعر الإيراني «علي ببشوشي» قصيدة مثيرة للمشاعر حول حُلم ظهر له فيه رجل مسنّ من «نكستان» ـ وهي منطقة معروفة بإنتاج التمر في جنوبي إيران ـ ووقف أمامه في الصحراء:

«أنظر هناك، يا صاح،

أستطيع أن أراه بعينيّ الكفيفتين،

هل تراه؟

إنه «شير محمد» المسنّ من «نكلستان»،

الذي تومض الشمس على بندقيته،

... لقد رأيته بعينيّ الكفيفتين،

وقال لي «شير محمد»:

«جئتُ لأزرع رشاشي،

بدلاً من القمح والشعير،

عبر أرضي، أرض النخيل».

وقبل ذلك بعدّة أيام، كنتُ قد تكلمتُ في طهران مع بعض طلّاب الجامعة حول الحرب. كانوا يحضرون حلقة فلسفية؛ وهم ١٤ شاباً وثلاث نساء. وقد شارك نصف هؤلاء في حرب الثماني سنوات، وكانت إحدى النساء ممرضة عسكرية. كانوا «باسيجي» سابقين ومتطوّعين، وجنوداً، وحرّاساً للثورة: وهم يحاولون الآن أن يحلّلوا مقالاً يصعب سبر غوره لأحد علماء الاجتماع الأميركيين. ثم يحاولون شرح معنى الحرب بالنسبة إليهم، ولماذا لم أفهمها.

كان «شوجا أحمد بندي» ملتحياً، ويبدو في الثلاثينيّات من عمره، وربّما يجدر أن يكون أصغر سناً. لكنّ عمره كان ١٨ سنة عندما أُرسل إلى الجبهة عند «مهران» على الحدود العراقية، على بعد ١٧٠ كيلومتراً من بغداد، عام ١٩٨٤. تكلّم بهدوء، منتقياً كلماته بكل عناية؛ قال: «كان انخراطي في الحرب

انعكاساً لطبيعة ثورتنا الإسلامية؛ وقائماً على تأويل جديد للدين ـ إن الانخراط في الحرب هو واجب مقدّس. إن زعيمنا رجل دولة قريب إلى النبي؛ وهكذا ندرك مسألة الحرب. هذا هو السبب في التزامنا الغامر. لا يمكن فصل الحرب عن الدين. وقد رأيت بعض حوادث لا يمكن وصفها. وإني أتساءل: هل كانت حقيقية أم لا؟ لقد كانت مشاهد فوق العادة أثَّرت فيّ».

وهنا نظر «أحمد بندي» إلى الأرض، وصار يخاطبها بدلاً من أن يخاطبني، قائلاً:

«جاء يوم عند بداية عملية «والفجر ٥»، عام ١٩٨٤، كنّا فيه بمهران. وكنتُ جالساً مع عدّة جنود آخرين على قمّة تلّة صغيرة. وكان يجلس معنا رجل يبلغ من العمر ثلاثين أو خمساً وثلاثين سنة. وفجأة لاحظنا أن رأسه مال إلى الأمام قليلاً. ولم نعرف ما حدث. ثم رأينا الدم يسيل بغزارة من ذراعه، ثم من رأسه. لقد أصابته رصاصة في رأسه. وعند تلك اللحظة، استدار قليلاً وهو شاعر بأنه أصيب، ووضع يده في جيبه وأخرج منها قرآناً كريماً، وصار ينظر إليه، بينما كان الدم لا يزال يسيل من ذراعه. وقفنا ثلاثتنا مدهوشين ـ إذ لم نستطع أن نفعل شيئاً ـ كان هذا الرجل يُحتَضر، وقبل وفاته بثوانٍ يخرج القرآن الكريم وينظر إليه. إنه مشهد لن أنساه أبداً طول عمري، إنه يدلّ على قوّة الالتزام».

خيَّم علينا صمت طويل، ثم انبرت إحدى النساء، من آخر القاعة لتتكلّم، وهي ترتدي شادوراً أسود، قائلة: «على وجه العموم، كنّا فخورين بما فعلناه في الحرب. لقد حافظت بلادنا إيران على سيادتها. نحن نعلم كيف عاد الناس إلى ديارهم بعد الحروب الكبيرة. وقد قرأتُ عن ذلك في مؤلّفات «همنغواي». ولكن ذلك لم يحدث في إيران. على المرء أن يفهم أهمّية الأخلاقيات في حربنا ـ إنها أفضل من الطعام. إنكم تعتبرون أن عدد الضحايا مهمّ ـ وتقومون بهذه الحسابات الإحصائية على حواسيبكم ـ لكنّ انطباعي هو أن الناس ماتوا هنا بصرف النظر عن قيمة حياتهم المادّية؛ إذ إن المهمّ هو إيمانهم الإسلامي».

وقد لا يُعرف أبداً العدد الحقيقي لمن ماتوا في الحرب ـ فالعراقيون لم يعطوا أرقاماً دقيقة ـ لكن الرجل الذي كان مسؤولاً عن حرّاس الثورة خلال نزاع ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ أكّد لي أن الإيرانيين خسروا أقلّ من نصف مليون رجل. أما «محسن رفيق دست» مدير المؤسّسة التي صارت عام ١٩٩٦ تكرّس ملايين الدولارات لجرحى الحرب ولعائلات الشهداء، فقد ادّعى أمامي أن ٠٠٠ ٢٢٠ إيراني قتلوا، وأن ٠٠٠ ٤٠٠ منهم جرحوا. وقال: «نعتقد أن العراقيين خسروا ٠٠٠ ٥٠٠ قتيل. ولكننا لا نعرف عدد جرحاهم. كما أننا خسرنا ٠٠٠ ٧٠ قتيل في الثورة الإسلامية قبل نشوب الحرب بسنة».

وحتى اليوم، علينا أن نرفع تلك الأعداد باستمرار. فقد وُجِدت ٢٧٠٠٠ جثّة للجنود الإيرانيين على الحدود العراقية بعد انتهاء الحرب عام ١٩٨٨. وفي تموز/ يوليو ١٩٩٧ ـ أي بعد وقف إطلاق النار بتسع سنوات ـ كانت إيران تقيم مآتم جماعية لعدد آخر من الجنود البالغ عددهم ٢٠٠٠، والذين اكتشفت رفاتهم قرب الحدود. والعديد من الضحايا ماتوا خلال الأشهر الأولى من الحرب، عندما دخل الجيش العراقي «خرمشهر» وهاجم «عبدان».

ومن بين الجنود الذين قاوموا الغزاة العراقيين، «مجتبى صنافي» الذي أخبرني بقصّته وهو جالس في المقعد الخلفي من سيّارة الأجرة، التي علقت في زحمة السير بطهران، قال:

> «أُلقيَ القبض عليّ على بعد حوالى عشرين ميلاً خارج عبدان. أحاطوا بنا ليلاً؛ ولم يكن لنا أيّ أمل. أخذونا إلى مخيّم كبير للسجناء في العراق، وعلى وجه التحديد في تكريت مسقط رأس صدّام حسين. كانت السنوات الأولى التي قضيناها هناك قاسية. فقد قتلوا بعضنا، وعذّبوا آخرين. ومضت سنة قبل أن يزورنا الصليب الأحمر، ويأخذ أسماءنا، ويجلب كتباً. وكان صغارنا من المساجين أقوى من كبارنا. وقد يرجع ذلك إلى أن الصغار يشعرون بأن الحياة ما زالت أمامهم. ولكن انتحر منا اثنان لم يستطيعا أن يتحمّلا الأسر أكثر من ذلك. فإذا كان المرء سجيناً، عليه أن يكون

قوياً جداً. تعلّمتُ في السجن أشياء كثيرة عن نفسي، وقوّتي. وعندما جاءتني رسائل بواسطة الصليب الأحمر من عائلتي كانت قد مرّت عليها سنة. فكتبتُ ردوداً عليها؛ ولا تزال والدتي تحتفظ بها، لكنني لا أريد أن أقرأها الآن؛ لأنها تذكّرني بتلك الأيام الرهيبة».

وقد أُخلي سبيل «مجتبى» عام ١٩٨٩ بعد سنة من انتهاء الحرب. وكان قد أمضى في الأسر عشر سنوات، أي أكثر ممّا تعرّض له أسرى الحرب العالمية الثانية من البريطانيين. وعندما التقينا عام ١٩٩٥، كانت إيران لا تزال تطالب بعدد يناهز ١٥٠٠٠ جندي لا يزالون محتجزين في العراق، وقد مضى على بعضهم أكثر من ١٥ سنة في الأسر.

وعندما وصل سائقنا غلام رضا إلى «خرمشهر»، هزّ برأسه عند مرأى الأطلال التي لا تزال متناثرة عبر المدينة. لقد دام القتال فيها حوالى سنتين؛ وقصفها العراقيون لمدّة ستّ سنوات تالية؛ وسُحقت بيوتها ومصانعها المبنية بالقرميد بسبب تكرار الهجوم المضادّ من قِبل العراقيين. لقد كانت بحقّ «ستالينغراد» إيران لا ستالينغراد العراق. وفي مركز المدينة، وقرب المجرى المائي المتخوم بالسفن المقلوبة، والمحروقة، وبعد المسجد الذي لا يزال قيد إصلاح قرميده الأزرق، كان هناك متحف للصور بمناسبة مرور ١٣ سنة على تحرير المدينة. وقال لنا الدليل: «لقد استشهد الشخص الذي أخذ هذه الصور، فيما بعد»؛ وأشار إلى جثّة على الأرض.

كان جسم الجندي القتيل قد صُنِع من جديد بالشمع، والدم الأسود ينساب من ظهره، ووجهه مدفون في الرمل، وخوذته تغطّي معظم شعره، حتى أني ظننتُ أن الإيرانيين احتفظوا برفات مثل هذا الجندي. وقرب حُفرة الرمل التي نُصب فيها هذا التمثال من الشمع، كانت هناك صورة نصفيَّة لآية الله الخميني تحت الشعار التالي: «إن الاستشهاد هو ذروة الحياة الإنسانية». مع العلم أن الصور المعروضة كانت تمثّل أشجاراً مكسّرة، ومواقف قطارات مسحوقة، ومساجد مهدَّمة، وبيوتاً مطحونة، وجثثاً ملقاة في الشوارع.

وكان هناك أيضاً شاعر آخر اشترك في الحرب، وأدرك ضراوتها، عندما كتب عن «خرمشهر» تحت الاحتلال العراقي. وهو «بارنيس حبيب عبادي» الذي استعمل في قصيدته رموز الحب التقليدية الإيرانية: الفراشة التي ترفرف حول القنديل ـ وغضب «أبي ذَرّ» من أصحاب النبيّ محمد (ص) ـ ليدلّ على نقمته:

«يا صديقي، كم نشعر بالوحشة،
ونحن بعيدون عن هذه المدينة التي كانت مدينتنا،
إن شمعة القنديل تذوب، وقد التهمت النار الفراشة،
في كلّ مكان، وفي كلّ درب، أرى الرماد، والحُطام، والدم،
هنا رأس، وهناك شعر طويل ملطّخ بالدم،
لم يعد هناك من يدٍ لتمشّطه،
وحتى يأتي الوقت الذي يعود فيه الرأس ليستوي على الجثّة،
أكفِّن نفسي بثيابي، وأصرخ مثل أبي ذَرّ،
لأزرع الخوف في قلوب أعدائي».

ولكن، كان هناك أيضاً شخص شارك في تحرير «خرمشهر» ولم يُرد أن يموت. جلس معي في مطعم بعبدان، يمضغ السمك والبطاطا بصوت طاحن وضجيج، ويقول: «كنتُ في البحرية وجئنا لنشارك في التحرير. لم أرَ كثيراً من الجثث، لأن معظم العراقيين استسلموا، تصوّر ٢٠ ٠٠٠ منهم؛ هل تستطيع أن تتصوّر ذلك؟ كلّهم، وأيديهم مرفوعة هكذا». ووضع يديه على رأسه وراحتاه موجهتان نزولاً؛ ففاجأ جميع روّاد المطعم. ثم أردف قائلاً: «ولكن، كان علينا أن ننهي الحرب عندئذٍ في عام ١٩٨٢. فقد عرض صدّام وقفاً لإطلاق النار، كما قدّم السعوديون ٧٠ مليون دولار لمعاودة البناء. ولو توقّفنا عن المحاربة إذ ذاك، لأسقط «صدّام» شعبُه. إنما كانت هناك جماعة أخرى يصغي إليها الإمام. ولذلك قرّر الخميني متابعة الحرب حتى القضاء على صدّام، والقتال من أجل

النجف وكربلاء، واحتلال البصرة. وكانت تلك غلطة كبرى. فقرّرتُ أن أتباعد إذ ذاك عن شؤون الحرب، وتسلّمت عملاً في طهران. واستمرّت هذه الحال ستّ سنوات؛ حتى أننا لم نربح الحرب؛ بل استعدنا الأراضي التي خسرناها، عندما صار صدّام يواجهكم أيها الغربيون، بعد غزوه للكويت».

كان هذا صوتاً انشقاقياً فريداً. وإني أذكر أن الأموات يتكلّمون مع الأحياء أثناء الحرب، فيؤاخِذون كلّ مَن ينتقد المسار الحربي للنزاع. وقد كانت لحرس الثورة مجلّة داخلية اسمها «حارس الإسلام»، تُكرِّم الموتى الجدد بنصّ قرآني لا يردّ «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربّهم يُرزقون». وقد كتب «حسين تشير ـ زارين» قبل موته بقليل عند شطّ العرب بلغة فارسية مهلهلة: «أُرسلتُ إلى الجبهة لأوّل مرّة ـ وكنتُ قد سمعتُ عن الهجوم، وأردتُ أن أشارك فيه. . .». ثم يتوجّه بالخطاب إلى والدته، وكأنّه يكلّمها من الآخرة، قائلاً: «أمّي العزيزة، إن ابنكِ تحرَّر من قيود الدنيا، والاستعباد، والخيانة. . . أجل، يا أمّي العزيزة، لقد صار ولدكِ عبداً للإسلام، وبلغ حدّ الطاعة، والتقى، والإخلاص ـ إن شاء الله».

كان عليّ أن أتعوّد على قراءة هذه الوصايا مع ما تتضمّنه من معتقدات تدلّ على أن كاتبيها يعتقدون أنهم على حقّ. «فأبو الحسن إسحاق» كان يبدو مبتهجاً في وصيّته، إذ يقول قبل موته: «ليس الاستشهاد مرتبة يستحقّها أيّ كان. . . إني أكتب هذه الوصيّة مع أني أرى إمكان استشهادي بعيداً ـ ولكن لا عار على المرء إذا كان لديه هذا الطموح. لست خائفاً من يوم البعث. . . وعندما تُراق أوّل قطرة من دم الشهيد، تُمحى له كلّ ذنوبه. . . نعم يا أعزائي، إن الموت سيدركنا جميعاً في آخر الشوط ـ فلا أحد يخلد في هذا العالم ـ ولماذا نضيع هذه الفرصة الذهبية؟».

إن «خرمشهر» يعاد بناؤها الآن، فتُقام فيها مدارس جديدة، ومستشفيات ومصانع جديدة، وأبنية سكنية. لكن المرفأ لا يزال أطلالاً، والسفن الغارقة فيه تسدّ النهر. وقفت إلى جانب المرفأ، قرب باخرة تُدعى: «رايس فيشر»، مسجّلة في «بارو ـ إن فورنس»، وشرعت آخذ صوراً، فتصدّى لي شرطيان يرتديان

قميصين أسودين. وهُرع موظف الوزارة من سيّارة «غلام رضا» لينقذني، قائلاً بصوت معتدل: «إنهم يرتابون بالأجانب الذين يحملون آلات تصوير؛ لقد تضرّر أهل هذه المدينة كثيراً».

طفت بأحد المستشفيين الجديدين، حيث أخبرني طبيب بأن الحرب «ضرورية» في حياته، كما هي في حياة جميع الذين حاربوا. قال: «كنت في الحادية والعشرين من عمري في ذلك الوقت، وكان لي صديق يُدعى «حسين صدقات» من «تبريز». لقد كان «أذرياً»، وصديقاً وفيّاً، ومستقيماً. وفي يوم من الأيام، بينما كنّا نتقدّم، أُصيب في رأسه، ودفق دماغه عليّ، إذ إنني كنتُ بجانبه. لم أستطع أن أصدق ذلك. لم تكن هناك كلمات وداع، لم يكن هناك شيء. ثم أُصبتُ أنا أيضاً في كتفي بشظيّة من قذيفة مدفع «هاون» عياره ٨٠ ملم. كنتُ شبه فاقد للوعي في البدء، ثم جاءني الألم فيما بعد». ورفع قميصه ليريني الجرح. وقد فعل مثل ذلك أمامي الرجالُ عبر إيران كلّها، كي أعاين جروحهم في الذراعين، والرقبة، والساقين. وقد تكلّم معي أحدهم بفكٍّ اصطناعي، بينما كان يسعل آخر وهو يتكلّم؛ إذ إنه تعرّض للغاز السامّ. ولكن، عندما سألت الطبيب عمّا إذا كان الأمر يستحقّ كلّ هذا العناء ـ بالألم، والمعاناة، والتضحية ـ أشرق وجهه، وقال: «طبعاً، كنّا ندافع عن أراضينا وعن تراثنا الإسلامي. وكنّا في أشدّ حالات الغضب والغيظ إزاء أعدائنا».

وكان هذا ما شعر به شاعر «دزفول» المسمّى «غايزار أمين پور» عندما كانت مدينته تحت وطأة القصف الجوّي. وتبدو قصيدته أقرب إلينا من غيرها، تخالطها الضغينة وحتى التهكّم:

«أردتُ أن أكتب قصيدة عن الحرب،
ولكنّي علمتُ أن ذلك غير ممكن؛
إذ كان عليّ أن أهجر قلمي،
وأستعمل سلاحاً أمضى منه.
إنّ قصائد الحرب يجب أن تُكتب بمواسير المدافع،

وأن تتحوّل الكلمات إلى رصاصات...
عندما، يكون هناك دائماً إنذار أحمر،
وصفّارات إنذار لا تفتأ تنتحب،
فوق جُثث لم تُكمل نومَ ليلتها،
حيث تحوم النفّاثات التي تكره الضياء،
لتقصف مخادع نومنا وستائرنا...
لا يمكننا أن نثق حتى بالنجوم، فقد تتجسّس علينا،
ولن نتعجّب من أن ينفجر القمر...»

ويتّخذ مثل هذا الغضب أحياناً طابعاً سياسياً. فهذا «يحيى فوزي»، البالغ الآن من العمر ٣١ سنة، والذي كان عمره ٢٤ سنة عندما قاتل في الحرب، يقول في الحلقة الفلسفية التي عُقدت بجامعة طهران:

«علّمتنا الحرب أن الغربيين الذين يتشدّقون بالحرية والحقوق الإنسانية، يستبعدون هذه الأفكار في سياق حربنا. لقد كان ذلك درساً لنا. وعندما غزانا صدّام، كنتم (أيها الغربيون) صامتين؛ ولم تصرخوا استنكاراً، كما فعلتم عندما غزا الكويت بعد ذلك بعشر سنوات، إذ ملأتم الدنيا حديثاً عن حقوق الإنسان، وكرّستم لذلك دعاية واسعة».

فقاطعه طالب آخر من الجامعة يلبس نظّارة، بقوله:

«في ثورتنا التي قامت عام ١٩٧٩، رفعنا شعارات ضدّ دكتاتورية الشاه. ولكنّ الحرب مع العراق أكملت هذه العملية لبناء الأمّة. فعلى قمّة تلّة تتعرّض للقصف، كان لدينا شباب من «بلوشستان» و«كردستان» وغيرها من المقاطعات يعملون معاً في الدفاع عن التلّة ذاتها. وكان لدينا كثير من المهاجرين بسبب الحرب، مثل الأكراد

الذين طردهم العراقيون من ديارهم، فهربوا إلى طهران وتبريز. وحصل تفاعل واندماج «إثني» مع سائر جماهير الأمّة. وفي هذه الحرب تركونا وحدنا منعزلين، ولم يعطف علينا أحد، فقلنا: لا بأس بأن نكون وحدنا. وتعلّمنا الكثير بعضنا من بعض؛ وتوحَّدنا لأوّل مرّة».

ومما كان شائعاً تلك الفكرة القائلة بأن الحرب مع العراق جاءت تكملة للثورة الإسلامية في إيران ـ بل كانت جزءاً لا يتجزّأ منها ـ فالطبقات الوسطى الإيرانية التي تجنّبت المشاركة في الحرب قدر الإمكان، صارت خارج ذلك التاريخ. وأبناء الطبقات الميسورة استعملوا سمات سفرهم، وقضوا زمن الحرب في كندا، أو الولايات المتحدة الأميركية، أو بريطانيا، أو فرنسا؛ لأنهم اعتبروا تلك الحرب نوعاً من الجنون. قال لي أحدهم ويبلغ من العمر ٢٩ سنة، أثناء إحدى الحفلات في طهران: «أمضيتُ زمن الحرب في كندا، وشاهدتها على التلفزيون، وسُررتُ لأني كنت بعيداً عنها». لم أستطع مناقشة منطقه، لكني تساءلت عن عُزلة الميسورين وحراس العهد القديم، وأسفهم لقيام الثورة، واستنكافهم عن الدفاع عن وطنهم، ومدى انقطاعهم عن الانتماء إلى بلادهم.

ولكنّ الأموات، لا الأحياء، هم الذين يتكلّمون بفصاحة. ففي جنوبي طهران مقبرة تُدعى «بهجة الزهراء»، غير بعيدة عن ضريح الخميني الذي أرسلهم إلى الموت، يرقد فيها عشرات الآلاف من الإيرانيين الذين عادوا أشلاء موضوعة في أكياس لدائنية من ساحة الحرب. فهنا جمجمة أو اثنتان مع بطاقة تشير إليهما، استخرجهما الحفَّارون من ميدان المعارك على الجبهة الغربية. ولا يزال حفر القبور الجديدة جارياً لإيواء مزيد من الأجساد التي تُكتشف.

ليست هذه القبور كمراقد موتانا خلال الحرب العالمية التي تعلوها شواهد بسيطة، بل تُزيّنها ألواح من الرخام محفورة بالكلام والصور. مع صور فوتوغرافية، وأعلام، وصور أخرى أُخذت للقتلى بعد الموت مباشرة بواسطة رفاقهم الجزعين من استمرار سقوط القذائف حولهم، إنها صور لأجساد يغطيها الدم. وقد رأيت مثل ذلك في «شازار» الواقعة في الجبال فوق طهران؛ لكن

هذه المقبرة مَجَرِّية ضخمة من طراز مقابر حرب «ذهب مع الريح»؛ إنها مدينة الأموات الإيرانية. إنما كانت هناك نافورة تنفث في الهواء ماء «أحمر بلون الدم». وهي تقابل صَدَفة صدّام ونُصبَه الإسمنتي المقاميْن في بغداد؛ مع أن كلتيهما تنضحان بالقداسة نفسها وبالإعتام ذاته، وبالطريقة الخاصّة بكل منهما.

هنا يرقد «نعمة الله حسَني» المولود في أول آب/ أغسطس ١٩٦٠، والمستشهد في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر عند «بنجوين». وهو طالب في كلّية الضبّاط. وقد كُتب على قبره: «عليك أن تضحّي بنفسك قبل أن تتمتّع بالحب ـ أي يجب عليك أن تتبع الإمام الحسين». وهناك صورة مطبوعة على قماش، تظهر «حَسَني» شاباً مع لحية صغيرة مشذَّبة. وهنا يرقد «محمد نَوْروزبيه»، المولود عام ١٩٦١ والمستشهد في ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٨٦ بساحة الاستشهاد في «فاقه».

وقد كتب العديد من هؤلاء الشباب رسائل وداع إلى عائلاتهم قبل أن يموتوا بقليل. وهي خطابات بلاغية طويلة، تبدأ بمدح زاهر للخميني ثم تتفرّع في أواخرها إلى القضايا الانسانية، عندما يتمنّون الخير لأهلهم. كتب «محمّد ساريخوني»: «آمل أن أكون قد قمتُ بواجبي في تضحيتي بدمي لأجل الإسلام». وهو مولود عام ١٩٦٣. ومقتول في غمار الحرب بتاريخ ١٧ آذار/ مارس ١٩٨٤، عند «پيرانشهر» في كردستان إيران. ثم يستأنف قائلاً:

«أهدي أحسن تمنّياتي إلى أبي وأمّي، وأخواتي، وإخوتي، وأصدقائي. آمل أن يكونوا راضين عني. وأطلب من الله تعالى أن يحفظكم، ويسامحكم، ويبارككم. وأقول لزوجتي: صحيح أن حياتي كانت قصيرة، ولم أستطع أن أحقّق ما نويت أن أزوّدكِ به. ولكني آمل أن يكون هذا الوقت القصير الذي جمعنا ذكرى رائعة لكِ. اعتني بولدي، لأنه ذكرى ـ لكِ ولعائلتي أيضاً».

إنّ هؤلاء الرجال يتكلّمون من بين الأموات. فهذا «حسن جاهان بارتو»، الذي كان عمره عشرين سنة عندما قُتل في «مايماك»، كتب إلى أهله يقول: «أنصح أبي الكريم وعائلتي أن لا يبكوا إذا استشهدت ـ لا تحزنوا لئلّا تُزعجوا

روحي». ولكن العائلات تبكي فعلاً، وهي تصلّي عند القبور، كل يوم جمعة بعد الظهر؛ كان أولئك يأكلون أيضاً قرب الموتى من أبنائهم وأزواجهم، وإخوتهم.

كان «مصطفى أزادي»، «الباسيجي» المتطوّع، يحارب في صحراء «شلمشه» عندما بلغه نبأ مقتل ابن أخيه الحاجّ «علي الجسماني». قدَّم لي التمر في المقبرة، وقال: «كان مصطفى من أوائل الذين انضمّوا إلى حرّاس الثورة، وقد حارب حتى استشهد. لقد أصابته قذيفة. وكنتُ آنذاك في الجبهة، عندما وصلني النبأ. كنّا متقاربين؛ ولكني لم أستطع أن أرى جسده. فبمَ أفكر الآن؟ ـ إن الشهداء، جميعهم، حمَّلوا كاهلنا مسؤولية الدفاع عن ديننا وإيماننا».

وقد يبدو كلّ هذا كأمورٍ غير متوافقة وغير منسجمة بالنسبة إلينا، معشر الغربيين، وإلى حدٍّ كبير مثلما جاء في كتاب «في حقول «الفلاندز» لـ «جان ماكراي»، الذي يحذّر الأحياء بقوله: «إذا تخلّيتم عن إيمانكم بنا، نحن الأموات، لن نستطيع أن ننام، مع أنّ الأفيون لا يزال ينمو/ في حقول الفلاندز». واليوم نرى في هذه «الاستشهادية» (Martyrocracy) ما يلي: دكتاتورية الأموات، كمفهوم مضادّ للحُكم. إننا نفكّر الآن في الهدر بدلاً من أن نفكّر في المسؤولية. وقد شارك «روبرت باري»، الجندي البريطاني، أثناء الحرب العالمية الثانية، مع قوّات الاحتلال في بغداد والبصرة في الانقلاب على «رشيد عالي الكيلاني» عام ١٩٤١. وكتب إليّ عام ٢٠٠٤ مبدياً بعض ملاحظاته عن «الكذبة» القائلة بأنّ الجنود القتلى «أعطوا حياتهم لبلادهم»، إذ قال:

> «فعل بعض الرجال الرائعين ذلك؛ إذ إنّهم تطوّعوا للقيام بمهامّ انتحارية. بينما وهب آخرون حياتهم لإنقاذ رفاقهم. ولكنّ أكثريّتهم كانت تأمل الرجوع وهي على قيد الحياة. لكنّ الموت أخذهم دون سؤال عمّا إذا كانوا يرغبون في العطاء. لقد فقدتُ ابن عمّ لي في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. كان أكبر قليلاً من صبيّ، شبه متمرّن، يمشي قُدماً إلى صفوف الجبهة الأمامية. وبعد وصوله، خالجه الفضول، فرفع رأسه فوق الحاجز لينظر، وداهمه إذ ذاك قنّاص

ألماني. فلم يبقَ له مجال للاختيار، كما قال هاملت. فالعطاء أو عدم العطاء هو المسألة».

وكنت قد اصطحبت «مجتبى صفائي»، وهو أسير الحرب السابق إلى مقبرة «بهجة الزهراء»، ليترجم لي ما كُتب أمام كل قبر. كان يقوم بذلك ببطء متأثراً بتلك القصص المكتوبة. ومنها وصف «بهرم مدني» لابن عمّه المتوفّى «أسكار تولير تاليري»، عند «الماعوط»، على أنه «مأخوذ بحبّ الله». بينما رأى «محمّد جونسيان» ولده «سعيد» قبل موته بعشرة أيام، وروى: «أن أمّه سألته إذ ذاك، عندما كنا نتحدّث في البيت: «لماذا تعود إلى الجبهة ثانية؟»؛ فأجابها ابني بأنه يدافع عن وطنه. فأردفت قائلة: «ولكن قد تنفعنا أكثر بوجودك هنا؟»؛ فردّ بقوله: «ما أحلى أن يكون المرء في بيته؛ ولكن العدوّ صار في بلادنا، وعلينا أن ندفعه إلى الوراء». فوافقتُ على كلامه. وكان هناك رجل مسنّ له لحية غبراء؛ وقد أخبرنا بأنه فقد ابنه البالغ من العمر ١٩ سنة، واسمه «هرمز أليدادي» الذي قُتل في حقل ألغام عند «داشدابوز»؛ وقال: «إنها مشيئة الله. وإننا نشكر الله، لأنه حارب من أجل الإسلام، ومن أجل بلاده».

أما «محمد تاليبلو» فقد تسلّم رُفات ابنه «مجيد» بعد عام ١٩٩٤. وهي عبارة عن «عدّة عظام» نبشوها من الطين عند «بنجوين». قال: «لست منفعلاً، فقد ذهب ليدافع عن الإسلام وعن بلاده. وكان ذلك عام ١٩٨٥، وقد سمعت أنئذٍ أنه أصيب. وقد جاء صديق له كان معه في الجبهة ليراني، وقال: «رأيت مجيداً يسقط، ولكني لم أعلم إذا كان قد قضى نحبه أم لا». وكان ذلك خلال هجوم مضادّ قام به العراقيون. فقد مات برصاصة واحدة».

وقد كتب الشاعر «محمّد رضا عبد المالكيان» وداعه الأخير في قصيدة اسمها: «الجواب»، يقول فيها:

سألني ابني: «لماذا تحارب؟»،

وكنتُ أربط شريط حذائي،

ورشّاشي على كتفي، وزادي على ظهري،

وأمّي تحمل الماء والمرآة والقرآن بيدها،

وتمنح روحي الدفء والقوّة،

وعاد ابني يسأل: «لماذا تحارب؟»

فقلت له من كلّ قلبي:

«كيلا يسلبك العدوّ النور أبداً».

مضى على الحرب سبعة أعوام حتى الآن. وصار الدبلوماسيون الإيرانيون يزورون بغداد. ولكنّ أبناء الثورة ـ الذين عادوا إلى ديارهم بعد الحرب ـ لم يجدوا الحياة المدنية لائقة بالأبطال. فهم يُشهِّرون الآن غاضبين بالفساد المستشري في «المجتمع المدني» للرئيس خاتمي. إنما عادوا كما يبدو، ووجدوا إيمانهم، بدلاً من أن يفقدوه، بعد نشوة الاستشهاد ـ مستفظعين مذابح الحربين العالميّتين، وخائفين من وقوع ضحايا قليلة عندما تدخّلنا، نحن الغربيين ـ في البوسنة، بعدما لملمنا خسائرنا في العراق ـ مذعورين، مصدومين، مردودين، نندب ضيعان الشباب والتضحيات، وتدمير الأرواح الشابّة. لكنّ الإيرانيين الذين شهدوا حرب الخليج التي دامت ثماني سنوات يحبّون ذلك، لا للبرهنة على إيمانهم، بل لإكمال عمل الثورة.

أما بالنسبة إلى الجنود العراقيين، فقد بقيت الحرب لعنة من اللعنات. فـ «حسين فاروق»، أحد أفراد شرطة الميليشيا العسكرية يتذكّر وقف إطلاق النار عندما قال أحد الضبّاط لجنوده إنهم إذا أرادوا أن ينتقموا لموت أحبّائهم، فهذا هو الوقت المناسب لذلك. قال: «انبرى أحد جنودنا الذي فقد أخاه في الحرب، وذهب إلى مخيّم للأسرى الإيرانيين، واختار أحدهم، وأطلق عليه النار. وكان الرجل الوحيد الذي فعل ذلك». ويتذكّر فاروق يوم كان يحرس بدوره مجموعة من الأسرى الإيرانيين. قال: «كانوا جميعاً واقفين معاً. وطلب منّي أحدهم بعض الماء، فأعطيته إيّاه طبعاً. لكنّه أخذه ومزج بعضه بالتراب، وابتلع المزيج، وأنا في غاية الدهشة. ثم مشى بعد قليل واجتاز موقع الحرس، فركضت وراءه أسأله عمّا يفعل. فأجابني بحَيرة: «ماذا؟ هل ما زلت تراني؟».

وروى «فتحي داوود موفق» المصوّر العراقي الذي التقط شريطاً للضحايا الأولى التي سقطت عند الحدود عام ١٩٨٠، أنه وجد خبراته قد صارت مُقعدة، نظراً لاستمرار الحرب. قال: «نذهب إلى مركز القيادة عند الجبهة الوسطى، فيقولون لنا إن المعركة الآن هي في «الفقر»، ويدلّوننا على الاتجاه؛ فنذهب، ونجد لأنفسنا فجوة بين أكياس الرمل نوجّه عبرها آلات التصوير. لقد رأيت العديد من الشهداء من الطرفين - وإني أعتبر القتلى من العراقيين والإيرانيين شهداء». وقد صوّر موفّق الأسرى الإيرانيين، قال: «كان بعضهم من اليافعين في عمر الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وكانوا قد اقتحموا حقول الألغام بدرّاجاتهم النارية، فقُبض عليهم». وقد رأى موفّق عملاً بطولياً رفع من معنوياته؛ فقد اندفع جندي عراقيّ إلى ساحة المعركة تحت القصف، لإنقاذ إيرانيّ مصاب، وحمل عدوّه على كتفه، وجاء به إلى برّ الأمان في الخطوط العراقية. لكن «موفّقاً» سيرى أشياء أكثر رعباً من ذلك.

فخارج البصرة، كان هناك ضابط استخبارات عراقي يصرخ في أسير إيراني طالباً منه أن يقرّ بموعد بدء الهجوم الجديد. «لكنّ الإيراني لم يتكلّم؛ فهدّده ضابطنا بقطع أذنه، إذا لم يُدلِ بالمعلومات المطلوبة، وتدخّلنا نحن، معشر الصحافيين، حتى لا يوقع به هذا القصاص، فقيل لنا إن هذا ليس من شأننا. ولمّا بقي الإيراني صامتاً، قطع له الضابط أذنه؛ فبدأ جميع الأسرى الإيرانيين بالكلام». وقد كتب موفّق يقول:

> «كنا نقبض ثلاثة دنانير لكل يوم نقضيه في الجبهة - وكان ذلك يساوي آنذاك تسعة دولارات - فندفع منها ثمن الطعام في فندق يقع خلف الخطوط. كنّا نعود مُرهقين، ونبدأ نشرب «الجن»، و«التونيك»، و«الويسكي». وكان معنا مصوِّر آخر، أحد أصدقائي، «طلال فانا». كان قلقاً لعدم تناوله طعام الفطور. وكان قد شرب من «العَرَق» العراقي ليكتسب قوّة قبل الموت؛ فهو يريد أن يصبح ثملاً بكل معنى الكلمة، قبل الذهاب إلى الجبهة، لئلّا يموت، كما يتوقّع - لكنه بقي على قيد الحياة».

وكان العديد من الجنود يشربون، ففي المحمّرة (خرمشهر)، جُرح أحد مصوّرينا للتلفزيون «عبد الزهرة» في يده، وفقد أحد أصابعه. كما أصيب «عبّاس» أحد رجال التصوير، في صدره. وفي عام ١٩٨٧، قُتل «عبد الزهرة» وهو يصوّر في الجبهة عند موقع «قلاديس»، على تلّة تُسمّى «جبل بولغا». كما قُتل «عبّاس» في «الفاو» عام ١٩٨٨، خلال المعركة الأخيرة التي جرت هناك».

وفي معركة «شلمشه» انعزل موفّق بين خطوط الجبهة العراقية والإيرانية، في مَصيدة مع عدد من الجنود العراقيين الذين كان عليهم أن يستسلموا. وكان مختبئاً في حُفرة مع زميله الشمل «طلال». وكانت الأوامر ـ أوامر صدّام الشخصية ـ قد صدرت ليطير في مروحيّة، كي يصوّر عن كثب المعارك بين الجنود العراقيين والإيرانيين خارج البصرة. قال: «لقد كانوا قريبين جدّاً بعضهم من بعض، إلى درجة القتال بالسلاح الأبيض؛ وكنّا نستطيع أن نميّز بين الشهيد العراقي والشهيد الإيراني. وكان صدّام قد أمرني بأن آخذ معي شريطين على بكرتين من طراز «أريفلكس» (Arriflex)، فاستخدمتهما حتى آخرهما، وأعطاني صدّام فيما بعد ثلاثة آلاف دولار وساعة». وقد وجد موفّق نفسه في الكتيبة العراقية ذات الرقم ٦٠٣ من الجيش العراقي عام ١٩٨٧، وهو يتسلّق جبلاً في «كردستان» ليصوّر مشهداً للانتصار العراقي. لكنّه تاه على الجبل في الظلام، ووقع على حقل من الموتى العديدين؛ ولم يستطع أن يميّز القتلى العراقيين عن الإيرانيين.

وفي عام ١٩٨٥، فقد موفّق أخاه؛ قال:

«كان أحمد في التاسعة والعشرين من عمره. وكان له رفيق له زوجة على وشك الوضع في بغداد، فتطوّع أحمد ليحلّ محلّه بينما يسافر الصديق ليرى طفله القادم. وكان ذلك في الخامس من أيار/مايو ١٩٨٥. وكان أخي إذ ذاك يرافق قافلة تنقل الذخيرة إلى الجبهة، وقد تعرّضت لكمين؛ ولم نعلم أكثر من ذلك. ذهبت إلى الجبهة هناك، وتكلّمت مع قائده المقدّم رياض؛ فقال إنه لا يعرف ماذا

حدث، وماذا كان مصيره. ربّما حصل هناك انفجار. ولكننا لم نتسلّم شيئاً: لا أوراقاً، ولا تأكيدات؛ بل لا شيء. وكنت في بغداد عندما انتهت الحرب. فسمعت إطلاق رصاص في الهواء. وكان الناس يقولون إن الحرب انتهت. ذهبت لتناول قليلاً من الويسكي والجعة. وظننتُ أن الناس سيصبحون سعداء، وسنبقى على قيد الحياة. فكّرت في مسألة أخي ـ إذ كان لدينا أمل بأنه سيعود، إذا كان بين الأسرى. انتظرنا سنين بعد سنين، ولم يأتِ أحد. لقد ضاع. لم تكن هناك رسالة، بل لا شيء. وكان أخي متزوّجاً ولديه بنتان وصبيّ؛ ولا تزال عائلته تنتظر عودته، وتتسقّط أخباره. ولما لم يكن هناك جسد، ولا تفاصيل عن موته، لم يوضع اسمه على نُصب الحرب التذكاري».

وبقي موفّق على قيد الحياة ليصوّر غزو العراق للكويت، ومن ثمّ جاءت العقوبات، ولم يعد يقدر أن يشتري أفلام «الكوداك» ـ وهو ما زال يعتقد أن الفيلم يعطي تحديداً لا يوفّره «الفيديو» ـ فانحصر تسجيله على الأشرطة في أفلام وثائقية عن إعادة البناء؛ حتى عُيِّن من جديد مصوّراً للأخبار، لدى الغزو الأميركي ـ البريطاني لبلاده عام ٢٠٠٣. لكنّه بقي حتى اليوم، تنتابه الهواجس بخصوص الوحشية التي شاهدها، ولا سيما بشأن التجربتين المريرتين اللتين عاناهما خلال الحرب مع إيران. وقد تكبّد الجيش العراقي خيبة مريرة على جبل «الماعوط» في السليمانية بشمالي العراق، عام ١٩٨٧. قال:

«كانت هناك شرطة عسكرية على الطرقات تحت الجبل، وكانت لديهم أوامر صريحة من صدّام مفادها: إعدام كلّ من ينسحب من القتال. ولسوء الحظ، أُلقي القبض على ثلاثة جنود، ووضعوا قيد الإعدام. لم يكن عليّ أن أشاهد ذلك؛ لكنني كنتُ شاهداً. لم أستطع أن أصوّر. وكانت أعمارهم بين ٢٠ و٢٦ سنة. وكلّهم قالوا الشيء ذاته: «انهار لواؤنا ـ فانسحبنا مع قادتنا». وكانوا كلّهم يبكون. لقد أرادوا أن يبقوا على قيد الحياة؛ ولم يصدّقوا أنهم

سيعدمون، على يد فرقة للإعدام مؤلّفة من ستة إلى سبعة جنود. وقد قُيّدت أيديهم وراء ظهورهم؛ واستمرّوا في البكاء والصراخ والعويل. حتى قُتلوا وهم يُعولون. ثم تقدّم رئيس فرقة الإعدام وأطلق النار على كلّ واحد منهم في جبينه. ويسمّون ذلك «رصاصة الرحمة». فتقيّأتُ».

أجل، إنها «رصاصة الرحمة». ما أسرع ما تعلّم العراقيون منّا. وحدث أيضاً خارج البصرة أن اتُّهم أحد الجنود بالفرار، وكان موفّق شاهداً أيضاً على ما حدث:

«لقد كان شابّاً صغير السنّ؛ وقد حاول مراسل جريدة الجمهورية أن ينقذه، إذ قال لقائده: «إن هذا مواطن عراقي؛ ويجب أن لا يموت. لكنّ القائد أجابه: «هذا ليس من شأنك - إبقَ بعيداً عن هذا الأمر». وهكذا كان مصير هذا الشابّ أن يُقتل على يد فرقة إعدام، بعدما عُصبت عيناه. كلّا، لم يبكِ، لكنّه أُعدم. قال إنه أب لأربعة أطفال. وناشدهم أن يبقوا على حياته. قال: فمن يُعنى بزوجتي وأطفالي؟ أنا مُسلم. أرجوكم فكّروا في الله تعالى - ساعدوني، إكراماً للّه، إكراماً لصدّام ساعدوني، لديّ أولاد. أنا لست مجنّداً، أنا في الاحتياط. لم أهرب من المعركة. دُمِّرت كتيبتي». لكنّ القائد أطلق عليه النار شخصياً - في الرأس وفي الصدر؛ ثم أشعل سيجارة. وتجمّع الجنود الآخرون من الجيش الشعبي، فصفّقوا وصاحوا: «يعيش صدّام».